مركز دراسات الوحدة العربية



سلسلة أطروحات الدكتوراه (٨٧)

أصول التحديث في اليابان
١٥٦٨ ـ ١٨٦٨ (*)

الدكتور محمد أعفيف

(*) في الأصل، أطروحة قدمت لنيل درجة دكتوراه الدولة في الآداب تحت العنوان نفسه. نوقشت وأجيزت في جامعة محمد الخامس ـ الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، عام ٢٠٠٥. ترأس لجنة الفحص والمناقشة للأطروحة الدكتور عبد الله العروي.

أصول التحديث في اليابان

١٥٦٨ ـ ١٨٦٨

مركز دراسات الوحدة العربية



سلسلة أطروحات الدكتوراه (٨٧)

أصول التحديث في اليابان

١٥٦٨ ـ ١٨٦٨ (*)

الدكتور محمد أعفيف

(*) في الأصل، أطروحة قدمت لنيل درجة دكتوراه الدولة في الآداب تحت العنوان نفسه. نوقشت وأجيزت في جامعة محمد الخامس ـ الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، عام ٢٠٠٥. ترأس لجنة الفحص والمناقشة للأطروحة الدكتور عبد الله العروي.

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

أعفيف، محمد

أصول التحديث في اليابان، ١٥٦٨ ـ ١٨٦٨ / محمد أعفيف.
٥٧٤ ص. ـ (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٨٧)
ببليوغرافية: ص ٥٤١ ـ ٥٥٣.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-82-332-4
١. التحديث ـ اليابان. ٢. اليابان ـ تاريخ ـ عصر توكوغاوا (١٥٦٨ ـ ١٨٦٨). أ. العنوان. ب. السلسلة.

952.025

العنوان بالإنكليزية

The Origins of Modernization in Japan
1568-1868

by Mohammed Aafif

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، آب/أغسطس ٢٠١٠

إهـــــداء

إلى ذكرى والدتي

للا بتول (١٩٢٨ ـ ٢٠٠٠)

رمز التضحية ونكران الذات

شكــر وتقديــر

أود تقديم جزيل الشكر والتقدير إلى أعضاء اللجنة، الذين شاركوا في مناقشة هذا العمل، وتجشموا عناء قراءته، وأغنوه بملاحظتهم القيمة. وفي مقدمة هؤلاء أ. عبد الله العروي، رئيس اللجنة، الذي تشرفت بالدراسة على يديه والاستفادة من آرائه ومؤلفاته القيمة، وأ. عبد المجيد القدوري، الذي واكب هذا العمل، والأساتذة سعيد بنسعيد العلوي، وحسن أوريد، وعبد الحي المودن.

وأغتنمها مناسبة للتعبير عن امتناني وشكري لمؤسسة اليابان (The Japan Foundation)، التي مكنتني من الإقامة في اليابان، وأمدتني بعدد من الكتب القيمة التي ساعدت في تحرير هذا العمل. ولا يفوتني أن أحيي ذكرى أ. سعد كازوو أوتسوكا، الذي غادر هذه الدنيا، فهو أول من عرّفني على اليابان وثقافتها، وواكب هذا العمل في كل مراحله إلى أن وافته المنية. كما أرسل تحية شكر إلى عدد من الزملاء اليابانيين الذين شجعوني خلال مراحل هذا البحث وأرشدوني بملاحظاتهم. والحال أني عاجز عن ذكر كل أولئك الذين التقيت بهم في اليابان والمغرب، وهم كثر، غير أني أخص بالذكر أ. هوريوشي ماساكي، الذي ظل صديقاً وفياً ومشجعاً، وأ. كيسايتشي ماساتوشي، الذي استضافني في واحدة من أعرق جامعات طوكيو. كما أعبّر عن امتناني لعدد من الطلبة اليابانيين، الذين أضحى البعض منهم أساتذة في جامعات مرموقة، أذكر منهم ساتو كينتارو وهياشي هيرويوكي وسايتو تسويوشي وإينا ـ أويي هاروكو، الذين كان لهم فضل الأخذ بيدي، وتذليل صعاب اللغة اليابانية، ومساعدتي على فهم ما استعصى عليَّ من مصطلحات ومفاهيم.

أود أيضاً أن أتقدم بالشكر والتقدير لعدد من الأساتذة الذين جمعتني بهم صلة الصداقة والزمالة في كلية الآداب في الرباط، ولم يبخلوا عليَّ بالملاحظات

والتشجيع: أ. سعيد بنسعيد العلوي، صديق العمر، الذي كان دوماً خير ناصح ومعين؛ أ. إدريس بنسعيد، الذي رافقني خطوة خطوة في هذا العمل ويعجز اللسان عن شكر فضله؛ الأساتذة علي المحمدي وعبد الرحيم بنحادة وعبد الحفيظ الطبايلي وحمو النقاري وأمينة لمغاري وجامع بيضا وتوفيق أكومي وعبد الأحد السبتي ومحمد المنصور، وغيرهم. والشكر موصول أيضاً للأستاذين عبد اللطيف كمال وعبد الإله بلقزيز اللذين حرصا على نشر هذا المؤلف.

أما أفراد أسرتي الصغيرة، فإنني أعتذر لهم عما تسببت لهم من الحرمان. أشكر فخيتة، رفيقة العمر، وآدم على صبرهما ومساندتهما، وأمل على ما قدمته من مساعدة لا تقدر بثمن؛ فلولاها لما كان هذا العمل ممكناً.

المحتويـات

القسم الأول
عصر توكوغاوا
المجتمع ومؤسسات السلطة

القسم الثاني
عصر توكوغاوا: بوادر التحديث

قائمـــة الجـــداول

خلاصة الكتاب

تستهدف هذه الدراسة البحث في الأسباب البعيدة والقريبة التي هيأت اليابانيين، في نهاية القرن التاسع عشر، للانخراط في حركة تحديث عجز «غيرهم» عن الدخول فيها أو تحقيق المرتجى منها. نعلم أن الميجي وعصره مثار إعجاب شديد من جانب كل الذين ينظرون في تاريخ اليابان المعاصر؛ فهناك إجماع ـ يكاد يكون تاماً ـ على أن اليابان حققت، في فترة قصيرة تقل عن نصف قرن، نقلة نوعية كبيرة جعلتها تخرج من زمان التأخر والتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية المتقدمة لتغدو في طليعتها، بل ولتصبح أحد رموزها. هذه الطفرة الكيفية الهائلة التي عرفتها بلاد الميجي حملت البعض على الحديث عن «المعجزة اليابانية»، ودفعت البعض الآخر إلى اعتبار أن ما حدث فصل مع الماضي الياباني السابق على القرن التاسع عشر في عقوده الأخيرة، وإعلان «القطيعة» معه.

هل يتعلق الأمر حقاً، في عصر الميجي، بقطيعة مع العهود السابقة عليه؟

وهل يمكن، وإن بكيفية ضمنية عند البعض وصريحة عند البعض الآخر، إرجاع هذه النقلة أو الثورة المعرفية والاقتصادية إلى «اكتشاف الغرب»؟ أو بصيغة أخرى، هل اليابان مدينة كلية للغرب في كل ما وصلت إليه؟ وبالتالي ألا يوجد سبيل آخر للتحديث من غير النموذج الغربي؟

هل يجوز للمؤرخ، متى أحسن الاطلاع على الوقائع التاريخية، والمعطيات الاقتصادية، والعمرانية، والثقافية العديدة والمتنوعة، أن يكتفي في فهم هذه الطفرة الكيفية التي عرفتها اليابان المعاصرة بالحديث عن «معجزة»؟

إن هذا «الغير» الذي نشير إليه هو، عند زمر كثيرة من المثقفين العرب، الوطن العربي أو مناطق منه على الأقل (مصر في عهد محمد علي). والفرضية الأساسية، التي يشترك فيها عدد من المؤرخين والدارسين العرب المعاصرين،

تقضي بالقول إن تشابهاً شديداً كان موجوداً بين الإمبراطور الميجي ومحمد علي، بين اليابان ومصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ تشابه يتجلى في تقارب كبير بين البنى الاقتصادية والسياسية في كل من بلد الإمبراطور المقدس في الشرق الأقصى، وبين بلد عربي أو أكثر على ضفة البحر الأبيض المتوسط؛ تشابه مظهره في إرادة التحديث عند كل من الميجي ورجاله وعند محمد علي، وقوامه التطلع إلى ما وقع في بلدان الغرب الأوروبي، والفعل الملموس فيه إيفاد البعثات التعليمية، وإرسال الرحلات الاستكشافية إلى أوروبا؛ وتشابه يتخذ صوراً وأشكالاً أخرى كثيرة ومتنوعة، يتبارى أولئك الباحثون في الكلام عليها. تلك الفرضية الأساسية أمكنها أن تغذي فكرة عامة فحواها محاولة الإجابة عن السؤال المحير: لماذا استطاعت اليابان (وحالها مثل «حالنا» في منتصف القرن التاسع عشر) أن ترتقي ذلك الارتقاء الذي مكنها من إحداث «القطيعة» مع الأزمنة المتقدمة عليها، وأن تنهض النهضة التي نعلم، في حين إن مصر، على الخصوص، ظلت عاجزة عن ذلك؟

هذه الأسئلة وغيرها هي محور هذه الدراسة، التي ترمي أساساً إلى استجلاء الأسباب البعيدة والقريبة التي جعلت إصلاحات الميجي ممكنة من جهة، ومحققة لأهدافها من جهة أخرى.

لقد تبنينا في الإجابة عن الأسئلة مقاربة تعتمد تفسيراً ثقافياً بعيد المدى؛ فالتخلف والتقدم لا يحدثان فجأة بين عشية وضحاها. كما أن البحث في أسباب النهضة الأوروبية يتطلب الغور في تاريخ أوروبا ومتابعة مسارها منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر على الأقل، أي منذ نشأة المدن الإيطالية، والأمر ذاته يصدق على التحديث في اليابان؛ إذ يجب عدم الاقتصار في تفسير نجاح اليابان على نباهة زعماء الإصلاح وصواب قراراتهم وظرفية القرن التاسع عشر. فلولا وجود أرض خصبة، ما وجد مثل أولئك الزعماء، وما أينعت وأثمرت جهود الإصلاح. وفي السياق نفسه، لا يمكن إرجاع الإخفاق النسبي لإصلاحات محمد علي إلى عجز خلفائه عن متابعتها أو مساهمة التدخل الإمبريالي في إحباطها. فهناك أسباب شتى يجب أن يُبحث في جذورها في تاريخ مصر والمجتمع المصري قبل الإصلاحات، وفي نوعية الإصلاحات ومصدرها والهدف منها.

على الرغم من اهتمام الدارسين والسياسيين العرب باليابان منذ مطلع القرن العشرين، فإن حصيلة الكتابة الأكاديمية الرصينة تبقى هزيلة، مقارنة بالاهتمام

الزائد بالتجربة اليابانية واعتبارها نموذجاً كان في إمكان العرب الحذو حذوه. وباستثناء الكتابات الصحافية وشبه الصحافية، فإن جل ما كُتب عن اليابان في المجال الأكاديمي طوال قرن من الزمن قد اهتم أساساً بإصلاحات الميجي، ومقارنة النهضة العربية والنهضة اليابانية، بينما غض الطرف عن الأسباب الحقيقية لنجاح إصلاحات الميجي وجذورها التاريخية والاجتماعية. وفي اعتقادنا، إن للاهتمام بإصلاحات الميجي ما يبرره بسبب أن المثقفين العرب في مطلع القرن العشرين تطلعوا أساساً إلى هذه الفترة الحاسمة في تاريخ اليابان، واعتبروا ما حدث فيها نموذجاً وتجربة يجب تقليدها. غير أن إصلاحات الميجي لا يمكن أن تُدرَك إن هي أُخذت بمعزل عن تاريخ اليابان ككل، أو بمعزل عن مكونات اليابان الثقافية. كما لا يمكن أن تُدرس من خلال الاقتصار على أحداث القرن التاسع عشر. فحركة التحديث في اليابان لم تبدأ مع إصلاحات الميجي، بل مرت بسيرورة دامت قروناً قبل أن تتبلور في صورة إصلاحات تبدو أول وهلة «قفزة» نوعية في تاريخ اليابان.

انطلقنا في هذه الدراسة من فرضية أساسية ترى في إصلاحات الميجي ونجاحها حصيلة للتطورات التي عرفتها اليابان منذ القرن السابع عشر على الأقل، وجعلت اليابان تختلف عن باقي الدول الشرقية، وهيأت اليابانيين بشكل أو بآخر لتقبّل التحديث والانخراط في تبنّي مبادئ الحضارة الغربية. وكان من الضروري القيام أولاً بقراءة متأنية في تاريخ اليابان منذ نشأة الإمبراطورية اليابانية، وإدراك مقومات ثقافة اليابان، وتقييم مسارها التاريخي، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من الأسباب التي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في مسألة التحديث؛ إذ كان من الضروري، للإجابة عن الأسئلة المطروحة سلفاً، القيام بتركيب فسيفساء تاريخ اليابان المعقد والفريد، والتوفر على الحد الأدنى من المادة المعرفية والوثائق التاريخية والمراجع والكتابات القادرة على تفنيد الأطروحات الأساسية التي «تستعمر» تاريخ اليابان بصفة خاصة، والتاريخ المعاصر غير الأوروبي بصفة عامة. وهكذا قمنا **أولاً** بتفكيك وفهم ما استطعناه من مؤسسات المجتمع الياباني وثقافته وتنظيماته، والرجوع بالنسبة إلى كل مستوى من مستوياتها إلى عصورها المؤسسة الخاصة التي لا تنتمي بالضرورة إلى الحقبة نفسها أو الثقافة نفسها أو المجال نفسه. و**ثانياً** قمنا بتركيب ما حللناه على شكل قضايا وأطروحات شكلت بالنسبة إلينا الإطار الضروري لفهم الوقائع التاريخية، ومن ضمنها إصلاحات عصر الميجي.

أما الفترة التاريخية التي تم التركيز عليها كمبحث لهذه الدراسة، فهي الفترة

الحديثة في تاريخ اليابان الممتدة من منتصف القرن السادس عشر (١٥٦٨) إلى قيام إصلاحات الميجي (١٨٦٨). تُعرف هذه الفترة بعصر توكوغاوا نسبة إلى أسرة الساموراي التي حكمت في هذا العهد (ابتداء من ١٦٠٣)، كما تُعرف بعصر إيدو (طوكيو)، نسبة إلى العاصمة التي اتخذتها شجونة (حكم الشجون) توكوغاوا عاصمة لها، سيراً على النهج التقليدي الياباني في التحقيب بنسبة العصور التاريخية إلى العواصم التي تكون مراكز للسلطة. وقد تميزت هذه الفترة بالأمن والاستقرار الاجتماعي؛ فبعد قرن من الحرب الأهلية، نعمت اليابان بفترة سلم غير مسبوقة دامت زهاء قرنين ونصف قرن، وفيها تبنّى حكام اليابان مبادئ الكونفوشيوسية لتحقيق توازن اجتماعي وسياسي دقيق، إضافة إلى فرضهم سياسة عزلة وطنية حمت اليابان من التدخل الأجنبي. وقد تبلور الأمن والاستقرار الاجتماعي في تطور اقتصادي ملحوظ ونمو ديمغرافي غير مسبوق، وانتشار العمران، وتوسع المعرفة بالقراءة والكتابة، وازدهار دور النشر، إضافة إلى ازدهار ثقافة شعبية تمثلت في المسرح ومختلف فنون التعبير الأدبي والفني. واعتباراً لأهمية هذه الفترة في تهيئة المجتمع الياباني وإعداده لتقبّل التحديث في القرن التاسع عشر، ابتكر المؤرخون اليابانيون مصطلح «كينسيي» (Kinsei) لتوصيف هذه الفترة بغية إبراز هذا الدور بالذات. وقد تُرجم هذا المصطلح في الكتابات الموضوعة عن اليابان باللغة الإنكليزية بـ Early Modern، وهو ما نرى ترجمته إلى اللغة العربية بـ «بداية التحديث» أو «التحديث المبكر». وفي اعتقادنا، وحسب ما سنحاول تبيانه قدر المستطاع، أن هذه الفترة شكلت مرحلة مهمة في تاريخ اليابان لا يمكن إغفالها عند البحث في أسباب نجاح إصلاحات الميجي والانتقال السريع إلى الحداثة، بل هي في نظرنا القاعدة الأساسية التي انطلق منها اليابانيون ليلحقوا بركب الحضارة الغربية.

وينبغي التوقف بدايةً ـ في هذا المقام ـ عند المجال والمرجعيات الثقافية والتطورات التي عرفها المجتمع الياباني حتى نهاية القرن السادس عشر، والتي شكلت في مجموعها تمهيداً ارتأيناه ضرورياً لفهم تاريخ الفترة اللاحقة التي نركز عليها. غير أننا لم نقف في حدود التمهيد ـ عند والتعريف بالمجتمع الياباني وتاريخه، بل لامسنا أيضاً قضايا لها صلة بأصول التحديث في اليابان. ومن ثم كان سؤال التحديث حاضراً في كل موضوع أو قضية تطرقنا إليها. وفي اعتقادنا أننا حصلنا بالفعل على قسم من الجواب، سواء في دراستنا للتجانس الثقافي أو النظام الفيودالي أو علاقة اليابان بالصين في مرحلة أولى وعلاقتها بالغرب في

مرحلة لاحقة، أو دراستنا للإجراءات الجريئة التي اتُّخذت في القرن السادس عشر وأحدثت نقلة نوعية في تاريخ اليابان.

كما توقفنا عند المحدد الإيكولوجي، الذي أكسب اليابانيين تفرداً وارتباطاً قوياً بالمجال وصل إلى حد التقديس، وفي بلورة شخصية تتسم بالصرامة والانضباط وبحس جمالي مرهف، وأيضاً في تجانس ثقافي وعرقي ـ إلى حد ما ـ أساسه لغة متفردة ومعتقد ديني يقدس الإمبراطور ويسترضي الطبيعة. ففي أرضية هذا المجال المنعزل، نبتت وترعرعت ثقافة قومية ذات ملامح قوية يصعب محوها. ثقافة تنفتح على ثقافة الآخر، غير أنها ثقافة تنتقي وتستوعب ما تراه ملائماً لها وتكيفه لمعطياتها؛ ثقافة تتأثر بالثقافات الوافدة غير أنها لا تنصهر فيها أو تفقد شيئاً من أصالتها، وفي تعامل اليابانيين مع الثقافة الصينية خير دليل. ففي القرن الثامن عشر، أي بعد انصرام ما ينوف على اثني عشر قرناً على حضور تلك الثقافة في المجتمع الياباني، برهنت الثقافة القومية على حيويتها وصمودها؛ إذ كانت الأساس لتيار قومي يدعو إلى التخلي عن الثقافة الصينية، وإحياء القيم الأصيلة التي شكلت جوهر إصلاحات الميجي التي دعت إلى استعادة الإمبراطور لسلطاته.

يبدو التأثير الإيكولوجي واضحاً أيضاً في استعصاء خضوع الجزر اليابانية لحكم مركزي قوي، كما هو شأن الصين، وذلك بسبب الطبيعة الجبلية وصعوبة المواصلات. فعلى الرغم من وقوع اليابان في النطاق الآسيوي، فإنها تميزت بخصوصيات ضمن هذا النطاق جعلتها تنفرد، دون دول آسيا والشرق عموماً، بنسق فيودالي في عصوره الوسطى قريب من ذلك الذي عرفته أوروبا الغربية. وهو ما يقدم أسباباً إضافية لتفسير نجاح اليابانيين في التحديث في القرن التاسع عشر في رأي كثير من المختصين.

أما في ما يخص المقومات الثقافية، فأهم ما يميز اليابان من كثير من الدول الشرقية، هو عدم خضوع اليابانيين لديانة ذات تشريعات صارمة تقيد حرية الإنسان وتفرض عليه سلوكاً معيناً. فجوهر ديانة الشنتو (الديانة القومية في اليابان) هو استرضاء قوى الطبيعة لتحقيق رفاهية الإنسان، بينما اتخذت البوذية في اليابان صيغة هدفها تهدئة أرواح الموتى ومنعها من العودة ثانية إلى دنيا الآلام. فهاتان الديانتان، اللتان تعايشتا في المجتمع الياباني على نحو مثير، لم تشكل أي منهما معايير تقاس بها أو تخضع لها القرارات السياسية وغيرها. فعندما أقدم زعماء الإصلاح على الأخذ بمبادئ الحضارة الغربية، لم يجدوا أمامهم كهاناً أو

رجال دين يمكن أن يقفوا في وجههم أو يعترضوا على قراراتهم. بل على النقيض من ذلك، وجدوا في ديانة الشنتو عوناً على تحقيق دولة مركزية يرأسها إمبراطور يحظى بالتقديس في تلك الديانة.

شكلت علاقة اليابان بالصين علامة فارزة في تاريخ اليابان؛ فالصين حاضرة بثقافتها وعقائدها في المجتمع الياباني وفي مساره التاريخي، ابتداء من الهجرات البشرية في عصور ما قبل التاريخ، التي شكلت قسماً مهماً من ساكنة الأرخبيل، إلى انفتاح اليابانيين طواعية على مقومات الثقافة الصينية في نهاية القرن السادس الميلادي الذي غير مجرى تاريخهم ووضعهم في فلك العالم الصيني. فمن الصين أخذوا البوذية وتعاليم الكونفوشيوسية ورموز الكتابة ونظم الإدارة والحكم وفنون الشعر والعمارة والرسم وتخطيط المدن وتعبيد الطرق. وإذا كان إقبال اليابانيين على نتاج الحضارة الصينية عظيماً لحظة انبهارهم بها، فإن تعاملهم مع ذلك النتاج كان في حدود الاستفادة العملية، وبالقدر الذي يفيد المؤسسة الإمبراطورية التي سعت عبر البعثات الدبلوماسية والطلابية إلى استيراده. كما أن اليابانيين لم يكونوا مجرد مقلدين أو مستهلكين بل أعادوا إنتاج ما أخذوه، ومنحوه صبغة محلية وصيغة متميزة تكاد تتفوق على الأصل.

شكل انفتاح اليابانيين على الثقافة الصينية في فترة مبكرة، وانفتاحهم على الثقافة الغربية في فترة قريبة، تجربتين في تاريخ اليابان تغير في إثرهما مجراه وأخذ منحى مغايراً. ففي أواخر القرن السادس، وكما أشرنا، تطلع اليابانيون إلى الصين، ونهلوا من معارفها ومعتقداتها وفلسفتها لينسجوا على منوالها حضارة تكاد تضاهي الأصل. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تطلعوا إلى الغرب، واستفادوا من خبراته التقنية والعلمية والعسكرية ليحتلوا مكانة مرموقة ضمن ثلة الدول الراقية.

رغم البعد الزمني وتغير الظرف التاريخي، فإن التجربتين تشتركان في عدد من أوجه شبه وسمات ظاهرة لا تغيب عن عين القارئ لتاريخ اليابان. ففي كلتا الحالتين، كانت اليابان «متخلفة» وضعيفة من حيث القوة العسكرية، وفيهما معاً تعلمت من ذلك الغير «المتقدم» ليتفادى هيمنته. اتسم وضع اليابان في الحالتين، كما قلنا، بـ «الضعف» و«التخلف» والوقوع تحت التهديد، في حين اتسم الغير بـ «القوة» و«التقدم» والنزوع نحو الهيمنة. غير أن اليابان في وضعها ذاك، وقبل أن تقع تحت نفوذ الصين أو نفوذ الاستعمار الغربي مباشرة، اندفعت، وبرغبة

منها، إلى التعلم من الغير وإلى فتح أبوابها أمام ثقافته. هذا الفعل الإرادي أو التصرف الطوعي حاضر في التجربتين معاً، ويستحق الوقوف عنده.

لعل أهم ما يُستخلص من هذا الاندفاع نحو الأخذ بالثقافة الصينية، هو عدم شعور اليابانيين بالاستعلاء تجاه مكونات ثقافة الغير التي يكونون في حاجة إليها. وهو أمر يختلف عما ساد عند الصينيين والعرب المسلمين في القرن التاسع عشر، حيث كان هؤلاء يرون في أنفسهم أصحاب حضارات عريقة، وينظرون نظرة استعلاء إلى ثقافة الغرب، التي اعتبروها غزواً ثقافياً. في حين كان اليابانيون في القرن السادس الميلادي كما في القرن التاسع عشر، يسعون إلى التعلم من الآخر دون تحرج أو عقدة استعلاء. وما يزال هذا السلوك قائماً حتى اليوم، سواء في علاقة الأفراد اليابانيين في ما بينهم أو في علاقاتهم مع الآخر.

يجدر التوقف عند القرن السادس عشر اعتباراً للتغيرات الكبرى التي عرفها المجتمع الياباني. والواقع أن هذا القرن كان نقطة تحول في تاريخ العالم القديم ككل، خاصة في أوروبا التي بدأت رياح التغيير تهب على مؤسساتها الدينية، وأخذت تخطو سريعاً في مشروع النهضة، وتكسر عزلتها بسفن تجول بحار العالم بحثاً عن مصادر التجارة العالمية. وقد كان نصيب اليابان من ذلك تجاراً ومبشرين غير مؤهلين لنقل الصورة المشرقة لما كان يتفاعل في أوروبا. وهكذا اختُزلت معرفة اليابانيين بأوروبا في السلاح الناري الذي عزز وسائل العنف وساهم في إذكاء الحرب الأهلية، وفي العقيدة الكاثوليكية التي لم تخل من التعصب ولم تكن منفصلة عن التوسع الاستعماري الذي طاول مناطق في الشرق الأقصى. ومع ذلك، كانت حصيلة هذا اللقاء الأول إيجابية بالنسبة إلى اليابانيين؛ إذ إنهم انكفأوا في إثر ذلك على ذواتهم، وحصنوا أنفسهم من المد الاستعماري بسياسة عزلة طوعية كانت لها آثار كبرى في التطورات الداخلية التي عرفتها اليابان خلال عصر توكوغاوا.

حققت اليابان في القرن السادس عشر نقلة نوعية؛ ففي ذلك القرن أُعيد توحيدها من جديد تحت حكم عسكري قوي، وجرى التأسيس لعهد جديد ولصيغة من الفيودالية التي ستحقق الأمن والاستقرار لليابان لما ينوف على قرنين ونصف قرن. واتُّخذت فيه أيضاً إجراءات هيأت اليابان للانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، مثل إجراء المسح العام للأراضي الذي لم تقم به دول في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر. والواقع، أنه لا يمكن فصل فترة النصف الثاني من القرن السادس عشر عن الحقبة التاريخية التي اخترنا التركيز

عليها، وإنما جرى إلحاقها بالتطورات الكبرى التي عرفها تاريخ اليابان من باب الحفاظ على السيرورة التاريخية العامة.

إن دراسة عامة بشأن المجتمع الياباني ومؤسساته السياسية خلال عصر توكوغاوا، أي منذ مطلع القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، يشير إلى أن المحور الرئيسي الفاعل هو الأمن والاستقرار الاجتماعي والسياسي، الذي كان بمثابة حجر الزاوية لكل ما تحقق من منجزات وتطورات في عصر توكوغاوا. كيف تحقق هذا الأمن والاستقرار، اللذان هما أساس كل تطور وتقدم في أي مكان، هو السؤال الذي حاولنا الإجابة عنه، بدءاً بالأسرة وانتهاء بعلاقة اليابانيين بالآخر. والواقع أن تحقيق الاستقرار في مجتمع عاش حرباً أهلية دامت قرابة قرن من الزمن، كان يبدو أمراً شبه مستحيل في مطلع القرن السادس عشر، في وقت لم تكن القوة العسكرية وحدها كافية لردع الساموراي وإبعادهم عن حرفة الحرب، التي تربوا عليها فكانت علة وجودهم وبقائهم. فلتحقيق هذا الاستقرار، كان ضرورياً إعادة النظر في النظام السياسي القائم، مع مراعاة ما أفرزته الحرب الأهلية، وابتكار أساليب تنقل المجتمع من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلم. وهو ما بدأه تويوتومي هيدي ـ يوشي (١٥٣٦ ـ ١٥٩٨) في أواخر القرن السادس عشر، وقعّده الشجون الأوائل في النصف الأول من القرن السابع عشر.

شكلت التعاليم الكونفوشيوسية الجديدة بالنسبة إلى شجون توكوغاوا مرجعية مثلى لتحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي؛ فبتفعيلها على مستويات الأسرة والعلاقات الاجتماعية والبنية السياسية، وتكريسها في مناهج التعليم، واتخاذها فلسفة وأيديولوجيا للحكم، استطاعوا ضمان ولاء الجميع لهم، وصرف الساموراي عن الإعداد للحرب. غير أن هذه المرجعية لم تكن لتحقق المراد منها لولا مواكبتها بإجراءات وقوانين صارمة ـ مستقاة في الأساس من المرجعية ذاتها ـ تضبط المجتمع، وترسم لكل فئة معالمها بدقة، وتحدد لكل فرد مكانته التي يجب أن يعيها ويتصرف بحسب موقعها من التراتب الاجتماعي. فجاءت النتيجة متمثلة في مجتمع منضبط أشد ما يكون الانضباط؛ انضباط نرى فيه أهم عنصر في استمرار حكم توكوغاوا وسبباً من أسباب قوة النظام السياسي والاجتماعي الذي أقامته. بل نرى فيه أيضاً سبباً من أسباب نجاح إصلاحات الميجي؛ إذ كان من اليسير على زعماء الإصلاح التعامل مع مجتمع منضبط خاضع للقوانين وملتزم بها.

هذا، وكان تناول القضايا السابقة ـ مناسبة للتقدم ـ بعد ذلك ـ نحو تحليل

البنيتين الاجتماعية والسياسية والنظر في مكوناتهما؛ إذ كان مرادنا من وصفها ـ بدقة أحياناً ـ رسم صورة عامة لما انتهت إليه الصيغة الفيودالية التي سادت في اليابان. وهي صيغة لم تنته إلى ما انتهت إليه في أوروبا، على الرغم من أن كل مؤشرات القرن السادس عشر كانت توحي بأن اليابان ستعود إلى حكم مركزي تنتفي فيه معالم الفيودالية، خاصة بعد دخول الأسلحة النارية التي كان من شأنها ترجيح كفة السلطة المركزية.

لم يكن متعذراً على **توكوغاوا إياسو** (١٥٤٢ ـ ١٦١٦)، وهو مؤسس أسرة توكوغاوا وأحد زعماء التوحيد، القضاء على الدايميو، وتأسيس حكم مركزي بعد انتصاره الباهر في معركة **سيكي ـ غاهارا** (**١٦٠٠**)، غير أنه أحجم عن ذلك، وارتأى أن من المفيد الحفاظ على الإطار العام لحكم الباكوفو (المصطلح الذي يُعرف به حكم الشجون منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي)، وتكييف إفرازات الحرب الأهلية ضمن علاقة مستحدثة بين الشجون والدايميو. كان إياسو معجباً بمؤسسي الدول الصينية، خاصة مؤسس دولة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧)، وكان مستشاره هياشي رزان (منظّر حكم أسرة توكوغاوا وأشهر معلمي الكونفوشيوسية الجديدة في عصره) يضع إياسو في مرتبة لا تقل عن مرتبة نظرائه أباطرة الصين. ومن ثم كان ممكناً أن يحذو إياسو حذو من أُعجب بهم ويقيم حكماً مركزياً متوارثاً في أسرته ـ ربما يلغي فيه حتى المؤسسة الإمبراطورية ـ غير أن مسار اليابان التاريخي وإكراهات المجال منعاه من الإقدام على مغامرة يعلم مسبقاً أن مآلها الفشل. فقد حاول قبله أباطرة اليابان في عصري **نارا** (٧١٠ ـ ٧٨٧) وهييان (٧٩٤ ـ ١١٩٢) إقامة حكم مركزي على غرار الصين، غير أنهم لم يسيروا به بعيداً، حيث تعذر عليهم رعاية جيش نظامي وإحكام السيطرة على أرض جبلية وعرة. كما حاول الساموراي في نهاية القرن الثاني عشر إقامة حكم عسكري قوي، غير أن المحاولة انتهت إلى حرب أهلية بعد أن عجز حكم أسرة الساموراي الثانية (**أشيكاغا: ١٣٣٦ ـ ١٥٦٨**) عن إحكام السيطرة على الأقاليم التي استقل بها الحكام العسكريون وغيرهم من ذوي النفوذ.

شكل هذا النظام ـ الذي اصطلح عليه المؤرخون اليابانيون بالـ «باكوهان» ـ تجربة عز نظيرها في جهات أخرى. فالباكوهان نظام يجمع بين معظم خصائص الحكم المركزي ـ السيطرة على المجال؛ التحكم في العلاقات الخارجية؛ مراقبة التجارة مع الدول الأجنبية؛ ضبط حركة المواصلات ووضع الطرق تحت الإدارة المركزية؛ إصدار قوانين يمتثل لها الجميع؛ التحكيم وفض النزاعات؛ مراقبة

الطوائف الدينية. . وغيرها ـ واستقلال ذاتي ذي خصوصيات فيودالية واضحة. وهو نظام يشذ في مظاهر منه عن أنظمة الحكم المركزي؛ فالشجون لم يعتمدوا على الجباية المباشرة التي تتطلب جيشاً وجهازاً إدارياً مكلفاً، إذ اعتبروا أنفسهم مجرد رؤساء لواحدة من أُسر الدايميو التي لها مداخيل تؤول إليها من الأراضي التابعة لها مباشرة. كما أنهم لم يرعوا جيشاً نظامياً، وفي المقابل رتبوا لاستنفار قوات الدايميو عند الحاجة. هذه الخصوصيات، التي تميز بها نظام الباكوهان تستعصي دراستها وتحليلها بالاعتماد على معايير التاريخ الأوروبي، ويعسر مقارنتها بالنموذج الأوروبي. ومن هنا جاءت حيرة المؤرخ الأوروبي الذي يروم دراستها بإخضاعها لمعاييره. وفي اعتقادنا، يجب دراسة التجربة اليابانية في إطارها التاريخي الخاص، وتحليلها من خلال المفاهيم التي طورها المؤرخون اليابانيون أنفسهم.

وضع الباحثون الغربيون النظام السياسي والاجتماعي لعصر توكوغاوا ضمن تصنيفات لم تخرج عن نطاق التصور الأوروبي للتاريخ، ومن ذلك نعتهم له بـ «الفيودالية المتأخرة» أو الفيودالية المتمركزة».

إن تشابه مقدمات النسق الفيودالي في كل من أوروبا واليابان واختلاف النتائج في كل منهما، يؤكدان ما ذهبنا إليه في مقدمة هذا البحث من أن قراءة تاريخ اليابان من منظور أوروبي وتحليله بمعايير التاريخ الغربي، لن يكونا صائبين في كل الأحوال. فالتجربة اليابانية تبقى متفردة في خصوصياتها، ويجب النظر إليها بعين لا تشوبها غشاوة الأحكام المسبقة والأنماط الجاهزة. قد يكون سهلاً على المقتنع بتفسير نظري معيّن أن يحشر تلك التجربة في الإطار الذي ترسمه نظريته ويحللها بمعاييرها، غير أن اقتناعه قد يعميه عن رؤية خصوصية التجربة، أو يجعله يتغاضى عن كل ما يكسر الإطار الذي وضعه فيها.

يبدو لأول وهلة أن المؤسسة الإمبراطورية أضحت، منذ تهميشها في نهاية القرن الثاني عشر، خارج المعادلة السياسية التي انتهى إليها نظام الـ «باكوهان». وما حاولنا إبرازه هو أن هذه المؤسسة ظلت، حاضرة ويقام لها اعتبار خاص، رغم تغييبها عن العمل السياسي ورغم تهميشها. فهي حاضرة في المراسلات الرسمية وغير الرسمية التي تحمل التأريخ بعهود الأباطرة بما يُعتبر بمثابة تذكير يومي بأن الإمبراطور هو صاحب السلطة العليا. وهو تذكير يقارب، إلى حد ما، الخطبة باسم السلطان أو الخليفة على منابر الجمعة في العالم الإسلامي الذي يذكر المؤمنين أسبوعياً بالخليفة أو السلطان ـ حتى وإن كانت سلطته صورية. وهي

حاضرة أيضاً في الألقاب التي كان يسعى الجميع إلى الحصول عليها ويعتبرونها تشريفاً يفوق الاعتبارات المادية والمعنوية التي تخولها الوظائف التي يحتلونها. هذا إضافة إلى تجذرها في المعتقد الديني، وارتباطها الوثيق بالثقافة القومية التي أعيد إحياؤها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

بذلك كله، حاولنا، فيما سبق، توضيح سياسة العزلة وأسبابها وعلاقة اليابان بالدول الغربية وبجيرانها في آسيا. وما خلصنا إليه هو أن هذه العزلة لم تكن تامة بقدر ما كانت وسيلة للوقوف في وجه التدخل الغربي في الشؤون الداخلية بالتبشير والتجارة ابتداء من القرن السادس عشر، وكان محتملاً أن ينتهي إلى إخضاع اليابان للحكم الأجنبي أو اقتطاع أجزاء منها. وخلصنا أيضاً إلى أن اليابان عاش خلال فترة العزلة في انسجام مع محيطه الآسيوي.

ولم تخرج المعالجة عن نطاق المحور المركزي لهذا البحث، أي الأسباب التي هيأت اليابانيين في القرن التاسع عشر للانخراط في حركة تحديث عجز غيرهم عن القيام بها؛ ففي أثناء حديثنا عن الفئات مثلاً، أظهرنا التطورات التي عرفها المجتمع الياباني وكانت من بين هذه الأسباب. ففئة التجار استطاعت مراكمة ثروات هائلة جعلتها في وضع لا يقل عن وضع البرجوازية في أوروبا. وقام عدد من الأسر التجارية التي اغتنت في عصر توكوغاوا بدور فعال في التوجه الرأسمالي بعد إصلاحات الميجي. كما طورت هذه الأسر عدداً من الممارسات والمهارات التي كانت نافعة في تطور النظام الرأسمالي في اليابان، من قبيل تسيير المؤسسات التجارية ذات الفروع والاختصاصات المتعددة، وتيسير القروض على نحو قريب من النظام البنكي. كما لم يفتنا الوقوف على انتفاضة الفلاحين في أواخر عصر توكوغاوا التي اعتبرها دعاة الماركسية تعبيراً عن الصراع الطبقي، وتمهيداً لإصلاحات الميجي، بل عاملاً أساسياً فيها.

ومن بين ما أوضحناه في هذا السياق استمرار القيم الاجتماعية التي سادت خلال عصر توكوغاوا حتى الوقت الراهن، مثل قيمة التراتب التي ما تزال مستحكمة في العلاقات الاجتماعية وفي المقاولات والشركات الصناعية وغيرها. وأيضاً علاقة التبعية التي تشكل اليوم عنصراً إيجابياً في نجاح الشركات اليابانية؛ فصاحب الشركة يعتبر عماله أتباعاً له أو أبناءه بالتبني، يوفر لهم العمل مدى الحياة، ويسهر على مصالحهم، مقابل إخلاصهم وولائهم له، أي على النحو الذي ساد العلاقة بين الساموراي وسادتهم.

أما بشأن بوادر التحديث، فإننا نشير فيما يأتي إلى جل المنجزات التي تحققت في عصر توكوغاوا، ووضعت اليابان في مسار تحديث، بعيداً عن التأثير الأوروبي. كما تطرقنا إلى الإصلاحات الأولى التي سبقت إصلاحات الميجي، وكذا بزوغ فكر الإصلاح بعد أن طاول التدخل الإمبريالي دول الشرق الأقصى، وبخاصة بعد حرب الأفيون. وقد عرفت اليابان خلال هذه الفترة تطوراً ملحوظاً شمل قطاعات عدة، منها قطاعات الاقتصاد والتعليم والثقافة والمواصلات، وغير ذلك مما يمس حياة الإنسان اليومية. وهو تطور يمكن مقارنته بما كان يتفاعل في أوروبا منذ قيام النهضة، على الرغم من تباعد الشقة والالتزام بسياسة العزلة التي منعت اليابانيين من الاتصال بالغربيين إلا في أضيق الحدود. والواقع أن استمرار نظام الـ «باكوهان»، الذي كان يحمل في مجمله طابع الحكم الاستبدادي وملامح من النظام الفيودالي، لم يمنع هذه الطفرة التي تستعصي على التفسير أول وهلة؛ إذ ليس هناك من تفسير وحيد يمكن الوقوف عنده، بل هناك تضافر عوامل عدة يصعب تفضيل أي منها. فسياسة العزلة مثلاً كانت من أسباب النمو الاقتصادي الداخلي؛ والأمن والاستقرار الاجتماعي كانا سبباً في التمدن والعمران وتحسين طرق المواصلات؛ وتكريس المبادئ الكونفوشيوسية كان سبباً في نشر التعليم، وانتشار التعليم كان سبب ازدهار دور النشر والثقافة الشعبية، من مسرح وأدب، إلى غير ذلك.

فعلى الصعيد الاقتصادي، عرفت اليابان خلال عصر توكوغاوا نمواً أمكن رصده كمياً في القطاعات الاقتصادية الحيوية، وخاصة في قطاع الزراعة الذي ظل المؤشر الرئيسي على الثروة وعماد الاقتصاد الياباني قبل إصلاحات الميجي (تضاعف إنتاج الأرز مرتين ونصف خلال عصر توكوغاوا)، وقطاع التعدين الذي عرف طفرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وشكل نتاجه العمود الفقري في التبادل التجاري مع الخارج. كما أمكن رصده في حجم التجارة الداخلية، وانتشار النقد في مبادلات السلع وغيرها، وظهور فئة من التجار راكمت ثروات هائلة. وعموماً مر الاقتصاد الياباني خلال عصر توكوغاوا بمرحلة نمو سريع دامت من مطلع القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، ثم مر بفترة ركود استمرت إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، ومر أخيراً بفترة انتعاش قبيل إصلاحات الميجي.

والواقع أن هذا النمو لم يبدأ مع عصر توكوغاوا؛ إذ توجد مؤشرات عدة تؤكد أن الانطلاقة الاقتصادية بدأت عملياً في الفترة الأخيرة للحرب الأهلية،

وفي أثناء فترة التوحيد في النصف الثاني من القرن السادس عشر. ذلك أن الإطار السياسي الذي نجم عن الحرب الأهلية أدى إلى وجود شبه دويلات صغيرة تنافست في ما بينها، وسعى الدايميو القائمون عليها إلى رفع مداخيلهم المادية وتنويعها لتغطية نفقات الحرب، وتحقيق رغباتهم التوسعية وطموحاتهم السياسية في الوصول إلى سدة الحكم على الصعيد المركزي. وقد زادت حدة هذا التنافس في النصف الثاني من القرن السادس عشر ـ في أثناء فترة التوحيد ـ التي شهدت نشاطاً تجارياً مع الخارج، وعدداً من مشاريع الري التي ساهمت بشكل كبير في زيادة المساحة المزروعة وزيادة مماثلة في إنتاج الأرز. وقد مثّل ذلك في نظر بعض المختصين بداية لثورة زراعية في اليابان. كما أن إقبال الدايميو وزعماء التوحيد على بناء القلاع وإحداث مراكز حضرية جديدة كان سبباً في حركة اقتصادية ورواج تجاري وازدهار عدد من الحِرف المرتبطة بالبناء التي تطورت بها تقنيات استُغلت في مشاريع الري على وجه الخصوص. فحسب أحدث الدراسات التاريخية حول اقتصاد اليابان، فإن تحولاً اقتصادياً حدث في نهاية القرن السادس عشر ومثّل شبه قطيعة مع اقتصاد العصور الوسطى اليابانية.

انعكس النمو الاقتصادي وزيادة إنتاج الأرز إيجابياً على النمو الديمغرافي؛ فخلال عصر توكوغاوا، انتقل عدد سكان اليابان من ١٢ مليون نسمة في مطلع القرن السابع عشر إلى زهاء ٣٢ مليون نسمة في منتصف القرن التاسع عشر (أي عشية إصلاحات الميجي). وحظي تزايد سكان اليابان بوتيرة متسارعة خلال عصر توكوغاوا باهتمام عموم مؤرخي هذا العصر وليس باهتمام الباحثين في الديمغرافيا والاقتصاد وحدهم. ذلك أن تلك الزيادة مثلت طفرة ديمغرافية غير مسبوقة في تاريخ اليابان، واعتبرت في رأي الباحثين، على اختلاف مشاربهم، مؤشراً إيجابياً على ما خبره اليابان من تطور في مستويات مختلفة خلال ذلك العصر. ولا شك أن زيادة السكان بوتيرة متسارعة أثارت قلق الباحثين منذ أواخر القرن الثامن عشر ـ أي منذ أن نشر مالتوس (١٧٩٨) تحذيره بشأن الأخطار الناجمة عن عدم التناسب المحتمل بين زيادة السكان والموارد الاقتصادية، وهو ما يصدق إلى حد ما على بعض الدول النامية اليوم، غير أن آراء معظم الباحثين تكاد تتفق على أن الزيادة تكون عاملاً مساعداً على النمو الاقتصادي إن هي ظلت في حدود معقولة. فأوروبا عرفت في مقتبل ثورتها الصناعية طفرة ديمغرافية لم تشكل في حينها عائقاً أمام تطور اقتصادها. ولعل أهم نموذج في هذا الباب هو الزيادة التي عرفها سكان بريطانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وجاءت

مواكبة ومساندة لثورتها الصناعية. والأمر ذاته يصدق على حال اليابان، الذي لم يعرف ثورة صناعية، غير أنه عرف نمواً في مجال الإنتاج الزراعي، ومن ثم كانت طفرته الديمغرافية انعكاساً لنموه الاقتصادي. وعلى أي حال، لم يصل تعداد سكان اليابان إلى الحد الذي تنطبق عليه نظرية مالتوس ـ على الرغم من استغلال بعض الباحثين اليابانيين، المتأثرين بالفكر الماركسي في العقود الأولى من القرن العشرين، لأوضاع الفلاحين المزرية في أواخر عصر توكوغاوا، ليقولوا إن اليابان وقعت في الورطة التي تنبأ بها مالتوس. وعموماً، فإن المعطيات الديمغرافية، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، هي مرآة ينعكس عليها مستوى العيش والوضع الصحي للسكان، وآثار المجاعات والأوبئة، وغير ذلك ممّا يمكن قراءته في الإحصاءات الديمغرافية إن هي توافرت.

إن تمدن اليابان وازدياد أعداد سكان المناطق الحضرية في الفترة التي سبقت إصلاحات الميجي هما من الأسباب التي يجب أخذها في الاعتبار؛ فالتمدن يمكن اعتباره من الركائز التي انبنى عليها التحديث في أوروبا، وذلك لما للمدن من دور كقاطرة للتغيير. فغير خاف ما كان للمدن الإيطالية التجارية في فجر عصر النهضة من دور في إحياء الحضارة الغربية؛ إذ كانت هذه المدن وغيرها رائدة التغيرات الكبرى التي عرفتها المجتمعات الغربية، حيث شكلت مراكز لثوراتها العنيفة وغير العنيفة، وقواعد للمجموعات التي تحدت بنجاح سلطة الأنظمة التقليدية (الفيودالية) وقضت عليها. وقد كانت هذه المدن رائدة بسبب توجهها التجاري واستقلالها المادي والإداري، واحتضانها لطبقة التجار الصاعدة، التي شكلت في ما بعد الطبقة البرجوازية. فنمو أوروبا الحديثة كان في جانب كبير منه بسبب نمو وازدهار هذه الطبقة من تجار المدن التي كانت في موقع من المجتمع مكنها من الهيمنة على الاقتصاد في مرحلة، وإقامة مؤسسات سياسية جديدة تلائمها في مرحلة ثانية. ومن ثم كانت هذه المدن، وبمعطياتها تلك، المركز الطبيعي للتغير السياسي، بعد أن كانت رائدة التغير الاقتصادي.

شكلت ظاهرتا التمدن (Urbanization) وتنامي سكان الحواضر سمتين بارزتين في التطور الذي عرفه المجتمع الياباني خلال عصر توكوغاوا، حيث يمكن اعتبارهما مؤشراً إلى بداية التحديث، أو على الأقل علامتين من علامات التغير الذي عرفه المجتمع الياباني في هذا العصر وانفرد بهما عن باقي المجتمعات الآسيوية والشرقية عموماً. ذلك أن اليابان أمكن تصنيفها منذ نهاية القرن السابع عشر ضمن أكثر بلدان العالم من حيث ارتفاع نسبة سكان الحواضر والتوسع

الحضري، مثلها في ذلك مثل دول قليلة في أوروبا كفرنسا وإنكلترا. بل إن المدن اليابانية الكبرى كانت تتصدر قائمة المدن ذات الكثافة العالية في العالم في العصر الحديث. فمدينة إيدو (طوكيو اليوم) كانت تضم قرابة المليون نسمة في نهاية القرن السابع عشر ـ ٩٠٤,٠٠٠ نسمة عام ١٦٩٥، وهو رقم قياسي أيضاً بالنسبة إلى الفترة. وعلى أي حال، فإن نسبة سكان الحواضر في اليابان كانوا يزيدون على ١٦ بالمئة في مطلع القرن التاسع عشر، وهي نسبة لم تبلغها أو تتعداها في الفترة ذاتها سوى دول أوروبية قليلة.

إن انتشار التعليم وتوسع المعرفة بالقراءة والكتابة هما من المؤشرات الرئيسية على التطور الذي عرفته اليابان خلال عصر توكوغاوا؛ فمن القطاعات التي يجمع دارسو إصلاحات الميجي على أنها كانت العامل الرئيسي في نجاح تلك الإصلاحات وتحقيق التقدم في المجالات التي طاولتها، اهتمام زعماء الحركة بالتعليم، وإنشاء الجامعات الخاصة والعمومية، واستقدام الأساتذة من الدول الغربية. هذا من جهة، ويجمع دارسو النظام التعليمي في اليابان، من جهة أخرى، على أهمية عصر توكوغاوا ودوره في وضع الأسس والبنية التحتية التي استغلتها النهضة التعليمية في عصر الميجي وما بعده.

هذا الإجماع على أهمية عصر توكوغاوا له ما يبرره، ذلك أن التعليم في هذا العصر عرف نقلة نوعية وتطورات مهمة لم يُشهد لها مثيل في تاريخ اليابان إلى حين قيام إصلاحات الميجي، وذلك على الرغم من بقائه تعليماً نخبوياً موجهاً في المقام الأول إلى فئة الساموراي الحاكمة لتكريس الفوارق الاجتماعية القائمة. وقد تمثّلت هذه التطورات **أولاً** في الرعاية التي أولتها سلطات الباكوهان، سواء على الصعيد المركزي (الشجونة) أو على الصعيد المحلي (الهانات)، لتعليم أبناء الساموراي، وحرصها على إقامة مدارس لهم ورعايتها بالتمويل وغيره. وتمثّلت **ثانياً** في ظهور نظام تعليمي مواز خاص بأبناء التجار والصناع والفلاحين، و**ثالثاً** في التطور النوعي والكمي للمناهج التعليمية، وتعدد توجهاتها مسايرة للحاجات والمستجدات. وقد نجم عن هذه التطورات في نهاية المطاف ـ في أواخر عصر إيدو ـ انتشار واسع للمعرفة بالقراءة والكتابة بين الساموراي، وانتشار متوسط، لكن لا يستهان به، بين الفئات الأخرى أو عامة الناس، وهو ما أظهرته الإحصاءات التي أُجريت في بداية عصر الميجي وكذا مختلف تقديرات الباحثين الذين اهتموا بالموضوع. فقد قدر الباحث رونالد دور، وهو أكثر المختصين في هذا الشأن، النسبة العامة للعارفين بالقراءة والكتابة عشية إصلاحات الميجي (١٨٦٨) بـ ٤٠

بالمئة بين الذكور و١٠ بالمئة بين الإناث. وهي نسبة لم يعرفها، في نظره، جل المدن الأوروبية إلا في فترة لاحقة؛ ففي إنكلترا مثلاً، توصلت لجنة بريطانية (British Select Committee) عام ١٨٣٧ إلى أن طفلاً واحداً من بين أربعة أو خمسة أطفال يلتحق بالمدرسة في المدن الصناعية البريطانية. وغني عن القول إن بعض الدول النامية لم تبلغ هذه النسبة في مشارف القرن الحادي والعشرين.

لا شك أن ارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة عامل رئيسي في التنمية، كان له كبير الأثر في الإسراع بالإصلاحات التي أقدمت عليها اليابان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غير أن التطورات التي حصلت في نظام التعليم خلال عصر توكوغاوا اتسمت بظاهرتين لا تقلان أهمية عن نسبة العارفين بالقراءة، وهما فصل التعليم عن المؤسسات الدينية، والأخذ بمبدأ الاستحقاق. ذلك أن التعليم في اليابان حقق في هذه الفترة خطوة نحو علمنة التعليم وتحريره من هيمنة الدين، وهي الظاهرة التي اعتُبرت نقلة نوعية في التعليم الغربي، وانطلقت تدريجياً في أوروبا في الفترة ذاتها تقريباً، ولم تتحقق بالكامل إلا في الفترات اللاحقة. كما شرعت إدارة الباكوفو في فترتها الأخيرة في الأخذ بمبدأ الاستحقاق ـ أو المهارة الفردية والتميز في الدراسة ـ ومنحه الاعتبار في التعيينات الخاصة بجهازها الإداري عوض الاعتماد فقط على الامتيازات التي يمنحها الأصل ووضع الفرد في التراتب الاجتماعي. ويضيف أحد الباحثين: «إن كانت اليابان أكثر بلدان العالم اليوم عملاً بمبدأ الاستحقاق في تعليمه، فذلك يرجع إلى ما قطعته من خطوات في هذا الباب في عصر توكوغاوا».

إن صناعة الكتاب وازدهار دور النشر هما من الظواهر المثيرة أيضاً في عصر توكوغاوا؛ إذ يلاحظ الدارس لهذا العصر ازدهاراً غير مسبوق لصناعة الكتاب وتسويقه، وتنوعاً كبيراً في العناوين الصادرة عن دور النشر. وبديهي أن هذا الازدهار جاء مساوقاً لانتشار التعليم وارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، غير أن تيسير الكتاب عبر طبع قليل الكلفة وتنويع الموضوعات المتناولة، كانا حافزين على الإقبال على التعلم والقراءة؛ فالنسبة العالية للعارفين بالقراءة المسجلة في نهاية عصر التوكوغاوا ـ المشار إليها ـ لم تكن لتتأتى لولا توافر الكتاب ويسر الوصول إليه. وغني عن القول إن انتشار الكتاب وعدد العناوين التي تصدر سنوياً هما من المؤشرات التي يعتمدها الخبراء في قياس التنمية البشرية.

هذا التوسع في مجال النشر يدل على تطور نوعي في مجال الكتابة لم يحصل في جل ثقافات العالم في الفترة عينها، باستثناء بعض الدول الأوروبية. ولعله من

الميزات التي تحسب لصالح اليابان عند مقارنتها ببعض الدول التي يعتقد أنها كانت مماثلة لها أو كانت وإياها على مستوى واحد من التطور. وأولى هذه الميزات تحرُّر الكتابة والنشر من هيمنة الموضوعات الدينية أو المقررات التعليمية ذات الصلة الوثيقة بها. وإن رمنا المقارنة بالوطن العربي، فربما لن نجد مثيلاً لهذا التنوع أو تنوعاً قريباً منه إلا في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، كما يُستخلص من **فهرست** ابن النديم مثلاً.

يكفي أن نشير هنا إلى أن معدل عدد العناوين التي كانت تصدر عن دور النشر سنوياً (وكان عدد دور النشر في عصر توكوغاوا قد تخطى الـ ٢٠٠٠ دار) كان في حدود ٦٠٠ عنوان، حسب أقل التقديرات، وإلى أن عدد النسخ في كل طبعة كان في حدود ٤٠٠٠ نسخة. وممّا استرعى انتباهنا في بحثنا عن عدد النسخ التي كانت تطبع من الكتاب الواحد، هذا الاستثناء الذي وقع في نهاية عصر توكوغاوا. ففي عام ١٨٦٧، عندما نشر فوكوزاوا يوكيتشي كتابه عن أحول الغرب (أو أشياء غربية)، جرى طبع حوالى ٢٥٠,٠٠٠ نسخة منه. ونعتقد أن هذا الرقم كاف في حد ذاته لأخذ فكرة تقريبية عن المدى الذي وصل إليه رواج الكتاب وانتشار التعليم والإقبال على القراءة عشية إصلاحات الميجي.

أما الثقافة الشعبية، فهي ظاهرة أخرى ميزت عصر توكوغاوا من العهود السابقة عليه التي كانت الثقافة فيها مقصورة على فئة معيّنة. فمع انصرام القرن السابع عشر وإطلالة القرن الثامن عشر، كانت اليابان قد نعمت بقرن من الأمن والاستقرار أضحت معه الحرب الأهلية ومآسي الصراعات والمعارك مجرد أحداث بعيدة في الذاكرة الجماعية. ففي هذا القرن، انصرف الساموراي عن الحروب والإعداد لها، وأصبح السعي إلى المعرفة شاغلهم الرئيسي، بينما ظهرت فئة جديدة من سكان المدن نافستهم في مجال الثقافة وحياة الرفاهة. ففي ظل الرخاء والتوسع الحضري، ازدهر الأدب والشعر والرسم والموسيقى ومختلف فنون الفرجة بين سكان التجمعات الحضرية الكبرى ـ إيدو وأوساكا وكيوطو ـ بصورة لم يسبق لها نظير في تاريخ اليابان.

ففي أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، عاش كبار كتّاب القصة والمسرح والشعر أمثال تشيكاماتسو مونزيمون والقصاص إيهارا سايكاكو والشاعر ماتسواو باشو وغيرهم من الأدباء والرسامين، الذين كانوا طليعة تيار ثقافي جديد يستجيب لذوق فئة التجار الصاعدة وتطلعاتها. ففي هذه الفترة،

تشكلت سمات الثقافة اليابانية التي ما تزال ماثلة للعيان إلى اليوم. ففيها ظهر طقس الشاي، وفن تصفيف الزهور (إيكيبانا)، ومصارعة السومو، ومدارس الرسم المتعددة، وأصناف الموسيقى المختلفة، وكذا الطباعة بالألوان، إضافة إلى كتابة القصة والشعر والمسرح وصنوف الفرجة الأخرى.

تُعرف هذه الحركة الثقافية عموماً بـ «الثقافة الشعبية» تمييزاً لها من ثقافة الخاصة، التي اختصت بها أرستقراطية كيوطو في عصر هييان والساموراي في الفترات التالية. ذلك أن الفئات التي ظلت غائبة أو مغيبة عن المجال الثقافي انخرطت في مجالات الإبداع التي كانت حكراً على فئة بعينها. غير أن هذا التوجه «الشعبي» لم يكن يعني غياب الساموراي عنه، فهؤلاء انخرطوا أيضاً مع سكان المدن في هذا التوجه الذي ساد في عصر إيدو. فأغلب المبدعين في مجال الأدب والكتابة المسرحية في القرن السابع عشر كانوا أدباء من الساموراي، سواء ممن احتفظوا بامتيازات فئتهم، أو من الرونين الذين تخلوا طوعاً أو كرهاً عن تلك الامتيازات لينخرطوا في مجالات كان محرماً عليهم العمل فيها. ولم تظهر المساهمة الفعلية لسكان المدن في حقل الإبداع إلا في أواخر القرن المذكور والقرن الذي يليه.

تعددت مظاهر ثقافة الشعبية (أو ثقافة سكان الحواضر «التشونين») ومجالات إبداعاتها، إلى حد يصعب معه الإلمام بها جميعاً أو يتعذّر الخوض في البعض منها لغير ذوي الاختصاص، كالخوض في مدارس الرسم اليابانية التي ظهرت أو ازدهرت في عصر توكوغاوا، أو إدراك تفاصيلها واختلافاتها لعدم امتلاك المعرفة الضرورية. لكن يكفي أن نقول إن كبار الفنانين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تأثروا بفن الرسم الياباني من قبيل موني وفان غوغ.

هناك أسباب كثيرة يمكن أن تفسر في آن واحد الازدهار الثقافي وتوجهه الشعبي، في مقدمتها التوسع الحضري وتنامي سكان الحواضر، وتمتع فئة التجار وسكان المدن بقدر من الثروة مكنتهم من الإنفاق والإقبال على حياة المتعة، وارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، وتحسين طرق المواصلات، إضافة إلى الأمن والاستقرار السياسي الذين عمّا كل أرجاء البلاد.

يشار أخيراً إلى أن المسرح الياباني، الذي تطور في عصر توكوغاوا بشكل ملحوظ، يضاهي ما عرفه المسرح الأوروبي في الفترة ذاتها. فكل مقومات المسرح، من فضاء وممثلين وأقنعة وماكياج وتقنيات الخشبة وكتابة مسرحية

وغيرها، كانت متوافرة وتطورت تطوراً ملحوظاً. وما يزال التراث المسرحي الياباني (مسرح نو ومسرح الكابوكي ومسرح العرائس) شاهداً على هذا التطور في مجال الفرجة دون تأثير من الغرب وحضارته؛ إذ يعترف الباحثون في المسرح بأهمية التجربة المسرحية اليابانية ودورها في تطور المسرح العالمي.

وخلاصة القول أن هناك أسباباً عدة جعلت اليابانيين مؤهلين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للانخراط في إصلاحات عجز غيرهم عن القيام بها. ويمكن إيجاز هذه الأسباب في:

- نمو اقتصادي وديمغرافي ماثل ما عرفته إنكلترا وبعض دول أوروبا؛
- ارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، وانتشار المعرفة عبر كتاب ميسر بالطبع، وتخلص الكتابة والتعليم من هيمنة الدين؛
- برجوازية صاعدة تتمتع بثروة هائلة وبتجربة في المعاملات التجارية والممارسات الرأسمالية (الإقراض وتسيير المقاولات ذات الاختصاصات والفروع المتعددة. . .)؛
- توسع العمران وارتفاع نسبة سكان الحواضر؛
- تجربة بيروقراطية وبداية الأخذ بمبدأ الاستحقاق؛
- ثقافة حضرية متمثلة في الرسم والمسرح ومختلف الفنون؛
- بنية تحتية متمثلة في طرق معبدة؛
- هيمنة على المجال تتمثل في الدفاع والعلاقات الخارجية والمواصلات والطرقات؛
- مجتمع منضبط (ولا شك أن مجتمعاً منضبطاً هو أقرب إلى التحديث من مجتمع تعمه الفوضى وعدم الامتثال للقوانين).

وأخيراً نشير إلى التهديد الغربي، الذي بدأ في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر وانتهى في أوساط القرن التاسع عشر بإجبار السلطات اليابانية على إنهاء سياسة العزلة وتوقيع معاهدات غير متكافئة مع الدول الغربية، فقد واجهته ردود الفعل الرسمية وردود فعل المثقفين التي تمثّلت في كتابات تدعو إلى الإصلاح؛ إذ نرى في التأريخ لعلاقات اليابان بالدول الغربية وردود فعل اليابانيين تجاه الضغوط الغربية مناسبة لإبراز الكيفية التي تعامل بها اليابانيون في

لقائهم الثاني مع الغرب، وكيفية استغلالهم لذاك التهديد في العمل على إدخال تغييرات جذرية على نظامهم السياسي والاجتماعي والتعليمي، تُوِّجت بإصلاحات الميجي.

ومجمل ما خلصنا إليه هو أن التهديد الغربي المباشر أحدث رجة في المجتمع الياباني ظهرت في إثرها حركات فكرية وسياسية تدعو إلى الإصلاح والتغيير، وبناء دولة قوية عسكرياً وغنية اقتصادياً؛ حركات كان من شعاراتها «مجدوا الإمبراطور واطردوا البرابرة» و«جيش قوي وأمة غنية»؛ حركات كانت تدعو إلى الأخذ بالتقنيات الغربية العسكرية وغيرها لمواجهة الغرب بأسلحته ذاتها. وبالفعل، كانت إصلاحات الميجي حصيلة لهذه الحركات التي التفت حول الإمبراطور وجعلت منه رمزاً للتغيير والقضاء على حكم الشجون. فزعماء إصلاحات الميجي هم في واقع الأمر حصيلة التطور الفكري والثقافي الذي عرفته اليابان في عصر توكوغاوا، فبالمقارنة مع المغرب (الذي أنتمي إليه) مثلاً، وقّع المغرب في عام ١٨٥٦ معاهدة تجارية مع بريطانيا ـ شبيهة بتلك التي وقّعتها اليابان في الفترة عينها ـ أنهت عملياً استقلاله المالي والاقتصادي، غير أن هذه المعاهدة مرت مر الكرام ولم ينتبه إليها أحد. أما في ما يخص مصر، فإن إصلاحات محمد علي كانت نابعة من شخص أجنبي طموح ولم تواكبها حركات فكرية وسياسية تدعو إلى الإصلاح، في مقدمتها إصلاح النظام السياسي. ولعل في ما خلصنا إليه جواباً مبدئياً عن السؤال المحير: لِمَ نجح اليابانيون ولم ننجح نحن في القرن التاسع عشر؟

تقديـــم

د. رضوان السيد

مرت رؤية اليابان لدى العرب والمسلمين في القرن العشرين بثلاث مراحل:

في المرحلة **الأولى**، وعشية انتصار اليابانيين على الروس عام ١٩٠٥، تكوّن لدى العرب والمسلمين شعور بالاعتزاز له جانبان: القدرة (الآسيوية) اليابانية على التقدم وهزيمة أمة أوروبية، وأفعال الشجاعة والفداء والوطنية التي أبداها المقاتلون اليابانيون رجالاً ونساءً. وكان بين العرب والمسلمين من امتدت لديه الآمال لإقامة تحالفٍ مع اليابان في وجه المستعمرين الأوروبيين للشرق الإسلامي، وفي وجه الروس المسيطرين على المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز. ووصل الأمر إلى نهايات طريفة بعض الشيء في هذه المرحلة، حين دعا أناسٌ متحمسون للإسلام الإمبراطور الياباني (ثم الألماني) إلى اعتناق الإسلام. وكان من النتائج الإيجابية لهذه المرحلة بروز الاهتمام بثقافة اليابانيين وتقاليدهم الدينية، وبخاصةٍ بعد الثورة الصينية عام ١٩١١، وصعود نجم صن يات صن. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة كتاباتٌ عربيةٌ عن تلك المرحلة، أعادت جمع المعطيات العربية عنها، ومن ضمن ذلك الرحلات التي كتبت، والرسائل السياسية والعسكرية والثقافية، التي حاول من خلالها عرب ذلك الزمان، شرح معالم «المعجزة اليابانية» أسباباً ونتائج. ولست مختصاً بهذا الأمر، لكنني حاولت في السنوات الأخيرة أيضاً، أن أتقصّى ردود الفعل اليابانية على هذا الاهتمام العربي والإسلامي، فهل عملت اليابان آنذاك على كسب المسلمين أو إثارتهم ضد الروس والبريطانيين والفرنسيين؟ وهل بحث اليابانيون عن أفقٍ للامتداد في ما وراء جنوب شرق آسيا، أم اقتصر جهدهم على تكوين

إمبراطورية، شأن الأوروبيين الآخرين، دونما اهتمامٍ بالأبعاد الأيديولوجية والاستراتيجية للأمور والمسائل؟

أما المرحلة **الثانية** من مراحل الاهتمام العربي باليابان، فقد كانت أطول، وامتدت من ثلاثينيات القرن العشرين إلى ستينياته. وقد تنوع خلالها الاهتمام بين الديني والثقافي والسياسي، ما عاد أحدٌ يأمل بدعوة اليابانيين إلى الإسلام، وانصبّت الكتابات على دراسة أصول التقاليد الدينية والثقافية اليابانية، وبرز التعليل القائل إن نجاح التجربة اليابانية في التقدم سببه الثبات والانضباط في مجال التقاليد الموروثة في الدين والأعراف الوطنية ونظام الحكم. وفي فترة الحرب العالمية الثانية تصاعدت الحماسة تجاه الألمان واليابانيين معاً وتجاه الذين واجهوا القوى الاستعمارية الغربية. وبعد الحرب الثانية، تابع كثيرون محاولات اليابان الحثيثة للخروج من المأزق اعتماداً على الأساسين المتحققين: التقاليد القوية والثابتة، والتقدم الذي تحقق في مجال التحديث، وما تزال اليابان تبني وتراكم عليه رغم الهزيمة الواقعة، واستخدام أسلحة الدمار الشامل الجديدة ضدها.

وفي المرحلة **الثالثة**، التي ما تزال مستمرة بشكل ما حتى اليوم، غادرت اليابان وعي الجمهور العربي والإسلامي، وتسلم المثقفون العرب القوميون والإسلاميون أزمة الكتابة عن اليابان. وفي العقدين الأخيرين، تقدم الاهتمام بالنهوض الصيني على الاهتمام بالنهوض الياباني في وعي سائر أصناف المثقفين. إنما المميز لهذه المرحلة ـ في ما يتعلق باليابان والصين معاً ـ أن اهتمام المثقفين العرب بشتّى فئاتهم، ما كان في الحقيقة باليابان أو بالصين بالذات؛ بل بأسباب عدم تحقق النهوض العربي (والإسلامي)، وتحقق ذلك النهوض في اليابان، ثم في الصين. أما ذوو الميول الإسلامية، فقد ذهبوا إلى أن اليابانيين إنما حققوا نهوضهم لاستنادهم إلى دينهم وتقاليدهم، في حين تخلى العرب عن ذلك، لكن كان هناك من سألهم: لكن الصينيين ما استندوا في نهوضهم إلى الدين والتقاليد، ثم ما معنى التغريب؟ إذ كل التكنولوجيا اليابانية نموذجها الغرب، والغرب الرأسمالي بالتحديد، وهو نفسه الغرب الذي ضرب اليابان ضربةً قاصمة. على أن سؤال علائق التقاليد بالتقدم، وهو السؤال الذي ظل قوياً في أوساط الإسلاميين، جعل بعضهم يتبنى أطروحات اليمين الرأسمالي بعد الثمانينيات من القرن الماضي؛ الأطروحات التي تتحدث عن الانضباط الأخلاقي والتنظيمي (= الثقة بحسب فوكوياما)، الذي ميّز الآسيويين في نهوضهم. وهذه الأطروحات

تُطل بشكل ما على أطروحة السوسيولوجي الألماني البارز ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠)، الذي قدم عملاً مهماً وجدالياً في علائق «أخلاق العمل» بالنهوض الرأسمالي لدى المسيحية الكالفينية.

أما المثقفون العرب الآخرون، فقد تركزت تعليلاتهم للنهوض الياباني، والآخر الصيني على قوة الدولة وسياساتها التنموية الثابتة والمستمرة، في حين فشلت التجربة السياسية العربية في المجال التنموي، أو أنها ما اعتبرت التنمية هدفاً رئيسياً في سياساتها، فاقتصادات البلدان العربية التقدمية وغيرها ظلت اقتصاداتٍ تابعة، وجاءت العولمة لتعمق من تلك التبعية رغم محاولات التحرير الهيكلي للاقتصادات العربية منذ الثمانينيات.

لقد قدم الصديق محمد أعفيف عملاً متميزاً وممتداً عن التحديث الياباني على مدى ثلاثمئة عام (١٥٦٨ ـ ١٨٦٨)، فدرس في القسم **الأول**، الذي امتد على مدى سبعة فصول، موقع اليابان الجغرافي وتضاريسها ومناخها ومواردها الطبيعية، ثم ثنى بإيضاح علاقاتها المركبة والمعقدة بالصين من النواحي العلمية والتنظيمية، والأصول الثقافية المحلية (الشنتو)، والواردة من الصين (البوذية والكونفوشيوسية)، فاللغة اليابانية وحروف الكتابة، وتمايزات الشخصية اليابانية. لكن الوضع مع الصين ما انتهى في اهتمامات الباحث عند هذا الحد، بل تطرق إلى زراعة الأرز، والمؤسسة الإمبراطورية، والنموذج الإقطاعي، والإقبال في القرن السادس عشر على توحيد البلاد، وما ترتب على ذلك من تغيرٍ في مفاهيم المشروعية، لعدة جهات مثل مسح الأراضي، وغزو كوريا، وظهور فكرة الجيش الواحد، وتراتبيات السياسات الداخلية. وما كان التواصل الأول مع الغرب في القرن السادس عشر أيضاً إيجابياً، فقد جاء الإيبريون (البرتغاليون والإسبان) للتجارة، لكنهم جاؤوا معهم بالصليب (التبشير) والبندقية، وربما أرادوا التعامل مع اليابان، كما تعاملوا مع القارة الأمريكية المكتشفة قبل قرن.

وفي القسم **الثاني** من العمل في ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، وصل الباحث إلى النقطة التي كان الآخرون يبدأون بها، أعني العصر المعروف بعصر توكوغاوا. وقد درس ستة فصول ما استقرت عليه الأمور بعد توحيد البلاد في ظل الإمبراطور لجهات النظام الاجتماعي والفئات الاجتماعية وتركيب نخبة السلطة في ظل أسرة توكوغاوا، والقوى العسكرية والتنظيمات الإدارية، وفرض عُزلة على البلاد لتثبيت السيادة والاستقلال. ثم جال الكاتب

في عوالم القرن الثامن عشر، الذي يعتبره عصر بوادر التحديث: نمو المدن والطفرة الديمغرافية، وظهور الأسواق الكبرى، وتنظيم طرق المواصلات ومحطاتها، والتعليم ومؤسساته، والانفتاح التدريجي على الغرب بدءاً بدراسة الطب، وبدء الاهتمام بتعلم التقنيات العسكرية الغربية المتقدمة. إنما في الوقت الذي بدأت فيه الإفادة من الغرب، ازدادت الإفادة من الصين لجهات الخط وصناعة الورق والطباعة ودور النشر، وبدء ثقافة الكتاب. وما خلا الأمر مرة أخرى من اختلالٍ في العلاقة مع الغرب، مثل روسيا وبريطانيا فالولايات المتحدة، ولجهات المعاهدات غير المتكافئة، والإصلاحات والإجراءات المضادة، ومطالبات المثقفين الجدد بالإفادة من التقنيات الغربية، فالوصول إلى ثورة الميجي التي تنتهي بها الدراسة.

لقد ذكرت من قبل أنني لست مختصاً باليابان ونهوضها، لكن سؤال التقدم وإخفاقاته شغلني كما شغل سائر المثقفين العرب. وهكذا أقبلتُ على القراءة في التجارب النهضوية اليابانية والألمانية والصينية، وعلائقها في مجالها بالعوامل الإيكولوجية والبشرية والسياسية والدولتية والقومية. وفي هذه الحدود المتواضعة للمعرفة والمتابعة، أستطيع القول إن دراسة أعفيف هذه متميزة لعدة جهات: استراتيجية المديات الطويلة، بحسب فرناند بردويل، التي تسمح بمراقبة التطورات على مساحة زمنية شاسعة، والاستيفاء والانضباط في الوقت نفسه من ضمن خطة دقيقة للبحث، والتوازن في العرض بين الذاتي والموضوعي، والمرونة في الاستنتاج. وضمن هذه المرتكزات، أرى أن الدراسة تقدم جديداً في قضايا ومسائل التجربة اليابانية للنهوض والتقدم.

مقدمـــة

تستهدف هذه الدراسة البحث في الأسباب البعيدة والقريبة التي هيأت اليابانيين، في نهاية القرن التاسع عشر، للانخراط في حركة تحديث عجز «غيرهم» عن الدخول فيها، أو تحقيق المرتجى منها. نعلم أن الميجي وعصره مثار إعجاب شديد من جانب كل الذين ينظرون في تاريخ اليابان المعاصر، فهناك إجماع ـ يكاد يكون تاماً ـ على أن اليابان حققت، في فترة قصيرة تقل عن نصف قرن، نقلة نوعية كبيرة جعلتها تخرج من زمان التأخر والتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية المتقدمة لتغدو في طليعتها، بل ولتصبح أحد رموزها. هذه الطفرة الكيفية الهائلة التي عرفتها بلاد الميجي حملت البعض على الحديث عن «المعجزة اليابانية»، ودفعت البعض إلى اعتبار أن ما حدث فصل مع الماضي الياباني السابق على القرن التاسع عشر في عقوده الأخيرة وإعلان «القطيعة» معه.

هل يتعلق الأمر حقاً، في عصر الميجي، بقطيعة مع العهود السابقة عليه؟

وهل يمكن، إن بكيفية ضمنية عند البعض وصريحة عند البعض الآخر، إرجاع هذه النقلة أو الثورة المعرفية والاقتصادية إلى «اكتشاف الغرب» والالتقاء العنيف معه؟

هل يجوز للمؤرخ، متى أحسن الاطلاع على الوقائع التاريخية، والمعطيات الاقتصادية، والعمرانية، والثقافية الكثيرة والمتنوعة، أن يكتفي في فهم هذه الطفرة الكيفية التي عرفتها اليابان المعاصرة بالحديث عن «المعجزة اليابانية»؟

وبالتالي، هل يجمل بالمؤرخ، متى كان جاداً في عمله، يقظاً في نظرته، متوافراً على المعرفة الضرورية والكافية التي تجعل المقارنة ممكنة بين بلد وآخر، بين نظام اجتماعي وآخر، بين بنيات ثقافية (بالمعنى الأنثربولوجي الشامل لمفهوم

الثقافة)، هل يجمل بهذا المؤرخ أن يطمئن إلى الحديث عن حركة تحديث نجح اليابانيون في تحقيقها، في حين أن «غيرهم» عجز عن ذلك؟

إن هذا «الغير» الذي نشير إليه هو، عند زمر كثيرة من المثقفين العرب، الوطن العربي أو مناطق منه على الأقل (مصر في عهد محمد علي، المغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، تونس في عصر خير الدين التونسي وفي «عهد الأمان»). والفرضية الأساسية التي يشترك فيها عدد من المؤرخين والدارسين العرب المعاصرين، تقضي بالقول إن تشابهاً شديداً كان موجوداً بين الإمبراطور الميجي ومحمد علي؛ بين اليابان ومصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ تشابه تجلى في تقارب كبير بين البنى الاقتصادية في كل من بلد الإمبراطور المقدس في الشرق الأقصى، وبلدان عربية في الشمال الأفريقي على ضفة البحر الأبيض المتوسط؛ تشابه مظهره في إرادة التحديث عند كل من الميجي ورجاله وعند محمد علي، وقوامه التطلع إلى ما وقع في بلدان الغرب الأوروبي، والفعل الملموس فيه إيفاد البعثات التعليمية وإرسال الرحلات الاستكشافية إلى أوروبا، وتشابه يتخذ صوراً وأشكالاً أخرى كثيرة ومتنوعة، يتبارى أولئك الباحثون في الكلام عليها.

تلك الفرضية الأساسية أمكنها أن تغذي فكرة عامة فحواها محاولة الإجابة عن السؤال المحير: لماذا استطاعت اليابان (وحالها مثل «حالنا» في منتصف القرن التاسع عشر) أن ترتقي ذلك الارتقاء الذي مكنها من إحداث «القطيعة» مع الأزمنة المتقدة عليه وأن تنهض النهضة التي نعلم، في حين إن مصر، على الخصوص، ظلت عاجزة عن ذلك؟

إن الفرضية الأساسية التي كان الانطلاق منها، في النظرة المقارنة بين حال اليابان وحال بعض البلدان العربية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وأصبحت ـ لتداولها العجيب والسريع ـ اقتناعاً قويّاً وفكرة يكون الاطمئنان إليها، وقد أصبحت عند مؤرخ عربي معاصر نظرية متكاملة يصح تداولها في الجامعات والمنتديات العلمية؛ نظرية تفسر أسباب تأخر العرب وتقدم اليابان، وأسباب تعثّر النهضة العربية في مقابل تحقق النهضة اليابانية، وترجع ذلك كله إلى «تشابه المقدمات واختلاف النتائج»!!

هل يتعلق الأمر، حقيقة، بمقدمات تتشابه في ما بينها متى قارنا بين حال «الأمة العربية» في القرن التاسع عشر وحال اليابان في الفترة نفسها؟

إننا لا نجد نعتاً آخر نصف به هذا الاطمئنان إلى المقارنة الممكنة (بل والأكيدة عند ثلة من مؤرخينا ومفكرينا العرب) بين «النهضة العربية» و«النهضة اليابانية» سوى نعت المقارنة الساذجة، أو بالأحرى الوقوع في شرك المقارنة الساذجة التي تؤول، في جملة ما تؤول إليه، إلى ما وصفه مؤرخنا العربي الكبير ابن خلدون بالجهل بطبائع العمران ـ وهو جهل أشد ما يعيبه صاحب **المقدمة** على المؤرخين.

منذ بداية احتكاكنا بهذا الموضوع، لازمَنا شعور كان في بدايته جنينياً، ثم ما لبث أن تحددت خطوطه ومعالمه، ومؤداه أن تاريخ اليابان وشرح أسباب رقيها وتقدمها لا يمكن أن يكونا بالوضوح والسهولة اللذين يتراءيان للباحث منذ الوهلة الأولى متى اطمأن للتفسير السائد الذي يرى أن التقدم البشري يسير في خط واحد، وأن المجتمعات جميعها محكومة بالشروط والآليات نفسها المتعلقة بالانتقال من مرحلة دنيا ومتخلفة إلى مرحلة عليا ومتقدمة، وذلك انطلاقاً من مبادئ تحقيب تاريخي كوني ينطبق بالشكل والترتيب نفسيهما، وبحسب العوامل والمعطيات ذاتها على كافة المجتمعات أو، على الأقل، تلك التي تسعى من بينها جدياً إلى السير في اتجاه التقدم داخل المسار الكوني «النموذجي» لتاريخ البشرية.

ولازمَنا في الوقت عينه شعور مماثل بعدم الاطمئنان إلى التفسيرات السائدة والمتداولة في الكتابات العربية والأوروبية التي وقفنا عليها، والتي تكاد تجمع على أن تاريخ اليابان هو في واقع الأمر «درس تاريخي» نموذجي لدولة استطاعت، بنجاح باهر وفي وقت قصير لا يتجاوز نصف قرن من الزمان، أن تستوعب مقومات النموذج الأوروبي المتقدم، وأن تستبطن وتتملك مقدماته وتستنسخه، منسلخة بذلك من ربقة التخلف «الشرقي» ومنخرطة في المشروع «الغربي» الكوني باعتباره الطريق الوحيد والممكن لبلوغ مدارج الرقي والتقدم، وإعادة الاعتبار إلى الذات.

لقد كانت اهتماماتنا في بداية تعاملنا الطويل مع هذا الموضوع منصبّة على محاولة الإجابة عن الأسئلة «العملية» التي طورها المفكرون والسياسيون العرب في فترات عصيبة من تاريخنا الخاص حينما ازدادت قبضة الاستعمار إحكاماً، وتكرست سلطة الغرب الأوروبي، وانبسطت هيمنته على المجالات كلها، بما فيها مجال المعرفة التاريخية. لقد كان سعينا الأولي إذن، يتجه من منطلق عدة المؤرخ إلى

معرفة الكيفية الذكية والناجحة التي استطاع بها اليابانيون الوصول إلى ما وصلوا إليه من «تقدم»، وفهم هذه الوصفة وتبسيطها للتمكن من إدراك أسباب فشل المشروع نفسه في المغرب وتونس ومصر في المرحلة التاريخية ذاتها وانطلاقاً من الخصائص والمؤهلات ذاتها التي لا يخرج عنها أي مجتمع شرقي متخلف.

منذ القراءات الأولى لجيلنا في المراحل الأولى من الدراسة الجامعية، تشكّل في وعينا إحباط تاريخي قوي وأسى عميق لعدم استفادتنا ـ نحن المغاربة على الأقل ـ في عهد السلطان المولى الحسن، من الفرصة التاريخية التي لا يمكن أن تعوض، وهي الفرصة التي تمثّلت في البعثات العلمية الموفدة إلى أوروبا للنهل من معين الحضارة ومنابع التقدم في الوقت الذي نجح فيه غيرنا، والغير هنا هو اليابان تحديداً. كما لازم جيلنا التشكيك والاحتقار الضمني لكل ما أنتجه هذا التقدم الياباني من صناعة وتقنية لم تكن، في نظرنا، إلا تقليداً باهتاً لا يصمد أمام قوة النموذج الأوروبي الأصلي للمنتَج الياباني.

انطلاقاً من هذه المسلمات والأحكام القبلية المشتركة والراسخة، شرعنا في بحثنا ونحن على شبه يقين من أننا سننهيه بعد شهور أو أعوام قليلة. لكن، كلما تعمقنا في الموضوع، وتعددت قراءاتنا حول حقب تاريخ اليابان، وتعددت مصادرها والمدارس التي تنتمي إليها، وكلما اتسع فهمنا للثقافة اليابانية، تزعزعت قناعاتنا الأصلية، وبدأت في الاتضاح أمام أعيننا رؤية جديدة لتاريخ اليابان لم تصبح بالنسبة إلينا ممكنة إلا بعد أزيد من عقد على احتكاكنا بالموضوع.

على سبيل المثال لا الحصر، كشفت لنا المعطيات الإحصائية التي وقفنا عليها بشأن المجتمع الياباني قبل إصلاحات الميجي، أن الأمر لا يتعلق بـ «معجزة» تحققت فجأة بفعل الاحتكاك بالحضارة الأوروبية واستنساخها، وإنما بنتيجة تطور عميق وطويل في تاريخ اليابان، يتوجب علينا وعلى غيرنا فهمه وإعادة ترتيبه بتحقيق قطيعة واضحة، وبالتأكيد محفوفة بالمخاطر، مع كتابة تاريخية لم تصفّ بعدُ حساباتها العلمية مع ماضيها وماضي مدارسها الاستعماري. فعلى سبيل المثال، نذكر على نحو نوجزه الآن، ونتوسع فيه في البحث، أن نسبة العارفين بالقراءة والكتابة كانت في اليابان قبيل إصلاحات الميجي (١٨٦٨) ٤٠ بالمئة بين الذكور و١٠ بالمئة بين الإناث، وأن نسبة المتمدرسين من الأطفال اليابانيين في مطلع القرن العشرين وصلت إلى حدود ٩٧ بالمئة. بينما كانت نسبة الأمية في مصر ٩٣ بالمئة في مطلع القرن العشرين ـ وكما يقول شارل عيساوي (عام ١٩٨١) إنه

«حتى أيامنا هذه لم تصل البلدان العربية إلى مستوى التعليم الابتدائي الذي شهدته اليابان منذ ثمانين عاماً». ونشير إلى أن دور النشر فاقت ٣٠٠٠ دار في مطلع القرن التاسع عشر، وأن كتاباً واحداً طُبعت منه ١٥٠ ألف نسخة عام ١٨٦٧، وأن التوسع العمراني الذي عرفته إيدو (طوكيو اليوم) في نهاية القرن السابع عشر، جعل منها المدينة الأولى في العالم من حيث تعداد السكان، متقدمة في ذلك على باريس ولندن.

هذه المعطيات وغيرها في ثنايا هذا البحث، كانت وراء زعزعة القناعات وخلخلة المفاهيم، وكانت كذلك المبرر لاشتغالنا على النحو الذي ذهبنا فيه، ولتفصيلنا في بعض القضايا التي قد تبدو للوهلة الأولى جزئية أو ثانوية، غير أننا نعتبر، على الرغم من حجم هذا العمل، أن الأمر كان ضرورياً لتركيب فسيفساء تاريخ اليابان المعقد والفريد، والتوفر على الحد الأدنى من المادة المعرفية والوثائق التاريخية والمراجع والكتابات القادرة على تفنيد الأطروحات الأساسية التي «تستعمر» تاريخ اليابان، والتاريخ المعاصر غير الأوروبي بصفة عامة. هذا المطلب دفعنا، على امتداد ملازمتنا لهذا الموضوع، إلى الاشتغال في اتجاهين متوازيين:

الاتجاه الأول تفكيك وفهم ما استطعناه من مؤسسات المجتمع الياباني وثقافته وتنظيماته، والرجوع، بالنسبة إلى كل مستوى من مستوياتها، إلى عصورها المؤسسة الخاصة التي لا تنتمي بالضرورة إلى الحقبة أو الثقافة أو المجال نفسه؛ و**الاتجاه الثاني** تركيب ما حللناه على شكل قضايا وأطروحات شكلت بالنسبة إلينا الإطار الضروري لفهم الوقائع التاريخية، ومن ضمنها إصلاحات عصر الميجي.

حصيلة هذا التركيب هي الترتيب النهائي لعملنا في فصل تمهيدي وقسمين كنا مضطرين فيهما إلى المزاوجة بين التعريف بقضايا وأسباب ووقائع، قد يكون الأهم منها مجهولاً أو ناقصاً لدى القارئ العربي، وتحليل المعطيات واستخدامها لتركيب ما سمّيناه فسيفساء التاريخ الياباني.

بين السهولة الكبرى التي بدا لنا بها موضوعنا عند لحظة البداية، سهولة لم تكن تعدو الإجابة عن سؤال التقدم والتخلف بالاستناد إلى مرجعية التاريخ الغربي في لحظة من لحظات هيمنته وانتشائه، والتشعب والتعقيد الذي كان يزداد كلما تقدمنا في قراءاتنا لتاريخ اليابان والاحتكاك بلغته وحضارته، يقع هذا العمل الذي ربما تحتاج قراءته إلى بعض التوضيحات لفهم أطروحته المركزية وبنيته الداخلية، وذلك حتى لا يُقرأ كما يمكن أن تُقرأ به كل محاولة للتأريخ للوقائع

الجزئية والتعريف المصطلحي أو الموسوعي بالمؤسسات والأعراف والتقاليد. لهذا الغرض، نستغل الفرصة التي تتيحها عادة مقدمة العمل الجامعي لبسط أهم مكونات أطروحتنا، خاصة سؤالها المركزي الذي نصوغه على النحو التالي: كيف كان التقدم الياباني ممكناً؟ وما هي شروطه العامة، خاصة الداخلية منه التي بقيت، لقرون طويلة، وبكيفية قصدية وإرادية في معزل عن التاريخ العالمي وما اعتمل فيه من تفاعلات؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل المركزي، الذي سوف نفصل في دقائقه على امتداد هذا العمل، سمحت لنا باستخراج الخصائص التالية التي نعتبرها أساسية لفهم التقدم الياباني من جهة، وفهم أسباب تخلف وتعثّر محاولات التحديث والتقدم التي سعت إليها مجتمعات أخرى، من بينها المغرب وغيره، من جهة أخرى، وذلك في الشروط التاريخية الدولية نفسها، وفي غياب تام للمقومات الداخلية التي أنتجها المسار الفريد للمجتمع الياباني:

● المحدد الإيكولوجي: يعلمنا الدرس الأنثروبولوجي أن البنى الأساسية لأي مجتمع تتحدد بالإطار الإيكولوجي، الذي يحدد نمط العيش ونظام السلطة وإنتاج واستهلاك الرموز الثقافية. بهذا المعنى يمكن الحديث عن المجتمعات الصحراوية أو الجبلية أو النهرية... إلخ.

هذا المحدد يبدو بالنسبة إلى اليابان قوياً من الناحية الاجتماعية وحاضراً بقوة على المستوى السياسي؛ فموقع الجزر اليابانية القصي، الذي يفصله عن الصين مثلاً أزيد من ٨٠٠ كم، وتعرضها المستمر للأنواء التي تعرفها شرق القارات، وفي مقدمتها الأعاصير، تجعل الوصول إليها أو السفر منها أمراً محفوفاً بالمخاطر بل متعذراً، خاصة على امتداد العصور التاريخية الطويلة التي كانت فيها الشروط التقنية للملاحة وبناء المراكب شديدة البساطة. هذه الشروط الإيكولوجية الخاصة جعلت اليابان دائماً في منأى عن الاستعمار وعن حركات السكان والهجرات الدولية الكبرى، التي طبعت تاريخ معظم المجتمعات الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك، تتميز اليابان بطابعها الجبلي المهيمن وشح مواردها الفلاحية، خاصة أن الأراضي الصالحة للزراعة لا تتجاوز ١٤ بالمئة من المساحة الإجمالية. وتتميز أيضاً بارتفاع وتيرة الكوارث الطبيعية والهزات الأرضية. هذه المعطيات الطبيعية تمت ترجمتها على شكل معتقدات وسلوك سياسي واجتماعي لا غنى عنه في فهم تاريخ اليابان ولحظاته القوية. في هذا الإطار، يمكن فهم

سياسة العزلة التي جعلتها اليابان ثابتة من ثوابتها البنيوية، وكذلك وحدة اللغة والثقافة اليابانية ودور المعتقد الديني في إضفاء الطابع المقدس على السلطة السياسية المتجسدة في الإمبراطور الذي يمثل الشخصية المركزية في هذا النظام، ما دام المادي واللامادي يلتقيان في شخصه باعتباره متحدراً من أقوى وأبهى مظاهر الطبيعة، أي الشمس.

• هذا التفاعل بين الإنسان والثقافة والمجال، أنتج على المستوى الأنثربولوجي شخصية قاعدية تتميز بالصرامة والانضباط، وبذوبان الشخصية الفردية في هوية جماعية تعتبر بمثابة المرجعية العليا للنظام الاجتماعي الياباني برمته، وتحكمها قوانين صارمة للتراتبية والطاعة والشرف والتضحية، وهي مفاهيم نلمس ترجمتها الاجتماعية في المكانة المركزية التي كانت، وما زالت، للأسرة على مستوى الترتيب الاجتماعي برمته، ومفاهيم التضحية بالذات لإنقاذ الشرف العمومي التي نقف على تجلياتها، سواء في ثقافة الانتحار الطقوسي (الهاراكيري) إنقاذاً للفرد أو الجماعة من مذلة اجتماعية أو سياسية أو التضحية بالذات لمواجهة الغزاة (الكاميكاز).

• من ناحية أخرى، يتجلى هذا الحضور للطبيعة في ثقافة التزيين وتخطيط المدن وصيانة الحدائق، ومختلف أنواع التعبير الثقافي التي تفصح عن دقة نظام يسعى في الوقت نفسه إلى التحكم في الطبيعة وتغيرها، والتحكم في أفراده وفي معتقداته. هذا الطابع «الإرادي» للتاريخ الياباني جعل اليابانيين يصدون الأجانب، غير أنهم ينفتحون عليهم بإرادتهم، ويأخذون منهم ما يشاؤون، سواء تعلق الأمر باستيراد الخيول وتقنيات تدجينها، أو السماح بدخول البوذية أو المسيحية بمباركة من المؤسسة الإمبراطورية.

• هذا الامتزاج بين التنظيم الاجتماعي والمعتقد الديني بالصرامة التي يقتضيها الإطار الإيكولوجي للعيش شجع على انتشار مبكر لتقاليد فكرية ودينية، في مقدمتها الكونفوشيوسية، بعد صهرها داخل الثقافة اليابانية، خاصة منذ عصر توكوغاوا، وعلى إنتاج مشروعية داخلية خاصة، انطلاقاً من تركيب اجتماعي يعلي من شأن المعرفة والتعليم، ويجعل من الأسرة نموذجاً مثالياً، بالمعنى الفيبري، للمجتمع برمته، وهو نموذج كانت فيه المرأة، وما زالت إلى الآن، تحتل المرتبة الثانية بعد الرجل وتخصص حياتها بالكامل، بعد استكمال تعليمها، لخدمة الأسرة والتفاني في تربية الأطفال. هذا النظام الأسري في صورته المثالية

النمطية أنتج وعزز منذ وقت مبكر، المكانة المركزية للإمبراطور ولتراتب اجتماعي مغلق وشديد الإحكام.

لقد ترسخت لدينا، من خلال ملازمتنا هذا العمل، قناعة أساسية تتعلق بضرورة تخليص الكتابة التاريخية من قبضة تصور مهيمن للتاريخ يتأسس انطلاقاً من نزعة مركزية أوروبية (Europeocentrism) ما زالت تسكن الكتابة التاريخية المعاصرة. فقد تأسست هذه النظرة وترسخت بالتدريج انطلاقاً من تحويل الهيمنة الاستعمارية على الشعوب إلى هيمنة على مستوى علمي التاريخ والاجتماع. وهكذا، فإن فكرة المتحضر/المتوحش، المتقدم/المتخلف، التاريخي/اللاتاريخي، بالإضافة إلى معيارية التاريخ الأوروبي وكونية حقبه ما زالت تسكن الكتابة التاريخية حول المجتمعات غير الأوروبية. في هذا الصدد، تعتبر فكرة الشرق والغرب في حد ذاتها خير دليل على ترسخ هذه النزعة في تقاليد الكتابة التاريخية المعاصرة؛ فعلى الرغم من كروية الأرض وتساوي جميع النقط التي تقع على خط العرض ذاته، فإن المركزية الأوروبية سلّمت بالمركزية الجغرافية (والفكرية) للغرب، وجعلت منها أساساً نظرياً للتحليل والفهم.

لقد اهتمت العلوم الاجتماعية، وفي مقدمتها الأنثروبولوجيا، بهذه المسألة غداة الحرب العالمية الثانية وصعود حركات التحرر من الاستعمار، وجعلت من فكرة التعدد والتنوع الحضاري والمساواة بين الحضارات والثقافات أساساً لإنتاج خطاب علمي جديد يمكّن من المساهمة الفاعلة في فهم جديد لثقافات المجتمعات خارج المركز الأوروبي وخارج أحادية النظرة الأيديولوجية التي أنتجتها المركزية الأوروبية، الأمر الذي لم يتم إلا بشكل محدود جداً في الكتابة التاريخية، خاصة ما تعلق منه بتاريخ اليابان.

انطلاقاً من هذا المعطى، لا يمكن في نظرنا القيام بقراءة صحيحة لتاريخ اليابان، ولغيره من المجتمعات، دون وضع التحقيب التاريخي السائد موضع مساءلة وتمحيص. إن التحقيب السائد يجعل من تاريخ أوروبا الغربية الخاص مرجعاً للتاريخ الإنساني برمته، بعد تجريده من الوقائع الخاصة به، وفصله عن القضايا والتفاعلات العينية والواقعية التي أنتجته. بهذا المعنى، يجد المؤرخ، الذي يتعرض لتاريخ غير تاريخ أوروبا، نفسه أمام عمليتين متوازيتين وهما، من ناحية، عملية سير الواقع بخصوصياته الدقيقة، بأسماء من صنعوه والتنظيمات التي تطور من خلالها، ومن ناحية أخرى، أمام عملية سير التاريخ وتدوينه وتفسير وقائعه

انطلاقاً من تحديدات نظرية ومنهجية تتجه نحو الكونية والشمولية ـ الأوروبية عملياً. هكذا، يجد مؤرخ الهنود الحمر نفسه أمام شعوب لا تاريخ لها ما دامت لم «تُكتشف» ولم تدخل دائرة التاريخ إلا عام ١٤٩٢، أي عندما دخلت الوعي التاريخي الأوروبي.

إن التحقيب التاريخي ضرورة علمية، ولا يمكن تحويل التاريخ من معرفة بأخبار المتقدمين إلى علم دون تبنّي فكرة التحقيب، إلا أن كونيته ووحدة مرجعيته، التي فرضتها المدرسة التاريخية الأوروبية في مرحلة صعود الغرب وهيمنته الاستعمارية على الشعوب الأخرى ومصادرة تاريخها، هما ما يطرحان مشكلاً نعتقد أن جميع الأحكام القبلية المتعلقة بالتقدم الياباني وتفسير أسبابه بربطها بمحاكاة الغرب واختصار مراحله التاريخية هي بمثابة أبرز النماذج الدالة عليه. في هذا الإطار، رأينا من المفيد من الناحية النظرية الوقوف على مسألة كانت دائماً موضوع نقاش داخل المدارس الثقافية المختلفة، وهي مسألة الفيودالية.

يتفق التفسير الماركسي مع مختلف التفسيرات التاريخية الأخرى على اعتبار الفيودالية لحظة مظلمة من تاريخ أوروبا، وبكيفية إسقاطية، من تاريخ العالم، ارتبطت بالتخلف والجهل والخرافة (وهو أمر بدأ يتراجع عنه بعض المؤرخين). إلا أن القراءة المتأنية والنقدية لتاريخ اليابان تبين أن المرحلة الفيودالية هي التي عملت على تقعيد التنظيم الاجتماعي وإرساء الأسس العميقة للتقدم والتحديث، وهو ما يتعارض تماماً مع خصائص الفيودالية النمطية كما حددها التحقيب التاريخي السائد. هذا التناقض بين سير الواقع وسير النظرية التاريخية هو الذي جعل، في رأينا، المؤرخ الأوروبي ومن نحا نحوه، عاجزين عن فهم أسس التحديث الياباني، وتكثيف أسباب التقدم كلها في اللحظة التي تصادف فيها تطور المجتمع الياباني في القرن التاسع عشر، وتحديداً مع إصلاحات الميجي، وهو ما يجيز الحديث عن «معجزة يابانية» بحكم أن الفترة الممتدة من عصر الميجي والحرب الروسية ـ اليابانية، التي سجلت دخول اليابان إلى الساحة الدولية كقوة عظمى متقدمة، لا تتجاوز الأربعة عقود، ناهيك بأن الحديث عن «معجزة» في ميدان التاريخ يجعل مثل هذا الخطاب خارج حدود العلم الذي يسعى التحقيب التاريخي نظرياً إلى إرساء حدوده وتوضيح معالمه.

إن **أحد** مطامح هذه الرسالة هو، على وجه التحديد، تقديم الأدلة من تاريخ اليابان عموماً، وانطلاقاً من القرن السادس عشر (قرن التحول الأكبر في

اليابان، مثلما كان كذلك في الغرب الأوروبي)، خصوصاً أن المقدمات «هنا» والمقدمات «هناك» هي أبعد ما تكون عن التشابه، بل لعلها كانت ـ على وجه الإجمال ـ أشد ما تكون تغايراً.

لا يماثل هذا الوهم «العربي» في النظر إلى اليابان المعاصر، ومن ثم القول بإمكان المقارنة بين حاله و«حال الأمة» إلا ذلك الوهم الآخر ـ الأوروبي هذه المرة ـ الذي يقضي بوجود «قطيعة» في التاريخ الياباني بين عصر الميجي والعصور المتقدمة عليه. ومن ثم إرجاع الطفرة النوعية إلى «المعجزة اليابانية» من جانب، وإلى اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر من جانب آخر.

و**ثاني** مطمح لهذا البحث هو الكشف عن خطأ هذه النظرة وقصورها، اعتماداً على ما نعتقده من أن العمل التاريخي هو ذاك الذي يتقدم بتؤدة وحذر شديدين، ويحذر المغامرة بإطلاق الفرضيات المغامرة، مستعيضاً عنها بالاستعلام التاريخي المتسع المدى، وينشد الوقوف على المصادر الأصلية الأولى، ويجتهد في استقصاء البنى الاجتماعية والثقافية العميقة، وفي معرفة الروابط بين الأنماط المختلفة (الرمزية والفعلية). والخطأ في هذه النظرة هو صدورها عن نوع من النرجسية، التي تظل، بموجب القانون السيكولوجي، ترى ذاتها في كل شيء، فتقوم بعمل إسقاطي للتاريخ والثقافة على الشعوب والأمم المختلفة عنها.

والمطمح **الثالث** الذي يتوق إليه هذا البحث، هو محاولة تخليص قراءتنا للتاريخ الياباني المعاصر من خرافة «القطيعة» التامة والمطلقة بين عصر الميجي والعصور المتقدمة عليه؛ إذ لا شيء أكثر سذاجة من هذا الاعتقاد، ولا معرفة لتاريخ اليابان أكثر التصاقاً بالخطأ من هذا التقرير. ذلك أن كل المعطيات التاريخية تكذبه وتنفي صحته. فليس صحيحاً البتة أن كل شيء قد تقرر بالنسبة إلى اليابان المعاصرة في العقود القليلة التي تلت اعتلاء الإمبراطور الميجي عرش اليابان. بل إن ما هو في ظاهره نقلة (وينبغي الحديث بالأحرى، عن «قفزة» عند دعاة تلك النظرة)، كان في حقيقته مسيرة طويلة متصلة مسافتها ثلاثة قرون على الأقل، هي على وجه التحديد الفترة التي عاشتها اليابان في ظل حكم أسرة توكوغاوا (أو عصر إيدو بحسب تسمية أخرى).

فعلى سبيل المثال لا الحصر، لا يمكن إدراك أهم أبعاد إصلاحات الميجي إلا بإدراك موقع المؤسسة الإمبراطورية في المنظومة السياسية اليابانية، وفي استمرارها عبر التاريخ قروناً كثيرة لم تفقد فيها المؤسسة الإمبراطورية مشروعيتها،

ولم ينل نفص من قدسيتها عند الفرد الياباني، وإن خضعت للضغط الشديد والتهميش من قبل الشجون ردحاً من الزمن غير قليل.

ولا يمكن للمؤرخ أن يدرك السر في «الانتفاضة» التي حصلت ضد الشجون إلا متى أحسن الانتباه إلى مجمل ما حصل في عصر توكوغاوا. وبعبارة أخرى، كان عصر الميجي وإصلاحاته نتيجة ولم يكن سبباً ولا مقدمة، نتيجة لمسيرة طويلة معقدة، لكنها منطقية، لن تستعصي على الفهم الذكي الذي يسعى إلى التماس نظام الوجود الياباني: في السياسة والاقتصاد والثقافة وفي الاجتماع. هل نحن في حاجة إلى التصريح بالقول إن التاريخ الياباني لا يجد مفاتيح فهمه إلا في التاريخ الياباني ذاته؟!!

هذا الذي نقول عنه إنه التاريخ الياباني يستدعي من الباحث صبراً وأناة وإصراراً على الفهم. فكأن طالب المعرفة (معرفة تاريخ اليابان المعاصر والأسباب التي جعلت انخراطه في سيرورة التحديث أمراً ممكناً في عصر الميجي) يكون في حاجة إلى تعلم بعض من العناد الياباني. نتحدث عن الأناة والصبر لأن سيرورة المعرفة هذه تقتضي إلماماً كافياً بالمجال، والأصول والمرجعيات والمكونات الثقافية، وبالتاريخ والمجتمع والمؤسسات السياسية البالغة التعقيد، قبل أن نقف على بوادر التحديث ومقوماته؛ بوادر ومقوّمات تجلياتها: التطور الهائل في العمران والمواصلات، والنمو الديمغرافي والتنامي المستمر في النظام التعليمي، وانتشار المدارس العامة والخاصة، والكم الهائل من الكتب التي كانت تصدر سنوياً في أصناف المعرفة المختلفة قرابة قرنين قبل إصلاحات الميجي، والارتفاع في أعداد دور النشر والمكتبات والمسارح ودور الفرجة وتطور ثقافة تجزية الفراغ... وإلى جانب هذه المعطيات كلها (وأخرى كثيرة تتفرع عنها) تستدعي معرفة تاريخ اليابان طرق دروب أخرى من شأنها أن تقربنا من معرفة المكوّنات الثقافية للشخصية اليابانية ذاتها، والوقوف على ثوابتها التي نرى أنها ما تزال لها حتى أيامنا هذه. كما تستدعي تلك المعرفة محاولة استخلاص المعنى (أو المعاني) التي تكمن في ما اعتاد الباحثون نعته بـ «عزلة اليابان» وأسبابها، وبصفة أخص، الأثر الفاعل في تلك العزلة في تكون الشخصية اليابانية المعاصرة، تلك التي أخذت ملامحها تتبلور بعد إصلاحات الميجي.

إن من المفيد للدارس مثلاً أن ينتبه إلى عناصر التشابه في الشخصية اليابانية الواحدة، بين الموقف من الحضارة الصينية في العصور الوسطى (ابتداء من القرن

السادس الميلادي تحديداً) والمواقف (كذا بالجمع) من الحضارة الغربية: في القرن السادس عشر، ثم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومحاولة التخلص من جملة من الأوهام التي تحيط باليابان، دولة ومجتمعاً وثقافة، هي ـ في كلمة جامعة ـ ما تستهدف دراستنا بلوغه. ولا يكون ذلك إلا بمحاولة إحلال المعارف الصحيحة مكان الأوهام والتصورات الخاطئة والصور النمطية الشائعة. إنه مركب شاق ومطلب عسير اجتهدنا في تقصيه فترة غير قصيرة من عمرنا الجامعي والطبيعي أيضاً، أفدنا فيه من معارف ثلة من المؤرخين والباحثين النابهين في الجامعات الأمريكية واليابانية، ومن فضول حملنا، من جملة ما حملنا عليه، على التعليم الأولي والضروري من اللغة اليابانية في غير قليل من المكابدة والعناء.

وأخيراً، وعلى سبيل الملاحظة والتنبيه، نقدم إضافة حول طريقة كتابة الأعلام والمصطلحات اليابانية في الأحرف العربية. وبغير إيراد ما قد يحسن إيراده من معلومات ذات صلة، حول طريقة كتابة اللغة اليابانية، فإن الباحث تعترضه صعوبات كثيرة عند كتابة المفردات اليابانية باللغة العربية خاصة تلك المتعلقة بالمد وحروف العلة، أو الحركات التي لا يوجد لها مقابل في اللغة العربية. وللتغلب على هذه الصعوبات وتقريب القارئ قدر الإمكان من النطق الأصلي، اعتمدنا على طريقة «هيببورن» على أساس وضع مقابل كل مصطلح أو مفردة بالحروف اللاتينية عندما يُذكر في النص أول مرة. وعموماً استعملنا حروف العلة بمثابة حركات للرفع والنصب والجر، وليس كحركات للمد مثل: ميناموتو (Minamoto).

أما في ما يخص الحروف التي تطرح إشكالاً، فقد استعملنا الغين مقابل حرف g، والتاء مقابل t، باستثناء بعض الأعلام المشهورة في العربية مثل طوكيو وكيوطو والشجون. ولإبراز الأعلام وتمييزها، كتبناها بالأحرف الغليظة. أما المصطلحات والمفردات اليابانية من غير الأعلام، فإننا نضعها عندما ترد أول مرة بين مزدوجتين، ثم نحذف المزدوجتين بعد ذلك.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن الطريقة اليابانية التقليدية في كتابة الأعلام البشرية تبتدئ بالاسم العائلي وتنتهي بالاسم الشخصي، وهو ما حرصنا على احترامه.

فصل تمهيـدي

أرخبيل اليابان
المجال والإنسان والمسار التاريخي

أولاً: منطق المجال

يعرّف اليابانيون أرضهم بـ **نيهون** (*Nihon*)، وهي تسمية مكونة من رمزين: **ني 日** ، ومن معانيها الشمس والضوء واليوم؛ **وهون 本** ، ومن معانيها الأصل والكتاب، أو تكون ظرف مكان (تحت). وهو مصطلح يمكن ترجمته في هذا السياق بـ «أصل الشمس» أو «أصل الضوء» أو «تحت الشمس»[1].

يعيش اليابانيون في جزر شبه منعزلة وذات خصوصيات طبيعية متميزة جعلت تصورهم للتاريخ أكثر تركيزاً على الذات. وهكذا، طور اليابانيون حساً تاريخياً متميزاً يتغذى في تغيره من العوامل الجغرافية، التي تميز الجزر اليابانية الحديثة التكوين جيولوجياً، وهي جزر ما تزال قشرتها تخضع يومياً لتحركات تعكسها الزلازل والبراكين. وانطلاقاً من هذه العناصر، طور اليابانيون تصوراً

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية صينية الأصل، ذلك أن الصينيين أطلقوا عدة تسميات على اليابان واليابانيين، ومن بينها جوبين (Jeupenn)، التي شُرع في استعمالها في منتصف القرن السابع الميلادي تقريباً للدلالة على الجزر الواقعة شرقي القارة. وقد حوّر اليابانيون نطق الرموز الصينية إلى النطق الياباني، فكانت «نيهون». حول تفسير هذا الأصل، انظر: Edmond Papinot, *Historical and Geographical Dictionary of Japan*, with an introd. to the new ed. by Terence Barrow, Tut Books R (Rutland, VT: C. E. Tuttle, [1972]), p. 443.

أمّا «اليابان» المشتقة من التسميات الأوروبية: Japan وJapon، فهي مأخوذة عن تحريف لأصل صيني آخر كما أشاعه ماركو بولو في كتاباته في القرن الثالث عشر.

مقدساً للمجال يجعل من الفعل المؤسس للجزر فعلاً إلهياً يسجل في الوقت نفسه ميلاد الأرض، وميلاد السلطة، ومباركة الآلهة، وتوزيع السلطة بين جوهر الذكورة والأنوثة.

وهذا الامتزاج هو الذي يجعل السلطة والإمبراطور والجزر تشكل وحدة لا تنفصم عراها. وقد تجذر هذا الارتباط الميثولوجي بين المجال والسلطة وبداية التاريخ في الوعي الياباني من خلال مجموعة من الأساطير، التي أرّخت للفعل الأول المؤسس للسلطة والمجال. ذلك أن الأسطورة التي تتصدر مؤلف الـ **كوجيكي**[٢] تنسب ميلاد الجزر اليابانية إلى الآلهة السماوية، وتجعلها من خلفتها[٣].

وما هو مثير في هذا التصور الميثولوجي هو الربط بين المجال وشخص الإمبراطور الذي جعلهما يتحدران من أصل واحد، ويحظيان بالتقديس الذي تحظى به الـ «كامي»[٤]. ومن ثم ظل اليابانيون يعتقدون أيضاً أن أرضهم توجد تحت حماية الآلهة ورعايتها، فالإلهة **أماتيراسو**[٥] ـ ربة الشمس ـ هي التي

---

(٢) يعتبر مؤلف الـ **كوجيكي** (*Kojiki*)، أو «وقائع الأشياء القديمة»، الذي جُمع عام ٧١٢ أوّل مؤلف بشأن تاريخ اليابان وضعه اليابانيون أنفسهم بعد أن استوعبوا الثقافة الصينية وتمكنوا من الكتابة برموزها. وعادةً ما ينسب هذا التأليف إلى جامعه أو نو ياسومارو (O No Yasumaru)، غير أن من المحتمل أن يكون أكثر من شخص قد شاركوا في تأليفه. كما أنه من الصعب تصنيف كتاب الـ **كوجيكي** في خانة واحدة أو حصره في خانة التاريخ وحدها، فهو قبل كل شيء المصدر الأساسي في أدبيات الشنتو التي تفتقر إلى كتاب مقدس. وفي ما يتعلق بأهمية هذا التأليف وأبعاده الدينية، انظر مقدمة الترجمة العربية التي قام بها محمد عضيمة لهذا التأليف: **الكوجيكي «وقائع الأشياء القديمة» الكتاب الياباني المقدس**، ترجمة وتحقيق محمد عضيمة (بيروت: دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩). وانظر مقدمة الترجمة الإنكليزية التي قام بها باسيل هول تشامبرلان (١٨٥٠ ـ ١٩٣٥) والتي نشرت أول مرة سنة ١٩٠٨، *The Kojiki: Records of Ancient Matters*, translated by Basil Hall Chamberlain (Tokyo: Charles E. Tuttle Company, 1993).

(٣) كان ميلاد الجزر اليابانية، حسب الأسطورة، نتيجة زواج الإله إزاناغي (Izanagi) والإلهة إزانامي (Izanami).

(٤) تُستعمل في الترجمات الأوروبية عادة مفردة آلهة، من قبيل المفردات الإنكليزية: (Gods, Deities)، كترجمة لـ «كامي» اليابانية، وهي ترجمة لتقريب المعنى فحسب؛ ذلك أن لفظ «كامي» يحمل حقلاً دلالياً متعدد الأبعاد: منها الآلهة بالمعنى المراد في الديانات الإغريقية والرومانية وغيرها، وأيضاً الأرواح وحتى بعض الأفراد الذين يرفعون إلى مرتبة الـ «كامي» بعد وفاتهم، وأبعاد أخرى.

(٥) تعتبر ربة الشمس **أماتيراسو** أهم آلهة الشنتو إطلاقاً. واسمها الكامل **أماتيراسو أومي كامي** (Amaterasu Omikami)، ممّا يمكن ترجمته تقريباً بـ «الإلهة العظمى التي تضيء السماء». وقد أنجبت من جسد الإله إيزاناغي عند قيامه بتطهير عينه اليسرى من الدنس الذي لحق به بعد زيارته للعالم السفلي. وترجع أهمية الإلهة **أماتيراسو** إلى أن الأسرة الإمبراطورية الحاكمة تتحدّر من سلالتها. وقد أقيم لها معبد ومزار في خليج إيسي (Ise)، وهو أهم معبد لدى معتنقي ديانة الشنتو.

أرسلت حفيدها **جيمو**[٦] ليسهر على رفاهيتها ويقوم بحكمها نيابة عنها. وفي الفترة التي تعنينا، أي العصر الحديث، احتج القادة اليابانيون في رفضهم للديانة المسيحية وطرد المبشرين المسيحيين في مطلع القرن السابع عشر بأن أرض اليابان أرض الآلهة لا يجوز تدنيسها، في إشارة إلى هذا الأصل المقدس.

كما أن استماتة القوات اليابانية في الدفاع عن الجزر اليابانية والإمبراطور خلال الحرب العالمية الثانية لا تخلو من هذا الاعتبار الديني والقدسية التي يضفيها اليابانيون على أرضهم وإمبراطورهم.

لا شك أن الوسط الطبيعي يؤدي دوراً مهماً في حياة الإنسان والتجمعات البشرية عموماً؛ فتأقلم الإنسان مع الطبيعة وتأثره بها وتأثيره فيها، كلها عوامل ذات أهمية في تحديد أمزجة الناس وطباعهم ونظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وفي ما يخص اليابان، أولى المؤرخون اهتماماً خاصاً للجغرافيا ـ الموقع والتضاريس والمناخ والموارد الطبيعية وما إلى ذلك ـ باعتبارها عاملاً مفسراً للمسار التاريخي لليابان وتفرده الثقافي والحضاري. فمثلاً كتب **جورج سانسوم**، رائد الدراسات اليابانية في الجامعات الغربية، قائلاً:

هذه هي الظروف [في إشارة سالفة إلى المعطيات الطبيعية] التي حددت شكل الجزر اليابانية وتكوين تربتها وسلوك سكانها، أو ما نسمّيه بصورة غير دقيقة السمة الوطنية. هذا السلوك تشكل نتيجة ردة فعل الشعب تجاه بيئته. وإن الفهم التام للمسار التاريخي لليابان لا يمكن التوصل إليه إلا بمعرفة الخصائص الطبيعية لأرضه[٧].

ولئن كان جل المؤرخين يجمعون على أهمية العامل الطبيعي، فإنهم يختلفون في تحديد الانتماء الجغرافي لليابان؛ فهناك من وضع اليابان ضمن النطاق الجغرافي للرياح الموسمية التي تعم شرق القارة الآسيوية، شأنه شأن الهند الصينية وقسم من الصين، مؤكداً الانتماء اليابان الآسيوي الذي يتسم بتوافر الموارد المائية والاستقرار الزراعي، وتطور أنظمة حكم مستبدة تقوم على أساس توفير منشآت الري وحمايتها، كما دافع عن ذلك سانسوم وغيره من الجيل الأول.

---

(٦) جيمو هو أوّل إمبراطور في تاريخ المؤسسة الإمبراطورية اليابانية بحسب أسطورة الشنتو. وكانت بداية حكمة عام ٦٦٠ ق.م. وهو، حسب معتقدات الشنتو، سليل الآلهة.

(٧) George Bailey Sansom, *A History of Japan to 1334* (Tokyo: Tuttle, 1990), p. 3.

بيد أن الجيل المتأخر من الدارسين نزع إلى التشديد على التفرد الطبيعي للجزر اليابانية رغم وقوعها في هذا النطاق؛ فالمؤرخ **كارل ويتفوغل** وضع اليابان، في كتابه **الاستبداد الشرقي**، على هامش القارة، مخرجاً إياها من نطاق الأنظمة الاستبدادية الشرقية التي سادت من تركيا إلى الصين، وذلك اعتباراً للمرتفعات الجبلية التي حالت دون قيام حكم مركزي مستبد. ورغم تأثر اليابانيين بنظام الحكم الصيني منذ القرن السادس الميلادي، فإنهم فشلوا في إقامة حكم مركزي على غرار الصين. وهذا ما جعل اليابان، في نظر **ويتفوغل**، أقرب إلى أوروبا منها إلى الصين:

على الرغم من وجود عناصر ثقافية صينية كثيرة [في المجتمع الياباني] إلا أن اللامركزية ونظام الملكية [ملكية الأرض] التي قامت عليها يابان القرون الوسطى، جعلتها أقرب إلى النظام الفيودالي البعيد في عالم أوروبا منها إلى أنماط الري القائمة في الصين القريبة(٨).

يقع أرخبيل اليابان في المحيط الهادئ، قبالة الساحل الشرقي لقارة آسيا، ويفصله عنها بحر داخلي يعرف ببحر اليابان. ويتشكل هذا الأرخبيل من أربع جزر كبرى(٩)، إضافة إلى عدد هائل من جزر صغيرة تعد بالمئات. وتنتظم هذه الجزر على شكل قوس يمتد شمال خط الاستواء من الدرجة ٢٠ إلى الدرجة ٤٥. ولإعطاء فكرة تقريبية، فإن الجزر اليابانية الواقعة في أقصى الجنوب توجد على خط العرض نفسه الذي يمر وسط الصحراء الكبرى في شمال أفريقيا، في حين تقع الجزر الشمالية اليابانية على الخط نفسه الذي يمر شمال فرنسا(١٠).

يبدو أثر هذا الموقع في مسار اليابان التاريخي في عزله نسبياً عن القارة الآسيوية؛ فجزر اليابان لا تقترب سوى واحدة منها (**كيوشو**) من شبه الجزيرة

---

(٨) Karl August Wittfogel, *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power* (New York: Vintage Books, 1981), p. 189.

(٩) وهي على التوالي من الشمال إلى الجنوب: هوكايدو: ٨٣,٠٠٠ كم٢؛ هونشو: ٢٣١,٠٠٠ كم٢؛ شيكوكو: ١٨,٠٠٠ كم٢؛ كيوشو: ٤٢,٠٠٠ كم٢، ومساحتها الإجمالية ٣٨٠,٠٠٠ كم٢. والجزيرة الوسطى هونشو هي أهم هذه الجزر؛ إذ تحوي أهم السهول التي ظهرت فيها السلطة المركزية. وهي اليوم موطن العاصمة وأهم المدن والصناعات.

(١٠) تجدر الإشارة إلى أن أرخبيل ريوكيو الواقع في أقصى الجنوب لم يُضَمّ رسمياً إلى اليابان إلا في أواخر القرن التاسع عشر، بينما اقتطعت الجزر الشمالية من الأرخبيل (جزر كوريل وجزيرة سخالين) وأصبحت تابعة رسمياً للاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية.

الكورية، في حين تبتعد الجزر الأخرى عن ساحل القارة الذي يفصلها عنه بحر اليابان، وهو ساحل كان قسمه الشمالي شبه خال بسبب قسوة المناخ البارد (يشكل اليوم قسماً من **منشوريا** و**سيبريا**). أما الصين، فكان مجال نفوذها يقع إلى الجنوب، على بعد مسافة تزيد على ٨٠٠ كم، ويفصلها عن الجزر اليابانية بحر الصين الشرقي، حيث تكثر عواصف التايفون خلال فترة من السنة فتحول دون قيام رحلات بحرية منتظمة بين الصين واليابان.

وهكذا، لو كانت اليابان في موقع أقرب إلى الساحل الصيني لما تفردت بحضارة خاصة في نطاق العالم الصيني، ولو كان موقعها أبعد مما هو عليه لما طالتها المؤثرات الصينية، كما هو حال جزر الفليبين (انظر الخريطة الرقم (١)).

وعموماً كان هذا الموقع سبباً في تفرد اليابان وخصوصيتها الحضارية، وسبباً في اللحمة القومية التي تجمع بين اليابانيين، وتطويرهم لشعور بالانتماء إلى عرق واحد، والاختلاف عن الآخر، مثلهم في ذلك مثل موقع البريطانيين بالنسبة إلى سكان القارة الأوروبية.

يتميز مناخ أرخبيل اليابان بالانتظام ووفرة المياه، وهو مناخ مكن اليابانيين من القيام بزراعة منتظمة تقوم أساساً على إنتاج الأرز، الذي وفر مادة أساسية في تغذيتهم خلال الألفي سنة الماضية. فعلى الرغم من ضيق المساحة المزروعة وندرة السهول (٧٤ بالمئة من الجزر اليابانية جبال ومرتفعات، انظر الخريطة الرقم (٢))، اعتمد اليابانيون منذ القدم على الري وإقامة المدرجات (أو المصطبات) لزراعة المنحدرات التي لا يمكن استغلالها بالاعتماد على الأمطار فقط. ونتيجة توافر الغذاء بشكل منتظم وبوفرة، لم تعرف اليابان فترات طويلة من المجاعات التي عادة ما تكون سبباً في الثورات وتغيير الأنظمة. ومن ثم يمكن القول إن المناخ ـ إضافة إلى العوامل الطبيعية الأخرى ـ ساهم إلى حد ما في الاستقرار السياسي والاجتماعي، وبالتالي في المسار التاريخي. وقد ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات يابانية حاولت تفسير مسار اليابان التاريخي من منظور إيكولوجي يعتمد أساساً على الأبحاث المناخية. ومن بين ما افترضه أصحاب هذا التيار، أن تحول موطن السلطة من حوض **كيناي** في الجنوب (انظر الخريطة الرقم (٣)) إلى سهل كانتو في الشمال (انظر الخريطة الرقم (٤)) في مطلع القرن السابع عشر، كان نتيجة التحولات المناخية التي كانت لصالح المناطق الشمالية بسبب ارتفاع درجات الحرارة في المناطق الوسطى والغربية.

وحسب المنظور ذاته، فإن نشأة الدولة في حوض **كيناي** كان بسبب الظروف المناخية الملائمة في القرن الخامس الميلادي[11].

ونتيجة هذه الظروف المناخية الملائمة، تمتع اليابانيون بطبيعة تتنوع مناظرها وتختلف ألوانها بحسب الفصول. وقد انعكست هذه الطبيعة على حياتهم، فشغفوا بها، ووقتوا بفصولها، واحتفوا بكل مظاهرها، وغيروا مأكلهم وملبسهم على إيقاعها. وقد شغف اليابانيون بالطبيعة منذ القدم، فكونت جزءاً من معتقداتهم، واتخذوا من منتجعاتها مكاناً للمعابد، وكان التعبد في اللجوء إلى أحضانها وتأمّل جمالها والخلود إلى هدوئها. ولا غرابة في الأمر، فالفلسفة التي تقوم وراء عبادة الشنتو[12] والبوذية في الصيغة التي انتشرت بها في اليابان، تنبني على أساس الانسجام مع الطبيعة وتحقيق التناغم بين الإنسان والكون، واحترام حياة أدق المخلوقات. ومن ثم كانت بداية كل فصل مناسبة للاحتفاء وللأعياد الدينية، وإيذاناً بتغيير إيقاع الحياة. ففي فصل الربيع يحتفى بغرس بذور الأرز ومباركتها من قبل الآلهة، وفي فصل الخريف تقام احتفالات تقديم الشكر لها. وفي الوقت ذاته دأبت الأرستقراطية والطبقة الموسرة على تغيير نمط ملبسها ومأكلها بما يتناسب مع كل فصل من فصول السنة. كما كانت الطبيعة، وما تزال، حاضرة في الفنون اليابانية كلها، من العمارة إلى فن الرسم. فمن شدة شغفهم بها رسموا وطرزوا طيورها وجبالها على **الكيمونو** ـ اللباس الياباني التقليدي ـ وعلى ألواح الورق العازلة بين أقسام منازلهم. وكان تقديم الطعام مناسبة يومية لإظهار جمال الطبيعة وألوانها، ولا تكتمل ثقافة المرأة إلا بإتقانها فن ترتيب الزهور. وإن توافر لأحدهم حيز صغير في بيته، زينه بحديقة تحفل بأشجار قصيرة ومجسمات تحاكي الجبال والأنهار. كما حفل الأدب

---

(١١) Yamamura Murakami, «Le Society as a Pattern of Civilization: Introduction,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 10, no. 2 (Summer 1984), pp. 291-292.

(١٢) يتكوّن مصطلح شنتو (Shinto) من مقطعين: «شين» الذي يفيد أيضاً «كامي»، و«دو» (يُنطق طو) الذي يعني الطريق. ومن ثم، فإن الترجمة القريبة لمصطلح شنتو هي طريق الـ «كامي» أو طريق الآلهة. ويعتبر اليابانيون الشنتو ديانتهم القومية التي ظهرت في أرضهم وترعرت في نطاق ثقافتهم، وشكّلت، على نحو دائم، ميزة ثقافية خاصة بهم لازمتهم منذ عصور ما قبل التاريخ إلى الوقت الراهن، وظلّت محافظة على وجودها ومقوماتها رغم تبنّيهم معتقدات البوذية منذ نهاية القرن السادس الميلادي. وتقوم هذه العبادة على أساس تقديس «الكامي» واسترضائها، حيث يُعتقد أنها مصدر الخير والشر الذي يصيب الإنسان. وقد ارتبطت هذه الديانة بالمؤسسة الإمبراطورية، التي يعتقد أن مؤسسها سليل «الكامي» (أو الآلهة) السماوية.

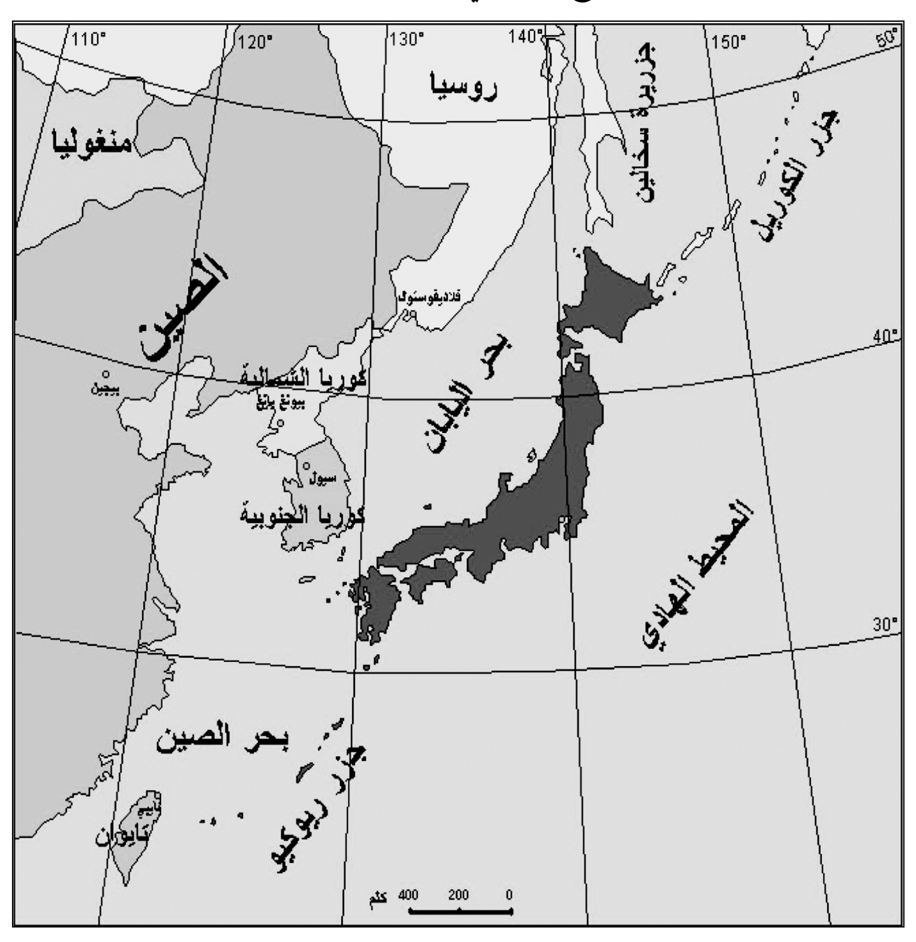
الياباني، خاصة الشعر منه، بروائع تتغنى بالطبيعة وتتخذها موضوعاً. فالهايكو ـ النمط الشعري الياباني الشهير ـ يتمحور أساساً حول الطبيعة؛ إذ لا يخلو مقطع منه من إشارة إلى الطبيعة. ولعل طقس الشاي لحظة يقتنصها الياباني ليتناغم مع الطبيعة وينسجم معها. غير أن طبيعة اليابان مزاجية سريعة الغضب، متى غضبت كشرت عن أنيابها وأحدثت كوارث، مخلفة وراءها الدمار والبوار والضحايا البشرية والخسائر المادية[١٣]. ومع ذلك لم يواجهها اليابانيون بالرهبة والخوف فحسب، بل تمثلوها أرواحاً يسترضونها بالقرابين لتستعيد هدوءها وتزيل عن جبينها تقطيب العبوس.

الشائع اليوم في الكتابات الجغرافية والاقتصادية وغيرها أن اليابان بلد فقير من حيث الموارد الطبيعية، خاصة المعادن ومصادر الطاقة. وهو أمر صحيح إذا ما اعتبرنا التقدم الصناعي الهائل الذي تعرفه اليابان واستهلاكها المتزايد لكل أصناف المواد الأولية، التي لا تنتجها. غير أن هذا الحكم يفقد الكثير من حجته إن نحن وضعناه في سياق تاريخي آخر كالذي يعنينا في هذه الدراسة؛ فالملاحظ أن اليابان في هذه الفترة (١٥٦٨ ـ ١٨٦٨) لم تكن بلداً غنياً كالصين، بيد أنها لم تكن مفتقرة سواء إلى المواد الغذائية أو إلى المواد المعدنية، إذ كانت تنتج ما يكفي لإطعام سكانها ـ ربما بمستوى يفوق مستوى جيرانها في آسيا ـ كما كانت تصدر عدداً من المواد الثمينة كالذهب والفضة، التي كانت تستبدلها بما تستورده من الصين وأوروبا من مواد مصنعة وغيرها، كما سنبين ذلك في فصل لاحق.

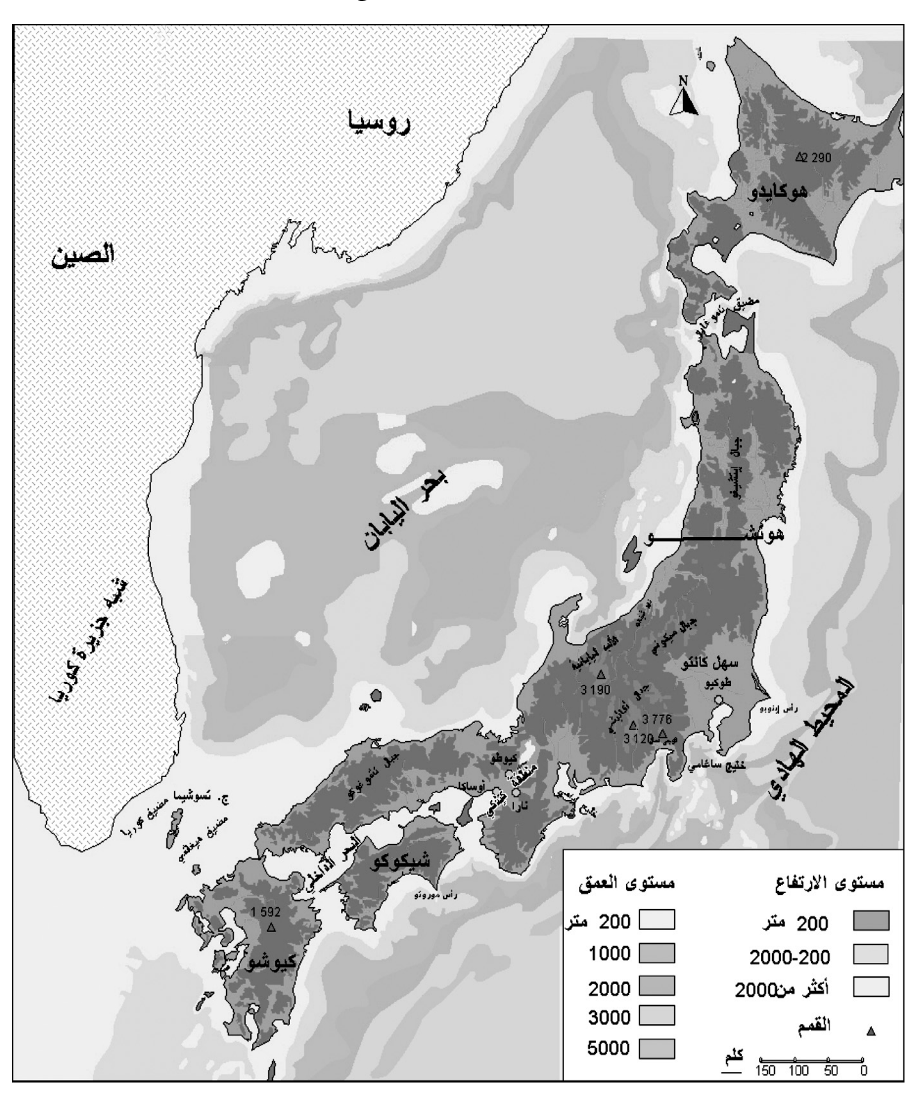
---

(١٣) يتعرض أرخبيل اليابان إلى أخطار طبيعية تأتيه من مصدرين مختلفين. ويتعلق الأمر بالزلازل والبراكين وما يصحبهما أحياناً من موجات تسونامي مدمّرة. وهي ناجمة، بمجملها، عن البنية الجيولوجية، ووقوع الأرخبيل في منطقة حديثة التكوين لم تصل بعدُ إلى مرحلة الاستقرار. ويتمثل النمط الثاني من أخطار الطبيعة في الأضرار الناجمة عن سوء الأحوال الجوية. ونقصد أساساً عواصف التايفون والأمطار الطوفانية وأحياناً تراكم الثلوج في بعض المناطق الجبلية.

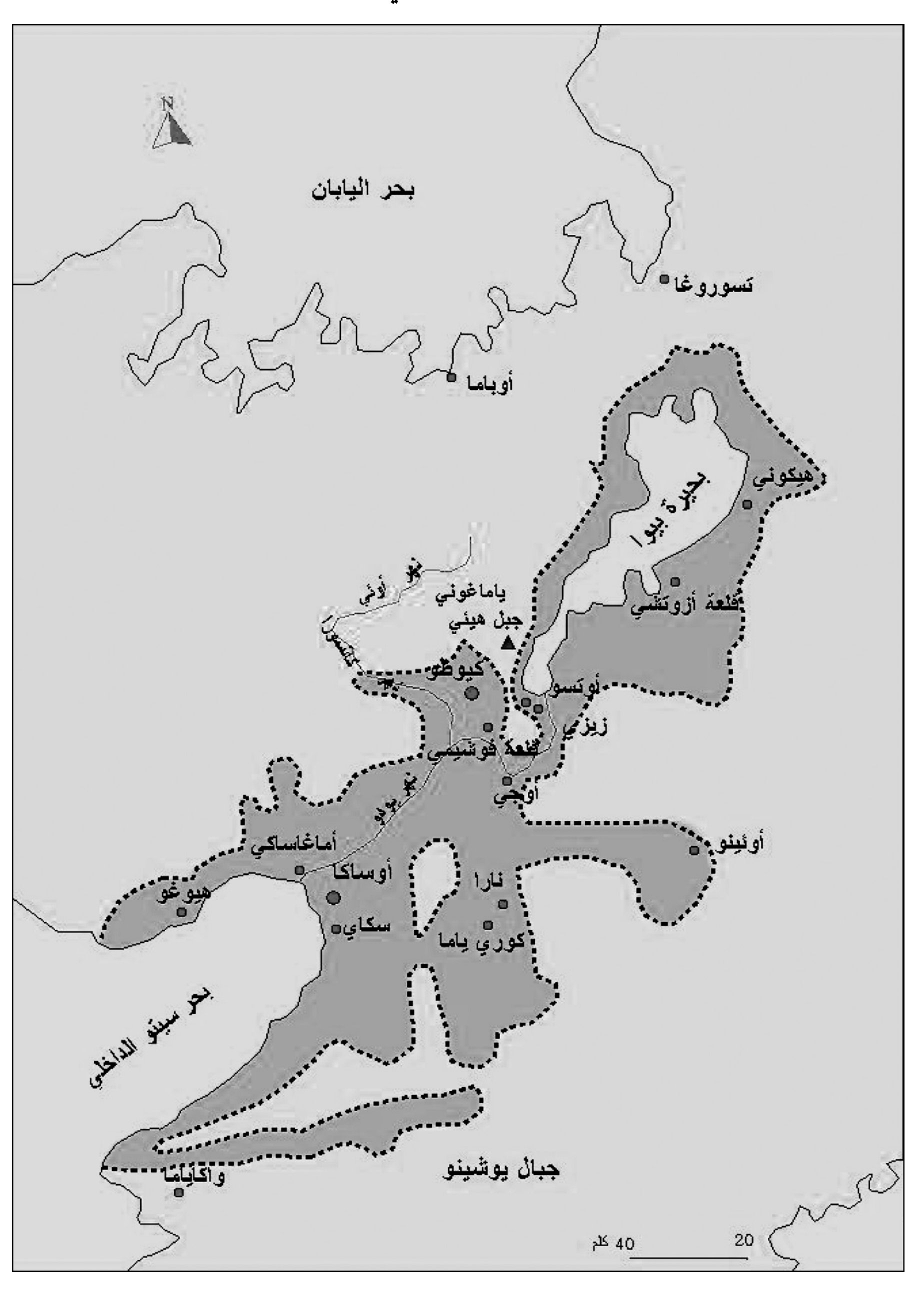
الخريطة الرقم (١)
الموقع الجغرافي لأرخبيل اليابان



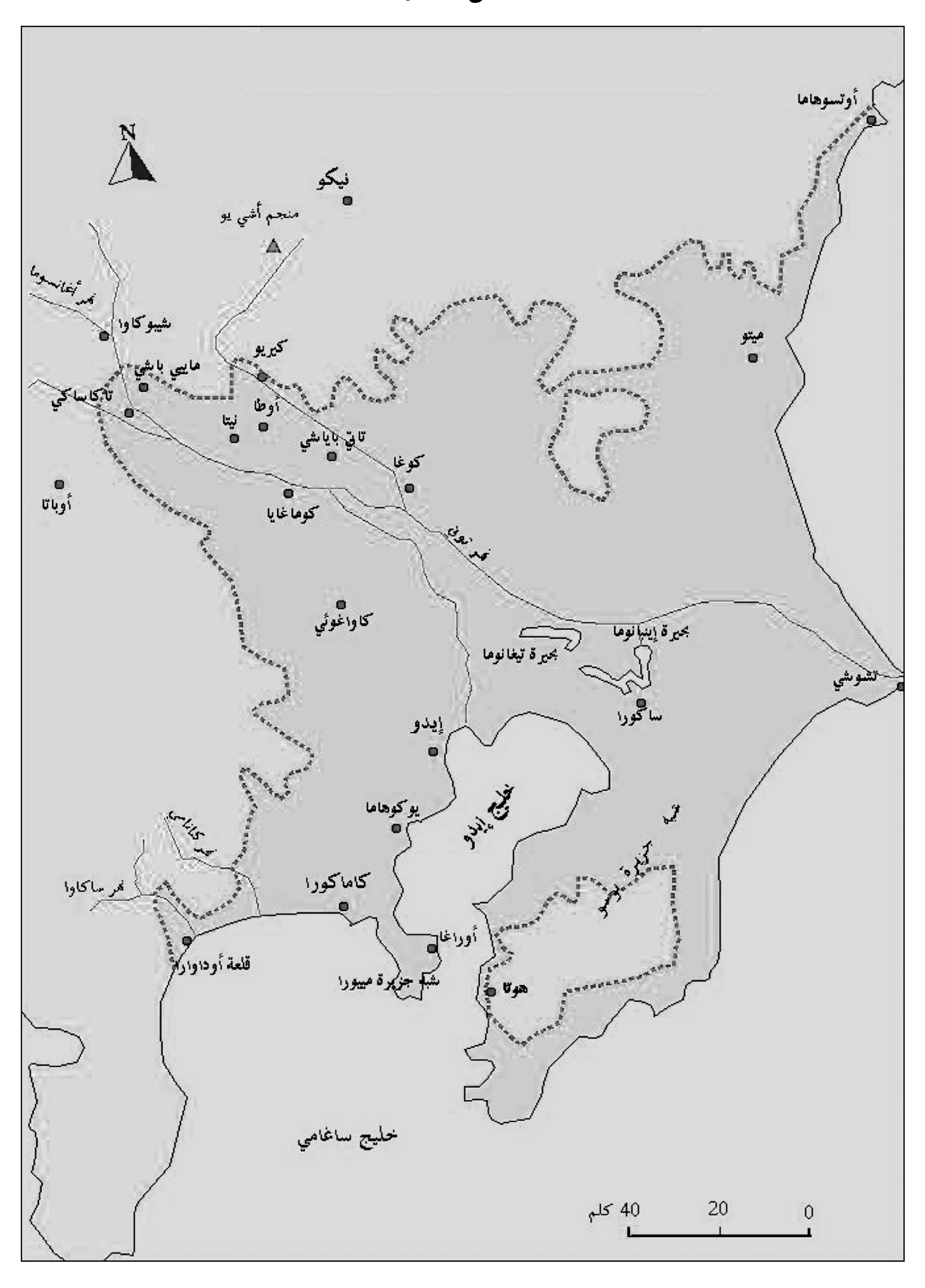
الخريطة الرقم (٢)
الخريطة الطبيعية لأرخبيل اليابان



الخريطة الرقم (٣)
حوض كيناي

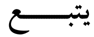


الخريطة الرقم (٤)
سهل كانتو



الخريطة الرقم (٥)
المحافظات اليابانية في الوقت الراهن

١	Hokkaidō هوكايدو	١٠	Toyama توياما	١٩	Tokyo طوكيو	٢٨	Nara نارا
٢	Aomori أأوموري	١١	Nagano ناغانو	٢٠	Shiba شيبا	٢٩	Mie مييي
٣	Akita أكيتا	١٢	Gumma غوما	٢١	Kanagawa كاناغاوا	٣٠	Tokushima توكوشيما
٤	Iwate إيواطي	١٣	Tochigi توتشيغي	٢٢	Shizuoka شيزوأوكا	٣١	Tottori توتوري
٥	Yamagata ياماغاتا	١٤	Ibaraki إيباراكي	٢٣	Aichi أييتشي	٣٢	Okayama أوكاياما



تابـــع

٦	مياغي Miyagi	١٥	فوكيي Fukui	٢٤	شيغا Shiga	٣٣	كاغاوا Kagawa
٧	نيغاتاNigata	١٦	غيفو Gifu	٢٥	كيوطو Kyoto	٣٤	شيماني Shimane
٨	فوكوشيما Fukushiama	١٧	ياماناشي Yamanashi	٢٦	هيوغو goĪHy	٣٥	هيروشيما Hiroshima
٩	إيشيكاوا Ishikawa	١٨	سايتاما Saitama	٢٧	أوساكا Osaka	٣٦	ياماغوتشي Yamaguchi
٣٧	توكوكوشيما (المحافظة الرقم٣٠ نفسها)	٤٠	فوكوأوكا Fukuoka	٤٣	كوماموتو Kumamoto	٤٥	ميازاكي Miyazaki
٣٨	كوتشي Kōchi	٤١	أوييتا ita	٤٤	ناغاساكي Nagasaki	٤٦	كاغوشيما Kagoshima
٣٩	إيهيمي Ehime	٤٢	ساغا Saga				

ثانياً: اليابانيون

ما يزال كثير من الأسئلة المتعلقة بأصول اليابانيين والأماكن التي قدموا منها، أسئلة دون أجوبة مقنعة ونهائية، أو ما يزال مجرد افتراض الباحثين وتكهناتهم. ومن بين من انبروا إلى البحث في هذه الأصول، علماء الآثار والباحثون في علم الأجناس المقارن واللسانيات وتاريخ الفن. ولعل أهم نتيجة توصل إليها هؤلاء، كلٌّ بحسب اختصاصه، هي أن اليابانيين لا ينتمون إلى أصل واحد، وأن الجزر اليابانية لم تكن في القديم في عزلة تامة عن القارة أو مجال المحيط الهادئ الذي تقع فيه. وعلى أساس هذه المعطيات، يبني الباحثون فرضيتهم القائلة إن هجرات بشرية مهمة من القارة إلى الأرخبيل تمت في الفترات المبكرة. غير أن ارتفاع منسوب المياه وغمرها للممرات الأرضية في نهاية العصر الجليدي الأخير، جعل الأرخبيل يعيش في عزلة نسبية عن القارة، وهو ما أعطى ذلك التفرد الذي ميز مثلاً صناعة الخزف في عصر **جومون**(١٤). ومع ذلك، يبدو التأثير القاري واضحاً على التركيبة السكانية رغم استقبال الجزر اليابانية هجرات من أماكن أخرى، حيث تبدو في السمات الجسدية التي تميز سكان الصين وكوريا.

وما يمكن الخلوص إليه، من الأبحاث الأركيولوجية وغيرها، أن هجرات بشرية وصلت إلى الأرخبيل في فترات متتالية، ومن أماكن مختلفة (من القارة

(١٤) عصر جومون (١٠,٠٠٠ ق.م. إلى ٣٠٠ ق.م.)، أو عصور ما قبل التاريخ في اليابان.

الآسيوية ومن جزر المحيط الهادئ وربما من غيرهما)[١٥]. أما تعدد الأماكن التي قدموا منها، وبالتالي تعدد الأعراق التي تحدروا منها، فهو أمر يناقض ما ساد اعتقاده لدى اليابانيين من أنهم ينتمون إلى عرق واحد، وهو اعتقاد ظهر بداية مع النزعة الوطنية التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر، وكان من شعاراتها أن الشعب الياباني أُسرة واحدة، كما ظهر، وبشكل لافت، خلال الحروب الاستعمارية التي خاضها اليابانيون في القارة الآسيوية وجزر المحيط الهادئ، من مطلع القرن العشرين إلى الحرب العالمية الثانية. ففي هذه الحروب برزت النزعة العرقية، وتجلى الافتخار بتفوق العرق الياباني بصورة واضحة في معاملة اليابانيين للشعوب الخاضعة لاحتلالهم، على نحو يماثل النزعة العرقية التي سادت لدى الألمان، حلفائهم في الحرب. ورغم التخلي عن نزعة التفوق العرقي، فإن شعور اليابانيين بتفردهم ما يزال شعوراً قوياً يستغلونه كاستراتيجيا لمواجهة الآخرين والتعامل معهم، خاصة في مجال المنافسة التجارية[١٦].

وعلى أي حال، يعتبر بعض المهتمين بمسألة تحديث اليابان أن «التشديد على تجانس الشعب الياباني دون الالتفات إلى الفوارق العرقية والدينية والاجتماعية» كان «من أبرز سمات القوة في الفكر السياسي الياباني إبان تجربة التحديث الأولى»[١٧].

---

(١٥) عُقدت في عام ١٩٧٦ ندوة في الولايات المتحدة حول الأصول الثقافية والعرقية لليابانيين، ساهم فيها، بصورة خاصة، علماء في مجالي الأركيولوجيا واللسانيات. وقد نشرت أعمال هذه الندوة في: *Journal of Japanese Studies* (Summer 1976).

ويلخص العرض التمهيدي للندوة النتائج المتوصل إليها آنذاك، ودور مختلف التخصصات في الكشف عن الأصول الممكنة لليابانيين، انظر: Roy Andrew Miller, «Symposium: Japanese Origins: Introduction,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 2, no. 2 (Summer 1976), pp. 295-303.

(١٦) على سبيل المثال، انظر إلى هذه المقولة لـ «برنار فرانك»، Bernard Frank: «Les Japonais vont encore plus loin dans l' affirmation de leur singularité, en se considérant tout naturellement comme un peuple unique au monde, une «race» dont l' homogénéité génétique ferait face aux «peuples mêlés»». dans: Gilberte Beaux [et al.], *La Leçon Japonaise*, préface de Raymond Barre (Paris: Plon, 1992), p. 30.

(١٧) تردّدت هذه الفكرة لدى الكثير من الباحثين الغربيين، غير أن الجملة الموضوعة بين مزدوجتين هي للباحث اللبناني مسعود ضاهر، انظر: مسعود ضاهر، «العرب واليابان: نحو حداثة تحمي التراث والأصالة،» ورقة قدّمت إلى: **النهضة وتفاعلاتها في العالم العربي واليابان منذ القرن التاسع عشر: فعاليات اللقاء الفكري المنتظم بقصر بيت الحكمة، ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١** (قرطاج: بيت الحكمة، ٢٠٠١)، ص ٢٢. ومن الباحثين العرب الذين أكّدوا أهمية فكرة التجانس العرقي في تحديث اليابان، الباحث المصري أنور عبد الملك، وذلك في ندوة عقدها منتدى الفكر العربي في عمان عام ١٩٩٢؛ إذ يقول، بعد أن اعتبر التجانس العرقي من العوامل المؤثرة في التحديث: «وقد يثير البعض الشكوك بشأن الانسجام العرقي لليابانيين، ولكن أنا لا أتناول أياً من عصر جومون أو يايوئي ولكن عن اليابان منذ القرن السابع عشر». انظر: أنور عبد الملك، «دور الحضارة والقيم في تحديث اليابان والوطن العربي،» ورقة قدّمت إلى: **العرب واليابان**: =

وكيفما كان أمر هذا الاستغلال السياسي أو الأيديولوجي للعرق، فإن اعتقاد اليابانيين في انتمائهم إلى أصل واحد له ما يبرره تاريخياً وثقافياً؛ فخليط الأقوام الذين عاشوا في الأرخبيل آلاف السنين في عزلة نسبية خلق نوعاً من التجانس الثقافي والبشري ميز اليابانيين من الشعوب المجاورة لهم.

إذن، التجانس الثقافي، وإلى حد ما التجانس العرقي[١٨]، هو أساس اللحمة القومية وذلك الشعور بالانتماء إلى أصل واحد. وما يؤكد ذلك هو أن هذه التجانس تشكل عبر آلاف السنين؛ فالهجرات البشرية اقتصرت على فترات مبكرة جداً من تاريخ الاستقرار في الأرخبيل فحسب. أما في العصور التاريخية المعروفة، فلم تعرف اليابان هجرات تستحق الذكر أو غزوات مصحوبة بالاستيطان، بينما كانت هجرة الكوريين والصينيين في هذه العصور هجرة فردية، قليلة العدد، سرعان ما اندمج أفرادها وانصهروا في المجتمع الياباني دون أن يخلفوا أقليات واضحة المعالم. ولم تستقبل اليابان مهاجرين آخرين إلا في العقود الأخيرة، بعد التوسع الصناعي الهائل وظهور الحاجة إلى العمالة الأجنبية.

• تفرد اليابانيين

هل يمكن الحديث بمنهجية علمية عن تفرد شعب ما بسلوك فردي أو جماعي؟

رغم ما يعتري الأمر من صعوبة، فإن كثيراً من الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية والسايكولوجية التي قام بها باحثون غربيون أساساً، حاولت تعميم صورة نمطية عن الفرد الياباني، أو تبرير سلوك اليابانيين بصورة علمية. كما أن باحثين يابانيين أنفسهم قاموا في الفترات الأخيرة بدراسات حول تفرد الشخصية اليابانية، كما تبدو في سلوك اليابانيين وفي الأدب والرسم ومختلف الفنون اليابانية. غير أن هذه الدراسات لا تخلو من التعميم المخل بالموضوعية، أو من التبسيط الذي يخفي التنوع والتعقيد اللذين يطبعان المجتمع الياباني والفرد الياباني، أو أنها تسقط

= **حوار غربي ياباني حول الحضارة والقيم والثقافة في اليابان والوطن العربي**، تحرير وتقديم السيد يسين (عمّان: منشورات منتدى الفكر العربي، ١٩٩٢)، ص ٢٨. ولعلّ ما يتضمنه قول أنور عبد الملك، هو أن لا أهمية لاختلاف الأصول إن كان قد حصل الانسجام خلال الفترات التاريخية اللاحقة.

(١٨) لا توجد في الجزر اليابانية سوى أقلية عرقية متميزة وهي أقلية «الأينو» التي تنتمي إلى الأرومة القوقازية أو الأوروبية، اعتماداً على ملامح الوجه والسّمات الجسدية، خاصة تميز أفرادها من باقي اليابانيين بنمو الشعر بشكل كثيف على لحاهم وتغطيته لمناطق من أجسادهم. غير أن أبحاثاً حديثة أظهرت أن «الأينو» هم أقرب في الواقع إلى سكان جبال ألطاي وبعض المناطق في سيبريا.

في الإعجاب بالذات (أو النرجسية)، بالنسبة إلى الأبحاث التي يقوم بها اليابانيون[١٩]. ومّما أثار اهتمام علماء النفس والأنثروبولوجيا الانضباط الشديد الذي يطبع سلوك الفرد الياباني، والتزامه بقواعد صارمة في تصرفاته مع الآخرين.

ومن الدارسين الأوائل الذين انبروا إلى تفسير هذا السلوك، الباحثة **روث بينديكت** في مؤلفها **زهرة الأقحوان والسيف** (*The Chrysanthemum and the Sword*) الذي نُشر أول مرة عام ١٩٤٦، وفيه تميز بين «ثقافة الذنب» (The culture of Guilt) التي تسود في المجتمعات الغربية، و«ثقافة العار» (The culture of Shame) التي يختص بها المجتمع الياباني. ففي هذه الثقافة الأخيرة، يكون الإحساس بالعار كردة فعل على انتقاد الآخرين، ومن ثمة يكون الخوف من العار هو أساس التزام الفرد الياباني بالسلوك الحسن والقواعد التي تفرضها المجموعة على الفرد. وفي الحين الذي يكون في إمكان الفرد التخلص من الذنب في المجتمعات الغربية عبر الاعتراف، فإن هذه الأداة غير متوافرة في ثقافة العار[٢٠]. وعلى هذا يكون الإحساس بالألم قوياً ولا مجال للتخلص منه سوى بتفادي الأفعال أو السلوك الذي يجلب الشعور بالعار.

كما فسر الباحث **جيوفري غورير** انضباط الفرد الياباني والتزامه القوي بقواعد السلوك بالتربية التي يتلقاها في الطفولة، خاصة التدرب على النظافة في المرحاض. وعلى أساسها يدعي أن الياباني لا يميز بين الخطأ والصواب بصورة مطلقة، لكنه يميز الطريقة الصواب أو المثلى التي يجب أن يتبعها في القيام بشيء ما. ويعتقد الباحث نفسه أن الأدب الزائد الذي يظهره اليابانيون في تعاملهم مع الآخرين، يخفي عدوانية داخلية تعوّدوا إخفاءها منذ الصغر[٢١]. ومن الدراسات اليابانية المتميزة في دراسة شخصية الفرد الياباني، الدراسة التي قام بها عالم النفس الياباني **تاكيو دوئي** والتي طور فيها مفهوم أمائي (Amae)، وهو مفهوم يؤكد حاجة الفرد الياباني إلى التبعية أو الارتباط بالآخر ـ الأم أو الأُسرة أو الشركة[٢٢].

---

(١٩) Winston Davis, *Japanese Religion and Society: Paradigms of Structure and Change* (Albany, NY: State University of New York Press, 1992), p. 254.

(٢٠) Ruth Benedict, *The Chrysanthemum and the Sword: Patterns of Japanese Culture* (Tokyo: Tuttle, 1982), pp. 222-224.

(٢١) انظر خلاصة عن مجمل الدراسات السايكولوجية التي كتبت حول الشعب الياباني: Hiroshi Wagatsuma, «Psychology of Japanese People,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 4, pp. 38-40.

(٢٢) Takeo Doi, *The Anatomy of Dependence*, translated by John Bester (Tokyo: Kodansha International, 1989).

وإن نحن تركنا الدراسات العلمية، أو التي تدعي أنها كذلك، جانباً، يخرج زائر اليابان بانطباع يشعره بأن هناك شيئاً ما يميز اليابانيين وسلوكهم وثقافتهم. فمنذ القرن السادس عشر، سجل المبشرون انطباعاتهم حول الفرد الياباني والمجتمع الياباني في التقارير التي كانوا يبعثون بها[٢٣]. وعموماً، من السمات التي شاعت عن الشخص الياباني في الكتابات الغربية منذ القرن التاسع عشر: الانضباط الشديد؛ الرغبة في الإنجاز؛ الحساسية تجاه الآخرين؛ تجنب المواجهة المفتوحة مع الآخر؛ الأدب الزائد في التعامل مع الآخر؛ الإحساس المرهف بالجمال؛ الإقبال على ملذات الحياة...

ثالثاً: المسار التاريخي

ارتأينا أن نركز في هذه اللمحة التاريخية على التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع الياباني، ونطرح من خلالها أهم القضايا في تاريخ اليابان، وهي إما قضايا تسعفنا في فهم تاريخ الفترة التي تعنينا، وإما لها صلة بمسألة التحديث، كقضية الفيودالية اليابانية التي يعتبرها الكثير عاملاً مساعداً في انتقال اليابان إلى الرأسمالية بسرعة أكبر من سرعة انتقال الدول التي لم تمر بها. وقد راعينا في طرح هذه القضايا التسلسل الزمني حتى نتمكن في نهاية المطاف من الحصول على حلقات مترابطة تعطي فكرة متماسكة عن التطورات التي عرفها تاريخ اليابان حتى مطلع القرن السابع عشر. وسيلحظ القارئ أن الفقرات الأخيرة تتسم بالطول والتفصيل أحياناً، والسبب هو قربها من تاريخ الفترة التي تعنينا وما لها من تأثير في التحول الذي عرفته اليابان ابتداء من القرن السابع عشر.

١ ـ زراعة الأرز والتعدين

كان دخول زراعة الأرز من القارة الآسيوية إلى أرخبيل اليابان في غضون القرن الثالث قبل الميلاد أو بعده بقليل، حيث مثّل التعرف إلى تقنية الزراعة نقطة تحول في تاريخ اليابان، وعلامة بارزة بين ثقافتي عصر **جومون** (١٠,٠٠٠ ق.م ـ ٣٠٠ ق.م) وعصر يايوئي (٣٠٠ ق م ـ ٣٠٠ م)[٢٤] الموالي. وقد انتقلت

---

(٢٣) انظر المؤلف الذي جمع فيه مايكل كوبر عدداً من تقارير المبشرين الأوروبيين من منتصف القرن السادس عشر إلى حوالى منتصف القرن السابع عشر: Michael Cooper, *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543-1640*, Publications of the Center for Japanese and Korean Studies (Berkeley, CA: University of California Press, 1981).

(٢٤) يُنسب عصر يايوئي (Yayoi) إلى مقاطعة شمال مدينة طوكيو (يايوئي تشو)، حيث عثُر أول مرة في أواخر القرن التاسع عشر على أدوات تؤشر على هذا التحول الذي حصل في حياة اليابانيين.

هذه الزراعة في البداية من كوريا إلى شمال جزيرة **كيوشو**، ومنها انتشرت بسرعة في وسط جزيرة **هونشو**، غير أنها تأخرت بالنسبة إلى المناطق الشمالية من الجزيرة[٢٥]. ولا يُعرف بالضبط سبب هذه النقلة النوعية في حياة اليابانيين، غير أنه من المحتمل أن تكون نتيجة هجرة بشرية من القارة جاءت في إثر الاضطرابات التي كانت تعرفها إمبراطورية الصين في تلك الفترة[٢٦].

تعتبر زراعة الأرز من المؤثرات الصينية (أو القارية) الكبرى، لما أحدثته من تحولات مهمة في حياة اليابانيين؛ فبالإضافة إلى تأثيرها في نمط عيشهم ونظامهم الغذائي، أثرت أيضاً في تنظيمهم الاجتماعي والسياسي، ذلك أن زراعة الأرز كانت تحتاج إلى تجمعات بشرية مستقرة تتعاون في ما بينها في عمليات الزرع والري والحصاد. وهو ما عمل على تحول اليابانيين (أو قسم منهم في البداية) من حياة الترحال والاعتماد على الصيد والتقاط الثمار إلى الاستقرار في القرى وإنتاج الطعام، وبالتالي إلى مجتمع يحتاج إلى تنظيم سياسي أرقى من التنظيمات البسيطة للعشائر المتفرقة. والملاحظ أن زراعة الأرز ارتبطت في دول شرق آسيا بظهور شكل من أشكال الدولة، لما كانت تتطلبه من نظام ري دقيق ويد عاملة منضبطة، وهو ما أدى في كثير من الحالات إلى ظهور أنظمة تقوم على العبودية.

ومن الأكيد أن تقنيات الزراعة والتعدين كانت لها آثار في تطور اليابانيين ولحاقهم بالقارة، غير أنها ساهمت في الوقت ذاته في إحداث تفاوت اجتماعي بين الفئات المتحكمة فيها والمستعملة لها في الأسلحة والأغراض الأخرى، وبين الفئات التي لا تتحكم فيها. وبذلك كانت زراعة الأرز وتقنية التعدين من العوامل المساهمة في ظهور سلط سياسية تطورت إحداها لتشكل لاحقاً المؤسسة الإمبراطورية المعروفة في تاريخ اليابان.

---

(٢٥) Okazaki Takashi, «Japan and the Continent,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 1, pp. 272-274.

(٢٦) عرفت الصين زهاء القرن الثالث قبل الميلاد مرحلة من عدم الاستقرار نتيجة الضعف الذي أصاب دولة زهو(هونيشو) الشرقية (Zhu) (٧٧٠ ـ ٢٥٦ ق.م.)، وقد استمرت الاضطرابات وانقسام الصين إلى حين استقرار الأمر لدولة الـ «هان» (٢٠٦ ق.م ـ ٢٤م.). انظر: Jian Bozan [et al.], *Histoire générale de la Chine* (Beijing: Editions en Langues Etrangères, 1985), pp. 12-24, and Patricia Buckley Ebrey, *The Cambridge Illustrated History of China* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1996), pp. 38-39.

٢ ـ تأسيس الإمبراطورية اليابانية

لا يُعرف على وجه اليقين ـ وبتاريخ محدد ودقيق ـ متى ظهرت دولة مركزية في اليابان، غير أن جل الافتراضات المبنية على الأبحاث الأركيولوجية تقول إن هذا الظهور كان في وقت ما في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، أو النصف الأول من القرن الرابع الميلادي.

لم يشرع اليابانيون في تدوين تاريخهم بأنفسهم إلا في العقود الأولى من القرن الثامن الميلادي، بصدور كتابي الـ **كوجيكي** (٧١٢) و**نيهون شوكي (٧٢٠)**. وحسب الرواية/الأسطورة التي يكرسها واضعو هذين المؤلفين، فإن تأسيس الإمبراطورية كان في عام ٦٦٠ ق.م؛ أي العام الذي انتقل فيه الإمبراطور الأول **جيمو**، بحسب الأسطورة، من **إيزومو**، شمال **كيوشو**، إلى إقليم **ياماتو** وسط جزيرة **هونشو**، حيث أسس الإمبراطورية اليابانية. وبديهي أن الانتقال من الزمن الأسطوري إلى الزمن التاريخي، واختيار العام ٦٦٠ ق. م. بالضبط، كانا من اختلاق واضعي **الكوجيكي**، سيراً على تقليد صيني يقول إن حدثاً عظيماً يقع بعد انصرام عشر دورات ستينية (كل دورة مكونة من ستين سنة، وهي تقابل القرن في ثقافات أخرى). ومع أن المعطيات الأركيولوجية والمصادر الصينية لا تدعم بأي شكل من الأشكال هذا الزعم الذي يبقى في عداد الأسطورة، فإن الاعتقاد بأن الإمبراطورية اليابانية بدأت في هذا العام ظل سائداً ومكرساً في التاريخ الرسمي، وأيضاً في مناهج الدراسة في المدارس والجامعات إلى نهاية الحرب العالمية الثانية[٢٧]، في حين لم يشرع الباحثون اليابانيون في التشكيك في هذه الرواية بمنهجية علمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية[٢٨].

وفي مقابل الرواية/الأسطورة، هناك المصادر الصينية والاكتشافات

---

(٢٧) في عام ١٩٤٠ احتفل اليابانيون رسمياً بالذكرى الـ ٢٦٠٠ لتأسيس الإمبراطورية اليابانية.

(٢٨) كان المؤرخ ناكا ميسييو (Naka Miciyo) (١٨٥٨ ـ ١٩٠٨) أوّل من شكّك في صحة رواية الكوجيكي، واعتبر تاريخ ٦٦٠ ق.م. تاريخاً غير صحيح، ويصعب إثباته منطقياً ومن مصادر أخرى. كما كان المؤرخ تسودا سوكيتشي (Tsuda Sokichi) (١٨٧٣ ـ ١٩٦١)، وهو من أكبر مؤرخي اليابان في القرن العشرين، من الأوائل الذين كتبوا قبل نهاية الحرب العالمية الثانية في موضوع تأسيس الدولة اليابانية اعتماداً على الأبحاث الأركيولوجية، وليس على مصدري الـ كوجيكي ونيهون شوكي. فبعد صدور كتاب له عام ١٩٤٠، يشكك في تاريخ تأسيس الإمبراطورية اليابانية، تعرّض لنقد شديد، وجرت محاكمته هو وناشر الكتاب، وحكم عليه بشهرين سجناً مع النفاذ وسنتين مع وقف النفاذ. ولم يعد له الاعتبار إلا بعد الحرب العالمية الثانية. انظر نبذة عن حياة هذا المؤرخ، في: «Tsuda Sokichi,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 112.

الأركيولوجية التي لا تدعم بأي حال الزعم الأسطوري؛ فالمصادر الصينية المكتوبة لم تشرع في الحديث عن اليابانيين إلا في القرن الأول الميلادي(٢٩).

أما عن الأبحاث الأركيولوجية، فأهم دليل فيها هو ما تعلق بالمدافن الكبرى(٣٠)، التي يبدو من شكلها ومحتوياتها أنها كانت مخصصة إما لملوك كبار وإما لأباطرة.



(٢٩) أهم نصّ تاريخي صيني تحدّث عن اليابانيين هو النص الذي احتواه التأليف التاريخي سان كيو تشييه (San Kuo Chih) الموضوع في نهاية القرن الثالث الميلادي في عهد دولة ويئي (Wei). وقد جاء ذكر شعب وا (Wa)، وهي التسمية التي عُرف بها اليابانيون في المصادر الصينية والكورية وتعني قصار القامة، ضمن الفصل المخصص للشعوب «البربرية الشرقية»، التي تضم شعوب منشوريا وشمال كوريا وجنوبها. ففي مقدمة هذا الفصل، يقول المؤلف إن الصينيين كانوا يرسلون بين الفينة والأخرى مبعوثين إلى الشعوب الشرقية مصحوبين بمترجمين. وفي هذا السياق يرد ذكر شعب «وا». ورد هذا النص مترجماً بكامله إلى اللغة الإنكليزية ضمن معجم الوثائق التاريخية لليابان، انظر: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, pp. 11-14.

وكما أشرنا في المختصرات، فإننا سنشير إلى هذه المجموعة من الوثائق بـ LJDH.

(٣٠) المدافن الكبرى، كوفون (Kofun) في اللغة اليابانية، عبارة عن مدافن أقيمت على شكل ركامات مرتفعة عن الأرض، تصل مساحتها أحياناً إلى ثلاثين هكتاراً وتتخذ شكل عين قفل (المكان الذي يدخل فيه المفتاح، انظر الصورة أعلاه)، وتعتبر أهم مصدر أركيولوجي بالنسبة إلى الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي، أي الفترة التي يعتقد أنها شيدت فيها. وقد قسّم الباحثون هذه الفترة إلى ثلاث فترات فرعية بحسب تاريخ التشييد وأنماط المستخرجات الأركيولوجية.

وقد جرى اكتشاف ما ينيف على ٧٠ مدفناً من هذا الصنف قرب مدن **نارا** و **أوساكا** و**كيوطو** ومواقع أخرى، وحدد تاريخ إقامتها ما بين القرن الرابع والقرن السابع الميلاديين. ومن خلال ما اكتشف فيها من شارات السلطة لدى إمبراطور اليابان ـ المرآة والسيف ـ وغيرها، جرى التوصل إلى الفرضية القائلة إن نشأة الدولة اليابانية أو الإمبراطورية كانت في فترة ما في النصف الثاني من القرن الثالث أو النصف الأول من القرن الرابع، كما أشرنا. وعليها بني التصور، الذي أصبح مقبولاً لدى جل المؤرخين، والقائل إن دخول زراعة الأرز وتقنية التعدين، وعلاقات التبعية للبلاط الإمبراطوري الصيني، والتبادل التجاري بين الأرخبيل والقارة، كلها عوامل ساهمت مجتمعة في تطور المجتمع الياباني وظهور تنظيم سياسي فيه، كان من نتائجه انبثاق سلطة (أو دولة) عملت على توحيد الجزر اليابانية. وبحسب هذا التصور، كان المجتمع الياباني مقسماً إلى عشائر (أوجي)[٣١] ذات سلطة محدودة ـ أو دويلات صغيرة بحسب المصادر الصينية ـ تمكنت عشيرة منها من توحيد قسم جزيرة **هونشو**. هذه العشيرة هي عشيرة **ياماتو** (الأُسرة الإمبراطورية الحالية) التي ظهرت مستكملة لسلطة مركزية وسط جزيرة **هونشو** (سهل **كيناي**) في نهاية القرن الخامس الميلادي. وحتى وإن لم تكن هذه السلطة قد أنهت آنذاك توحيد كل أرض اليابان تحت نفوذها، فإنه كان معترفاً بها من جزيرة **كيوشو** إلى ساحل **هونشو** الشرقي، وكانت تعمل جاهدة على توسيع نفوذها شمالاً.

٣ ـ اللحاق بركب الحضارة الصينية

وفي نهاية القرن السادس الميلادي تطلعت المؤسسة الإمبراطورية إلى الصين بغية تعزيز نفوذها والاستفادة من النموذج الصيني في القضاء على منافسيها. وهكذا أرسلت منذ عام ٥٩٩ البعثات تلو البعثات إلى الصين، فكان انفتاح اليابانيين على الحضارة الصينية والنهل من معارفها ومعتقداتها، والعمل على استنساخ النموذج الصيني بكل مقوماته؛ إذ مثّل ذاك الانفتاح نقطة تحول كبرى في تاريخ الأرخبيل، وشكل بداية لعهد جديد بل لدخول اليابان عصر التدوين والكتابة أو العصور التاريخية.

---

(٣١) لم تعرف اليابان نظاماً قبلياً، كما هو الحال في كثير من المناطق والجهات؛ فالتنظيم السياسي، الأول الذي ساد في الأرخبيل إلى حين دخول المؤثرات الصينية، تمثّل في تنظيم عشائري، يضم مجموعة من عشائر أوجي (Uji)، التي هي مجموعة من أُسر ممتدة متضامنة في ما بينها، تشترك في الأصل وفي تقديس كامي خاصة بها.

يصعب تحديد تاريخ معينّ لبداية علاقة الأرخبيل بالصين (أو الإمبراطورية الوسط) أو متى بدأت المؤثرات الصينية تصل إليه؛ فهي موغلة في القدم، وبادية في آثار ما قبل التاريخ (عصر جومون) وفي زراعة الأرز والتعدين، كما أشرنا. ومنذ أن انفتح اليابانيون على الحضارة الصينية وسعوا إلى الأخذ بمبادئها، ظلت اليابان ـ رغم تميزها الثقافي ـ تدور في فلك العالم الصيني إلى منتصف القرن التاسع عشر؛ فحتى في الفترات التي كانت تقطع فيها العلاقات الرسمية أو تحظر فيها المبادلات التجارية، كانت المؤثرات الصينية ومستجدات الفكر الصيني تصل إلى اليابان بطرق مختلفة: عن طريق كوريا وعن طريق الرهبان البوذيين الذين لم ينقطع اتصالهم بالقارة. والأكيد أنه قبل التبنّي الرسمي للنموذج الصيني في أواخر القرن السادس الميلادي، كان الاتصال بالصين قائماً وغير منقطع طوال القرون السابقة عليه. وقد زاد هذا الاتصال قوة في أثناء احتلال الصين لكوريا لفترة تنوف على أربعة قرون ابتداء من عام ١٠٨ ق.م. كما أن الدولة الناشئة في ياماتو كانت على علاقات مع الممالك الكورية التي تشكلت في إثر التحرر من الاحتلال الصيني في مطلع القرن الرابع الميلادي (ممالك **كوغوريو** (Koguryo) و**شيلا** (Shila) و**بيكتشي** (Paekche)[(٣٢)].

ولقد تعددت المعارف والتقنيات والمهارات والتيارات الفكرية والدينية والمؤسسات السياسية والقانونية. . . التي أخذها اليابانيون عن الصين من أواخر القرن السادس إلى مطلع القرن التاسع الميلادي؛ فهي متنوعة ومتشعبة ومتعددة التأثير، سواء على المدى القصير أو على البعيد. ودون الدخول في تفصيلات وحيثيات يضيق عنها مجال هذا التقديم، يمكن إجمال هذه التأثيرات في ثلاثة مجالات رئيسية:

أ ـ مجال العقيدة، الذي تمثّل في تبنّي الديانة البوذية (الصيغة الصينية لها) التي اعتبرها اليابانيون، أو على الأصح المؤسسة الإمبراطورية، في البداية جزءاً من مقومات الثقافة الصينية، وسبباً من أسباب تعزيز حكم إمبراطور الصين. هذا إضافة إلى تأثر ديانة الشنتو بالمبادئ البوذية والتيارات الفكرية القادمة من الصين.

ب ـ مجال الحكم، الذي تمثّل في تقليد النموذج الصيني في إقامة حكم مركزي يتمتع فيه الإمبراطور بسلطة مطلقة مستمدة من تفويض إلهي لا ينازعه

(٣٢) «Korean Overseas Culture and Information Service,» in: *A Handbook of Korea* (Seoul: Samsung Moonwha Printing, 1998), pp. 50-58.

فيه أحد[٣٣]، وإقامة جهاز إداري فعال يدعم هذا الحكم. وقد جرى تبنّي النموذج الصيني من خلال العمل بمنظومة **ريتسوريو** (Ritsuryõ) التي جرى صوغها وتطويرها طوال القرن السابع الميلادي، وبلغت غايتها في مطلع القرن الثامن. وهي منظومة تشمل جملة من التشريعات والتنظيمات والقوانين والترتيبات الإدارية. . . المقتبسة من الصين، خاصة من نظام دولة **تانغ** (٦١٨ ـ ٩٠٧). ولعل أهم ما ميز هذه المنظومة هو أنها كانت مكتوبة ومدونة في سجلات تشكل مرجعيات للسير الإداري وفض النزاعات. ومصطلح **ريتسوريو** مقتبس من اللغة الصينية؛ فهو مكون من مقطعي **ريتسو** الذي يعني القوانين الجنائية، و**ريو** الذي يعني القوانين الإدارية. ويتعلق الأول بتحديد نوعية الجرائم والمخالفات والعقوبات الواجبة في حقها مع اعتبار حيثيات مرتكبيها، في حين يتعلق الثاني بالتنظيمات والترتيبات الإدارية. وتستحق تنظيمات **ريو** الوقوف عندها، لما تمثّله من تنوع وتأثر كبيرين بالصين.

ج ـ مجال الحضارة، وهو مجال متنوع يصعب حصره، غير أننا سنجمل بعضاً من عناصره في صورة عناوين وتعليقات مختزلة تشي بالأهمية الحضارية لكل منها:

(١) الأخذ برموز الكتابة الصينية التي أدخلت المجتمع الياباني عصر التدوين وأنهت عصور ما قبل التاريخ؛

(٢) العمل بالتقويم الصيني الذي ظل معمولاً به إلى نهاية القرن التاسع عشر؛

(٣) التحقيب بحكم الأباطرة، المعروف في اليابان بنظام **نينغو**[٣٤]، وقد شُرع في تطبيقه ابتداء من عام ٦٤٥ وما يزال معمولاً به في المراسلات الرسمية إلى يومنا هذا.

(٤) فنون العمارة والرسم والنحت المساوقة للديانة البوذية، وقد استُغلت

---

(٣٣) تجدر الإشارة هنا إلى أن إمبراطور اليابان لا يحكم بتفويض إلهي أو برضا القوى السماوية فحسب، كما في الصين، بل يحكم أيضاً على أساس أنه يتحدر، بحسب معتقدات الشنتو، من سلالة الآلهة ومن أرومة غير بشرية.

(٣٤) استعمل الصينيون نظاماً للتحقيب يعتمد على تقسيم الفترات التاريخية بحسب حكم الأباطرة، حيث تحمل كل حقبة اسم الإمبراطور أو شعاره. وتبتدئ الحقبة بتولي الإمبراطور الحكم وتنتهي بمماته. وقد تبعهم اليابانيون في ذلك. وما زال هذا التحقيب معمولاً به حتى الآن في اليابان في المراسلات الرسمية. فسيراً على هذا النهج، اختار الإمبراطور هيروهيتو (١٩٢٦ ـ ١٩٨٩) لعهده اسم أو شعار «شوا» الذي يمكن ترجمته بالسلام المتنور، واختار خلفه، الإمبراطور الحالي أكيهيتو (١٩٨٩ ـ)، شعار «هيسي»، الذي يعني تحقيق السلام التام في الأرض والسماء.

في بناء المعابد ونحت تماثيل بوذا وغيرها، إضافة إلى الصنائع الأخرى التي استفاد اليابانيون من خبرة الصينيين فيها؛

(٥) الطب والمعارف العلمية والحربية؛

(٦) استعمال الورق والطباعة؛

(٧) تخطيط المدن، الذي ظهر جلياً في تخطيط العاصمتين **نارا** (٧١٠) و**هييان كيو** أو **كيوطو** (٧٩٤) اللتين صُممتا على غرار **تشانغ آن**، عاصمة دولة **تانغ**؛

(٨) تعبيد الطرق ونظام البريد اللذان استُغلا معاً للاتصال بالأقاليم وجمع الضرائب منها؛

(٩) صناعة التاريخ وصنوف التعبير الأدبي والكتابة، خاصة نظم الشعر الذي افتتن به اليابانيون، حيث بدأوا بنظم الشعر باللغة الصينية.

وخلاصة القول أن الانفتاح على الصين أحدث تحولاً كبيراً في المجتمع الياباني، سواء على مستوى العقيدة أو على مستويات نظام الحكم أو الكتابة أو التقنيات والمعارف، وأن اليابانيين نجحوا، خلال قرن من الزمن، في تملك النموذج الصيني، غير أنه لم يكن مجرد نقل أو استنساخ باهت؛ بل تمكنوا من تمثّل مقومات الحضارة الصينية وإعادة إنتاجها وإعطائها طابعاً قومياً خاصاً يميزها من الأصل الصيني. وقد ظهر ذلك في عصر **هييان** (٧٩٤ ـ ١١٩٢)، الذي يعد من أزهى العصور في تاريخ اليابان وأكثرها تميزاً؛ فقد مثّل قمة التلاقح الثقافي بين الصين واليابان، ونموذجاً للمهارة اليابانية المتجلية في السعي نحو المعرفة والاستفادة منها وتطويرها. ذلك أن اليابانيين أقبلوا على المعارف الصينية ونهلوا منها، وطوروا في الوقت ذاته ثقافتهم الوطنية وأغنوها بما أخذوه من الصين. وعصر **هييان** بدوره هو عصر ثقافة الطبقة الأرستقراطية التي كانت مستقرة في العاصمة، والتي نشطت في مجالات المعرفة والآداب والفنون، وطورت ثقافة رفيعة وحساً مرهفاً بالجمال، فتأنقت في لباسها وأكلها وحركاتها وعاداتها وسلوكها، وأعطت اليابانيين نموذجاً حضارياً ما يزال قائماً إلى اليوم.

شكل انفتاح اليابانيين على الثقافة الصينية في فترة مبكرة، وانفتاحهم على الثقافة الغربية في فترة قريبة، تجربتين في تاريخ اليابان، تغير في إثرهما مجراه وأخذ منحى مغايراً. ففي أواخر القرن السادس، وكما أشرنا، تطلع اليابانيون إلى الصين ونهلوا من معارفها ومعتقداتها وفلسفتها لينسجوا على منوالها حضارة تكاد

تضاهي الأصل. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تطلعوا إلى الغرب، واستفادوا من خبراته التقنية والعلمية والعسكرية ليتبوأوا مكانة مرموقة ضمن ثلة الدول الراقية.

رغم البعد الزمني وتغير الظرف التاريخي، فإن التجربتين تشتركان في عدد من أوجه شبه وسمات ظاهرة لن تغيب عن عين القارئ لتاريخ اليابان. ففي كلتا الحالتين، كانت اليابان «متخلفة» وضعيفة من حيث القوة العسكرية، وفيهما معاً تعلمت من ذلك الغير «المتقدم» لتتفادى هيمنته. ففي القرن السابع الميلادي، كانت الصين تعيش أزهى عصورها التاريخية في عهد أسرة **تانغ**، وتمارس هيمنة على معظم شرق آسيا، خاصة على كوريا أقرب جيران اليابان، وكان محتملاً أن يمتد نفوذها إلى اليابان. وهو الوضع نفسه الذي ساد في القرن التاسع عشر، حين كانت أوروبا تعيش أوج قوتها وتوسعها الاستعماري؛ ففي الشرق الأقصى وحده، كانت بريطانيا تحتل الهند منذ فترة، وقد تمكنت من كسر شوكة الصين في حرب الأفيون (١٨٤٠) لتفتح أبوابها أمام السلع الأوروبية. وكان منتظراً أن تفعل هي أو الولايات المتحدة الشيء نفسه مع اليابان، وهو بالفعل ما شرعت فيه الدول الغربية عن طريق إجبار اليابان على توقيع معاهدات غير متكافئة.

اتسم وضع اليابان في الحالتين، كما قلنا، بـ «الضعف» والوقوع تحت التهديد، في حين اتسم الغير بـ «القوة» و«التقدم» والنزوع نحو الهيمنة. غير أن اليابان في وضعها ذاك، وقبل أن تقع تحت نفوذ الصين المباشر أو تحت نفوذ الاستعمار الغربي، اندفعت، وبرغبة منها، لتتعلم من الغير وتفتح أبوابها أمام ثقافته. هذا الفعل الإرادي أو التصرف الطوعي حاضر في التجربتين معاً، ويستحق الوقوف عنده. فابتداء من أواخر القرن السادس إلى القرن الثامن الميلادي، بادرت الإمبراطورية اليابانية إلى إرسال البعثات إلى الصين لیأخذ أفرادها المعرفة في مظانها، واستقدمت معلمين صينيين ليعلّموا اليابانيين في المكان عينه. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت بدايات التحديث بإرسال البعثات الطلابية إلى الدول الغربية التي شرع فيها قبل إصلاحات الميجي بحوالى عقد من الزمن، ثم باستقدام أساتذة غربيين وفتح مدارس وجامعات على النمط الغربي بعد قيام الإصلاحات. ففي كلتا الحالتين تصرف اليابانيون عن رغبة واقتناع، وسعوا إلى معرفة لم تفرض عليهم.

تتعدد نقاط التشابه بين تجربتي الاستفادة من الحضارتين الصينية والغربية،

غير أن هناك اختلافاً جوهرياً يتعلق بطبيعة المعرفة المأخوذة وتأثيرها. فالمعرفة التي أخذها اليابانيون عن الغرب اقتصرت على الجانب المادي فحسب؛ فهي اقتصرت على مجالات العلوم والتكنولوجيا والنظم السياسية وبناء القوة العسكرية والتدبير الإداري والمالي. غير أن المعرفة التي أخذوها عن الصين همت أساساً الجانب الروحي وفلسفة الحكم والقيم والنظرة إلى الكون قبل أن تهم الجوانب المادية؛ فالثقافة الصينية حاضرة في القيم والعادات والتقاليد والسلوك اليومي، وفي نمط الكتابة والتراث الفكري والعبادة وأماكنها، وفي العلاقات الاجتماعية وعلاقة الحكام بالمحكومين. ذلك أن الثقافة الصينية، التي وصلت بطريق مباشر أو عن طريق كوريا، استحكمت في نفوس اليابانيين، وأصبحت من مكونات الشخصية والثقافة اليابانيتين. هذا إضافة إلى العمق والتجذر التاريخيين، فالعلاقات الصينية ـ اليابانية لم تبدأ في القرن السادس الميلادي، بل هي قديمة قدم استقرار الإنسان في الأرخبيل.

لعل أهم ما يستخلص من هذا الاندفاع نحو الأخذ بالثقافة الصينية، هو عدم شعور اليابانيين بالاستعلاء تجاه مكونات ثقافة الغير التي يكونون في حاجة إليها. وهو أمر يختلف عما ساد عند الصينيين والعرب المسلمين في القرن التاسع عشر، حيث كان هؤلاء يرون في أنفسهم أصحاب حضارات عريقة، وينظرون نظرة استعلاء إلى ثقافة الغرب، التي اعتبروها غزواً ثقافياً، في حين كان اليابانيون في القرن السادس الميلادي كما في القرن التاسع عشر، يسعون إلى التعلم من الآخر دون تحرج أو عقدة استعلاء. وما يزال هذا السلوك قائماً إلى اليوم، سواء في علاقة الأفراد اليابانيين في ما بينهم أو في علاقاتهم بالآخر[٣٥].

٤ ـ الفيودالية اليابانية

لعل أهم تحول في مسار تاريخ اليابان، بعد الأخذ بمقومات الحضارة الصينية، هو ما حدث في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، حين انتقلت السلطة الفعلية السياسية والعسكرية من الإمبراطور وحاشيته الأرستقراطية إلى الأُسر

(٣٥) كتب إزرا ف. فوجل (Ezra F. Vogel) بمناسبة مرور قرنين على استقلال أمريكا، كتاباً تحت عنوان: *Japan as Number One: Lessons for America*، تحدث فيه عن أسباب تفوق اليابان على الولايات المتحدة في المجال التجاري وغيره. يقول: «لو كان هناك سبب وحيد يفسّر بمفرده نجاح اليابانيين، لكان هذا هو سعيهم الجماعي الموجه طلباً للمعرفة». انظر: إزرا ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**، ترجمة يحيى زكريا، سلسلة الألف كتاب الثاني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦)، ص ٤١.

العسكرية، الساموراي، وبالتالي الابتعاد عن النموذج الصيني. ولا شك أن انتقال السلطة هذا أشر على تحول عميق في المجتمع الياباني في صيغة الحكم؛ تحول لم يأت مصادفة، بل جاء كحصيلة لجملة التغيرات التي عرفتها البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتي بدأت تختمر منذ القرن العاشر الميلادي، أي منذ أن بدأ الضعف يدب في الحكم المركزي نتيجة فشل التطبيق الفعلي للنموذج الصيني. والمثير أن هذه التغيرات أنجبت بنية مماثلة إلى حد ما للبنية الفيودالية التي ظهرت في مناطق من أوروبا الغربية في الفترة ذاتها تقريباً. فمنذ القرن السادس عشر، دهش زوار اليابان الغربيين من أوجه الشبه بين ما شاهدوا عليه اليابان وبين ما كان حاضراً في ذاكرتهم عن تفتت السلطة في أوروبا (التي ستعرف لاحقاً بالفيودالية) التي إما قرأوا عنها أو سمعوا بها. ومنذ أن اتسع مجال الكتابة التاريخية عن اليابان في أواخر القرن التاسع عشر، شاع وصف النظام الاجتماعي والسياسي الذي ظل سائداً في اليابان إلى حين إصلاحات الميجي بالنظام «الفيودالي». وهكذا أصبحت قضية «الفيودالية اليابانية»، أو وجود نظير للبنية الفيودالية ـ حسب مرجعيتها الأوروبية ـ في المسار التاريخي لليابان موضوع بحث ومثار جدل بين الباحثين تختلف حوله الآراء. وواقع الأمر أن أوجه الشبة بين البنيتين الأوروبية واليابانية مثيرة لا يمكن تجاهلها؛ فـ **مارك بلوك**، وهو أفضل من كتبوا في الموضوع، لم يجد نظيراً للبنية الفيودالية الأوروبية في مجتمعات أخرى سوى في اليابان. وقد استشهد في مؤلفه **المجتمع الفيودالي** أكثر من مرة بأوجه الشبه بين اليابان وأوروبا[٣٦]. كما أن بعض الباحثين في تاريخ اليابان يعتبر وجود نظام فيودالي في اليابان أمراً مسلماً به وإن كانت مؤسساتها تعمل بطريقة مختلفة عما كانت عليه في أوروبا[٣٧].

ثمة أكثر من سبب يدعونا إلى الوقوف عند ما عُرف بـ «الفيودالية اليابانية»؛ فهي تشكل مفتاحاً لفهم التطورات التي عرفتها اليابان خلال الفترات اللاحقة، من بينها الفترة التي نركز عليها في هذا البحث. كما أن تفرد اليابان ببنية فيودالية

(٣٦) Marc Bloch, *La Société feodale: La Formation des liens de dependence*, L'évolution de l'humanité. Synthèse collective; 34 (Paris: Albin Michel, 1968), pp. 95, 299, 301, 320, 527, 610-611 and 618,

التي يقارن فيها بين مختلف المؤسسات والقيم الفيودالية في أوروبا الغربية واليابان.

(٣٧) Joseph R. Strayer, «The Tokugawa Period and Japanese Feudalism,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), p. 3.

شكل في رأي البعض سبباً من بين أسباب أخرى تفسر نجاح اليابانيين في الأخذ بالتحديث.

الفيودالية مصطلح حديث الاستعمال نسبياً، لم يُشرع في تداوله إلا في القرن السابع عشر، ولم يستغل على نطاق واسع إلا من قبل دعاة الثورة الفرنسية (١٧٨٩) لوصف مقومات الـ «النظام القديم» (L'ancient regime) وممارساته التي كان يجب التخلص منها. ومن ثم حمل المصطلح معنى قدحياً ما يزال شائعاً إلى اليوم، حيث يستعمل كمرادف لاستغلال الفلاحين من قِبَل كبار ملاّك الأراضي[٣٨].

يصعب الوقوف عند تصور واحد وموحد للفيودالية، اعتباراً لاستغلال المفهوم من قبل مؤرخين ومنظرين ذوي توجهات مختلفة؛ فمن جهة، نجد المؤرخين الذين يقصرون استعمال مفهوم الفيودالية على وصف البنية الاجتماعية والسياسية التي كانت قائمة في بعض مجتمعات أوروبا الغربية في فترة من القرون الوسطى، وبالتالي يعتبرونها ظاهرة خاصة بالتاريخ الأوروبي، وليس لها من مرجعية تاريخية سوى المرجعية الأوروبية. ومن جهة أخرى، نجد المنظرين الذين رأوا في الفيودالية ظاهرة عامة (أو كونية) ظهرت في أوروبا كما ظهرت في جهات أخرى من العالم أو يمكن أن تظهر بها. وفي مقدمة هؤلاء **كارل ماركس** الذي استغل المصطلح للدلالة على نمط إنتاج وسيط بين نمطي الاستعباد والرأسمالية، واعتبر الفيودالية مرحلة ضمن الحتمية التاريخية التي نظر إليها. وبين هؤلاء وأولئك هناك من يقفون موقفاً وسطاً، معتبرين الفيودالية ظاهرة تاريخية عرفتها أوروبا في مرحلة من تاريخها، وغير مستبعدين في الوقت نفسه ظهورها في مجتمعات أخرى أو في جهات أخرى من العالم متى توافرت لها الشروط التي كانت موجودة في أوروبا، ومن بين هؤلاء **ماكس فيبر** الذي اتخذ من الفيودالية «نمطاً مثالياً» لوصف سلطة سياسية تختلف مثلاً عن السلطة المعتمدة على البيروقراطية[٣٩].

فمن هذا المنظور الوسط، الذي لا يرى في الفيودالية حتمية تاريخية أو ظاهرة اختصت بها أوروبا، يمكن الحديث عن الفيودالية في اليابان كما في

---

(٣٨) George Duby, «Féodalité,» in: *Encyclopedia Universalis* (2000) (Cd-Rom).

فيما يخص التعريفات المختلفة للفيودالية، انظر: F. L. Ganshof, *Qu'est-ce que la féodalité*, Approches, 5ème éd. (Paris: Tallandier, 1989), pp. 11-16.

(٣٩) Max Weber, *Economy and Society: An Outline of Interpretive Sociology*, edited by Guenther Roth and Claus Wittich; translated by Ephraim Fischoff [et al.], 2 vols. (Berkeley, CA: University of California Press, 1978), pp. 1070-1100.

جهات أخرى. وعلى هذا الأساس انعقدت مثلاً ندوة في جامعة **برنستون** في الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ عن الفيودالية في التاريخ، شارك فيها مؤرخون ذوو اختصاصات مختلفة. وفيها جرى رصد تجارب فيودالية في مراحل من تاريخ الصين واليابان وإيران ومصر القديمة والإمبراطورية البيزنطية وروسيا، إضافة إلى أوروبا الغربية[٤٠]. ولم يكن هؤلاء الباحثون يتطلعون إلى العثور على نسخ طبق الأصل من الفيودالية الأوروبية، بقدر ما كانوا يبحثون عن قواسم مشتركة وظروف تاريخية معيّنة أدت عند اجتماعها إلى ظهور أنظمة أو أنساق متشابهة في حدود معيّنة. وللتقليل من مساحة الخلاف، قرروا الاقتصار على الفيودالية كنسق سياسي يتمثل في ضعف الحكم المركزي، وتفتت السلطة، وتعويض اختصاصاته على النطاق المحلي بسلط تقوم مقامه في حفظ الأمن وإقرار العدالة، وغير ذلك من مهام الدولة، كما كان الحال في الإقطاعيات (Fiefs) في مناطق من أوروبا في العصر الوسيط. لكن المثير في ما يخص التجربة الفيودالية اليابانية أنها لم تقتصر على هذا الجانب السياسي للنسق الفيودالي، بل تعدته إلى البنية الاجتماعية والاقتصادية التي تساوقت معه في أوروبا. فعلى سبيل المثال كان التشابه كبيراً بين ما عرفته فرنسا واليابان في الفترة ذاتها تقريباً:

● ضعف الحكم المركزي، وهو ما تمثل في فرنسا في انهيار الحكم **الكارولنجي** ابتداء من القرن العاشر الميلادي، وتمثل في اليابان في ضعف السلطة المركزية للإمبراطور ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي؛

● الاعتماد كلية على الاقتصاد الزراعي كمصدر أول للثروة والإنتاج. وحتى وإن كان هناك تبادل تجاري، فهو لا يحتل إلا نصيباً متواضعاً في النسيج الاقتصادي، وبالتالي لا تكون هناك حاجة كبرى إلى استعمال النقود التي تعوض بالتبادل العيني للمنتجات والخدمات. وهي ظروف اقتصادية توافرت في فرنسا وفي أجزاء من غرب أوروبا من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، وتوافرت في اليابان أيضاً، حيث ظل الاقتصاد الزراعي المصدر الرئيسي للثروة والإنتاج؛

● وجود فئة من المحاربين المحترفين تختص باستعمال السلاح وركوب الخيل، وتتميز من الفلاحين بمهاراتها القتالية وأصولها النبيلة. وهذا ما مثّلته فئة الفرسان في أوروبا ذات الأصول العريقة التي تمركزت في البوادي، وتملكت

(٤٠) نشرت أعمال هذه الندوة سنة ١٩٦٥ تحت عنوان: **الفيودالية في التاريخ**، انظر: *Feudalism in History*, edited by Rushton Coulborn (Hamden, Conn.: Archon Books, 1965).

الأراضي، وخلقت سلطاً محلية عوضت الحكم المركزي المنهار. ومثّلته في اليابان طبقة الساموراي العسكرية ذات الأصول النبيلة، التي احتكرت المهارات العسكرية، وكان لها دور مماثل لطبقة الفرسان في أوروبا.

● وجود إقطاعيات تتمتع بالتسيير الذاتي وعدم الخضوع للحكم المركزي، وهذا ما شكل أس الفيودالية الأوروبية. وفي اليابان، ظهرت منذ القرن الثامن ضيعات «الشوين» (Shoen)، وهي أراض كانت تقتطع للأُسر الأرستقراطية النافذة أو بعض أسر الساموراي العسكرية والمعابد البوذية ومعابد الشنتو، وكانت معفاة من الضرائب ومحمية من تدخل ممثلي الحكم المركزي في البوادي. ويعتقد أن أراضي الشوين هي الأصل في تطور النظام الفيودالي الياباني.

أجملنا القول في النسق الفيودالي الياباني، وأبرزنا، في حدود الإمكان، مدى التشابه مع النسق الفيودالي الغربي، دون أن نركز على أوجه الخلاف معه، وهي كثيرة وتحتاج إلى بحث خاص بها. وكان قصدنا هو البحث في أصول النظام الفيودالي السائد في عصر توكوغاوا الذي نركز عليه في هذه الدراسة. وأيضاً التدليل قدر المستطاع على وجود بنية فيودالية في تاريخ اليابان لوضعه في إطار سؤالنا المحوري عن أصول التحديث في اليابان: هل كان ظهور النسق الفيودالي في اليابان عاملاً مساعداً في الإسراع في عملية التحديث في نهاية القرن التاسع عشر؟

ليس هناك من جواب مقنع سوى أن اليابان كان البلد الوحيد غير الأوروبي الذي مر بتجربة فيودالية، وانتقل بيسر إلى الرأسمالية، كما انتقلت إليها الدول الغربية التي تشاطرها التجربة ذاتها. وهذا ما يعتقده عدد من الباحثين، مثل **شارل عيساوي**، الذي يقول، بعد أن عدَّد الأسباب الأخرى التي اختلفت بها اليابان عن مصر في القرن التاسع عشر:

هل يمكن للمرء أن يحدد أسباباً أكثر عمومية لنجاح اليابان؟ أنا شخصياً أميل إلى إعطاء مزيد من الأهمية لحقيقة أن اليابان ربما كانت البلد الوحيد خارج أوروبا الذي شهد إقطاعاً حقيقياً [استعمل الكاتب مصطلح الفيودالية في الأصل الإنكليزي][٤١]،

---

(٤١) سبق لشارل فيليب عيساوي أن نشر مقالاً باللغة الإنكليزية تحت عنوان: «Why Japan?»، ضمن كتاب جماعي هو: *Arab Resources: The Transformation of a Society*, edited by Ibrahim Ibrahim (Washington, DC: Center for Contemporary Arab Studies; Georgetown University; London: Croom Helm, 1983), p. 298.

وهو المقال الذي ترجمه وجعله فصلاً مستقلاً تحت عنوان «لماذا اليابان؟» في مؤلفه **تأملات في التاريخ** =

وأن الإقطاع ـ كما كان ماركس يرى بوضوح ـ هو الإعداد الجيد جداً للرأسمالية. والبلد الوحيد الذي يقترب من هذا النموذج في الشرق الأوسط هو لبنان، وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يندفع لبنان إلى الرأسمالية مثلما يندفع البط إلى الماء[٤٢].

ويراه أيضاً السفير والمؤرخ **إيدوين رايشاور**:

يبدو محتملاً أن التجربة الفيودالية اليابانية، التي تماثل إلى حد كبير التجربة الأوروبية، ربما كان لها أثر ما في السرعة واليسر التي أعاد بها اليابانيون تشكيل مجتمعهم وحكومتهم على النمط الأوروبي خلال القرن الماضي. وليس بمقدورنا سوى مقارنة نجاح اليابان في هذا الصدد مع الجهود المضنية والبطيئة التي بذلتها الشعوب الآسيوية الأخرى في سبيل الأخذ بالنموذج الغربي، والتي كانت في أغلب الجهات على اتصال طويل ومباشر بالحضارة الغربية، غير أنها كانت تفتقد الخلفية الفيودالية[٤٣].

يبدو من هذين الرأيين أن الاحتمال وارد في أن يكون للتجربة الفيودالية أثر ما في الانتقال السريع إلى الرأسمالية. وهو احتمال يحسب لصالح اليابان عند مقارنة تجارب الإصلاح في الوطن العربي وغيره بتجربة الإصلاح في اليابان في القرن التاسع عشر.

٥ ـ الساموراي والحرب الأهلية

كانت أسرة **ميناموتو** (١١٩٢ ـ ١٣٣٣) أول أُسرة من الساموراي تتولى مقاليد السلطة ويحصل متزعمها **ميناموتو نو يوريتومو** (Minamoto no Yoritomo) (١١٤٧ ـ ١١٩٩) على تفويض من الإمبراطور لحكم الأرخبيل. وفي رأي مؤرخي اليابان أن العام ١١٩٢ ـ الذي حصل فيه **يورتومو** على هذا التفويض ولقب الشجون[٤٤] ـ مثّل حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور الوسطى اليابانية.

= **العربي**. وفي النص الأصلي الموضوع باللغة الإنكليزية استعمل شارل عيساوي مصطلح فيودالية، في حين استعمل في الترجمة العربية مصطلح «إقطاع».

(٤٢) شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٩٦.

(٤٣) Strayer, «The Tokugawa Period and Japanese Feudalism,» p. 46.

(٤٤) الشجون رتبة عسكرية أو لقب كان يُمنح مؤقتاً للقائد العسكري الذي يتولى مهمة القضاء على الثورات ضد الحكم المركزي الإمبراطوري، خاصة في عصر هييان. وهو مختصر لـ Seii Tai Shôgun، أو ما يمكن ترجمته تقريباً «القائد الأعلى قاهر البرابرة». ومنذ استيلاء الساموراي على السلطة، أضحى اللقب محصوراً في متزعم الساموراي الذي يحكم البلاد بتفويض من الإمبراطور.

فمنذ ذلك التاريخ، دخلت اليابان عهد ازدواجية السلطة: سلطة الإمبراطور، وهي أعلى سلطة في البلاد والمرجع الأول للمشروعية، إلا أنها سلطة لا تمتلك أي نفوذ فعلي في إدارة البلاد، ما عدا إضفاء المشروعية على حكم الشجون الذين يديرون أمور الدولة بتفويض من الإمبراطور؛ وسلطة الشجون هي سلطة عسكرية مفروضة بالقوة وتتمتع بصلاحيات مطلقة في إدارة البلاد. وقد عُرفت هذه السلطة المستحدثة باسم **باكوفو**، أو حكم الخيمة، نسبة إلى الخيمة التي كان ينصبها القادة العسكريون في ميدان المعركة كمقر لقيادة العمليات العسكرية[٤٥].

استطاعت شجونة[٤٦] ميناموتو في مستهل عهدها تحقيق حكم مركزي قوي وإحكام قبضتها على مجمل تراب الأرخبيل، عبر تعيين قواد عسكريين من الساموراي، أو **شوغو** (Shugo)[٤٧]. إلا أن شدة هذا الحكم تراخت بسبب ضعف السلطة المركزية من جهة، وتوسع نفوذ حكام الأقاليم من جهة أخرى. وهكذا انتهى حكم أُسرة **ميناموتو** بعد قرن ونصف قرن بثورة إصلاحية قام بها الإمبراطور **غو ـ دايغو** (Go-Daigo) (حكم ١٣١٨ ـ ١٣٣٩) عام ١٣٣٣.

كان عمر استعادة المؤسسة الإمبراطورية لسلطاتها قصيراً (ثلاث سنوات)؛ إذ سرعان ما استولت أُسرة أخرى من أسر الساموراي على السلطة، وعادت بالأمور إلى ما كانت عليه، أي استبداد الساموراي بالسلطة. ذلك أن **أشيكاغا نو تاكاؤجي** (Ashikaga no Takauji) (١٣٠٥ ـ ١٣٥٨)، الذي كان الإمبراطور غو ـ دايغو قد استعان به في إطاحة أُسرة ميناموتو، انقلب عليه وتمكن من إحلال أُسرته **أشيكاغا** مكان أُسرة **ميناموتو**. وكان من نتائج ذلك حدوث انقسام في المؤسسة الإمبراطورية، حيث عاشت اليابان فترة نافت على نصف قرن (١٣٣٦ ـ ١٣٩٢)

---

(٤٥) باكوفو (Bakufu) مصطلح صيني الأصل، حيث استُعمل بمعنيين أو في سياقين: يدل الأول على مقر القيادة العليا لحراس البلاط في عهد أسرة «تانغ»؛ ويدل الثاني على مقر القيادة العليا لقائد الجيش في أثناء المعارك. وكان يتم نصب خيمة كمقر لهذه القيادة. وممّا تجدر الإشارة إليه هو أن هذا المصطلح لم يُشرع في استعماله عند استيلاء «ميناموتو» على السلطة، لكن استُعمل في فترة لاحقة. انظر في هذا الشأن: Jeffrey P. Mass, «What Can We Not Know about the Kamakura Bakufu?,» in: Jeffrey P. Mass and William B. Hauser, *The Bakufu in Japanese History* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1985), pp. 14-15.

(٤٦) نستخدم طوال هذا النص مصطلح الشجونة للدلالة على حكم الشجون. ففي اللغة الإنكليزية يستعمل مصطلح (Shogunate) بالمعنى ذاته.

(٤٧) الـ «شوغو» لقب أُطلق على حكام الأقاليم في عهد كاماكورا (١١٩٢-١٣٣٣). وكاماكورا هو اسم العاصمة التي اتخذها ميناموتو حين استقل بالسلطة، ويُستعمل كمرادف لشجونة ميناموتو. وقد جرى اختيارهم من بين القواد العسكريين للساموراي المقربين من أُسرة الشجون الحاكمة. وكانت سلطاتهم محدودة في البداية في بعض القضايا الجنائية. انظر مادة: «Shugo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 183.

تحت حكم بلاطين: بلاط في الشمال (كيوطو) موال لأُسرة **أشيكاغا**، وبلاط في الجنوب معاد لها يتحدر من أُسرة **غو ـ دايغو**.

بلغت **شجونة أشيكاغا** (أو **موروماتشي**)[٤٨] (١٣٣٣ ـ ١٥٦٨) أوجها في الربع الأخير من القرن الرابع عشر، في عهد الشجون الثالث **يوشي ـ ميتسو** (Yoshimitsu) (١٣٦٨ ـ ١٤٠٨)، الذي قضى على معظم الثورات والقوى المعارضة لحكم أُسرته، وأحكم سيطرته على قسم مهم من البلاد. ومن موقع القوة الذي تأتى له، أمكنه إقناع بلاط الجنوب في العام ١٣٩٢ بالعودة إلى **كيوطو** والاندماج مع بلاط الشمال على أساس الوعد بتناوب فرعي الأُسرة الإمبراطورية على ولاية العرش. يضاف إلى هذا، الاعتراف الذي حصل عليه من الصين بعد نجاحه في إخضاع جزيرة **كيوشو** وإنهاء انقسام البلاد بين بلاط الشمال وبلاط الجنوب. غير أن من خلفوه من الشجون أضحوا عاجزين عن السيطرة على حكام الأقاليم من **الشوغو**. وواقع الأمر أن هذه السيطرة لم تكن تامة، سواء في عهد **يوشي ـ ميتسو** أو في أي فترة أخرى من شجونة **موروماتشي**؛ فانهماك الحكومة المركزية طوال القرن الرابع عشر بالقضاء على الثائرين، أحدث على صعيد الحكم الإقليمي فراغاً استغله زعماء الساموراي المحليون و**الشوغو** في توسيع نفوذهم والاستيلاء على أراضي الشوين، والاستئثار بحقوق ملاّكها الغائبين[٤٩]. ورغم المحاولات التي قامت بها سلطات الباكوفو في تحديد مهام الشوغو ونقلهم بين الأقاليم وعدم إبقائهم في مكان واحد، فإنها لم تفلح في نهاية الأمر في الحد من سلطاتهم التي كانت تزيد بضعف المركزي، حيث أصبحت مناصب الشوغو وراثية في بعض الأُسر، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى ظهور **الشوغو دايميو** (Shugo-Daimyo)، أو حكام الأقاليم الذين بدأوا ينزعون إلى الاستقلال عن الحكم المركزي، وتوريث السلطة في أُسرهم.

كانت حرب **أونين**، التي دامت عشر سنوات (١٤٦٧ ـ ١٤٧٧)، مؤشراً

---

(٤٨) موروماتشي هو اسم المدينة التي اختارتها أُسرة أشيكاغا عاصمةً لها، عوض كاماكورا التي اختارتها أُسرة ميناموتو. وهي تقع بالقرب من عاصمة الإمبراطور في سهل **كيناي**، بينما تقع كاموكورا في سهل **كانتو**، وهي قريبة من مدينة يوكوهاما جنوب طوكيو.

(٤٩) تعددت شكاوى المتضررين من اعتداءات الشوغو على حقوقهم في أراضي الشوين. فعلى سبيل المثال، اشتكت أُسرة من البلاط في مطلع القرن الخامس عشر لفقدانها ١٤ ضيعة من مجموع ٢٣ ضيعة كانت تمتلك الحق فيها بعد أن استولى عليها الشوغو. وكذلك اشتكى دير بوذي بفقدانه أربع ضيعات من أراضي الشوين، انظر: Mikiso Hane, *Premodern Japan: A Historical Survey* (San Francisco: Westview Press, 1991), p. 90.

على دخول اليابان فترة من الصراع والحرب الأهلية دامت زهاء مئة سنة. وترجع أصول الحرب إلى نزاع حصل داخل أُسرة **أشيكاغا** وأُسر الساموراي المساندة لها حول ولاية عهد الشجون. غير أن هذا النزاع لم يكن سوى الذريعة أو السبب الأبرز الذي قامت من أجله الحرب. أما الأسباب الحقيقية، فتكمن، كما أشرنا، في تنامي نفوذ **الشوغو ـ دايميو** ورغبتهم في تحقيق مكاسب من الحرب يوسعون بها مجال نفوذهم، وهو ما تساوق مع ضعف أُسرة **أشيكاغا** والصراع على السلطة الناجم عنه. والدليل على ذلك أن الحرب لم تنته بتسوية ولاية الشجون في العام ١٤٧٣، بل استمرت أربع سنوات أخرى إلى أن استنفد المحاربون قواهم وأنهكتهم المعارك. أضف إلى ذلك أن متحاربين كثراً غيّروا مواقعهم في أثناء الصراع، وحاربوا إلى جانب عدوهم بالأمس، بل نسي البعض منهم السبب الذي جند نفسه من أجله. ولعل النتيجة الأساسية التي أسفرت عنها حرب **أونين** هي الضعف التام لسلطات الباكوفو، التي أمست في حكم المنعدمة خارج **كيوطو** وضواحيها، الأمر الذي جعل البلاد تنزلق تدريجياً نحو حرب أهلية أخرى طويلة الأمد.

واعتباراً لتميز المئة سنة الأخيرة من حكم أسرة أشيكاغا بالصراع وانعدام الحكم المركزي، تعامل معها المؤرخون على أساس أنها فترة منفصلة تشكل مرحلة انتقالية من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، واصطلحوا على تسميتها **سنغوكو جيداي** (*Sengoku jidai*)، أو عصر الدويلات المتحاربة[٥٠].

دام عصر الدويلات المتحاربة من حرب أونين إلى ما بعد منتصف القرن السادس عشر، وبصورة أكثر تحديداً إلى عام ١٥٦٨ الذي تمكّن فيه **أودا نوبوناغا** (*Oda Nobunaga*)[٥١] من الدخول إلى **كيوطو**، وفرض هيمنته على جل مناطق البلاد، وإنهاء الحرب الأهلية. ورغم الاختلافات القائمة حول التاريخ الذي بدأت فيه هذه الفترة[٥٢]، فثمة إجماع على أن حرب أونين كانت مؤشراً على تجزئة اليابان وإدخالها عهد حكم غير مركزي قوامه الدايميو الذين استقلوا بحكم

(٥٠) مصطلح «سنغوكو» مكون من مقطعين: «سن (Sen) ويعني حارب أو قاتل، ومنه اشتُقت المفردة «سينسو» (Senso) التي تعني الحرب، ومقطع «غوكو» (Goku) ويعني الدولة. وقد استعمل هذا المصطلح في الأصل في تاريخ الصين عندما كانت مجزأة إلى دول متحاربة في القرن الثالث قبل الميلاد.

(٥١) سنعرض بالتفصيل في القسم الثاني، الفصل التاسع، لحياة أودا نوبوناغا وأعماله.

(٥٢) هناك من المؤرخين من يؤخر بداية عهد الدويلات المتحاربة إلى عام ١٤٩٠. حول هذه الاختلافات، انظر مادة: Suzuki Ryoichi, «Sengoku Period,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 64.

الأقاليم التي كانت تحت نفوذهم، أو تمكنوا من السيطرة عليها في غياب سلطة مركزية قوية. فمن هم هؤلاء الدايميو؟

يتردد ذكر **الدايميو** في تاريخ اليابان من نهاية القرن الخامس عشر إلى قيام إصلاحات الميجي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باعتبارهم أهم عنصر في البنية السياسية، بعد الشجون. ومن باب التذكير بما ورد في فقرات سابقة، نشير إلى أنه منذ استحواذ الساموراي على السلطة في نهاية القرن الثاني عشر، دأب الشجون على تعيين قواد عسكريين من الساموراي لحكم الأقاليم، ومراقبين للإشراف على أراضي **الشوين**، وأن هؤلاء جميعاً كانوا من الناحية المبدئية تابعين للشجون وتحت إدارته؛ أو بعبارة أخرى مجرد موظفين لدى الحكم المركزي، يجري تعيينهم ونقلهم وحتى الاستغناء عن خدماتهم. غير أن ضعف السلطة المركزية للشجونة، خاصة في عهد **موروماتشي**، عمل تدريجياً على تقوية نفوذ الشوغو، وعلى إيثار أُسر بعينها بهذه المناصب وتوارثها. وهؤلاء هم من اصطلح على تسميتهم **الشوغو ـ دايميو**، تمييزاً لهم ممن سبقوهم، كما سبقت الإشارة، غير أنهم لم يصلوا إلى حد القطيعة أو الاستقلال عن سلطة الشجون. أما ما حدث خلال حرب أونين وما تلاها من اضطراب، فهو ظهور صنف آخر من زعماء ساموراي الأقاليم استأثروا بحكم المناطق الواقعة تحت نفوذهم، واستقلوا استقلالاً شبه تام عن الشجون الذي لم يكن له شأن في تعيين البعض منهم حكاماً على الأقاليم، وهؤلاء هم من عرفوا بـ **الدايميو**(٥٣)، أو **دايميو سنغوكو** (دايميو الدويلات المتحاربة).

بلغ عدد أسر الدايميو في القرن السادس عشر قرابة ٢٠٠ أُسرة، وهي أسر تختلف أصولها وكيفية وصولها إلى السلطة، كما أنها لم تكن على قدم المساواة من حيث مكانتها واتساع مجال نفوذها(٥٤)؛ فقد احتكر خمس زعماء هذه الأُسر،

---

(٥٣) يتكوّن مصطلح الدايميو في اللغة اليابانية من مقطع «داي»، ويعني كبير، ومقطع «ميو»، ويعني اسم، ويفيدان معاً، إن تُرجما حرفياً، «الاسم الكبير». وترجع بداية استعمال هذا المصطلح إلى القرن الحادي عشر الميلادي، حيث كان يعني في الأصل ملّاك الأراضي الكبار، سواء من المدنيين أو من الساموراي. ولم يأخذ صيغته النهائية، التي ظل محافظاً عليها حتى قيام إصلاحات الميجي، إلا في القرن السادس عشر، كما هو مشار إليه في النص. انظر مادة: J. W. Hall, «Daimyo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, pp. 61-64.

(٥٤) لم يكن الدايميو في عهد الدويلات المتحاربة يصنَّفون في مرتبة واحدة، بل كان هناك تميز بينهم يقوم على أساس مدى اتساع مناطق نفوذهم؛ ففي مرتبة عليا كان الكوكوشو (Kokushu)، الذين كانوا يتحكمون في أكثر من إقليم واحد؛ وفي مرتبة تالية الريوشو (Ryoshu)، الذين كانوا يسيطرون على أقاليم صغيرة؛ وأخيراً الـ جوشو (Joshu)، الذين كانت سلطتهم محدودة في رقع صغيرة. انظر مادة: «Daimyo,» in: Papinot, *Historical and Geographical Dictionary of Japan*, p. 66.

وعلى مدى أجيال، منصب **الشوغو** في عهدي **كاماكورا** و**موروماتشي**، أي كانوا حكاماً في مناطق نفوذهم قبل حرب أونين، في حين تشكلت الأغلبية من زعماء محليين (من الساموراي) كانوا في مرتبة ثانية، أو مجرد تابعين للشوغو أو نواب لهم (**شوغوداي** Shugodai)(٥٥) استغلوا ظروف الحرب، وحلوا محل رؤسائهم. وأخيراً هناك صنف ثالث من الدايميو ممن كانوا من قبل يحتلون أدنى مستويات تراتب الساموراي، وعملوا في ظل الحرب على الرفع من مستواهم إلى أن أصبحوا سادة في أقاليمهم. والقاسم المشترك بينهم جميعاً هو استعمالهم القوة وسيلة للحصول على مناطق النفوذ وتوسعتها. فخلال عهد الدويلات المتحاربة، سعى الأقوياء من الدايميو إلى الاستيلاء على أراضي الضعفاء من جيرانهم إلى أن أصبحوا قوى إقليمية وأمراء صغاراً في أقاليمهم.

تميز عهد الدويلات المتحاربة باستقلال الدايميو عن سلطة الشجون، وهذا ما تمثّل في اعتبار مناطق نفوذهم إمارات أو دولاً صغيرة مستقلة وغير خاضعة للسلطة المركزية(٥٦) التي لم يعد لها من وجود خارج العاصمة **كيوطو**. وفي هذا الإطار حاول الدايميو إعطاء مناطق حكمهم كل مظاهر الدولة، من قبيل إصدار تشريعات خاصة بها واتخاذ موازين وقياسات يُعمل بها داخل حدودها، إضافة إلى بناء قلاع (أو مدن على هيئة قلاع) اتخذوها عواصم جمعوا فيها أتباعهم من محاربي الساموراي. بل هناك من الدايميو من حاول التشبه بالمؤسسة الإمبراطورية ذاتها باتباع نمط التحقيب «**نينغو**» الذي كان، وما يزال، حكراً على هذه المؤسسة. والملاحظ في العقود الأخيرة أن المؤرخين اليابانيين والأجانب أخذوا يعيدون النظر في تقييمهم لهذه الحقبة التاريخية؛ فبدلاً من النظرة إليها كفترة حروب وصراعات لا تنتهي، توجه هؤلاء إلى دراسة التشريعات والتنظيمات التي أدخلها بعض الدايميو في هذه الفترة، وكان لها تأثير كبير في الفترات اللاحقة، من قبيل تجميع الساموراي في القلاع وإبعادهم عن التدخل المباشر في شؤون الفلاحين، وكذا مسح الأراضي وتقييم مداخيلها نقداً، إلى غير ذلك.

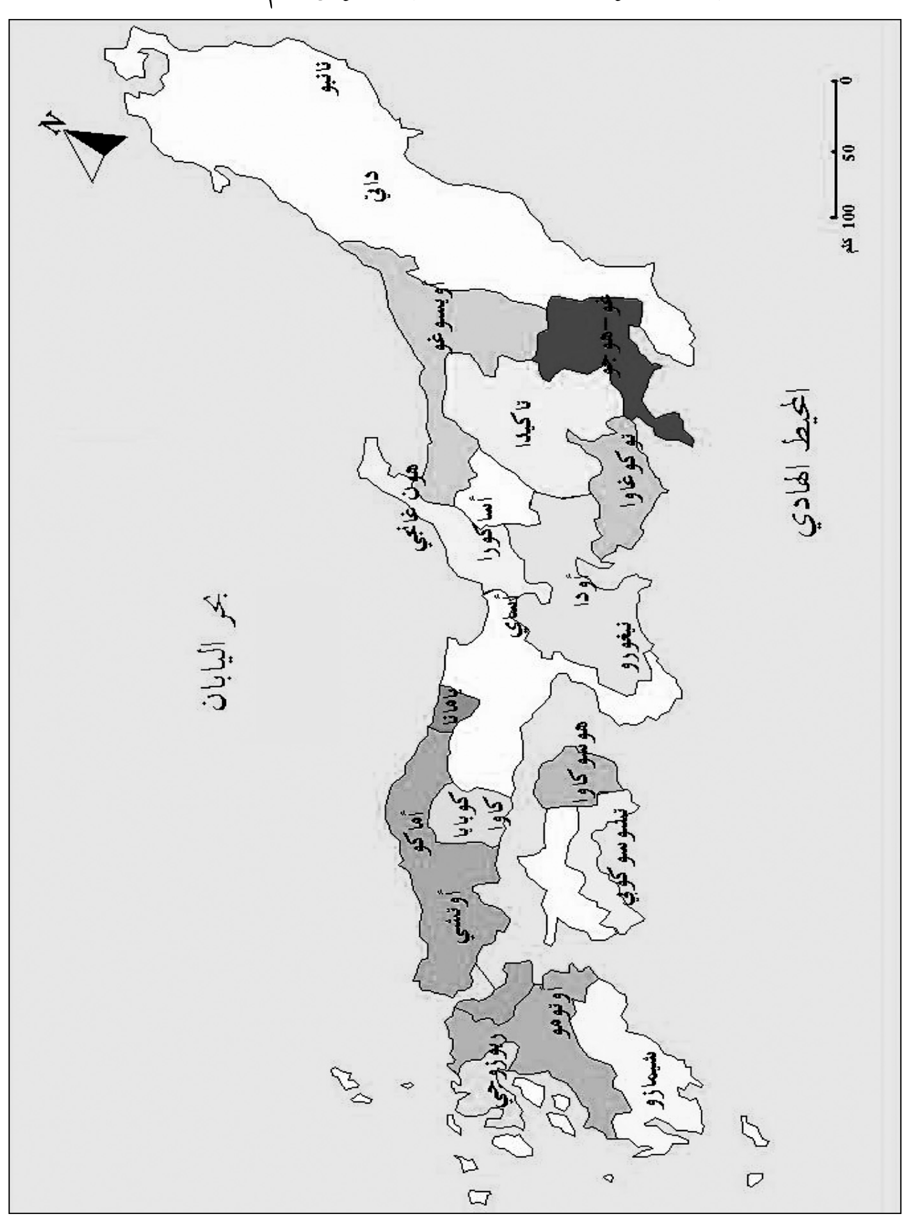
---

(٥٥) يتولى الشوغوداي من الناحية المبدئية منصب نائب الشوغو، الذي ينوب عن هذا الأخير في حال غيابه، غير أن سلطات الشوغوداي تقوّت في بعض الحالات إلى حد تعويض الشوغو نهائياً في مهامه. وهذا ما حدث في عهد الدويلات المتحاربة حيث استبد الشوغوداي بالسلطة.

(٥٦) من المصطلحات التي شاعت في هذه الفترة لوصف هذه الإمارات المستقلة مصطلح كوكا (Kokka)، الذي يعني دولة إن استُعمل اسماً، ويفيد النسبة إلى الوطن إن استُعمل نعتاً. انظر مفردة: «Kokka,» in: Kojima Yoshirō, *Kenkyusha's Lighthouse Japanese-English Dictionary* (Tokyo: Kenkyusha, 1984).

والخلاصة أن على إيقاع الحرب الأهلية والصراع بين الدايميو، دخلت اليابان القرن السادس عشر الذي شكل بداية للفترة التاريخية التي تغطيها هذه الدراسة.

الخريطة الرقم (٦)
كبار دايميو الدويلات المتحاربة (حوالى عام ١٥٧٢)



٦ ـ توحيد اليابان

شكّل القرن السادس عشر مرحلة انتقالية فاصلة في تاريخ اليابان؛ فمن الحرب الأهلية والصراع الداخلي وتشتت السلطة التي سادت حتى منتصف هذا القرن، قطعت اليابان شوطاً بعيداً نحو السلم والاستقرار السياسي، وإقرار حكم مركزي قوي في نهايته. كما عرفت اليابان خلال هذه الفترة اتصالها الأول المباشر بالغرب، وقد تمثّل في وصول التجار والمبشرين البرتغاليين والإسبان؛ إذ كان تأثير هؤلاء بالغاً في مسار أحداث الفترة، خاصة في سير المعارك الحربية التي تأثرت بالأسلحة النارية التي أدخلوها إلى اليابان أول مرة. كما كان انتشار العقيدة المسيحية عاملاً مؤثراً في القرار الذي اتخذته السلطات اليابانية في مطلع القرن السابع عشر والمتعلق بانتهاج سياسة عزلة وطنية تمثّلت في فرض قيود على التجارة الخارجية والاتصال بالأجانب، خاصة الغربيين منهم.

ما إن خرجت اليابان من حرب **أونين**، التي دامت عشر سنوات (١٤٦٧ ـ ١٤٧٧)، حتى دخلت في عهد «**الدويلات المتحاربة**» (١٤٦٧ ـ ١٥٦٨)، كما أشرنا آنفاً، وهو العهد الذي لم يكن في الواقع سوى فترة حرب أهلية طويلة الأمد لم تسلم من رحاها مدينة أو بادية. واستمر الحال على ما كان عليه طوال النصف الأول من القرن السادس عشر؛ إذ شكلت ظروف الحرب الأهلية مناخاً ملائماً لكبار الدايميو لإعادة رسم خريطة إقطاعياتهم وتشكيل مناطق نفوذهم، تذكيهم رغبة أكيدة في التوسع، ويغريهم على ذلك غياب حكم مركزي قوي يمكن أن يحد من تطلعاتهم. وبالفعل، استطاع البعض منهم تحقيق هيمنة جهوية انضوى تحتها عدد من صغار الدايميو، بينما فقد الكثير مناطق نفوذهم، وأصبحوا مجرد تابعين لمن هم أقوى منهم أو جرت تنحيتهم نهائياً. لم تكن مناطق النفوذ المستحدثة من التقطيع الجديد متساوية، كما لم يكن كل الدايميو المتبقين على قدم المساواة. ففي منتصف القرن تقريباً، كان هناك زهاء مئتي أُسرة من أُسر الدايميو تتوزع حكم البلاد، لم تحقق الهيمنة منها سوى عشرين أُسرة هي التي أنشأت بالفعل إمارات مستقلة لها تشريعاتها وقوانينها الخاصة ـ وهي التي أبهرت المبشرين وأطلقوا على أصحابها في تقاريرهم لقب أمراء أو ملوك صغار ـ بينما لم يكن للأغلبية المتبقية سوى الاسم أو مجرد رقع صغيرة تتحكم فيها. كانت الأسر الكبرى تشكل أحلافاً في ما بينها بحسب ما يخدم مصالحها أو يساهم في القضاء على خصومها ومنافسيها. أما الأُسر الصغرى والضعيفة، فكانت في حماية جيرانها الأقوياء وفي علاقة تبعية معها. وفي أجواء الحرب، كان كبار الدايميو يمضون جل وقتهم إما في المعارك وإما في

الاستعداد لها أو في قطع أراضيهم ذهاباً وإياباً للحفاظ عليها. كما كثرت، في هذا الجو المشحون بالترقب والحذر، المؤامرات والدسائس والتحالفات الظرفية، والنكث بالوعود الذي يتنافى مع أخلاق الساموراي ويعارض مبادئهم.

ومع ذلك، لم يكن عهد «**الدويلات المتحاربة**» سلبياً في مجمله؛ ففي سبيل دعم المجهود الحربي، قام كبار الدايميو بتشجيع التجارة والزيادة في الإنتاج الزراعي باستصلاح الأراضي وإقامة منشآت الري في مناطق نفوذهم، وكذا بناء القلاع المحصنة ومحطات المراقبة على المسالك المارة بها، إضافة إلى وضع تشريعات وقوانين تحفظ هيمنتهم وتدعمها، والقيام بمسح الأراضي الزراعية وتحديد مداخيلها(٥٧).

وبسبب فقدان الشجون أية سلطة عسكرية قوية أو سياسية فعلية، اتجه كبار الدايميو، ممن حققوا هيمنة إقليمية، إلى الإمبراطور بهدف الحصول على واحد من الألقاب أو واحدة من الرتب التي يمنحها، أملاً في أن تدعم سلطتهم أو تمنح حكمهم غطاء من المشروعية. فالقوة العسكرية لم تكن وحدها كافية لتحقيق السلطة والهيمنة، بل كان من الضروري الحصول على غطاء شرعية المؤسسات المركزية حتى وإن كانت سلطتها رمزية فحسب. ولعل في ذلك رد اعتبار للإمبراطور الذي فقد جل سلطاته السياسية منذ وصول الساموراي إلى السلطة في أواخر القرن الثاني عشر. وعلى أي حال، لم يكن الإمبراطور وأرستقراطية **كيوطو** في هذه الفترة أسعد حظاً من الشجون؛ فقد تدنت مداخيل المؤسسة الإمبراطورية إلى أقل مستوياتها، حيث كان على بعض الأباطرة الجدد الانتظار عدة سنوات ليوفروا المال الكافي للقيام بأعباء مراسيم وطقوس التتويج الباهظة التكلفة. كما أن أرستقراطية **كيوطو** (كوجي)، كانت قد فقدت في هذه الفترة ـ بل وحتى قبلها ـ مداخيلها من عائدات أراضي الشوين.

كان منطقياً في ظروف الصراع والبحث عن الهيمنة والتوسع، أن يظهر في

---

(٥٧) لعلّ أهم مرجع عن فترة الدويلات المتحاربة هو حصيلة الندوة التي عقدت في هواي عام ١٩٧٧ بمبادرة من مؤسستين أمريكية ويابانية، وشارك فيها باحثون أمريكيون ويابانيون. وهي تدخل في إطار إعادة تقييم حصيلة هذه الفترة وعدم الاقتصار على النظر إليها كفترة حرب أهلية. وقد نشرت أعمال هذه الندوة عام ١٩٨١ تحت عنوان: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981).

ومن المراجع الموضوعة باللغة الإنكليزية التي تتحدث بدقة عن أحداث الفترة، نشير خاصة إلى: Sansom, *A History of Japan, 1334-1615*, and Asao Naohiro, «The Sixteenth Century Unification,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, pp. 40-95.

أوساط هذه الأُسر زعماء يتطلعون إلى ملء الفراغ السياسي على الصعيد المركزي، يراودهم حلم إخضاع كل الدايميو لسلطة عسكرية قوية، وإحلال أسرهم محل أُسرة **أشيكاغا** المتهالكة على رأس نظام الباكوفو. وهذا ما حدث فعلاً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، حيث ظهر ثلاثة زعماء تمكنوا من توحيد البلاد وإنهاء الحرب الأهلية وإحداث قطيعة مع الماضي. وهم على التوالي: **أودا نوبوناغا** (١٥٣٤ ـ ١٥٨٢) و**تويوتومي هيدي ـ يوشي** (١٥٣٦ ـ ١٥٩٨) و**توكوغاوا إياسو** (١٥٤٢ ـ ١٦١٦). كان مولد هؤلاء الزعماء في أوقات متقاربة، إذ عاشوا طفولتهم وشبابهم في ظروف متشابهة في ظل الصراع والحرب. لكن **نوبوناغا** كان أول من راوده الحلم، فبدأ مشروع توحيد البلاد، وقطع به شوطاً طويلاً إلى أن تسلم منه **هيدي ـ يوشي** المشعل وأتم المشروع. إلا أن **إياسو** استغل مجهود سلفيه وتمكن من الحصول على لقب الشجون وإحلال أُسرته محل أُسرة **أشيكاغا**. وكما شخص مثل ياباني هذا الواقع، فإن **نوبوناغا** عجن الكعك وحضره، ثم قام **هيدي ـ يوشي** بوضعه في الفرن إلى أن نضج، وفي الأخير جاء إياسو والتهمه لقمة سائغة. والملاحظ أن مشروع توحيد البلاد لم يكن سهل التحقيق، فإضافة إلى حشد الجنود والمهارات العسكرية، كان يتطلب الذكاء السياسي وجرأة المبادرة، والقدرة على المناورة للصمود أمام الخصوم والمنافسين وتحسب مؤامراتهم وإحباطها. وقد توافر في هؤلاء الزعماء الكثير من هذه السمات التي مكنتهم من كسر شوكة الدايميو، وإخضاع البلاد ثانية لحكم مركزي عبر سلسلة من المعارك والتحالفات والإجراءات القانونية والاقتصادية.

بطل التوحيد دون منازع هو **أودا نوبوناغا**؛ فعلى الرغم من أنه لم يكن السبّاق إلى فكرة توحيد اليابان من جديد تحت حكم عسكري قوي، فإنه ذهب بمشروعه بعيداً، فأنهى الحرب الأهلية، وأخضع جل الدايميو لسلطته، وقضى على التمرد الذي كان بعض التيارات البوذية يتزعمه.

ينتمي **نوبوناغا** إلى أُسرة **أودا** التي ظهرت على الساحة السياسية في نهاية القرن الرابع عشر، حين كانت في بدايتها تابعة لأُسرة شيبا[٥٨] المتنفذة آنذاك

(٥٨) أسرة شيبا (Shiba) هي من أُسر الدايميو التي تولّت مناصب قيادية في عصر موروماتشي (١٣٣٦-١٥٦٨)؛ إذ تولىّ أفراد منها منصب نائب الشجون كانريئي (Kanrei)، وتولّوا أيضاً حُكم الأقاليم. وهي، على أي حال، فرع من أسرة أشيكاغا الحاكمة في العصر المشار إليه.

بسبب صلة القرابة التي تربطها بأُسرة **أشيكاغا** ودعمها لهذه الأخيرة في الوصول إلى السلطة. وعندما تولى فرد من شيبا منصب الحاكم العسكري (شوغو في عصر **موروماتشي**) على إقليم **أواري**(٥٩) وقع اختياره على أحد أفراد أسرة أودا ليكون نائبه في منصب «شوغوداي» (نائب الحاكم العسكري). ومنذ ذلك الحين، ظلت أُسرة **أودا** تتوارث هذا المنصب وفي تبعية لأُسرة **شيبا** حتى مطلع القرن السادس عشر. أما عن أصولها البعيدة، فترجع إلى أسرة كهنوتية تُعرف بـ **إيمبي** تولى أفرادها لقرون وظيفة الكهانة وعهدة الطقوس الدينية في معابد الشنتو. واعتباراً لما للنسب من أهمية في تولي المراتب العليا في البنية السياسية اليابانية ـ كما سنفصل في ذلك في مناسبة أخرى ـ فإن أفراد هذه الأُسرة رفعوا نسبهم إلى أُسرة **فوجي ورا**(٦٠)بعد أن علا شأنهم في القرن السادس عشر، بينما زاد **نوبوناغا**، من رفعة نسبه بادعائه التحدر من **تايرا**(٦١) القريبة الصلة بالأُسرة الإمبراطورية(٦٢).

عندما تولى **نوبوناغا** زعامة أُسرة **أودا** عام ١٥٥١، كان الطريق أمامه ما يزال طويلاً وشاقاً ليحقق هيمنة إقليمية في منطقة كان محاطاً فيها بمنافسين أقوياء. وهكذا أمضى عقد الخمسينيات من القرن السادس عشر في حروب توسعية محدودة ضد جيرانه، وفي القضاء على ما تبقى من فروع **أودا** المناوئة له. وكان في نهاية هذا العقد قد أحكم سيطرته على إقليم **أواري**. وفي هذه المرحلة المبكرة من سيرته العسكرية والسياسية، ظهرت واحدة من السمات التي ظلت لصيقة به إلى حين وفاته، وهي القسوة وانعدام الرأفة في معاملة خصومه ومعارضيه حتى ولو كانوا أقرب المقربين، إليه إن هم وقفوا في طريقه.

كان عام ١٥٦٠ فاتحة خير على **أودا نوبوناغا**، ففي ذلك العام اعترض طريق أحد الدايميو الساعين إلى احتلال العاصمة كيوطو (وهو **إيماغاوا يوشي ـ**

---

(٥٩) إقليم أواري (Owari) يقع وسط جزيرة هونشو، وهو الآن جزء من محافظة أيتشي (Aichi)، انظر الخريطة الرقم (٥).

(٦٠) فوجي وارا (Fujiwara) أشهر أُسرة ارستقراطية في عصر هييان (٧٩٤ ـ ١١٩٢)، تعاقَب أفرادها على تولّي منصب الوصاية على العرش والحكم باسم الإمبراطور. كما اشتهرت بعلاقات المصاهرة مع الأُسرة الإمبراطورية.

(٦١) أسرة تايرا (Taira) من أُسر الساموراي الكبرى التي تتحدر من الأُسرة الإمبراطورية، شأنها شأن أُسرة ميناموتو. وقد كانت المنافس الأول لهذه الأخيرة في أثناء الصراع بين أُسر الساموراي للاستيلاء على السلطة. ومن ثم يعتبر النّسب إليها تشريفاً ورفعة مكانة.

(٦٢) في ما يخص أصول أُسرة أودا، انظر: George Elison, «Oda Family,» *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, pp. 60-61.

موتو)[٦٣]، وحقق انتصاراً باهراً عليه في معركة **أوكي ـ هازاما**[٦٤] التي تحتل مكاناً مرموقاً بين المعارك الكبرى في تاريخ اليابان، باعتبارها علامة بارزة في القضاء على الحرب الأهلية، ونقطة بداية لخروج **أودا نوبوناغا** من دائرة السياسة المحلية الضيقة إلى دائرة السياسة العامة. ذلك أن الإمبراطور والشجون ثمّنا عمل **نوبوناغا**، معتبرين ما قام به عملاً بطولياً لحماية العاصمة ومؤسساتها المركزية، فأضحى اسمه يتردد في أوساط الشجونة وحاشية الإمبراطور.

أصبح **نوبوناغا** بعمله ذاك بمثابة قارب نجاة تشرئب إليه أعناق من هم على رأس الشجونة، الذين كانوا غارقين هم أيضاً في لجة الصراعات الداخلية. ففي أواسط ستينيات القرن السادس عشر، بينما كان **أودا نوبوناغا** في عز سطوته، يخوض المعركة تلو الأخرى لإخضاع إقليم **مينو**[٦٥]، كانت تعصف بشجونة أشيكاغا أزمة الخلافة على العرش كتلك التي كانت السبب المباشر لاندلاع حرب **أونين**. ففي هذه الفترة، كان على رأس الشجونة **أشيكاغا يوشي ـ تيرو** (حكم ١٥٤٧ ـ ١٥٦٥) الذي لم يكن يملك أية سلطة فعلية، يعيش فقط تحت رحمة نوابه ومجرد بيدق في أيديهم، إذ اضطر إلى قضاء زهاء تسع سنوات هارباً من العاصمة بعد أن طردوه منها عام ١٥٤٩. ولم يكن حظه أحسن حالاً عندما سمحوا له بالعودة، فبعد فترة قصيرة على استقراره في العاصمة، اغتيل في مقر إقامته عام ١٥٦٥. وباغتياله بدأ التنافس على ولاية العهد، وانفتح الباب على مصراعيه أمام تدخل **نوبوناغا** في الشؤون الداخلية للشجونة.

ففي هذا الإطار كان دخول **نوبوناغا** إلى العاصمة كيوطو عام ١٥٦٨ بطلب من الإمبراطور **أوغيماتشي** (Ogimachi) (حكم ١٥٥٧ ـ ١٥٨٦)، وتلبية لاستغاثة أحد المطالبين بمنصب الشجون. وبالتالي جاء انتصاراً للمشروعية وبرغبة

---

(٦٣) إيماغاوا يوشي- موتو (Imagawa Yoshimoto) (١٥١٩ ـ ١٥٦٠)، أحد كبار دايمو الدويلات المتحاربة. كانت منطقة نفوذه تشمل إقليمي سوروغا (Suruga) وتوتومي (Totomi) وسط جزيرة هونشو، وهما ضمن محافظة شيزو أوكا (Shizuoka) اليوم. انظر: الخريطة الرقم (٥).

(٦٤) وقعت معركة أوكي هازاما (Okehazama) في ١٢ حزيران/ يونيو ١٥٦٠. وهي تُنسب إلى مكان توجد فيه اليوم مدينة طايوآكي (Tayoake) في محافظة أئيتشي (Aichi) التي كانت حاسمة في مساريه السياسي والعسكري. والملاحظ أن هذه المعركة لم تكن ذات أبعاد عسكرية كبرى، رغم ما يروى عن بطولة نوبوناغا وذكائه الحربي في هذه المواجهة، حيث لم تكن قواته تتعدى ٣٠٠٠ مقاتل، في حين كان جنود خصمه في حدود ٢٥,٠٠٠ مقاتل، إلا أنه يحتفى بها في تاريخ اليابان لكونها شكلت البداية في إنهاء الحرب الأهلية.

(٦٥) مينو (Mino) إقليم في وسط جزيرة هونشو في محافظة غيفو (Gifu) حالياً، انظر: الخريطة الرقم (٥).

من أعلى سلطتين في البلاد. ومن ثم مثل هذا العام بداية لعهد جديد في تاريخ اليابان. وهو العام الذي يعتمده جل المؤرخين في تحقيبهم لنهاية عهد **الدويلات المتحاربة** وبداية فترة الاستقرار والأمن. كما يأخذ أهميته أيضاً من تزامنه مع إنهاء حكم أُسرة **أشيكاغا** الذي دام من عام ١٣٣٦ إلى عام ١٥٦٨.

كانت علاقة **أودا** بالمؤسسة الإمبراطورية جيدة في البداية؛ ففي عز سطوته عرض عليه الإمبراطور **أوغيماتشي** في عام ١٥٨١ تولي منصب **كامباكو**، وهو أعلى منصب على الإطلاق في المؤسسة الإمبراطورية؛ إذ يقوم صاحبه بالوصاية على العرش حيث لم يتقلده قبل ذلك التاريخ سوى أفراد قلائل من أُسرة **فوجي ـ وارا**. غير أن **نوبوناغا** ربط قبوله بشرط تنازل الإمبراطور عن العرش لصالح ولي عهده **سانيهيتو** (Sanehito). ولعل هذا الحدث كان الحلقة الأخيرة في العلاقات بين الإمبراطور و**نوبوناغا**، حيث ظل هذا الأخير متمسكاً بمطلب التنازل عن العرش كشرط للعمل في ظل المؤسسة الإمبراطورية. وربما كان مطمحه أوسع من تولي منصب الشجون؛ إذ تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن **أودا نوبوناغا** أخذ يمهر أوامره ورسائله بطابع يحمل شعار **تينكا بوفو** (Tenka Bufu) (المملكة أو المجال الخاضع للحكم العسكري)[٦٦]، وهو ما يعني نظاماً جديداً مستقلاً عن المؤسستين القائمتين: المؤسسة الإمبراطورية ومؤسسة الشجونة. ولعل في هذا الشعار ما يوحي بتطلعات نوبوناغا غير المسبوقة من أقرانه الدايميو، الذين كان أقصى تطلعهم إحلال أُسرهم محل أُسرة أشيكاغا.

في آخر عام من حياة **نوبوناغا** (١٥٨٢)، تحقق الشطر المهم من توحيد اليابان؛ فالمناطق الحيوية الوسطى من جزيرة **هونشو**، والمتمثّلة أساساً في سهلي كانتو وكيناي اللذين كانا دوماً موقعاً للسلطة المركزية ومهداً لنشأتها، أصبحت خاضعة للحكم العسكري الذي أقامه **نوبوناغا**، ولم يتبق له لتحقيق وحدة اليابان الكاملة سوى الأقاليم الشمالية والغربية وجزيرتي **كيوشو** و**شيكوكو**، وهو ما يعني أن أهم الأقاليم آنذاك أصبحت خاضعة من جديد لحكم مركزي. وفي

(٦٦) «تينكا» مصطلح صيني الأصل، استعمل في الكتابات السياسية الصينية في بعض السياقات للدلالة على الإمبراطورية. والمصطلح يعني حرفياً «كل ما يقع تحت السماء»، أو بعبارة أخرى كل ما هو واقع تحت عالم السماوات (ملكوت السماء أو عالم الغيب) وخاضع للإرادة السماوية، لكن تتجسد فيه أيضاً إرادة الإنسان بتناسق وتناغم مع الإرادة السماوية. وقد استغل نوبوناغا وخلفه هيدي ـ يوشي هذا الإيحاء الديني، الذي هو أساس مشروعية سلطة الإمبراطور في الصين، للدلالة على المناطق التي جرى توحيدها تحت الحكم العسكري، وذلك في مقابل مصطلح الباكوفو الذي كان نظام الشجونة يستعمله.

الفترة ذاتها ـ أي بداية عقد الثمانينيات ـ كان **نوبوناغا** قد شرع في إخضاع الأقاليم الغربية والجنوبية، حيث كلف **هيدي ـ يوشي** بإخضاع الأراضي الواقعة تحت حكم أُسرة **موري** التي من شأنها فتح الطريق نحو جزيرة **كيوشو**. في خضم هذه المعارك التي لا تنتهي، وبينما كان **نوبوناغا** يستريح استراحة محارب مع ثلة من جنوده في مكان اعتاد الإقامة به في ضاحية العاصمة **كيوطو**، جرى حادث **هونوجي** الذي كانت فيه نهايته(٦٧). وفي هذه اللحظة الحرجة برز دور **هيدي ـ يوشي** الذي عاد إلى العاصمة على عجل، وأخذ بزمام الأمور، وأنهى حركة التمرد التي لم تدم سوى بضعة أيام. وهكذا انتهت حياة **نوبوناغا** دون أن يكمل مشروعه أو يرسخ أُسرته على رأس الشأن العام.

٧ ـ تأسيس عهد جديد

لم يكن **تويوتومي هيدي ـ يوشي**، خَلَف أودا نوبوناغا، ينتمي إلى أي من أُسر الساموراي المهمة، سواء الصاعدة منها أو تلك التي احتلت مكانة مرموقة قبل الحرب الأهلية، إلا أنه يُعتبر، في نظر المؤرخين، أهم زعماء الفترة ومهندس النظام الجديد. كما يعتبر، في نظر اليابانيين، بطلاً قومياً استثنائياً في تاريخهم؛ فهو رجل عصامي، بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ إذ بدأ حياته العملية في أدنى مستويات فئة الساموراي، وكان عندما التحق بخدمة **أودا نوبوناغا** مكلفاً بحمل نعاله، إلا أنه أبان عن مؤهلات ومقدرات ومهارات عسكرية أهلته ليتبوأ أعلى مرتبة ضمن مساعديه المقربين. وعندما خلف **أودا نوبوناغا**، كان مشروع توحيد البلاد عرضة للانهيار، إلا أنه استطاع بحنكته اجتياز كل الصعاب وإتمام المشروع، ووضع قواعد وأسساً وتشريعات تضمن بقاء الدايميو تحت السلطة المركزية. بل إن البعض من منجزاته تعد أعمالاً متفردة ونوعية في تاريخ اليابان، مثل المسح العام للأراضي الزراعية وغيرها، وتحديد مداخيلها بدقة، وكذا توحيد معايير القياس التي اعتبرها الكثيرون خطوات أولى نحو تحديث اليابان(٦٨).

---

(٦٧) وقع هذا الحادث في ٢٢ حزيران/ يونيو ١٥٨٢، وكان بمثابة انقلاب داخلي عليه من تدبير أحد أعوانه أكيتشي ميتسوهيدي.

(٦٨) هناك كتابات كثيرة حول حياة هيدي ـ يوشي ومنجزاته باللغة اليابانية. ومن المقالات الجيدة عن شخصيته الموضوعة باللغة الإنكليزية: George Elison, «Hideyoshi, The Bountiful Minister,» in: George Elison and Bardwell L. Smith, eds., *Warlords, Artists and Commoners: Japan in the Sixteenth Century* (Honolulu: University Press of Hawaii, 1981), and John Whitney Hall, «Hideyoshi's Domestic Policies,» in: Hall, Keiji and Yamamura, *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650.*

استنفد الجهد العسكري قسطاً من طاقة **هيدي ـ يوشي**، غير أنه لم يشكل القسط الأهم في سبيل إتمام مشروع **نوبوناغا** وإقامة دعائم النظام الجديد. فقد ورث **هيدي ـ يوشي** مجالاً مكوناً من الأقاليم الوسطى لجزيرة **هونشو**، وكان عليه قطع شوط آخر لإخضاع البلاد كلية للحكم العسكري، إذ كان ما يزال أمامه إخضاع الأقاليم الغربية وجزيرتي **كيوشو** و**شيكوكو**، إضافة إلى قسم من سهل **كانتو** وأقاليم الشمال. ولم يكن في إمكانه القيام بذلك قبل إنهاء مسألة خلافة **نوبوناغا** التي نازعه فيها أبناء هذا الأخير، وكذا إسكات المعارضة الداخلية المتمثلة في خروج عدد من الدايميو الذين كانوا من أنصار نوبوناغا.

بعد إنهاء المعارضة الداخلية، تمكن **هيدي ـ يوشي** في فترة قصيرة من القضاء نهائياً على حركات التمرد (**إيكو إيكي**)[٦٩] التي كانت تتزعمها طائفة جودو شين البوذية، كما تمكن من إخضاع جزيرة **شيكوكو** التي كانت تابعة لأُسرة **تشوسوكابي**[٧٠]. واعتباراً لما حققه **هيدي ـ يوشي** من انتصارات وفرض نفسه كزعيم دون منازع، منحه الإمبراطور **أوغيماتشي** في العام ١٥٨٥ أعلى رتبة ضمن أرستقراطية البلاط، وعيّنه في منصب **كامباكو** (الوصي على العرش)، الأمر الذي خوله صلاحيات إضافية تؤهله للعمل باسم الإمبراطور وبتفويض منه. وهكذا شرع في الاستعداد لإخضاع الأقاليم الغربية، وجزيرة **كيوشو** التي كانت آنذاك مقراً رئيسياً للنشاط التجاري البرتغالي ومجالاً خصباً لنشر الديانة المسيحية.

إضافة إلى إتمام مشروع وحدة الجزر اليابانية تحت حكم عسكري قوي، قام **هيدي ـ يوشي** باتخاذ سلسلة من القرارات السياسية والاقتصادية والإجراءات الإدارية، التي كانت أساساً لتحول جذري في المجتمع الياباني ومؤسساته السياسية، وإرساء قواعد نظام جديد سيتخذ شكله النهائي في نظام الباكوهان

---

(٦٩) «إيكو إيكي» (Ikko Ikki) هو المصطلح الذي تعرف به حركات التمرد التي قامت بها طائفة جودو شين (Jodo Shin) البوذية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. والطائفة هذه واحدة من الطوائف التي ازدهرت في اليابان، وهي فرع من المذهب البوذي «الأرض الطاهرة» الذي يدعو إلى التعبُّد لبوذا قصد البعث في الأرض الطاهرة، أرض بوذا، حيث في إمكان الروح الخلاص والوصول إلى مرحلة النرفانا. وقد أصبحت هذه الطائفة ذات نفوذ قوي لدى الفئات السفلى، خاصة الفلاحين. والملاحظ أنه كان لهذه الطائفة تنظيمات عسكرية تضاهي تنظيمات الساموراي، وأنها دخلت في مواجهات مع حكام الأقاليم ومع كبار الدايميو. وفي ما يخص تفصيلات إضافية عن عقيدة هذه الطائفة، انظر: Kazuo Kasahara, ed., *A History of Japanese Religion*, Translated by Paul McCarthy and Gaynor Sekimori (Tokyo: Kosei Publishing, 2001), pp. 408-414.

(٧٠) أسرة تشوسوكابي (Chosokabe) من أسر الدايميو العريقة التي كانت مستقرة في إقليم توسا (Tosa) في جزيرة شيكوكو، محافظة «كوتشي» (Kochi)، اليوم. وقد تمّ القضاء عليها نهائياً عام ١٦١٥.

ابتداء من مطلع القرن السابع عشر. واعتباراً لأهمية هذه الإجراءات وعلاقتها بموضوعنا، فإننا سنجملها في صورة عناوين مصحوبة بتعليقات موجزة:

أ ـ مسح الأراضي

لعل أهم ما يُنسب إلى **هيدي ـ يوشي** ويذكر به في المصادر التاريخية، هو مسح الأراضي العام ـ المنسوب إليه والمعروف بـ **تايكو كينتشي**(٧١)، الذي شمل كل الأراضي الزراعية وكان أساساً لعدد من التنظيمات والترتيبات التي خضعت لها البوادي والقرى اليابانية؛ إذ يعتبر هذا الإنجاز، في رأي بعض الباحثين، أهم خطوة قطعتها اليابان في الانتقال من العصر الوسيط (الياباني) إلى العصر الحديث، وأداة فاعلة عززت عملية توحيد البلاد(٧٢). وقد تميز تايكو كينتشي من عمليات المسح التي سبقته، بشموليته وتطبيقه العام الذي لم تُستثن منه أية أرض زراعية مهما بعدت ومهما كانت قيمتها الإنتاجية. وتميز أيضاً في توحيد المقاييس المستعملة في قياس مساحة الأرض وتحديد قيمتها الإنتاجية بمكيال موحد.

ب ـ توحيد وحدات الوزن والقياس

وكان يدخل ضمن المجهود العام الذي كان **هيدي ـ يوشي** يقوم به في سبيل توحيد البلاد إدارياً واقتصادياً بعد نجاحه في إخضاعها عسكرياً. وواقع الأمر أن هذا التوحيد لم يجر التوصل إليه وتعميمه إلا عام ١٥٩٤. ودون الدخول في جزئيات هذه القياسات، سنكتفي بالوحدات الكبرى فيه، وهي: تان (Tan) (= ٠,١٢ هكتار) بالنسبة إلى قياس المساحات، وكوكو (Koku) (=١٨٠ ل)(٧٣) بالنسبة إلى الحبوب.

ج ـ الإحصاء العام

أمر **هيدي ـ يوشي** في عام ١٥٩١ بإجراء إحصاء عام يحصى فيه عدد

---

(٧١) تايكو كينتشي (Taiko Kenchi) هو المصطلح الياباني الذي عُرف به مسح الأراضي الذي قام به هيدي ـ يوشي. وهو مكون من تايكو، وهو اللقب الذي عُرف به هيدي ـ يوشي بعد اعتزاله وتخليه طواعية عن منصبه كامبكو لصالح ابن أخته منذ عام. أمّا كينتشي، فهو اللفظ الياباني الذي يدلّ على مسح الأراضي عموماً.

(٧٢) من أصحاب هذا الرأي الباحث الياباني واكيتا أوسامو: Wakita Osamu, «The Kokudaka System: A Device of Unification,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 1, no. 2 (Spring 1975), pp. 297-330.

(٧٣) الواقع أن كوكو يساوي ١٨٠,٣٩ ل. والأصل في اختيار هذا القياس هو أن هذا المقدار كان يكفي من الناحية النظرية لسدّ حاجيات فرد واحد من الأرز لمدة سنة. انظر مادة: «Koku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 256.

الأُسر والرجال والنساء والأطفال في كل قرية ومدينة، مع تقييد وضعية كل فرد بحسب مهنته ووضعه في المكان الذي يقيم به(٧٤). لم يكن القصد من الإحصاء معرفة تعداد السكان في حد ذاته، بقدر ما كان تحديد أماكن إقامة الأشخاص والحد من تنقلهم من مكان إلى آخر، ذلك أن البند الأخير من المرسوم المتعلق به أشار إلى ضرورة منع التنقل من مكان إلى آخر، وهو ما له علاقة بإجراء جمع الأسلحة، موضوع الفقرة اللاحقة.

د ـ جمع الأسلحة والتراتب الاجتماعي

ومن الإجراءات التي أقدم عليها **هيدي ـ يوشي** وكان لها تأثير بالغ في المجتمع الياباني خلال قرنين ونصف قرن من الزمن، إجراءان، تعلق أحدهما بنزع أسلحة الفلاحين والرهبان وسكان القلاع والمدن باستثناء فئة الساموراي، وتعلق الآخر بتحديد وضع الفئات، وتقييد حرية تنقل الفلاحين والحرفيين أو مغادرة أماكن إقامتهم. وقد صدر في شأنهما مرسومان، الأول عام ١٥٨٨، والثاني عام ١٥٩٢(٧٥)، وقد كانت لهما أبعاد وتداعيات كثيرة، وحققا أكثر من هدف. ولعل أبرز هذه الأبعاد، البعد الرامي إلى وضع حدود فاصلة بين الفئات الاجتماعية، ووضعها ضمن تراتبية واضحة المعالم بحيث لا يكون في إمكان أية فئة تجاوز الحدود المرسومة لها. وقد كانت فئة الساموراي على رأس هذه الهرمية؛ فهي الفئة الوحيدة التي سمح لها المرسوم بامتلاك الأسلحة واستعمالها. ورغم أن وجود فئات ذات أبعاد وهويات معروفة كان أمراً شائعاً في المجتمع الياباني، فإن إقامة حدود صارمة بين هذه الفئات كان تصوراً مثالياً بعيداً نسبياً عن الواقع. فالساموراي لم يشكلوا، خلال العصر الوسيط الياباني، فئة معزولة تماماً عن فئة الفلاحين وغيرها من الفئات الأخرى، بل كان في إمكان أُسر من الفلاحين الترقي إلى وضعية الساموراي، إن هي أجادت المهارات الحربية وشاركت في المعارك الدائرة. كما أن أُسراً كثيرة من الساموراي مارست النشاط الزراعي أو زاوجت بين النشاطين العسكري والزراعي. ولعل أُسرة **هيدي ـ يوشي** أحسن مثال في هذا الباب؛ إذ يروى أن والده عاد إلى ممارسة الزراعة بعد إصابته في إحدى المعارك إصابة أقعدته عن العمل العسكري.

(٧٤) انظر نص المرسوم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: Lu, *Japan: A Documentary History*, pp. 193-194.

(٧٥) انظر نص المرسومين مترجمين إلى اللغة الإنكليزية في: Ryusaku Tsunda, eds., *Sources of Japanese Tradition*, 2 vols. (New York: Columbia University Press, [1964]), vol. 1, pp. 319-322.

والحقيقة أن هذا التصور المثالي للتراتب الاجتماعي كان ناجماً عن مبادئ الكونفوشيوسية التي أعيد إحياؤها ثانية في اليابان، والتي كان لها تأثير كبير في النظام الاجتماعي ابتداء من هذه الفترة وخلال عصر **توكوغاوا**.

هـ ـ تنظيم العلاقة بين الحكم المركزي والدايميو

شكلت سياسة **هيدي ـ يوشي** تجاه الدايميو نموذجاً أولياً لما ستكون عليه علاقة الأقاليم (الهان) بالسلطة المركزية، وعلاقة الدايميو بالشجون خلال عصر **توكوغاوا**. والملاحظ أن **هيدي ـ يوشي** لم يسع إلى القضاء على نفوذ الدايميو (سنغوغو دايميو) أو إلى إقصائهم من البنية السياسية المستحدثة؛ فبعد إخضاعه أقاليم اليابان كافة، أبقى على معظم أُسر الدايميو في أماكنها، مع تقليص مناطق نفوذها. وكان على هؤلاء الدايميو التخلي عن مظاهر الاستقلال الذاتي، وإعلان خضوعهم للحكم المركزي الذي يمثّله **هيدي ـ يوشي** الحاكم باسم الإمبراطور. وعلى أي حال، لم يكن هامش الحرية الممنوح للدايميو وحق التصرف في مناطق نفوذهم كبيراً، ففي عام ١٥٩٥، أصدر **هيدي ـ يوشي** مرسوماً يضع الدايميو تحت مراقبته المباشرة. فحسب هذا المرسوم، لم يعد في إمكان أُسر الدايميو عقد مصاهرة في ما بينها دون إذن مسبق من **هيدي ـ يوشي**؛ كما أصبح محرماً على الدايميو عقد تحالفات في ما بينهم. هذا إضافة إلى تعليمات أخرى تخص كيفية فض النزاعات بينهم، والكيفية التي يجب أن تكون عليها طريقة تنقلهم ـ مثلاً، منع على الدايميو ركوب المحفات إن كان عمرهم يقل عن خمسين سنة[٧٦]. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ترك **هيدي ـ يوشي** لنفسه سلطة نقل الدايميو من مكان إلى آخر لخدمة مصالح استراتيجية يرتئيها أو لاستغلال الانتقال أداة للمجازاة والعقاب[٧٧]. كما أنه كان يطالب الدايميو عند إخضاعهم، بأن يتركوا رهائن من أُسرهم تقيم بالقرب من مقره الرئيسي، وأن يحضروا إليه بأنفسهم في أوقات معيّنة من السنة. وللتقليل من قدرات الدايميو الدفاعية، دشن **هيدي ـ يوشي**، منذ أن كان في خدمة أودا نوبوناغا، سياسة هدم القلاع الحصينة التي أقامها الدايميو أيام الحرب

(٧٦) Lu, *Japan: A Documentary History*, p. 195.

(٧٧) Bernard Susser, «The Toyotomi Regime and the Daimyo,» in: Mass and Hauser, *The Bakufu in Japanese History*, pp. 133-134.

ذلك أن «سوسر» يذكر الأسباب التي دعت هيدي ـ يوشي إلى نقل بعض الدايميو من إقليم إلى آخر، معززاً ذلك بأمثلة.

الأهلية، حيث لم يبقِ في كل إقليم إلا على قلعة واحدة أو قلعتين(٧٨).

و ـ مراقبة التجارة الخارجية وتنظيم التجارة الداخلية

كانت التجارة الخارجية في النصف الثاني من القرن السادس عشر في أيدي التجار البرتغاليين، الذين اهتبلوا فرصة الحظر الذي فرضته إمبراطورية **مينغ** (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) منذ عام ١٥٤٨ على السفن اليابانية فاحتكروها لأنفسهم. وكذلك نشط القراصنة واكو(٧٩) وبعض التجار الصينيين في تجارة غير مشروعة بين اليابان والصين. وبعد إخضاع جزيرة **كيوشو** وأقاليم اليابان كافة، فكر **هيدي ـ يوشي** في مراقبة هذه التجارة وجعلها خاضعة للحكم المركزي. ففي هذا الإطار، وضع ميناء **ناغاساكي** ـ أهم مركز للتجارة البرتغالية ـ تحت إشراف الإدارة المركزية، واختار عدداً من كبار التجار ليقوموا بتسيير سفن تجارية إلى مناطق مختلفة من جنوب شرقي آسيا(٨٠)، حيث يكون نشاطهم مراقباً وبإذن خاص منه(٨١). ذلك أن هذه السفن كانت تحمل، منذ بدء نشاطها عام **١٥٩٣**، تراخيص مؤقتة موقوفة على تجار بعينهم لا يمكنهم بيعها أو تداولها. وقد عُرف هذا النشاط التجاري بـ **شوينسين بوئيكي** (Shuinsen boeki) (أو تجارة السفن الحاملة للطابع القرمزي) ـ نسبة إلى اللون القرمزي الذي ميز خاتم **هيدي ـ يوشي**(٨٢). أما في ما يخص التجارة الداخلية، فكان من الإجراءات التي اتخذها إلغاء الحواجز بين هذه الأقاليم، وتحرير التجار وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى من الكلف ومن تبعيتهم لذوي النفوذ، خاصة تبعية تنظيماتهم الحرفية «زا» (Za) للمعابد والأُسر الأرستقراطية(٨٣). وقد كان هدف **هيدي ـ يوشي**

---

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) واكو (Wakô) هو النطق الياباني للتسمية التي كان يطلقها الصينيون والكوريون على القراصنة اليابانيين الذين نشطوا في سواحل شرق آسيا من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر. وقد كان بعض من الصينيين والكوريين يشاركون في نشاط القرصنة هذا.

(٨٠) أهم المناطق التي كانت تقصدها هذه السفن، في أواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، هي، بحسب التسميات الحالية، تايلاندا وكمبوديا وشمال الفيليبين وجزيرة تايوان. انظر: Ronald P. Toby, «Vermillion Seal Ship Trade,» *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 190.

(٨١) لعلّ وضع هؤلاء التجار يماثل إلى حد ما وضع تجار السلطان في تاريخ المغرب ووضع بعض التجار في الصين هونغ (Hong) الذين اختصوا بتصاريح رسمية للقيام بالتجارة الخارجية والتعامل مع التجار الأجانب.

(٨٢) شوينسين لفظ يفيد اللون الأحمر القاني نسبة إلى حيوان بحري باللون ذاته. وقد كان الطابع الذي يمهر به هيدي ـ يوشي مراسيمه موسوماً بهذا اللون.

(٨٣) كانت الحِرف ومهن التجارة والنقل وغيرها منظّمة، منذ القرن الحادي عشر، ضمن تنظيمات حرفية تعرف بـ«زا». وقد كانت هذه التنظيمات ناشطة طوال العصر الوسيط الياباني، خاصة في عصر أشيكاغا =

إلغاء الطابع الاستقلالي الذي اتخذته تنظيمات «زا» منذ نشأتها، ووضع مختلف الأنشطة الحرفية تحت المراقبة المركزية؛ إذ كان تسجيل التجار والحرفيين في سجلات معيّنة بحسب انتمائهم أساس فرض الكلف عليهم في وقت لاحق. وعموماً، رسمت الإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** المعالم الأولى لبنية السوق ووضعية التجار والحرفيين في عصر **توكوغاوا**.

لعل في هذه النبذة المختصرة عن الإجراءات ذات الطابع المتعدد الأبعاد ما يشي بانتقال اليابان من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. بل إن مثيلاً من هذه الإجراءات لم يتخذ في مناطق من أوروبا إلا في فترات لاحقة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٨٤].

٨ ـ اللقاء الأول مع الغرب

تأخر «اكتشاف» الغرب لليابان، أو على الأصح وصول الغربيين إلى أرخبيل اليابان، إلى منتصف القرن السادس عشر تقريباً، وذلك لأسباب تعود إلى محدودية تقنيات الملاحة الغربية إلى حين الاكتشافات الجغرافية الكبرى من جهة، وإلى موقع الأرخبيل في الطرف الأقصى للعالم القديم وصعوبة الوصول إليه براً من جهة أخرى. فعلى الرغم من اتصال العالم الغربي ودول البحر الأبيض المتوسط عموماً بالصين منذ العصور القديمة، والتبادل التجاري الذي كان قائماً معها عبر طريق الحرير، إلا أن الجزر اليابانية ظلت غير معروفة لدى جغرافيي العصور القديمة والوسطى[٨٥]،

= (١٣٣٣ ـ ١٥٦٨)، حيث كانت ترعى مصالح المنضوين تحتها وتحميهم من المنافسة غير المشروعة. فعلى سبيل المثال، كان أهم ما يسعى إليه تنظيم «زا» الخاص بالتجار وحرفيي النقل هو الإعفاء من المكوس المفروضة على أبواب المدن أو التجارة بها، والرسوم التي تؤخذ عند استعمال الطرق والقناطر. إلا أن هذا التنظيم وتنظيمات حرفية أخرى لم تكن لتقوم بمهامها، دون أن تكون تحت حماية ذوي النفوذ. وهو الدور الذي اضطلعت به أرستقراطية كيوطو (النبلاء أو كوجي) والمعابد البوذية والشنتوية الكبرى التي كانت تمنح حمايتها لمختلف تنظيمات «زا»، وتقوم باحتضانها ورعايتها والعمل على إعفائها من المكوس والكلف في المناطق الخاضعة لنفوذها (نفوذ المعابد والأرستقراطية) مقابل قدر معلوم يؤدّى نقداً أو عيناً في أوقات معلومة من السنة.

(٨٤) تجدر الإشارة إلى أن مسح الأراضي الزراعية، ارتبط عادة بالإصلاح الزراعي في جهات أخرى من العالم، وبخاصة في أوروبا. وعلى أي حال لم تعرف البلدان الأوروبية عمليات شاملة من هذا القبيل إلا في وقت نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

(٨٥) لعلّ الاستثناء الوحيد، في ما يخصّ الجغرافيين المسلمين، تلك الإشارة التي وردت عند ابن خرداذبة (القرن الثالث الميلادي؛ أواخر القرن التاسع الميلادي) إلى جزيرة الواق واق، التي يعتقد البعض أنه يقصد بها الجزر اليابانية اعتباراً لموقعها والتقارب بين لفظي «الواق واق» و«واكوكو» (Wa-Koku)، التي كانت اليابان تُعرف بها في مناطق من الصين.

«وفي مشارق الصين بلاد «الواق واق» وهي كثيرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم =

حيث لم تظهر أول إشارة واضحة إلى الجزر اليابانية، في ما هو معروف من المصادر الغربية، إلا في نهاية القرن الثالث عشر، وذلك في فقرة قصيرة في الكتاب المنسوب إلى ماركو بولو الذي دوّنه بعد إقامته في الصين خلال الربع الأخير من القرن المذكور؛ ففيها أشار إلى وجود جزيرة كبرى قبالة الساحل الشرقي للصين سمّاها زيبانجو (Cipangu)[٨٦]. ولعل مساهمة ماركو بولو الكبرى في التعريف باليابان تمثلت في الفضول الذي أثاره لدى رواد الاكتشافات الجغرافية الذين كان من بين أهدافهم الوصول إلى زيبانجو التي يكثر فيها الذهب بحسب وصفه[٨٧]، وفي الاسم الذي اشتهرت به اليابان في العالم (Japan، Japon. . .) والذي اشتق من تحريف الأصل الصيني زيبانجو الوارد في رواية ماركو بولو[٨٨].

وكيفما كان الأمر، فإن أقدام الغربيين لم تطأ أرض الأرخبيل ـ حسب ما هو مؤكد تاريخياً ـ إلا في عام ١٥٤٣، حين جنحت سفينة صينية إلى جزيرة **تانيغا ـ شيما** (*Tanegashima*) الواقعة جنوب جزيرة **كيوشو** وعلى متنها ثلاثة تجار برتغاليين[٨٩].

= وأطواق قرودهم من ذهب ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب للبيع». انظر: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **المسالك والممالك** = *Kitab al-Masalik Wa'l-Mamalik*، تحقيق ميخائيل جان دوغويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٨)، (أعيد تصويرها بالأوفسيت ونشرها في بيروت من قبل دار صادر دون ذكر سنة الطباعة)، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٨٦) قام ماركو بولو، كما هو معروف من خلال كتاباته، برحلتين إلى الصين: **الأولى** في عام ١٢٦٥، و**الثانية** في عام ١٢٧٥. وعقب رحلته الثانية، أقام في بلاط قبلاي خان (١٢٥١ ـ ١٢٩٤). وفي حكم الأكيد أن يكون ماركو بولو قد سمع، في أثناء إقامته تلك، بوجود أرخبيل اليابان اعتباراً للعلاقات التجارية وغيرها التي كانت بين الصين واليابان. والأكثر من ذلك هو تزامن إقامته مع الحملتين التي قام بهما المغول في عهد قبلاي خان على الجزر اليابانية في عامي ١٢٧٤ و١٢٨١. ومع ذلك جاء وصف ماركو بولو للجزر اليابانية مقتضباً، حيث اكتفى بالإشارة إلى جزيرة كبرى في البحر تدعى زيبانجو قال عنها إنها تبعد حوالى ١٥٠٠ ميل عن مانزي (الواقعة جنوب الصين)، وأن أهلها وثنيون، وأن الذهب يكثر فيها ويمنع حاكمها تصديره. انظر: *The Book of Ser Marco Polo, The Venetian, Concerning the Kingdoms and Marvels of the East*, translated and edited by Sir Henry Yule, 2 vols. (London: J. Murray, 1921), pp. 253-254.

(٨٧) مما يروى في هذا الصدد، أن كريستوفر كولومبوس كان يحمل معه في رحلته الأولى نسخة من كتاب ماركو بولو، وأنه وضع علامات بخط يده على مواقع متعددة، من بينها زيبانجو.

Tani-Naoki, «Marco Polo,» in: Tadao Umesao, eds., *Seventy-Seven Keys to the Civilization of Japan* (Osaka: Sogensha Inc., 1985), p. 115.

(٨٨) لم يُشرع في استعمال لفظ Japang إلا في العقد الأول من القرن السادس عشر، وذلك من قِبل البرتغاليين، وهو لفظ محرف عن الأصل الصيني كما كان ينطق في جنوب شرقي آسيا. انظر: Derek Massarella, *A World Elsewhere: Europe's Encounter with Japan in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (New Haven, CT: Yale University Press, 1990), p. 2.

(٨٩) كان جنوح السفينة الصينية إلى جزيرة تانيغا شيما، حسب أكثر الدراسات تحرياً في هذا الشأن، في ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٥٤٣.

وبعد هذا الوصول الأول، توالى قدوم السفن التجارية وإرساليات التبشير الآتية أساساً من البرتغال وإسبانيا ومراكز نفوذهما في الشرق الأقصى، والتي نجحت خلال ظرف زمني وجيز في إرساء دعائم نشاط تجاري مهم، وتنصير عدد لا يستهان به من اليابانيين. وقد اشتهرت هذه الفترة، التي تمتع فيها البرتغاليون والإسبان (١٥٤٣ ـ ١٦٣٩) ـ أو على الأقل خلال المراحل الأولى منها ـ بقدر من حرية التنقل والتجارة والدعوة إلى المسيحية بـ «القرن المسيحي»، إذ نجد هذه التسمية متداولة على الخصوص في الكتابات الغربية عن اليابان.

كان البرتغاليون أساساً، والإسبان في مرتبة أقل، رواد هذا اللقاء الأول مع الغرب، إذ كان ملاحوهم، كما هو معلوم، أبطال الاكتشافات الجغرافية الكبرى في الشرق الأقصى. وقد استغل التجار والمبشرون منهم وضع اليابان الداخلي والمتمثل في الحرب الأهلية وغياب سلطة مركزية قوية، واستقلال الدايميو بمقاطعاتهم في إرساء نشاط تجاري مهم وتنصير الكثير من اليابانيين، خاصة في جزيرة كيوشو التي اتخذوها مقراً لنشاطهم التجاري؛ إذ اهتبل التجار خصوصاً توتر العلاقة مع الصين، والحظر الذي كانت الإمبراطورية الصينية تفرضه، منذ عام ١٥٤٨، على التجارة مع اليابان، ليقوموا بوساطة تجارية ليس فقط بين اليابان وأوروبا، بل بين الصين والهند وجنوب شرقي آسيا واليابان أيضاً، إضافة إلى استغلال فرق أسعار الذهب في تحقيق أرباح ضخمة. أما المبشرون، وبخاصة جماعة اليسوعيين التي كانت تدعمها الكنيسة البابوية في روما، فقد واكبوا التجار واستغلوا الظروف ذاتها لنشر العقيدة المسيحية، مستغلين الاستفادة المادية من التجارة بالنسبة إلى الدايميو الذين يعتنقون المسيحية. وقد كان وصول القس الإسباني **فرانسيسكو خابيير** (١٥٠٦ ـ ١٥٥٢)[٩٠]، الذي كان أول مبشر يصل إلى هذا البلد عام ١٥٤٩، بداية لحملة تنصير حققت نجاحاً مهماً في النصف الأخير من القرن السادس عشر.

كانت حصيلة اللقاء الأول مع الغرب في القرن السادس عشر متواضعة ولم تحدث نقلة نوعية في تاريخ اليابان، مقارنة باللقاء الثاني في القرن التاسع عشر، الذي انفتح فيه اليابانيون على الثقافة الغربية ونهلوا من معارفها. وعموماً، لم تكن

(٩٠) اسمه الإسباني الكامل فرانسيسكو دي ياسو إي خابيير (Francisco de Yasu Y Javier)، ولد في مقاطعة الباسك، شمال إسبانيا، عام ١٥٠٦، ودرس في جامعة باريس التي تعرف فيها على مختلف تيارات الحركة الإنسية الرائجة آنذاك. وقد تغير مجرى حياته بلقائه أنياس لويولا الذي أصبح من رفقائه وأتباعه. كان يتمتع بشخصية كاريزماتية وبحماسة كبرى لنشر الدين المسيحي. وكان من كبار دعاة الجماعة اليسوعية. توفي في عام ١٥٥٢. Michael Cooper, «Francis Xavier,» *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 281.

الفجوة بين حضارتي الشرق الأقصى في القرن السادس عشر عميقة؛ فباستثناء التطور الذي حققه بعض الدول الغربية في مجالات الطب وتقنيات الملاحة وصناعة الأسلحة النارية والطباعة بالأحرف المتحركة، لم يكن الفارق كبيراً في المجالات التقنية الأخرى. بل ربما كانت الصين، التي كانت اليابان تعيش في ظل حضارتها، أكثر تقدماً في بعض المجالات. وفي ما يخص الأنظمة السياسية، لم تكن أوروبا قد خرجت بعدُ من عصر الملكيات المستبدة وهيمنة الكنسية، ومن ثم لم يكن لديها ما تعلمه للآخرين في هذا الباب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت إطلالة اليابانيين على الثقافة الغربية من خلال رهبان كان هدفهم الأساسي نشر الدين المسيحي، ولم يكونوا يمثلون الوجه المشرق لما كان يتفاعل في أوروبا من حركات وتيارات فكرية وإصلاحية. أما التجار، فكانت معارفهم محدودة، وأعدادهم قليلة ومتمركزة أساساً في مناطق بعيدة، ومن ثم كان تأثيرهم محدوداً باستثناء البضائع التي كانوا يحملونها معهم من أوروبا.

وعلى الرغم من اعتناق عدد من اليابانيين للدين المسيحي (زهاء ٣٠٠,٠٠٠ نسمة في العقد الأول من القرن السابع عشر)، فإن عدداً كبيراً من هؤلاء لم يعتنق الدين المسيحي عن رغبة واقتناع؛ فكثيرون منهم اعتنقوا الدين الوافد بسبب الخوف من ساداتهم الدايميو الذين اعتنقوا المسيحية وأرغموهم على الحذو حذوهم. يضاف إلى هذا أن انتشار الدين المسيحي ظل مقتصراً بالأساس على جزيرة **كيوشو** في أقصى الجنوب، في حين كان انتشاره في جزيرة **هونشو** محدوداً في مقاطعات قليلة. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها إرساليات التبشير في إقامة الكنائس والمدارس والأديرة في الفترة التي نعمت فيها بحرية الحركة، فإنها لم تنجح في ترسيخ كنيسة محلية يديرها قساوسة يابانيون. فحين نهجت شجونة **توكوغاوا** سياسة اضطهاد المسيحيين في العقود الأولى من القرن السابع عشر، كان من السهل عليها استئصال العقيدة المسيحية من الأرخبيل في ظرف زمني وجيز، وتعقّب فلول من أصروا على الحفاظ على دينهم المسيحي بعد أن تم طرد المبشرين.

ولعل أهم نتيجة انتهى إليها هذا اللقاء الأول هي تبنّي شجونة **توكوغاوا** سياسة العزلة، التي جاءت في المقام الأول كردة فعل تجاه انتشار الدين المسيحي والخطر الذي أضحى يمثله الوجود الغربي في الأرخبيل. ذلك أن حسنات هذه السياسة وآثارها الإيجابية كانت كثيرة حيال التطور الذاتي الذي عرفته اليابان خلال عصر **توكوغاوا**، وفي مقدمتها وضع اليابان في مأمن من التدخل الأوروبي في شؤونها الداخلية مدة زادت على قرنين ونصف قرن من الزمن.

ومع ذلك، لا يمكن القول إن حصيلة اللقاء الأول مع الغرب كانت شبه منعدمة، أو حصرها في تشر العقيدة المسيحية وما نجم عنها؛ ذلك أن الرهبان اليسوعيين سرعان ما تعلموا اللغة اليابانية وتعرفوا إلى الثقافة اليابانية عن قرب، فكانت تقارير الكثير منهم دقيقة وملاحظاتهم ثاقبة. وقد شكلت في حينها وسيلة لتعريف الغربيين باليابان. كما نقل هؤلاء الرهبان إلى من التقوا بهم من القادة اليابانيين في القرن السادس عشر، فكرة عن الوضع في أوروبا والصراعات الدائرة فيها، وجغرافية العالم بعد الاكتشافات؛ إذ يبدو من الخرائط التي كانت متداولة في اليابان في القرن السابع عشر أن معرفة اليابانيين بالعالم كانت جيدة. كما أدخل الرهبان اليسوعيون تقنية الطباعة التيبوغرافية، غير أن الطباعة بها ظل مقتصراً على حاجات إرساليات التبشير وبعض النصوص اليابانية التي طُبعت بالأحرف اللاتينية. وعلى أي حال، لم يأخذ اليابانيون بهذه التقنية لصعوبة تطبيقها على الرموز الصينية التي تُعدّ بالآلاف. ومن المعارف الغربية التي ثمّنها اليابانيون، المعرفة الطبية التي كان يتقنها بعض الرهبان، وكانت من المعارف الغربية الأولى التي أقبل اليابانيون على تعلمها من الأطباء الملحقين بالبعثة التجارية الهولندية الذي ظلت تعمل في اليابان طوال عصر **توكوغاوا**.

ومن التقنيات الغربية التي أدخلها التجار الإيبيريون تقنية استخراج المعادن، التي استفاد منها اليابانيون في هذه الفترة، وكانت سبباً في زيادة إنتاج معدن الفضة على الخصوص. أما تقنية الملاحة، فقد كان الإيبيريون يمانعون في نقلها إلى اليابانيين باعتبارها سبباً في قوتهم وتفوقهم العسكري. ومع ذلك، تعرف اليابانيون في نهاية القرن السادس عشر إلى بعض الأدوات المستعملة في الملاحة، كالبوصلة والمنظار. وكيفما كان الأمر، لم تتطور الملاحة اليابانية في الفترة الموالية بسبب سياسة العزلة التي التزمت بها شجونة توكوغاوا. كما ساهم التجار البرتغاليون في ازدهار التجارة وتزويد السوق الياباني بعدد من المنتجات الأوروبية كالساعات والأثواب القطنية والصوفية، إضافة إلى إدخال بعض المواد الغذائية والاستهلاكية التي لم تكن معروفة في اليابان، كالتبغ والبطاطا والخبز الذي ما يزال يُعرف في اللغة اليابانية بلفظه البرتغالي: pan.

ولعل أهم سلعة حملها التجار البرتغاليون وكان لها تأثير في أحداث الفترة هي الأسلحة النارية. وتستحق هذه السلعة التريث عندها، ليس لأنها تدخل إلى الأرخبيل أول مرة فحسب، ولكن أيضاً بسبب الطريقة التي تعامل بها اليابانيون مع هذا السلاح الجديد عليهم وأبانت عن مهارة فائقة في التقليد.

بداية تجدر الإشارة إلى أن اليابانيين تعرفوا عن طريق الصين ـ خاصة بعد غارات المغول في القرن الثالث عشر ـ على بعض المواد المتفجرة التي كان الصينيون يستخدمونها في حروبهم[(٩١)]. وعموماً لم يكن البارود بالغريب عنهم بحكم أن الصينيين هم أول من اكتشفوا هذه المادة.

عندما جنحت السفينة الصينية، التي كان على متنها ثلاثة تجار برتغاليين، إلى جزيرة **تانيغا ـ شيما** عام ١٥٤٣، كانت البندقية التي تلقّم بذخيرة البارود من الفوهة (المعروفة في اللغة الإنكليزية بـ Matchlock أو بندقية الفتيل)[(٩٢)] من بين الأشياء التي حملها هؤلاء الغرباء معهم وأثارت اهتماماً خاصاً لدى سكان الجزيرة. فقد أعجب الدايميو **تانيغا ـ شيما توكيتاكا** (Tanegashima Tokitaka) (١٥٢٨ ـ ١٥٧٩) بالسلاح الجديد، فاقتناه وطلب في الوقت ذاته من أحد حذاق الحدادة صنع نسخ منه. وبالفعل نجح هذا الصانع في التقليد، ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبحت الجزيرة مقراً لتصنيع البنادق وتصديرها إلى باقي أرجاء اليابان. ومن ثم أضحت جزيرة تانيغا ـ شيما اسماً للبندقية الأوروبية التي أصبحت تُعرف لدى اليابانيين باسم تلك الجزيرة. ولم يقتصر أمر التصنيع على هذه الجزيرة، بل ظهر في جهات أخرى من اليابان. وهكذا جرى الاستغناء تدريجياً عن اقتناء السلاح الناري من البرتغاليين وتعويضه بإنتاج محلي قليل الكلفة (أقل من ١ بالمئة من الثمن الذي كان البرتغاليون يسوقونه به في البداية)[(٩٣)]. ولم يكتف حرفيو هذه الصناعة الجديدة بالتقليد، بل أضافوا إلى البندقية البرتغالية تحسينات من قبيل غطاء يحمي الفتيل من البلل في حال المطر. كما أقبل بعض الساموراي على تعلم تقنية الأسلحة النارية وكيفية استعمالها، ومن بين هؤلاء **إيناتومي ناوئيي** (*Inatomi Naoie*) (١٥٥٢ ـ ١٦١١)[(٩٤)] الذي أسس مدرسة لتعليم تقنية الأسلحة النارية، ووضع كتيباً تعليمياً

---

(٩١) تروي المصادر اليابانية أن المغول استعملوا في هجومهم على كيوشو (١٢٧٤ و١٢٨١) نوعاً من الكرات المحشوة بمواد متفجرة. كما طوّر الصينيون في القرن الثالث عشر صنفاً من المسدسات اليدوية البدائية التي وصلت إلى ميناء سكاي في مطلع القرن السادس عشر. انظر: Isao Soranaka, «Introduction of Firearms,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 279.

(٩٢) كانت «بندقية الفتيل» من الاختراعات التي ظهرت في أواسط القرن الخامس عشر. وهي عبارة عن سلاح فردي يعبأ من الفوهة، ويحتوي على زناد يقدح عند الضغط على فتيل يشعل البارود الذي يكون قد وضِع في ماسورة البندقية (تعرف هذه البندقية أيضاً بـ Musket وHarquebus في اللغة الإنكليزية، وبـ Mousquet في اللغة الفرنسية).

(٩٣) Noel Perrin, *Giving Up the Gun: Japan's Reversion to the Sword, 1543-1879* (Boston, MA: Nonpareil Books, 1999), p. 6.

(٩٤) انظر ترجمته في **موسوعة اليابان**: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 383.

يوضح بالصور كيفية استعمال البندقية. ولعل ما يستفاد من حكاية البندقية هو ما أظهره اليابانيون من قدرة فائقة على التقليد والانتقال بسرعة من الانبهار إلى التكيف مع المعطيات المستجدة والتأقلم معها. وهذا ما فعلوه في تعاملهم مع منتجات الحضارة الصينية في القرن السابع الميلادي، وكرروه في تعاملهم مع المنتجات الغربية في القرن التاسع عشر. وما هو مثير في نظرنا، هو التكيف مع هذا المستجد التقني والتعامل معه بطريقة علمية، تمثلت في تحويل الأسلحة النارية إلى مادة تدرس وتوضح بكتيبات عملية. أما تصنيع الأسلحة النارية في هذه الفترة، فلم يكن مقتصراً على البلدان الأوروبية، فالمغرب، على سبيل المثال، كان يصنع مثل هذه البنادق في الفترة ذاتها، ولربما قبلها[٩٥].

كانت الأسلحة النارية ذات أثر بالغ في حسم المعارك الكبرى في القرن السادس عشر؛ فالزعيم **أودا نوبوناغا** كان من الأوائل الذين استفادوا من هذا السلاح، وطوروا استراتيجيات خاصة بالمعارك التي يعتمد فيها على مشاة مزودين بالبنادق. كما استغلها هيدي ـ يوشي في غزو كوريا عام ١٥٩٢. وقد استمر اليابانيون في استعمال الأسلحة النارية حتى منتصف القرن السابع عشر، حيث كانوا يستوردون من الهولنديين المدافع إضافة إلى البنادق المحلية. لكن المثير هو أن الساموراي تخلوا بسرعة عن الأسلحة النارية خلال الفترة الموالية، وعادوا إلى أسلحتهم التقليدية؛ ذلك أن الساموراي ظلوا أوفياء للسيف الذي كان أفضل سلاح لديهم وأكثر الأدوات القتالية إظهاراً لشجاعة الفرد ونبله[٩٦]. ولم يعد اليابانيون إلى الأسلحة النارية إلا في القرن التاسع عشر، بعد أن أصبحوا تحت طائلة التهديد الغربي من جديد.

---

(٩٥) انظر في ما يخص تصنيع الأسلحة النارية في المغرب، مقال محمد المنوني الذي يشير فيه إلى أن تصنيع القاذفات النارية بدأ في المغرب في وقت مبكر يعود إلى العهد المريني (١٢٥٨-١٤٧١). أما تصنيع البنادق والمدافع، فقد شرع فيه في العهد الوطاسي (١٤٧١ ـ ١٥٥٤). وقد أقام السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) معملاً لتصنيع الأسلحة النارية في مراكش، قرب قصر البديع كان يعرف بـ «دار العدة». انظر: محمد المنوني، «صناعة الأسلحة النارية بالمغرب،» **مجلة دعوة الحق** (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط)، السنة ١٣، العدد ٨ (١٩٧٠)، ص ١٠٢ ـ ١٠٨.

(٩٦) انظر البحث المتميز لـ نويل بيران (Noel Perrin) الذي خصصه لظاهرة تخلي الساموراي عن الأسلحة النارية بعد أن تعرفوا إليها وأتقنوا استعمالها. وهي في نظره ظاهرة اختص بها اليابانيون دون غيرهم من الشعوب الأخرى التي تعرفت إلى هذه التقنية. انظر: Perrin, *Giving Up the Gun: Japan's Reversion to the Sword, 1543-1879.*

القسم الأول

عصر توكوغاوا
المجتمع ومؤسسات السلطة

تقديم عام

يمتد عصر **توكوغاوا**، بحسب التحقيب السائد، من انتصار إياسو في معركة **سيكي ـ غاهارا** (١٦٠٠) إلى قيام إصلاحات الميجي (١٨٦٨)، أي من آخر محطة في جهود التوحيد ووصول أُسرة **توكوغاوا** إلى السلطة إلى حين إلغاء حكم الساموراي واستعادة الإمبراطور لسلطاته. غير أن هناك مؤرخين يدعون إلى تأخير البداية إلى تاريخ حصول **إياسو** على لقب الشجون (١٦٠٣)، بينما يدعو آخرون إلى تقديمها إلى منتصف القرن السادس عشر على أساس أن جهود توحيد البلاد جزء لا يتجزأ من تاريخ هذه الفترة. ويُعرف هذا العصر أيضاً بـ **إيدو (طوكيو)**، نسبة إلى العاصمة التي اتخذتها شجونة توكوغاوا عاصمة لها، سيراً على النهج التقليدي في التحقيب بنسبة العصور التاريخية إلى العواصم التي تكون مراكز للسلطة، وكذا إلى مركزية هذه المدينة وأهميتها السياسية والاقتصادية وهيمنتها الثقافية خلال هذه الفترة.

حكم خلال هذه الفترة خمسة عشر شجوناً من أُسرة **توكوغاوا**، يتحدرون جميعهم من سلالة إياسو، كما تعاقب على عرش الإمبراطورية العدد نفسه من الأباطرة. ويمكن تقسيم هذا العصر إلى حقب فرعية تؤشر على مراحل التطور العام لسلطة شجونة **توكوغاوا**، وتظهر بصورة تقريبية تدرجها من القوة إلى الضعف. وهكذا يمكن الحديث عن خمس مراحل تبتدئ بمرحلة التأسيس، وتنتهي بمرحلة الأزمة التي عصفت بسلطة الشجون.

ـ مرحلة التأسيس (١٦٠٠ ـ ١٦٥١)

تغطي هذه المرحلة حكم الشجون الثلاثة الأوائل الذين وضعوا أسس العهد الجديد. ففي هذه المرحلة المبكرة من حكم أُسرة **توكوغاوا**، جرى وضع جل المراسيم التنظيمية التي بقيت سارية المفعول حتى منتصف القرن التاسع عشر، بما فيها تلك المنظِّمة للعلاقة بين الشجون والدايميو، والمحددة لوضع الفئات الاجتماعية. كما جرى فيها تبنّي الكونفوشيوسية الجديدة كفلسفة للدولة وموجهة لقراراتها ونظمها التعليمية، وأداة لدعم سلطة الشجون وتسويغ هيمنة الساموراي.

كما شهدت مرحلة التأسيس هاته إقرار سياسة العزلة الوطنية، وتنظيم التجارة الخارجية، إضافة إلى تثبيت حكم أُسرة **توكوغاوا** والقضاء على آخر فلول المعارضة.

ـ مرحلة الأوج (١٦٥٧ ـ ١٧١٠)

تشمل هذه المرحلة النصف الثاني من القرن السابع عشر والعقود الأولى من القرن الثامن عشر. وهي الفترة التي بلغ فيها النظام الجديد أوجه، وتحقق الأمن والاستقرار الاجتماعي في ظل نظام توفيقي يؤمّن للدايميو استقلالاً ذاتياً محدوداً في هاناتهم (إقطاعياتهم) من جهة، ويضمن للشجون سلطة مركزية يعترف بها جميع الدايميو الذين يلتزمون بالولاء لشخصه والقيام بعدد من التكليفات والواجبات، من جهة ثانية. كما شهد هذا القرن نمواً اقتصادياً ملحوظاً، ونمواً ديمغرافياً غير مسبوق، وتوسعاً في العمران، وزيادة في أعداد سكان الحواضر، وانتشار المدارس. كما كانت العقود الأخيرة منه مرحلة أوج بالنسبة إلى عطاء ثقافة التشونين (سكان الحضر) التي تمثلت في المسرح والأدب والرسم وعدد من الفنون.

ـ مرحلة الاستقرار (١٧١٠ ـ ١٨١٠)

يمكن القول إجمالا إن القرن الثامن عشر مثّل مرحلة الاستقرار والركود، التي تتلو مرحلة النمو السريع عادة؛ إذ أصبح الهم الأكبر للشجونة هو الحفاظ على التوازن السياسي والمكتسبات الاقتصادية التي تحققت في الفترة السابقة. ذلك أن استصلاح الأراضي بلغ مداه الأقصى، ولم يعد في الإمكان الزيادة في الإنتاج الزراعي، وبدأت الأزمات الاقتصادية تطفو على السطح، وتوالت السنوات العجاف وما صحبها من مجاعات، واستقر النمو الديمغرافي. وعلى الرغم من إقدام الشجونة على بعض الإصلاحات، فإن تأثيرها ظل محدوداً، ولم تغير من مسار النظام السياسي نحو الضعف، الذي لم يعد في نهاية القرن مسايراً للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي كانت تتفاعل تدريجياً.

ـ مرحلة الضعف والتهديد الغربي (١٨١٠ ـ ١٨٥٣)

تفاقمت في النصف الأول من القرن التاسع عشر مشكلات سلطة الشجون، وتدهور الوضع السياسي بسبب تعاظم ضغوط الدول الغربية التي كانت تسعى إلى كسر سياسة العزلة وفتح أبواب اليابان أمام تجارتها؛ إذ كانت حرب الأفيون، التي انهزمت فيها الصين، مؤشراً إلى أن الوضع الدولي تغير، وأنه لم يعد في الإمكان تجاهل المد الإمبريالي أو التصدي له بوسائل تقليدية. وقد كان لحلول السفن السوداء

الأمريكية في خليج **إيدو** (١٨٥٣) والتهديد الذي مارسه قائدها **بيري**[(١)] بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير؛ إذ بالاستجابة للطلبات الأمريكية، فتح الشجون الباب على مصراعيه أمام تحدي القوى المعارضة لنظام الباكوهان وأُسرة **توكوغاوا**.

ـ الأزمة (١٨٥٣ ـ ١٨٦٧)

اندلعت الأزمة في إثر توقيع الشجون معاهدات غير متكافئة مع الدول الغربية ابتداء من عام ١٨٥٤، وهي معاهدات نصت على كسر العزلة، وجعل الدول المتعاقَد معها تتمتع بامتيازات تجارية وبحق إقامة رعاياها في الموانئ اليابانية، وبحماية حقوقهم؛ إذ فكت هذه التنازلات عقال الألسنة المعارضة التي تعالت منددة بفشل الشجون في حماية اليابان من الغزو الأجنبي، ودعت صراحة إلى إنهاء حكم أُسرة **توكوغاوا**، والتخلي نهائياً عن حكم الساموراي. وقد كانت المؤسسة الإمبراطورية، بما يمثله الإمبراطور من سلطة رمزية، ملاذ الناقمين على أُسرة **توكوغاوا** ونظامها، ومن ثم أخذ هؤلاء ينادون باستعادة الإمبراطور لسلطاته التقليدية، ويعملون ما في وسعهم لتحقيق ذلك، وهو ما تُوج بإصلاحات الميجي (١٨٦٨).

أبرزنا في هذه الخطاطة تدرج سلطة الشجون من القوة إلى الضعف، غير أن هذا المسار نحو الانحطاط لم يكن عاماً وشاملاً للمجالات الأخرى؛ فمثلاً، عرف التعليم انتشاراً واسعاً في القرن الثامن عشر، بل إن أوج انتشاره كان في النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي بلغ فيه حكم **توكوغاوا** مداه من التدهور. كما أن المجالين الثقافي والفكري لم يسايرا التوجه ذاته نحو الانحطاط، بل على النقيض من ذلك، عرفا ازدهاراً ملموساً في مراحل ضعف النظام السياسي. وعلى هذا يصعب الأخذ بتحقيب واحد يركز على جانب بعينه، ويحكم عليه بالقوة أو الضعف، دون أن يكون في الأمر إخلال بما حدث في الجوانب الأخرى. واعتباراً لذلك، هناك تحقيبات بديلة يمكن أن تُطرح في هذا الشأن، منها تحقيب ثلاثي يقترح تقسيم عصر **توكوغاوا** إلى: مرحلة النشوء (١٦٠٠ ـ ١٦٥٠)، ومرحلة النضج (١٦٥٠ ـ ١٧٥٠)، ومرحلة الأزمة والتجديد (١٧٥٠ ـ ١٨٦٨).

كانت السلطة السياسية الفعلية في عصر **توكوغاوا** موزعة بين الشجون، الذين

(١) المقصود هو الكومودور ماثيو كالبريث بيري (Matthew Calbraith Perry) (١٧٩٤ ـ ١٨٥٨)، قائد العمارة البحرية التي أرسلتها الحكومة الأمريكية لفتح الموانئ اليابانية في وجه السفن والتجارة الأمريكية، وذلك في عام ١٨٥٣. ولنا عودة إلى الموضوع في الفصل السابع من هذا الكتاب.

يرأسون الساموراي وحكماً شبه مركزي (أو الباكوفو) في العاصمة إيدو، والدايميو الذين يتمتعون باستقلال ذاتي في إقطاعياتهم (الهان) التي كان عددها ينيف على ٢٦٠ إقطاعية. بينما احتفظ الإمبراطور، الذي ظل مقيماً في عاصمته كيوطو، بسلطة روحية ورمزية تتمثل في منح المشروعية لسلطة الشجون. وقد استحدث مؤرخ ياباني في منتصف القرن العشرين مصطلح باكوهان ـ وهو تركيب مزجي بين «باكوفو» و«هان» ـ الذي يصف ثنائية السلطة هاته دون أن يكون محملاً بحكم قيمة على هذه الحقبة التاريخية. وعلى الرغم من الإجراءات التنظيمية وغيرها، التي حققت نظاماً إدارياً على الصعيد المركزي، فإن اليابان لم ترقَ خلال عصر **توكوغاوا** إلى مستوى دولة عصرية على النمط الغربي، بل بقيت في نطاق صيغة من صيغ الدولة التقليدية. بل إن هذا النظام كرس صيغة غير مألوفة تجمع بين خصائص النظام الفيودالي والحكم المركزي. وكيفما كانت الخانة التي يصنَّف فيها هذا النظام، فإن اليابان حققت في هذه الفترة استقراراً سياسياً غير مسبوق، وتطوراً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وديمغرافياً لا يختلف كثيراً عما عرفته مناطق في أوروبا في الفترة عينها، لكن دون أن يرقى هذا التطور إلى الثورة الصناعية والتقنية أو النهضة الفكرية التي خبرتها فرنسا أو إنكلترا مثلاً. واعتباراً لأهمية هذه الفترة في تهيئة المجتمع الياباني وإعداده لتقبل التحديث في القرن التاسع عشر، ابتكر المؤرخون اليابانيون مصطلح كينسيي (Kinsei) لتوصيف هذه الفترة وإبراز هذا الدور بالذات. وقد تُرجم هذا المصطلح في الكتابات الموضوعة عن اليابان باللغة الإنكليزية بـ Early Modern، وهو ما نرى ترجمته إلى اللغة العربية بـ «بداية التحديث» أو «التحديث المبكر». ونعرض في ما يلي، وبإيجاز، ما اتسمت به هذه الفترة وما تحقق فيها، ثم نعود إليها بتفصيل في الفصول المتضمنة في هذا القسم وفي القسم الثاني.

● الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي

لعل أهم ما تحقق في عصر **توكوغاوا** (أو فترة التحديث المبكر) هو الأمن والاستقرار الاجتماعي والسياسي؛ فبعد حرب أهلية دامت زهاء قرن من الزمن، نعمت اليابان بفترة استثنائية من السلم استمرت قرابة قرنين ونصف قرن[٢]. وباستثناء السنوات العشر الأخيرة من عصر **إيدو**، لم يعرف حكم أُسرة **توكوغاوا** تحدياً حقيقياً من أي كان؛ فالدايميو جرى تحجيمهم عسكرياً واقتصادياً،

(٢) هناك تعاريف تصف هذه الحالة الاستثنائية من الأمن والاستقرار السياسي، نذكر منها: Great Peace) و(Pax-Tokugawa).

وإخضاعهم للحكم المركزي في إطار نظام توفيقي يمنحهم قدراً من الحرية في إقطاعيتهم (الهان) مقابل ولائهم التام للشجون. وحتى بعد أن بدت أعراض الضعف تظهر على أُسرة **توكوغاوا** ونظامها في العقود الأخيرة، لم تبرز أُسرة أخرى من أُسر الدايميو ـ أو من الساموراي ـ تمتلك القدرات العسكرية والاقتصادية التي تمكنها من تحدي أُسرة **توكوغاوا** وإزاحتها من موقعها على رأس الباكوهان. وكذلك جرى تجريد الرهبان المحاربين البوذيين من أسلحتهم، وتقييد حركتهم، ومن ثم لم يعد في إمكانهم القيام بتمردات كما كان الأمر في عهد الدويلات المتحاربة. أما الفلاحون، وهم غالبية المجتمع الياباني، فقد كانوا يرزحون تحت عبء الجباية والتكاليف وقهر الساموراي. وعلى أي حال، كان من السهل على الدايميو قمع حركات الاحتجاج والتمرد التي كان الفلاحون يقومون بها بين الفينة والأخرى في أماكن متفرقة، وكانت تفتقد التنسيق العام.

في حكم الأكيد أن نظام الباكوهان استنفد، منذ أواخر القرن الثامن عشر، طاقاته، وأمسى عاجزاً عن مسايرة تطورات المجتمع الياباني الداخلية، إلا أنه ظل محافظاً على توازن هش إلى حين تعاظم الضغط الغربي في القرن التاسع عشر، الذي أبان عن تناقضاته الداخلية، ووضع شجونة **توكوغاوا** في موقع حرج، وأفقدها مشروعية البقاء بسبب فشلها في الدفاع عن البلاد وحمايتها من الغزو الأجنبي.

وكان ممّا ساهم بشكل كبير في الحفاظ على الاستقرار السياسي، تبنّي شجونة توكوغاوا تعاليم الكونفوشيوسية التي اتخذتها مرجعيةً أيديولوجية لدعم النظام السياسي والتراتب الاجتماعي. ومعلوم لدينا أن الكونفوشيوسية دخلت إلى اليابان منذ القرن السادس الميلادي ضمن المؤثرات الصينية التي وصلت إليها في الفترة ذاتها، وأنها استغلت آنذاك لدعم النظام الإمبراطوري وإقامة حكم مركزي قوي على النمط الصيني. وعندما أصبحت السلطة في يد أُسرة **توكوغاوا** في مطلع القرن السابع عشر، جرى إحياء الكونفوشيوسية المتمثلة في التيار الفكري المعروف لدى اليابانيين باسم شوشيغاكو[٣].

برزت قيم الكونفوشيوسية بشكل واضح في برامج التعليم التي كانت تلقَّن لأبناء الساموراي، وكذا في التراتب الاجتماعي الصارم الذي ظل يشكل الهيكل

(٣) شوشيغاكو (Shushigaku) هو المصطلح الياباني الذي استُعمل للدلالة على تيار الكونفوشيوسية الجديدة المنسوب إلى المفكر الصيني تشو هسي (Chu His) أو زهو كسي (Zhu Xi) الذي عاش في القرن الثاني عشر (١١٣٠ ـ ١٢٠٠).

العام للبنية الاجتماعية في اليابان طوال عصر **توكوغاوا**. فمنذ عصري **نارا** (٧١٠ ـ ٧٨٥) و**هييان** (٧٨٥ ـ ١١٨٥) ـ ولربما قبلهما ـ ظهر التمييز بين فئة النبلاء (كوغي) والعامة. ومع تنامي دور الأُسر العسكرية ابتداء من القرن التاسع الميلادي، برز الساموراي كفئة تختص بالمهارات الحربية، وتضطلع بالمهام العسكرية التي تعجز الفئات الأخرى عن القيام بها. وفي نهاية القرن الثاني عشر، استولى الساموراي على السلطة، وأصبحوا الفئة المهيمنة على المجتمع الياباني طوال سبعة قرون. غير أن الحدود الفاصلة بين فئات المجتمع الياباني لم تكن دقيقة وصارمة. فكما أشرنا في حديثنا عن الإجراءات التنظيمية التي قام بها **تويوتومي هيدي ـ يوشي**، فإن هذا الأخير هو الذي شرع عملياً في رسم حدود واضحة المعالم بين فئة الساموراي وغيرها من الفئات الأخرى. وقد سارت شجونة **توكوغاوا** على النهج ذاته، ودعمت إجراءات **هيدي ـ يوشي** بأخرى تحدد لكل فئة موقعها وما عليها من واجبات وما لها من حقوق، تطبيقاً للمبدأ الكونفوشيوسي القائل بضرورة أن يعرف المرء موقعه الاجتماعي ويتصرف بحسب ما يخوله ذلك الموقع. وهكذا جرى تحديد أربع فئات: فئة الساموراي على رأس هرم التراتب، تليها فئة الفلاحين، ثم فئتا الصنّاع والتجار.

وممّا ساعد على الاستقرار السياسي أيضاً، التزام شجونة توكوغاوا بسياسة العزلة (ساكوكو Sakoku)، التي نصت مقتضياتها على تقييد سفر اليابانيين إلى خارج الأرخبيل، وحظر الديانة المسيحية، وطرد المبشرين بها، ومنع الأجانب (خصوصاً الغربيين) من دخول اليابان. وقد كان في إمكان الشجونة الحفاظ على هذه السياسة وتطبيقها بصرامة منذ منتصف القرن السابع عشر تقريباً (١٦٣٩) إلى منتصف القرن التاسع عشر، أي إلى حين تغير المناخ الدولي، وتبنّي الدول الغربية سياسة إمبريالية معلنة تدعمها قوة عسكرية متطورة لا سبيل إلى الوقوف أمامها. وقد اختلفت الآراء حول تقييم نتائج سياسة العزلة بين آراء تذم سلبياتها وأخرى تمدح إيجابياتها، لكن مهما قيل في سلبياتها، فلا أحد ينكر أنها حمت اليابان من خطر التوسع الاستعماري فترة لا يستهان بها.

• التحديث المبكر

انعكس الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي إيجابياً على الاقتصاد، والعمران، والبنية التحتية، والثقافة الشعبية، والتعليم، والنشر، والفنون التي عرفت جميعها تطوراً وازدهاراً لافتين للانتباه خلال عصر **توكوغاوا**؛ فعلى صعيد

الاقتصاد، حدث نمو حقيقي يمكن رصده كمياً في مختلف القطاعات المنتجة. فالزراعة، التي ظلت المورد الأول للدخل والنشاط الرئيسي لغالبية السكان، حظيت باهتمام الدايميو، خاصة استصلاح الأراضي الزراعية. ذلك أن استحداث أراض صالحة للزراعة شكّل السبيل الأيسر لزيادة مداخيل الدايميو من الجبايات التي كانت تُحسب على قدر ما تنتجه الأراضي من الأرز أو ما يقابله من زراعات أخرى. فخلال قرن من الزمن، تضاعفت المساحة المزروعة أو الأراضي القابلة للزراعة، وتضاعف إنتاج الأرز مرة ونصف مرة، مع الإشارة إلى أن عملية استصلاح الأراضي كانت مصحوبة بمشروعات الري والتحكم في مياه الأنهار عبر بناء السدود الصغيرة ومد القنوات، ومصحوبة أيضاً بتطوير التقنيات والأدوات المستعملة في حراثة الأرض وجني محاصيلها. كما عمل بعض الدايميو على تنويع منتجات أراضيهم، وتشجيع الزراعات التسويقية والصناعية التي ازدهرت في البوادي واحتلت موقعاً لا يستهان به في موارد بعض الهانات واقتصادها. كما استقطبت مجالات الصناعة والتجارة والنقل والبناء والأشغال العامة نشاط سكان المدن والقلاع الذين تكاثرت أعدادهم بشكل مطرد خلال هذا العصر، إضافة إلى الصيد البحري واستخلاص الملح والتعدين والتجارة.

تساوقت مع زيادة إنتاج الأرز طفرة ديمغرافية وحدوث زيادة غير مسبوقة في أعداد السكان بوتيرة سريعة خلال فترة قصيرة. فسكان الأرخبيل ظلوا على مدى قرون في حدود متواضعة لم تتجاوز ١٠ ملايين نسمة. وخلال القرن السابع عشر، قفز عدد السكان من قرابة ١٢ مليون في مطلعه إلى زهاء ٣٠ مليون نسمة في نهايته، وذلك قبل أن يستقر في حدود هذا العدد إلى حين إصلاحات الميجي.

ومن الظواهر المثيرة في عصر **توكوغاوا** توسُّع العمران وتنامي سكان الحواضر. ذلك أن اليابان أمكن ترتيبها منذ نهاية القرن السابع عشر ضمن دول العالم ذات الكثافة الحضرية العالية، شأنها شأن بعض الدول الغربية مثل إنكلترا وفرنسا. و**إيدو** أحسن مثال في هذا الباب؛ فمن مجرد قلعة دفاعية في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز سكانها بضعة آلاف، توسعت بعد أن اتخذها **توكوغاوا إياسو** عاصمة له، وتضاعف عدد سكانها عشرات المرات إلى أن بلغ في أواخر القرن السابع عشر قرابة المليون نسمة. ولعلها كانت أكبر مدينة في العالم آنذاك، فلندن وباريس لم تبلغا هذا الرقم أو تقتربا منه حتى مطلع القرن التاسع عشر. ولم تكن إيدو وحيدة في هذا الباب، إذ تنامى سكان معظم المدن التقليدية، وأنشئت مدن كثيرة خلال عصر **توكوغاوا**.

انبثق عن هذه التجمعات الحضرية الكبرى فئة متميزة من التجار والصنّاع عرفت في التاريخ الياباني بمصطلح تشونين (Chônin)، وهو مصطلح قريب، سواء في اشتقاقه اللغوي أو المراد به، من مصطلح البرجوازية[٤]. وما يهمّنا هنا بشأن هذه الفئة هو تطويرها لنمط عيش وسلوك وثقافة خاصة بها تختلف عن تلك السائدة لدى فئتي الفلاحين والساموراي، حتى وإن كان قسم من هذه الأخيرة قد شارك في تطويرها وفضّل العيش على نمطها. يمكن تسمية هذه الثقافة بثقافة برجوازية ناشئة، دون أن يكون في حكمنا تجاوز لما قد يراد به في السياق الغربي. ذلك أن التشونين (أو سكان الحضر) رعوا عدداً من الفنون، وأنتجوا صنوفاً من الآداب، واهتموا بتجزية أوقات الفراغ والتمتع بملذات الحياة على نحو لا يختلف عما كان عليه الحال في باريس أو لندن في القرن الثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر. ففي **إيدو**، كما في **كيوطو** و**أوساكا**، نشأت أحياء تعج بالمسارح والمطاعم ودور الترفيه (البغاء)، وتأوي الفنانين والكتّاب والمبدعين من كل المشارب. كان عالم هذه الأحياء البعيد عن رتابة الحياة وقساوة العمل وصرامة القيم (الكونفوشيوسية) يوصف بعبارة شاعرية توحي بالحلم الذي يمنحه لقاصديه؛ كان هذا العالم يُعرف لدى عشاقه، من الكتّاب والشعراء والقصاصين الذين عاشوا وأبدعوا في أحضانه، بـ أوكيأو (Ukio)، أو ما يمكن ترجمته بـ «العالم العائم».

ولعل أهم المنجزات التي تحققت في عصر **توكوغاوا**، هو انتشار التعليم، الذي حقق قفزة نوعية لم يشهد لها مثيل في تاريخ اليابان قبل عصر الميجي. فمنذ أن تعرّف اليابانيون على الحضارة الصينية، وتبنّوا نظام كتابتها في القرن السادس الميلادي، ظل التعليم محدود الانتشار ونخبوياً ومقتصراً على أبناء النبلاء والساموراي. كما بقي القيام به حكراً على المعابد البوذية ورهبانها الذين شكّلوا جل النخبة المتعلمة. وبعد استيلاء أُسرة **توكوغاوا** على السلطة، ارتأى الشجون الأوائل في التعليم أداة فاعلة لنشر تعاليم الكونفوشيوسية التي كان من شأنها دعم استقرار نظام الباكوفو وضمان هيمنته واستمراره، فأنشأوا معاهد لتعليم أبناء الساموراي، وشجعوا المبادرات الخاصة في هذا الشأن، وحذا الدايميو حذوهم. ولم يقتصر التعليم على أبناء الساموراي، ذلك أن التوسع الحضري نجم عنه تطلع سكان المدن من التجار والصنّاع (التشونين) وغيرهم إلى تعليم أبنائهم على غرار فئة

(٤) مصطلح تشونين مكوّن من شقّين: «تشو» (Cho) ويعني «حي» (Quarter) (أو Quartier بالفرنسية) و«نين» ويعني «أناس أو سكان». وسنعود إلى التفصيل في هذا الاشتقاق وقربه من اشتقاق لفظ مصطلح برجوازية. انظر: Umesao Tadao, *The Roots of Modern Japan* (Tokyo: The Japan Forum, 1990), pp. 58-59.

الساموراي، لكن لتحقيق غايات أخرى غير تلك التي كان الساموراي يسعون إليها. وهذا ما لبّته مدارس التيراكويا[٥] التي انتشرت بشكل لافت في جل مدن اليابان، وبعض القرى خلال عصر إيدو. وقد كانت هذه المدارس خاصة وغير خاضعة لسلطات الباكوفو أو الدايميو، ولم تكن حكراً على فئة بعينها كما هو شأن معاهد الساموراي. وبتضافر الجهود الرامية إلى تعميم التعليم، سواء بين فئة الساموراي أو بين الفئات الأخرى، انتشر التعليم، وحققت المعرفة بالقراءة نسبة عالية بين الذكور والإناث؛ إذ بلغت غداة إصلاحات الميجي في منتصف القرن التاسع عشر نسبة لم تحققها في الفترة ذاتها سوى دول قليلة في أوروبا.

وفي موازاة توسع المعرفة بالقراءة والكتابة وتنوع ثقافة التشونين، ازدهرت دور النشر في كل من **إيدو** و**أوساكا** و**كيوطو**؛ إذ بلغت في آخر عصر توكوغاوا زهاء ٣٠٠٠ دار. وعلى غرار تحرر التعليم من هيمنة المعابد، تحررت المطبوعات من هيمنة الموضوعات الدينية أو ذات الصلة بها؛ فإلى جانب توفير الكتب المقررة في المناهج الدراسية، كانت دور النشر تُقبل على نشر المؤلفات التاريخية، والآداب الكلاسيكية ـ الصينية واليابانية ـ والقصص، ودواوين الشعر، والكتب الترفيهية والإباحية، وكتب الإرشاد السياحي، وكتيبات التعليم التقني الموجهة إلى الفلاحين والصنّاع، وغير ذلك من الموضوعات التي لا يتسع مجال هذا التقديم لذكرها. وبحسب التقديرات الأكثر اعتدالاً في هذا الشأن، فإن متوسط ما كان يُطبع من العناوين خلال عصر إيدو، كان يتراوح بين ٤٠٠ و٦٠٠ عنوان سنوياً.

استعرضنا في ما سبق الملامح العامة لعصر توكوغاوا وبعضاً من المنجزات التي تحققت في هذا العصر، وهيأت، في رأينا، الظروف الملائمة أو المناخ الملائم الذي جعل اليابانيين أكثر استعداداً من غيرهم لقبول الفكر الغربي وتبنّي تقنياته في القرن التاسع عشر. وللإشارة، فإن تركيزنا على إيجابيات هذا العصر لا يعني تغاضينا عن نواقصه؛ فمقابل الأمن والاستقرار، هناك قهر الفلاحين واستغلالهم، ومقابل حسنات سياسة العزلة، هناك الابتعاد عن مستجدات العالم وإدارة الظهر للآخر، ومقابل النمو الديمغرافي، هناك المجاعات والأوبئة، وفي موازاة نشر الفكر الكونفوشيوسي، هناك قمع الفرد وإخضاعه لنظام أبوي صارم والحط بوضع المرأة. . . إلخ.، وهي أمور لم نغفلها في دراستنا لعصر **توكوغاوا**.

---

(٥) تيراكويا (Terakoya) تعني حرفياً مدرسة المعبد، وهي المصطلح الذي كانت تعرف به المدارس التي خصصت لغير أبناء الساموراي، وكانت في البداية ملحقة بالمعابد البوذية. ولنا عودة إلى هذا الموضوع.

● تقييم عصر توكوغاوا

اختلفت نظرة المفكرين اليابانيين والغربيين إلى عصر **توكوغاوا** مع مرور الزمن؛ فمن النقد اللاذع واستهجان كل ما ساد فيه في مرحلة أولى، إلى الإعجاب والتقدير والانكباب على دراسته واتخاذه مرجعية للأصالة والهوية اليابانية في مرحلة لاحقة. فعند قيام إصلاحات الميجي، وفي أثناء الانبهار بثقافة الغرب وقوته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان التفكير السائد لدى المثقفين والسياسيين اليابانيين يتمثّل في رفض كل مقومات «العهد القديم»؛ فقد نعتوه بالتخلف، ونسبوا إليه كل الشرور التي لحقت باليابان، وعزوا إليه أسباب تخلفه. فهذا **فوكوزاوا**، رافع مشعل الإصلاح في القرن التاسع، يقول عن حكام **توكوغاوا** إنهم أقاموا «أسوأ حكم في العالم بأسره»، وأمضى حياته يعلّم الناس كيف يتخلصون من تقبّل انعدام المساواة والقيم الكونفوشيوسية التي يؤسس عليها[٦]. ولم يكن **فوكوزاوا** عازفاً منفرداً أو طائراً يغرد خارج السرب، بل كان عضواً ضمن مجموعة **ميئروكوشا**[٧] التي ضمت كبار مثقفي عصر الميجي ونخبته السياسية، وكانت تدعو إلى الأخذ بالقيم الغربية، ونبذ كل ما ساد في «النظام القديم» من قيم وثقافة وتعليم ونظام سياسي.

لم يبتعد الغربيون كثيراً عن هذه النظرة السلبية؛ فبالنسبة إلى من زاروا اليابان منهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعايشوا انتقال اليابان من العزلة إلى الانفتاح على الغرب، كان عهد **توكوغاوا** في نظرهم بمثابة «سبات» عميق تغط فيه اليابان حتى أيقظتها منه إصلاحات الميجي. وإذا كان جل هؤلاء معذوراً بسبب معرفته الضئيلة بتاريخ اليابان وطغيان الأحكام المسبقة على رأيه في اليابانيين، فإن نظرة من اختصوا من الغربيين بدراسة تاريخ اليابان لم تختلف كثيراً؛ إذ أشاعوا هم أيضاً حكماً سلبياً على عصر **توكوغاوا**. فهذا **وليام**

(٦) J. W. Hall, «The New Look of Tokugawa History,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), p. 56.

(٧) مجموعة ميئيروكوشا (Meirokusha)، عبارة عن ائتلاف من ست جمعيات تأسس في عام ١٨٧٤ وانضوى تحته كبار مثقفي عصر الميجي. وقد كانت هذه المجموعة تصدر مجلة تحت عنوان **مئيروكو** *(Meiroku)* حيث عمل أعضاؤها، من خلال الكتابات التي كانوا يصدرونها في مجلتهم والندوات التي كانوا يعقدونها في المنتديات وكذا الكتب التي ترجموها، على الدفاع عن القيم الغربية وتبيان محاسنها وأهميتها للخروج من التخلف الذي كانت اليابان تعيش فيه إبان عصر **توكوغاوا**. تعريفاً بهذه المجموعة، انظر: Jerry K. Fisher, «Meirokusha,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 5, p. 161.

غريفيس[٨]، أحد رواد الدراسات اليابانية الغربيين، يكتب في تأريخ له عن اليابان، يقول إنه كان على حكومة الميجي أن:

تشفي البلد من علل السنين، وأن تجتث النظام الفيودالي من جذوره، وأن تخلصه من نزعة العزلة بكل شرورها، وأن تعطي اليابان هوية قومية جديدة، وأن تغير نظامها الاجتماعي، وأن تضخ في عروقها دماء جديدة[٩].

لقد كانت المسألة، كما تصورها، هي إعادة إحياء وطني كما لو كان الأمر يتعلق بميلاد جديد لليابان[١٠].

لم تختف هذه النظرة السلبية في النصف الأول من القرن العشرين، سواء لدى الكتّاب اليابانيين أو الكتّاب الغربيين؛ فالمؤرخون اليابانيون ذوو النزعة الماركسية، التي هيمنت على الكتابة التاريخية اليابانية في هذه الفترة، كانوا من المنتقدين للنظام الفيودالي الذي عرفته اليابان خلال هذا العصر. كما وجد الكتّاب الغربيون في القيم الاجتماعية والسياسية لعصر توكوغاوا مادة خصبة لتبرير النزعة العسكرية التي تبناها اليابانيون، وسلوك جنودهم «الهمجي» في مستعمراتهم في شرق آسيا. غير أن الكتابات في هذه الفترة لم تخلُ من رد بعض الاعتبار إلى عصر **توكوغاوا**. ذلك أن التفسير السائد حول التطور الذي عرفته اليابان خلال عصر الميجي، كان يركز أساساً على أخذ اليابان بمقومات الحضارة الغربية، ويجعل اليابان في تقدمها مدينة كلياً للغرب. غير أنه كان يصعب على ذوي التفسير الماركسي تبرير انتقال اليابان من النظام الفيودالي إلى النظام الرأسمالي في فترة زمنية تقل عن خمسين سنة. ومن ثم بدأ البعض منهم يفكر في أن ما حدث في عصر **توكوغاوا** من تطور اجتماعي ونمو اقتصادي عمل على تفتيت النظام الفيودالي من الداخل، وبالتالي فإن إصلاحات الميجي هي نتيجة تفاعل القوى الاقتصادية والاجتماعية، وليست نتيجة التأثير الغربي أو الأخذ بأسباب الحضارة الغربية فحسب[١١].

---

(٨) وليام غريفيس (William E. Griffis) (١٨٤٣ ـ ١٩٢٨)، أستاذ وباحث أمريكي جاء إلى اليابان عام ١٨٧٠، وعمل أستاذاً في إحدى الجامعات المنشأة حديثاً في طوكيو، حيث كان يدرّس الفيزياء والكيمياء. وبعد عودته إلى أمريكا عام ١٨٧٤، كرّس وقته كله للتعريف باليابان عبر المحاضرات التي كان يلقيها في الجامعات حيث يعتبر من رواد الدراسات اليابانية في الجامعات الأمريكية. وقد ألّف كتاباً عن تاريخ اليابان صدر عام ١٨٨٣، انظر: William E. Griffis, *The Mikado's Empire: A History of Japan from the Mythological Age to Meiji Era* (Tokyo: ICG Muse, Inc, 2000).

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(١١) حول تطور النظرة إلى تاريخ عصر توكوغاوا، انظر: Sydney Crawcour, «The Tokugawa =

لم يعد الاعتبار إلى عصر **توكوغاوا** إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ بعد الحرب ظهر جيل جديد من الباحثين الغربيين واليابانيين ممن أعادوا التفكير في تاريخ الفترة، وتخطوا حاجز الدراسات العامة والأحكام المسبقة إلى الدراسات العميقة والمتخصصة. ذلك أن جيل ما بعد الحرب من المؤرخين اليابانيين، اهتم بالتواريخ المحلية، وكتب عن التجربة التاريخية لكل هان من الهانات. وفي الوقت ذاته، تم الكشف عن الوثائق المحلية التي أبانت عن أهميتها في معرفة تاريخ اليابان، ليس على الصعيد المحلي فحسب لكن على الصعيد العام أيضاً. كما اتجه الباحثون اليابانيون إلى دراسة موضوعات متنوعة من غير التاريخ السياسي(١٢). ولم يكن الاهتمام الزائد يعني بالضرورة اختفاء النظرة السلبية تماماً من الكتابات التاريخية، غير أنه جعلنا على معرفة أكثر بمختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية، ووفر مادة تاريخية للباحثين من اليابان وخارجه.

كان الاحتلال الأمريكي لليابان في السنوات الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية وإقامة قواعد عسكرية فيها، مناسبة لظهور جيل جديد من الباحثين الأمريكيين ممن أمضوا خدمتهم العسكرية في اليابان، وتعلموا اللغة اليابانية، وتعرفوا إلى المجتمع الياباني عن قرب. ويمكن القول إن قفزة نوعية حدثت في الدراسات اليابانية بعد الحرب، خاصة في الجامعات الأمريكية، حيث أنشئت في كبرياتها أقسام ومعاهد مختصة في هذا المجال فتخرج فيها أجيال من الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم، إلى اليوم، البحث في هذا المجال(١٣). وقد نال عصر

Period and Japan's Preparation for Modern Economic Growth,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 1, = no. 1 (Autumn 1974), pp. 113-125, and Hall, «The New Look of Tokugawa History».

(١٢) على سبيل المثال، انظر مقال الباحثين ناغاهارا كيئجي وكوزو ياماموار، اللذين أبرزا الاتجاهات المعاصرة في البحث التاريخي لدى المؤرخين اليابانيين، ومنها الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والأقليات وعامة الناس. . . إلى غير ذلك. انظر: Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, «Reflections on Recent Trends in Japanese Historiography,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 10, no. 1 (Winter 1984), pp. 167-183.

(١٣) يشير تقرير وضِع في عام ١٩٧٠، إلى أن عدد الباحثين الأمريكيين المختصين بالدراسات اليابانية كان في عام ١٩٦٨ يقدر بـ ٤٠٠ باحث. وقد ارتفع هذا العدد في عام ١٩٧٤ إلى ٨٤٠ باحثاً. كما أن الجامعات الأمريكية الكبرى (برنستون؛ كولومبيا؛ ميشيغان؛ بركلي؛ هارفارد. . .) أصبحت تتوافر منذ خمسينيات القرن العشرين على معاهد وأقسام متخصصة في الدراسات اليابانية.

ومن أشهر الباحثين الأمريكيين الذين برزوا مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، وكان لهم دور كبير في السير بعيداً في الدراسات اليابانية، نذكر ماريوس جانسن (Marius B. Jansen) وجون ويتني هول (John Whitney Hall) ودونالد كين (Donald Keene) ودونالد شيفلي (Donald Shively). وكما يلحظ القارئ، فإن أسماء هؤلاء تتردد كثيراً في المقالات والدراسات المعتمدة في هذه الدراسة.

في ما يخص وضعية الدراسات اليابانية خارج اليابان، انظر: Murata Hiroshi, «Japanese Studies Abroad,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, pp. 41-45.

توكوغاوا النصيب الأوفر من دراسة هؤلاء، بل يمكن القول، دون مبالغة، إنه كان وما يزال أكثر العصور التاريخية حظوة بالاهتمام. والملاحظ في هذا الشأن، ذلك التعاون الوثيق بين الباحثين الأمريكيين واليابانيين والمتمثل في تبادل الزيارات والخبرات، وعقد الندوات المشتركة، وترجمة الأبحاث إلى اللغتين اليابانية والإنكليزية. هذا بالإضافة إلى إنشاء مؤسسات للبحث الجامعي من قبل الحكومتين اليابانية والأمريكية، وإصدار مجلات متخصصة بالدراسات اليابانية استقطبت كبار الدارسين وشكلت منابر للمهتمين باليابان (من قبيل **مجلة الدراسات اليابانية** (*Journal of Japanese Studies*) التي تأسست عام ١٩٧٤). وكانت الحصيلة فتح آفاق جديدة للبحث، وظهور كم هائل من الدراسات والأبحاث المتنوعة الاختصاصات والمشارب، شملت موضوعات من قبيل الاقتصاد والمؤسسات السياسية والتعليم والفكر والديمغرافيا والأدب والشعر والاقتصاد. . . إلى غير ذلك.

عملت هذه الدراسات، سواء تلك التي قام بها الباحثون اليابانيون أنفسهم أو التي اضطلع بها الباحثون الغربيون ـ خاصة الأمريكيون منهم ـ على استجلاء غوامض عصر توكوغاوا، وإظهار جوانبه التاريخية والاجتماعية والاقتصادية بما لها وعليها. ولعل من النتائج الأساسية لهذه الدراسات، هو تغير النظرة إلى عصر **توكوغاوا**، بل إلى تاريخ اليابان ككل. فمثلاً، كادت تختفي تماماً تلك النظرة السلبية لعصر **توكوغاوا**؛ إذ لم يعد أحد يشك في الدور التحضيري لهذه الفترة لقيام إصلاحات الميجي، أو يلغي أهميتها في إعداد اليابانيين للانتقال إلى النظام الرأسمالي والأخذ بأسباب الحضارة الغربية. فالتفوق التجاري، والانتشار السريع للتعليم، وتطور المواصلات، والأخذ بالنظام البنكي، وغير ذلك من مظاهر التطور التي ميزت عصر الميجي، يفسر نجاحها وسهولة تقبلها بما حدث من تطور ـ أو تحديث مبكر ـ في عصر **توكوغاوا**.

والمثير أن رد الاعتبار إلى عصر **توكوغاوا** لم يقتصر على المؤرخين والباحثين، بل تعداه إلى الدوائر الرسمية والشعبية. ذلك أن عصر إيدو أضحى المرجعية الأساسية للتراث الياباني؛ فرغم الأهمية الثقافية والحضارية للعصور السابقة عليه، فإن قيم هذا العصر ومظاهره الثقافية هي الأكثر حضوراً الآن في الذاكرة الشعبية والأكثر إثارة للخيال الشعبي لدى اليابانيين. وتكفي الإشارة هنا إلى العناية والإقبال اللذين تحظى بهما فنون الفرجة (مسرح الكابوكي) والرياضة (السومو) والموسيقى والرسم، التي ظهرت أو تطورت في عصر إيدو. ومثلها في ذلك أنماط اللباس والأكل. كما أن قيم الكونفوشيوسية، ما تزال حاضرة في إدارة

المؤسسات الصناعية والتجارية رغم التخلي عنها رسمياً في مجال السياسة.

يضاف إلى هذا اهتمام وسائل الإعلام والسينما بعصر إيدو؛ إذ أضحت الشخصيات التاريخية لهذه الفترة موضوعاً أثيراً لدى كتّاب السينما والمسلسلات التلفزيونية التي تحظى بإقبال جماهيري واسع. فشخصيات الشجون والساموراي أصبحت رموزاً للقيم اليابانية يجري التركيز عليها، ليس في الأفلام التي ينتجها اليابانيون فحسب، بل حتى تلك التي تنتج في هوليوود أيضاً. كما يبدو هذا الاهتمام في اعتناء المحافظات بالقلاع والمآثر التي يعود تاريخها إلى هذا العصر، ومن ذلك، على سبيل المثال الاعتناء الكبير بمدافن **نيكو**، مثوى الشجون الأوائل، ومتاحف طوكيو التي تظهر مختلف مظاهر الحياة اليومية لمدينة إيدو(١٤). وهكذا لم يعد عصر **توكوغاوا** وقيمه موضوع ازدراء يستعذر من ذكره اليابانيون كما كان الأمر عند قيام إصلاحات الميجي، بل أصبح موضوع افتخار لهم وفترة تاريخية يعتزون بذكرها.

ولقد أثار انتباهنا في دراستنا لعصر **توكوغاوا**، كما أوضحنا في هذا التقديم، عدة قضايا أو مظاهر، نذكر منها: الأمن والاستقرار السياسي؛ سياسة العزلة؛ النظام الاجتماعي؛ النمو الاقتصادي؛ الطفرة الديمغرافية؛ تطور البنية التحتية؛ توسع العمران والمدن؛ ثقافة التشونين وانتشار التعليم ودور النشر. وهي قضايا مترابطة ومتداخلة رغم تنوعها الظاهر، فالاستقرار السياسي كان سبباً في النمو الاقتصادي، والطفرة الديمغرافية كانت مرتبطة بالنمو الاقتصادي وزيادة الإنتاج الزراعي. كما أن توسع العمران وزيادة عدد السكان الحضر كانا من بواعث ظهور ثقافة التشونين، وهكذا دواليك. وفي هذا القسم والذي يليه سنعمل على دراسة هذه المظاهر، بينما نركز في هذا القسم على **الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي**، وفيه نعرض لأسباب هذا الاستقرار المتمثلة، من جهة، في النظام الاجتماعي الذي ساد خلال عصر **توكوغاوا** واعتمد فيه على تطبيق تعاليم الكونفوشيوسية، والمتمثلة، من جهة أخرى، في المؤسسات السياسية التي ظلت فاعلة خلال هذا العصر وكانت أساس الاستقرار السياسي. هذا بالإضافة إلى سياسة العزلة التي مثلت عاملاً مساعداً في الحفاظ على هذا الاستقرار.

---

(١٤) مثل متحف: Edo Tokyo Hakubutsukan.

الفصل الأول

نظام الباكوهان

الباكوهان واحد من المصطلحات الشائعة في الكتابات التاريخية الراهنة، لوصف النظام السياسي الذي كان قائماً في عصر **توكوغاوا**. إنه مصطلح حديث الاشتقاق؛ إذ ظهر بعد الحرب العالمية الثانية بهدف إيجاد مفهوم محايد يتفق حوله الجميع، ويتغلب به على الاختلافات القائمة بين الباحثين حول طبيعة هذا النظام[1]. فهو، من جهة، يصف طبيعة السلطة الموزعة بين السلطة العسكرية المركزية (الباكوفو)، ويمثّلها الشجون، والسلطة المحلية على صعيد كل إقطاعية (هان)، ويمثلها الدايميو، وينأى، من جهة ثانية، عن إصدار حكم قيمة في هذا الشأن.

وواقع الأمر أن هذا النظام ظل يُعرف في وثائق اليابان ومصادره التاريخية بالباكوفو، أي المصطلح نفسه الذي يُطلق على نظام الحكم في العهدين السابقين (**كاماكورا** و**موروماتشي**). وما أراده الباحثون من اجتهادهم، إضافة إلى ما سلف ذكره، هو تأكيد الاختلاف القائم بين نظام الباكوفو في عصر **توكوغاوا** ونظيره في الفترة السابقة، وبالضبط في الفترة الممتدة من استيلاء الساموراي على السلطة في نهاية القرن الثاني عشر إلى حين اندلاع الحرب الأهلية في منتصف القرن الخامس عشر. وللتذكير ببعض ما ورد في اللمحة التاريخية من هذا البحث، نشير إلى أنه عندما حصل **ميناموتو نو يوري ـ تومو** على لقب الشجون عام ١١٩٢،

(١) ينسب ابتكار هذا المصطلح إلى المؤرخ الياباني «إيتو تاسابورو» (Ito Tasabuto) الذي شرع في استعماله عقب الحرب العالمية الثانية وعَنوَن به كتاباً صدر له سنة ١٩٥٦. انظر: Harold Bolitho, «Bakuhan System,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 1, pp. 131-133.

أصبح مقر حكمه والجهاز الإداري والعسكري الذي يرأسه يُنعت بـ الباكوفو. وهو نظام تميز أساساً، ومنذ بدايته، بثنائية السلطة: سلطة الشجون، وهي سلطة إدارية وعسكرية كان مقرها في **كاماكورا** أولاً ثم في **موروماتشي**، وسلطة الإمبراطور، وهي مجرد سلطة رمزية وروحية ظل مقرها في **كيوطو**. والاختلاف لا يكمن هنا، إذ استمرت هذه الثنائية طوال عصر **توكوغاوا**، وإنما يكمن أولاً، في التطورات التي عرفها نظام الباكوفو في عهد **توكوغاوا**، حيث بلغ نضجه من حيث الترتيب الإداري وإقرار حكم مركزي قوي، ويكمن ثانياً ـ وهو الأهم ـ في الحكم المحلي، أو نظام الحكم الذي كانت تسير به الأقاليم. ففي عهد **كاماكورا** والفترة الأولى من عهد **موروماتشي**، كانت الأقاليم يسيّرها حكام عسكريون من الساموراي (شوغو) يعيّنهم الشجون ويخضعون كلية لسلطتهم. وفي عهد الدويلات المتحاربة، تحول حكام الأقاليم من مجرد تابعين لسلطة الشجون إلى شبه أمراء مستقلين بإقطاعياتهم، وهم الذين عُرفوا بـ «سنغوكو دايميو» (أو دايميو الدويلات المتحاربة). وبعد أن جرى توحيد البلاد ثانية في النصف الثاني من القرن السادس، بدأت بوادر نظام جديد يوفق بين السلطة المركزية للشجون (أو الباكوفو)، التي يعترف بها الدايميو ويخضعون لها، وحكم شبه مستقل للدايميو في إقطاعياتهم (الهان) يعترف به الشجون.

ترجع أصول التوفيق بين نظام عسكري مركزي قوي وحكم محلي شبه مستقل، إلى كلٍّ من **أودا نوبوناغا** و**تويوتومي هيدي ـ يوشي** اللذين لم يسعيا، خلال جهودهما في سبيل توحيد البلاد، إلى القضاء على دايميو الدويلات المتحاربة بعد إخضاعهم للحكم المركزي، وإنما أبقيا على الكثير من هؤلاء في أماكن نفوذهم مقابل إعلانهم الولاء لشخصيهما والسلطة التي يمثلانها. ويعتبر **هيدي ـ يوشي** المهندس الأول لهذا النظام وواضع أسسه، وذلك بسبب الإجراءات التنظيمية التي اتخذها، وحدد فيها بعضاً من السمات التي يجب أن تكون عليها علاقة الدايميو بالشجون. كما استفاد **توكوغاوا إياسو** من تجربته في إدارة عدد من الأقاليم عندما انتقل إلى منطقة **كانتو** (١٥٩١) وأصبح حاكماً على خمسة أقاليم، حيث كان عليه التعامل مع عدد من صغار الدايميو والأتباع المكلفين بالإدارة المحلية. وعندما حصل على لقب الشجون (١٦٠٣)، قام بإتمام الإجراءات التي تحكم العلاقة بين الشجون والدايميو، مستفيداً من نهج سلفه **هيدي ـ يوشي** ومن تجربته الشخصية. ورغم أهمية الخطوات التي قُطعت في هذا السبيل، فإن نظام الباكوهان لم يستكمل بناءه ومقوماته إلا في منتصف القرن

السابع عشر، في عهد الشجون الثالث **إييميتسو** (١٦٢٣ ـ ١٦٥١).

وبناء على ذكرناه، فإن ظهور نظام الباكوهان، أو تطور نظام يوفق بين حكم مركزي قوي وحكم إقليمي شبه مستقل، هو اعتراف بما أفرزته الحرب الأهلية، التي أصبح بعدها استقلال الدايميو بهاناتهم أمراً واقعاً في إدارة الأقاليم، يتوجب على الحكم المركزي التعامل معه بطريقة أو بأخرى. وما قام به موحدو البلاد في النصف الثاني من القرن السادس عشر، هو محاولة تكييف هذا الواقع مع إعادة البلاد إلى حكم مركزي قوي كما كان عليه الأمر عند قيام حكم الساموراي. ولا تخرج جهود الشجون الأوائل من أُسرة **توكوغاوا** عن هذا النطاق، إذ إن **إياسو** ارتأى منذ البداية أن الدايميو يمثّلون عناصر ضرورية لحكم البلاد، وأنهم ليسوا بأعداء لنظام مركزي، شريطة اختيار الأحسن منهم والأكثر خضوعاً والذين يمكن الاعتماد عليهم ويكون ولاؤهم مضموناً[٢]. وعلى أي حال، فقد استطاع الشجون الأوائل الوصول بهذا النظام إلى درجة من الترتيب والدقة جعلته يدوم أكثر من قرنين ونصف قرن.

مثّل النظام السياسي والاجتماعي الذي أفرزته الحرب الأهلية وعملية توحيد البلاد مرحلة نهائية لتطور النظام الفيودالي الياباني، الذي بدأت بوادره الأولى منذ القرن العاشر الميلادي. وقد أوضحنا في اللمحة التاريخية أصول هذا النظام والكيفية التي انتهى إليها حين اندلاع الحرب الأهلية. والملاحظ أن على النقيض ممّا حدث في جهات من أوروبا، حيث بدأت بعض الإقطاعيات، منذ القرن الثاني عشر، تتوسع على حساب جيرانها وتشكّل ملكيات مركزية تلغي استقلالية الإقطاعيات، أو أخذت بعض الملكيات تستعيد سلطاتها، فإن إقامة حكم عسكري قوي في اليابان لم يؤد إلى النتيجة ذاتها؛ ففي إنكلترا، التي عرفت نظاماً فيودالياً في القرن الحادي عشر، بدأت تتحول إلى مملكة ذات نفوذ قوي ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر، في عهد **هنري الثاني** (حكم ١١٥١ ـ ١١٨٩)، الملك الأول من أُسرة **أنجو** (Anjou) ـ المعروفة أيضاً بـ **بلانتاجونيت** (Plantagenets) ـ (١١٥٤ ـ ١٤٨٥)، الذي أحكم إدارة البلاد وعمل على مد نفوذ إنكلترا إلى اسكتلندا وويلز والجنوب الشرقي من أيرلندا، إضافة إلى الممتلكات التي ورثها

---

(٢) J. W. Hall, «The Bakuhan System,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 156.

في فرنسا (منطقة أكيتان)[٣]. وعلى الرغم من تجدد ثورة بارونات إنكلترا في القرن الموالي، احتجاجاً على الرفع من الجبايات الذي ساوق الحروب الصليبية التي قادها **ريتشارد قلب الأسد** (١١٨٩ ـ ١١٩٩)، فإن إنكلترا أضحت دولة مركزية، وتطور فيها نظام تمثيلي أو برلمان (١٢٦٥) مكون من ممثلي البارونات والعامة، وهو ما كان من إفرازات التجربة الفيودالية التي مرت بها إنكلترا.

وفي فرنسا، الشهيرة بتجربتها الفيودالية التي ظهرت بوادرها في إثر تدهور سلطة **الكارولنجيين** بعد وفاة **شارلمان** (٧٤٢ ـ ٨١٤)، أخذت الملكية تستعيد سلطتها المركزية في مطلع القرن الثاني عشر، بعد أن أنهكت الحروب الصليبية عدداً من الأمراء الفيوداليين. ففي عهود لويس السادس (حكم ١١٠٨ ـ ١١٣٧) و**لويس السابع** (حكم ١١٣٧ ـ ١١٨٠) و**فيليب الثاني** (حكم ١١٨٠ ـ ١٢٢٣)، أخذت السلطة المركزية تتوسع على حساب الإقطاعيات الفيودالية إلى أن وصلت إلى حدود جبال **البيرني**، كما تمكنت تلك السلطة من استعادة المناطق التي كان الإنكليز يحتلونها.

كان من المحتمل أن تكون نهاية النظام الفيودالي الياباني على النحو الذي انتهى إليه نظيره في أوروبا، أي باستعادة السلطة المركزية لسلطاتها والقضاء على الأمراء الفيوداليين، وفي حالة اليابان بالقضاء على دايميو الدويلات المتحاربة الذين استقلوا بإقطاعياتهم إبان الحرب الأهلية. والمثير أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن اليابان كانت تسير في الاتجاه ذاته في النصف الثاني من القرن السادس عشر؛ فحروب التوحيد التي خاضها كل من **أودا نوبوناغا** و**تويوتومي هيدي ـ يوشي** كان هدفها القضاء على هؤلاء «الأمراء الفيوداليين». وخلافاً لما هو متوقع، لم ينته النظام الفيودالي الياباني على غرار ما حدث في أوروبا. ذلك أن زعماء القرن السادس عشر والشجون الأوائل من أُسرة **توكوغاوا** لم يسعوا إلى إلغاء الإقطاعيات الفيودالية، بل أبقوا عليها وعززوا الكثير من مظاهر النسق الفيودالي. فـ **هيدي ـ يوشي** مثلاً، عزز موقع الساموراي بقراره الخاص بجمع الأسلحة من الفئات الأخرى، ووضع أسس نظام تراتبي يحتل فيه المحاربون المرتبة العليا، ويمنع حركية الفئات الأخرى. كما أن علاقة التبعية (Vassalage) ازدادت قوة ومتانة، حيث أصبح كل الدايميو في عصر **توكوغاوا** مجرد أتباع (Vassals) للشجون، وكل أُسر الساموراي في حال تبعية لسادتهم الدايميو والشجون. ومن

(٣) ورث منطقة أكيتان من خلال زواجه من أليينور دا كيتان (Alienor d'Aquitaine).

ثم، فإن تمركز السلطة في يد الشجون لم يلغ الإقطاعيات الفيودالية، بل على النقيض من ذلك، أصبحت أراضي اليابان مقسمة رسمياً ـ خلال عصر **توكوغاوا** ـ إلى زهاء ٢٦٠ إقطاعية (هان). وبناء على ذلك، يرى بعض الباحثين أن التطور الذي حصل هو عودة قوية إلى النظام الفيودالي، وإحياء له (Re-feudalization)، بل إن البعض منهم يعتقد أن النظام الفيودالي لم يبدأ فعلاً في اليابان إلا في عصر **توكوغاوا**. والخلاصة هي أن العودة إلى الحكم المركزي لم تلغ كل مظاهر هذا النسق الفيودالي[٤].

أثار هذا التطور الذي انتهى إليه النسق الفيودالي الياباني ـ الذي لم ينته إليه في أوروبا ـ حيرة لدى الباحثين (الغربيين على الخصوص) في كيفية تصنيف هذا النظام. وهكذا لجأ البعض إلى استحداث مصطلحات مثـــل: الفيودالية المتأخرة (The Late Feudalism)، أو الفيودالية المتمركزة (The Centralized Feudalism) أو الفيودالية القومية (The National Feudalism) لوصف هذا النظام الذي يجمع بين خصائص النظام الفيودالي والحكم المركزي[٥]. وهذه الحيرة ناجمة عن عدم قابلية النظام السياسي والاجتماعي في اليابان للخضوع للمعايير والأنماط التي يستغلها الباحثون الغربيون، وهي أنماط يركز أصحابها على الذات ولا يرون الآخر إلا من خلالها. وفي هذا الصدد، يقول الباحث **جون ويتني هول**، الذي اختص بدراسة المؤسسات السياسية اليابانية، إنه من اليسير وصف المجتمع الياباني في عصر **توكوغاوا** ومعرفة مكوناته ومؤسساته بكل دقائقها، غير أن من الصعب تصنيفه[٦]. وهو صادق في ما قال، فجلُّ الدراسات التي رجعنا إليها، سواء تلك التي كتبها الغربيون أو اليابانيون، تفيض في وصف المجتمع الياباني ومؤسساته، لكنها تحجم عن الخوض في مسألة التصنيف. ومن القلائل الذين غامروا في هذا المجال **ويتني هول** ذاته.

ومن القضايا التي تبقى عالقة دون أجوبة شافية، قضية تتعلق بطبيعة السلطة التي أقامتها أسرة **توكوغاوا**: هل هي سلطة استبدادية، شأنها شأن

---

(٤) John Whitney Hall, «Feudalism in Japan a Reassessment,» in: John Whitney Hall and Mauris B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), p. 51.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٦) John Whitney Hall, «Rule by Status in Tokugawa Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 1, no. 1 (Autumn 1974), pp. 39-40.

مثيلاتها في بعض دول أوروبا في القرن السابع عشر؟ وهل اقتربت في حدود ما من بناء الدولة العصرية بحسب المعايير **الفيبرية**، كما حدث في أوروبا؟ أم أنها بقيت في إطار الدولة التقليدية، حيث تغلب علاقات القرابة وتغيب العقلنة والبيروقراطية؟ ومن الأكيد أن موحدي البلاد في القرن السادس عشر والشجون الأوائل في النصف الأول من القرن السابع عشر لم يسعوا إلى إقامة دولة على النمط الغربي تتمتع بجيش نظامي (أو قومي)، وإدارة (أو بيروقراطية) تدير كل الأقاليم وتحصّل الضرائب منها، ونظام قضائي موحد يخضع له جميع الرعايا، والعمل بنظام تمثيلي أو شبه برلماني. ذلك أن الهم الأول الذي كان يشغل موحدي البلاد هو تحقيق الأمن من خلال إنهاء الحرب الأهلية، وإخضاع كل الدايميو وجعلهم في وضع يتعذر عليهم فيه العودة إلى الصراع في ما بينهم أو تحدي السلطة المركزية.

ومع ذلك، لم يخل نظام الباكوهان من بعض مظاهر الدولة المركزية، ولم تنعدم فيه سمات من التطورات التي تسير نحو إقامة بيروقراطية. وهنا نرى من الضروري العودة إلى **هيدي ـ يوشي** الذي يُعتبر الفاعل الأول في نقل اليابان من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. فعلى الرغم مّما يبدو في إجراءاته التنظيمية من عمل على «تجميد» المجتمع الياباني في وضع يحقق توازناً مستديماً، فإن هذه إجراءات غيرت من واقع العصور الوسطى؛ فممّا حرص عليه **هيدي ـ يوشي** هو احتكار الدولة للعنف، وهو احتكار يبدو واضحاً في تجريد الفلاحين والطوائف الدينية من الأسلحة، ويبدو أيضاً في تحجيم قوات الدايميو الذين منع عليهم إقامة أكثر من قلعة دفاعية واحدة، وعدم عقد تحالفات في ما بينهم عبر المصاهرة وغيرها، وعدم حل النزاعات التي قد تقوم بينهم بالقوة، إضافة إلى احتفاظهم بقوات عسكرية تنفعهم فقط في حفظ الأمن في مقاطعاتهم. وصحيح أن **هيدي ـ يوشي** لم يؤسس جيشاً نظامياً، لكن كان في إمكانه، في إطار الترتيبات التي استحدثها، استجماع قوات هائلة من المحاربين التابعين للدايميو كتلك التي جهزها للقيام بحملته على كوريا (١٥٠ ألف محارب). وصحيح أيضاً أنه لم يقِم نظاماً ضريبياً عاماً، إلا أنه كان يعتبر أن كل أراضي اليابان ملك للإمبراطور، والتالي ملك له، وهو الذي يحكم البلاد باسمه، وأن استغلال الدايميو منحة منه يمكن أن يسحبها عنهم متى شاء. وما قيامه بالمسح العام للأراضي سوى وسيلة لمعرفة ما تنتجه أرض كل دايميو بدقة، والتي على أساسها حدد مثلاً مساهمة الدايميو في حملة كوريا، وفي المشاريع العمرانية الضخمة التي

قام بها، مثل بناء قلعة **أوساكا** والتمثال الكبير لبوذا[٧]. وصحيح كذلك، أنه كان يحكم باسم الإمبراطور، إلا أنه حرم هذا الأخير ما كان تبقى له من سلطات رمزية والمتمثلة في منح الرتب والألقاب الشرفية التي لم تعد تُمنح إلا لمن يقترحهم هو على الإمبراطور.

وقد عمل الشجون الأوائل من جهتهم على إتمام المخطط الذي بدأه **هيدي ـ يوشي**، فعززوا إجراءاته بمراسيم تنظيمية أكثر دقة وصرامة في ما يخص وضع الفئات وعلاقة الدايميو بالشجون. وأحكموا سيطرتهم على المجال بإغلاق حدود اليابان في وجه الأجانب (الغربيين على الخصوص)، ومنع الدايميو من التجارة الخارجية، وأيضاً بجعل المدن الرئيسية وذات الأهمية الاقتصادية تحت سلطتهم المباشرة (خاصة **كيوطو**، عاصمة الإمبراطور، و**أوساكا**، العاصمة الاقتصادية)، وبوضع الطرق تحت الإدارة المباشرة. هذا بالإضافة إلى إقامة إدارة مركزية مكونة من مستشارين وموظفين يشرفون على التسيير اليومي للإدارة والعلاقات الخارجية وعلاقة الشجون بالإمبراطور والدايميو، ويدبرون شؤون المدن الخاضعة مباشرة للشجون، وكذا طرق المواصلات الرئيسية والمحطات الطرقية. كما استحدثوا ـ ما يمكن أن نسميه في اللغة المعاصرة ـ جهاز استخبارات مكوناً من مفتشين وجواسيس مهمتهم مراقبة الدايميو وما يجري في هاناتهم.

ومن مظاهر هيمنة السلطة المركزية كذلك، التزام الدايميو كلهم ـ على اختلاف رتبهم ومكانتهم ـ بالخضوع للشجون والعمل بالقوانين التي يفرضها عليهم، وأداء الولاء سنوياً له؛ وتمضية فترة في العاصمة تحت مراقبته، وأخذ موافقته في مسألة ولاية العهد في الهان، حيث كان على الدايميو الجدد الحصول على مرسوم تعيينهم من جانب الشجون، قبل ممارسة مهامهم. وفي حال خرق الدايميو واحداً من هذه الشروط، أو عدم الالتزام بالقوانين العامة المفروضة عليهم، كان من حق الشجون التدخل، إما بعزلهم وتفويت هانهم لدايميو آخرين أو بنقلهم أو تجريدهم من قسم من أراضيهم. أما فيما يخص الجانب المالي، فلم يكن الشجون يفرضون على الدايميو جباية سنوية، غير أنهم كانوا يلزمون الدايميو بالمساهمة في المشاريع العامة (كالأشغال العامة) بالمال

---

(٧) في ما يخص أهمية هيدي ـ يوشي في إقامة الدولة اليابانية، بالإضافة إلى ما ورد ذكره في الفصل السادس من هذا الكتاب، انظر: Mary Elizabeth Derry, «Public Peace and Private Attachment: The Goals and Conduct in Early Modern Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 12, no. 2 (Summer 1986), pp. 237-271.

والعمال ـ وأيضاً بتزويد السلطة المركزية بالمحاربين عند الحاجة، ويكلفون الواقعين منهم في مناطق استراتيجية بمهام الدفاع عن الأراضي المعرضة للغزو الأجنبي. والملاحظ أنه لم تقع أحداث مهمة تستوجب تجنيد عدد كبير من المحاربين، باستثناء تمرد شيمابارا (١٦٣٧) التي أعد لها الشجون **إييميتسو** ما يزيد على ١٢٥,٠٠٠ ألف مقاتل(٨).

هذه بعض العناصر التي تدل على أن أُسرة **توكوغاوا** حققت بالفعل صيغة من الحكم المركزي، وإنْ تركت هامشاً من الحرية ومن الاستقلال الذاتي للدايميو. وهو هامش كان محدوداً غير أنه كان ذا أهمية في تحقيق توازن بين الحكم المركزي والحكم المحلي. وأهم مظاهر هذا منح الدايميو حق استخلاص الجباية من فلاحي إقطاعياتهم، وحرية صرفها على أي نحو يشاؤون؛ وجعْلهم يتمتعون بحق الاستقلال في تدبير أمور هاناتهم وتطبيق قوانينهم الخاصة فيها دون تدخل مباشر من الشجون، والاحتفاظ بقوات عسكرية تتلاءم مع مساحة الأراضي الخاضعة لهم ومداخلها من الأرز. ومن حيث المبدأ يمكن القول إن الهان كان صورة مصغرة للشجونة، حيث كان لكل دايميو عدد من الأتباع الساموراي وإدارة تحاكي إدارة الشجونة.

أثار بقاء هذا النظام واحتفاظه بمقوماته الأساسية قرنين ونصف قرن تساؤلات لدى المؤرخين حول هذا الدوام، على الرغم من أن المجتمع الياباني خبِر خلال هذه الفترة الطويلة عدداً من التغيرات كان من شأنها تقويضه. وهناك أسباب عدة يمكن أن يفسر بها هذا البقاء، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها في التمهيد، ونعيد إجمالها في النقاط التالية:

ـ تحقيق توازن دقيق بين السلطة المركزية والسلطة المحلية، سواء على المستوى السياسي أو المستويين الإداري والمالي. ذلك أن أُسرة **توكوغاوا** ظلت تعتبر نفسها واحدة من أُسر الدايميو التي تميزت من غيرها بحملها لقب الشجون وقيامها بالإدارة العامة للبلاد. وهذا ما يبدو بوضوح في الجانب المالي، ذلك أن

(٨) بشأن تعزيز مظاهر الحكم المركزي، انظر مقالة الباحث جيمس وايت، الذي يتبنّى رأياً يعارض أغلب من كتبوا في الموضوع، ذلك أنه يرى أن الحكم المركزي لأُسرة «وكوغاوا» يقوى في الفترات اللاحقة على التأسيس ولم يضعف. انظر: James W. White, «State Growth and Popular Protest in Tokugawa Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 14, no. 1 (Winter 1988), pp. 1-25.

أمّا في ما يخص تمرد «شيمابارا»، فإنه يتعلق بثورة قام بها فلاحو جزيرة في الجنوب الشرقي وكانت مدعومة من قبل المسيحيين. ولنا عودة إلى هذا الحادث في الفصل الخاص بسياسة العزلة.

الشجون كانوا يعتمدون في مداخيلهم المالية على الأراضي التي كانت تابعة لهم مباشرة، وكانت موزعة في كل أرجاء اليابان وتساوي سدس مداخيل الأراضي الزراعية للبلاد، أي على غرار باقي الدايميو الذين كانوا يعتمدون على مداخيل الأراضي التابعة لهم.

ـ ضبط مكونات المجتمع الياباني بعدد من القوانين والتشريعات، التي هدفت في مجملها إلى تقسيم المجتمع إلى عدد من الفئات، لكل فئة منها قوانينها وواجباتها الخاصة. ويرى الباحث **جون ويتني هول** أن حكم البلاد تيسر بواسطة نظام الفئات ـ وهو ما اصطلح عليه بالحكم بواسطة الفئات (Rule by Status)؛ إذ يرى أن الحدود المرسومة لكل فئة قد تبدو كجدران حاوية (Container) تعزل كل فئة عن الأخرى، غير أنها تحقق نوعاً من المساواة بين أفراد كل فئة. ويضيف أنها حققت نوعاً من الاستقلالية بالنسبة إلى الفلاحين الذين لم يعودوا تابعين مباشرة للساموراي، بعد أن أمر هؤلاء بالسكن في القلاع والمدن. ومن ثم، لم تعد العلاقة علاقة بين سيد بعينه وتابع معيّن كما كانت في السابق، بل أصبحت علاقة غير متجسدة في شخص بعينه ومتمثلة فقط في علاقة عامة بين سكان القرية وسلطات الدايميو. ويعتبر ويتني هول أن هذا التغير في طبيعة العلاقة كان خطوة نحو القضاء على النظام الفيودالي.

ـ الاستعانة بالمبادئ الكونفوشيوسية الجديدة، التي استُغلت كـ «أيديولوجيا» تسوغ هيمنة الساموراي والعمل بنظام الفئات، إضافة إلى تأكيدها قيمة الولاء التي كانت أساسية بالنسبة إلى الشجون والدايميو والساموراي عموماً.

ـ تطبيق سياسة العزلة التي منعت عن الدايميو عائدات التجارة الخارجية، وحمت البلاد من التدخل الأجنبي.

ـ تحقيق نمو اقتصادي رفع من المستوى المعيشي لليابانيين.

ـ العمل بنظام **سانكين كوطاي،** الذي فرض على الدايميو الانتقال سنوياً إلى العاصمة إيدو، وترك أفراد من أُسرهم فيها خلال عودتهم إلى أقاليمهم.

ـ عدم دخول اليابان في حروب خارجية، وسيادة الأمن والاستقرار الاجتماعي داخلياً، وعدم اندلاع حرب أهلية أو نزاعات داخلية مهمة طوال هذه الفترة.

سيرد هذا التفصيل خلال دراستنا للنظام الاجتماعي والمؤسسات السياسية،

إلا أننا نرى من المفيد الوقوف هنا على سببين ذوي أهمية خاصة، وهما الأخذ بتيار الكونفوشيوسية الجديدة الذي منح حكم أُسرة **توكوغاوا** سنداً أيديولوجيا، والعمل بنظام **سانكين كوطاي**، الذي وضِع في الأصل لضمان ولاء الدايميو، غير أن تأثيره في الاقتصاد والعمران كان بالغاً.

أولاً: الكونفوشيوسية الجديدة

من الأسئلة التي تفرض نفسها على كل باحث في تاريخ عصر توكوغاوا السياسي والفكري، سؤال يتعلق بالأسباب التي دعت إياسو إلى اختيار الكونفوشيوسية الجديدة كأيديولوجيا لحكم أُسرته. وقبل الإجابة عن هذا التساؤل، نرى من الضروري وضع الأمر في سياقه العام.

كان الهم الرئيسي لموحدي البلاد في القرن السادس تحقيق الأمن، وإنهاء الحرب الأهلية، وضمان ولاء الدايميو. وقد تأتى لهم ذلك بالعمل العسكري أولاً، وبالمشروعية التي كان يضفيها الإمبراطور على سلطتهم ثانياً. غير أنه كان من الضروري تدعيم سلطتهم بعناصر إضافية تؤمّن ولاء أتباعهم وتسوّغ حكمهم. فـ **هيدي ـ يوشي** حصل على منصب كامباكو (الوصي على العرش) الذي مكنه من إخضاع الدايميو وإتمام توحيد البلاد باسم الإمبراطور، بينما استغل غزو كوريا ليزيد من مشروعيته ويرفع من مكانته. أما **توكوغاوا إياسو**، ففضّل العمل في إطار التنظيم التقليدي للباكوفو، فحصل على منصب الشجون ليصبح الحاكم المفوض من قِبل الإمبراطور، بينما استغل هو وخلفه طرد إرساليات التبشير واضطهاد المسيحيين اليابانيين ليضفوا على حكمهم مزيداً من المشروعية الدينية؛ ففي تخليص البلاد من المسيحية حماية للمعتقدات المحلية: الشنتو والبوذية. لكن تأثير غزو كوريا وتخليص البلاد من المسيحية كان محدوداً في الزمان، لهذا سعى إياسو، بعد أن استقر له الأمر، إلى الحصول على دعم أقوى وأكثر تأثيراً، فكانت الكونفوشيوسية الاختيار الملائم الذي لبى ما أراده. ففي تأريخ رسمي صدر في منتصف القرن التاسع عشر تحت عنوان **توكوغاوا جيكي** (*Tokugawa Jikki*) (أو **التاريخ الحقيقي لتوكوغاوا**)[٩]، ورد ما يلي:

---

(٩) **توكوغاوا جيكي** كتاب في التاريخ يغطي حكم أُسرة توكوغاوا **من** بدايتها إلى الشجون العاشر، وقد شرع في تأليفه في العام ١٨٠٩ بأمر من الشجون إيناري (حكم ١٧٨٧-١٨٣٧) وانتهى العمل فيه عام ١٨٤٩، وشارك عشرون مؤرخاً في إنجازه. وهو يعتبر مصدراً مهماً لتاريخ توكوغاوا، لدقّة معلوماته واعتماده على الوثائق الرسمية.

أخضع **إياسو** الإمبراطورية وهو على صهوة جواده، غير أن ألمعيته وذكاءه الفطري وشخصيته الخارقة للعادة، جعلته يدرك أن الإمبراطورية لا يمكن أن تُحكم من على صهوة جواد. فقد كان له دائماً احترام كبير لـ «**طريق الحكماء**»(*)، وكان يعلم أنه الطريق الوحيد الذي يعلّم الإنسان كيفية الحكم والقيام بواجباته العليا. ونتيجة لذلك أولى عناية كبرى، منذ بداية حكمه، للتعليم(١٠).

يستفاد من هذا النص أن تبنّي الكونفوشيوسية جاء في إطار البحث عن وسيلة للحكم تمكّن من إخضاع البلاد سلماً، بعد أن تم إخضاعها عسكرياً. وحسب أهم الدراسات في هذا الشأن، خاصة تلك التي قام بها هيرمان أومس (Herman Ooms) عن أيديولوجية توكوغاوا، فإن إياسو كان يبحث عن الدعم من أية جهة كانت، سواء من الشنتو أو من البوذية، إلى أن وجد ضالته في الكونفوشيوسية الجديدة التي كانت تياراً سائداً لدى مثقفي العصر، وتحوي كل العناصر التي كانت سبباً في قوة الحكم الصيني الذي كان معجباً به. هذا بالإضافة إلى أن الساموراي كانوا متأثرين بمذهب الزن المتأثر، بدوره، بالكونفوشيوسية الجديدة.

أما الذين نقلوا الكونفوشيوسية الجديدة إلى اليابان، فهم الرهبان البوذيون الذين قاموا بدور الوساطة بين القارة والأرخبيل، وشكلوا حلقة وصل وقناة لنقل مستجدات الفكر الصيني، سواء تلك المتعلقة بالدراسات البوذية أو بغيرها. وتميز رهبان الزن منهم، على الخصوص، بنقل تيارات الكونفوشيوسية الجديدة خلال عصري **كاماكورا** و**موروماتشي**، أي في الوقت الذي انحسر فيه دور الكونفوشيوسية على الصعيد الرسمي.

وكان تيار الزن قد ظهر في الصين في إطار مذهب **ماهايانا** في القرن السادس الميلادي، وهو تيار يعتمد أساساً على التأمل، وإيقاظ الذهن، وتطوير الحدس الشخصي بغية الوصول إلى التنوير والخلاص ـ أي على غرار الطريق الذي سلكه بوذا ـ وليس على تمضية الوقت في التعبد وتلاوة السوترا أو

(*) المقصود بطريق الحكماء هنا هو الكونفوشيوسية. وللتذكير فإن «تو» أو «دو» تعني الطريق وتستعمل كلاحقة في جل المصطلحات الخاصة بالعبادة وغيرها. الشنتو = طريق الآلهة؛ بوشيدو = طريق المحاربين. . .

(١٠) ورد هذا النص مترجماً إلى الإنكليزية في: Ronald Philip Dore, *Education in Tokugawa Japan* (Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1992), p. 16.

النصوص المقدسة[11]. وقد أثّرت أفكار الزن في مجالات متعددة في الثقافة اليابانية (ترتيب الحدائق وتنسيق الزهور وطقس الشاي. . .)، ولاقت إقبالاً واستحساناً من لدن فئة الساموراي الذين اتخذوها مرجعية لأخلاقهم وسلوكهم[12]. وما يهمنا هنا هو تأثّر رهبان الزن بحركة التجديد التي عرفتها الكونفوشيوسية في الصين، حيث أقبلوا على دراستها، وعملوا على نقلها إلى اليابان وتدرسيها في معابدهم. والملاحظ أن الكثير من هؤلاء الرهبان زاوجوا بين المعرفتين البوذية الكونفوشيوسية، وكانوا أساتذة مرموقين في هذا المجال. كما أتاح غزو كوريا (١٦٩١) التعرف عن قرب إلى تيارات الكونفوشيوسية الجديدة، والاستفادة من معرفة أساتذتها الذين نُقلوا إلى اليابان قسراً.

تميز بين الأساتذة اليابانيين، الذين اختصوا بالفكر الكونفوشيوسي في أواخر القرن السادس عشر، **فوجي ـ وارا سيكا** (Fujiwara Seika) (١٥٦١ ـ ١٦١٩)، الذي بدأ حياته راهباً في معابد الزن، ثم تحول إلى دارس للدراسات الصينية، وأخيراً إلى داعية للكونفوشيوسية الجديدة في إثر مصادقته لأحد المنفيين (أو السجناء) الكوريين الذي نُقل إلى اليابان عقب الحملة على **كوريا**، وكان مختصاً بدراسة مذهب **تشو هسي**[13]. فالأستاذ **فوجي ـ وارا** هو الذي شرع في تدريس الكونفوشيوسية الجديدة بكيفية منفصلة، وكان رائد الدراسات المتعلقة بها التي غدت تُعرف في اليابان بـ **شوشي ـ غاكو** (Shushigaku) ـ نسبة إلى **تشو ـ هسي** بحسب النطق الياباني. وهو الذي قصده **توكوغاوا إياسو** في البداية ـ إثر انتصاره في معركة **سيكي ـ غاهارا** (١٦٠٠) ـ ليعمل في خدمته، رغبة في الاستفادة من التعاليم الكونفوشيوسية في دعم سلطته، غير أنه اعتذر، وترك الأمر لـ **هياشي**

---

(١١) يصعب إعطاء تعريف ملخّص وكافٍ لتيار الزن بسبب أن أتباع هذا التيار ليست لهم مرجعيات مكتوبة بقدر ما كانوا يعتمدون على أعمال وأقوال أساتذة الزن. وعموماً لا يمضي رهبان الزن حياتهم في العبادة أو قراءة السوترا وإنما في العمل (بما فيه العمل اليدوي) والاستماع أحياناً إلى خطب معلميهم، ووضع الأسئلة، وسماع الأجوبة التي عادة ما تكون قصيرة ومبهمة. وقد جمع تيار الزن بين الفلسفة الهندية وممارسات التأمل، كاليوغا، إضافةً إلى تأثره بالفكر الطاوي. وكما يقول دايسيتز سوزوكي (Daisetz T. Suzuki)، أحد كبار المختصين المعاصرين بدراسة الزن: «الزن باختصار هو حصيلة اللقاء بين العقل الصيني والفكر الهندي». انظر: Daisetz Teitaro Suzuki, *Zen and Japanese Culture* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958), pp. 3-4.

(١٢) لنا عودة إلى هذه الموضوعات في الفصول التالية. وفي ما يخص تأثر فئة الساموراي بأفكار الزن، انظر: المصدر نفسه، ص ٦٤-٨٥.

(١٣) يتعلق الأمر بكانغ هانغ (Kang Hang) (١٥٦٧ ـ ١٦١٨). انظر: Herman Ooms, «Fujiwara Seika,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, p. 358.

رزان (Hayashi Razan) (١٥٨٣ ـ ١٦٥٧)، أحد تلامذته المبرزين، ليقوم به.

كان **هياشي رزان** شخصية فذة متعددة الأبعاد، وكان نشاطه متنوعاً وشاملاً لمجالات مختلفة. ولعل البعد الذي كان له تأثير أكبر في سياسة الدولة هو انتماؤه الفكري وعمله الدؤوب على نشر مذهب الكونفوشيوسية الجديدة، الذي كان أكبر دعاته في القرن السابع عشر في اليابان. وقد التحق **هياشي رزان**، وهو في سن الطفولة، بأحد أديرة الزن في **كيوطو**، حيث استهوته الدراسات الكونفوشيوسية التي أخذها عن **فوجي ـ وارا سيكا**، وبرع فيها وهو ما يزال في مقتبل العمر. ففي سن العشرين، بدأ يحاضر مفسراً منتخبات **كونفوشيوس** بحسب تأويلات **تشوهسي**، وهو ما أثار الانتباه إليه ودعا **توكوغاوا إياسو** إلى استقطابه للعمل بجانبه. وعلى النقيض من أستاذه، قبِل العمل مستشاراً لديه ابتداء من عام ١٦٠٥، إلا أنه لم يكن مستشاراً عادياً؛ إذ لم ينقطع عن العمل في الاستشارة طوال نصف قرن (٥٢ سنة)، عاصر خلاله الشجون الأربعة الأوائل.

وهكذا كان اختياره ليعمل بجانب الشجون بمثابة انطلاقة لتبني شجونة **توكوغاوا** للكونفوشيوسية الجديدة واتخاذها مرجعية لحكمها ونظامها(١٤). ذلك أن **هياشي** استغل موقعه وحظوته لدى إياسو وخلفائه لينشر مذهبه ويفحم خصومه ويبعدهم عن مراكز القرار (خاصة أتباع مذهب **وانغ يانغ مينغ**). فبعمله في الاستشارة، طبع أعمال الشجون ومراسيمهم بتعاليم الكونفوشيوسية الجديدة، فكان المنظّر للسياسة العامة للشجونة والمنافح عن قراراتها. فعلى سبيل المثال، حرر جل مراسلات الشجون **إياسو**، وساهم في صوغ المراسيم التي نظمت مؤسسة الباكوهان في النصف الأول من القرن السابع عشر، كما كان من المؤيدين للتيار المعادي للديانة المسيحية والداعين إلى سياسة العزلة التي أقدم عليها الشجون الثالث **إييميتسو** (حكم ١٦٢٣ ـ ١٦٥١). ورغم أهمية عمله المباشر في مجال السياسة، فإن نشاطه في مجال التعليم كان الأكثر تأثيراً ودواماً؛ إذ كان معلماً موهوباً مقتدراً، ورائداً في إنشاء المدارس التي اتخذها وسيلة لنشر تعاليم مذهبه وترسيخها. فهو سعى لدى الشجون للحصول على تمويل لإقامة معهد في

---

(١٤) يتبنّى الباحث هرمان أومس رأياً بشأن تاريخ تبنّي شجونة توكوغاوا الكونفوشيوسية الجديدة؛ فهو يرى أن التبنّي الرسمي لم يحدث إلا في أواسط القرن السابع عشر وليس في مطلع القرن السابع عشر، كما هو شائع لدى جُل الدارسين. انظر: Herman Ooms, «Neo-Confucianism and the Formation of Early Tokugawa Ideology: Contours of a Problem,» in: Peter Nosco, eds., *Confucianism and Tokugawa Culture* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984), pp. 27-61.

كيوطو لتدريس الكونفوشيوسية، وهو المعهد الذي ظل يعمل طوال عصر **توكوغاوا** تحت إشراف أبنائه وأحفاده. كما اشتغل رزان بالكتابة والنشر، فإضافة إلى نشره عدداً من نصوص الكونفوشيوسية، تميز بكتاباته الخاصة، التي كان من بينها الشروع في كتابة تاريخ عام لليابان، نُشر بعد وفاته[١٥]. وعلى أي حال، لنا عودة إلى هذه الشخصية المتميزة في الفصول التالية، خاصة في فصلي مؤسسة الشجون والتعليم.

يرى الباحث الياباني **ماساوو مارويـاما** أن هناك عاملين يفسران نجاح الكونفوشيوسية الجديدة في عصر **توكوغاوا**، وإقبال سلطاتها عليها واتخاذها أيديولوجيا لنظامها السياسي. **العامل الأول** هو التماثل بين البنية السياسية لكل من اليابان في القرن السادس عشر وبنية الصين «الفيودالية»[١٦] التي ترعرعت فيها الكونفوشيوسية؛ ذلك أن المجتمع الياباني خرج من الحرب الأهلية ببنية تتميز بتراتب الفئات الاجتماعية، خاصة بعد قرار **هيدي ـ يوشي** القاضي بجمع الأسلحة ووضع حدود صارمة بين الفئات، فأصبح الساموري في إثره فئة منغلقة تحتل الصدارة ويتعذر الولوج إليها. وهو الوضع ذاته الذي ساد في عصر دولة **تشو** الصينية التي عاش في ظلها **كونفوشيوس**، حيث كانت هناك تراتبية فيودالية مماثلة. ولهذا السبب، حسب **ماروياما**، «كان من الملائم استغلال المبادئ الأخلاقية للكونفوشيوسية كأساس لنظام العلاقات الاجتماعية لـ **توكوغاوا**»[١٧]. كما أن انتهاء الحروب، التي هي سبب وجود فئة الساموراي وبقائهم، جعل من الضروري البحث عن أيديولوجيا أو مبادئ تبرر صدارة هذه الفئة وسلطتها. وعلى الرغم من وجود فروق بين المقصود بالفئات في الصين، كما نصت عليها التعاليم الكونفوشيوسية حيث كانت الصدارة لفئة شيه (النبلاء ورجال المعرفة)، فإن اليابانيين حاولوا تعويض هذه الفئة بفئة الساموراي، أو الاستعاضة عن القلم بالسيف كوسيلة للصدارة والوجاهة. وهكذا كتب أحد مفكري القرن الثامن عشر

---

(١٥) شرع هياشي رزان في العام ١٦٤٤ في تأليف كتاب عام عن تاريخ اليابان، غير أنه توفي قبل الانتهاء منه، وقد قام ابنه هياشي غاشو (Hayashi Gasho) (١٦١٨ ـ ١٦٨٠) بإتمامه ونشره عام ١٦٧٠، تحت عنوان: **هونتشو تسوغان** (أو ما يمكن ترجمته بـ «**المرآة الشاملة لدولة أمتنا**»). في هذا الشأن وحول حياة هياشي **رزان** انظر، على سبيل المثال، James McMullen, «Hayashi Razan,» *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 117, and Dore, *Education in Tokugawa Japan*, p. 14-15.

(١٦) الفيودالية هنا تتعلق أساساً بالنظام السياسي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

(١٧) Masao Maruyama, *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*, translated by Mikiso Hane (Tokyo: University of Tokyo Press, 1989), pp. 8-9.

من أتباع مذهب **تشو ـ هسي** (وهو **أمينوموري هوشو** Amenomori Hoshu ١٦٦٨ ـ ١٧٥٥)، مدافعاً عن وضع الساموراي في المجتمع الياباني، باستغلاله الحجج ذاتها التي كانت تبرر صدارة شيه (رجال المعرفة في الصين):

هناك أربع طبقات من الناس: الساموراي، الفلاحون، الصناع، والتجار. الساموراي يستعملون عقولهم، والفلاحون ومن هم دونهم يستعملون عضلاتهم. وأولئك الذين يستعملون عقولهم هم في مرتبة عليا؛ وأولئك الذين يستعملون عضلاتهم هم في مرتبة دنيا. وأولئك الذين يستعملون عقولهم لهم رؤية واسعة ومثل عليا وحكمة عميقة. أما الفلاحون ومن هم في مكانة أقل فيعملون من أجل البقاء. وإن انقلبت هذه الأوضاع، سينجم في أحسن الأحوال عدم الرضا في الأرض، وفي أسوئها الفوضى التامة Chaos[١٨].

والكاتب هنا يعيد صوغ قولة شهيرة لمينشيوس: «هناك أناس يعملون بعقولهم، وهناك آخرون يعملون بقوتهم. وأولئك الذين يعملون بعقولهم يحكمون الآخرين. وأولئك الذين يحكمون من قبل الآخرين عليهم أن يدعموا من [أو ينفقوا على من] يحكمهم. . . وهذا مبدأ كوني»[١٩]. وعموماً استُغلت الكونفوشيوسية لتسويغ هيمنة الساموراي، بعد أن قلّت الحاجة إلى مهاراتهم العسكرية في حال السلم الذي عم اليابان في عصر توكوغاوا.

يتمثل **العامل الثاني**، في رأي **ماروياما**، في التجديد الذي عرفه الفكر الكونفوشيوسي في الصين، وأثّر في تعامل اليابانيين معه. ذلك أن دعوة الكونفوشيوسية الجديدة إلى التأمل والبحث لإدراك المبادئ الكونية جعلتها في مستوى لا يقل عن البوذية. وقد ساهم هذا التحول في نظرة اليابانيين إلى الكونفوشيوسية، فبعد أن كانت مجرد تعاليم تدرس من أجل التهذيب والمتعة الفكرية في دوائر خاصة ـ كما هو شأن أديرة الزن والدائرة المحيطة بالإمبراطور ـ تحولت إلى تيار يهيمن على الحياة الفكرية ومادة أساسية في التعليم. ومن ثم لم تعد مقصورة على فئة الخاصة من الدارسين، لكنها أصبحت في متناول عدد أكبر من الناس ممن أتيح لهم ولوج المعاهد، التي أنشئت في هذا العصر وكانت تعتمد النصوص الكونفوشيوسية في مناهجها.

---

(١٨) ورد هذا النص مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: المصدر نفسه، ص ٩.

(١٩) Mikiso Hane, *Premodern Japan: A Historical Survey* (San Francisco: Westview Press, 1991), p. 159.

ثانياً: نظام سانكين كوطاي

أفرزت الحرب الأهلية التي دامت أكثر من مئة سنة عدداً من الممارسات لدى دايميو الدويلات المتحاربة، ومنها تلك التي كانت تُستغل لتعزيز الأحلاف التي تقوم بينهم، وضمان ولاء أتباعهم. وقد كانت المصاهرة وتبادل النساء وسيلة فعالة لضمان استمرار الحلف عند عقده، فالأمثلة متعددة في النصف الثاني من القرن السادس عشر. كما كان الاحتفاظ بالرهائن وسيلة أخرى لضمان ولاء الأتباع، فـ **أودا نوبوناغا** مثلاً أمضى طفولته رهينة لدى أُسرة إيماغاوا التي كانت أُسرته في حالة تبعية لها. وحين تمكّن **هيدي ـ يوشي** من إخضاع معظم الدايميو، فرض على البعض منهم ترك رهائن لديه وألزمهم بالإقامة إلى جانبه ردحاً من الزمن حتى يضمن ولاءهم. وبعد أن اتخذ **توكوغاوا إياسو** من **إيدو** عاصمة له، كان الدايميو يحضرون إليها طواعية لأداء الولاء للشجون إلى أن تكرست هذه الممارسة واتّخذت طابعاً مؤسساتياً عام ١٦٣٥ في عهد الشجون الثالث **إييميتسو**، وهو من وضع أسس نظام **سانكين كوطاي** الذي فرض على كل الدايميو مناوبة إقامتهم بقضاء سنة في العاصمة وأخرى في هانهم، وترك نسائهم وأبنائهم في إقامة شبه دائمة في العاصمة (سانكين تعني لغوياً «إثبات الحضور لأداء الواجب في حق السيد»)[٢٠]. والواقع أن حضور الأتباع دورياً إلى مقر الشجون أو مقر سادتهم، للتعبير عن ولائهم وتقديم الهدايا، ممارسة تساوقت مع تطور النسق الفيودالي الياباني. ففي عصر **أشيكاغا** كان البعض من دايميو الدويلات المتحاربة يحتفظون بإقامات لهم في العاصمة بالقرب من الشجون. كما أن المبدأ في حد ذاته لم يكن ابتكاراً يابانياً، بل مارسته الإمبراطورية الصينية في أواخر أُسرة **زهو** (Zhou أو تشو) في القرن الثاني قبل الميلاد، حيث كان الأمراء الفيوداليون يقومون بزيارات دورية إلى مقر الإمبراطور لأداء الولاء[٢١].

كانت الغاية الأولى من نظام **سانكين كوطاي** هي التأكد بصورة مباشرة

---

(٢٠) صدر المرسوم الخاص بسانكين كوطاي عام ١٦٣٥ وجاء بمثابة تتميم للمرسوم الخاص بالساموراي والدايميو الصادر عام ١٦١٥، ثم أصبح أمراً إلزامياً ابتداءً من عام ١٦٤٢. وممّا ورد في تصدير المرسوم أنه تقرر أن يقوم الدايميو بالسفر إلى هنا (إيدو). انظر نص المرسوم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في:
David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, p. 208.

(٢١) Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 128.

وعلانية من ولاء الدايميو عبر استقبال رسمي يخصصه الشجون لكبارهم. ذلك أن حفل تقديم الولاء كان يتم فردياً في قاعة عرش الشجون، حيث يحضر كل دايميو عند استدعائه مصحوباً بهداياه، ويقوم بطقس الولاء بالركوع أمام الشجون، والزحف مسافة على اليدين والرجلين في وضع مهين. ولعل الأهم من تقديم الولاء هو بقاء الدايميو مدة سنة بالقرب من الشجون وتحت مراقبته؛ إذ كان وجودهم في العاصمة مناسبة لتبليغهم بمراسيم الشجون وتذكيرهم بواجباتهم في حق السلطة المركزية، وأيضاً لمعرفة ما يجري في هاناتهم. ومنذ أن جرى إقرار هذا النظام، أضحى حضور الدايميو في الوقت المحدد لهم أمراً إجبارياً لا يشفع في التخلف عنه سوى العذر القاهر، وتكون العقوبة صارمة في حال الإخلال به. كما وضعت مراقبة صارمة على الطرق الرئيسية لمنع مغادرة نساء الشجون وأبنائه إيدو دون إذن مكتوب. وبما أن تنقّل الدايميو كان يتم في فترة معيّنة من السنة (فصل الصيف)، فإن الشجون حرصوا على تنظيم تنقّلهم بوضع جدول زمني وتعيين وقت محدد لكل منهم، وتحديد عدد الأتباع الذين يرافقونهم. وقد كانت «حركة» الدايميو مشهداً مألوفاً ومحط فرجة على الطرق الرئيسية المؤدية إلى **إيدو**؛ فمثلا، أفاض الطبيب الألماني **كايمبفر** في وصف مواكب الدايميو التي شاهدها عام ١٦٩١ فانبهر بأعدادها وألوانها الزاهية. ذلك أن موكب كبار الدايميو كان يضم أعداداً تفوق الـ ٢٠٠٠ من الأتباع: حَملة الأعلام والفرسان والخدم وحاملو الأمتعة والطباخون والكتّاب والمساعدون والحراس الخاصون وحاملو المظلات... إضافة إلى محفة الدايميو وما يحيط بها من مظاهر الأبهة[٢٢].

كان الهدف هو وضع نظام **سانكين كوطاي** سياسياً في المقام الأول، غير أنه حقق نتائج لم يتوقعها واضعوه. ولعل أهمها انعكاسها الإيجابي على عمران العاصمة **إيدو**، حيث كان لكل دايميو أكثر من ثلاث إقامات دائمة له ولنسائه وأتباعه. وفي فترة زمنية وجيزة تحولت **إيدو** من قلعة صغيرة إلى أكبر مدن العالم في نهاية القرن السابع عشر، وأضحت بوتقة تنصهر فيها مختلف ثقافات اليابان. ذلك أن الأعداد الكبيرة التي كانت ترافق الدايميو إلى العاصمة عملت بطريق مباشر وغير مباشر على نشر ثقافاتها وفنونها ونمط عيشها ولهجاتها، وكانت في

(٢٢) Engelbert Kaempfer, ed., *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*, translated by Beatrice M. Bodart-Bailey (Honolulu: University of Hawaii Press, 1999), pp. 272-273.

الوقت ذاته تعود إلى مواطنها الأصلية محمّلة بما اكتسبته من ثقافة العاصمة(٢٣). وبعد مرور جيلين على إقرار نظام **سانكين كوطاي**، كان جُل الدايميو قد ولدوا وتربوا في العاصمة، وكذلك كان معظم مثقفي الأقاليم قد تعلموا في معاهد العاصمة، أو أمضوا فيها مدة في مناظرة أساتذتها. وكذلك كان انعكاس هذا النظام إيجابياً على الطرق المؤدية إلى العاصمة، التي أولتها السلطات المركزية عناية خاصة لتسهيل عملية تحرك الدايميو. والواقع أن مدينة إيدو مثّلت بسبب هذا النظام تجربة فريدة في تاريخ العالم، بما وفرته من مناخ سمح بتطور ثقافة قومية كانت من تلاحم الشعب الياباني.

ومن الانعكاسات الأخرى لهذا النظام، تأثيره الاقتصادي الذي تمثل في فتح باب للإنفاق والإسراع بتعميم استعمال النقود. وشكل في الوقت نفسه عبئاً ثقيلاً على ميزانيات الدايميو التي كانت تستنزفها نفقات التنقل الدائم التي كانت تستهلك أكثر من نصف مداخيل الدايميو، وهو ما كان في مصلحة الحكم المركزي، حيث لم يعد في إمكان الدايميو توفير ما يكفي من المال للتفكير في الثورة أو التمرد على سلطة الشجون.

(٢٣) في ما يخصّ تأثير نظام سانكين كوطاي في الثقافة اليابانية في عصر توكوغاوا، انظر: Vaporis Constantine, «To Edo and Back: Alternate Attendance and Japanese Culture in Early Modern Period,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 23, no. 1 (Winter 1997).

الفصل الثاني

المعتقدات والنسق الاجتماعي

تميز عصر **توكوغاوا** باستقرار اجتماعي غير مسبوق في تاريخ اليابان؛ استقرار كان بمثابة حجر الزاوية في بناء الاستقرار السياسي الذي دام زهاء قرنين ونصف قرن. وكما بيّنا في الفصل السابق، كان هذا الاستقرار ناتجاً من إنهاء الحرب الأهلية، والإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي**، وكذا تطبيق تعاليم الكونفوشيوسية في عصر **توكوغاوا** لضبط العلاقات الاجتماعية والأُسرية. فعلى أساس ذلك جرى ترتيب المجتمع الياباني ضمن أربع فئات اعتُبرت فيها المكانة الاجتماعية (Status)، وهي: شي ـ نو ـ كو ـ شو (shi - nō - kō - shō)؛ أي الساموراي ثم الفلاحون ثم الصناع ثم التجار، إضافة إلى فئتين ذواتي وضع خاص: الأُسرة الإمبراطورية اعتباراً لأصلها المقدس، وفئة المنبوذين لاعتبارات كثيرة أهمها الاعتبار الديني. وقد عملت شجونة **توكوغاوا** على تكريس هذا التراتب عبر إصدارها عدداً من المراسيم التنظيمية التي تلتزم جميع الفئات باحترامها. ومن المفيد التنبيه إلى عدم الخلط بين هذا التراتب القائم على المكانة الاجتماعية ونظام الطبقات، وإلى تجنب استعمال مفهومي الطبقة والصراع الطبقي في تحليل المجتمع الياباني خلال هذه الفترة. ذلك أن هناك اختلافات جوهرية داخل كل فئة لا تدعم بأي حال القول بوجود تجانس أو تعاضد بين مكونات كل فئة قد يؤدي إلى صراع طبقي مع الفئات الأخرى. والصراع الذي حدث في آخر عصر **توكوغاوا** كان داخل الفئة الواحدة: كان داخل فئة الساموراي وليس بين الساموراي والفلاحين.

لا يمكن الحديث عن التنظيم الاجتماعي دون الحديث عن مكونه الأساسي، ألا وهو الأُسرة. لذا ارتأينا أن نصدر هذا الفصل بالتنظيم الأُسري في عصر توكوغاوا، الذي كان هو أيضاً محكوماً بتراتب صارم قائم على التعاليم ذاتها المشار إليها. وقد حاولنا رؤية الأُسرة اليابانية في بعديها الديني والتاريخي وعدم

الاقتصار على عصر **توكوغاوا**، وأيضاً تضمين ملاحظات حول وضعها في الوقت الراهن، حيث ما يزال بعض الممارسات الموروثة عن عصر **توكوغاوا** قائماً.

أولاً: الأُسرة والمعتقد الديني

لم يعرف المجتمع الياباني في القديم نظاماً قبلياً كما عرفته مجتمعات أخرى؛ فإلى بداية عصر نارا (٧١٠ ـ ٧٩٤)، أي قبل الأخذ بنظام الحكم الصيني، كانت الشريحة العليا من المجتمع الياباني منظمة في إطار قريب من نظام العشائر، أساسه الـ «أوجي» ـ التي تُترجَم إلى اللغات الأوروبية عادة بـ «Clan»، وهي عبارة عن مجموعة من الأُسر ـ أو أُسرة كبيرة ممتدة ـ ترتبط بصلة القرابة الدموية مع ما ينضم إليها من الأُسر التي تعمل في خدمتها. وكان المنضوون تحت الـ «أوجي» يشتركون في الرقعة الأرضية التي يعيشون عليها ـ أي في قاعدة اقتصادية ـ وفي عبادة الـ «كامي» الخاصة بهم (أوجي ـ غامي Ujigami أو كامي العشيرة) التي يعتقدون أنها الـ «كامي» التي يتحدرون منها أو تلك التي ترعاهم وتحميهم، ومن ثم كانوا يلتئمون في موسم سنوي لتقديم الشكر لها ـ غالباً بعد موسم الحصاد ـ وأحياناً يقيمون لها معبداً لا يحق لغير أسرهم التعبد فيه[١]. وفي حال توسع الـ «أوجي»، فإن الفروع المستحدثة تبقى وفية في عبادتها لـ «أوجي غامي» الأصلية. وما زال سكان القرى اليابانية إلى اليوم يقيمون خلال الصيف مواسم دينية للـ «كامي» المتعلقين بها. وكما سبق القول في تأسيس الدولة اليابانية، فإن الأُسرة الإمبراطورية ذاتها كانت قبل تبوّئها السلطة واحدة من هذه الـ «أوجي» (أوجي ياماتو)، وكانت لها معابد خاصة بالـ «كامي» المرتبطة بها، والتي اتخذت لاحقاً بعداً قومياً ـ كمعبد **إيسي** ـ بعد تبنّي الصيغة الرسمية لديانة الشنتو أو عبادة الـ «كامي». كما أن الشكل الأول التي ظهرت عليه الدولة في اليابان كان بمثابة صيغة اتحادية لهذه العشائر تتزعمها واحدة منها. كما أن التنظيمات الأولى للأُسر المحاربة، التي ستُعرف في ما بعد بالساموراي، كانت منظمة في إطار الـ «أوجي» ذاته. وما يهمنا هنا هو الجانب الديني في هذا التنظيم، ذلك أن تقديس «أوجي ـ غامي» مثّل جانباً من عبادة الأسلاف في ديانة الشنتو، ومن ثم

(١) Matsumae Takeshi, «Early Kami Worship,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 1, pp. 334-335, and Stanley Weinstein, «Ujigami,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 8, p. 131.

كانت الـ «أوجي» تقوم أيضاً بدور ديني أساسي في حياة المجموعة واستمرارها.

بدأ تنظيم الـ «أوجي» يتراجع تدريجياً في التنظيم الاجتماعي الياباني بعد الأخذ بأسباب الحضارة الصينية والعمل بمنظومة **ريتسوريو**، ثم اختفى تقريباً في نهاية عصر **هييان**(٢). غير أن تقديس الأسلاف لم يختف، بل ظل معتقداً شعبياً يمارس حتى الوقت الراهن في إطار ديانة الشنتو والصيغة التي اتخذتها البوذية في اليابان(٣). ذلك أن المعتقدات الدينية، سواء الأصلية أو الوافدة على الأرخبيل، لم يحو أيٌّ منها مفهوماً يتضمن الجنة والنار التي تؤول الأرواح إلى أحدهما بعد الموت. وفي المقابل، كان اليابانيون، وما زالوا، يعتقدون ـ سواء في إطار الشنتو أو البوذية ـ أن الأرواح تسكن في عالم سفلي، وأنها قد تؤثر في الأحياء ممن يمتون لها بصلة القرابة. لذا فإن من واجبات أفراد الأُسرة الأحياء العناية بأرواح موتاهم واسترضاءها. وعلى أساس هذا الاعتقاد، يحتفل اليابانيون حتى اليوم بأرواح موتاهم في عيد رأس السنة اليابانية (شوغاتسو Shogatsu) وفي مناسبة دينية تُعرف بـ **أوبون** (O-Bon) ويقع موعدها في الفترة الراهنة بين ١٣ و١٦ حزيران/يونيو من كل سنة. ففي هذا الموعد السنوي، الذي يعتقد أن الأرواح تعود فيه، تستعد كل أُسرة عدة أيام لاستقبال أرواح موتاها، حيث تقيم لها في ركن من المنزل محراباً صغيراً (Altar) أو (Autel) يُعرف بـ «بون دانا» (Bon dana) لتقديم القرابين لها عند مقدمها. ومن بين ما يقدم لها طبق من الأكل أو الشراب الذي كان الشخص يؤثره أو يشتهيه في الحياة الدنيا (مفردة «بون» تعني في اللغة اليابانية طبقاً من الطعام). كما يجري إشعال نار في باب المنزل للترحيب بالأرواح العائدة. ورغم أن هذا الاحتفاء يرتبط بالمعتقدات الشعبية ذات الصلة بالشنتو، فهو يمارَس أيضاً في إطار المعتقدات البوذية، حيث يستدعى راهب بوذي إلى المنزل لتلاوة الـ «سوتوا» لتهدئة الأرواح العائدة. مع التشديد على أن هذه المناسبة تحتل مكانة خاصة عند اليابانيين في الوقت الراهن،

---

(٢) في ما يخص التطورات التي عرفها التنظيم العشائري في اليابان منذ عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية عصر هييان، انظر: Kazo Yamamura, «Le Society as a Pattern of Civilization: Introduction,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 10, no. 2 (Summer 1984), pp. 292-295.

(٣) يقول أحد الباحثين اليابانيين عن علاقة اليابانيين بأرواح أسلافهم: «إن اليابانيين يصلّون في المعابد، ويؤمنون بقوى خفيّة خارقة متمثلة في الآلهة المتعددة وفي بوذا وفي أرواح الأجداد والأسلاف. وفي التقاليد البوذية، تحوم الأرواح بعد موت أصحابها ثم تستقر في عالم الأرواح لتتحول كل منها إلى بوذا. أما التقاليد «الشنتوية»، فتقول بتحول الأرواح بعد موت أصحابها إلى آلهة. وبمعنى آخر... يصبح من الواجب على اليابانيين الصلاة لها وإلا تعرض الإنسان لسوء العاقبة». انظر: كازوأو أسومي، «الديانة اليابانية،» في: مجموعة من الكتاب اليابانيين، **خفايا المعجزة اليابانية**، ترجمة وتحقيق عبد الله مكي القروص (بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ١٩٩٩)، ص ٣٢.

حيث يحرص الفرد منهم أشد الحرص ـ مهما تكن انشغالاته ـ على العودة في هذه المناسبة إلى المكان الذي تقطن فيه أرواح أسلافه لاستقبالها[٤].

نخلص من هذه المقدمة إلى أن الأُسرة كانت تحتل مكاناً هاماً في المجتمع الياباني اعتباراً لهذا البعد الديني المرتبط بعبادة الأسلاف. وفي عصر **توكوغاوا**، كانت العلاقة الأُسرية منظمة في إطار وحدة أولية تُعرف بـ «إيي» (Ie)، وهي وحدة كانت تشكل أساس التنظيم المجتمعي. وككل المصطلحات اليابانية، يصعب إيجاد ترجمة تفي بالمقصود بـ «إيي»، فمن المفردات المستعملة مثلاً في اللغة الإنكليزية كترجمة لها: House و Household و Family، وهي في مجملها من باب تقريب المعنى للقارئ الغربي فحسب. أما إذا تقصينا الأصل الإيتيمولوجي لـ «إيي»، فسنجده يحمل معنى «الموقد»[٥]. وهو معنى قريب من لفظ «كانون» في اللغة العربية، سواء في الأصل اللغوي أو الاستعمال الاصطلاحي في بعض المجتمعات العربية[٦]. وهو المقصود تقريباً بـ «إيي» في المجتمع الياباني: أي مجموعة الأفراد الذين يستقرون في منزل واحد ويشتركون في مصدر اقتصادي واحد، ويكونون مسؤولين، كوحدة، عن أداء الجباية في ما يخص فئة الفلاحين.

لا يعرف بالضبط متى أصبحت «إيي» وحدة أساسية في تنظيم المجتمع الياباني؛ فحسب الدراسة التي قام بها الباحث الياباني **كازو ياmamورا**، عمّا اصطُلح على تسميته «مجتمع إيي»، كان ظهورها في أواخر عصر **هييان** (القرن الحادي عشر) في سهل **كانتو**، حيث تساوق مع تنظيمات الساموراي في ذلك السهل، وقد عرفت مراحل من التطور قبل أن تأخذ شكلها النهائي في عصر **موروماتشي**. وفي رأي الباحث نفسه، كان تنظيم «إيي» الأساس الذي قامت عليه سلطة الباكوفو وعلاقة الشجون بأتباعه الساموراي[٧]. وما هو في حكم الأكيد

(٤) مراسلة خاصة من ماساكي هيريوتشي (Masaki Horiuchi)، الباحث الأنثربولوجي الذي يعمل حالياً أستاذاً في جامعة سيكيئي (Seikei) في مدينة طوكيو. أمّا في ما يخص أهمية الأُسرة في المجتمع الياباني، وبخاصة بعدها الديني، انظر: Lafcadio Hearn, *Japan: An Attempt at Interpretation* (Tokyo: Tuttle, 2001), pp. 47-67, and Hajime Nakamura, *Ways of Thinking of Eastern Peoples: India, China, Tibet, Japan*, edited by Philip P. Wiener (Honolulu: East-West Center Press, 1964), pp. 417-426.

(٥) Nakane Chie, «Ie,» *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 259.

(٦) في المغرب مثلاً، يعني الكانون مجازاً الأفراد الذين يعيشون تحت سقف واحد ويشعلون ناراً واحدة لتهييئ طعامهم. وكان يستعمل في الإدارة المخزنية كوحدة في الترتيبات الخاصة بالكلف وغيرها من الواجبات التي تفرض على القبائل. وهو ذات المعنى الذي تحمله لفظة (Foyer) في اللغة الفرنسية (Lieu où l'on fait du feu).

(٧) Yamamura, «Le Society as a Pattern of Civilization: Introduction,» pp. 297-301.

أنها أضحت ذات أهمية كبرى في مجتمع **توكوغاوا** بسبب التنظيمات الإجرائية التي اتخذها **هيدي ــ يوشي** في أواخر القرن السادس عشر والشجون الأوائل في مطلع القرن السابع عشر، والتي جرى بموجبها تعميم تنظيم «إيي» على جميع مكونات المجتمع الياباني، ولم تعد مقتصرة على فئة الساموراي. ونتيجة لذلك، أصبحت «إيي» مسؤولة عن أداء الواجبات الجبائية وغيرها، سواء في البوادي أو التجمعات الحضرية. وهكذا انتظمت مكونات المجتمع الياباني (من ساموراي وفلاحين وصنّاع وتجار) خلال هذا العصر في إطار هذه الوحدة. وتتشكل «إيي» مبدئياً، خلال كل جيل، من الأب والزوجة والأبناء ومن يلحق بهم من الأفراد للعمل في خدمة الأُسرة، غير أنها تميزت بخصوصيات وتلوينات جعلتها تختلف عمّا هو مألوف في تنظيمات مشابهة في جهات أخرى، نلخصها في ما يلي:

● كان المبدأ الأساسي في «إيي» هو التجانس بين أفرادها. والقصد بالتجانس أن يكون للأفراد الذين ينضوون تحتها الانتماء الفئوي نفسه، ويعملون في المجال الوظيفي نفسه (المهارات الحربية بالنسبة إلى «إيي» الساموراي، والزراعة بالنسبة إلى فئة الفلاحين. . .)

● كانت «إيي» في الأساس أُسرة أبوية (أبوسية)، الرئاسة فيها للأب؛ فهو رب الأُسرة، والمتحكم في كل قراراتها، سواء المتعلقة بحياة أفرادها الخاصة أو المرتبطة بنشاطها الاقتصادي وعلاقتها بالآخرين، وإليه ينتسب الأبناء (وباقي أعضاء «إيي»). وفي حال تقدم الأب في السن أو عجزه، تنتقل الرئاسة إلى الابن الأكبر. كما كانت العلاقة داخلها محكومة بمبدأ تراتب صارم: الأب ثم الابن البكر ثم الذي يليه من حيث السن، ثم البنت الكبرى والتي تليها. . . وهكذا دواليك. لذا كان الابن الأصغر يُعرف، من باب الدعابة، بـ «آكل الأرز البارد» لأن عليه الانتظار على مائدة الطعام إلى أن يأخذ من هم أكبر منه سناً نصيبهم قبل أن يحين دوره، وآنذاك يكون الأرز قد برد. وبحسب تعاليم الكونفوشيوسية، فإن طاعة الأب واجبة على الأبناء والزوجة، وكذلك طاعة الإخوة الصغار لمن هم أكبر منهم سناً.

● لم تكن «إيي» وحدة ترتبط بصلة القرابة الدموية فحسب، أو تقام على أساس هذه القرابة وحدها، بل كانت وحدة اقتصادية أيضاً، وربما اعتبرت الرابطة الاقتصادية أهم من لحمة القرابة الدموية في استمرارها. فاستمرار «إيي» كان يقدَّم على القرابة الدموية. وعلى هذا الأساس، تقول باحثة علم الاجتماع اليابانية **تشي ناكاني**: «ربما من المستحسن تصنيفها في باب المقاولة أكثر من تصنيفها في باب

العائلة»[٨]. ذلك أن أساس اجتماع أفراد «إيي» هو المصدر الاقتصادي الذي ترتزق منه. فأُسر الفلاحين تجتمع حول قطعة الأرض المخصصة لكل منها، وأُسر الساموراي تجتمع حول المعاش الذي يخصص لأرباب أسرها، وتجتمع أسر الصنّاع والتجار حول المقاولة التي تديرها. ومن هذا المنطلق أيضاً يعرّف الباحث **هرشيل ويب** الأُسرة اليابانية في عصر **توكوغاوا** بأنها «ليست وحدة (Unit) بيولوجية أو وحدة سكنية تخدم الأهداف الاجتماعية المعتادة فحسب، بل هي كيان (Entity) متحد [أو متعاون] مسؤول عن الحفاظ على ملكياته المادية والمعنوية إلى الأبد»[٩]. وهذا ما يبدو واضحاً في الحرص على بقاء «إيي» واستمرارها.

● كان هناك حرص شديد على استمرار «إيي» بعد إنشائها، وذلك للسببين الاقتصادي والديني اللذين سبق شرحهما. وقد نجم عن هذا الحرص عدم تقسيم الإرث بين الأبناء، وشيوع التبنّي. فمبدئياً، كانت ملكية «إيي»، أو كان مصدرها الاقتصادي (قطعة الأرض بالنسبة إلى الفلاحين والمعاش، والوظيفة بالنسبة إلى الساموراي. . .) يؤول بكامله إلى الابن الأكبر عند هلاك الأب. وفي ما عدا استثناءات قليلة، يكون الإرث للابن البكر وحده، الذي قد يتسلم الملكية فيما الأب ما يزال على قيد الحياة إن كبر هذا الأخير أو أصابه العجز، شريطة أن يقوم برعاية والديه إلى حين مماتهما[١٠]. والمفروض أن يغادر الأبناء الآخرون المنزل بمجرد زواجهم، ليؤسسوا «إيي» خاصة بهم (يزودون بنصيب من الملكية إن كانت الأُسرة ميسورة) أو ليلحقوا بالأُسر التي تتبناهم. وإن سُمح لهم بالبقاء، فيكون الأمر مؤقتاً ولفترة محدودة[١١]. وفي حال عدم إنجاب رب الأُسرة ذكراً من صلبه، يعمل، وهو على قيد الحياة، على تبنّي زوج ابنته الكبرى، أو «موكو يوشي» (Muko Yoshi)، الذي يتمتع بجميع الاعتبارات التي تكون للابن البيولوجي، ويُمنح امتيازات الابن البكر كافة. وللتذكير، فإن البنت الكبرى (والبنات عموماً) غير مؤهلة سواء للإرث أو للقيام بالواجب الديني لـ

---

(٨) Chie Nakane, «Tokugawa Society,» in: Chie Nakane [et al.] eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 217.

(٩) Herschel Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period* (New York: Columbia University, 1968), p. 12.

(١٠) بدأ العمل بعدم تقسيم الأرض بين الأبناء منذ أواسط القرن السادس عشر في بعض إقطاعيات دايميو الدويلات المتحاربة. ثم صدر في عصر توكوغاوا مرسوم بهذا الشأن عام ١٦٧٣، حيث اعتبر أن ما يعادل هكتاراً من الأرض هو أقل مساحة يمكن أن تكفي لعيش أُسرة. انظر: Furishima Toshio, «The Village and Agriculture during the Edo Period,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, pp. 484-485.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

«إيي» واستمرارها، فإقامتها في أُسرة والدها هي إقامة مؤقتة إلى حين انتقالها إلى بيت زوجها. وفي الحال الذي يكون فيه زوجها متبنَّياً من قبل أُسرتها، فإن هذا الأخير ـ وليست هي ـ هو الذي يصبح رب الأُسرة والمتملك لمالها والحامل لاسمها ـ إن كانت من أُسر الساموراي ـ والعامل على استمرارها. وإن جرى طلاقها، يطرد زوجها/الابن بالتبنّي ويحتفظ بأبنائه ليعهد إليهم باستمرار «إيي». أما في حال عدم الإنجاب تماماً، يلجأ رب «إيي» آنذاك إلى تبنّي طفل أو حتى فرد بالغ ليلحقه به ويمنحه صفة الابن الذي يقوم بواجبات الأُسرة. وعادة ما يجري اختيار قريب، كابن الأخ أو ابن الأخت، لهذا الأمر(١٢). كما كان يقع تبنّي بعض الأفراد الذكور ليلحقوا بـ «إيي» في وضع قريب من وضع الخدم. وعموماً كان التبنّي شائعاً في عصر **توكوغاوا**، حيث يشير بعض التقديرات إلى أن نسبة ٢٢ بالمئة من أبناء الساموراي كانوا أبناء بالتبنّي(١٣). كما تؤكد نتائج الإحصاءات في الوقت الراهن أن ثلث الأُسر في البوادي اليابانية يرأسها ابن بالتبنّي(١٤). واعتباراً لطبيعة العلاقة القائمة بين أفراد «إيي»، وهي علاقة لا تُعتبر فيها القرابة الدموية في المقام الأول، فقد اصطلح الباحث كازو **ياماموروا** على تسميتها القرابة التعاقدية (Kincontract)(١٥).

استمرت «إيي» كوحدة أساسية في المجتمع الياباني طوال عصر **توكوغاوا**، ولفترة بعد إصلاحات الميجي، ولم تتراجع أهميتها إلا بعد أن انتشر العمل المأجور والهجرة المكثفة إلى المدن في القرن العشرين وجعلا الفرد يستغني عن مورد أبويه الاقتصادي كي يقيم أُسرته الخاصة. وعلى الرغم من هذا التراجع، فإن قيم التلاحم والتعاون والولاء لرب الأُسرة، التي سادت في هذا التنظيم الأُسري، ما تزال ملحوظة اليوم في المجتمع الياباني، وخاصة في الشركات والمقاولات. ذلك أن جُل الشركات اليابانية تضمن العمل المستديم لمستخدميها في إطار «نظام التشغيل مدى الحياة» (The life-time employment system)، وهو ما يُنشئ صيغة من العلاقة المستمرة بين الشركة ومستخدميها تقوم على مبادئ الكونفوشيوسية ذاتها التي طبعت

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

(١٣) تجدر الإشارة إلى أن التبنّي ممارسة قديمة في تاريخ اليابان، وما يزال معمولاً به إلى اليوم. وقد تعدّدت أغراضه، من بينها ضمان استمرارية «إيي»، كما أشرنا في النص، وتعزيز التحالف والتعاضد بين أُسر الساموراي، وضمّ أفراد للعمل في مقاولة الأُسرة، وأحياناً كوسيلة لتوفير ملجأ للأيتام، إلى غير ذلك. انظر: Jane Bachnik, «Adoption,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, pp. 14-15.

(١٤) Chie Nakane, «Tokugawa Society,» p. 218.

(١٥) Kincontract هي تركيب مزجي بين «القرابة» (Kinship) و«العقد» (Contract).

العلاقة الأُسرية في عصر **توكوغاوا**، وكذا علاقة الأتباع بالسادة. فالعمال والموظفون يعتبرون الشركات التي يلحقون للعمل فيها بمثابة أُسرهم، في حين يعمل رب الشركة على رعاية عماله وموظفيه كما لو كانوا أبناءه بالتبنّي أو أتباعه. ونتيجة لذلك تسود ـ في أغلب الأحوال ـ روح الوئام والتعاون بين أرباب العمل والمستخدمين في الشركات اليابانية، أي على نقيض التوتر والصراع اللذين يسودان مثيلاتها في أمريكا وأوروبا. ومن ذلك، وممّا قد يبدو غريباً في الثقافة الغربية، شيوع «روح محبة الشركة» (Spirit of love for company) بين العمال والمستخدمين في اليابان(١٦).

ثانياً: المرأة

لم يكن وضع المرأة في اليابان، قبل الفترة الراهنة، أسوأ ممّا كان عليه في مجتمعات الشرق الأقصى وغيرها من المجتمعات في معظم جهات العالم. وربما كان وضعها أفضل ممّا هو عليه في ثقافات أخرى، حيث كان، وما يزال، يُفرض على المرأة الحجاب وعدم الاختلاط بالجنس الآخر، كما في المجتمعات الإسلامية، أو ختان البنات، كما في مصر والسودان، أو إجبارها على حرق نفسها وفاء لزوجها، كما في الهند. وعموماً تكرس الوضع المرأة المتدني في المجتمع الياباني بسبب المعتقدات الدينية والتنظيمات السياسية والاجتماعية الوافدة، أكثر ممّا تأثر بالمعتقدات والعادات الأصلية. وهذا لا يعني أن مكانة المرأة كانت مساوية لمكانة الرجل أو أرفع منها في معتقدات الشنتو؛ فالأسطورة التي يكرسها كتابا الـ **كوجيكي** و**نيهون شوكي**، وهي المرجع الأساسي لهذه الديانة، تحمل إشارتين تبدوان متناقضتين حول وضع الأنثى. فمن جهة، تضع الأسطورة الإلهة **أماتيراسو**، التي تحمل جنس الأنثى، في أعلى ترتيب آلهة الشنتو، ومن جهة أخرى، تقدم الذكر على الأنثى في بعض المواقف التي ترويها، كما هو الأمر مثلاً عند خلق الجزر اليابانية. فعندما هبط الإله **إيزاناغي** والإلهة **إيزانامي** إلى الأرض، وعزما على الاقتران لإنجاب الجزر اليابانية، كان عليهما القيام بطقس يطوفان فيه حول الدعامة السماوية، غير أن **إيزانامي** بادرت إلى الحديث في نهاية الطقس. وبعد اقترانهما على ذلك النحو أنجبا خلفة مشوهة. وقد تبين من استشارة مجمع الآلهة، أن السبب هو مبادرة **إيزانامي** إلى الحديث. لذا كان

---

(١٦) Chie Nakane, *Japanese Society* (Berkeley: University of California Press, 1972), pp. 18-19; Nakane Chie, «Ie,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 260, and Thomas P. Rohlen, «Corporate Culture,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, pp. 26-28.

عليهما القيام بالطقس ثانية على أساس أن يكون **إيزاناغي** هو السباق إلى الحديث لينجبا خلفة سوية. هذا بالإضافة إلى أن **إيزانامي** اكتشفت عندما هبطا إلى الأرض أن جسدها ناقص وجسد **إيزاناغي** مكتمل. والملاحظ أن هذا التمثّل الرمزي للأنثى لم يؤد في العصور القديمة اليابانية إلى الحط من شأن المرأة. ذلك أن تكريس دونية المرأة لم يجر إلا بعد انتشار الديانة البوذية والعمل بالأنظمة الصينية، وأيضاً بالتطبيق العملي للتعاليم الكونفوشيوسية التي أصبحت أساس العلاقات الاجتماعية في اليابان منذ أواخر العصور الوسطى اليابانية(١٧).

يصعب إذن إصدار حكم عام على وضع المرأة يمكن أن يصدق على جميع الفترات التاريخية التي مرت بها اليابان، أو يعمَّم على فئات المجتمع الياباني كافة في فترة معيّنة. فعلى صعيد المؤسسة السياسية العليا، اعتلت عرش الإمبراطورية ثماني نساء من بين ١٢٥ إمبراطوراً حكموا اليابان منذ تأسيس الدولة حتى الوقت الراهن، مع الإشارة إلى أن ستاً منهن اعتلين العرش في القرنين السابع والثامن الميلاديين وحدهما (عصر نارا)(١٨)، وهو ما يدل على أن مقام المرأة كان رفيعاً داخل هذه المؤسسة قبل استحكام المؤثرات الصينية في المجتمع الياباني. ومن ثم لم

---

(١٧) لم نتمكن من الحصول على دراسة خاصة بوضع المرأة في تاريخ اليابان - مترجمة إلى اللغة الإنكليزية أو موضوعة بهذه اللغة ـ باستثناء القليل من المقالات والإشارات التي ترد هنا وهناك. وهكذا اعتمدنا على بعض المقالات المتعلقة بالزواج والإرث في العصور القديمة، وكذا على المداخل الواردة في موسوعة اليابان التي تتعلق بالمرأة، من قبيل الطلاق وأنماط الزواج والجنس، إضافةً إلى الإشارات التي ترد بشأن المرأة في الكتابة العامة عن تاريخ اليابان ومجتمعه. وهذا لا يعني أن مثل هذه الدراسات لم تنجز، فقد قامت مؤرخات يابانيات بدراسات تاريخية لتوضيح وضع المرأة خلال مختلف المراحل التاريخية، ومن بينهن المؤرخة تاكاموري إتسوئي (Takamure Itsue) (١٨٩٤ ـ ١٩٦٤) التي كانت رائدة في مجال التاريخ الاجتماعي، وبخاصة تاريخ المرأة، وكذا الدفاع عن حقوق المرأة اليابانية. كما عرفت الدراسات المتعلقة بالمرأة في تاريخ اليابان انطلاقة في عقد الثمانينيات نشرت في إثرها مجموعة من المؤلفات باللغة اليابانية، غير أنها لم تعرف طريقها إلى الترجمة حتى الآن. ومن بين الدراسات القليلة المترجمة إلى اللغة الإنكليزية: Wakita Haruku, «Marriage and Property in Premodern Japan from the Perspective of Women's History,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 10, no. 1 (Winter, 1984), pp. 73-99,

ففي بداية هذا المقال تعطي الباحثة فكرة عامة عن الدراسات التاريخية المتعلقة بالمرأة.

(١٨) يتعلق الأمر بالإمبراطورات سويكو (Suiko) (حكمت ٥٩٣ ـ ٦٢٨)؛ سايمئي (Saimei) (حكمت ٦٥٥ ـ ٦٦١)؛ جيتو (Jitō) (حكمت ٦٨٦ ـ ٦٩٧)؛ غيميئي (Gemmei) (حكمت ٧٠٧ ـ ٧١٥)؛ غينشو (Genshō) (حكمت ٧١٥ ـ ٧٢٤)؛ كوكين (Kōken) (حكمت ٧٤٩ ـ ٧٥٨)، مع الإشارة إلى أن اثنتين منهن تولّتا العرش تحت لقب آخر؛ فالإمبراطورة سايمئي حكمت من ٦٤٢ إلى ٦٤٥ تحت لقب كوغيوكو (Kogyoku)، والإمبراطورة كوكين حكمت من ٧٦٤ إلى ٧٧٠ تحت لقب شوكوتو (Shotoku). وإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة، نجد أن الإمبراطورات حكمن مدة ٨٨ سنة خلال ١٧٧ سنة، أي نصف المدة تقريباً. انظر: Jerrold M. Packard, *Sons of Heaven: A Portrait of the Japanese Monarchy* (New York: Scribner, 1987), pp. 351-354.

يظهر التمييز ضد المرأة إلا بعد شيوع الأُسرة الأبوية (الأبوسية) في عصري نارا وهييان، والعمل بقوانين **ريتسو ريو** المستقاة من الأنظمة الصينية ذات الأصول الكونفوشيوسية؛ ففيها جرى حرمان النساء من تقلد مناصب الدولة، وتمييزهن سلباً في النصيب الذي كن يحصلن عليه من الأراضي التي يوزعها الإمبراطور(١٩). كما أن دخول الديانة البوذية في نهاية القرن السادس لم تكن عاملاً مساعداً على الرفع من شأن المرأة، وذلك لموقف هذه الديانة المتردد أو غير الجازم في ما يخص المرأة واحتمالية تأويل نصوصها على أوجه مختلفة. فبعض نصوص البوذية تعتبر المرأة مصدراً للغواية يؤدي إلى الخطيئة، وتعتبر النجاسة متأصلة في جسدها، لذا عليها أن تبعث ثانية على صورة رجل حتى تحقق الوصول إلى مقام النيرفانا. بينما يرى مذهب **جودو شين** (الأرض الطاهرة)، الذي لاقى انتشاراً واسعاً وسط العامة خلال العصور الوسطى اليابانية، أن البشر أجمعين، بغض النظر عن مقامهم الاجتماعي وانتمائهم الجنسي (الذكورة أو الأنوثة)، يمكن أن يُبعثوا في الأرض الطاهرة، حيث يمكنهم بلوغ مقام النيرفانا، إن هم طلبوا الرحمة من بوذا وأخلصوا في عبادته في هذه الدنيا(٢٠).

وعلى الرغم من هذا التمييز القانوني والتأثير السلبي لبعض التأويلات الخاصة بالبوذية، ظلت المرأة تحتل مكاناً غير متدن في المجتمع الياباني إلى حدود القرن الحادي عشر الميلادي(٢١)؛ فعلى صعيد الأُسرة، كانت المرأة، لا الرجل، هي المحور. ومن بين العادات التي كان معمولاً بها على مختلف مستويات المجتمع الياباني، أن الزوج هو الذي ينتقل إلى بيت أهل زوجته وليس العكس. ومن ذلك صنف الزواج المعروف بموكوإيريكون (Mukoirikon) الذي من تقاليده أن تتكلف أُسرة العروسة بحفل الزفاف، وتستقبل في منزلها العريس أياماً معلومة من كل أسبوع يمضيها مع زوجته، وذلك إلى أن يقرر الزوج الاستقرار النهائي في بيت أهل زوجته أو إقامة بيت خاص به(٢٢). كما كانت النساء يشاركن في الطقوس

---

(١٩) كانت نساء الطبقة الأرستقراطية يحصلن على ثلث ما يحصل عليه الرجال من الأراضي التي كان الإمبراطور يوزعها بموجب قوانين ريتسو ريو.

(٢٠) Oguri Junko and Nancy Andrew, «Women in Japanese Religion,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, pp. 256-257.

(٢١) المصدر نفسه، و Haruku, «Marriage and Property in Premodern Japan from the Perspective of Women's History,» pp. 78-82.

(٢٢) Noguchi Takenori, «Mukoirikon,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 5, p. 262.
تجدر الإشارة إلى أن إقامة الزوج في بيت أهل زوجته في عصر هييان لم يكن إلا شكلاً من أشكال الزواج؛ فقد =

الدينية الشنتوية، ويُسمح لهن بالإشراف عليها وتولي المناصب الكهنوتية في معابدها. كما كانت البنت تنال نصيباً من الإرث أو إرث الأُسرة بكامله إن لم يكن هناك من يشاركها فيه، وذلك إلى نهاية القرن العاشر الميلادي، حين بدأ التمييز بين البنت وأخيها الذكر في الإرث(٢٣). وعموماً كان عصر هييان (٧٩٤ ـ ١١٨٥) عصراً ذهبياً بالنسبة إلى نساء أرستقراطية كيوطو، حيث كانت أُسرها تتنافس في تربية بناتها وتعليمهن، وخصوصاً تلك التي كانت تطمح إلى مصاهرة الأُسرة الإمبراطورية، كأُسرة فوجي ـ وارا. وقد أنجب هذا العصر أعظم أديبات اليابان أمثال **موراساكي شيكيبو** و**سي شوناغون** و**إزومي شيكيبو**.

بدأ وضع المرأة في التدني مع هيمنة فئة الساموراي واستيلائها على السلطة في نهاية القرن الثاني عشر. وقد حدث ذلك نتيجة تضافر جملة من العوامل، من بينها ظهور التنظيم الأُسري «إيي» بين الساموراي، والانتشار التدريجي للفكر الكونفوشيوسي بينهم، وظهور ثقافة البوشيدو (أخلاق الساموراي) التي تؤكد مبدأ الشرف، واستغلال المرأة في تعزيز الأحلاف بين أسر الساموراي؛ إذ أصبحت المصاهرة أداة لضمان الحلف واستمراره، وانتشار نزعة الحفاظ على الملكية وعدم تفتيت الأراضي الزراعية، ومن ثم حُرمت المرأة من نصيبها في الإرث. كما أن ظروف الحرب الأهلية، التي كان من نتائجها بناء القلاع وإقامة محطات على الطرق، أدت إلى استغلال المرأة في بيوت الدعارة. وخلاصة القول إن وضع المرأة في نهاية العصور الوسطى فقد الكثير من الامتيازات التي كانت له، وهو الوضع الذي سيكرَّس في عصر **توكوغاوا**.

يعتبر عصر **توكوغاوا** عصراً نموذجياً لتطبيق تعاليم الكونفوشيوسية، سواء على صعيد المؤسسات السياسية أو التنظيم الاجتماعي. وكما أضحى معروفاً لدينا، فإن **كونفوشيوس** اعتبر طاعة المرأة لزوجها وإخلاصها له من أسباب

= أحصى الباحث وليام ماكلوف أربعة أصناف من أمكنة الإقامة: ١ ـ الإقامة في بيت أهل الزوج أو في بيت قريب منه (Virilocal)؛ ٢ ـ الإقامة في بيت أهل الزوجة (Uxorilocal)؛ ٣ ـ الإقامة في بيت مستقل عن أهل الزوجين (Neolocal)؛ ٤ ـ إقامة كل من الزوج والزوجة في بيتين مستقلين (Duolocal). انظر: William H. McCullough, «Japanese Marriage in the Heian Period,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 27 (1967), p. 105.

كما تجب الإشارة إلى أن تعدّد الزوجات واتخاذ المحظيات كانا أمرين شائعين بين الطبقة الأرستقراطية في مجتمع كيوكو.

(٢٣) في ما يخص الإرث في عصر هييان، انظر: Jeffrey P. Mass, «Patterns of Inheritance in Late Heian Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 9, no. 1 (Winter 1983), pp. 71-74.

استقرار المجتمع وانسجامه. ومن ثم وضعت التعاليم الكونفوشيوسية المرأة في أسفل تراتب الأُسرة، سواء في بيت أبيها أو بيت زوجها، حيث يفرض عليها الولاء والخضوع التامين لسلطة الذكر في كلتا الحالتين. ففي مطلع القرن الثامن عشر (١٧١٦)، صدر مؤلف تحت عنوان **أونا دياغاكو** (Onna Daigaku) (**المعرفة الكبرى للنساء**) كتبه أحد أساتذة الفكر الكونفوشيوسي[(٢٤)] ولخص فيه موقف هذا الفكر في صيغته اليابانية من المرأة، وما هو متطلب منها من سلوك. وقد أصبح هذا التأليف في الفترات اللاحقة يمثل مرجعية لأخلاق المرأة وممارساتها، خاصة بالنسبة إلى أُسر الساموراي. والمطلوب من المرأة، حسب هذه المرجعية، أن تكون مطيعة في جميع الأوقات والمواقع: مطيعة لوالدها وإخوتها الذكور وهي صبية في منزل أهلها؛ مطيعة لزوجها وأقاربه وهي زوجة؛ مطيعة لأبنائها (الذكور) وهي أم في حال وفاة زوجها. ومكانها هو البيت، حيث عليها أن تكون أول من يستيقظ وآخر من ينام؛ وهي عرضة للطلاق في حال إخلالها بالطاعة ـ طاعة الزوج وطاعة حمويها ـ أو العقم [الأصح عدم الإنجاب لأن العقم قد يكون من الزوج] أو المرض أو الغيرة أو حتى كثرة الكلام. كما كان عليها، من حيث المبدأ، أن تقطع كل صلة لها بأقاربها في حال الزواج، وهو ما يعني أيضاً أن عليها أن تقدس أجداد زوجها. وممّا ورد في هذا النص المرجعي على سبيل المثال:

ليس للمرأة سيد تتبع له[(*)]، ومن ثم يجب أن تنظر إلى زوجها على أنه سيدها، ويتوجب عليها أن تقوم بخدمته بكل احترام وتقديس، وألا تحتقره أو تنظر إليه باستخفاف. والواجب الأكبر الذي يقع على عاتق المرأة طوال حياتها هو الطاعة. . . فعندما يصدر الزوج تعليماته، يجب على الزوجة عدم مخالفتها أو عصيانها.

هناك خمسة أمراض تصيب عقل المرأة: التعنت؛ عدم الرضا؛ الافتراء؛ الغيرة، والسذاجة. ومن دون أدنى شك، فإن هذه الأمراض الخمسة تصيب سبعاً أو ثمانياً من بين كل عشر نساء، ومن هنا تنشأ دونية النساء بالنسبة إلى الرجال[(٢٥)].

---

(٢٤) غالباً ما ينسب هذا المؤلَّف إلى كايبارا إيكيكن (Kaibara Ekiken) (١٦٣٠ ـ ١٧١٤)، الذي كان من دارسي الكونفوشيوسية ومختصاً في عدد من المجالات، منها مجال الطب. وعلى أي حال، هناك البعض ممّن يشكك في أن يكون هو صاحب هذا التأليف، وفي المقابل يعتقد هؤلاء أنه ربما كان من تأليف زوجته كايبارا توكين (Kaibara Token). انظر: Hironaka Wakako, «Onna Daigaku,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 108.

(*) الإشارة هنا إلى التبعية التي كانت تحكم العلاقة بين سادة الساموراي وأتباعهم.

(٢٥) صدرت أول ترجمة لـ **أونا دياغاكو** إلى اللغة الإنكليزية عام ١٩٠٥، تحت عنوان: *The Greater Learning for Women* والتي قام بها بازل هال تشامبرلين (Basil Hall Chamberlain). وقد اعتمدنا في ترجمة =

بديهي أن هذا التصور «المثالي» للأُسرة يُفقد المرأة الكثير من حقوقها، كما هو باد مثلاً في الطلاق، حيث كان في إمكان الرجل إن يطلّق زوجته لأدنى سبب (حتى لا نقول لأتفه الأسباب) ـ وفي إمكان أبي الزوج أن يطلّق زوجة ابنه إن كان يعيش معه تحت سقف واحد ـ في حين لم يكن في إمكان المرأة الحصول على الطلاق إلا في حالات نادرة(٢٦). كما كان في إمكان الرجل معاشرة نساء أخريات واتخاذ محظيات وحتى الاعتراف بالأبناء الذين ينجبهم خارج بيت الزوجية، بينما كان محتملا أن تعاقب المرأة بالقتل إن هي خانت زوجها. هذا بالإضافة إلى حرمانها من الإرث وعدم صلاحيتها للقيام بواجبات الأُسرة الدينية أو ضمان استمرارها، كما سبقت الإشارة.

غير أن هذا التصور المثالي للأُسرة لم يكن يعكس الواقع اليومي لمختلف فئات المجتمع الياباني؛ فهو يصدق إلى حد ما على أُسر الساموراي، بينما لم يكن كذلك بالنسبة إلى بقية الفئات. فمثلاً، القول أن مكان المرأة هو البيت يصدق فقط على الشريحة العليا من نساء الساموراي اللواتي كان خروجهن من البيت مقيداً ونادراً، ولا تغادرنه إلا وهن راكبات على محفات محروسة. أما نساء الشرائح السفلى من فئة الساموراي، فكن في أواخر عصر **توكوغاوا** مضطرات إلى العمل لمساعدة أزواجهن بعد أن تدنت أوضاعهم المادية. وفي ما يخص الفئات الأخرى، كانت غالبية نسائها يشاركن الرجال في العمل اليومي خارج البيت، خاصة في البوادي، حيث كان أربعة أخماس سكان اليابان يعيشون. ففي مجتمع يعتمد على الاكتفاء الذاتي، كان محتماً على النساء أن يقمن بالعمل في الحقول، إضافة إلى تهيئة الطعام وغزل الملابس. بل إن المراسيم التي أصدرها الشجون في

= هذه الفقرة على المقتطف الوارد في: Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), pp. 197-198.

(٢٦) من الحالات النادرة التي كانت المرأة تحصل فيها على الطلاق، الحال التي يرتكب فيها الزوج جريمة كبرى أو يهجر زوجته بصورة نهائية. ومن بين الوسائل التي كانت النساء يلجأن إليها هي الهروب من بيت الزوجية والاعتصام في أحد المعابد المعروفة بـ «كاكيكوميديرا» (Kakekomidera) (أو ما يمكن ترجمته بالمعبد/ الملجأ). وكانت هذه المعابد موجودة في اليابان من القرن الثالث عشر إلى قيام إصلاحات الميجي، وهي مخصصة لإيواء النساء في حال فرارهن من بيت الزوجية؛ فإن استطاعت المرأة تمضية سنتين في خدمة المعبد، فإن القائمين عليه يؤمّنون لها الطلاق من زوجها حتى وإن عارض في الأمر. ومن الأمثلة في هذا الشأن معبد توكي- إيجي (Tokeiji) الذي استقبل ٢٠٠٠ امرأة خلال مئة وخمسين سنة. انظر مادة: «Kakekomidera,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 115.

ومن المثير في هذا الباب تماثل وظيفة هذه المعابد مع بعض الزوايا في المغرب التي كانت تقوم بالوظيفة ذاتها تقريباً.

حق الفلاحين نصت على ضرورة خروج المرأة إلى الحقل. فقد ورد في البند الخامس من مرسوم ١٦١٩ الخاص بالفلاحين:

على الرجال خلال الشهر الرابع أن يعملوا في الأرض من الشروق إلى الغسق. . . وعلى الزوجات والبنات تهيئة الطعام ثلاث مرات في اليوم، ووضع غطاء أحمر على رؤوسهن، وحمل الطعام إلى الحقول. وعليهن، سواء كن صغيرات أم كبيرات في السن، أن يضعن الطعام أمام الرجال. . . ذلك أن الرجال، سواء الكبار منهم أو الصغار، يتشجعون عند رؤية نسائهم متلفعات باللون الأحمر إلى حد ينسيهم التعب[٢٧].

ولم يقتصر عمل المرأة على الأشغال المرتبطة بالبيت، بل إن بعض الأعمال في قرى الصيادين والمزارعين كاد يكون مقصوراً على النساء، مثل الغوص لجمع المحار واللؤلؤ وحشائش البحر الذي كان من اختصاص النساء في الكثير من المناطق الساحلية منذ أقدم العصور (كانت ذوات هذا الاختصاص يعرفن بـ «أما» (Ama))[٢٨]؛ وغرس فسائل الأرز بسبب الاعتقاد في تأثير المرأة في خصوبة الأرض[٢٩]، واستخلاص خيوط الحرير من شرانق دودة القز، وغير ذلك ممّا كان يتطلب العمل خارج البيت وجهداً لا يقل عن جهد الرجال في بقية الأعمال الزراعية. كما كان البعض من نساء المدن يشاركن أزواجهن في إدارة المقاولات، حيث كانت هناك أعمال خاصة بهن من قبيل مسك الحسابات[٣٠].

يبدو من هذا التصور «المثالي» أيضاً أن الرجل كان يتمتع بامتيازات لم تكن للمرأة؛ إذ كان يعاشر نساء أخريات ويتخذ محظيات أو عشيقات، مثلاً، بينما كان يُمنع على المرأة معاشرة رجال آخرين، إلا أن الواقع المادي لجل الرجال كان يحرمهم منها، ذلك أن الأمر كان محصوراً في ثلة الدوائر العليا فحسب،

---

(٢٧) كما سبقت الإشارة، فإن الشجون الأوائل أصدروا جملة من المراسيم همت جميع الفئات، بما فيها فئة الفلاحين التي صدر في حقها عدد منها. والبند المذكور مأخوذ من المرسوم ١٦١٩، وهو مترجم إلى اللغة الإنكليزية في: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, pp. 212-213.

(٢٨) تعاطي النساء الغوص قديم في تاريخ اليابان، فقد ورد ذكر هؤلاء النسوة في كتابي الـ **كوجيكي** و**نيهون شوكي**. كما أن زراعة اللؤلؤ الاصطناعي في الوقت الراهن تعتمد على «أما» اللواتي يقمن بعملية الغوص. انظر مادة: «Ama,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 48.

(٢٩) Charles J. Dunn, *Everyday Life in Traditional Japan* (Tokyo: Tuttle, 2000), p. 55.

(٣٠) Jean Pierre Lehmann, *The Roots of Modern Japan* (New York: St. Martin Press, 1982), p. 95.

كالإمبراطور الذي كان يتزوج رسمياً عدداً من النساء تكون واحدة منهن قرينته الأولى (تلقب بكوغو (Kōgō) أو تشوغو (Chūgū)، وكانت مجموعة أخرى من النساء تقوم بخدمته[٣١]؛ وكذا الشجون الذي كان له «حريم» من النساء يقارب عددهن المئتين؛ ومثله على نحو مصغر كبار الدايميو. كما كانت رعاية أكثر من امرأة أو الإنفاق على عشيقة متاحين لكبار الساموراي والتجار ممن توافرت بين أيديهم الإمكانيات المادية. أما البقية من الرجال، وهم الغالبية العظمى، فلم يكن في استطاعتهم نيل النزر اليسير من هذه المتع. فحتى زيارة أحياء المتعة، حيث بيوت الدعارة، لم تكن في متناول عامة الناس باستثناء ميسوري التجار، خاصة أن تمضية سويعات هنيئة برفقة الـ «غيشا» كان يكلف المال الكثير الذي لا يقدر عليه سوى القليل[٣٢]. وعموما يمكن القول إن جل الرجال في مجتمع **توكوغاوا** كانوا مكتفين بامرأة واحدة، وأن الزواج الشائع بينهم هو الزواج الأحادي.

نرى من غير المنصف حصر أوضاع النساء في عصر توكوغاوا في المظاهر السلبية، فيما كانت هناك مظاهر إيجابية تستحق التأكيد، ولعل أبرزها حصول النساء على قدر من التعليم. ذلك أن اليابان كانت من بين البلدان القليلة، قبل الفترة المعاصرة، التي بلغت فيها نسبة المعرفة بالقراءة والكتابة بين الإناث نسباً عالية؛ فحسب الإحصاءات التقديرية التي وضِعت غداة إصلاحات الميجي، كانت نسبة الإناث اللواتي نلن حظاً من التعليم تفوق ١٠ بالمئة. ويرجع الفضل في ذلك إلى انتشار مدارس «تيراكويا» (مدرسة المعبد) التي فتحت أبوابها في وجه الإناث، ومكنتهن من تعليم أولي في القراءة والكتابة والحساب، ووفرت لهن كتباً مدرسية خاصة بهن كانت تركز أساساً على معرفة عملية خاصة بالنساء (أو التربية النسوية) تتضمن التعامل مع الحمل، وتربية الأطفال، وكيفية استعمال مساحيق التجميل. هذا بالإضافة إلى أن الغانيات (الـ «غيشا») كن يحصلن منذ صغرهن على تربية تتضمن الموسيقى وحفظ الشعر ونظمه وفن الخط وقواعد السلوك. والغريب في الأمر أن بنات الفئات الأخرى من غير فئة الساموراي، وخصوصاً بنات «تشونين»، هن اللواتي كن أوفر حظاً في الحصول على نصيب من التعليم. أما بنات كبار الساموراي، فكان تعليمهن محدوداً ومقتصراً على التعليم الأولي في المنزل.

والملاحظ أن التمييز بين النساء والرجال في عصر **توكوغاوا** والعصور

---

(٣١) Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period*, pp. 84-85.

(٣٢) لنا عودة إلى الموضوع ذاته في الفصل الخاص بثقافة الـ «تشونين» الذي نعرض فيه لأحياء المتعة.

السابقة عليه، أدى إلى تطور لهجة نسائية خاصة. ولم يقتصر أمر التمايز اللغوي على القاموس، من قبيل تحاشي النساء المفردات الذكورية الخشنة واستعمالهن مفردات أخرى أكثر أنوثة، بل تعداه إلى الضمائر، حيث يختلف ضمير المتكلم بالنسبة إلى المرأة عنه بالنسبة إلى الرجل، واستعمالات أخرى يصعب علينا شرحها لعدم الاختصاص.

لا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى أن المرأة اليابانية لم تحصل على كامل حقوقها بعد إصلاحات الميجي مباشرة، بل ظل الحيف يلحق بها حتى الحرب العالمية الثانية، على الرغم من النضال الذي قامت به الجمعيات النسائية اليابانية. ولم تحصل المرأة على كامل حقوقها إلا في دستور ١٩٤٧ الذي وضعها على قدم المساواة مع الرجل في مختلف المجالات(٣٣). غير أن هذه المساواة التامة في الحقوق والواجبات، لم ترفع الحيف الاجتماعي عنها نهائياً، أو تلغ نظرة المجتمع التي سادت لقرون؛ فطبيعة الأُسرة اليابانية، والممارسات العرفية في عالم الشغل، ومواقف عموم الناس، ساهمت كلها في وجود هوة بين المعايير القانونية والواقع الاجتماعي(٣٤). فالمرأة تحرم، مثلاً، من المناصب القيادية وصنع القرار في الشركات وحتى في الإدارة العمومية، ما عدا استثناءات قليلة. كما أن هناك حيفاً في الأجور ما زال يلحق بالنساء في عالم الشغل. وعموماً تفضل نسبة مهمة من النساء اليابانيات اليوم التخلي عن العمل، وتكريس وقتهن للبيت بعد أن تنجب الواحدة منهن طفلين. وفي المقابل، تتمتع المرأة اليابانية بسلطة كبرى داخل البيت، وتقوم بدور رئيسي في تربية الأبناء.

ومن القضايا المطروحة على صعيد السلطة، في ما يخص حقوق المرأة، قضية ولاية العهد وتولي امرأة عرش الإمبراطورية، خاصة بعد أن رُزق ولي العهد الحالي ناروهيتو (Naruhito) (١٩٦٠ ـ) ببنت. ومن ثم أصبحت هذه القضية

---

(٣٣) تقول المادة الرقم ١٤ من دستور العام ١٩٤٧: «يتمتع كافة أفراد الشعب بالمساواة في ظل القانون، ولن يكون هناك تميز في العلاقات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بسبب العرق أو العقيدة أو الجنس أو الوضع الاجتماعي أو الأصل العائلي». انظر: «دستور اليابان،» في: **حقائق عن اليابان** (طوكيو: الجمعية الدولية للمعلومات التربوية، [د. ت.]).

(٣٤) «Women and Modernization,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, p. 261, and «المرأة اليابانية اليوم،» في: **حقائق عن اليابان**. ففي هذا المقال يظهر الحيف الذي كان يلحق بالمرأة في سوق العمل، وعدم مساواتها في الأجور مع الرجال إلى غاية السبعينيات من القرن العشرين. كما أن الجمعيات النسائية رفعت قضايا على الشركات والدولة التي كانت تمنع النساء من تولي مناصب السلطة والقرار في الشركات.

حيوية بالنسبة إلى استمرار السلطة في السلالة الإمبراطورية، خاصة أن الدستور الذي وضِع في عهد الميجي حدد ولاية العهد في الذكور.

ثالثاً: التراتب

يجب التذكير بداية بأن مبدأ المساواة التامة بين الناس في الحقوق والواجبات مبدأ حديث نسبياً، سواء في الثقافة الغربية أو في غيرها. وفي المقابل، عرف جُل المجتمعات التقليدية نظاماً تراتبياً يقوم على أساس المكانة الاجتماعية التي تحتلها كل فئة أو مجموعة من الأفراد، وتتمتع بموجبها بحقوق وواجبات معيّنة. وكلما ارتفعت مكانة الفئة، ازدادت حقوقها وامتيازاتها، وكثرت حظوظها في الهيمنة على الفئات الأخرى. وعموماً، يمكن التمييز بين ضربين من المكانة الاجتماعية الرفيعة: المكانة المتأصلة أو المتوارثة التي يتمتع بها الفرد أو المجموعة بالمولد دون اعتبار للكفاءة والمعرفة، والمكانة المكتسبة التي يكتسبها الفرد أو المجموعة من طريق المعرفة ـ المعرفة الدينية خصوصاً ـ أو المهارة العسكرية (أو ما يلخّص بالقلم والسيف) وغيرهما. ومن سمات المكانة العليا ـ سواء المتوارثة أو المكتسبة ـ أنها تمكّن حامليها من التحكم في سلوك المجموعات الأخرى والهيمنة عليها والاستئثار بالسلطة. غير أن درجات التراتب واعتباراته كانت تختلف من مجتمع إلى لآخر، ففي بعض المجتمعات، كان التراتب مرناً والحركية الاجتماعية ممكنة بين الفئات التي كان عددها قليلاً، كما في أوروبا، حيث كان التمييز قائماً أساساً بين الأُسر الأرستقراطية والعامة، وفي المجتمعات الإسلامية حيث كان التمييز قائماً بين الخاصة والعامة. بينما اتسم في مجتمعات أخرى بالتعدد والتعقيد وصرامة الحدود الفاصلة بين الفئات، وتدخّل العامل الديني في تحديد معالمها، كما هو شأن نظام الـ «كاسط» في الهند الذي مثّل المدى الأقصى للتراتب[٣٥]. ففي الهند، كان التراتب وظيفياً (Functional Hierarchy) يقوم على أساس الوظيفة التي تقوم بها الفئة في المجتمع (البراهمان: الوظيفة الدينية؛ كشاتريا (Kshatriya): الوظيفة العسكرية؛ فايشيا (Vaishya): التجارة وملكية الأراضي؛ سودرا (Sudra): العمل في الحقول وغيره، إضافة إلى المنبوذين أو المصنَّفين خارج نظام الكاسط الرباعي (Outcaste).

يمكن وضع التراتب الاجتماعي في اليابان في خانة التراتب الوظيفي، غير

(٣٥) Louis Dumont, *Homo hierarchicus, essai sur le système des castes* ([Paris]: Gallimard, 1966), pp. 91-121.

أنه لم يبلغ درجة التعقيد التي بلغها في الهند، حيث كان الفصل بين الفئات يظهر في الطقوس والممارسات الدينية والأكل ومكان الإقامة وتحريم الاتصال والزواج بين أفراد الفئات العليا والسفلى، إضافة إلى تأصل التراتب وتاريخه البعيد في المجتمع الهندي. ذلك أن التمييز بين الفئات في اليابان كان في العصور القديمة (عصري نارا وهيبان) بين الأرستقراطية والعامة، وكان في العصور الوسطى، وبشكل أساسي، بين الساموراي المختصين بالمهارات الحربية والعامة التي يشكل الفلاحون أغلبيتها. ولا ينطبق مبدأ الكاسط في اليابان سوى على المنبوذين الذين جرى تمييزهم على أساس ديني، وكان الاتصال بهم محرماً.

ومع ذلك، فمبدأ التراتب متأصل في ثقافة اليابانيين ومعتقداتهم منذ أقدم العصور. فالأسطورة التي يحويها مؤلفا الـ **كوجيكي** و**نيهون شوكي** تصنف الـ «كامي» ضمن تراتبية معيّنة، وتضعهم في مستويات مختلفة من حيث الأهمية والاعتبار. فعلى قمة هرمية الـ «كامي» تتربع ربة الشمس **أماتيراسو نو كامي** التي تتحدر من سلالتها الأُسرة الإمبراطورية. وبما أن كل عشيرة (أوجي) كانت ترتبط بفصيل من الـ «كامي» التي تعتقد أنها تتحدر منها، فإن وضع العشائر وترتيبها في الواقع السياسي المعيش، كان يتأثر بوضعية الـ «كامي» المرتبطة بها بحسب ذكرها وترتيبها في الأسطورة التي تبنّتها المؤسسة الإمبراطورية. وبعد أن استقرت السلطة السياسية في يد عشيرة **ياماتو**، في غضون القرن الخامس الميلادي، استعان الأباطرة بالـ «أوجي» القوية التي كانت تنافس عشيرتهم لتشكل الحاشية وطبقة الأرستقراطية العاملة في خدمتهم، حيث جرى ترتيبها بحسب قوتها وعلاقتها بالعشيرة الحاكمة لتتولى المهام والوظائف الرئيسية، وذلك في إطار نظام كان يعرف بـ «أوجي كابان» (Uji-kabane)[٣٦]. وهذا الصنف من التراتب ليس بتراتب وظيفي بل هو تراتب رمزي يقوم على أساس التمثّل الرمزي للسلطة كما كرسته الأسطورة التي بررت هيمنة عشيرة الإمبراطور.

استمر التراتب معمولاً به في المجتمع الياباني ومؤسسته السياسية بعد الانفتاح على الصين والأخذ بمبادئ نظام الحكم والمعتقدات والتيارات الفكرية التي كانت سائدة فيها، حيث جرى استغلالها لدعم الحكم الإمبراطور وتبرير

---

(٣٦) Cornelius J. Kiley, «Uji-Kabane System,» in: *The Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, pp. 131-137.

وقد ساد هذا النظام في عهدي نارا وهيبان. وممّا تجدر الإشارة إليه أن مصطلح «كابان» يعني لغوياً «العظم»، وهو ما يعني شيوع هذا المصطلح في ثقافات مختلفة ومتباعدة.

قيمة التراتب. وقد سبقت الإشارة مراراً إلى أن تعاليم الكونفوشيوسية استغلت في البداية أساساً في هذا الباب. ولعل الديانة التي كان من شأنها معارضة التراتب هي البوذية، التي تدعو في أصولها الأولى إلى المساواة. وقد مرت البوذية بمرحلة من التأويل في الصين ـ وربما في كوريا ـ قبل أن تصل إلى اليابان. وفي هذا البلد الأخير خضعت أيضاً لتحوير ثان بسبب التأقلم مع البيئة الجديدة وصعوبات الترجمة. وهكذا جرى التغاضي في الصيغة اليابانية للبوذية عن المبادئ التي تدعو في الأصل إلى المساواة، كما استغلت الترجمة لتحوير بعض من المصطلح البوذي ـ عن قصد ـ على نحو يدعم قيمة التراتب وعلاقة التبعية التي تربط السادة بالأتباع. هذا بالإضافة إلى جعل الديانة البوذية في خدمة المؤسسة الإمبراطورية التي تبنتها ورعتها وقدمت لها الدعم. ففي الأمر الذي أصدره الأمير **شوتوكو** عام ٥٩٤ إلى الأمراء والوزراء وسادة العشائر لتشييد المعابد لبوذا، نجد إشارة تقول إن إقامة تلك المعابد هي في سبيل الاعتراف بجميل الأباطرة والأسلاف ومجازاتهم، وهو ما يتضمن تقديس الأباطرة وعبادة الأسلاف، وهما أمران غريبان على البوذية الأصلية(٣٧).

وهكذا ساد مبدأ التراتب في عصري **نارا** و**هييان**، حيث كان التمييز واضحاً بين الطبقة الأرستقراطية المحيطة بالإمبراطور والأُسر المحاربة من جهة، والفلاحين وعامة الناس من جهة أخرى. مع الإشارة إلى أن المساواة لم يكن معمولاً بها حتى داخل الشريحة العليا ذاتها: فالأمراء والأميرات كانوا مرتبين بحسب قربهم من الإمبراطور، والنبلاء (كوجي) كانوا مرتبين، بحسب أصلهم وعلاقتهم بالأُسرة الإمبراطورية، في رتب تخولهم تولي مناصب معيّنة في الإدارة الإمبراطورية.

تعزز مبدأ التراتب بعد استيلاء الساموراي على السلطة في العصور الوسطى اليابانية (عصري **كاماكورا** و**موروماتشي**)، حيث أصبحت فئة الساموراي على قمة التراتب بعد أن جرى تهميش أرستقراطية كيوطو. وقد كان التمييز أساساً بين فئتي المحاربين والفلاحين، غير أنه بدا على نحو جلي أيضاً داخل فئة الساموراي ذاتها، التي كانت تحكمها تقاليد صارمة تخص علاقة الأتباع بالسادة التي تنبني على الولاء التام والطاعة العمياء للسيد أو زعيم الأُسرة. إلا أن ما يجب تأكيده في ما يخص هذه المرحلة السابقة على عصر **توكوغاوا** هو أن الساموراي لم يشكلوا فئة منغلقة؛ إذ كان في إمكان بعض أُسر المزارعين الترقي إلى مرتبة

(٣٧) Nakamura, *Ways of Thinking of Eastern Peoples: India, China, Tibet, Japan*, pp. 426-434.

الأُسر المحاربة إن هي أجادت المهارات العسكرية، وشاركت في المعارك إلى جانب الأُسر الكبرى المتزعمة للساموراي. ولم تتبدل الأوضاع إلا في نهاية القرن السادس عشر، في إثر الإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** وتحدد بموجبها وضع كل فئة، ومنعت الفلاحين وغيرهم من الالتحاق بفئة الساموراي.

ارتفعت قيمة التراتب في عصر **توكوغاوا** بسبب التبنّي الرسمي للقيم الكونفوشيوسية؛ فبناء على هذا التبنّي والتطورات التي عرفها المجتمع الياباني في أواخر القرن السادس عشر، أضحى المجتمع الياباني مرتباً ضمن فئات، لكل منها وضعها القانوني واعتبارها الخاص. وإن تغاضينا عن معيار الثروة وغيرها من المعايير التي تستغل في تحديد الوضع الطبقي، فإن المجتمع الياباني في هذا العصر كان مرتباً على نحو هرمي: يتربع على القمة الإمبراطور والأُسرة الإمبراطورية، يليهما مبدئياً نبلاء البلاط، ثم فئة الساموراي التي كانت في واقع الأمر الشريحة العليا ذات النفوذ الفعلي. وتحت هذه الشرائح العليا المتقلدة السلطة بدرجات متفاوتة، تأتي الشريحة الكبرى للعامة التي كانت مرتبة ضمن فئات فرعية بحسب المهن والحرف التي يراعى في ترتيبها القيمة الممنوحة لها في التعاليم الكونفوشيوسية: الفلاحون أولاً بسبب إنتاجهم وتعاملهم مع عناصر سامية (التربة وأشعة الشمس والماء)، ثم الصنّاع والحرفيون لإنتاجهم وتعاملهم مع مواد طبيعية (الخشب المعدن. . .)، وأخيراً التجار في أدنى سلم الترتيب لاستغلالهم عمل الآخرين وعدم مساهمتهم في الإنتاج. وخارج هذا التصنيف، كانت فئة المنبوذين.

يمكن التمييز بين صنفين من التراتب في المجتمع الياباني في عصر توكوغاوا: تراتب وظيفي، وهو القائم بين الساموراي والعامة، وبين الفئات الفرعية للعامة، وتراتب داخل فئة الساموراي ذاتها. ذلك أن هذه الفئة كانت مرتبة بحسب موقعها في هرمية السلطة: أُسرة الشجون (أُسرة **توكوغاوا**)؛ ثم أُسر الدايميو، مرتبة هي أيضاً بحسب قرابتها العائلية بأُسرة **توكوغاوا** ودرجة العلاقة التي تربطها بها، ثم عموم أُسر الساموراي مرتبة كذلك بحسب مهامها وقربها من سادتها الدايميو. وهذا الصنف من التراتب ليس بتراتب وظيفي، فهو يشبه إلى حد كبير التراتب المعمول به في التنظيمات العسكرية المعاصرة، وأيضاً في التراتب الإداري المعمول به اليوم.

كان التراتب في عصر توكوغاوا بادياً في مظاهر الحياة اليومية كلها، كما أن

حرص الشجون على ترسيخه وتكريسه بقوانين خاصة بكل فئة كان شديداً؛ ففي المجال هذا مثلاً، كان التراتب بادياً في تصميم المدن/ القلاع (جوكا ماتشي)[٣٨]، التي كانت تخضع لمبادئ شبه موحدة في تحديد مواقع أحيائها؛ إذ جرت العادة أن تقام قلعة الدايميو أولاً، ثم تحاط بأحياء الساموراي بحسب مراتبهم، على نحو يعبّر فيه القرب أو البعد من مجال القلعة عن المكانة التي تحتلها أسر الأتباع من الساموراي. أما الصنّاع والتجار، فكانت أحياؤهم إما توضع في الدوائر الخارجية للمدينة وإما تُحشر في أزقة ضيقة بين الشرائح السفلى للساموراي. وفي سياق المجال ذاته، كان التمييز واضحاً بين كبار هؤلاء وصغارهم في المواقع التي يوضعون فيها في قاعة الاستقبال، التي يؤدون فيها الولاء للشجون كل سنة. وعموماً، كان التعبير عن الانتماء الفئوي جلياً في حق حمل السلاح، وصنف اللباس، ونوعية القماش ولونه، وتسريحة الشعر، وغير ذلك من الشارات الخارجية التي لا تخطئها العين، مع الإشارة إلى أن القوانين التي سنَّها الشجون لكل فئة كانت تؤكد المظاهر الخارجية، وتجعل من مخالفتها جرماً يعاقَب عليه.

لم يكن التراتب وانعدام المساواة سلبيين في مجملهما؛ إذ كان التراتب يقوم بوظيفة أساسية في حفظ الاستقرار الاجتماعي، ولكل فرد سيد يحميه ويؤمّن له ضروريات الحياة، كما أن حاجات الفرد ومتعه محددة بحسب موقعه الاجتماعي الذي يستحيل تغييره[٣٩]، وهو ما أشاع نوعاً من الرضا والقناعة، وعدم الدخول في صراع مع الآخرين (أو الشرائح الأعلى).

تجدر الإشارة أخيراً إلى أن مبدأ التراتب وانعدام المساواة ظلا متمكنين من نفوس اليابانيين ومن رؤيتهم للنظام الاجتماعي حتى الوقت الراهن؛ فعلى الرغم من أن زعماء إصلاحات الميجي دعوا إلى إلغاء انعدام المساواة و«مخلفات الفيودالية» التي كانت في نظرهم سبباً في تخلّف اليابان عن الدول الغربية، فإن تكريس مبدأ المساواة كان من القضايا المستعصية التي واجهها هؤلاء. لذا اضطرت سلطات الميجي إلى التعامل مع نظام الفئات بحذر وإلغائه على نحو تدريجي[٤٠]. وفي

(٣٨) لنا عودة إلى الموضوع في الفصل الخاص بالمدن (الفصل التاسع)، في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٣٩) Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 123.

(٤٠) في عام ١٨٦٩ أصدرت سلطات الميجي مرسوماً يقلص من عدد الفئات العليا ويحصرها في ثلاث. ثم أصدرت مرسوماً ثانياً عام ١٨٧٢ يعيد تصنيف الفئات. وقد استمرت الفئات العليا تتمتع بامتيازات معيّنة طوال عصر الميجي، على الرغم من سن قوانين تجعل اليابانيين متساوين أمام القانون. انظر: رؤوف عباس، **المجتمع الياباني في عصر الميجي** (القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٠)، ص ٤٩ ـ ٥٠.

الوقت الراهن، حيث تسود قيم المساواة التامة بين أفراد المجتمع الياباني، ما يزال لدى اليابانيين تشبث بالمكانة الاجتماعية (Status) وضرورة تصرّف كل فرد بحسب موقعه الاجتماعي. وهذا ما يبدو مثلاً في حرص اليابانيين على تبادل بطاقات الزيارة (Carte de visite) في أول لقاء لهم مع الآخر بغاية معرفة موقع المخاطب وإدارة الحديث بما تقتضيه حيثيات كل من المتخاطبين. فالفرد الياباني يتحاشى التعامل مع الغريب تفادياً للوقوع في الأخطاء التي تتنافى وقواعد السلوك السليم. وبطاقة الزيارة، بما تحمله من معلومات، تسهل التفاعل بين الأفراد. وفي الوقت الذي يميل الأمريكيون إلى التقليل من أهمية المكانة الاجتماعية (والتصرف بعفوية)، يرى اليابانيون أنه من غير اللائق أن يتصرف الفرد تصرفاً يبتعد أو يخل بما تقتضيه مكانته الاجتماعية. واللغة اليابانية غنية بتلوينات في الخطاب للتعبير أساساً عن الفوارق في المكانة الاجتماعية؛ فهي تحوي عدداً من المفردات لتشريف المخاطب والتعبير عن تواضع الذات، إضافة إلى الضمائر واللواحق التي تضاف إلى الأفعال عند الصرف الذي يتغيّر بحسب موقع المتكلم ومكانة المخاطب. وعموماً، فإن المكانة الاجتماعية في اليابان مرتبطة بالعلاقة الخاصة التي تجمع بين الأفراد في عالم الشغل وغيره، وهي في الغالب علاقة تبعية أو علاقة غير متساوية بين أفراد ينتمون إلى مكانات مختلفة. فالفرد يشعر بواجب نحو من هم أعلى منه مكانة وبأنه مدين لهم، ومن ثم يقتضي الأمر منه معاملتهم باحترام. ولا يقتصر الأمر ـ في عالم الشركات والمقاولات ـ على الهرمية المرتبطة بالتدبير الإداري المعمول به على نطاق عالمي، بل إن العاملين في إطار المجموعة الواحدة التي ترتبط أساساً بعلاقة أفقية ـ أي التي يوجد أفرادها في مستوى واحد داخل الشركة أو المقاولة ـ يجعلون في ما بينهم نوعاً من التراتب على أساس السن أو الأقدمية في العمل أو تاريخ الحصول على مؤهل دراسي، إلى غير ذلك. وقد استشهدت الباحثة اليابانية **تشي ناكاني** بعدد من الأمثلة والوقائع التي تؤكد تشبع الفرد الياباني بمبدأ التراتب في الوقت الراهن[٤١].

(٤١) من الأمثلة الطريفة التي أتت بها تشي ناكاني في هذا الصدد، أن أديباً حصل على جائزة أدبية، وحين تسلمه لها قال إنه يشعر بالخجل لأن كتّاباً آخرين ممن سبقوه إلى مجال الكتابة لم يحصلوا عليها. انظر: Nakane, *Japanese Society*, pp. 23-86.

الفصل الثالث

الفئات في عصر توكوغاوا

أولاً: نبلاء البلاط (كوغي)

«كوغي» (Kuge) هو المصطلح الذي كان يُطلق على الأُسر الأرستقراطية التي أحاطت بالإمبراطور منذ ظهور المؤسسة الإمبراطورية، وكانت تشكل خلال عصري **نارا** و**هييان** بيروقراطية الدولة التي تتولى الوظائف الرئيسية، وتتمتع بامتيازات خاصة بحسب أصولها وترتيبها، وهي امتيازات كانت متوارثة في أُسر بعينها. واستعمال مصطلح كوغي جاء للتميز بين صنفين من الأرستقراطية اليابانية: الأرستقراطية المدنية «كوغي»، والأرستقراطية العسكرية «بوكي» (الرمز «كو» يشير إلى ما هو مدني أو عمومي، بينما يشير الرمز «بو» إلى ما هو عسكري). وعموما ظل الانتماء إلى كوغي مرتبطاً بالعمل في خدمة الإمبراطور والبقاء في العاصمة كيوطو، فحين تغادر إحدى الأُسر العاصمة تفقد صفتها وتكتسب صفة الأُسرة المحاربة إن هي انضمت إلى أُسر الساموراي. لذا، ليس مستبعدا أن تجد أُسراً تحمل الاسم نفسه، لكن بعضها مصنَّف ضمن الأرستقراطية العسكرية (بوكي) وبعضها الآخر مصنَّف ضمن الأرستقراطية المدنية (كوغي).

فقد الأباطرة ونبلاء البلاط سلطتهم السياسية والكثير من امتيازاتهم المادية بعد استيلاء الساموراي على السلطة في أواخر القرن الثاني عشر. وعلى الرغم من ذلك، ظل الأباطرة، الذين لم تعد لهم منذ ذلك التاريخ سوى سلطة روحية ورمزية، يحافظون على واجهة من الحكم الصوري، ويحيطون أنفسهم بوزراء وحاشية وموظفين، ويخلعون الألقاب الشرفية، كما لو أن الأوضاع لم تتبدل. وأولئك الذين ظلوا أوفياء للإمبراطور ومقيمين بالقرب منه في **كيوطو** هم الذين شكلوا نبلاء

البلاط في عصري **كاماكورا** و**موروماتشي**، وكذا في عصر **توكوغاوا**، موضوع هذه الدراسة.

كان عدد أُسر نبلاء البلاط، التي ظلت مقيمة في عاصمة الإمبراطور **كيوطو** إلى حين قيام إصلاحات **الميجي**، ١٣٧ أُسرة. غير أن هذه الكثرة لم تكن تعني تعدداً مماثلاً في الأصول؛ فأُسر النبلاء كانت ترتبط في واقع الأمر بصلة القرابة في ما بينها وتتحدر في مجموعها من خمس سلالات أو أُسر كبرى، أي من الأُسر العريقة التي كانت مهيمنة في عصر **هييان**، مثل أُسرة **فوجي ـ وارا** التي كانت تنتسب إليها ٩٦ أُسرة، أو الأُسر المتفرعة من السلالة الإمبراطورية، مثل أُسرتي **ميناموتو** و**تايرا**(١). وبديهي أن هذه الأُسر لم تكن مرتبة في مقام واحد أو لم تكن تحظى بامتيازات واعتبارات متماثلة؛ فخُمسها فقط كان مصنَّفاً في أعلى التراتب («غو ـ سيكي» go-sekke) وهي فروع من أُسرة **فوجي وارا)** التي في إمكان أفرادها الترقي إلى الرتبة الأولى، وبالتالي التمتع بحق تولّي أعلى منصب في الإدارة الإمبراطورية، ألا وهو منصب الوصي على العرش (كامباكو)، الذي ظل حكراً على أُسرة **فوجي ـ وارا**. وكان الأباطرة عادة يختارون قرينتهم الأولى من بنات هذه الأُسر، وهو ما يعني أن عدداً مهماً من الأباطرة كانوا يمتون إلى هذه الأُسر بصلة قرابة. وتلي هذه المجموعة مجموعةٌ ثانية مكونة من تسع أُسر (تُعرف بـ «سيكا» (Seika))، كان من حق أفرادها الترقي إلى الرتب الأولى وتولي المناصب الوزارية(٢). أما بقية الأُسر، فكانت مرتبة على نحو تدرجي في مواقع ومراتب تتناسب مع صنف الوظائف التي توكل إلى كلٍّ منها.

لم تكن أُسر الكوغي في مجموعها تحظى بامتيازات مالية كبيرة مقارنة بأُسر الدايميو. ومع ذلك، لا يمكن القول جزافاً إن هذه الأُسر كانت تعاني العوز، كما يدعي البعض؛ إذ كانت تحصل على ما يكفي حاجاتها الأساسية أو يزيد. فالشريحة العليا كانت غنية بمعايير العصر، ذلك أن دخل كل أُسرة منها كان يتراوح بين ١٥٠٠ و٢٨٦٠ كوكو/ أرز، إضافة إلى ما كان أفرادها يتلقونه من هدايا منتظمة من الشجون والدايميو. أما الشرائح السفلى، فلا يمكن تصنيفها في خانة الفقر أيضاً، ذلك أن

---

(١) Herschel Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period* (New York: Columbia University, 1968), pp. 89-90.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠-٩١، و: William G. Beasley, *The Meiji Restoration* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1972), pp. 22-23.

دخل معظمها لم يكن يقل عن ١٠٠ كوكو/ أرز[٣]. وأياً كان الأمر، فإن الاعتبار المعنوي الذي يحظى به نبلاء البلاط كان يعوضهم عن الثروة. وهذا ما يبدو مثلاً في إقبال كبار الساموراي على الزواج من بنات الكوغي. فعلى الرغم من أن الساموراي كانوا يعيّرون نبلاء البلاط بـ «ذوي الأكمام الطويلة» (nagasode) وبأنهم غير عمليين وناقصي خبرة بالعالم الحقيقي، فإنهم كانوا يحرصون على مصاهرتهم رغبة في رفعة المكانة والأبهة (Prestige)[٤]. فالشجون كانوا يؤثرون الاقتران بنساء من مجموعة الأُسر الخمس («غو ـ سيكي») اللواتي يمنحونهن المرتبة الأولى ضمن نسائهم. وكانون في الوقت ذاته يمنعون على الدايميو مصاهرة نبلاء البلاط تحسباً لما قد ينجم عن ذلك من تحالف بين الدايميو والبلاط، أو الرفع من مكانة الدايميو. وعلى الرغم من هذا الحظر الرسمي، فقد دأبت أُسر مهمة من الدايميو، مثيلات **شيمازو** و**ساتسوما** و**موري** و**إيكيدا**، على إقامة علاقات مصاهرة مع أُسر الكوغي[٥].

كان نبلاء البلاط يضطلعون مبدئياً بوظائف مختلفة لدى الإمبراطور وحكومته الصورية، غير أن العمل الرسمي لم يشكل كل اهتمامهم، إذ كان لديهم ما يكفي من الوقت للقيام بنشاطات أخرى. وعموماً، اشتهر نبلاء البلاط بالثقافة العالية المستوى، ورقّة الذوق، واللباس الرفيع (اختصوا بلباس يميزهم من الفئات وبقبعات تشير إلى مراتبهم) ولهجة خاصة. ولا غرابة في الأمر، فهم ورثة ثقافة **هييان** الزاهية التي ظلت العاصمة كيوطو محافظة عليها حتى الوقت الراهن. وقد برز من بينهم على مر العصور أشهر العلماء والشعراء والأدباء ورجال الدين في تاريخ الثقافة اليابانية. ولم يختلف الوضع في **عصر توكوغاوا**، حيث ظلت أُسر النبلاء تختص في جُل مجالات المعرفة: في الدراسات البوذية والشنتوية والكونفوشيوسية والمعارف الصينية عموماً، وكتابة التاريخ ونظم الشعر، إلى غير ذلك، كما ظلت ترعى عدداً من الفنون، كالرسم وفن الخط وتصفيف الزهور وصنوف الرياضة (مثل المصارعة اليابانية المسمّاة «سومو»)[٦]. واعتباراً لهذا التميز في مجال المعرفة، كان الشجون وكبار الدايميو يستقطبون المبرزين منهم للعمل في حقل التدريس أو الاستشارة.

---

(٣) المصدر نفسه.

(٤) Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 100.

(٥) المصدر نفسه، و Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period*, p. 97.

(٦) Webb, Ibid., pp. 94-95.

ثانياً: الساموراي

يحمل مصطلح الساموراي معنى يفيد «الشخص الذي يخدم» أو «يقدم خدمة» إلى النبلاء، وهو مشتق من لفظ «سابوراي» (Saburai) بالمعنى ذاته تقريباً. وقبل شيوع مصطلح الساموراي، كان المحاربون يُعرفون بـ «تسوامونو» (Tsuwamono)، أي ما يعني لغوياً كل ما يتعلق بالحرب، من عتاد وأسلحة ومهارات حربية، إلا أنه أُطلق من باب التعميم على المحاربين، وأصبح منحصراً فيهم. كما عُرفوا بـ «بوشيدان» (Bushidan)، وهو لقب كان يُطلق على الأُسر المحاربة المنتمية إلى أُسرة أو عشيرة واحدة، وقد بقيت هذه التسمية معمولاً بها من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر تقريباً. وبوشي تعني «المحارب»، ومنها اشتُق مصطلح بوشيدو، أو طريق المحاربين، كما سنأتي إلى ذكر ذلك[(٧)].



شكّل وجود فئة الساموراي أهم سمة ميزت المجتمع الياباني في الفترة ما قبل المعاصرة، وجعلته يماثل بعض المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى، التي عرفت تنظيمات مماثلة (Knights) في إنكلترا، و(Chevaliers) في فرنسا و(Ritter)

(٧) في ما يخص أصل تسمية الساموراي، انظر: Takeuchi Rizo, «The Rise of the Warriors,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 2, p. 648; H. Paul Varley, «Samurai,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan* (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 7, pp. 7-8, and «Bushiadn,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 221.

في ألمانيا). وكانت هذه الفئة قد ظهرت كقوة عسكرية خاصة ـ غير منضوية تحت جيش نظامي ـ تعمل على حفظ الأمن في العاصمة والأقاليم في مطلع القرن العاشر تقريباً، ثم تطورت إلى نخبة حاكمة تستأثر بالمجالين السياسي والعسكري في نهاية القرن الثاني عشر. وظلت منذ ذلك التاريخ مهيمنة على السلطة حتى عام إصلاحات الميجي (١٨٦٨)، أي ما ينيف على سبعة قرون. أما الأُسر المحاربة أو النخب التي كانت تجيد المهارات الحربية وركوب الخيل وتتميز من فئة الفلاحين، وربما شكلت الأصول البعيدة للساموراي والأُسرة الإمبراطورية ذاتها، فيرجع وجودها إلى المراحل المبكرة لنشأة الدولة اليابانية في القرن الرابع الميلادي، وربما قبل هذا التاريخ. وقد اندمج البعض من هذه الأُسر في النظام الإمبراطوري، فشكّل قسماً مهماً من حاشية الإمبراطور والطبقة الأرستقراطية المقيمة في العاصمة، أو عمل في إدارة الأقاليم، بينما استقرت أُسر أخرى في البوادي، بالقرب من ممتلكاتها الزراعية، حيث شكلت فئة متميزة من الفلاحين بمهاراتها الحربية وحملها للسلاح.

كان وراء صعود الساموراي ووصولهم إلى السلطة في القرن الثاني عشر عدد من الأسباب، منها الاعتماد عليهم كقوة فاعلة في حفظ الأمن في البلاد عندما عجزت الدولة الإمبراطورية عن الاستمرار في رعاية جيش نظامي على النمط الصيني، الذي كان يتطلب التزويد المستمر بالأسلحة والعتاد واللباس والمأوى والمؤن. ومنها التطورات التي عرفتها وضعية الأراضي الزراعية وظهور أراضي الشوين، وما نجم عن ذلك من حاجة أصحاب الحق فيها إلى من يحمي مصالحهم.

كانت التنظيمات الأولى للساموراي تتم في إطار أُسري؛ فمتزعمو فرق البوشيدان كانوا يختارون أتباعهم من أفراد أُسرهم أو عشيرتهم (أوجِي) لا من غيرها. وفي الوقت ذاته كانت هذه التنظيمات غير قارة؛ إذ كانت تُحل بمجرد انتهاء الحاجة إليها أو انتهاء المعركة التي جُندت من أجلها. ولم تعد أكثر استقراراً وميلاً إلى الاستمرارية إلا في القرن الحادي عشر، حين أصبحت قوة تضم أفراداً لا تربطهم علاقة قرابة. ذلك أن الأُسرة الأصلية كان ينضم إليها أفراد من غير ذوي القربى، يدخلون في علاقة تبعية مع متزعمها فتصبح تلك العلاقة متوارثة على مدى أجيال. وقد ساهم التعاون بين الأُسر المتزعمة وأُسر الأتباع، سواء في العمل العسكري أو الدفاع عن المصالح الاقتصادية للأُسرة، في خلق رابطة تبعية قوية لا تقل متانة عن علاقة القرابة. ومنذ القرن الثاني عشر، أصبحت هذه المجموعات المتخصصة بالمهارات العسكرية تتفرد بهوية مستقلة ومكانة اجتماعية

خاصة وتنظيمات داخلية مبنية على أساس ثقافة مشتركة. كما أصبح الانتماء إلى هذه الفئة متوارثاً في أُسر بعينها.

١ ـ البوشيدو

إن هوية الساموراي الخاصة لا تتمثّل في المهارات الحربية والاختصاص بها فحسب، وإنما تتمثّل أيضاً في ما ميزهم من الفئات الأخرى من ثقافة وأخلاق وسلوك ونمط عيش. ويُعرف هذا كله بالبوشيدو (طريق المحاربين) أو بأخلاق الفروسية التي كانت بمثابة قانون غير مدون تشكّل عبر مئات السنين من الممارسة العسكرية، وبتأثير من المعتقدات والتيارات الفكرية التي سادت في اليابان. وقد عرّف **إينازو نيتوبي**[٨] البوشيدو على النحو التالي:

هو قانون المعايير والمبادئ الأخلاقية التي كان على الفرسان أن يخضعوا لها. إنه ليس قانوناً مدونا مكتوباً، ولكنه يتكون على الأكثر من بعض المبادئ التي انتقلت مشافهة، أو التي دونتها أقلام بعض المحاربين أو العلماء المشهورين. والأهم أن هذا القانون غير الملفوظ أو المدون كانت له السلطة العليا في تقييم كل الأفعال. . . لقد كان هذا القانون تطوراً عضوياً لقرون وعقود من العمل العسكري. إنه يحتل في تاريخنا الأخلاقي نفس المكانة التي يحتلها الدستور الإنكليزي في التاريخ السياسي[٩].

يحوي البوشيدو عدداً من المبادئ الأخلاقية المستقاة من عبادة الشنتو والبوذية ومذهب الزن والكونفوشيوسية، إضافة إلى بعض الممارسات التي اختص بها الساموراي. وعلى رأس هذه المبادئ: «الاستقامة»، التي هي، في رأي الساموراي، «أساس القوة وعماد مكانة الشخص»[١٠]؛ والصدق أو الإخلاص الذي يعتبره الساموراي أساس مكانتهم الاجتماعية التي تميزهم من الفئات الأخرى، و«الشجاعة والقدرة على التحمل» اللتين لا تكونان فضيلة عند الساموراي إلا إذا كانتا دفاعاً عن الحق والصواب؛ فالشجاعة الحقيقية هي «أن

---

(٨) يعتبر إينازو نيتوبي (Inazo Nitobe) (١٨٦٢ ـ ١٩٣٣) من أهم الكتّاب اليابانيين الذين تناولوا موضوع البوشيدو باللغة الإنكليزية. وقد نال كتابه شهرةً واسعة وأصبح أهم مرجع في هذا الباب. وعن أهمية هذا الكتاب في فهم الثقافة اليابانية المعاصرة، انظر مقدمة المؤلف، ومقدمة المترجم، في: إينازو نيتوبي، **البوشيدو: روح اليابان**، ترجمة نصر حامد أبو زيد (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣).

(٩) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٨٧.

تحيا حين يكون الصواب أن تحيا، وأن تموت حين يكون الصواب أن تموت»[(١١)]. وقد كان أطفال الساموراي يربَّون على تحمل المشاق وعدم الرهبة، على نحو قريب من تربية المحاربين في إسبارطة اليونانية. غير أن الشجاعة كانت مقرونة بالرحمة والتعاطف والإحساس بآلام الآخرين، وكانت مقرونة أيضاً بالرقة والأدب والمجاملة التي هي من الفضائل التي يحرص عليها الساموراي واليابانيون عموماً. ومن المبادئ الكونفوشيوسية التي أصبحت عماد أخلاق الساموراي، الولاء التام للسيد، والتضحية بالروح في سبيله، فالولاء هو اللحمة التي كانت تجمع بين الساموراي، وتشكّل مصدر قوتهم وحجر الزاوية في شرف الساموراي.

تأثرت أخلاق الساموراي أيضاً بمذهب الزن المتفرع عن البوذية والمتأثر، بدوره، بالكونفوشيوسية الجديدة. وقد كان مذهب الزن يدعم الساموراي أخلاقياً وفلسفياً، ذلك أن مبادئه ـ التي تدعو إلى النظر إلى الأمام وعدم الالتفات إلى ما فات، وإلى تساوي الموت والحياة، واستعمال الحدس في إدراك الحقيقة، والاعتماد على الذات ـ كانت الموجّه لسلوك الساموراي، فمثلاً كان الإقدام وعدم الرهبة من الموت، بل وتفضيله على الحياة في حال الهزيمة، شعارهم في كل معركة[(١٢)].

لا يمكن الحديث عن الساموراي وأخلاقهم (البوشيدو) دون الإشارة إلى الانتحار الطقوسي (سيبوكو (Seppuku) أو هارا ـ كيري (Hara-kiri))، الذي كان من الممارسات التي اختصوا بها ولم يكن لغيرهم الحق أو شرف القيام بها. والسيبوكو ليس انتحاراً عادياً أو سلوكاً جباناً، بل هو شعيرة تمثّل أقصى درجات الشجاعة والانضباط والإحساس بالمسؤولية وعدم الخوف من الموت، وواجباً يطوق أعناق الساموراي الذين عليهم أن يكونوا مستعدين للقيام به في أية لحظة، فهم لذلك يحملون سيفاً قصيراً لا يفارقهم، ذلك أن الموت بهذه

---

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٣.

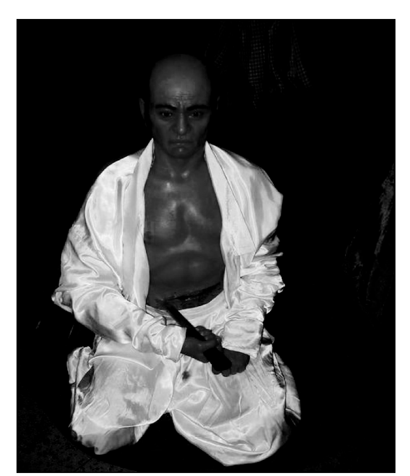
(١٢) في ما يخصّ علاقة أخلاق الساموراي بمذهب «الزن»، انظر الفصل الذي خصّصه الباحث «دايسيتز سوزوكي» لهذه العلاقة: Daisetz Teitaro Suzuki, *Zen and Japanese Culture* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958), pp. 61-85.

أما عن تفضيل الموت على الحياة، فيقول أحد منظّري البوشيدو في مطلع القرن الثامن عشر، وهو ياماموتو تسونيتومو: «قد تذهب حياتك سدى إن لم تُنجز ما أنت مهيأ له. عندما تكون مضطراً إلى الاختيار بين الحياة والموت، فإن أحداً لا يعرف ما ستأتي به الأيام. والإنسان يرغب عادة في البقاء على قيد الحياة، ويعقلن سلوكه على هذا الأساس. وفي هذه اللحظة بالذات، إن أخطأ رجل الساموراي هدفه واستمر حياً فإنه يُعتبر جباناً».

وردت هذه الفقرة ضمن نص للكاتب ذاته أورده ديفيد لو في نصوصه المنشورة، انظر: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, p. 262.

الطريقة مثّل لدى الساموراي لحظة في غاية الأهمية لإنقاذ الشرف والاهتمام باستمراره بعد الموت. وعن هذا يقول **إينازو نيتوبي**: «الموت في سبيل الشرف كان أمراً تقبّله الساموراي من عقيدة البوشيدو بوصفه مفتاحاً لحل كثير من المشكلات المعقدة، لدرجة أن الموت الطبيعي كان يبدو في نظر الساموراي الطموح أمراً عادياً لا يصح أن يتمناه الإنسان»(١٣). وهو يضيف أن سيبوكو «شعيرة يكفّر المحاربون بها عن جرائمهم، وبها يعتذرون عن أخطائهم، وبها يغتسلون من العار ويتطهرون، ومن خلالها يثبتون إخلاصهم وولاءهم ويرفعون عن كاهل أصدقائهم الأوزار»(١٤).

وهكذا، كان رجال الساموراي يقدمون على هذا الانتحار الطقوسي في حال الشعور بأن عاراً لحق بهم وبأسرهم، أو للاعتراف بخطأ ارتكبوه، أو للتعبير عن ولاء لسيد افتقدوه. كما أن الشجون والدايميو كانوا يأمرون أتباعهم الساموراي بالقيام به في حال ارتكابهم جرماً جزاؤه الموت، على أساس أن في السيبوكو تشريفاً لهم وحفظاً لكرامتهم.





لا يُعرف بالضبط متى ظهرت شعيرة الانتحار هاته، غير أنها ارتبطت بتاريخ الساموراي وصعودهم إلى السلطة؛ فالإشارة إليها لم تبدأ إلا في قصص الملاحم في منتصف القرن الثاني عشر، وكانت في البداية تتم على أرض المعركة. وربما أخذت شكلها النهائي وترسخت في القرون التالية، خاصة إبان

(١٣) نيتوبي، **البوشيدو: روح اليابان**، ص ١٦٣.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

الحرب الأهلية[١٥]. ففي زمن بعثات التبشير في منتصف؟ القرن السادس عشر، أشار المبشرون في تقاريرهم إلى أن الهاراكيري كان عادة مستحكمة لدى الساموراي وبالمواصفات ذاتها التي استمرت عليها حتى الوقت الراهن[١٦]. وعلى أي حال، كانت في عصر **توكوغاوا**، وإلى فترة قريبة[١٧]، وبحسب الشهادات العينية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، تجري في مكان عام وبحضور شهود، من بينهم الأصدقاء المقربون من المنتحر. فحسب إحدى هذه الشهادات (١٨٦٨)[١٨]، حضر المزمع على الانتحار إلى معبد للشنتو برفقة أصدقائه وعدد من الشهود، وبعد أن ألقى كلمة يعترف فيها بذنبه، حيا الحاضرين، وطلب منهم أن يكونوا شهوداً على تكفيره عن ذنبه[١٩]. بعد ذلك، تقدم إلى مكان قبالتهم وجلس القرفصاء (أو الجلوس على الطريقة اليابانية الذي يشبه جلوس المسلم في حالة التشهد في الصلاة) ثم رفع ثيابه

---

(١٥) Eiko Ikegami, *The Taming of the Samurai: Honorific Individualism and the Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995), pp. 103-105.

أوّل إشارة إلى الانتحار بطريقة قريبة من الهاراكيري وردت في نهاية القرن العاشر الميلادي (٩٨٨). انظر: Jack Seward, «Harakiri,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 101-102.

(١٦) لعلّ أهم إشارة واضحة إلى الهاراكيري هي تلك التي تضمنها تقرير أليساندرو فالينيانو (Alessandro Valignano) الذي وصف الكيفية التي تتمّ بها العملية، والشرف الذي يحققه الساموراي من وراء القيام بها. انظر: Michael Cooper, *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543-1640*, Publications of the Center for Japanese and Korean Studies (Berkeley, CA: University of California Press, 1981), pp. 161-162.

(١٧) تجدر الإشارة إلى أن إصلاحات الميجي لم تُلغ أو تُجرم الانتحار على طريقة الهاراكيري، بل جرى الإبقاء عليه كتعبير عن الشجاعة حتى وإن كانت تعدّ وسيلة من وسائل العقاب. فعند وفاة الإمبراطور الميجي (١٩١٢)، قام الجنرال نوغي ماريسوكي (Nogi Maresuki) (١٨٤٩ ـ ١٩١٢) بالانتحار على طريقة الهاراكيري، تعبيراً عن وفائه للإمبراطور. وبعد أن أعلن الإمبراطور هيرو هيتو الاستسلام للحلفاء عام ١٩٤٥، أقدم عدد من اليابانيين على الانتحار أمام قصر الإمبراطور. ولعلّ أشهر انتحار بهذه الطريقة في القرن العشرين، هو انتحار الكاتب الياباني ميشيما يوكيأو (Mishima Yokio) (١٩٢٥ ـ ١٩٧٠) بطريقة درامية في مبنى وزارة الدفاع عام ١٩٧٠، كوسيلة للمطالبة بالعودة إلى القيم اليابانية التقليدية.

(١٨) هناك مشاهدات كثيرة رواها الزوار الأوروبيون عن عمليات الانتحار الطقوسي، ومن أشهرها تلك التي أعاد نشرها إينازو نيتوبي في مؤلفه عن البوشيدو، والمتعلقة بالمشاهدة العينية التي سجلها ألجيرنون ميتفورد (Algernon Mitford) عام ١٨٦٨، وكان المنتحر هو تاكي زينزابورو، الذي كان مسؤولاً عسكرياً أمر بإطلاق النار على أجانب في مدينة كوبي، وصدر في حقه الحكم بالإعدام على طريقة الهاراكيري. وهي الرواية التي استقينا منها هذا الوصف. انظر: المصدر نفسه، ص ١٦٤ ـ ١٦٦.

(١٩) كان مما قاله تاكي زينزابورو: «أنا - وأنا فقط - الذي أصدرت بلا مبرر إطلاق النار على الأجانب بمدينة كوبي، وأنا الذي أصدرت الأمر مرة أخرى حين حاول الأجانب الهرب. من أجل هذه الجريمة سأقوم بقتل نفسي طعناً بالسيف، وأتوجه بالرجاء إلى جميع السادة الحاضرين هنا أن يشرفوني بمشاهدتي وأنا أكفّر عن جريمتي». انظر: المصدر نفسه، ص ١٦٦.

حتى كشف عن بطنه[٢٠]، وأخذ بعناية سيفاً كان موضوعاً أمامه، ثم طعن نفسه طعنة نافذة في الجهة اليسرى من أسفل النطاق، ثم حرك السيف بحركة بطيئة من اليسار إلى اليمين، ثم أعاده ثانية إلى مكان الطعنة الأولى، ثم أخرج السيف وهو يحاول جهده ألا يظهر الألم على ملامحه أو يسقط رأسه إلى الخلف. آنذاك تقدم أقرب أصدقائه، وأخذ سيفاً بتاراً حز به رأسه تكريماً له وأداء لآخر واجب في حقه.

٢ ـ الساموراي في عصر توكوغاوا

كان الساموراي في نهاية عصر **توكوغاوا** يشكّلون نسبة تتراوح بين ٥ و٦ بالمئة من مجموع السكان البالغ آنذاك زهاء ٣٠ مليون نسمة؛ أي أن عددهم كان في حدود مليوني نسمة[٢١]. وكانت وضعيتهم قد تأثرت بالإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** في نهاية القرن السادس عشر (١٥٨٦)، وكان همها جمع الأسلحة من الفلاحين وغيرهم، وتثبيت الوضع الاجتماعي في فئات قارة؛ إذ أضحى الساموراي في إثرها يشكّلون فئة منغلقة يستحيل الولوج إليها ويُمنع على أفرادها العمل في مجالات أخرى من غير العمل العسكري. كما تأثرت بالإجراءات التنظيمية التي اتخذها الشجون الأوائل والتي نصت على إقامة الساموراي في المراكز الحضرية، وتفادي الاحتكاك المباشر بالفلاحين، وأيضاً حضهم على التعليم وعدم الاقتصار على المهارات الحربية[٢٢]. وتعتبر العقود الأخيرة من القرن السادس عشر والعقود الأولى من القرن السابع عشر فترة انتقالية في حياة الساموراي، ففيها تحولوا من مالكين أو شبه مالكين للأراضي الزراعية ومتحكمين في العاملين فيها إلى مجرد أتباع يقيمون في القلاع ويحصلون على رواتب أو معاشات محددة من الدايميو والشجون. كما أن السلطة تسربت من بين أيديهم لتتركز في أيدي الدايميو

---

(٢٠) اختيار البطن كمكان في الجسد لقتل النفس له دلالات في الثقافة اليابانية، فالبطن هو مركز الجسد وموطن الروح والرغبات والأحاسيس. انظر: Seward, «Harakiri,» p.101.

(٢١) كان عدد أُسر الساموراي، حسب الإحصاء الذي أجري عقب إصلاحات الميجي، ٤٠٨,٨٢٣ أُسرة، وعدد الساموراي الإجمالي: ١,٨٩٢,٤٤٩ نسمة. انظر: Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 105.

وربما كانت نسبة الساموراي في بداية عصر توكوغاوا أكثر من نسبتهم في آخر هذا العصر، على أساس أن عدداً من أُسر الساموراي تخلّت عن وضعها بسبب الظروف الاقتصادية.

(٢٢) صدر في حق الساموراي مرسوم عام ١٦١٥ الذي يُعرف بـ «بوكي شوهاتو» (Buke-Shohatto)، والذي حدّد وضعيتهم وسلوكهم. ولنا عودة إلى هذا المرسوم في الفصل الرابع الخاص بمؤسسة الشجون من هذا القسم.

في الأعلى وأيدي الفلاحين المسؤولين عن تسيير قراهم في الأسفل(٢٣).

لم يكن كل الساموراي في عصر **توكوغاوا** مرتبين أو معتبرين في مكانة موحدة، إذ كانت هناك تراتبية قائمة داخل هذه الفئة ذاتها، كما سبقت الإشارة. ومبدئياً كان هناك الساموراي المرتبون في درجات عليا (جوشيزوكو) والمرتبون في درجات دنيا (كاشيزوكو)، وداخل هذه الثنائية كانت هناك درجات أو رتب فرعية تتراوح، بحسب الهانات، بين ٤٠ و٥٠ رتبة. فمثلاً، أحصى **فوكوزاوا يوكيتشي** في الهان الذي ولد فيه شمال كيوشو (ناكاتسو Nakatsu) قرابة ١٠٠ رتبة، في حين لم يكن عدد الساموراي في تلك المقاطعة يتعدى ١٥٠٠ فرد(٢٤). وقد كان هذا الترتيب ينعكس على الساموراي من حيث وضعهم ومهامهم الإدارية أو العسكرية التي يمكن أن يقوموا بها، ومن حيث الراتب أو المعاش الذي يحصلون عليه من الدايميو الذي يعملون في خدمته(٢٥). وعموماً كان التراتب يشمل الدايميو وأُسر الأتباع على حد سواء، فالدايميو كانوا مرتبين بحسب العلاقة التي تربطهم بالشجون وبحسب إنتاج أراضيهم من الأرز. كما كان الساموراي مرتبين بحسب قربهم من الدايميو الذي على أساسه تحدد مكانتهم ومهمتهم العسكرية ومعاشاتهم. وقد كان من الصعب على الساموراي المرتبين في

---

(٢٣) بهذا الصدد، انظر مقالة مايكل بريت، التي يحلّل فيها وضعية الساموراي في سهل كانتو في أواخر القرن السادس عشر، وبعد معركة سيكي - غاهارا. انظر: Michael P. Birt, «Samurai in Passage: The Transformation of the Sixteenth-Century Kanto,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 11, no. 2 (Summer 1985), pp. 369-399.

(٢٤) Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 105.

(٢٥) لنا عودة إلى موضوع الساموراي وتراتبيتهم في الفصل الخامس الخاص بمؤسسة «الهان».

أما عن الفروق بين الساموراي المرتبين في الدرجات العليا والآخرين المرتبين في الدرجات السفلى، فيصفها فوكوزاوا يوكيتشي في سيرته الذاتية (وهي مترجمة إلى اللغة العربية) على النحو التالي: «كان الشيء الذي أحزنني أشد الحزن في **ناكاتسو** هو القيد النابع من المرتبة والوضع الاجتماعي، فقد كانت ألوان التفرقة بين من هم في المراتب العليا ومن هم في المراتب الدنيا محددة بوضوح لا في المناسبات الرسمية فحسب، وإنما كذلك في غمار التفاعل الاجتماعي الخاص، بل وبين الأطفال. فقد كان أبناء عائلات الساموراي الأدنين، مثل عائلتنا، مجبرين على استخدام طريقة مفعمة بالاحترام في المخاطبة لدى الحديث مع أبناء عائلات الساموراي ذات المقام الرفيع، بينما كان هؤلاء الأبناء الأخيرون في كل الأحوال يستخدمون طريقة مفعمة بالصلف والغرور في مخاطبتنا». انظر: فوكوزاوا يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١)، ص ٤٩ ـ ٥٠.

في هذا الصدد، انظر أيضاً السيرة الذاتية لكاتسو كوكيتشي (Katsu Kokishi)، وهو ساموراي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان مصنفاً في الرتب الدنيا للساموراي، ففي هذه السيرة يروي حياته بالتفصيل ويصف معاناته. انظر: Katsu Kokichi, *Musui's Story: The Autobiography of a Tokugawa Samurai*, Translated by Teruko Craig (Tucson: University of Arizona Press, 1988).

درجات سفلى الترقي إلى رتب عليا مهما بلغت مهاراتهم الفردية ومعرفتهم، كما كان شبه متعذر عليهم الزواج من أُسر الساموراي العليا. ومع ذلك ظل الزواج والتفوق في التعليم من بين الوسائل القليلة التي تتيح للفرد الترقي في حدود معينة.

وإضافة إلى هذا التصنيف العمودي أو التراتبي، يمكن تصنيف الساموراي في عصر **توكوغاوا** بين الساموراي التابعين للشجون مباشرة والآخرين العاملين في خدمة الدايميو. ويُعرف أولئك التابعون للشجون بهاتاموتو (Hatamoto) أو حملة الأعلام (هاتا تعني العلم)، وهم من أُسر الساموراي التي كانت في خدمة **توكوغاوا إياسو**، منذ البداية، وظلت وفية له وحاربت إلى جانبه في معركة **سيكي ـ غاهارا**. وقد شكّل هؤلاء طوال عصر إيدو القوة العسكرية للشجون، والمورد البشري الذي يزودهم بموظفي إدارتهم المركزية، ووكلاءهم الذين يديرون الأراضي التابعة لهم. وغني عن القول إنهم كانوا هم أيضاً خاضعين لترابتية، شأنهم شأن باقي أُسر الساموراي.

ظهر في أواخر القرن السادس عشر فصيل من الساموراي يُعرف بـ رونين (Rōnin)[٢٦]. ويتكون هؤلاء من الأتباع الذين فقدوا الصلة بسادتهم، وأصبحوا أحراراً خارج التنظيم التقليدي للساموراي وعاشوا في وضع مهمش لم يعد لهم فيه معاش منتظم يسترزقون منه أو سيد يخدمونه أو واجبات تثقل كاهلهم، غير أنهم لم يفقدوا تماماً مكانتهم الاجتماعية وانتماءهم إلى فئة الساموراي. وقد تكاثر هؤلاء في بداية عصر **توكوغاوا**، خاصة بعد معركة **سيكي ـ غاهارا** التي خسر فيها عدد من دايميو الدويلات المتحاربة أراضيهم ونفوذهم؛ إذ قُدرت أعداد من انضموا إلى صفوف الرونين في إثر المعركة بـ ٤٠٠ ألف فرد. وكان البعض من هؤلاء يشكّلون مصدر قلق أمني في المدن والقلاع، حيث اشتهروا بالعربدة والانحراف وتعاطي الجريمة وتأجير مهاراتهم العسكرية لكبار التجار. كما استغلوا بعض المناسبات لإظهار عدائهم لسلطات الشجون، مثل انضمام أكثر من ١٠٠ ألف منهم إلى صفوف **تويوتومي هيدي ـ يوري** (ابن **هيدي ـ يوشي**) عندما

(٢٦) «رونين» مصطلح استُعمل بداية في العصور القديمة للدلالة على الفلاحين الذين يغادرون بلدهم الأصلي ليعملوا في جهات أخرى. كما استُعمل في العصور الوسطى للدلالة على الساموراي الذين يفقدون الصلة بسادتهم، غير أن شيوعه لم يكن إلا في نهاية القرن السادس عشر، بعد حروب التوحيد التي فقد فيها الكثير من الدايميو سلطتهم ومناطق نفوذهم، ومن ثم فقد الكثير من أتباعهم امتيازاتهم. انظر: Charles Dunn, «Rōnin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, pp. 236-237.

حاصرت قوات إياسو قلعته عام ١٦١٤[٢٧]. وكذا انضمام الكثيرين منهم في منتصف القرن التاسع عشر إلى الحركات المعادية للشجون التي ساهمت في سقوط شجونة توكوغاوا (١٨٦٨)، ذلك أن عدداً من الساموراي تحرر طواعية من التبعية، وانضم إلى هذه الحركات مقتنعاً. غير أن الانحراف لم يكن سمة عامة للرونين كلهم، بل إن في تعميم هذه السمة عليهم مبالغة وبُعداً عن الحقيقة، ذلك أن الساموراي من ذوي المعرفة الذين فقدوا وضعهم وامتيازاتهم، كانوا يفضلون العمل في التعليم والكتابة (الكتابة المسرحية وغيرها) والرسم وغير ذلك من الفنون والحرف، التي كانت تمنحهم وضعاً قاراً ومصدر عيش، وقد كان من بينهم معلمون وأدباء مشهورون. كما اندمج الكثير منهم في نسيج المدن التي تكاثرت أعدادها وتعددت حاجياتها خلال عصر **توكوغاوا**.

فقد الساموراي في عصر **توكوغاوا** وظيفتهم الأساسية بعد أن عمّ السلم، وقلت الحاجة إلى مهاراتهم العسكرية؛ فباستثناء الوظائف الإدارية التي كانت توكل إلى البعض منهم، كانوا من المنظور الاقتصادي مجرد عالة تعيش على إنتاج الفئات الأخرى. ومع ذلك، ظل الساموراي، على اختلاف حيثياتهم ومراتبهم، سادة الفئات الأخرى التي كان من واجب أفرادها إبداء الاحترام نحوهم. فحسب الصورة الكاريكاتورية التي تُرسم عنهم، كان رجل الساموراي يجرب سيفه الجديد أو يتأكد من حدته بقطع رأس أول رجل يصادفه من العامة. وعلى الرغم مّما يطبع هذه الصورة من مبالغة لا صلة لها بالواقع، فإنها تعكس بوضوح التمييز أمام القانون الذي كان قائماً بين الساموراي والفئات الأخرى. فقد كان من حق رجل الساموراي أن يعاقب من العامة كل من يقلّل أدبه عليه أو يعامله بطريقة غير ملائمة، دون أن يكون هو عرضة للمساءلة القانونية.

تميز رجال الساموراي، من حيث المظهر والعلاقات اليومية، بحمل الأسماء العائلية التي كان يُمنع على العامة اتخاذها، وكذا حمل السلاح المتمثّل في سيفين، أحدهما طويل حاد الجانبين يُستغل في المبارزة، وآخر قصير يُستعمل في شق البطن عند القيام بالسيبوكو. كما اختُصوا بلباس يميزهم من الفئات الأخرى

(٢٧) سنعود إلى هذا الحدث في الفصل الرابع الخاص بمؤسسة الشجون. وعموماً اشترك الرونين في عدد من التمردات ضد السلطات المركزية، ومن أشهرها التمرد الذي وقع عام ١٧٠٣ واشترك فيه ٤٧ من الرونين الذين انتقموا لما صدر في حق سيدهم أسانو ناغانوري (Asano Naganori) من حكم بالإعدام. وهو حدث راسخ في الذاكرة الشعبية، وقد حوّل إلى مسرحية وعُرض على خشبة المسرح. انظر: Mikiso Hane, «Forty-Seven Rōnin Incident,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, pp. 227-228.

وباستعمال الأصناف الراقية منه، خاصة الأثواب الحريرية التي كانت وقفاً عليهم. وقد مثّل اللباس أيضاً شارة تميز كبار الساموراي (الدايميو وغيرهم من الساموراي المرتبين في أعلى الدرجات) من صغار أتباعهم ذوي الرتب الدنيا[٢٨]. ومن العلامات الظاهرة التي كانت تميزهم تسريحة الشعر التي لم يكن الحق لأي من أفراد الفئات الأخرى تقليدها. وعموماً، كانت مكانة رجال الساموراي تُعرف من مظهرهم الخارجي ومن عدد الأتباع الذين يسيرون خلفهم. كما كان محرماً عليهم، من حيث المبدأ، زيارة أحياء المتعة أو ارتياد المسارح، لذا كانوا يعمدون إلى إخفاء هويتهم إن هم قاموا بزيارة هذه الأماكن. وعلى أي حال، تدنت الأوضاع المادية للكثير من الساموراي في نهاية عصر **توكوغاوا** بينما ازدادت ثروة التجار. والسبب هو زيادة الاعتماد على النقد في التعامل التجاري، وتدنّي أسعار الأرز الذي كان الأساس في حساب المعاش الذي يتلقونه من الدايميو. وهكذا لم يبق لهم سوى الاعتبار المعنوي والمعاش السنوي الذي لم يعد كافياً لسد حاجاتهم، وكان ذلك من الأسباب التي دفعت بالبعض إلى التخلي طواعية عن الانتماء إلى فئة الساموراي والالتحاق بسكان المدن.

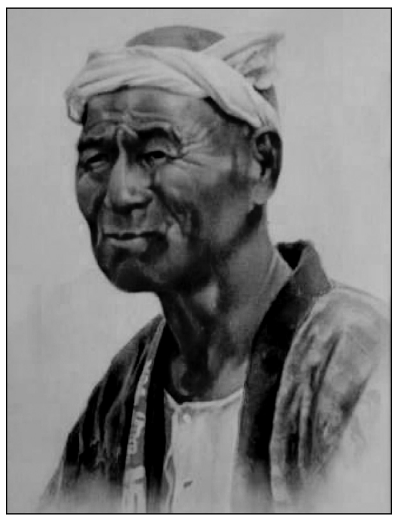
ثالثاً: الفلاحون (هياكوشو)[٢٩]

شكل الفلاحون في عصر **توكوغاوا** الغالبية العظمى؛ فحسب جُل التقديرات، كانوا يمثّلون نسبة ٨٠ بالمئة من مجموع سكان اليابان قبيل إصلاحات الميجي. وعلى الرغم من كثرة عددهم، فإنهم كانوا أقل الناس مشاركة في السلطة العامة، بينما كانت تقع على عاتقهم أعباء خدمة الأرض وأداء الجباية والقيام بمختلف التكليفات، إضافة إلى واجب الطاعة، والرضا بالقليل، والخنوع لقهر الساموراي. وكانت أوضاع الفلاحين، على اختلاف حيثياتهم، قد تأثرت بالإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** في أواخر القرن السادس عشر، والتي

(٢٨) حسب المرسوم الخاص بالساموراي الصادر عام ١٦٣٢، فإنه يجب ألّا يحصل أي خلط في صنف اللباس بين من هم في الأعلى ومن هم في الأسفل، ويجب أن يكون هناك تمييز بين السادة وأتباعهم. وقد عيّن المرسوم صنف اللباس لكل منهم. انظر: Donald H. Shively, «Sumptuary and Status in Early Tokugawa Japan,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 25 (1964-1965), p. 144.

(٢٩) «هياكوشو» (Hyakushō) هو المصطلح الذي كانت فئة الفلاحين تُعرف به في عصر توكوغاوا. وهو مصطلح قديم الاستعمال، كان يخص شريحة معيّنة من الفلاحين، غير أنه أُطلق بصفة عامة على جميع الفلاحين في عصر توكوغاوا بعد أن جرى تقسيم المجتمع إلى أربع فئات. انظر: Minegishi Sumio, «Hayakushō,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 249.

تمثّلت في تجريدهم من الأسلحة، والفصل التام بينهم والساموراي، وفي المسح العام للأراضي (تايكو كينتشي) الذي أسفر عن إحصاء مختلف الأراضي وتقدير إنتاجها بمعيار موحد (كوكو/أرز)، والذي على أساسه كانت تُحسب الجباية التي يقدمها الفلاحون. وكان من نتائج هذه الإجراءات أيضاً وقف الحركية الاجتماعية للفلاحين، وتقييدهم في فئة معيّنة لا منفذ لهم للخروج عن حدودها. فقبل ذلك التاريخ، لم يكن الباب مغلقاً تماماً أمام الفلاحين لتغيير وضعهم؛ فأودا نوبوناغا، على سبيل المثال، جنّد الكثير من الفلاحين في صفوفه الذين شكّلوا قسماً من جنود المشاة وحملة البنادق، وتحولوا في نهاية الأمر إلى ساموراي[٣٠] ـ ولربما كان والد **هيدي ـ يوشي** نفسه نموذجاً في هذا الباب. وبموجب إجراء الفصل بين الساموراي والفلاحين، كان على الساموراي/المزارعين الاختيار بين البقاء ضمن فئة المحاربين والاحتفاظ بامتيازاتها، أو الاستمرار في النشاط الزراعي والتخلي عن أسلحتهم والعمل العسكري.



وقد اختار البعض منهم النشاط الزراعي اعتباراً لاتساع ممتلكاتهم الزراعية وتعدد مصالحهم بها، وهم الذين أصبحوا، في عهد إيدو، يشكّلون الشريحة العليا ضمن فئة الفلاحين. مع الإشارة إلى أن هذا الاختيار كان نهائياً ويطاول الجميع، فكل من قيد نفسه في سجلات الإحصاء في فئة أو حرفة ما، كان عليه البقاء في الوضع الذي اختاره وعدم تغييره أو مغادرة محل إقامته.

كان الفلاحون في عصر **توكوغاوا** محكومين بجملة من القوانين والتشريعات العامة التي أصدرها الشجون الأوائل في القرن السابع عشر، وبالقوانين الخاصة التي كان يطبّقها كل دايميو على حدة في «هانه». فعلى الرغم من أن غالبية الفلاحين لم تكن تابعة للسلطة المركزية، فإن الشجون اهتموا بشؤونهم بغية ضمان

(٣٠) انظر: Furushima Toshio, «The Village and Agriculture during the Edo Period,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, pp. 478-483.

وحسب هذا المرجع، جرى الكشف أخيراً عن عدد من وثائق ترجع إلى أُسر من الفلاحين تثبت أن أصولهم تعود إلى ساموراي من عهد الدويلات المتحاربة.

الاستقرار الاجتماعي من جهة، وتأمين استخلاص الجباية والتكليفات من جهة أخرى. وهكذا أصدروا مجموعة من المراسيم بشأن أوضاع الفلاحين القانونية والواجبات المنوطة بهم؛ فما إن تولى **إياسو** السلطة عام ١٦٠٣ حتى أصدر مرسوماً وضع فيه مسؤولية أداء الجباية على الفلاحين، ومنعهم من مغادرة أراضيهم إلا في الحال الذي يلحق بهم ظلم السادة وعسفهم[٣١]. ثم تلته مراسيم أخرى صدرت على التوالي في: ١٦١٩ و١٦٤٣ و١٦٤٩ و١٦٧٢، اعتمد في وضعها على ما تمليه التعاليم الكونفوشيوسية من سلوك مثالي يجب أن يلتزم به الفلاحون، أو على الأقل ما يجب أن يكون عليه من وجهة النظر الرسمية. ولعل في قراءة البعض ممّا جاء في هذه المراسيم ما يفيد في أخذ فكرة عن أوضاع الفلاحين في عصر **توكوغاوا**. وكان أهم ما ألحت عليه هو الطاعة وأداء الجباية في وقتها، وتخصيص كل وقتهم للعمل دون كلل في الحقول[٣٢]، إضافة إلى تقنين بيع الأراضي ومنع تقسيمها إن وصلت إلى حد أدنى (٢٠ كوكو/أرز)[٣٣]. غير أن هذه المراسيم لم تكتف بالواجبات الأساسية، بل تخطتها إلى جميع دقائق حياة الفلاح اليومية؛ فهناك بنود خاصة باللباس التي تمنع على عموم الفلاحين لبس الأثواب الحريرية، والاكتفاء بالكتان والثياب القطنية، وبنود خاصة بالغذاء والشراب التي تحثهم على عدم الإفراط في استهلاك الأرز وتعويضه بالحبوب الأخرى، وتمنع عليهم صنع شراب الساكي وشراءه وبيعه محلياً، وعدم زراعة التبغ واستهلاكه، بل حددت بنود أخرى كيفية المشاركة في الطقوس الدينية التي

(٣١) نصّ مرسوم ١٦٠٣ الذي يحوي سبعة بنود تتعلق بالجباية وتنقل الفلاحين. انظر: *Japan: A Documentary History*, vol. 1, pp. 210-211.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الدايميو شرّعوا قوانين تمنع هجرة الفلاحين أرضهم منعاً باتّاً، وتعتبر القيام بذالك جرماً جزاؤه الموت. انظر مقتطفاً من نص المرسوم الذي أصدره دايميو توسا (Tosa) (محافظة في جزيرة شيكوكو) عام ١٦١٢ في الدراسة التي قام بها ماريوس جانسن عن هان توسا في القرن السابع عشر: Maurius B. Jansen, «Tosa in the Seventeenth Century,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), pp. 119-120.

(٣٢) فعلى سبيل المثال، يقول البند الأول من مرسوم ١٦١٩، مخاطباً عموم الفلاحين: «اعتبر سيد منطقتك هو الشمس والقمر. احترم الـ«جيتو» (مراقب الأراضي الزراعية الذي كان الشجون والدايميو يعينونهم) الذي تخضع له كما لو كان الـ«أوجي-غامي» التي ترعى المكان الذي يقيم فيه. عامل رئيس قريتك كما لو كان أباً لك». انظر: المرسوم ١٦١٩، في: *Japan: A Documentary History*, vol. 1, pp. 212-213.

(٣٣) المرسوم ١٦٤٣، وهو خاص ببيع الأراضي الذي حدّده في حالات نادرة *Japan: A Documentary History*, vol. 1, p. 211.

والمرسوم ١٦٧٢ الذي منع تقسيم الأراضي: *Japan: A Documentary History*, vol. 1, pp. 211-212.

يجب أن يراعى فيها الوضع الخاص لكل شريحة من الفلاحين[٣٤]. هذا بالإضافة إلى إبداء عظيم الاحترام والتبجيل للساموراي بالانحناء ـ وحتى الركوع ـ إن هم صادفوا واحداً منهم في طريقهم.

كانت فئة الفلاحين في مجموعها محط نظرة دونية وعرضة لجباية مجحفة تمتص فائض إنتاجها، ولا تترك لأفرادها سوى ما يكفي قوتهم اليومي. وكان هذا الإجحاف نابعاً من السياسة العامة للشجون والدايميو تجاه الفلاحين، فحسب ما يروى عن **توكوغاوا إياسو**، أنه كان يوصي وكلاءه الزراعيين، أن يتأكدوا من أن يكون الفلاحون في وضع يمكنهم من البقاء فقط على قيد الحياة[٣٥]. كما يُنسب إلى أحد الدايميو في مطلع القرن السابع عشر قوله: إن على المكلفين بالجباية أن يقوموا، بعد معرفة مقدار الإنتاج السنوي للفلاح، بتقدير معاشه الضروري، ثم يحسبوا الجباية على نحو لا يترك له حبة أرز زائدة، «فطريق الحكم السليم هو التأكد من أن الفلاحين لا يراكمون الثروة، وفي ذات الوقت لا يموتون جوعا»[٣٦]. وقد شبّه أحدهم الفلاحين بحبات السمسم التي كلما عصرتها ازداد عطاؤها زيتاً[٣٧].

أما على الصعيد الفكري أو الكتابة النظرية، فقد استُغلت مبادئ الكونفوشيوسية لتبرير دونية الفلاحين مقارنة بالساموراي، ولم يبدأ الاهتمام بالفلاحين ورفع الحيف عنهم واعتبارهم على قدم المساواة إلا في القرن الثامن عشر، وذلك في إطار التيارات التي ناهضت الفكر الكونفوشيوسي. وقد كان **أنــدو شوئيكي** (Ando Shôeki) (١٧٠٣ ـ ١٧٦٢) من الرواد في هذا الشأن، وممن دافعوا عن حقوق الفلاحين وردّ الاعتبار إليهم. يقول:

الفلاحون يفلحون الأرض وينسجون ملابسهم ويغذون أنفسهم بأنفسهم.. فهم أحرار من الجشع وحب المال ومن الفوضى، فهم الأبناء الحقيقيون للطبيعة. فلا هم نبلاء ولا هم أذلاء، ولا هم في الدرجات العليا ولا في الدرجات

---

(٣٤) كلّ هذه البنود وردت في المرسوم ١٦٤٣ الذي ينظم الحياة اليومية للفلاحين: *Japan: A Documentary History*, vol. 1, pp. 213-214.

(٣٥) Toshio, «The Village and Agriculture During the Edo Period,» p. 494.

(٣٦) يتعلق الأمر بقول منسوب إلى الدايميو هوندا ماسانوبو (Honda Masanobu) (١٥٣٨ ـ ١٦١٦)، انظر: المصدر نفسه.

(٣٧) Mikiso Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, 2nd ed. (Oxford: West View Press, 1992), p. 32.

السفلى، ليسوا حكماء وليسوا سذجاً، لكنهم أحرار من كل أصناف الاستبداد، منسجمون مع القوانين الكونية»[٣٨].

غير أن تشابه وضع الفلاحين العام وخضوعهم لقوانين موحدة لا يعنيان بالضرورة أنهم كانوا يشكّلون طبقة بالمعنى الماركسي، فقد كان من بينهم ملاّك الأراضي ومن يعترف لهم بحق التصرف في قطعة أرضية، كما كان من بينهم من هم في وضعية تبعية متدنية لا تقل عن وضعية الأقنان في النسق الفيودالي الأوروبي[٣٩]. وقد لخص الباحث توماس سميث هذا التنوع بما يلي:

لم يكن الفلاحون طبقة متجانسة، كما يصورها دعاة الكونفوشيوسية. فمجتمع الفلاحين في حد ذاته كان هرماً من الثروة والنفوذ والحقوق القانونية تتدرج شرائحه من المزارعين المستأجرين والخدم في قاعدته إلى ذوي الملكيات الصغيرة والمتوسطة في وسطه إلى ما يمكن تسميته بطبقة من الفلاحين الأغنياء في القمة[٤٠].

وبغض النظر عن الاختلافات الموجودة بين الأقاليم، فإن ساكنة معظم القرى اليابانية في عصر **توكوغاوا**، كانت مرتبة ضمن شرائح تتميز بعضها من بعض بعلاقتها بالأرض وأقدميتها في القرية، وما ينجم عن ذلك من امتيازات. وتتكون الشريحة العليا من الأُسر التي قيدت أسماء أفرادها في سجلات المسح العام وكانت تملك مساحة معيّنة من الأرض والأدوات والدواب اللازمة لحرثها، ممّا يمكّنها من تحقيق فائض بعد أداء الجباية. وتعرف هذه الأُسر في كثير من الأقاليم بهومبياكوشو (Hombyakushu)، حيث كانت لها امتيازات في التسيير الإداري للقرية وجمع الجباية واستغلال الغابات القريبة، وكذا الإشراف على معابد القرية وطقوسها واحتفالاتها الدينية[٤١]. وتقع تحت هذه الشريحة، شريحة ميزونومي (Mizunomi)، وهي مكونة من أُسر تملك قسطاً من الأرض إلا أنها أُسر وافدة لم يكن يسمح لها بالتدخل في التسيير الإداري للقرية. وفي أسفل

---

(٣٨) ورد هذا الاستشهاد مترجماً إلى اللغة الإنكليزية، في: Conrad Tottman, *Early Modern Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), p. 361.

(٣٩) في ما يخص تصنيف الفلاحين واختلاف أوضاعهم، انظر: Thomas C. Smith, *The Agrarian Origins of Modern Japan* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1975), esp. chaps. 1-5, pp. 1-50.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٥٩.

التراتب، كانت هناك شريحة ناغو (Nago) المكونة من الأُسر المعدمة التي لا تملك أرضاً أو حقاً فيها، وكانت تدخل في علاقة تبعية مع الشريحة العليا التي تمكّنها من قطع أرضية وأدوات حرثها وتمنحها مساعدات عينية، مقابل نصيب من الإنتاج وأداء خدمات معيّنة طوال السنة، حيث لم يكن وضعها يختلف عن وضع الأتباع أو الأقنان[٤٢].

وعموماً لم تكن الأوضاع المادية للغالبية العظمى من الفلاحين مريحة، فاعتباراً لقلة السهول وضيق المساحة المزروعة، كانت الملكيات الكبيرة نادرة، إن لم نقل شبه منعدمة. ففي قرية تضم عشرين «إيي» (أُسرة)، كان توزيع الملكية فيها على نحو تقريبي كما يلي:

١٢ ملكية يقل إنتاجها عن ٥ كوكو/أرز (أقل من نصف تشو cho[*] أو نصف هكتار)؛

٥ ملكيات يتراوح إنتاجها بين ٥ و١٠ كوكو/أرز (ما بين هكتار ونصف هكتار)؛

٢ ملكيتان يتراوح إنتاجهما ما بين ١٠ و٢٠ كوكو/أرز (ما بين هكتار وهكتارين)؛

١ ملكية واحدة يفوق إنتاجها ٢٠ كوكو/أرز (أكثر من هكتارين)[٤٣].

هذا بالإضافة إلى الجباية التي كانت تستهلك أكثر من نصف إنتاج الفلاحين، ولم تكن تترك لأغلبهم سوى ما يقتاتون به، كما سبقت الإشارة. وبعملية حسابية بسيطة، فإن ٦ بالمئة من سكان اليابان كانوا يستأثرون بـ ٥٠ بالمئة من إنتاج الأرض، بينما يترك الباقي لـ ٨٠ بالمئة منهم. مع الإشارة إلى أن التطورات الاقتصادية التي عرفها عصر **توكوغاوا** في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تكن في مجملها لصالح الفلاحين، مثل توسع استعمال النقد الذي أضر بمصالح الدايميو والفلاحين على حد سواء، ومع الإشارة أيضاً إلى أن حال

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣٥. كانت أُسر الناغو تقدم جملة من الخدمات إلى أصحاب الأراضي التي تتبع لهم، ولعل أهمها تلك ذات البعد الديني. فمثلاً كانت هناك خدمات معيّنة تقدمها إلى أصحاب الأرض في مناسبة عودة الأرواح (أوبون) وفي رأس السنة.

(*) (تشو = ٠,٩٩ هكتار، وينتج في المتوسط ١٠ كوكو/أرز).

(٤٣) George Sansom, *A History of Japan, 1615-1867* (Tokyo: Tuttle, 1990), p. 96.

الفلاحين كان يزداد سوءاً في فترات المجاعة، التي قلّما حدثت (ثلاث مجاعات خلال عصر إيدو) لكن كان لها أثر بالغ في صغار الفلاحين.

ومع ذلك، من الخطأ تعميم حالة الفقر وتردّي الأوضاع المادية على كل الفلاحين خلال جميع فترات عصر **توكوغاوا**؛ إذ إن الفلاحين وسواهم استفادوا من توسع استصلاح الأراضي الزراعية وزيادة إنتاج الأرز التي كانت سبباً في الطفرة الديمغرافية، وارتفاع مستوى عيش اليابانيين عموماً، خلال هذا العصر، مقارنة بالعصور السالفة. كما أن نمو التجمعات الحضرية الكبرى انعكس إيجاباً على القرى القريبة منها التي كانت تزودها وتسد حاجاتها اليومية من الغذاء وغيره. وكذلك كان ازدهار الزراعات التسويقية والصناعية في بعض المناطق، مثل زراعة القطن ونسج الثياب الحريرية، سبباً في تميز فئة غنية من الفلاحين وارتفاع مستوى عيشها.

لعل السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل كان الفلاحون في عصر **توكوغاوا** راضين بوضعهم ومستكينين للحيف الجبائي دون مقاومة؟ وهو سؤال يتضمن تساؤلاً (ماركسياً) حول مدى ظهور الوعي الطبقي لدى الفلاحين ومساهمة الفلاحين في حركة الميجي. والجواب المبدئي هو أن عدم الرضا، والاحتجاج، والتمرد على الأوضاع شكّلت سمات لازمت سلوك الفلاحين منذ العصور القديمة، واستمرت حتى القرن العشرين[٤٤]. فقد شهدت أراضي الشوين في أواخر عصر هييان حركات احتجاج كان يقوم بها الفلاحون للتعبير عن تذمرهم وعدم رضاهم[٤٥]. وعموماً، فإن انتفاضة الفلاحين وتمردهم (أو إيكي (Ikki) بحسب المصطلح الياباني) كان أمراً شائعاً في تاريخ اليابان قبل توحيدها في نهاية القرن السادس عشر[٤٦]. فقد شهدت الفترات الأخيرة من العصور الوسطى اليابانية، وبخاصة عهد الدويلات المتحاربة، انتفاضات كثيرة اتسمت بالعنف والمواجهة، من أهمها الانتفاضة التي جمعت في صف واحد بين الفلاحين وبعض

---

(٤٤) لم تتحسن أوضاع الفلاحين كثيراً بعد إصلاحات الميجي، ومن ثم استمر احتجاجهم على سلطات الميجي. بهذا الشأن، انظر الدراسة التي خصصها الباحث ميكيسو هاني لأوضاع الفلاحين في عصر الميجي وما بعده: Mikiso Hane, *Peasants, Rebels, and Outcastes: The Underside of Modern Japan* (New York: Panthen Books, 1982).

(٤٥) في ما يخص حركات احتجاج الفلاحين في أراضي الشوين، انظر: Thomas Keirstead, «The Theater of Protest: Petitions, Oaths, and Rebellion in the Shoen,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 16, no. 2 (Summer 1990), pp. 357-388.

(٤٦) عرفت الفترة الممتدة من ١٤٢٨ إلى ١٥٠٠ ما ينوف على ١٠٠ تمرّد.

الطوائف البوذية (مثل **جودو شين**) وعُرفت في تاريخ الفترة بـ «**إيكو إيكي**»[(٤٧)]. ذلك أن الفلاحين كانوا يستعينون بالطوائف البوذية لتنظيم حركاتهم الاحتجاجية ودعمها مادياً ومعنوياً، بينما كانت الطوائف البوذية المتمردة تعتمد على الفلاحين لتشكيل قواتها المحاربة، خاصة أن بعض الفلاحين كان مسلحاً ويتقن المهارات الحربية. أما في عصر **توكوغاوا**، فقد تغيرت أوضاع الفلاحين بسبب الإجراءات المشار إليها، والمتمثّلة أساساً في تجريدهم من الأسلحة وضبط تحركاتهم. غير أن أوضاعهم أضحت أحسن حالاً نسبياً، بعد إبعاد الساموراي عن القرى وأمرهم بالسكن في القلاع وعدم التدخل المباشر في شؤون الفلاحين، الأمر الذي قلل من فرص المواجهة اليومية، وخفف من حدة الصراع بين الفلاحين والساموراي. غير أن كل ذلك لم يمنع حركات الاحتجاج، إنما أثر في أسلوبها ونوعيتها[(٤٨)].

شهد عصر **توكوغاوا**، حسب بحث إحصائي قام به أحد المؤرخين، ما يقارب ٣ آلاف حالة احتجاج وانتفاضة «**هياكوشو إيكي**»[(٤٩)] قام بها الفلاحون (٢٨٠٩ حالات إيكي بين عامي ١٥٩٠ و١٨٦٧)[(٥٠)]، غير أنها كانت حركات محدودة في الزمان والمكان ولم تصل إلى مرحلة التنظيم العام أو الانتفاضة الشاملة لجميع الفلاحين على مستغليهم.

والواقع أن حركات الاحتجاج والانتفاضة لم تكن تهدف إلى تغيير الأوضاع

---

(٤٧) سبقت الإشارة إلى المواجهات العنيفة التي جرت بين أودا نوبوناغا والطوائف البوذية التي وقفت في طريق مشروعه.

(٤٨) كان تمرّد الفلاحين في عصر توكوغاوا من الموضوعات التي استقطبت انتباه الباحثين اليابانيين، خاصة ذوي التوجه الماركسي منهم، وكتب في شأنها الكثير من الدراسات والمقالات باللغة اليابانية. وكذلك كانت حركات احتجاج الفلاحين في العصر ذاته موضوعاً للكثير من الدراسات الموضوعة باللغة الإنكليزية، نذكر منها على الخصوص: James W. White, *Ikki: Social Conflict and Political Protest in Early Modern Japan* (Ithaca: Cornell University Press, 1995), and Stephen Vlastos, *Peasant Protests and Uprisings in Tokugawa Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1990).

وهما المرجعان اللذان اعتمدنا عليهما في إعداد هذه الفقرة، بالإضافة إلى مراجع أخرى سنأتي على ذكرها.

(٤٩) ترددت كثيراً في المصطلح العربي المناسب لترجمة المصطلح الياباني إيكي؛ فأغلب الدراسات الموضوعة باللغة الإنكليزية تترجمه بـ Uprising، وهو المصطلح المستعمل اليوم لوصف الانتفاضة الفلسطينية. غير أن حركات إيكي في عصر توكوغاوا كانت محدودة في الاحتجاج السلمي، والقليل منها هو الذي اتسم بالعنف، ولم تأخذ بعداً يمكن أن يوصف بالانتفاضة إلا في أواخر القرن الثامن عشر. لذا ارتأيت أن من المستحسن استعمال الاحتجاج والانتفاضة بصورة مترادفة على أساس أن يأخذ القارئ بهذا التنبيه.

(٥٠) هذا الرقم مأخوذ عن إحصاء قام به الباحث الياباني آأوكي كوغي (Aoki Kōji) عام ١٩٧١، الذي اعتمد فيه على مراجع محليّة. وقد أصبح هذا الرقم هو المعتمد في جلّ الدراسات التي جاءت بعده. انظر: Vlastos, p. 10.

والثورة على الفئات المهيمنة، أو لم تكن أيديولوجية واضحة تحركها، بقدر ما كانت تعبيراً عن الأزمات التي كانت تمر بها فئة الفلاحين. فأسبابها كانت محددة وواضحة، وتكاد تنحصر في المعاناة الظرفية الناجمة عن ثقل الجباية، وسوء المعاملة من قبل السلطات المحلية، وتأثير السنوات العجاف التي يقل فيها المحصول الزراعي. فحسب الإحصاء المشار إليه، فإن أسباب الانتفاضة كانت في المقام الأول التذمر من الجباية (٢٣ بالمئة)، يليه رفض الإجراءات الإدارية (١٣ بالمئة) ثم طلب الإعانة (٨ بالمئة)، بينما تتوزع النسب الباقية بين أسباب تتعلق بقلة الأرز، والاحتجاج على ظلم سلطات الدايميو والباكوفو، والإجراءات التعسفية التي تتخذها تلك السلطات أحياناً. ويضاف إلى هذه الأسباب، التي تدخل في إطار علاقة الفلاحين بالسلطة وفئة الساموراي، أسباب أخرى لها صلة بالصراع الداخلي بين شرائح فئة الفلاحين ذاتها، أي أسباب تتعلق باحتجاج الفلاحين على مدبري أمور قراهم من أفراد الشريحة العليا منهم[٥١]. كما يستخلص من البحث الإحصائي نفسه أن حركات الاحتجاج والانتفاضة عمت جميع مناطق اليابان، سواء تلك التابعة للشجون أو الأخرى الخاضعة للدايميو[٥٢]، وأن وتيرتها ارتفعت وتغير أسلوبها في الفترة الأخيرة من عصر توكوغاوا.

اختلفت الأساليب التي اتُّبعت في التعبير عن الاحتجاج، غير أنها لم تخرج في بدايتها عن نطاق إثارة انتباه المسؤولين والتظلم لهم برفع العرائض والشكاوى، والتماس الإعانة والتخفيف من الجباية. فالأسلوب الذي اتّبع في الفترة الأولى من عصر **توكوغاوا** (القرن السابع عشر) تمثّل في اجتماع سكان القرى المتجاورة والتداول في ما يعانون، ثم رفع شكوى جماعية إلى سلطات الدايميو، أو الشجون إن كانوا تابعين له. وقد يُصحب هذا العمل الجماعي، الذي قد يدوم شهراً واحداً أو شهوراً عدة، بالتظاهر أمام قلعة الدايميو. وكانت السلطات تواجه هذا العمل بتفريقه بالقوة إن لزم الأمر، وبمعاقبة متزعميه والمحرضين عليه بسجنهم وتعذيبهم، وأحياناً بقطع رؤوسهم وحرقهم أحياء. وقد

---

(٥١) خصّص الباحث توماس سميث فصلاً خاصاً للصراع داخل القرى في أواخر عصر توكوغاوا، وفيه يُبرز أسباب هذا الصراع الناجم عن اختلاف مصالح الشرائح المكونة لكل قرية. كما يؤكد التطورات التي عرفتها القرى في أواخر هذا العصر وكانت من أسباب تفاقم هذا الصراع. انظر: Smith, *The Agrarian Origins of Modern Japan*, pp. 180-199.

(٥٢) في ما يخص التوزيع الجغرافي لحركات الاحتجاج، انظر: White, *Ikki: Social Conflict and Political Protest in Early Modern Japan*, pp. 151-153.

سجلت الذاكرة الشعبية أحداث الانتفاضة في حكايات كانت تروى شفهياً - البعض منها عرف طريق التدوين - بصيغ وأسماء مختلفة، وتتخللها أشعار ومواقف بطولية كتلك المعروفة في الصنف الأدبي مونوغاتاري، غير أن أبطالها كانوا أناساً عاديين وليسوا من الساموراي، ومن أشهرها حكاية **ساكورا سوغورو** (Sakura Sōgorō) الذي يُعتبر بطلاً شعبياً[(٥٣)].

ارتفعت وتيرة أحداث الانتفاضة في النصف الأول من القرن الثامن، حيث تضاعفت أربع مرات عمّا كانت في القرن السابع عشر، ثم زادت على نحو مثير في العقود الأخيرة من عصر **توكوغاوا**[(٥٤)]. ويفسر الباحث **ميكسيو هاني** هذه الزيادة بأسباب عدة، منها: المجاعات التي حدثت في هذه الفترة (١٧٣٢ - ١٧٣٣؛

---

(٥٣) ليس هناك دليل تاريخي يؤكّد وجود هذا الشخص فعلاً، ومع ذلك يُعتقد أنه عاش في أواسط القرن السابع عشر في منطقة من محافظة شيبا حالياً. انظر: Sakura Sōgorō, in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 5.

وساكورا سوغورو هو، حسب الرواية الشعبية، رجل حكيم وفاضل كان يرأس قريته، وعندما رفعت سلطات الهان من قيمة الجباية، تقدم برفقة ستة من معاونيه من تلك السلطات بالتماس للتخفيف من الجباية، غير أن تحركهم ووجه بالرفض. وخوفاً على حياة مرافقيه من شدة العقاب الذي قد يلحق بهم إن رفض الشجون الالتماس، اتجه بمفرده إلى العاصمة إيدو لعرض القضية على الشجون. وهكذا تحمّل وحده مسؤولية تقديم العريضة. ويحكى أن الشجون استجاب لمطالبه، غير أنه أمر بقتله هو وأسرته. ثم تتابع الحكاية كيف عادت روح سوغورو الغاضبة لتنتقم من الشجون ومن سلطات الهان.

في هذا الموضوع، انظر المقالة المتميزة للباحثة آن والتهول، الذي حللت فيه هذه الحكايات الشعبية المتعلقة بانتفاضة الفلاحين. والمثير هو شيوع هذه الحكايات والوثائق المتوافرة حولها، والتي تعكس في مجموعها تصريف الغضب الشعبي عن طريق التصور الرمزي. انظر: Anne Walthall, «Narrative Peasant Uprising in Japan,» *Journal of Asian Studies*, vol. 42, no. 3 (May 1983), pp. 571-587.

(٥٤) يبيّن الجدول التالي تطور وتيرة وقوع حركات الاحتجاج حسب الإحصاء الذي قام به آأوكي كوغي:

تطور وتيرة وقوع حركات الاحتجاج، حسب الإحصاء الذي قام به آأوكي كوغي

الفترة الزمنية	العدد	المعدل السنوي
١٦٠١ - ١٦٥٠	٢٠٩	٤,٢
١٦٥١ - ١٧٠٠	٢١١	٤,٢
١٧٠١ - ١٧٥٠	٤٢٢	٨,٤
١٧٥١ - ١٨٠٠	٦٧٠	١٣,٤
١٨٠١ - ١٨٥٠	٨١٤	١٦,٣
١٨٥١ - ١٨٦٧	٣٧٤	٢٢

المصـــدر: Stephen Vlastos, *Peasant Protests and Uprisings in Tokugawa Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1990), p. 75.

١٧٨٣ ـ ١٧٨٧؛ ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦)؛ الانعكاس السلبي للتطورات الاقتصادية، خاصة شيوع استعمال النقد؛ فقدان الساموراي هيبتهم وقوتهم العسكرية نتيجة اعتيادهم على حياة الراحة في المدن والقلاع؛ ارتفاع مستوى معيشة الشريحة العليا للفلاحين مقارنة بالشرائح الأخرى. هذا بالإضافة إلى تذمر الفلاحين من فتح أبواب اليابان أمام التجارة الخارجية، وتوقيع سلطات الباكوفو معاهدات غير متكافئة مع الدول الأوروبية ابتداء من عام ١٨٥٤ (٣٧٤ انتفاضة بين عامي ١٨٥١ و١٨٦٧)[٥٥].

ومع ارتفاع وتيرة حركات الاحتجاج، تغيرت أساليبها وتوسع نطاقها وتنوعت مطالبها؛ إذ لم تعد أعداد المشاركين منحصرة في بضع مئات أو حتى بضعة آلاف من سكان القرى المتجاورة، بل تعدتها إلى عشرات الآلاف، مثل ما حدث عام ١٧٥٤ في هان **كورومي** (Kurume) في جزيرة **كيوشو**، حيث شارك ١٨٠ ألف فلاح في احتجاج على الجباية[٥٦]، وتكرر على نحو مماثل في جهات أخرى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وخاصة في فترة الأزمة (١٨٥٤ ـ ١٨٦٧). كما لم تعد الحركات سلمية؛ إذ غدت جموع الفلاحين تهاجم أحياناً ممتلكات التجار في القلاع، وتدمر البنايات العمومية[٥٧]. والملاحظ أيضاً أن المعاناة اليومية لم تعد السبب الوحيد، ذلك أن حركات الاحتجاج بدأت تنحو نحو المطالب السياسية، من قبيل انتقاد الإجراءات التي تتخذها سلطات الهان والباكوفو. وبتغير أساليب الانتفاضة، تغيرت ردود فعل سلطات الباكوفو، التي أصدرت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر مراسيم حول كيفية قمع الاحتجاج بالقوة، ومن ذلك أن العقاب أصبح جماعياً، يشمل مدبري الحركة والمسؤولين الذين لم يقوموا بواجبهم في منعها[٥٨].

حظيت هياكوشو إيكي (انتفاضة الفلاحين) باهتمام الدارسين اليابانيين،

---

(٥٥) Hane, *Peasants, Rebels, and Outcastes: The Underside of Modern Japan*, pp. 54-55.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) من أشهر حركات الاحتجاج التي اتخذت بعد ثورة محلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، الحركة التي تزعمها أوشيو هائيهاتشيرو (Oshio Heihachiro) (١٧٩٧ ـ ١٨٣٧) عام ١٨٣٧ في مدينة أوساكا احتجاجاً على ضعف الإجراءات التي اتخذتها سلطات الباكوفو للتخفيف من آثار المجاعة. وقد انضم إلى هذه الحركة فلاحو المناطق المجاورة، وأحرقوا مباني الإدارة المحلية، وأضرموا النار في قسم من المدينة. وقد دفع متزعمو هذه الحركة (بمن فيهم أوشيو) حياتهم ثمناً لها.

(٥٨) Isao Soranaka, «Hyakushÿ Ikki,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 249-250.

وبخاصة ذوي التوجه الماركسي، في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية. وقد اعتبر هؤلاء انتفاضة الفلاحين بمثابة تعبير عن الصراع الطبقي من حيث إنها شكلت قوة ثورية قضت على النظام الفيودالي، وحمت البلاد من التهديد الإمبريالي(٥٩). ذلك أن استغلال الفلاحين، حسب هذا الرأي، بلغ مداه الأقصى في القرن التاسع عشر، ولم تعد طاقتهم تتحمل أكثر من ذلك، وهو ما دفعهم إلى الثورة(٦٠). والواقع أن تذمر الفلاحين وانتفاضتهم في السنوات الأخيرة من عصر **توكوغاوا** أخذت بعداً سياسياً وحتى عسكرياً (مثل تأسيس مليشيات مسلحة من الفلاحين)(٦١)، وأن دورها كان بارزاً في أحداث عام ١٨٦٦ التي أدت إلى إطاحة سلطات الباكوفو(٦٢)، غير أن حركة الميجي كانت حصيلة الصراع الداخلي بين شريحة الساموراي المهيمنة والشرائح المهمشة التي سعت إلى إنهاء حكم أُسرة **توكوغاوا**، وإلغاء نظام الباكوفو، واستعادة الإمبراطور لسلطاته. والدليل هو أن متزعمي الإصلاح لم يشركوا الفلاحين في القرار السياسي، ولم يهتموا بأوضاعهم أو رفع الحيف عنهم.

رابعاً: سكان المدن (تشونين)

تأتي فئة الصنّاع والحرفيين في الرتبة الثالثة، تليها فئة التجار في الرتبة الرابعة والأخيرة. وقد شكلت هاتان الفئتان في عصر إيدو ما ينيف على نصف سكان المدن والقلاع، حيث كانت سلطات الباكوفو تعاملهما على أساس أنهما فئة واحدة تُعرف بتشونين. ومعنى التشونين حرفياً هو: «أهالي الحي»، فالجذع تشو (Chõ) يعني حياً من أحياء المدينة (Quartier) الذي كان الوحدة الأساسية في التقسيم الإداري للمدن في عصر **توكوغاوا**، وكان استعماله (أي تشو) أول مرة في مدينة **كيوطو** عند تأسيسها في أواخر القرن الثامن الميلادي(٦٣). بينما

---

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) Susan B. Hanley and Kozo Yamamura, *Economic and Demographic Change in Preindustrial Japan, 1600-1868* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977), pp. 16-18.

(٦١) Conrad Totman, *The Collapse of the Tokugawa Bakufu, 1862-1866* (Hawaii: The University Press of Hawaii, 1980), pp. 97-98.

(٦٢) في ما يخص مساهمة الفلاحين في أحداث ١٨٦٦، انظر: Patricia Sippel, «Popular Protest in Early Modern Japan: The Bushu Outburst,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 37, no. 2 (December 1977), pp. 273-322.

(٦٣) يتكوّن الـ «تشو» في التقليد الحضري الياباني من أربعين منزلاً تقريباً، ومن ثم شكل جماعة حضرية صغيرة لا تقتصر الروابط الجامعة بين القاطنين فيه على العلاقات الإنسانية في معناها الضيق، لكن تتعداها إلى =

استعملت سلطات الباكوفو التشونين للدلالة على السكان الحضريين من غير الساموراي والنبلاء ورجال الدين، وذلك ضمن الإجراءات المتخذة في إطار التسيير الذاتي لأحياء المدن التابعة لها مباشرة. والمثير أن استعمال هذا المصطلح، وفي هذا السياق بالذات، يقابل إلى حد كبير الاستعمال الأصلي لمصطلح «بورجوا» في فرنسا العصور الوسطى للدلالة على سكان المدن المحصنة (Bourg) الذين شكلوا طبقة وسيطة بين السادة والفلاحين. وحتى وإن كانت فئة التشونين تحتل في الاعتبار الرسمي أسفل التراتب، فإن شريحة التجار منها شكلت بالفعل طبقة برجوازية تقترب من مواصفات مثيلاتها في أوروبا، وتحتل مركزاً وسطاً بين الساموراي والفلاحين.

كانت **كيوطو**، قبل عصر **توكوغاوا**، أهم مركز حضري ضم سكاناً حضريين فاق عددهم الـ ٢٠٠ ألف نسمة؛ فإضافة إلى كونها عاصمة الإمبراطور ومقر نبلاء البلاط، شكّلت أيضاً مركز اليابان الاقتصادي والثقافي والصناعي طوال عصر **هييان** والعصور الوسطى اليابانية. وفي ما يخص التشونين، كانت غالبيتها العظمى تعمل في الصناعات والقطاعات الأخرى التي اشتهرت بها المدينة، فصناعة الأنسجة الحريرية الرفيعة (المتمركزة في حي نشيجين (Nishijin)[٦٤] كانت تستخدم وحدها ما ينيف على ١٠٠ ألف صانع وعامل[٦٥]، أي نصف السكان. وتقليداً للعاصمة، خصصت العواصم الإدارية للأقاليم (٦٠ إقليماً) أحياء للصنّاع والتجار. ولعل المدينة الوحيدة، قبل عصر **توكوغاوا** التي ظهرت فيها طبقة تجارية استقلت بإدارة المدينة، هي مدينة سكاي التي ازدهرت إبان الحرب الأهلية، وحصل سكانها على وضع خاص في إدارة مدينتهم[٦٦].

ظلت الساكنة الحضرية في اليابان في حدود متواضعة إلى منتصف القرن السادس عشر، أي إلى الحين الذي اتجه فيه دايميو الدويلات المتحاربة إلى بناء

= التسيير الذاتي للجماعة، انظر: Umesao Tadao, *The Roots of Modern Japan* (Tokyo: The Japan Forum, 1990), p. 58.

(٦٤) اعتباراً لأهمية هذا الحي في صناعة الأنسجة الحريرية وتمركز هذه الصناعة به، فإن أجود أنوع الأنسجة الحريرية كانت تنسب إليه. انظر: Yasuko Yabe, «Nishijin-Ori,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 17.

(٦٥) Katsuhira Moriya, «Urban Networks and Information Networks,» in: Chie Nakane [et al.] eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 98.

(٦٦) لنا عودة إلى موضوع مدينة سكاي، في الفصل الخاص بالمدن.

المدن القلاع (جوكاماتشي)[٦٧] التي من أشهرها **أوساكا** و**إيدو**. فمنذ ذلك التاريخ، شهدت اليابان نمواً عمرانياً غير مسبوق كان من نتائجه تكاثر الساكنة الحضرية التي بلغت في نهاية عصر **توكوغاوا** نسبة تفوق ١٦ بالمئة من مجموع سكان اليابان، وهي نسبة تشمل أيضاً الساموراي وغيرهم.

من المتعذر اعتماد نسبة قارة للتشونين طوال عصر **توكوغاوا**، على اعتبار أن هذه النسبة كانت في تزايد مستمر بسبب الهجرة إلى المدن، لكن من المحتمل جداً أن تكون هذه النسبة قد فاقت ١٠ بالمئة في منتصف القرن التاسع عشر. وعلى أي حال، فهناك صعوبات كثيرة تعترض تحديد من هم التشونين وتصنيفهم؛ فمثلاً يمكن احتساب الخدم، أتباع الساموراي (فوداي Fudai) الذين كانوا يقيمون مع الساموراي في أحيائهم بالعاصمة إيدو، ضمن الساموراي، كما يمكن احتسابهم ضمن بقية سكان المدينة؛ وكذا الأمر بالنسبة إلى العاهرات ومحترفي الفرجة الذين كانوا يصنّفون رسمياً ضمن المنبوذين غير أنهم كانوا يشكّلون نسبة ضمن سكان المدن.

كان التشونين موزعين بين المدن التابعة للشجون مباشرة ـ مثل **إيدو** و**كيوطو** و**أوساكا** و**ناغاساكي** ـ والمدن القلاع التي شكلت عواصم للدايميو. ففي هذه الأخيرة، وهي الأكثر عدداً، كانت تخصص لهم أحياء بحسب اختصاصاتهم الحرفية ونوع التجارة التي يمارسونها، وهي في مجملها أحياء ضيقة، يعكس قربها أو بعدها من القلعة أهمية الحرفة أو الخدمة التي يقدمونها إلى الدايميو. بينما شكلت العاصمة **إيدو** و**أوساكا** نموذجين خاصين في توزيع المجال اعتباراً للوظيفة التي تقومان بها ونوعية ساكنيها. فأوساكا غلب عليها الطابع التجاري، وهيمنت عليها فئة التجار، في حين غلبت الوظيفة الإدارية ووظيفة الترفيه على العاصمة إيدو. ومع ذلك لم تخرج هاتان المدينتان عن التوجه العام، وهو التمييز بين الساموراي وبقية سكان المدن في توزيع المجال. فمثلاً كانت أحياء التشونين تشغل ١٦ بالمئة من مساحة العاصمة إيدو في حين كانت نسبتهم تفوق ٥٠ بالمئة من سكانها[٦٨].

كان التشونين، على اختلاف مشاربهم، في وضعية تبعية للساموراي، لا

---

(٦٧) لنا عودة إلى موضوع المدن القلاع في الفصل التاسع الخاص بالمدن في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٦٨) Sydney Crawcour, «Chÿnin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 302.

تختلف مبدئياً عن وضعية الفلاحين، ذلك أن الغاية من السماح لهم بالإقامة في المدن كانت تأمين حاجات الساموراي. وعلى غرار الفئات الأخرى، أصدرت سلطات الباكوفو مراسيم تنظم حياة التشونين في المدن التابعة للإدارة المركزية. ومن ذلك، المراسيم التي تكرر إصدارها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانت تُعنى بنمط اللباس والسلوك الذي يجب أن يلتزم به التجار والصنّاع؛ فمثلاً كان يمنع عليهم حمل السلاح ولبس الثياب الحريرية واعتمار القبعات الصوفية، أو استعمال الأواني الفضية، وتجاوز طبقتين في بناء منازلهم، واستعمال الذهب والفضة في تزيينها، وركوب المحفات، وغير ذلك مّما كان يميز الساموراي الذين يشاركونهم السكن في المراكز الحضرية[(٦٩)].

وعموماً كان التشونين خاضعين لقوانين خاصة بهم، وهو ما يستخلص مثلاً من المرسوم الخاص بالعاصمة إيدو الصادر عام ١٦٥٥ والذي نصت بنوده على كيفية حل النزاعات بين التشونين وبينهم وبين الساموراي[(٧٠)]. مع الإشارة إلى أن الشريحة العليا للتشونين كان لها حق المساهمة، في حدود معيّنة، في تسيير أحيائهم. وعلى أي حال، فلنا عودة إلى موضوعي المجال والتسيير الإداري في الفصل المخصص للمدن.

ومع تنامي عدد السكان الحضريين وتشكُّل شريحة غنية من التجار فاق دخلها دخل الساموراي كثيراً، أصبح من المتعذر تطبيق القوانين الصادرة في حق التشونين، خاصة ما تعلق منها باللباس ومظاهر الترف التي لم يعد الساموراي قادرين على مجاراتها. وهناك حوادث شهيرة حاول فيها الشجون زجر كبار التجار لعلهم يمتنعون من تجاوز الحدود المرسومة لهم[(٧١)]، غير أن إصدار المراسيم ومعاقبة المخالفين لم يمنعا التجار من إظهار ثروتهم وتحدي قوانين الشجون والدايميو. ذلك أن امتلاك المال أضحى العنصر الفاعل في التمييز الفعلي بين سكان المدن دون اعتبار للحيثيات. وفي هذا السياق، كتب القاص

---

(٦٩) في هذا الصدد، انظر: Donald H. Shively, «Sumptuary and Status in Early Tokugawa Japan,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 25 (1964-1965), pp. 123-164, esp. 124-131

(٧٠) انظر نص المرسوم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: *Japan: A Documentary History*, vol. 1, pp. 215-218.

(٧١) من هذه الحوادث، حادث وقع عام ١٦٨١، وملخصه أن الشجون لاحظ في أثناء مرور موكبه الثياب الفاخرة التي كان يرتديها تاجر وأُسرته، فأمر بمصادرة أملاكه ليكون عبرة لغيره. وقد ورد هذا الحدث في تاريخ رسمي لأُسرة توكوغاوا (توكوغاوا جيكي، أو التاريخ الحقيقي لتوكوغاوا). انظر: Shively, «Sumptuary and Status in Early Tokugawa Japan,» p. 128.

الشهير **إيهارا سايكاكو** (١٦٢٣ ـ ١٦٩٣) ساخراً من التمييز الفئوي:

كيفما كان مولد سكان المدن وسلالتهم، فإن المال هو شجرة نسبهم. فمهما بلغت رفعة نسب الرجل وكان ينقصه المال، فإنه أسوأ حالاً من قرد الفرجة[٧٢].

ونتيجة لظهور مجتمع استهلاكي مساوق مع تنامي الساكنة الحضرية في القرن السابع عشر، لم يعد التشونين في خدمة الساموراي وحدهم أو في تبعية مادية لهم، كما كان الأمر في بداية عصر **توكوغاوا**، بل أصبحوا في التجمعات الحضرية الكبرى (مثل **إيدو** و**أوساكا**) يتبادلون الخدمات أساساً في ما بينهم، ولا يعتمدون على الساموراي إلا قليلاً في مجال الحصول على معاشهم.

أولت أغلب الدراسات المتعلقة بالتشونين اهتماماً كبيراً بشريحة التجار التي كان لها دور كبير في اقتصاد عصر **توكوغاوا**، وفي إرساء قواعد ثقافة جديدة، بينما أغفلت الغالبية العظمى المكونة من الصنّاع والحرفيين وصغار التجار الذين فاقت نسبهم في بعض المدن ٦٠ بالمئة منهم (من التشونين). ذلك أن التشونين لم يشكلوا فئة متجانسة بقدر ما كانوا مرتبين في شرائح تختلف من حيث الدخل المادي والاعتبار المعنوي. وبعبارة أخرى، كانت تحكمهم تراتبية داخلية، شأنهم شأن الفئات الأخرى، إلا أنها تراتبية مرنة، أساسها امتلاك المال أو مصدر عيش قار. وقد كانت أكثر شرائح التشونين عدداً تلك المرتبة في الأسفل، والتي كانت تضم العمال المؤقتين وخدم الساموراي، وخدم البيوت ـ من النساء والرجال ـ والباعة المتجولين، ومساعدي التجار، والحمالين، وحاملي المحفات، إضافة إلى من يتعيشون من الخدمات الصغيرة في أحياء المتعة، والفقراء ومنعدمي المهارات الذين لا يملكون مصدر عيش محدداً[٧٣]. وهي الشريحة التي كانت تتضخم بالقادمين الجدد من القرى، الذين لا يتقنون مهارات لها صلة بالحياة المدنية، وشكلت مصدر قلق أمني بالنسبة إلى سلطات الباكوفو، التي كانت تقوم أحياناً بالتحري في شأن سكان **إيدو**، وتأمر من لم يستطيعوا إثبات انتمائهم إلى حرفة ما بالعودة إلى قراهم.

---

(٧٢) Hane, *Peasants, Rebels, and Outcastes: The Underside of Modern Japan*, p. 33.

(٧٣) من الدراسات القليلة الموضوعة باللغة الإنكليزية عن هذه الشريحة، التي كثيراً ما أغفلها الدارسون، تلك التي قام بها غاري لوب، وصنّف فيها هذه الشريحة ووضعيتها وعلاقاتها بالشرائح الأخرى. انظر: Gary P. Leupp, *Servants, Shophands, and Laborers in the Cities of Tokugawa Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).

يمكن التمييز بين الشريحة السفلى والشريحة الوسطى على أساس المهارة الحرفية ونوعية التجارة؛ فأُسر الشريحة الوسطى كانت تتميز بتخصصها في حرفة قارة أو تجارة معيّنة تتوارثها جيلاً بعد جيل، وبامتلاكها مقر عمل أو عنواناً معروفاً، وتأديتها الجباية لسلطات الدايميو أو الشجون. وقد شكّل الصنّاع والحرفيون أغلبية هذه الشريحة.

ففي المدن الكبرى، كان هناك زهاء ١٢٠ حرفة تتوزع بين الحدادة وصناعة السيوف، وحرف البناء (النجارة[٧٤] وقطع الأحجار والجباسة والوراقة[٧٥] والطلاء...) والحياكة والنسيج وعصر الخمور (خاصة الساكي)، وصناعة التحف الخشبية المدهونة باللك[٧٦]، والمراوح والمظلات وحصائر البيوت (تاتامي)، وغير ذلك من الصنائع والحرف التي لا حاجة إلى ذكرها[٧٧].

ويمكن أن يُصنَّف ضمن هذه الشريحة، تجار التقسيط، وصغار تجار الجملة، والكتّاب والفنانون، وأصحاب دور النشر، والعاملون في الفرجة وأصحاب المطاعم... وعلى الرغم من أن سلطات الباكوفو كانت منعت التنظيمات الحرفية القديمة (زا)، فإن أصحاب الحرفة الواحدة كانوا ينتظمون في ما بينهم للدفاع عن مصالحهم في جمعيات تضامنية، ويشتركون في إقامة الحفلات الدينية وتقديس الآلهة التي يعتقدون أنها تحمي حرفتهم[٧٨].

كما كان العمل في هذه الحرف يتم في إطار التنظيم الأُسري: «إيي»؛ ذلك

---

(٧٤) الملاحظ أن اللغة العربية لا تحوي مفردة لترجمة (Carpenter) بالإنكليزية أو (Charpentier) بالفرنسية، التي تعني قطع الأخشاب وإعداد هياكل البنى الخشبية. والمراد بالنجارين هنا هذا الصنف.

(٧٥) كانت حرفة الوراقة ذات أهمية في إتمام بناء المنازل، وذلك لاستعمال الورق في الأبواب المنزلقة والفواصل بين أقسام المنزل.

(٧٦) اشتهرت الصناعة التقليدية اليابانية بالتحف والأواني الخشبية المصقولة بـ «اللك»، وهو دهان أسود لامع تُرسم عليه صور باللون الأبيض. وقد كان من بين المصنوعات اليدوية التي تقبل عليها السوق الأجنبية، خاصة في أوروبا.

(٧٧) في موضوع الصناعات والحرف التي كانت في عصر توكوغاوا، انظر: Charles J. Dunn, *Everyday Life in Traditional Japan* (Tokyo: Tuttle, 2000), pp. 84-96.

(٧٨) في عصر توكوغاوا، جرى تعويض التنظيم الحِرفي «زا» المعروف في العصور الوسطي بتنظيمات بديلة اعترفت بها سلطات الباكوفو. وأقدم هذه التنظيمات تلك التي أقامها تجار الحرفة الواحدة وكانت تُعرف بـ «ناكاما» (Nakama) (تعني حرفياً الرفاق)، وأيضاً بـ «كومي أي» (Kumi-ai) (الجمعية). انظر: John Henry Wigmore, ed., *Law and Justice in Tokugawa Japan: Materials for the History of Japanese Law and Justice under the Tokugawa Shogunate, 1603-1867*, 9 vols. in 19 (Tokyo: Kokusai Bunka Shinkokai, 1969), vol. 1, p. 97.

أن محل التجارة والمهارة الحرفية والورشة شكّلت مصدر رزق الأُسرة ورأسمالها الذي يرثه رب الأُسرة (الابن البكر) في كل جيل، كما سبقت الإشارة. ففي هذا الإطار، كان أفراد الأُسرة، بمن فيهم النساء والأطفال في سن معيّنة، يشتركون في العمل الذي تمارسه الأُسرة. وفي حال إلحاق طفل غريب لتعلم الحرفة أو الصنعة، تقوم الأُسرة، بعد إتقانه تلك الحرفة، بتبنّيه أو بتقديم الإعانة إليه كي يستقل بذاته. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً لا بأس به من أفراد هذه الشريحة كانوا يكسبون ما يكفيهم أو يزيد من المال، ممّا جعلهم في حال من الرفاهية تمكنهم من الإنفاق على حياة المتعة.

تتكون الشريحة العليا من أغنياء التجار، وهي شريحة قليلة العدد، غير أنها أثرت تأثيراً بالغاً في الاقتصاد والثقافة في عصر **توكوغاوا**، وساهمت بشكل كبير في الانتقال إلى النظام الرأسمالي بعد إصلاحات **الميجي**. ذلك أن بعض التجار حققوا ثروات هائلة، وتحكموا في اقتصاد البلاد، واكتسبوا النفوذ عن طريق غير مباشر في إثر التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت لصالحهم؛ فالإجراءات التي اتخذتها سلطات الباكوفو بهدف تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي والإبقاء على اقتصاد زراعي يخدم الفئة المهيمنة، أدت إلى نتائج غير مقصودة، إذ أشاعت مناخاً ملائماً لازدهار التجارة الداخلية وغنى العاملين فيها. فسياسة العزلة التي هدفت إلى ضبط المعاملات التجارية مع الخارج ومنع الدايميو من مداخيلها، حمت التجار من المنافسة الخارجية؛ والسيطرة على الدايميو التي حققت فترة أمن دامت قرنين ونصف قرن، ساهمت في ازدهار المعاملات التجارية؛ وتحسين طرق المواصلات البرية لأسباب عسكرية وإدارية، يسّر التبادل التجاري والتواصل بين الأقاليم؛ ونظام **ساكين كوطاي** الذي وضِع لضمان ولاء الدايميو، فتح باباً للإنفاق؛ واستقطاب الحرفيين والصنّاع والتجار إلى المدن والقلاع لخدمة الساموراي، أدى إلى تنامي السكان الحضريين، وفتح سوق استهلاكية كبيرة كانت لصالح التجار.

لإدراك أسباب غنى التجار في عصر **توكوغاوا**، نرى من الضروري الوقوف على عنصرين أساسيين في اقتصاد هذا العصر: وهما النقد والأرز. كان النظام النقدي يقوم على التعامل بثلاث عملات: نحاسية وفضية وذهبية؛ وهو نظام أقرته سلطات **توكوغاوا** منذ وصولها إلى السلطة في مطلع القرن السابع عشر، حيث عملت من جهة على توحيد العملة في مجموع البلاد، وعملت من جهة أخرى على احتكار سك العملة وتحديد أوزانها والتحكم في نسب

صرفها[٧٩]. وكانت العملة النحاسية الأكثر رواجاً في المعاملات اليومية ذات القيمة البسيطة في جميع المناطق، بينما غلب استعمال العملة الفضية في أسواق **أوساكا** في الصفقات التجارية، والعملة الذهبية في أسواق **إيدو**، وفي التعامل الرسمي لسلطات الباكوفو. ومن ثم كانت هناك حاجة دائمة إلى صيارفة يقومون بتحويل النقد من عملة إلى أخرى. وقد كانت عملية الصرف تتم في ثلاثة مستويات: **مستوى أول** يقوم به أغلب صغار التجار كعمل إضافي، و**مستوى ثان** يقوم به مختصون يشبه عملهم العمل البنكي، بما في ذلك إصدار سندات قابلة للصرف وتعهُّد نقل الأموال من مدينة إلى أخرى، و**مستوى ثالث** تختص به أُسر كبرى من الصيارفة. ففي **أوساكا** ـ العاصمة التجارية ـ كان هناك عشرة صيارفة يهيمنون على عمليات الصرف من خلال تمويلهم صغار الصيارفة، وعملهم كوكلاء لسلطات الباكوفو كاكيا (Kakeya) وكوراموتو (Kuramoto)[٨٠] يدبرون عملياتها النقدية، ويشرفون على مخازن الحبوب التي كانت تُجمع فيها الجباية، ويقرضونها عند الحاجة. وعموماً، كانت عملية الصرف مربحة، فعن كل عملية تتم في أي مستوى، يحصل الصراف على نسبة معيّنة، إضافة إلى الفائدة التي

---

(٧٩) **النظام النقدي في بداية عصر توكوغاوا**

العملة الذهبية	العملة الفضية
ريو Ryo = ١٨ غ	مومي momme = ٣,٧٦ غ
ريو = ٤ بو bu	مومي = ١٠ فون fun
ريو = ١٦ شو shu	مومي = ١٠٠ رين rin
كان kan= ١٠٠٠	مومي = ٣٧٦٠ غ

العلاقة بين العملات الثلاث في مطلع عصر توكوغاوا.

«ريو» من الذهب (١٨ غ) = ٥٠ «مومي» من الفضة (١٨٨ غ) = ٤٠٠٠ «مون» (Mon) أو «زيني» (Zeni) من العملة النحاسية، أي أن غراماً واحداً من الفضة كان يساوي ١٠,٤٤ غرامات من النحاس.

في نهاية القرن السابع عشر، أصبح ١ «ريو» = ٦٠ «مومي» من الفضة، أي أن غراماً واحداً من الذهب أصبح يساوي ١٢,٥٣ غراماً من الفضة.

ولإعطاء فكرة عن القيمة الشرائية لهذه العملة، فإن ١ «ريو» كان هو ثمن ١ «كوكو» من الأرز في بداية عصر توكوغاوا.

المصـــدر: Chie Nakane [et al.] (eds.), *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 233.

(٨٠) «كاكيا» و«كوراموتو»: كانوا عادةً من كبار تجار الجملة، وتتلخص وظيفتهم في تدبير العائدات المالية للشجون التي كانت تجمع من أرز الجباية في مدينة أوساكا، والإشراف على مخازن الحبوب التابعة لهم في المدينة ذاتها. هذا بالإضافة إلى توفير القروض لهم عند الحاجة. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا من فئة الساموراي، فإنها كانت تمنحهم بعض الامتيازات الخاصة.

يحصل عليها من عمليات القروض التي يؤمنها لزبنائه. والملاحظ، أن أغلب كبار التجار الذين ظهروا في عصر **توكوغاوا** أثروا بسبب المتاجرة في النقد.

كان الأرز عماد الاقتصاد في جميع مراحل تاريخ اليابان إلى حين إصلاحات الميجي. ففي عصر **توكوغاوا**، كان الأرز هو المعيار الذي يُقدَّر به إنتاج الأرض، وتُحدَّد على أساسه الجباية، وتُحسب به رواتب الموظفين. غير أن الأرز لم يشكل عملة يمكن تداولها، لذا كان ضرورياً تحويله إلى ما مقابله من النقد. وهذا ما كان يتم أساساً في مدينة **أوساكا** التي أصحبت خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر أهم سوق في اليابان تتحكم في تجارة الأرز وغيرها من المواد الزراعية والمصنعة. كان هناك صنفان من الأرز يعرفان طريقهما إلى **أوساكا** و**إيدو**: كان **أولهما** يأتي من الجباية التي يستخلصها الدايميو والشجون من أراضيهم، وكان **ثانيهما** يأتي من الفائض الذي يتبقى لدى الفلاحين بعد أداء الجباية، والرواتب التي يحصل عليها الساموراي عيناً. وكانت عملية التحويل هاته تتم على أيدي تجار الجملة (تونيا Tonya) الذين يشترون المحصول ويعيدون بيعه طوال السنة. غير أن عملهم لم يقتصر على عمليتي البيع والشراء، فالدايميو كانوا طوال السنة في حاجة إلى سيولة نقدية بسبب تكاليف التنقل الدائم بين العاصمة وأقاليمهم في إطار نظام **سانكين كوطاي** المفروض عليهم، وأداء رواتب موظفيهم، لذا كان أغلبهم مضطراً إلى الاقتراض، أو أخذ سلف مسبقة تؤدى عند موسم الحصاد. وهكذا فتح ذلك الباب على مصراعيه أمام تجار الجملة ليتحكموا في أسعار الأرز والمضاربة فيها، بخفضها أحياناً ورفعها أحياناً أخرى، بحسب ما يخدم مصالحهم[٨١]. هذا بالإضافة إلى الفوائد التي كانوا يجنونها من القروض ومن الفرق بين شراء الأرز بأقل من ثمنه الحقيقي قبل الحصاد وبيعه بالسعر الذي يحددونه عندما يصل إلى السوق.

وباحتكار تجار الجملة تجارة الأرز وتيسير القروض، أضحى معظم الدايميو في أواخر عصر **توكوغاوا** مدينين لهم بديون كان يعسر عليهم أداؤها في حينها، مما اضطرهم إلى تقسيط دفعها في آجال تصل أحياناً إلى عشر سنوات؛ وبعبارة أخرى أمسى الدايميو ضحية قروض لا تنتهي، جعلت البعض منهم على حافة الإفلاس.

---

(٨١) بهذا الشأن، انظر جدول أسعار الأرز الذي أورده جورج سانسوم، الذي يبين كيف أن الأسعار كانت ترتفع إلى أرقام قياسية، ثم تنخفض خلال فترة قصيرة إلى أدنى المستويات. فمثلاً وصل سعر الـ «كوكو» من الأرز في عام ١٧١٣ إلى ١٧٥ مومي من الفضة، ثم انخفض في عام ١٧١٨ إلى ٣٠ مومي. انظر: George Bailey Sansom, *Japan: A Short Cultural History*, revised ed. (Tokyo: Tuttle, 1997), p. 472.

ولم يقتصر الأمر عليهم، فالشجون أنفسهم كانوا مدينين لهؤلاء التجار الذين أصبحوا، كما أشرنا، يتحكمون في اقتصاد البلاد. والأمر عينه يصدق على صعيد أفراد الساموراي الذين كانوا يحصلون على رواتبهم ثلاث مرات في السنة، وهو ما كان يضطرهم إلى الاقتراض من عموم التجار إلى حين حصولهم على معاشاتهم.

شكّل الأرز والنقد مصدرين رئيسيين للإثراء، إلا أنهما لم يكونا الوحيدين، فقد كانت هناك مصادر أخرى متاحة أمام التجار، مثل تعهد المشاريع العمرانية التي كانت تقوم بها سلطات الباكوفو، ونقل الأرز والمنتجات الزراعية الأخرى إلى **أوساكا** و**إيدو** بحراً، وصناعة الساكي، والمتاجرة في جميع مواد الاستهلاك التي يقبل عليها السكان الحضريون.

ومن الأُسر الغنية التي اشتهرت بثرواتها الواسعة في عصر **توكوغاوا**، أُسرة **يودايا** (Yodaya) التي بدأت في مطلع القرن السابع عشر بتعهد أعمال البناء في أوساكا التي كانت تقوم بها سلطات الباكوفو ـ ومنها سوق الحبوب ـ ثم تحولت إلى تجارة الأرز، وتعهد النقل البحري، ثم إلى تقديم القروض للدايميو. غير أن هذه الأُسرة لم تستمر طويلاً بسبب قيام الشجون **تسونا ـ يوشي** في عام ١٧٠٥ بمصادرة أموالها التي قُدرت بـ ١٠٠ ألف قطعة من العملة الذهبية، دون العقارات وغيرها[٨٢]. ومنها أيضاً، أُسرة **كونوئيكي** (Kõnoike)، التي بدأت نشاطها التجاري في مطلع القرن السابع عشر بصناعة الساكي في أوساكا وتصديره إلى العاصمة إيدو والمدن الأخرى، ومن الساكي انتقلت إلى تعهد النقل البحري، حيث تخصصت بنقل أرز الجباية من الهانات إلى **أوساكا** و**إيدو**، ثم وسعت مجالها التجاري إلى تجارة الأرز والصيرفة وتقديم القروض إلى الدايميو. وهكذا أضحت من أغنى أُسر **أوساكا** التجارية في نهاية القرن السابع عشر. ولم تكتف بهذه النشاطات، بل اتجهت في القرن الثامن عشر إلى استصلاح الأراضي الزراعية وتملّكها، وبالتالي إلى إنتاج الأرز ذاته. وقد استمرت هذه الأُسرة أجيالاً (١٣ جيلاً)، حيث استمرت في نشاطها التجاري حتى بعد إصلاحات الميجي[٨٣].

---

(٨٢) يحكى أن الشجون تسونا ـ يوشي استولى بعد مصادرته أموالاً على عدد من القصور والستائر الذهبية والأحجار الكريمة، و١٦٠ سجادة، إضافة إلى ١٠٠ ألف قطعة ذهبية، ومخازن الحبوب التي كانت منتشرة في كل أرجاء البلاد. انظر: المصدر نفسه، ص ٤٧٥.

(٨٣) في ما يخص هذه الأُسرة، انظر: Yõtarõ Sakudõ, «The Management Practices of Family Business,» in: Nakane [et al.], *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*, pp. 152-154, and William B. Hauser, «K?noike Family,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 274.

ومن الأُسر ذاتها، التي تحولت بعد إصلاحات الميجي إلى مؤسسات مالية واستثمارية عملاقة، نذكر أُسرة **سومي ـ تومو** (Sumitomo) التي بدأت في صناعة التعدين باستعمال الطرق الغربية المكتسبة في القرن السادس عشر من البرتغاليين الذين كان يهمهم تطوير صناعة التعدين. وكانت في نهاية القرن السابع عشر تهيمن على استخراج معدن النحاس، الذي أضحت المورد الرئيسي لسلطات **توكوغاوا** وأكبر مصدر (ياباني) له إلى الصين. ومن مجال التعدين وسعت نشاطها التجاري ليشمل الإقراض والصيرفة والإشراف على مخازن الجباية التابعة للباكوفو. وقد عانت أُسرة **سومي ـ تومو** بعد إصلاحات الميجي مشكلات بسبب صلاتها الوثيقة بسلطات توكوغاوا، إلا أنها تجاوزت ذلك وأصبحت في القرن العشرين شركة مالية عملاقة (زايباتسو Zaibatsu)[٨٤] تتنوع مشاريعها التجارية والصناعية، وهي اليوم من أكبر الشركات القابضة في اليابان[٨٥].

ونذكر أيضاً أُسرة **ميتسويي** (Mitsui) التي تأسست في عام ١٦٧٣ في العاصمة ثم اتخذت من أوساكا مقراً لنشاطها في عام ١٦٩١. وهي نموذج آخر للإثراء من التجارة (تجارة الأقمشة على الخصوص)، والإقراض وإصدار السندات والإشراف على جمع الجباية. ولعل ما ميز هذه الأُسرة هو اتساع نشاطها، وفتح فروع لها في معظم المدن الرئيسية، وبوضعها أسساً عملية لإدارة المؤسسات التجارية التابعة لها. وقد أسست هذه الأُسرة بعد إصلاحات **الميجي** أول بنك خاص في اليابان (Mitsui Bank, LTD)، وذلك في عام ١٨٧٣، وهي اليوم أيضاً من الشركات الكبرى في عالم المال والتجارة في اليابان[٨٦].

يتحدر معظم هذه الأُسر التجارية الكبرى من أُسر الساموراي، التي تحولت

---

(٨٤) «زايباتسو» هو المصطلح الذي عُرفت به الشركات التي بلغت مستوى كبيراً، وأضحت مؤسسات احتكارية عملاقة تهيمن على قطاعات مختلفة من الصناعات والمال، وذلك في من عصر الميجي إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث جرى حلّها.

(٨٥) هناك اليوم ما ينوف على ١٨ شركة تابعة لـ «سومي-تومو»، وهي متخصصة بالبنك وقبض الأموال (Sumitomo Bank, Ltd) و(Sumitomo Trust and Banking Co, Ltd) والصناعات الكيميائية (Sumitomo Chemical Co, Ltd) والصناعات المعدنية (Sumitomo Metal Industries, Ltd) و(Sumitomo Metal Mining Co, Ltd) والبناء وإنتاج الكهرباء (Sumitomo Construction Co, Ltd) و(Sumitomo Electric Industries, Ltd)، وغير ذلك من الصناعات الأساسية.

انظر: Eleanor M. Hadley, «Sumitomo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, pp. 266-267.

وأيضاً المداخل الخاصة بهذه الشركات في المصدر نفسه.

(٨٦) تدير اليوم شركة ميتسويي ما ينوف على ١٤ شركة تماثل في تخصصاتها تلك التي تقوم بها شركة سومي ـ تومو.

إلى العمل التجاري، وتخلت عن امتيازاتها في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر. وقد حملت معها الكثير من أخلاق الساموراي ومبادئهم التي استغلتها في تدبير مقاولتها وتعاملها مع المشتغلين معها. ومن ذلك، أنها كانت تختار موظفيها في سن صغيرة، وتوفر لهم قسطاً من التعليم، وتضمن لهم العمل طوال الحياة، وتعاملهم كما لو كانوا أتباعاً تجمعها بهم رابطة الولاء. كما طورت مبادئ خاصة بها لتدبير مقاولة الأُسرة والإشراف على فروعها المتعددة الاختصاص. فمثلاً، كانت ممتلكات أُسرة **ميتسويي** مقسمة إلى وحدات (شبيهة بالأسهم)، تساوي كل منها نسبة معيّنة من رأس المال، وكانت العائدات توزَّع على أساسها بين أفراد الأُسرة[٨٧]. كما كانت المؤسسة الأم تحترم استقلال مؤسساتها الفرعية والأخرى التابعة لها[٨٨].

وعلى العموم، اكتسبت هذه الأُسر خبرة واسعة في العمل البنكي (الإقراض وحساب الفائدة، والصيرفة، وإصدار السندات)، الأمر الذي جعل البعض منها يتحول بسهولة إلى العمل البنكي (على النمط الغربي) بعد إصلاحات الميجي، فاكتسب أيضاً خبرة في بعض القطاعات الحيوية، مثل قطاع النقل البحري. فعلى سبيل المثال، تحول فرع من فروع ميتسويي إلى شركة للنقل البحري شبه عمومية (كايسو كايشا KaisKaisha)[٨٩] في عام ١٨٦٩.

وعلى غرار البوشيدو (أخلاق الساموراي)، طورت أُسر التجار عموماً أخلاقاً خاصة بهم تحث على التفاني في العمل، والحرص على المال، والاقتصاد في الإنفاق، ونقل الثروة من جيل إلى آخر. ومن ذلك هذا المقتطف من مبادئ عامة كان يجب على التجار الالتزام بها لضمان نجاحهم:

ـ على نقيض الساموراي، لا يتلقى التجار راتباً، فهم يعتمدون على عملهم اليومي في التجارة لكسب المال، ويحرصون على انتقاله من جيل إلى آخر. لذا

---

(٨٧) كانت ممتلكات أُسرة ميتسويي مقسمة إلى ٢٢٠ وحدة، وكان كل فرع من فروع تجارتها يساوي عدداً معيّناً من الوحدات. انظر: Sakudõ, «The Management Practices of Family Business,» p. 158.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٥٦-١٥٧، وانظر، على وجه الخصوص، الجدول الذي يبيّن الكيفية التي كانت موزعة بها المؤسسات التجارية التابعة لأُسرة ميتسويي.

(٨٩) «كايسو كايشا»: شركة النقل البحري (Marine Transportation Co.).

William D. Wray, «Shipping: From Sail to Steam,» in: *Japan in Transition, from Tokugawa to Meiji*, edited by Marius B. Jansen and Gilbert Rozman (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), p. 254.

عليهم الاقتصاد في اللباس والأكل، والاستعداد للطوارئ من قبيل المرض والحريق والزلزال.

ـ وبما أنهم يعتمدون على زبنائهم لكسب معاشهم، فعليهم التعامل مع كل صفقة صغيرة بأهمية كبيرة. ويجب ألا تنقصهم اللباقة في التعامل مع أي زبون، حتى ولو كان خادماً أو طفلاً. وكما يقول المثل: «الفم باب المهلكة، واللسان سبب المصيبة»، فإن على التاجر ألا يستعمل لغة بذيئة أو يشتم زبوناً»[٩٠].

وورد في وصية كتبها عميد أُسرة **ميتسويي تاكاهيرا** (Mitsui Takahira) عام ١٧٢٢:

ـ على كل الأبناء والأحفاد الالتزام بالقواعد التالية وعدم الإخلال بها إلى الأبد:

ـ يجب على أعضاء الدار أن يعملوا باتفاق مع بعضهم البعض على الرفع من الربح المشترك.

ـ على أولئك الذين بيدهم السلطة أن يعاملوا أتباعهم بلطف، وعلى الأتباع أن يعاملوا من بيده السلطة باحترام. وستكون الدار أكثر ازدهاراً عندما تحترم هذه القواعد بكل عناية.

ـ إن عاش أحدهم في ترف وأهمل تجارته، فلن يكون هناك ازدهار للدار.

ـ عندما تكون جهود التاجر ونياته غير محكمة، فإن تجارته تضيع ويستولي عليها الآخرون.

وعلى العموم، حافظت الشركات اليابانية المعاصرة على التقاليد التجارية، وأخلاق التعامل التجاري، وأساليب إدارة مقاولة الأُسرة في عصر **توكوغاوا**. بل إن بعض الباحثين يعتقد أن من أسباب نجاح اليابانيين في التجارة ومجال إدارة المقاولات هو الحفاظ على التراث المكتسب من عصر توكوغاوا. فحتى وإن أخذت الشركات اليابانية (كايشا) بالمبادئ الغربية لتدبير المقاولات، فإن بنيتها الداخلية وعلاقتها بالعمال والموظفين ظلتا خاضعتين للمبادئ التي سادت قبل إصلاحات الميجي.

لا شك أن كبار التجار حققوا نجاحاً مرموقاً في كسب المال والهيمنة على

---

(٩٠) Dunn, *Everyday Life in Traditional Japan*, p. 120.

اقتصاد البلاد، وأن عموم التجار تمتعوا بدخل مادي فاق كثيراً الدخل المحدود للساموراي، إلا أن فئة التجار ظلت في الاعتبار الرسمي تحتل درجة متدنية. كما أنها ظلت محتقَرة في الكتابات النظرية المتأثرة بالفكر الكونفوشيوسي، وظل المال، الذي كان سبباً في صعودها، موضع احتقار. فقد كتب **ياماغا بانتو** (Yamaga Banto) (١٧٤٦ ـ ١٨٢١) - وهو كاتب مارس تجارة الأرز في أوساكا[٩١]- قائلاً:

يجب أن يكون الهدف الأول للإدارة هو معاملة سكان المدن معاملة سيئة، ومعاملة الفلاحين معاملة حسنة. فالحكومة الصالحة هي تلك التي تشجع الفلاحة وتثبط التجارة والصناعة بغاية العمل على تراجع المناطق الحضرية. فعندما تزدهر المدن، تتدهور الأقاليم، والعكس صحيح. وهذا هو النظام الطبيعي للأشياء[٩٢].

وفي السياق ذاته، ينسب إلى **هياشي شيهيئي** (Hayashi Shihie) (١٧٣٨ ـ ١٧٩٣)، وهو مختص بالإدارة والأمور العسكرية، قوله: «التشونين عديمو الفائدة، فهم بكل بساطة يحيون بترف على حساب رواتب الساموراي»[٩٣].

وكان من بين شذوا عن هذا التيار العام الكاتب **إيشيدا بايغان** (Ishida Baigan) (١٦٨٥ ـ ١٧٤٤)، الذي أسس حركة دينية تُعرف بشينغاكو (Shingaku)، واشتهر بالدفاع عن التشونين. فعلى النقيض من كبار مثقفي القرن السابع عشر، الذين بدأوا حياتهم رهباناً للزن، فإن **إيشيدا بايغان** بدأ حياته مساعداً لأحد التجار في **أوساكا**، ومن ثم ظل وفياً لفئة التشونين، يدافع عن مصالحها حتى بعد أن نال شهرة واسعة كمعلم وصاحب مدرسة[٩٤]. وقد لاقت دعوته الدينية

---

(٩١) مارس ياماغاتا بانتو التجارة في أوساكا التي انتقل إليها وهو في سن صغيرة. ومن العمل التجاري انتقل إلى الدراسة في معهد كايتوكودو (Kaitokudō)، الذي أنشئ لتعليم أبناء التجار في أوساكا. وفي عام ١٨٠٢ أنهى مؤلفاً من ستة أجزاء، ثم كتب نصيحة للشجون لتحسين الأداء الاقتصادي. ومن آرائه القضاء على احتكار تجار الجملة لتجارة الأرز، وذلك بقيام الشجون بتخزين الفائض من الأرز وتوزيعه عند الحاجة.

في ما يخص حياة ياماغاتا بانتو وآراءه، انظر: Najita Tetsuo, *Visions of Virtue in Tokugawa Japan* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1987), pp. 248-284.

(٩٢) ورد هذا المقتطف مترجماً إلى اللغة الإنكليزية، في: Robert Neelly Bellah, *Tokugawa Religion; the Values of Pre-Industrial Japan* (Boston, MA: Beacon Press, 1970), p. 159.

(٩٣) المصدر نفسه.

(٩٤) تُنسب إلى إيشيدا حركة دينية نالت إقبالاً لدى مثقفي القرن الثامن عشر، وهي تتمثل في الدعوة إلى «النظر في العقل» أو «النظر في القلب» (شينغاكو تترجم بـ (Learning the Mind or Heart Learning)). فعقل الإنسان (أو قلبه) هو ساحة للصراع بين رغبات الفرد المشروعة وغير المشروعة. والغاية هي التغلب على القلب =

إقبالاً لدى التشونين، الذين فتحت أمامهم طريق التنوير دون تمضية سنوات في الدراسة والانقطاع للعبادة[٩٥]. وقد نال **إيشيدا بايغان** اهتمام الباحثين (اليوم) في فكر عصر **توكوغاوا**، الذين اعتبروه معبّراً عن وعي التشونين ومناهضاً للنظام الفيودالي. ولعل أجود دراسة عنه، تلك التي خصه بها **روبرت بيلا** (Robert Bellah). فبعد أن وقف على سيرته وحلل أفكاره الدينية، خلص إلى أن إيشيدا لم يكن في الواقع ثورياً أو معادياً للنظام القائم، بقدر ما كان يدعو إلى العودة إلى التقاليد اليابانية الأصيلة المتمثلة في عبادة الشنتو والولاء للإمبراطور وتأكيد «الروح القومية» (كوكوطاي Kokutai) لليابان. وفي رأي بيلا، يتمثّل دفاع إيشيدا عن التشونين في منح مكان مشروع لهم في إطار القيم المحورية التي هي الولاء والورع والتخلي عن الأنانية، وغير ذلك ممّا من شأنه رفع وصمة العار عن العمل اليدوي والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بها التشونين[٩٦].

وتتمثّل الفكرة الرئيسية في كتابات **إيشيدا بايغان**، في معاملة التجار والحرفيين (التشونين) والفلاحين على قدم المساواة مع الساموراي، وهي فكرة مناقضة لمبدأ التراتب الذي يكرسه الفكر الكونفوشيوسي. وقد خص **إيشيدا** التجار بكتابات دافع فيها عن ممارساتهم من قبيل الإقراض والحصول على ربح من عملية البيع، إلى غير ذلك. ومن أقواله في هذا الشأن:

إن لم توجد التجارة، فلن يكون هناك شيء يشترى ولن يكون هناك شيء يبيعه التاجر. وإن أصبح كل التجار فلاحين وحرفيين، فإنه لن يوجد أحد يقوم بترويج الثروة، ويعاني كل الناس ذلك. فالساموراي والفلاحون والحرفيون والتجار يساعدون جميعاً في حكم الإمبراطورية[٩٧].

ونشير أخيراً، إلى أن التشونين أنتجوا ورعوا ثقافة خاصة بهم تمثّلت في الكتابة الأدبية والمسرح والرسم وغيرها من فنون الفرجة، وقد خصصنا لهذه الثقافة الفصل الثاني عشر الذي أدرجناه في القسم الثاني من هذه الدراسة.

= الأناني، ولن يكون ذلك إلا بالتأمل - كما يدعو إلى ذلك مذهب الزن ـ والزهد والانشغال بالأعمال الدنيوية البسيطة. في ما يخص هذا التيار الديني، انظر: Janine Anderson Sawada, *Confucian Values and Popular Zen: Sekimon Shingaku in Eighteenth-Century Japan* (Honolulu: University of Hawaii Press, 1993).

(٩٥) المصدر نفسه.

(٩٦) Bellah, *Tokugawa Religion; the Values of Pre-Industrial Japan*, p. 159.

انظر بصورة عامة الفصل السادس الخاص بـ «إيشيدا بايغان»، ص ١٣٣-١٧٦.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

خامساً: المنبوذون (إيتا ــ هينين)

في أسفل التراتب الاجتماعي، وخارج نظام الفئات الرباعي، تقع فئة كانت في وضع مماثل لفئة المنبوذين المعروفة في نظام الكاسط الهندي. وقد كانت هذه الفئة تُعرف في العهود الماضية ـ خاصة في عصر إيدو الذي يعنينا ـ بـ «إيطا» (Eta) و«هينين» (Hinin). وهما في الواقع فئتان مختلفتان من حيث الأصل والاعتبار، حتى وإن صُنّفتا في عصر **توكوغاوا** ضمن فئة واحدة تخضع لقوانين موحدة. ويعني مصطلح إيتا النجس أو المدنس (Unclean) بحسب المعتقدات البوذية والشنتوية، بينما يعني مصطلح هينين اللا ـ إنسان. ويبدو ممّا هو متوافر من معلومات تاريخية، أن تمييز فئة تختص بالأعمال النجسة بدأ في نهاية القرن العاشر، وتكرس خلال العصور الوسطى اليابانية، غير أنه لم يكن يُنظر إليها في البداية على أنها فئة موصومة بالعار بقدر ما كان يُنظر إليها كفئة تمتلك قوة خارقة تتغلب بها على الشرور والأخطار الناجمة عن الدنس. وقد كانت فئة منظمة لها قيادة معترف بها.

قبل عصر **توكوغاوا** لم يكن الفرق واضحاً بين إيتا وهنين بالقدر الذي أضحى عليه بعد تعزيز نظام الفئات ورسم حدودها في هذا العصر. وكانت شريحة إيتا في إطار التنظيمات الجديدة هي الأقرب من حيث مواصفاتها من خصائص فئة المنبوذين من الهند، فالانتماء إليها كان بالمولد ومحصوراً في أُسر اشتهرت لأجيال بهذه الصفة؛ إذ كان محرماً عليها الزواج من الفئات الأخرى أو إقامة علاقات جنسية مع أفرادها، وكان مفروضاً عليها الإقامة في أحياء محددة لها (شبيهة بالـ «غيتو») وعدم تعديها إلى أحياء غيرها أو الاختلاط بالآخرين والأكل معهم؛ بل كان محرماً على أفرادها العمل كخدم لدى بقية الناس العاديين، أو القيام بأية أعمال غير تلك المخصصة لهم.

ومع ذلك، كانت شريحة إيتا تقوم بدور اجتماعي تفرضه ضرورة المعتقدات الدينية، فهم يقومون بالحِرف النجسة التي يستنكف اليابانيون عن القيام بها لأسباب دينية وأخلاقية، من قبيل الحِرف المتصلة بالموتى وذبح الحيوانات ومعالجة بقاياها كصنع الأحذية والجزارة، ونقل النافق منها، وتنفيذ أحكام الإعدام والتعامل مع مرضى الجذام، إلى غير ذلك. ولا يُعرف بشكل واضح ما إذا كان تعاطي هذه الحِرف، والانتماء بالتالي إلى فئة المنبوذين، ناجماً عن التحدر من أصل معينّ كما يرى البعض، أم أن الوجود في أسفل الدرك الاجتماعي كان بسبب

القيام بعمل إجرامي في حق الإمبراطور، أو اقتراف أعمال مشينة في حق المجتمع هو الذي وضع أجداد هذه الفئة ضمن المنبوذين، وحكم على المتحدرين منهم بالبقاء فيها وتعاطي الحِرف المشار إليها. فمن حيث السمات الفيزيولوجية، لا يوجد فرق بين إيتا وباقي العناصر البشرية المكونة للمجتمع الياباني، ومع ذلك يميل البعض إلى الافتراض بأن أصلهم من الأسرى الكوريين الذين استُقدموا إلى اليابان في العصور القديمة (القرن الخامس الميلادي) أو من المهاجرين الكوريين وغيرهم الذين التحقوا بالجزر في الفترة ذاتها. وهو افتراض لا تدعمه دلائل تاريخية، ذلك أن كثيراً من الأُسر الكورية اندمجت في المجتمع وحققت مكانة رفيعة. ولعل الأقرب إلى المنطق، بحسب دراسة حديثة اعتمد صاحبها على مصادر تاريخية تعود إلى العصور القديمة والوسطى، هو أن المعتقدات الدينية هي التي أدت إلى عزل فئة للقيام بالوظائف النجسة. ففي ديانة الشنتو، كان هناك اعتقاد شديد بأن الاقتراب من الموتى ولمسهم يؤديان إلى الدنس، لذا كان المحتضر يخرج من المنزل ليموت في مكان بعيد عن السكن(٩٨). وقد تعزز الاعتقاد في الدنس الحاصل من لمس الحيوانات النافقة بعد دخول الديانة البوذية في القرن السادس الميلادي. وعلى أي حال، فإن هذا الافتراض لا ينفي أن من اعتبروا في العصور السابقة على عصر توكوغاوا من المنبوذين (مصطلح هينين هو الذي كان يستعمل في القرون الوسطى اليابانية) كانوا من مرتكبي الجرائم، أو من تدنت أوضاعهم الاقتصادية، ممّا دفع بهم إلى القيام بالأعمال التي يعجز الناس العاديون عن القيام بها.

أما شريحة هينين، فإن الانتماء إليها ـ بحسب معايير توكوغاوا ـ كان بسبب الحرفة التي يتعاطاها الفرد وتجعله في وضع اجتماعي متدن، ومن ذلك الدعارة والتسول والعمل في الفرجة. . . . وعلى الرغم من أن هذه الشريحة كانت في الاعتبار الرسمي أقل من إيتا درجة، فإن الخروج منها كان ممكناً في بداية **عصر توكوغاوا**، غير أن الانتماء إليها أصبح وراثياً، شأنه شأن الانتماء إلى شريحة إيتا.

(٩٨) Nagahara Keiji, «The Medieval Origins of the Eta-Hinin,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 5, no. 2 (Summer 1979), pp. 385-403.

اعتمدنا في إعداد هذه الفقرة على المراجع التالية: «Japan's Outcastes: Discrimination Then Discrimination Now,» in: J. E. Thomas, *Modern Japan: A Social History Since 1868* (London: Longman, 1996), pp. 73-96; «The Outcaste in Japan,» in: Hane, *Peasants, Rebels, and Outcastes: The Underside of Modern Japan*, pp. 138-171; Jansen, *Making of Modern Japan*, pp. 121-123, and Jean-Pierre Lehmann, *The Roots of Modern Japan* (New York: St. Martin's Press, 1982), pp. 100-102.

إضافة إلى أنها كانت تخضع إلى التمييز ذاته في ما يخص السكن في أحياء منعزلة. وعموماً، لم يكن معظم هذه الشريحة معزولاً اجتماعياً؛ فالدعارة مثلاً تقوم على أساس الاتصال بالآخر، وهذا الآخر لم يكن سوى من الساموراي والتجار وغيرهم من الناس العاديين. وفي السياق نفسه كان الممثلون المنسوبون رسمياً إلى فئة المنبوذين يحظون بالاحترام والتقدير، ويعيش البعض منهم ترفاً يفوق كثيراً ترف الساموراي.

كانت شريحة المنبوذين تخضع لقوانين خاصة بها، شأنها شأن الفئات الأخرى، وكانت لها زعامة تشرف على مصالحها. وفي عصر **توكوغاوا**، كانت زعامة المنبوذين في سهل كانتو (حيث العاصمة إيدو) في يد أُسرة تحمل لقب دانزيمون (Danzeamon) التي يُعتقد أن جدها الأول هو حفيد **ميناموتو يوري ـ تومو** من امرأة من الفلاحين[٩٩]. وفي جهات أخرى، كان البعض من زعامتها في يد أُسر تتحدر من ساموراي ارتكبوا جرائم وحكم عليهم بالحط من مكانتهم الاجتماعية، التي أضحت مكانة متوارثة في عقبهم. وعموماً، كانت سلطات الباكوفو تحمي مصالح المنبوذين (خاصة احتكارهم لصناعة النعال)، وتخصهم بتنظيمات خاصة بهم، كما هو حال باقي الفئات الأخرى. ومن ذلك ـ إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ـ التمييز أمام القانون؛ ففي حادث وقع في عام ١٨٥١ ملخصه أن شاباً من إيتا دخل معبداً للشنتو في العاصمة إيدو، فثارت ثائرة الناس الذين ضربوه حتى الموت. وبعد أن اشتكى متزعم إيتا إلى سلطة قضائية، حكم القاضي بأن حياة فرد عادي تساوي حيوات سبعة أفراد من إيتا، ولكي تتحقق العدالة لا بد من إعدام ستة أفراد آخرين منهم[١٠٠].

والمثير هو أن سلطات الباكوفو والهان كانت تتجاهل وجودهم تماماً، فهم لا يدخلون ضمن الإحصاءات التي تقوم بها، ولا تعتبرهم ضمن الناس العاديين. والأمر ذاته بالنسبة إلى المؤرخين والكتّاب الذين غفلوا عن ذكرهم. وإلى اليوم، يتحرج الباحثون اليابانيون من الخوض في مسألة المنبوذين.

كان عدد المنبوذين قبيل إصلاحات الميجي في حدود ٤٠٠ ألف نسمة (هناك تقديرات تجعلهم في حدود ٧٥٠ ألفاً)[١٠١]، وهم اليوم، بحسب إحصاء عام

---

(٩٩) Lehmann, Ibid., p. 101.

(١٠٠) Thomas, Ibid.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

١٩٧٥، زهاء مليون نسمة (بالضبط ١,١١٩,٢٧٨ نسمة يعيشون في ٤٣٧٤ جماعة منعزلة)[١٠٢]. ولم يعتبر في الإحصاءين سوى المتحدرين من إيتا. وفي عام ١٨٧١ صدر مرسوم يلغي استعمال مصطلحي إيتا وهينين، والاستعاضة عنهما بمصطلح بوراكومين (Burakumin) الذي يعني سكان القرية، أو العوام الجدد، ويلحِق المنبوذين «مبدئياً» بفئة العامة. والواقع أن سلطات الميجي لم تعمل في بداية الأمر على إلغاء نظام الفئات، كما لم تحرص بصورة جدية على إدماج فئة المنبوذين. ومن ثم، فإن هذا التشريع لم يغير من النظرة الدونية أو يخفف من التمييز القائم ضدهم اجتماعياً وقانونياً. فقد رفضت العامة أن تلحق بها هذه الفئة، وظل المنبوذون يعيشون في الأحياء الخاصة بهم لا يختلطون بالناس العاديين (إيبان Ippan). فالتمييز ظل قائماً ضدهم في المدارس، حيث كان أطفالهم يعانون تجنب الأطفال الآخرين الاقتراب منهم، وفي الجيش، حيث كانت الأعمال الوضيعة تُسند إليهم، ويمنع عليهم الترقي إلى مراتب القيادة. والأمر ذاته بالنسبة إلى الوظائف الرسمية والعمل في الشركات التي كانت تتردد في توظيفهم. وعلى الصعيد الاجتماعي، شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين تظاهرات في القرى ضد إدماج البوراكومين. كما كانت الأُسر ـ وما تزال ـ تتحرى عند الزواج ألا يكون أحد العروسين من أُسرة من شأنها أن تدنس نسبها. ومن الأحداث الشهيرة في هذا الباب أن شاباً من إيتا تزوج من فتاة من الناس العاديين (عام ١٩٣٣) وكان أخفى هويته، وعندما اكتشف أهل العروس الأمر رفعوا دعوى ضد العريس الذي حكمت عليه وعلى أخيه بالسجن.

شهدت العقود الأولى من القرن العشرين تأسيس جمعيات للدفاع عن حقوق البوراكومين ورفع الحيف والتمييز عنهم، وكانت تلك الجمعيات تلقى الدعم من الحزب الشيوعي الياباني الذي كان ناشطاً قبل الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب العالمية الثانية، تأسست «اللجنة الوطنية لتحرير البوراكومين» (NCLB)، التي تحولت في أواسط الخمسينيات إلى «عصبة تحرير البوراكو» (BLL)، وهي التي قامت في عام ١٩٦١ بتنظيم مسيرة كبرى من كيوشو إلى العاصمة كيوطو

(١٠٢) Hah Chong-do and C. Lapp Christopher, «Japanese Politics of Equality: The Case of the Burakumin,» *Asian Survey*, vol. 18, no. 5 (May 1978).

إنّ جميع المراجع التي اعتمدناها تعتبر أن هذا الرقم غير صحيح، لأنه كان من الصعب في عام ١٩٧٥ معرفة من يتحدرون من إيتا. لذا، فهي تميل إلى أن عددهم الحقيقي في تلك الفترة الذي فاق المليوني نسمة.

لتحسيس الرأي العام بمعاناة البوراكومين، وكان لتلك المسيرة تأثير كبير. والواقع أن معاناة البوراكومين كانت مزدوجة؛ فمن جهة، كان هناك قانون يطلب من المرشح لوظيفة رسمية أو العمل في شركة أن يثبت محل سكناه وأصله، وبخاصة أنه لا ينتمي إلى «العوام الجدد» (الذي يعني أن أُسرته لم تُحسب في عداد الناس العاديين إلا بعد إصلاحات الميجي). ومن جهة أخرى كانت معاناتهم من النظرة الدونية ورفض الاختلاط بهم من قبل «الناس العاديين».

في عام ١٩٦٩ صادقت السلطات التشريعية اليابانية على قانون يلغي العمل بالقانون المشار إليه، كما اتخذت الحكومة إجراءات عملية لإدماج البوراكومين في النسيج الاجتماعي، غير أن القوانين لن تتمكن في المستقبل القريب من إلغاء النظرة الدونية[١٠٣].

(١٠٣) في ما يخص حركات تحرر البوراكومين انظر: المصدر نفسه، وهو عبارة عن تقرير أعد لمجلة *Asian Survey* عام ١٩٧٨.

الفصل الرابع

مؤسسة الشجون وأُسرة توكوغاوا

ارتبط ظهور مؤسسة الشجون (الشجونة) بوصول الساموراي إلى السلطة في نهاية القرن الثاني عشر، حيث أصبح القائم على الجهاز العسكري والإداري يحمل لقب الشجون. وقد كان هذا اللقب في الأصل بمثابة رتبة عسكرية مؤقتة يخلعها الإمبراطور على القائد العسكري، الذي يكلف بإخضاع المناطق المتمردة على السلطة المركزية. وبعد وصول الساموراي إلى السلطة، أصبح لقب الشجون منصباً دائماً تتوارثه أُسر الساموراي الحاكمة. وهكذا توارثت هذا المنصب أُسرة **ميناموتو** (١١٩٢ ـ ١٣٣٣)، ثم أُسرة **أشيكاغا** (١٣٣٣ ـ ١٥٦٨)، وأخيراً أُسرة **توكوغاوا** (١٦٠٣ ـ ١٨٦٨).

يعتبر الشجون من الناحية المبدئية حاكماً مفوضاً من الإمبراطور وخاضعاً لسلطته؛ فهو يحكم البلاد بتفويض من الإمبراطور وباسمه، ويستمد مشروعيته من التعيين الذي يحصل عليه منه. وكما أشرنا في مناسبات سابقة، ظل الإمبراطور، رغم فقدانه لكل سلطة فعلية، المجسد للإرادة السماوية والمصدر الأول للمشروعية. فعلى سبيل المثال، كانت ولاية عهد الشجون تحسم داخل أُسرة الساموراي الحاكمة، ولا شأن للإمبراطور في اختيار الشجون الجديد، إلا أن الاحتلال الفعلي للمنصب والممارسة الرسمية له لا يتمان إلا بعد حصول الشجون الجديد على مرسوم تعيينه من الإمبراطور. وفي المقابل، كان الشجون يتدخل أحياناً، بطرق غير مباشرة، في ولاية عهد الإمبراطور بما يخدم مصالحه. وهناك أمثلة كثيرة في تاريخ المؤسسة الإمبراطورية التي تدخل فيها الشجون لحسم الخلاف حول ولاية العهد.

وعلى الرغم من أهمية الإمبراطور الرمزية والروحية وتربعه على هرمية السلطة، فإن الشجون ظل يتمتع بسلطات واسعة ومطلقة؛ فهو متزعم الساموراي، والقائد الأعلى لجيش الشجونة، ورئيس جهازها الإداري والمالي، ومشرّع مراسيمها، والمتصرف في الشؤون الخارجية للبلاد. وباختصار، كان الحاكم الفعلي لليابان دون منازع، حيث لم يكن يرجع إلى الإمبراطور أو يستشيره إلا في حالات نادرة، كما حدث عند اشتداد الأزمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد أحدثت ثنائية السلطة هاته بلبلة في ذهن الأوروبيين، سواء في القرن السادس عشر أو في القرن التاسع عشر، حيث تعاملوا مع الشجون على أساس أنه إمبراطور أو ملك اليابان. في حين شبّه أحد المبشرين في القرن السادس عشر وضع الإمبراطور بوضع الحبر الأعظم للكنيسة، اعتباراً لتماثل السلطة الروحية لكل منهما.

وطوال القرون السبعة التي هيمن فيها الساموراي على السلطة واستمر فيها حكم الشجون ـ المعروفة بـ بوكي جيداي، لم يسجل سوى حدثين شذّا عن القاعدة. يتعلق **الحدث الأول** بانتفاضة الإمبراطور **غـو ـ دايغو** (Go-Daigo) (١٣١٨ ـ ١٣٣٩) الذي حاول عام ١٣٣٣ استعادة سلطاته من المؤسسة العسكرية والقضاء على شجونة **كاماكورا**، وهو ما نجح فيه بالفعل، غير أن انتفاضته، التي تُعرف بإصلاحات كيمو (Kemmu no Chuko)، لم تستمر سوى فترة زمنية قصيرة (ثلاث سنوات)، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في اللمحة التاريخية. ويتعلق **الحدث الثاني** بـ **يوشيميتسو** (Yoshimitsu) (حكم ١٣٦٨ ـ ١٤٠٨)، الشجون الثالث من أُسرة أشيكاغا، الذي تخطى مشروعية الإمبراطور بحصوله من إمبراطور الصين على لقب «ملك اليابان»؛ إذ كان في قبوله اللقب اعترافاً بالتبعية لإمبراطور الصين وتحدياً للمؤسسة الإمبراطورية اليابانية. وإن نحن تغاضينا عن هذين الاستثناءين، نجد أن الإمبراطور ظل مصدر المشروعية، وظل الشجون الحاكم الفعلي للبلاد إلى حين قيام إصلاحات الميجي.

أولاً: إياسو وإقرار حكم أُسرة توكوغاوا

يعتبر **إياسو** المؤسس الفعلي لشجونة **توكوغاوا** والجد الأعلى لكل الشجون الذين تولوا الحكم خلال العصر المنسوب إلى هذه الأُسرة؛ فقد حقق بانتصاره في معركة **سيكي ـ غاهارا** (١٦٠٠) هيمنة مطلقة على الدايميو كافة، وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد، الأمر الذي أقره الإمبراطور **غو ـ يوزيئي** (Go-Yôzei) (حكم ١٥٨٦ ـ

١٦١١) وأضفى المشروعية عليه؛ إذ خلع عليه لقب الشجون عام ١٦٠٣. ومنذ حصوله على التفويض الإمبراطوري أضحى هاجسه الأول استمرار الحكم في أُسرته، وعدم تكرار تجربة سلفه **هيدي ـ يوشي**، الذي لم ينجح في نقل السلطات التي اكتسبها، إلى ابنه. ومن ثم انصبت جهوده الأولى في وضع الأسس التي تؤمّن هذا البقاء، وتضمن ولاء الدايميو له ولأُسرته، وتمنع نهائياً العودة إلى الحرب الأهلية أو تحدي مشروعية السلطة المركزية. وقد تمكن من تحقيق ذلك عبر سلسلة من الإجراءات والتنظيمات التي كانت ناجحة في تحقيق ما أراد ونقل المجتمع الياباني من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلم. ومن ذلك، ادعاء النسب الذي مكّنه وأُسرته من احتلال أرفع مناصب الدولة، وعمله على تحقيق الاستقلال المادي لأُسرته، وحل مشكلة ولاية العهد، وتمتين صلة القرابة بالأُسرة الإمبراطورية، وضبط المجتمع الياباني ومكوناته السياسية بسلسلة من القوانين والتنظيمات.

١ ـ أيديولوجية النسب

كان منصب الشجون أعلى المراتب في الإدارة الإمبراطورية، اقتضاء لنسب رفيع يخوّل صاحبه بلوغ أعلى درجات النبلاء، التي تؤهله لحكم البلاد بتفويض من الإمبراطور وإدارة البلاد باسمه. فمنذ أن استولى الساموراي على السلطة إلى حين قيام إصلاحات الميجي، لم يُمنح هذا اللقب إلا لأُسر قليلة من الساموراي تربطها صلة قرابة بالأُسرة الإمبراطورية. فمؤسس الأُسرة الأولى (**ميناموتو نو يوري ـ تومو**) ومؤسس الأُسرة الثانية (**أشيكاغا تاكاؤوجي**) ينتميان إلى أُسرة ميناموتو، التي تتحدر من سلالة الإمبراطور سيوا (Seiwa) (٨٥٨ ـ ٨٧٦)[١] ويرقى نسبها إلى الإمبراطور **ساغا**[٢] الذي حكم في مطلع القرن التاسع الميلادي؛ إذ جرى العرف السائد لدى الأُسرة الإمبراطورية، منذ القرن الثامن الميلادي، أن تقصى فروع من الأُسرة بعد مرور أربعة أو خمسة أجيال، تفادياً للصراع حول ولاية العهد، وتخفيفاً من العبء المادي الذي يشكله بقاؤها ملحقة بالأُسرة بشكل رسمي. كما أن بعض الأباطرة كانوا يُقْصون، وهم على قيد الحياة، بعضاً من أبنائهم من ولاية العهد، ويمنحونهم ألقاباً ورتباً ضمن النبلاء

---

(١) الإمبراطور سيوا (Seiwa) (٨٥٠ ـ ٨٨١) هو الإمبراطور السادس والخمسون (باحتساب الأباطرة المذكورين في الأسطورة)، وقد تولى عرش الإمبراطورية اليابانية من عام ٨٥٨ إلى عام ٨٧٦.

(٢) الإمبراطور ساغا (Saga) (٧٨٦ ـ ٨٤٢) هو الإمبراطور الثاني والخمسون (باحتساب الأباطرة المذكورين في الأسطورة)، حكم من عام ٨٠٩ إلى عام ٨٢٣.

للأسباب نفسها. وهذا ما فعله الإمبراطور **ساغا** الذي أقصى ٣٣ من أبنائه الخمسين، ومنحهم لقب **ميناموتو**، فأصبحوا وسلالاتهم يشكلون أُسراً نبيلة في مرحلة، ثم تحول البعض منهم إلى متزعمي أُسر الساموراي في مرحلة لاحقة[٣].

لم تستثن الأُسرة الثالثة من هذا العرف المتّبع في تولي منصب الشجون؛ فمؤسسها **إياسو** سعى، منذ أن كان واحداً من الدايميو (١٥٦٦)، إلى تغيير لقب أُسرته من **ماتسودايرا** إلى **توكوغاوا**، وقد منحه ذلك التغيير إلحاق أُسرته بكبار أُسر الساموراي، والحصول على رتبة ضمن نبلاء البلاط. غير أن الأمر لم يكن كافياً ليتولى أعلى المناصب في الدولة. وهكذا، وعندما كان إياسو يعدُّ العدة لتحقيق الهيمنة على مجموع البلاد، هيأ شجرتي نسب، تلحق إحداهما أُسرته بـ **فوجي ـ وارا**، والثانية بأُسرة **ميناموتو**. وقد وقع اختياره في النهاية على النسب الأخير الذي خوّله الحصول على لقب الشجون وشرف زعامة أُسرة غينجي[٤]، وتصنيفه في الرتبة الأولى الصغرى من نبلاء البلاط، وتعيينه في منصب وزير اليمين أوداﻳﺠين (Udaijin). وحتى وإن لم تكن هذه الألقاب الشرفية والوظائف الرمزية تضيف شيئاً إلى ثقله السياسي والعسكري الذي اكتسبه عبر جهوده الشخصية، إلا أنها كانت تحمل في طياتها رموزاً كبرى تدعم مشروعية سلطته.

هناك من شكك في انتساب أُسرة **توكوغاوا** إلى سلالة **ميناموتو**، بحجة أن أُسرة **ماتسودايرا** ظلت مغمورة غير معروفة النسب إلى حين صعود **إياسو**، وأن هذا الأخير هو الذي سعى في تغيير لقب أُسرته وادعاء نسب نبيل (أو شريف) لتلبية الشروط المطلوبة للارتقاء السياسي والحصول على منصب الشجون[٥]. وهو تشكيك له ما يبرره وما يدعو إليه، غير أن **إياسو** ليس الوحيد في هذا الباب، فهناك الكثير من كبار الدايميو ممن اختلقوا شجرات أنساب تلحقهم بأُسر عريقة للأسباب ذاتها. ويحيلنا هذا إلى أيديولوجية النسب واعتمادها مرجعية للمشروعية وتحقيق مكتسبات سياسية، كما هو الشأن، مثلاً، في فترة من تاريخ المغرب،

---

(٣) William H. McCullough, «The Heian Court, 794-1070,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 2, p. 39.

(٤) غينجي (Genji) لقب من بين ألقاب أخرى كانت تعرف بها أُسرة ميناموتو.

(٥) انظر: John W. Hall, «The Bakuhan System,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 131.

حيث ادعى كثيرون النسب إلى آل البيت أو إلى كبار الصلحاء، قصد التمتع بامتيازات النسب أو الوصول إلى السلطة[٦]. وكيفما كان الأمر، فإن النفوذ السياسي والقوة العسكرية كانا الحجة الأقوى التي تدعم ادعاء النسب وتثبته. فالإمبراطور عند اعترافه بنسب بعض الشخوص، كما فعل مع **هيدي ـ يوشي وإياسو**، كان في الواقع يعترف بالهيمنة السياسية والعسكرية التي حققوها، بغض النظر عن صحة ما كانوا يدّعونه من نسب. وللتذكير في هذا الصدد، فإن **أودا نوبوناغا** ادعى التحدر من أُسرة **فوجي وارا** العريقة في مرحلة أولى، ثم من أُسرة تايرا ذات الصلة بالأُسرة الإمبراطورية في مرحلة متأخرة، وكذلك فعل **هيدي ـ يوشي** بادعائه التحدر من سلالة **فوجي ـ وارا** (بالتبنّي) للحصول على منصب كامباكو (أو الوصي على العرش)؛ إذ كان النسب، سواء أكان ادعاؤه صحيحاً أم قائماً على التبنّي أم مختلقاً، هو المؤهل الوحيد لنيل الحظوة لدى الإمبراطور وتولّي أعلى المناصب، حيث لم يكن إخضاع البلاد بالقوة كافياً وحده في هذا الشأن.

٢ ـ الاستقلال المادي

لم يكن النسب السند الوحيد لوصول إياسو إلى السلطة، أو العامل الوحيد لاستمرارية السلطة في أُسرة **توكوغاوا** ما ينوف على قرنين ونصف قرن من الزمن؛ فهناك عوامل أخرى، في مقدمتها العامل الاقتصادي. وقد سبق أن أُشير في التقديم الجغرافي إلى أهمية السهول في نشأة السلطة، وإلى أن مراكزها لم تخرج عن نطاق منطقتي كيناي وكانتو ذواتي السهول الغنية. ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الزعماء الثلاثة (**نوبوناغا** و**هيدي ـ يوشي** و**توكوغاوا**) انطلقوا جميعهم في النصف الثاني من القرن السادس عشر من إقليمي **أواري** و**ميكاوا** غير بعيد عن منطقة **كيناي**،

---

(٦) أمّا في ما يخص العناية بالنسب والاحتفاظ بشجرة الأنساب، فإن الأمر يرجع إلى عصر هييان وربما قبله؛ ذلك أن الوظائف الرسمية في الإدارة الإمبراطورية كانت وراثية في أُسر بعينها، ومن ثم كان النسب أساسياً في ادعاء الحق في تلك الوظائف. ويبدو أن رسم شجرة الأنساب بدأ منذ عصر هييان، حيث جرى تحديد أهم الأُسر العريقة أو أُسر النبلاء.

أثارت فضولي بشكل خاص ـ وأنا المتشبع بالثقافة الإسلامية ـ هذه الأهمية القصوى التي تعطى للنسب في الثقافة اليابانية، حيث كان النسب مفتاح التأهيل لتولّي أعلى مناصب الدولة، والترتيب ضمن نبلاء البلاط، والحصول على الألقاب الشرفية التي يمنحها الإمبراطور. فهذا الاعتبار الذي يقام للنسب في اليابان، يماثل في أوجه منه، الاعتبار الذي يقام للنسب الشريف في بعض البلدان الإسلامية مثل المغرب، كما أشرنا. ذلك أن نسب الأُسرة الإمبراطورية هو في الوقت عينه نسب مقدس، لكون الإمبراطور الأول جيمو، بحسب معتقدات الشنتو، هو حفيد إلهة الشمس أماتيراسو. وبعد هذا، ألا يحق لنا أن نقول، ولو على سبيل المجاز، إن هناك صيغة يابانية لـ «النسب الشريف»؟!

حيث يتميز هذان الإقليمان بجريان أهم الأنهار في جزيرة هونشو: أنهار **كيسو** و**إيبي** و**ناغارا** و**ياهاغي**، وبغنى السهول التي تستفيد من مياهها وفيضانها (انظر الخريطتين الرقمين (٣ و٤)) في التمهيد؛ إذ إن إنتاج هذه السهول الزراعي الوفير مكّن الدايميو القائمين عليها من رعاية عدد كبير من جنود الساموراي، ومن جعْلهم يتفرغون للعمل العسكري، أي على نقيض أقاليم أخرى التي كان فيها جنود الساموراي يزاوجون بين النشاطين العسكري والزراعي(٧). كما مكّن هؤلاء الدايميو أيضاً من اقتناء الأسلحة النارية المستوردة أو المحلية التي كان يتعذر على دايميو آخرين الحصول عليها بسبب غلاء أسعارها. هذا بالإضافة إلى قرب هذه المنطقة من العاصمة كيوطو؛ إذ إنه سهل على الدايميو القائمين عليها الوصول إلى **كيوطو** والاستيلاء عليها.

انطلق **توكوغاوا إياسو** من إقليم **ميكاوا** في مرحلته المبكرة، لكن سرعان ما تقلّد في عام ١٥٨٢ منصب الدايميو على خمسة أقاليم (**ميكاوا** و**سوروغا** و**كائيي** و**توتومي** و**شينانو**) كانت، إضافة إلى غناها، تتحكم في المحور الطرقي الرابط بين **كيوطو** وسهل **كانتو**. وابتداء من عام ١٥٩١، انتقل إياسو، بأمر من **هيدي ـ يوشي**، إلى منطقة **كانتو**، الغنية أيضاً، حيث أصبح يسيطر على أقاليم تنتج ما ينوف على مليونين ونصف مليون كوكو/أرز (أي زهاء سدس ما كانت أراضي اليابان تنتجه مجتمعة).

نصل إلى القول إن إياسو اعتمد في انطلاقه نحو السلطة على قاعدة اقتصادية متينة، زادها متانة وقوة بعد انتصاره في معركة **سيكي ـ غاهارا** (١٦٠٠)؛ فبعد هذه المعركة، صادر قسماً كبيراً من الأراضي التي كانت في يد الدايميو، الذين حاربوه أو تحالفوا ضده؛ فبلغ مجموع ما صادره من أراض منتجة ٦,٠٠٠,٠٠٠ كوكو/أرز، جرى توزيع قسم منها بين من ناصروه من أُسر الساموراي والأُسر التي تمت بصلة قرابة إلى أُسرة **توكوغاوا**، في حين احتفظت أُسرة **توكوغاوا** ذاتها (الفرع الحاكم) بقسم كانت تديره مباشرة بواسطة وكلاء من الأتباع (دايكان (Daikan))، حيث كانت هذه الأراضي موزعة في أقاليم كثيرة، إضافة إلى منطقة **كانتو**. (انظر الخريطة الرقم (٥ ـ ١)). ولم يقتصر الأمر على المصادرات التي تلت

(٧) انظر تحليلاً في هذا الشأن: Shinzaburo Oishi, «The Bakuhan System,» in: Chie Nakane [et al.] eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 17-18.

معركة **سيكي ـ غاهارا**، بل عمل شجون القرن السابع على مصادرة أراض أخرى. ويبين الجدول الرقم (٤ ـ ١) المساحات التي صادروها خلال هذا القرن.

استغل **إياسو** عملية المصادرة لا لمجازاة الدايميو الذين وقفوا إلى جانبه فحسب، وإنما للتقليل أيضاً من أعداد الدايميو الذين تحالفوا ضده أو تقاعسوا عن مناصرته؛ إذ سلك **إياسو** تجاههم سياسة ترمي إما للقضاء عليهم نهائياً، وإما لتحجيم نفوذهم وقوتهم الاقتصادية بنقلهم من مناطقهم الأصلية أو مصادرة قسم من أراضيهم. أما في ما يخص دواعي مصادرة أراضي الدايميو، بعد **إياسو**، فكانت تارة بدعوى العجز عن حفظ النظام، أو الإخلال بالواجبات، وتارة بحجة موت أحدهم وعدم تركه وريثاً يخلفه. ذلك أن أراضي الهان كانت تعتبر، بحسب عرف الشجون، مجرد عطاء منهم للدايميو، وفي حال انعدام الوريث، تعود الأرض إلى معطيها الذي يكون من حقه العهدة بها إلى أُسرة أخرى. وحتى عند الوفاة وترك وريث، لا تكون الوراثة آلية، إذ تكون مشروطة مبدئياً، بموافقة الشجون. وهذا ما ينطبق بشكل خاص على الولد بالتبنّي الذي يكون محتماً على متبنّيه الحصول على موافقة مسبقة من الشجون قبل تعيينه لولاية العهد وإدارة الهان[٨].

الجدول الرقم (٤ ـ ١)
الأراضي التي صودرت ما بين عامي ١٦٠١ و١٧٠٥

الشجون	عدد الدايميو المصادرة أراضيهم	المساحة بالـ كوكو/ أرز
إياسو (١٦٠١ ـ ١٦)	٤١	٣,٥٩٤٦٤٠
هيديتادا (١٦١٦ ـ ٣١)	٣٨	٣,٦٠٥٤٢٠
إييميتسو (١٦٣٢ ـ ٥٠)	٤٦	٣,٥٨٠١٠٠
إييتسونا (١٦٥١ ـ ٧٩)	٢٨	٧٢٨٠٠٠
تسونا ـ يوشي (١٦٨٠ ـ ١٧٠٥)	٤٥	١,٧٠٢٩٨٢
المجموع	**١٩٨**	**١٣,٢١١١٤٢**

المصدر: John Whitney Hall, «The Bakuhan System,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 152.

تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ جورج سانسوم قدّر الأراضي المصادرة في نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٠) بما يفوق ١٤ مليون كوكو/أرز، انظر: G. Sansom, *A History of Japan, 1615-1867* p. 196

(٨) Oishi, Ibid., pp. 22-23.

كانت مصادرة الأراضي ذات بُعد آخر، وهو إبقاء أُسر الدايميو في حدود اقتصادية معينة لا تسمح لها بمنافسة الأُسرة الحاكمة أو تحدي سلطتها. فأُسرة **توكوغاوا** هي واحدة من أُسر الدايميو قبل وصولها إلى السلطة، ومن ثم كان حرص الشجون الأوائل على استمرار تميز أُسرتهم وإضعاف أترابها. وهكذا، وعن طريق اتباع سياسة المصادرة واتخاذ إجراءات أخرى، جرى تحجيم مجموع أُسر الدايميو، حيث لم تعد هناك سوى أُسر قليلة من الدايميو ـ لا تزيد على ١٦ أُسرة من مجموع ٢٦٠ أُسرة ـ تقدر مساحة هاناتها بأكثر من ٣٠٠,٠٠٠ كوكو/أرز، بينما لم تكن مداخيل أغناها ـ وهي أُسرة مائيدا ـ تتجاوز المليون كوكو/أرز[٩]. وفي المقابل، كانت أُسرة **توكوغاوا** تستغل، بصورة مباشرة وغير مباشرة، أراضي يناهز إنتاجها سبعة ملايين كوكو/أرز. وعلى سبيل المقارنة ليس إلا، كان إنتاج الأراضي التابعة للأُسرة الإمبراطورية يتراوح بين ١٥٠ ألف كوكو/أرز و٢٠٠ ألف كوكو/أرز.

ظلت أُسرة **توكوغاوا** محافظة على هذا الامتياز الاقتصادي طوال حكمها، حيث شكّلت مداخيل هذه الأراضي مصدر قوة لها، وحررتها من التبعية للدايميو. ذلك أن الشجون اعتمدوا في المقام الأول على الموارد المالية التي تؤول إليهم من هذه الأراضي، والتي عززوها في مقام ثان بمراقبة التجارة الخارجية ومنع الدايميو من الاستفادة منها ـ باستثناء أُسرتين ـ[١٠] واحتكار معادن الذهب والفضة والنحاس ووضع اليد على مناجمها. ومن ثم كانت الموازنة المالية للشجونة في غنى عن مساهمات الدايميو التي اقتصرت على الهدايا السنوية، ومد الشجون بالمقاتلين عند الحاجة، والمشاركة في الأشغال العامة.

٣ ـ ولاية العهد

حصل إياسو على لقب الشجون عام ١٦٠٣ في الظروف التي سبق شرحها. ولعل الهم الأول الذي شغله طوال حكمه هو استمرار السلطة في أُسرته، والاطمئنان إلى انتقال ولاية العهد إلى عقبه. وقد كان الأمر يتطلب التغلب على عقبتين: تتمثل **الأولى** في تعيين واحد من أبنائه على رأس الشجونة والاعتراف

---

(٩) Mikiso Hane, *Premodern Japan: A Historical Survey* (San Francisco: Westview Press, 1991), p. 137.

(١٠) لنا عودة إلى مسألة التجارة الخارجية في الفصل السابع الخاص بسياسة العزلة وعلاقات اليابان الخارجية.

بسلطته، و**الثانية** في التخلص من منافسه القوي تويو ـ **تومي هيدي ـ يوري** (١٥٩٣ ـ ١٦١٥)، الذي ظل رغم صغر سنه محافظاً على الألقاب التي ورثها عن والده **هيدي ـ يوشي**. وقد حسم أمر هاتين العقبتين على مرحلتين:

كانت **المرحلة الأولى** في عام ١٦٠٥، حين قرر التنازل لابنه **هيديتادا** عن ولاية الشجون والمناصب والألقاب الأخرى التي حصل عليها من الإمبراطور. وهو إجراء كان شكلياً فحسب، إذ ظل في الواقع يمارس سلطة فعلية إلى حين وفاته عام ١٦١٦[(١١)]. وليطمئن إلى ولاء الدايميو لـ **هيديتادا**، نظم لهذا الأخير استعراضاً ضخماً واحتفالات رسمية في العاصمة **كيوطو** بمناسبة تنصيبه، حضرها جُل الدايميو، بمن فيهم الدايميو توزاما (أو المبعدون).

اختار **إياسو** ابنه الثالث لخلافته، لأسباب تتعلق من جهة، بالولاء الذي التزم به ابنه الثاني **هيدي ـ ياسو**[(١٢)] (وكان ابنه الأول قد توفي في عام ١٥٧٩)، وتتعلق، من جهة أخرى، بالكفاءات الشخصية التي ارتآها في **هيديتادا**. وعلى أي حال، فقد وضع في ما بعد المبدأ الذي يجب أن تحسم على أساسه مسألة ولاية العهد، حتى لا تتعرض أُسرة **توكوغاوا** لأزمات تعصف بها، على غرار ما حدث لأُسر أخرى. كان المبدأ السائد لدى أُسر الشجون والدايميو هو إعطاء الأولوية للابن البكر، غير أن القدرات والكفاءات الشخصية، إن توافرت في أحد الأبناء، كانت تؤخذ بعين الاعتبار أحياناً في اختيار ولي العهد، بغض النظر عن الترتيب من حيث المولد. وهذا ما فعله **إياسو** بتفضيله **هيديتادا**. لكن عندما طُرحت مسألة اختيار الشجون الثالث، و**إياسو** كان ما يزال على قيد الحياة، أوصى الأخير بأن يُعمل بمبدأ تولّي الابن البكر، تجنباً للصراعات بين الأبناء وحسماً للخلاف[(١٣)]. كما أوصى،

---

(١١) مسألة التنازل عن الحكم رسمياً، والاستمرار في ممارسة السلطة تقليد سارت عليه الأُسرة الإمبراطورية من القرن العاشر الميلادي، حيث كان الأباطرة يتقاعدون عن الحكم ويستمرون في ممارسة السلطة بطريقة غير مباشرة، وأحياناً بطريقة مباشرة. وقد قلد الشجون الأباطرة في هذه الممارسة، حيث إن عدداً من الشجون كانوا يتنازلون عن عرش الشجونة لصالح أولياء عهدهم، مثل ما فعل «إياسو وابنه هيدي ـ داتا».

(١٢) كان عدد الأبناء الذكور الذين خلفهم إياسو أحد عشر ولداً. وقد كان الابن البكر نوبوياسو (Nobuyasu) متزوجاً من ابنة أودا نوبوناغا، وقد تشكك إياسو في ولائه، وأمره بالانتحار على طريقة سيبوكو في عام ١٥٧٩، ومن ثم لم يكن أمر توليه مطروحاً. أمّا الابن الثاني هيدي ـ ياسو (Hediyasu)، فقد تبنّاه هيدي ـ يوشي، ولم يكن، حسب مقتضيات العرف، يتبع لأُسرة توكوغاوا بسبب هذا التبنّي. انظر في هذا الشأن: Oishi, «The Bakuhan System,» p. 19.

(١٣) كتب إياسو إلى أحد معاونيه قائلاً: «ينظر الدايميو إلى الابن البكر نظرة خاصة، بينما يعتبرون صغار الأبناء في وضع الأتباع... ومنح الابن الثاني سلطة أكبر من الابن البكر هو أصل المشاكل التي تعانيها أُسر الدايميو». انظر: المصدر نفسه، ص ٢٠.

في حال عدم وجود وريث من الأُسرة الرئيسية (الحاكمة)، أن يجري اختيار الشجون من الأُسر الموازية للفرع الحاكم (التي حددت في ثلاث سلالات من أبناء **إياسو** الذين تولوا مناصب الدايميو في أقاليم: **أواري** و**كيئي** و**ميتو**)(١٤). وعموماً لم تطرح مسألة ولاية العهد أزمات كبرى طوال حكم أُسرة **توكوغاوا**، إذا كانت تحسم على أساس المبدأ المشار إليه، وفي حال عدم وجود وريث من صلب الشجون، كان من حق أحد الأقرباء (الأخ، ابن الأخ أو العم. . .) أو أحد المتحدرين من العائلات الفرعية لأُسرة توكوغاوا تولي خلافة الشجون.

الجدول الرقم (٤ ـ ٢)
شجون توكوغاوا

الشجون	تاريخ الميلاد ـ تاريخ الوفاة	سنوات الحكم	ملاحظات(*)
١ ـ إياسو	١٥٤٣ ـ ١٦١٦	١٦٠٣ ـ ١٦٠٥	المؤسس
٢ ـ هيديتادا	١٥٧٩ ـ ١٦٣٢	١٦٠٥ ـ ١٦٢٣	↓
٣ ـ إييميتسو	١٦٠٤ ـ ١٦٥١	١٦٢٣ ـ ١٦٥١	↓
٤ ـ إييتسونا	١٦٤١ ـ ١٦٨٠	١٦٥١ ـ ١٦٨٠	↓
٥ ـ تسونا ـ يوشي	١٦٤٦ ـ ١٧٠٩	١٦٨٠ ـ ١٧٠٩	ابن إييميتسو، أخو الشجون السابق
٦ ـ إيينوبو	١٦٦٢ ـ ١٧١٢	١٧٠٩ ـ ١٧١٢	حفيد إييميتسو من ابنه تسوناشيغي وابن تسونا ـ يوشي بالتبني
٧ ـ إييتسوغو	١٧٠٩ ـ ١٧١٦	١٧١٣ ـ ١٧١٦	↓
٨ ـ يوشي ـ موني	١٦٨٤ ـ ١٧٥١	١٧١٦ ـ ١٧٤٥	حفيد يوري ـ نوبو، أحد أبناء إياسو
٩ ـ إييشيغي	١٧١١ ـ ١٧٦١	١٧٤٥ ـ ١٧٦٠	↓
١٠ ـ إييهارو	١٧٣٧ ـ ١٧٨٦	١٧٦٠ ـ ١٧٨٦	↓

يتبــع

(١٤) يتعلق الأمر بأبناء إياسو الأربعة، الذين عُينوا في منصب الدايميو، وهم: توكوغاوا يوشي ـ ناؤو (Tokugawa Yohinao) (١٦٠٠ ـ ١٦٥٠)، الذي أصبح الدايميو على إقليم أواري (Owari) واستمرت أُسرته هناك؛ توكوغاوا يوري- نوبو (Tokugawa Yorinobu) (١٦٠٢ ـ ١٦٧١)، الذي عين دايميو على إقليم كيئي (Kii)؛ توكوغاوا يوري ـ فوسا (Tokugawa Yorifusa) (١٦٠٣ ـ ١٦٦١)، الذي عين دايميو على إقليم «ميتو» (Mito). أما الابن الرابع، تادا ـ أكي (Tadaaki)، فكان إياسو قد طلب منه أن يحمل الاسم القديم للأُسرة، ماتسودايرا، قبل أن يعيّنه دايميو على إقليم «أوشي» (Oshi). ومن ثم لم يكن هذا الأخير ضمن أبناء إياسو الذي من شأن أحفاده تولي عرش الشجونة.

تابـــع

١١ ـ إييناري	١٧٧٣ ـ ١٨٤١	١٧٨٧ ـ ١٨٣٧	يتحدر من أُسرة فرعية، اختاره إييهارو ليكون ولي عهده بسبب عدم إنجابه طفلاً من صلبه
١٢ ـ إيييوشي	١٧٩٣ ـ ١٨٥٣	١٨٣٧ ـ ١٨٥٣	↓
١٣ ـ إييسادا	١٨٢٤ ـ ١٨٥٨	١٨٥٣ ـ ١٨٥٨	↓
١٤ ـ إييموتشي	١٨٤٦ ـ ١٨٦٦	١٨٥٨ ـ ١٨٦٦	حفيد الشجون الحادي عشر إييناري
١٥ ـ يوشي ـ نوبو	١٨٣٧ ـ ١٩١٣	١٨٦٧	ابن نارياكي متحدر من الأُسرة الفرعية لأُسرة توكوغاوا المتولية منصب الدايميو في هان ميتو Mito

(*) الخانات الفارغة المحتوية على السهم ↓ تدل على أن انتقال السلطة كان من الأب إلى الابن.

المصدر: اعتمدنا في توضيح علاقة القرابة بين الشجون على الجدول البياني الخاص بجينيالوجية أُسرة توكوغاوا الوارد في موسوعة اليابان، انظر: Kodansha Encyclopedia of Japan (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 8, pp. 45-46; Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 44, and Shinzaburo Oishi, «The Bakuhan System,» pp. 19-20.

تعليق: يبين الجدول الرقم (٤ ـ ٢) أسماء الشجون الذين تعاقبوا على حكم الشجونة من أُسرة **توكوغاوا**، مع ملاحظات حول علاقة القرابة التي تربط بينهم. وما يلحظ فيه أن ولاية الشجون انتقلت ابتداء من الشجون الثامن **يوشي ـ موني** (١٧١٦ ـ ١٧٤٥) من سلالة **هيديتادا** (الشجون الثاني) إلى سلالة **يوري ـ نوبو** (١٦٠٢ ـ ١٦٧١)، أحد أبناء **إياسو**، الذي كانت أُسرته تتولى منصب الدايميو في إقليم **كيئي**. وانتقلت في عهد الشجون الخامس عشر (والأخير) إلى سلالة **يوري ـ فوسا** (١٦٠٣ ـ ١٦٦١)، وهو ابن آخر لـ **إياسو** كانت أُسرته تتوارث منصب الدايميو على إقليم **ميتو**.

ولعل وضع **إياسو** مبدأ ولاية العهد واحترامه من قبل خلفه، جنّب أُسرة **توكوغاوا** التناحر على منصب الشجون. ويشار أيضاً إلى أنه حصل تساهل في ما يخص اختيار الوريث ـ ولي العهد ـ والموصي على فراش الموت، كما حدث مثلاً بالنسبة إلى **تسونا ـ يوشي** (الشجون الخامس) الذي اختاره أخوه الشجون **إييتسونا** ونصّبه ولياً للعهد وهو على فراش الموت. ومع ذلك، لم يخل الأمر من الصراع والتنافس؛ فمثلاً، أقدم الشجون الثالث **إييميتسو** على مصادرة أراضي أخيه **تاداناغا** (Tadanaga)، وأمره بالانتحار حتى يتخلص من منافسته، كما أن اختيار الشجون الأخير سبقته أزمة حادة بين المرشحين للمنصب.

لم يكن تربع **هيديتادا** على عرش الشجونة والاعتراف به من قبل الإمبراطور كافيين ليبددا كل مخاوف إياسو؛ فقد استمر **هيدي ـ يوري** (ابن **هيدي ـ يوشي**)

مقيماً في قلعة أوساكا، يحيط به عدد من المناصرين، الذين كانوا يكنون العداء لـ **إياسو**. ورغم أن هذا الأخير قام بمصادرة قسم كبير من الأراضي التي كانت في حوزة **هيدي ـ يوشي** (لم يترك لابنه سوى ٦٥٠,٠٠٠ كوكو/أرز)[١٥]، فإن وجود **هيدي ـ يوري** في موقع حصين وتمتعه بحظوة الإمبراطور **غو ـ يوزيئي** (Go-Yozei) (١٥٨٦ ـ ١٦١١) كانا يقلقان **إياسو**، ويشوشان على مخططاته. ففي الوقت الذي جرت ترقية إياسو إلى الرتبة الأولى الصغرى (عام ١٦٠٢) جرت ترقية **هيدي ـ يوري** إلى الرتبة الثانية العليا. وعندما نال **إياسو** لقب الشجون (عام ١٦٠٣)، جرى تعيين **هيدي ـ يوري** في منصب نايدايجين[١٦] (وزير الوسط). والملاحظ أن الإمبراطور كان يرضيه هذا الانقسام الحاصل في زعامة الساموراي ويستغله كوسيلة للتدخل في سياسة الشجونة، وإضعاف سلطة **إياسو**[١٧].

أرجأ إياسو **المرحلة الثانية**، المتمثلة في القضاء على **هيدي ـ يوري**، إلى عام ١٦١٤، أي إلى حين انتهائه من إحكام سيطرته وترتيب نظام حكمه. وقبل ذلك، قام بإجراء أولي يحد من ارتقاء **هيدي ـ يوري** وحصوله على منصب آخر، أو أي رمز من رموز السلطة يزيد من رأس ماله الرمزي. ففي عام ١٦٠٦، أصدر مرسوماً يمنع الإمبراطور منح أي لقب أو ترقية لأي من الساموراي والنبلاء من غير أولئك الذين يوصي بهم **إياسو**[١٨]. وفي عام ١٦١٤، شن **إياسو** أول حملة على قلعة **أوساكا** التي كان يتحصن فيها **هيدي ـ يوري** وأتباعه من الساموراي والدايميو، الذين جرى إقصاؤهم بعد هزيمتهم في معركة **سيكي ـ غاهارا**. غير أن قلعة **أوساكا** صمدت في وجه الحصار، وهو ما اضطُر **إياسو** إلى التراجع وإعداد العدة ثانية لهجوم حاسم. وهذا ما فعله في أيار/مايو ١٦١٥، حيث دخل القلعة منتصراً، وأحرق جُل معالمها، منهياً بذلك كل الرموز التي تذكّر

---

(١٥) قام إياسو بمصادرة القسم الأكبر من الأراضي التي كانت تحت تصرف أُسرة هيدي ـ يوشي، إذ صادر أراضي يقدر إنتاجها بـ ١,٣٠٠,٠٠٠ كوكو/أرز.

(١٦) منصب نايدايجين (Naidaijin) (وزير الوسط أو وزير الأمور الداخلية للبلاط) من المناصب التي أحدثت في مطلع القرن الثامن. وكان أحد أفراد أُسرة فوجي وارا أول من تولى هذا المنصب. انظر: «Naidaijin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 5, p. 310.

(١٧) Hall, «The Bakuhan System,» p. 145.

(١٨) Herman Ooms, *Tokugawa Ideology: Early Constructs, 1570-1680* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 51.

بـ **هيدي ـ يوشي** وأُسرته[١٩]. وفي اليوم الموالي على سقوط القلعة، أمر **إياسو** كلاًّ من **هيدي ـ يوري** وأمه بالانتحار على طريقة سيبوكو، رغم شفاعة زوجته التي كانت في الواقع حفيدته (حفيدة **إياسو**)[٢٠].

ومن باب تعزيز مكانة أُسرة **توكوغاوا**، لجأ **إياسو** إلى وسيلة، كانت أُسرة **فوجي وارا** تستغلها لضمان هيمنتها على البلاط الإمبراطوري، وهي تتمثل في المصاهرة مع الأُسرة الإمبراطورية بتزويج بناتها من الأباطرة. وهكذا خطط **إياسو** لتزويج توكوغاوا كازوكو (Kazuko) (١٦٠٧ ـ ١٦٧٨)، حفيدته وابنة **هيديتادا**، من الإمبراطور **غو ـ ميزونو** (Go-Mizunoo) (١٦١١ ـ ١٦٢٩)[٢١]، وهو ما تم بعد وفاته، إذ أصبحت كازوكو قرينة للإمبراطور عام ١٦٢٠. ورغم تضايق الإمبراطور من هذا الزواج المفروض عليه، ومن تدخّل الشجونة في شؤون البلاط[٢٢]، فإن هذا الزواج آتى أُكله؛ فقد أصبحت حفيدة **هيديتادا** إمبراطورة تربعت على عرش اليابان تحت لقب الإمبراطورة **ميئيشو** (Meisho) (١٦٢٩ ـ ١٦٤٣)[٢٣]، بينما مارست **توكوغاوا كازوكو** هيمنة على أمور البلاط وهي

(١٩) كانت قلعة أوساكا محصّنة يصعب اقتحامها، إضافة إلى ما ينوف على ١٠٠ ألف مقاتل من أنصار هيدي ـ يوري كانوا متحصنين فيها. وبعد أن فشل إياسو في اقتحامها عام ١٦١٤، طلب من المحاصرين قبول تسوية تتمثل في احتلال الخنادق المحيطة بالقلعة مقابل إنهاء الحصار. فكان له ما أراد، وهو ما قلل من التحصينات الدفاعية للقلعة، وسهل على إياسو المأمورية في الحصار الثاني، الذي قام به في أيار/ مايو ١٦١٥، والذي هيأ له جيشاً قوامه ٢٠٠ ألف مقاتل. وهكذا سقطت القلعة في ٣ حزيران/ يونيو ١٦١٥. انظر: George Bailey Sansom, *A History of Japan, 1334-1615* (Tokyo: Tuttle, 1990 (1974)), pp. 395-398, and «Sieges of Osaka Castle,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 120.

(٢٠) كان هيدي- يوري متزوجاً من سين هيمي (Sen Hime) (١٥٩٧ ـ ١٦٦٦)، وهي ابنة الشجون الثاني توكوغاوا هيدي- داتا. وقد بعثت في الأيام الأخيرة للحصار إلى جدها إياسو برجاء الإبقاء على حياة زوجها، لكن توسلاتها لم تجدِ نفعاً أمام المصلحة العامة. انظر المصدرين نفسيهما على التوالي، وكذلك ترجمة: «Sen Hime,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 64.

(٢١) الإمبراطور غو- ميزونو (١٥٩٠ ـ ١٦٨٠) هو الإمبراطور الثامن بعد المئة؛ حكم من عام ١٦١١ إلى عام ١٦٢٩، واشتهر باعتقاده القوي في البوذية وبمعرفته بالآداب وكتابة الشعر. انظر ترجمته مادة: «Go-Mizunoo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 44.

(٢٢) كان زواج الإمبراطور غو ـ ميزونو من توكوغاوا كازوكو مفروضاً عليه من قبل والدها الشجون هيدي ـ داتا. وقد زاد من تبرّمه من هذا الزواج تدخل الشجون في شؤون البلاط. وقد اختار التنازل عن العرش لصالحه ابنته، دون أبنائه الذكور، بسبب الحادث المعروف بـ«شيئي جيكن» (Shie Jiken) (أو حادث الرداء القرمزي). الذي سنفصل في ذكره في فقرة لاحقة. انظر في هذا الشأن: Oishi, «The Bakuhan System,» p. 25; Herschel Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period* (New York: Columbia University, 1968), pp.72-73, and «Shie Jiken,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 89.

(٢٣) الإمبراطورة ميئيشو (Meisho) (١٦٢٤ ـ ١٦٩٦) هي الإمبراطورة التاسعة بعد المئة. تولّت عرش الإمبراطورية عام ١٦٢٩ وهي طفلة، بعد تنازل والدها الإمبراطور غو-ميزونو، وتنازلت بدورها =

تحضن ابنتها الإمبراطورة التي تولت العرش وعمرها لا يتجاوز خمس سنوات.

بهذه الإجراءات، اطمأن **إياسو** نهائياً، وهو على قيد الحياة، إلى إقرار سلطة الشجونة في أُسرة **توكوغاوا**، وتحقيق ما عجز عنه سلفه من زعماء القرن السادس عشر.

ثانياً: الإدارة المركزية في عهد إياسو

١ ـ المستشارون

استعان إياسو، سواء في الفترة التي أمضاها رسمياً على رأس الشجونة أو في الفترة التي تقاعد فيها، بعدد من المستشارين، كان لهم دور بالغ في مرحلة التأسيس، ووضع السياسة التي سار على نهجها خلفه من الشجون، منهم الخبير بإدارة الأراضي الزراعية **إينا تاداتسوغو** (Ina Tadatsugu) (١٥٥٠ ـ ١٦١٠)، الذي التحق بخدمة **إياسو** منذ أن كان في منصب الدايميو على أقاليم **كانتو**، واستمر في العمل إلى جانبه بعد أن أصبح شجوناً. وكان من بين ما كُلف به مسح الأراضي، وتقدير الجبايات المفروضة عليها، وتحسين الإنتاج الزراعي، حيث أضحت الطرق التي اقترحها معمولاً بها طوال عصر **توكوغاوا**. ومنهم أيضاً **غوتو ميتسوتسوغو** (Goto Mitsutsug) (١٥٧١ ـ ١٦٢٥)، الذي ائتمنه **إياسو** على مناجم الذهب وضرب العملة، وكان له دور رئيسي في توحيد معايير العملة الوطنية، إضافة إلى عمله كمستشار للشجون في أمور الاقتصاد والتجارة. كان هناك أيضاً **أوكوبو ناغاياسو** (Okubo Nagayasu) (١٥٤٥ ـ ١٦١٣)، الذي اختص بتدبير المناجم خاصة، واشتهر بتطوير طرق استخراج المعادن[(٢٤)]. كما استعان إياسو بخدمة أُسرة **تشايا** (Chaya)، التي اشتهرت بغناها

= عن العرش في عام ١٦٤٣. وهي أول امرأة تتولى عرش الإمبراطورية منذ القرن الثامن الميلادي. انظر: Jerrold M. Packard, *Sons of Heaven: A Portrait of the Japanese Monarchy* (New York: Scribner, 1987), p. 177.

(٢٤) تجدر الإشارة إلى أن اليابانيين استفادوا من الخبرة البرتغالية في استخراج المعادن، كما حدث تطور مهم خلال القرن السادس عشر في تقنيات استخراجها. وقد أولى إياسو ومن خلفوه عناية خاصة بمناجم الذهب والفضة والنحاس، التي احتكروا إنتاجها لصالح الحكم المركزي. في ما يخص تطوّر تقنيات المعادن في القرن السادس عشر، انظر: Kazo Yamamura and Nagahara Keijii, «Shaping the Process of Unification: Technological Progress in Sixteenth and Seventeenth Century Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 14, no. 1 (Winter 1988), pp. 77-109.

الواسع واشتغالها بالتجارة منذ أواخر القرن الخامس عشر[٢٥].

ولعل أهم مستشار عمل لدى **إياسو** هو **هياشي رزان** (١٥٨٣ ـ ١٦٥٧)، الذي يُعتبر أهم شخصية كان لها تأثير واضح في حكم أُسرة **توكوغاوا** ونظام الباكوفو؛ فبتوليه الاستشارة ما ينوف على نصف قرن، ومعاصرته أربعة شجون، ونشاطه في مجال التعليم، ساهم في تبنّي شجونة **توكوغاوا** الكونفوشيوسية الجديدة، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

من غريب المصادفات التاريخية أن يضم فريق مستشاري **إياسو** شخصاً أجنبياً ينتمي إلى دولة أوروبية. ويتعلق الأمر بالإنكليزي **وليام آدمز** (William Adams)[٢٦] الذي وصل على رأس سفينة تجارية هولندية إلى جزيرة **كيوشو** عام ١٦٠٠ واستقر في اليابان إلى أن وافته المنية عام ١٦٢٠. وقد استقبله **توكوغاوا إياسو** في مدينة **أوساكا**، وأُعجب بمعرفته البحرية الواسعة، ومحضه ثقته حتى عيّنه وكيله التجاري، ومترجماً لديه، ومخبراً عن دول الغرب، ومستشاراً في بناء السفن والملاحة. وقد كان تأثير **آدمز** واضحاً في السياسة الخارجية، خاصة في مجال التجارة مع الدول الغربية، حيث عمل على كسر الاحتكار البرتغالي لهذه التجارة، وفتح الموانئ اليابانية أمام الشركات الهولندية والبريطانية. كما كانت له يد في تغذية التيار المعادي لنشاط المبشرين الذي أدى في النهاية إلى حظر الديانة المسيحية وإقرار سياسة العزلة. وهي موضوعات سنعرض لها بالتفصيل في الفصل السابع الخاص بالعزلة.

---

(٢٥) اشتهرت أُسرة تشايا منذ أواخر عصر موروماتشي. وكانت من أغنى الأُسر في اليابان، وكان مقرها الرئيسي في مدينة كيوطو. وقد دخل أفراد منها في خدمة إياسو منذ أن كان حاكماً على إقليم كانتو. انظر مادة: «Chaya,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 267.

(٢٦) وليام آدمز (١٥٦٤ ـ ١٦٢٠) بحار إنكليزي ولد في مقاطعة كينت ببريطانيا، ووصل إلى اليابان في مطلع القرن السابع عشر (١٦٠٠)، واستقر هناك فحظي بثقة الشجون وأصبح من مستشاريه. وقد تزوّج امرأة يابانية، واتخذ اسماً يابانياً فأصبح يُعرف بـ «مي ـ أورا أنجين» (Miura Anjin). وقد كُتبت عن حياته عدة مؤلفات، أشهرها **الشجون** لجيمس كلافيل (James Clavell). وقد نال هذا المؤلف شهرة واسعة، وجرى اقتباسه في فيلم سينمائي عام ١٩٧٥. كما يوجد اليوم شارع في طوكيو يحمل الاسم الذي عُرف به في اليابان وهو «أنجين تشو» (Anjin-Cho). انظر ترجمته في: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 11.

انظر أيضاً نبذة عن حياته قبل التحاقه باليابان، في: Derek Massarella, *A World Elsewhere: Europe's Encounter with Japan in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (New Heaven, CT: Yale University Press, 1990), pp. 71-88.

انظر أيضاً، القصة التي تدور حول حياته: James Clavell, *Shogun: A Novel of Japan* (New York: Dell Publishing Co., 1979).

لم يشكل أعضاء هذا الفريق من المستشارين الذين استعان بهم إياسو هيئة استشارية مؤسساتية، كما تطور الأمر في ما بعد، إلا أن تنوع مشاربهم وتعدد اختصاصاتهم وتمتعهم بكفاءات فردية عالية، كل ذلك ساهم في وضع اللبنات الأولى لمرحلة التأسيس، سواء على الصعيدين الفكري والسياسي، أو على الصعيد الاقتصادي.

٢ ـ المراسيم التشريعية

أصدر **إياسو** جملة من المراسيم من أجل تنظيم الدولة وضبط العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع الياباني. ورغم التعديلات التي أُدخلت على بعض تلك المراسيم في مراحل من تاريخ **توكوغاوا**، فإن جوهرها ظل ساري المفعول حتى منتصف القرن التاسع عشر. ويأتي المرسوم المتعلق بالدايميو، المعروف **ببوكي شوهاتو** (Buke Shohatto)[٢٧]، على رأس هذه المراسيم المنظمة لنسق الباكوهان. وقد صدر هذا المرسوم في ٧ تموز/يوليو ١٦١٥، أي قبيل وفاة **إياسو** بسنة واحدة، وبعيد سقوط قلعة أوساكا مباشرة. وقد أشرف على إعداده كل من **هياشي رزان** و**إيشين سودين**[٢٨] (١٥٦٠ ـ ١٦٣٣)، أحد رهبان طائفة الزن الذي كان مستشاراً أيضاً لدى **إياسو**. وكان الهدف منه وضع مدونة تشرع للقوانين وقواعد السلوك التي يجب أن يلتزم بها الدايميو والساموراي ليستتب الأمن في ما بينهم وتضمن ولاءهم للشجون. ويتكون المرسوم من ١٣ بنداً، أضيفت إليها بنود أخرى في التعديل الذي أدخله الشجون **إييميتسو** عليه عام ١٦٣٥. وهي في مجملها تحث على الالتزام بالمبادئ الأخلاقية التي كانت أساس قوة الساموراي، من قبيل الولاء والتضحية والتقشف في الملبس والمأكل، وإتقان المهارات الحربية، والتمسك بأخلاق المحاربين، وكذا الالتزام بتعاليم الكونفوشيوسية التي هي أساس نظام المجتمع واستقراره. كما نص المرسوم على توجيهات للدايميو ترمي أساساً إلى ضمان خضوعهم لسلطة الشجون، من قبيل احترام قوانين الشجونة، والامتناع عن إيواء أي خارج عن القانون (البندان الثالث

---

(٢٧) بوكي شوهاتو هو المصطلح الذي يُعرف به المرسوم الخاص بالساموراي الصادر عام ١٦١٥. انظر نص هذا المرسوم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, pp. 206-208.

(٢٨) إيشين سودين (Ishin Suden) (١٥٦٩ ـ ١٦٣٣)، انظر ترجمته في: Kazuo Kasahara, ed., *A History of Japanese Religion*, translated by Paul McCarthy and Gaynor Sekimori (Tokyo: Kosei Publishing, 2001), p. 336.

والرابع)، وأخذ إذن مسبق من الشجون قبل الزواج لمنع إقامة تحالفات عبر المصاهرة (البند الثامن)، أو بناء قلاع جديدة أو ترميمها دون إعلام الشجونة (البندأن السادس والسابع). وكان كل بند يذيَّل بأقوال وحكم واستشهادات من الماضي تبرر الهدف من وضعه وتبين حكمة اتباعه. ولعل ما يثير الانتباه أكثر هو البند الأول، الذي حث الساموراي على المزاوجة بين إتقان المهارات الحربية والسعي إلى المعرفة، وكان من بين أسباب نشر التعليم بين أبناء الساموراي، كما سنبين ذلك في الفصل العاشر المخصص للتعليم. أما التعديل الذي أُدخل عام ١٦٣٥، فقد نصت بنوده أساساً على تنظيم زيارة الدايميو إلى قلعة إيدو بغاية تقديم الولاء للشجون كل سنة، وهو ما تطور في ما بعد إلى نظام سانكين كوطاي، الذي يلزم الدايميو بزيارة سنوية إلى العاصمة إيدو، ومناوبة إقامتهم بينها ومقر نفوذهم.

في السياق ذاته يدخل المرسوم الذي همَّ الإمبراطور ونبلاء البلاط (كوغي)، وهو المرسوم المعروف بـ **كينتشو نارابي ني كوغي شوهاتو**[٢٩] (أو القوانين المنظمة للبلاط الإمبراطوري والنبلاء). وقد صدر أيضاً في ١٧ تموز/ يوليو ١٦١٥، وكانت صياغته وتحريره من قبل المستشارين المشار إليهما سلفاً. وقد ضم هذا القانون سبعة عشر بنداً حددت دور الإمبراطور، والنطاق الذي يجب أن يتحرك فيه هو وحاشيته، وكذا المجالات التي يجب أن يقصروا عليها اهتمامهم. فقد نص البند الأول على أن المهمة الأولى للإمبراطور هي المعرفة، حيث جرى فصل واضح بين وظيفتي البلاط والباكوفو: السياسة من نصيب الأول، والمعرفة الدينية وما يتعلق بها من نصيب الثاني. أما بقية البنود، فعرض قسم منها للكيفية التي يجب أن ينهجها الإمبراطور في منح الألقاب والرتب والتعيين في المناصب التي من حقه التصرف فيها، حيث نصت على أن على القرار الأول فيها يعود إلى الشجون، الذي يوصي بمن تجب ترقيتهم أو تعيينهم. وخلاصة القول، وضع المرسوم البلاط والحاشية تحت الرقابة الكاملة للشجون[٣٠].

وقد سبق صدور المرسوم الخاص بالإمبراطور، مرسوم همَّ النبلاء وحدهم، يعرف بـ «كوغي شوهاتو» (Kuge Shohatto). وعلى غرار المراسيم الأخرى، من حيث الصياغة، ضم سبعة عشر بنداً، نص الأول منها على أن يشغل النبلاء

(٢٩) «Kinchū Narabi ni Kuge Shohatto» ويعرف أيضاً بـ «Kinchū-jōmoku».

(٣٠) انظر ملخصاً لقانون «كينتشو» في: Oishi, «The Bakuhan System,» pp. 24-25

وللمزيد حول العلاقة بين الشجون والإمبراطور، انظر: الفصل السادس الخاص بالمؤسسة الإمبراطورية.

أنفسهم بالدراسة والمعرفة، سيراً على نهج التقاليد الإمبراطورية، في حين نصت البنود المتبقية على قواعد السلوك التي يجب أن يلتزموا بها، وذلك على نحو قريب ممّا يلتزم به الساموراي[٣١]. وكذلك صدرت مراسيم قوانين أخرى تهمّ الفلاحين وفئتي التجار والصناع ـ وحتى فئة المنبوذين ـ ورهبان المعابد البوذية والشنتوية ومختلف الطوائف الدينية. وقد تمت الإشارة إلى البعض منها في دراستنا للفئات.

وعموماً لم تخرج المبادئ العامة لهذه المراسيم عمّا كان سائداً بين الساموراي من قواعد وأخلاق (التي تعرف بالبوشيدو)، وعمّا كانت تدعو إليه تعاليم الكونفوشيوسية من أخلاق. كما أنها لم تكن بالأمر المستحدث؛ فقد سبق للبعض من دايميو الدويلات المتحاربة أن أصدروا قوانين خاصة بإقطاعياتهم، بغاية تنظيم الحياة اليومية فيها، وإرشاد أتباعهم إلى قواعد السلوك التي يجب أن يسيروا عليها. والمقصود هنا «سنغوغو كاهو»[٣٢]، أو القوانين التي أصدرتها الأُسر الكبرى لهؤلاء الدايميو بهدف تعزيز سلطتها وضمان استمرارها في مجتمع يغلب عليه العنف، إذ كان ضرورياً تعزيز أخلاق البوشي (البوشيدو) بقوانين تضمن الأمن وولاء الأتباع[٣٣]. وقد كان الهدف من المراسيم التي أصدرها إياسو، إضافة إلى الغاية التي رمى إليها من سبقوه من الدايميو، هو وضع تلك القوانين في إطار مؤسساتي، واستغلال نتائج انتصاره في معركة **سيكي ـ غاهارا** إلى أبعد الحدود عبر وضع قوانين يخضع لها كل الدايميو. وبالفعل، أضحت هذه المراسيم بمثابة العمود الفقري لنظام الباكوهان، حيث شكلت دستوراً مرجعياً للعلاقات بين الشجون وباقي المكونات السياسية والاجتماعية الأخرى.

وهكذا يكون **إياسو** قد أرسى، قبل وفاته، كل مقومات النظام الذي ساد في اليابان طوال قرنين ونصف قرن من الزمن. والواقع أن **إياسو** شخصية استثنائية في تاريخ اليابان؛ فهو ارتقى من مجرد دايميو ذي رتبة متوسطة وتعليم أولي فقط، إلى حكم اليابان وتحقيق أطول فترة سلم عرفتها اليابان في تاريخها. لم

---

(٣١) Oishi, Ibid., p. 24.

(٣٢) انظر التحليل المتميّز للباحث الياباني كاتسوماتا شيزيو حول أصول قوانين دايميو الدويلات المتحاربة: Sengoku Kaho, «Katsumata Shizuo with Martin Collcute. «The Development of Sengoku Law,» in: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), pp. 101-124.

(٣٣) المصدر نفسه.

يكن عالِماً أو ضالعاً في المعرفة، لكنه آمن بالمعرفة كأداة تفوق القوة العسكرية في حفظ النظام داخل المجتمع وتحقيق الاستقرار والسلم. وممّا ورد في حقه في تأريخ رسمي:

عاش حياته من الطفولة إلى الرجولة في معسكرات القتال، وعانى المحن تلو المحن في معارك لا تحصى. ولم تترك له الزعامة وقتاً للقراءة أو الدراسة. وعلى الرغم من أنه أخضع البلاد على صهوة جواد، إلا أن ذكاءه المتأصل والحكمة التي تمتع بها جعلاه يدرك أن من المستحيل حكم البلاد على صهوة جواد. فبحسب تقديره، ليس هناك من طريق لحكم البلاد سوى الإيمان العميق بالحكماء والدارسين. ومن باب العناية برفاهية أتباعه من الناس، أشرف على التدريس منذ بداية حكمه(٣٤).

وقد وجد **إياسو** ضالته في تيار الكونفوشيوسية الجديدة، فأحاط نفسه بكبار معلميها، وشجع طبع كتبها ونشر مصادرها. ومن بطانته تلك وقراءاته، أُعجب بتاريخ الصين وبالفكر الصيني، وخاصة الجانب العملي فيه، والبعيد عن التأملات الميتافيزيقية. فكان معجباً، على سبيل المثال، بشخصية وحكم الإمبراطور **تاي تسونغ** (T'ai-tsung) (٦٢٦ ـ ٦٤٩)، المؤسس الحقيقي لأُسرة **تانغ** (٦١٨ ـ ٩٧٧) الذي أحاط نفسه بمعلمي الكونفوشيوسية وآمن بمبادئها وعمل على تطبيقها(٣٥). لكنه لم يذهب بعيداً في تقليده لأباطرة الصين، كما أنه لم يقدم على مراجعة النظام الياباني ليقيم إدارة بيروقراطية مدنية على غرار الصين، بل عمل على تدعيم حكم عسكري يستمد مبادئه من النظام الفيودالي الذي تطور تدريجياً في اليابان. وهكذا حافظ على الأمراء الفيوداليين (الدايميو) في وضع يكونون فيه خاضعين للحكم المركزي ومتعاونين معه، ويمنعهم من التحالف الأفقي في ما بينهم كي لا يهددوا السيطرة العمودية التي يمثلها شجون **توكوغاوا**.

نجح **إياسو** في مشروعه، وتحقق لأُسرته ما أراده لها، فاستمر حكمها، دون انقطاع، قرنين ونصف قرن، نعمت اليابان خلالهما بالأمن والسلم والاستقرار.

---

(٣٤) Ryusaku Tsunda, eds., *Sources of Japanese Tradition*, 2 vols. (New York: Columbia University Press, [1964]), pp. 331-332.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥، و Masao Maruyama, *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*, translated by Mikiso Hane (Tokyo: University of Tokyo Press, 1989), p. 16.

ربما كان إياسو شخصاً غير عادي، تمتع بكفاءات لم تتوفر لسلفه **أودا نوبوناغا** و**تويوتومي هيدي ـ يوشي**، وربما حالفه الحظ أكثر مما حالفهما، وربما كان سر نجاحه في حبه للمعرفة وإحاطة نفسه برجالها ـ أمثال **هياشي رزان** ـ لكن، وكما يجمع جُل دارسي الفترة، كان رجل عصره والشخص الملائم للفترة التي وجد فيها، فأنجز ما عجز عنه غيره.

ثالثاً: تعزيز الإجراءات التنظيمية

لم يمارس الشجون الثاني **هيديتادا** (١٦٠٥ ـ ١٦٢٣) الحكم بصورة فعلية ومباشرة سوى فترة قصيرة؛ فحتى وإن كان تولى منصب الشجون رسمياً عام ١٦٠٥، بعد أن تنازل له والده **إياسو**، فهو لم يتسلم مقاليد الأمور ويباشر السلطة إلا بعد وفاة هذا الأخير عام ١٦١٦. وبعد مضي أقل من سبع سنوات على ولايته، تنازل بدوره (في عام ١٦٢٣) عن منصب الشجون لصالح ابنه **إييميتسو**.

كان **هيديتادا** محل ثقة والده وواحداً من رجاله ومساعديه منذ فترة مبكرة؛ فقد كان إلى جانبه منذ أن اشتد عضده، حيث ترأس فرقة عسكرية في أثناء معركة **سيكي ـ غاهارا**. كما لم يكن يعني استمرار **إياسو** في ممارسة السلطة بعد تقاعده غياباً تاماً لـ **هيديتادا** عنها، إذ كان هناك تعاون وثيق بين إدارتي الشجون الحاكم والشجون المتقاعد (أوغوشو ساما)، كما حدث مثلاً في حصار **أوساكا** الذي هيأه وقاما به معاً. والأمر ذاته ينطبق على الفترة التي تنازل فيها لصالح ابنه **إييميتسو**؛ إذ استمر في ممارسة السلطة في الظل إلى حين وفاته عام ١٦٣٢. ومن ثم، تكون فترة حكمه ومنجزاته موزعة بين حكمي الشجون الأول والثالث.

تميز عهد الشجون الثالث **توكوغاوا إييميتسو** (١٦٢٣ ـ ١٦٥١) باستكمال جهاز الشجونة الإداري، وإقرار سياسة العزلة، وتشديد مراقبة الشجون على الدايميو والإمبراطور. ونعرض في الفقرات التالية للسمات العامة لحكم **إييميتسو** والجهاز الإداري الذي طوره، بينما نترك التفصيل في موضوعي العزلة وعلاقة الشجون بالدايميو للفصلين التاليين.

اعتلى **إييميتسو** عرش الشجونة وعمره تسعة عشر عاماً؛ وبحكم سنه وتوقيت ميلاده (ولد عام ١٦٠٤)، كان أول شجون من أُسرة **توكوغاوا** يتولى السلطة دون أن تكون له خبرة عسكرية حقيقية أو مشاركة في المعارك الحربية، خلافاً لوالده وجده الذي أمضى جُل حياته على صهوة جواد. وما إن أصبح

مطلق السلطة بعد وفاة والده (عام ١٦٣٢)، حتى سارع إلى تحسين الأداء الإداري للشجونة، وتدعيم وضعها الاقتصادي، وذلك عبر إدخال التعديلات اللازمة على التشريعات والقوانين التي أصدرها **إياسو** وإحداث مؤسسات جديدة، ومتابعة سياسة مصادرة الأراضي، ووضع اليد على مناجم إضافية. فقد مثلت الإدارة الفعالة ومراقبة الدايميو عن كثب وسيلة لإثبات جدارته وإضفاء المشروعية على سلطته، بعد أن تعذّر عليه إثباتها عن طريق الانتصارات العسكرية في إثر استسلام آخر المعارضين لأُسرة **توكوغاوا** بعد سقوط قلعة **أوساكا** (عام ١٦١٥).

ومن باب إضفاء المشروعية أيضاً، يمكن إدخال الحملة التي شنها دون هوادة على الوجود المسيحي في اليابان، والتي طاول اضطهادها اليابانيين المسيحيين والمبشرين، وكانت نهايتها بقمع تمرد **شيمابارا** عام ١٦٣٧[٣٦]، والإقرار النهائي لسياسة العزلة؛ إذ كان في تخليص «أرض الآلهة» من المسيحية عمل يرفع من شأنه، ويجعل منه حامياً للبلاد، ومدافعاً عن القيم التي تمثلها ديانتا الشنتو والبوذية[٣٧]. وفي السياق ذاته، يمكن إدراج عمله على الرفع من مكانة جده، مؤسس أُسرة **توكوغاوا**، إلى مرتبة التقديس (مرتبة الكامي)[٣٨] وبناء ضريح للأُسرة في منتجع **نيكو** (Nikko) (شمال طوكيو)، الذي ضم معبداً لديانة الشنتو يُعتبر الخامس من حيث الأهمية[٣٩] في هذه الديانة. ولم يقتصر الأمر على المنتجع

(٣٦) سنعود في فصل لاحق إلى التفصيل في حادث شيمابارا.

(٣٧) Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 67.

(٣٨) إن رفْع شخص من الأشخاص إلى مرتبة التقديس والاعتراف به كواحد من الكامي (آلهة الشنتو) أمرٌ شائع في ديانة الشنتو، شريطة أن يستوفي المرء الشروط التي يستحق بها التقديس، وذلك على نحو قريب ممّا هو معمول به في المذهب الكاثوليكي المسيحي. ويتطلّب الأمر أن يصدر أمر إمبراطوري في هذا الشأن، حيث يعتبر الإمبراطور أعلى سلطة كهنوتية في ديانة الشنتو. وبالفعل جرى الحصول على هذا الأمر من الإمبراطور في شأن توكوغاوا إياسو (عام ١٦٤٥) الذي أصبح بموجبه إياسو يحمل لقب توشو دايغون- غين (Tosho Daigongen) (إله الشرق الكبير المضيء Great Shinning Deity of the East). وحصل على الرتبة الأولى ضمن آلهة الشنتو، واحتل معبده مقاماً لا يقل قيمة عن معبد إيسي. في هذا الشأن، انظر: Tsunda, eds., *Sources of Japanese Tradition*, vol. 1, pp. 322-323, and Asao Naohiro with M. B. Jansen, «Shogun and Tenno,» in: Hall, Keiji and Yamamura, *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650*, p. 269.

(٣٩) يتعلق الأمر بمعبد توشو ـ غو (Tosho-gu) (الذي يفيد معنى اسمه معبد آلهة الشمس في الشرق). ويعتبر هذا المعبد والأضرحة الخاصة بشجون توكوغاوا من أهم المعالم التاريخية في اليابان. وقد أنفق عليه الشجون إييميتسو بسخاء (بلغت النفقات ٥٧٠,٠٠٠ ريو من العملة الذهبية)، وكان الانتهاء من بنائه عام ١٦٣٦، وجرى نقل رفات إياسو إلى الضريح، الذي نُقش على مدخله هذا البيت من الشعر: =

المذكور، بل جرى ـ خلال عصر **توكوغاوا** ـ إنشاء زهاء مئة معبد في مختلف أرجاء اليابان، الغاية منها تقديس **إياسو**، وإقامة موسم ديني له في موعد محدد من كل سنة(٤٠).

كانت هذه الأعمال ذات البعد الديني ترمي كذلك إلى الرفع من مكانة أُسرة **توكوغاوا** من بين أُسر الدايميو والساموراي الأخرى، غير أنه كان ضرورياً مواكبة العمل الرمزي بآخر يضمن ولاء هذه الأُسر واستمرار تبعيتها للشجون. ولعل أهم إجراء عملي اتخذه **إييميتسو** في هذا الشأن، تقنينه لنظام سانكين كوطاي، الذي أصبح الدايميو بموجبه مجبرين على الرحيل سنوياً إلى العاصمة **إيدو**، وترك أفراد من أُسرهم مقيمين فيها بصورة دائمة ليكونوا بمثابة رهائن لدى الشجون، وهو إجراء حقق المراد منه، حيث جعل الدايميو تحت الرقابة المباشرة للشجون، وأضعف قدراتهم المادية بسبب نفقات السفر ورعاية مساكن في العاصمة كانت تثقل كاهل خزائنهم.

كما حقق غايات ونتائج لم تكن متوقعة. ولم يكتف **إييميتسو** بحضور هؤلاء الدايميو وأدائهم الولاء للشجون سنوياً، بل شكل، ابتداء من عام ١٦٣٣، فريقاً من الموظفين عُرفوا بـ جونكينشي (Junkenshi)، كانت مهمتهم القيام بزيارات تفتيش دورية لإقطاعيات الدايميو بغاية التأكد من الأوضاع السياسية فيها، والتزام الدايميو بقوانين الباكوفو وأوامر الشجون(٤١)، وكذا مراقبة قدراتهم العسكرية. كما سن **إييميتسو** إرسال مفتشين خاصين (كوني ميتسوكي Kuni- metsuke) إلى الإقطاعيات خلال الأزمات والفترات الحرجة، من قبيل فترة انتقال السلطة عند وفاة دايميو ما. وواقع الأمر أن جهاز المراقبين والمفتشين كان يعمل على نحو يقارب عمل مكتب الاستخبارات اليوم؛ إذ كانت له عيون وجواسيس مبثوثين في كل أقاليم اليابان. وبالإضافة إلى ذلك، طلب **إييميتسو** من الدايميو تزويد المفتشين والإدارة المركزية بعدد من البيانات والإحصاءات عن السكان والجبايات وأعداد السكان وأحوال الطوائف الدينية والقضايا الكبرى التي يبث فيها القضاء

= نيكو ميناي دي كيكو تو يو نا (لا تتحدث عن الجمال إلا بعد أن ترى نيكو)، انظر: المصدر نفسه، ومادة «Toshogu,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 84.

(٤٠) يعرف الموسم الديني الذي يقام لتقديس توكوغاوا إياسو بـ «مي ـ يا أور غو» (Miya or gu)، ويقام في ١٧ أيار/ مايو من كل سنة.

(٤١) كان الأمر يتعلق، في أثناء تشكيل هذا الجهاز على وجه الخصوص، بالتأكد من التزام الدايميو بتطبيق الأوامر الخاصة بالمسيحيين وتعقبهم.

المحلي[٤٢]. وقد شكلت هذه الإجراءات وسيلة إضافية في يد **إييميتسو** ومن خَلَفه من شجون **توكوغاوا**، مكّنتهم من تحقيق رقابة دائمة على تحركات الدايميو وتتبّع كل ما يجري في إقطاعياتهم (الهانات).

لم تقتصر هذه الرقابة المشددة على الدايميو، بل طاولت أيضاً الإمبراطور ونبلاء البلاط. ذلك أن **إييميتسو** لم يقف عند حدود القيود التي فرضتها التشريعات التي سنها **إياسو** في حق الإمبراطور وحاشيته، بل مارس ضغوطاً إضافية أدت إلى تنازل الإمبراطور **غو ـ ميزونو** كرهاً عن العرش عام ١٦٢٩ لصالح ابنته **ميئيشو** (حفيدة الشجون الثاني **هيديتادا**)، إثر الحادث الشهير بـ **شيئي جيكن** (Shie Jiken) (أو حادث الرداء الأرجواني). ولعل في تلخيص وقائع هذا الحادث ما يظهر المدى الذي وصل إليه تدخل الشجون في الامتيازات القليلة التي بقيت للإمبراطور. ذلك أن أباطرة اليابان اعتادوا ترقية كهنة الشنتو والبوذية، ومنحهم رتباً عليا ـ شأنهم شأن نبلاء البلاط ـ ومن بينها رتبة كانت تُصحب برداء أرجواني اللون (يُعرف بـ شيئي) يرمز إلى أعلى رتبة كهنوتية، غير أن مرسوماً صدر عن الشجون إياسو عام ١٦١٣ منع الإمبراطور من منح أية رتبة للكهنة وترقيتهم إلا بموافقة الشجون. وفي عام ١٦٢٧، أقدم الإمبراطور **غو ـ ميزونو** على تجاوز هذا الحظر، فخلع على كهنة معبدين في كيوطو أردية «شيئي» دون موافقة الشجون **إييميتسو**، وهو ما أغضب هذا الأخير واعتبر الترقية ملغاة، وصادر الأردية التي حصل عليها الكهنة. فكانت ردة فعل الإمبراطور التنازل عن العرش، ولربما تعلق الأمر بإرغامه على التنازل.

ومن نتائج هذا الحادث أيضاً، نفي عدد من الكهنة بسبب احتجاجهم على تدخل الشجون في الأمور الدينية. وإضافة إلى هذا الصنف من المضايقات، اعتاد **إييميتسو** القيام بزيارات استعراضية إلى العاصمة كيوطو (في الأعوام ١٦٢٣، ١٦٢٦، ١٦٣٤) كان الهدف منها إظهار قوة الشجونة، وإرهاب البلاط، والتباهي بقوة الباكوفو، حيث كان يصحبه في كل زيارة جيش يفوق الـ ١٠٠ ألف محارب (قدّرت أعداد المحاربين الذي رافقوه في زيارة عام ١٦٣٤ بـ ٣٠٠ ألف). وعلى أي حال، أضحت سيطرة الشجونة تامة على البلاط، عندما غدت **توكوغاوا كازوكو** (حفيدة **إياسو** وأخت **إييميتسو**) مهيمنة على العرش الإمبراطوري وهي تحضن ابنتها الإمبراطورة **ميئيشو**، كما سبقت الإشارة.

---

(٤٢) Oishi, «The Bakuhan System,» pp. 158-159.

رابعاً: جهاز الشجونة الإداري: خطوات نحو البيروقراطية

في نهاية عهد **إييميتسو**، كان جهاز الشجونة الإداري قد استكمل مؤسساته كلها وأخذ شكله النهائي الذي حافظ عليه إلى حين قيام إصلاحات الميجي. وقد تمثّلت مساهمة **إييميتسو** في إتمام التشريعات التي أصدرها إياسو وتفعيلها، وإضفاء الطابع المؤسساتي على هيئات الاستشارة. وتمثّلت أيضاً في إقامة جهاز إداري قادر على تدبير أمور الشجونة الإدارية والمالية والعسكرية على الصعيد المركزي، وعلى مراقبة الدايميو ومتابعة ما يجري في الإقطاعيات على الصعيد المحلي. ونعرض في ما يلي لأهم مؤسسات الجهاز الإداري لعصر توكوغاوا، كما تطورت في منتصف القرن السابع عشر.

ظل الشجون معظم عصر توكوغاوا محاطين بعدد من المستشارين والحجّاب والكتّاب والموظفين والأعوان. وكان في مقدمة هؤلاء المستشار الأكبر أو القيدوم الأكبر (تايرو Tairo)، الذي يأتي ترتيبه ـ مبدئياً ـ بعد الشجون مباشرة، ويتمتع عند وجوده بنفوذ قوي. بيد أن هذا المنصب ظل غير ذي سلطة فعلية طوال الوقت؛ إذ لم يشغل صاحبه سلطة حقيقية ولم يمارس مثل هذه السلطة إلا حين كان الشجون قاصراً، أو في الظروف غير العادية واشتداد الأزمة، كما حدث عند مقدم السفن السوداء الأمريكية (عام ١٨٥٣)، وتعرّض الشجونة لأزمة قوية، استبد في إثرها **إيي ناؤوسوكي** (Ii Naosuke) (١٨١٥ ـ ١٨٦٠) بالأمور دون الشجون (ابتداء من عام ١٨٥٨)، ومارس سلطات تايرو. أما في الحالات العادية، فقد كان منصباً شرفياً يرقى إليه أحياناً كبار المستشارين من أُسر الدايميو المقربة من الشجون، أو ذات صلة القرابة بأُسرة **توكوغاوا** دون أن يمارسوا السلطات المخولة للمنصب. فعلى سبيل المثال، كان أول من حمل هذا اللقب هو **دوئي توشيكاتسو** (١٥٧٣ ـ ١٦٤٤)، أحد كبار مستشاري الشجون الثاني هيديتادا. وكجزاء لخدماته، عيّنه **إييميتسو** في منصب تايرو عام ١٦٣٨، من غير أن تكون له صلاحيات خاصة في تسيير أمور الدولة.

أشرنا إلى أن الشجون **إياسو** أحاط نفسه بعدد من المستشارين اختارهم على أسس الثقة والكفاءة الفردية أو الانتماء العقائدي والفكري، غير أن هؤلاء المستشارين لم يكونوا موضوعين ضمن هيئة منظمة أو خاضعين لضوابط معينة. وما فعله **إييميتسو** هو تطوير جماعة المستشارين إلى مؤسستين مهيكلتين، لكل منهما اختصاصات محددة ومعايير تراعى في اختيار أعضائهما. وهكذا أنشأ

إييميتسو، في أول عهده مجلس كبار المستشارين «روجو» (Rōjū)، الذي يأتي بعد منصب تايرو مباشرة، من حيث التراتب الإداري. وقد ظل هذا المجلس، طوال عصر **توكوغاوا**، أهم هيئة استشارية وإدارية تشرف عملياً على جُل مرافق الشجونة الإدارية. ويتكون المجلس من أربعة أو خمسة مستشارين (يُعرفون بـ شوزا Shuza أو روجو شوسيكي (Rōjū Shuseki)، يجري اختيارهم من بين الدايميو المقربين (فوداي Fudai)، على أساس الخبرة الإدارية وكبر السن، غير أن العلاقات الشخصية كان لها دور في اصطفائهم لهذا المنصب الهام. وبعد تعيينهم كانوا يتمتعون براتب المصنفين في الدرجة الرابعة لنبلاء البلاط، ويحظون بالاحترام والتعظيم الواجب في حق حامليها (كان الموظفون الأقل منهم رتبة، يركعون إلى أن تلمس ركبهم الأرض عند لقياهم) ويحصلون على هدايا سنوية من الدايميو وكبار الموظفين(٤٣).

يرأس هذا المجلسَ دورياً أحدُ أعضائه لمدة شهر، بينما تناقش القضايا الهامة بصورة جماعية، حيث يجتمع الأعضاء عند الحاجة في مكان خارج قصر **إيدو** الذي يقيم فيه الشجون، وعند الانتهاء يرفعون تقاريرهم إلى الشجون. ويشرف هذا المجلس على تدبير المرافق الكبرى لإدارة الشجون: فهو مكلف بالعلاقات الخارجية، وبعلاقة الشجون بالدايميو، والعلاقة مع الإمبراطور وتدبير شؤون البلاط والنبلاء، وبالإشراف على تسيير المدن الكبرى الخاضعة بشكل مباشر للإدارة المركزية (**كيوطو** و**أوساكا** و**ناغاساكي**)، وتدبير المالية العامة للشجونة، والإشراف على الأشغال العامة، إضافة إلى التشريفات الخاصة بقصر الشجون وحرسه الخاص.

واعتباراً لتعدد هذه المهام وتنوعها، كان يتبع للمجلس عدد كبير من الموظفين موزعين بحسب الاختصاصات التي يقومون بها. ومن هؤلاء:

- زهاء ٦٠ كاتباً (يوشيتسو Yushitsu)؛
- ما بين ٦ و٧ من أمناء البلاط أو الحجّاب (سوباشو Sobashu)(٤٤)؛

---

(٤٣) Jansen, *Making of Modern Japan*, pp. 48-49.

(٤٤) كانت الأعمال التي يقوم بها سوباشو متعددة؛ فقد كان أحدهم مكلفاً بقراءة التقارير التي يعدها مجلس المستشارين للشجون وكتابة التعاليق التي تصدر عن الشجون، كما كان آخرون مكلفين بإعداد مراسيم الاستقبال التي يخص بها الشجون كبار الدايميو. انظر مادة: «Soba-sh?,» in: Edmond Papinot, *Historical and Geographical Dictionary of Japan*, with an introd. to the new ed. by Terence Barrow, Tut Books R (Rutland, VT: C. E. Tuttle, [1972]), p. 597.

- ما بين ١٦ و٢٦ من مديري التشريفات في قصر الشجون؛
- ٥ أمناء على قصر إيدو؛
- ١٢ من قادة كبار حراس الشجون؛
- ما بين ٤ و٥ من المفتشين العامين (أوميتسوكي Ometsuke)؛
- حاكمان معيَّنان لإدارة مدينة **إيدو**؛
- حاكمان معيَّنان لإدارة مدينة **كيوطو**؛
- ٢ من مراقبي الأشغال العامة؛

وقد كانت إدارة الشؤون المالية أكبر الإدارات التابعة للمجلس وأكثرها تنوعاً من حيث الاختصاصات وعدد الموظفين؛ إذ يوجد على رأسها ٤ من كبار الأمناء أو المراقبين الماليين، يساعدهم زهاء ٥٠ نائباً، إضافة إلى ٤ أمناء مكلفين بالخزينة، وأمينين مكلفين بالمخازن العامة، وموظفين آخرين يشرفون على إدارة المعادن التي تحتكر الشجون تجارتها، كالذهب والفضة والنحاس[(٤٥)].

تتمثّل الهيئة الاستشارية والإدارية الثانية في مجلس صغار المستشارين (واكادوشي ـ يوري Wakadoshiyori)، وهو عبارة عن هيئة مكونة من ٥ أو ٦ أعضاء يجري اختيارهم هم أيضاً من أُسر الدايميو المقربة، شأنهم شأن أعضاء كبار المستشارين. وقد بدأ العمل بالمجلس عام ١٦٣٣. وكان يوكل إليه بعض القطاعات الإدارية الأقل الأهمية التي تخرج عن اختصاص المجلس الأول، من قبيل الإشراف على الوحدات الخاصة بحماية الشجون (أو حرسه الخاص بانكاتا Bankata)[(٤٦)]، وشؤون التموين والتطبيب المتعلقة به وحاشيته، وأشغال البناء والإصلاح... إلى غير ذلك. وفي حالة الحرب، يقود أعضاء المجلس فرق الساموراي هاتاموتو (Hatamoto) المكونة من أُسر الساموراي التابعة للشجون مباشرة. كما يتولى العلاقة مع صغار الدايميو الذين يقل إنتاج إقطاعياتهم عن ١٠,٠٠٠ كوكو/أرز. وللقيام بهذه المهام، يقع تحت إمرة المجلس عدد من قادة الجيش يرأسون مختلف القطاعات المشار إليها.

---

(٤٥) Hall, «The Bakuhan System,» pp. 166-167.

(٤٦) «بانكاتا» مصطلح استُعمل في إدارة الشجونة للتمييز بين الساموراي العاملين في الخدمة العسكرية، ونظرائهم الذين كانوا يعملون في الوظائف الإدارية المدنية.

إضافة إلى هذين المجلسين، كان الشجون يستعين بعدد من كبار الموظفين يتبعون له مباشرة، ومن هؤلاء الحاجب الأكبر (سوبايوشين Sobayoshin)، الذي ترتب وظيفته من حيث الأهمية بعد وظيفة مجلس كبار المستشارين. وقد أحدث هذا المنصب في عهد الشجون الخامس **تسونا ـ يوشي** (١٦٨٠ ـ ١٧٠٩)، وأسندت إلى صاحبه مهمة الوساطة بين الشجون ومجلسي كبار وصغار المستشارين. وقد ازدادت أهمية هذا المنصب في أواخر القرن السابع عشر، حينما أصبح التعامل المباشر مع الشجون مقصوراً على القائم به، وذلك بعد اغتيال **هوتا ماساتوشي** (Hotta Masatoshi) (١٦٣٤ ـ ١٦٨٤)، المستشار الأكبر (تايرو)، الذي قرر بعده الشجون قصر لقاءاته المباشرة على كبير الحجّاب. ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها، بشأن مدى السلطة التي اكتسبها القائم بهذا المنصب، حالة الحاجب الأكبر **ياناجيساوا يوشي ـ ياسو** (١٦٥٨ ـ ١٧١٤) الذي احتل مكان الصدارة في عهد الشجون المشار إليه، وفاقت سلطته سلطة مجلس كبار المستشارين.

ومن الهيئات الإدارية التابعة للشجون مباشرة، هيئة مكونة من مراقبين أو نظّار يُعرفون بـ «جيشا بوغيو» (Jisha bugyo)[٤٧]، اختصاصهم الأصلي الإشراف على الشؤون الدينية ومراقبة المعابد والمزارات وممتلكاتها.

لم يكن اختصاص صنف من الموظفين بهذه الرقابة بالأمر الجديد، فقد بدأ منذ عصر **كاماكورا**، حيث كان شجون أُسرة **ميناموتو** يعيّنون مراقبين للغرض ذاته. وما فعله الشجون **إييميتسو** عام ١٦٣٥، هو إحياء العمل به، وإعطاؤه طابعاً مؤسساتياً. وقد كان عدد هؤلاء، بحسب التقنين الجديد، أربعة أفراد، يجري اختيارهم من الدايميو المقربين، على غرار أعضاء المجلسين السالف ذكرهما. وإضافة إلى مهامهم الأصلية ذات الطابع الديني، كان الشجون يعتمدون عليهم في قضاء مهام أخرى، من قبيل السهر على الأمن والنظام في الأراضي التابعة لأسرة **توكوغاوا** خارج إقليم **كانتو**، والإشراف على بعض الحرفيين، كالموسيقيين ونظّام الشعر.

شكّل تدعيم حكم الشجون والإدارة المركزية بجهاز إداري خطوة نحو وضع نواة بيروقراطية لحكم البلاد، تتسم ببعض من سمات البيروقراطية في بعض بلدان أوروبا في الفترة نفسها تقريباً. وعلى النحو ذاته كان الدايميو

---

(٤٧) يعني المقطع «جي» معبداً بوذياً، والمقطع «شا» معبداً للديانة الشنتوية. أما المفردة «بوغيو»، فتعني رئيساً أو حاكماً.

يستعينون بجهاز لإدارة الهان. إلا أن البيروقراطية اليابانية لم تتخلص من مبدأي التراتب والولاء؛ ذلك أن الولاء لأُسرة **توكوغاوا** واحترام مبدأ التراتب ظلا عاملين أساسيين في تعيين موظفي المصالح المركزية، مثلما فعل الدايميو في اختيار موظفيهم ومساعديهم. فمعظم الوظائف الصغيرة والمتوسطة التابعة للشجونة كانت تُمنح لأُسر هاتاموتو، التي كانت الأكثر ولاء للشجون. أما وظائف الاستشارة، فكانت مخصصة لأُسر فوداي، التي هي أُسر الدايميو المقربة من أُسرة **توكوغاوا**. هذا بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار التراتب القائم داخل أُسر الساموراي، ذلك أن كل وظيفة كانت تتناسب مع مكانة أُسرة الساموراي والدخل المعيَّن لها.

أحدث انتشار التعليم وظهور كفاءات فردية تحولاً في منظور التوظيف والأخذ في الاعتبار مسألة الاستحقاق؛ فبعض الكتّاب بدأوا منذ أواخر القرن الثامن عشر ينتقدون طريقة التعيين المعتمدة فقط على المبادئ المشار إليها، ويدافعون عن مبدأ الاستحقاق[٤٨]. والواقع أن الشجون الدايميو شرعوا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر في أخذ الكفاءة الفردية بعين الاعتبار لدى اختيارهم للموظفين. وهذا لا يعني القول إن المبادئ المشار إليها قد ألغيت، لكن القصد هو أن الآثار الناجمة عن انتشار التعليم ساعدت على منح الاعتبار للكفاءة. ومن ذلك، توافر أعداد من الخريجين تفوق أعداد المناصب المخصصة لأُسرهم، وهو ما كان يتيح أمام الشجون والدايميو فرصة اختيار الأفضل منهم، دون أن يكون في الأمر مس بمبدأ التراتب. وفي السياق نفسه، كان الآباء يختارون الأفضل من أبنائهم ليخلفوهم في المناصب المخصصة لأُسرهم، وذلك دون مراعاة لترتيبهم من حيث المولد. كما أن شيوع التبنّي والعمل به في حال عدم وجود وريث، أتاح الفرصة لاختيار الأبناء بالتبنّي على أساس التفوق. يضاف إلى هذا وذاك، انتشار معارف من غير المعارف الكونفوشيوسية، مثل المعارف الهولندية «أو الغربية»، التي ركزت على الطب وصناعة الخرائط والأسلحة، وغير ذلك من المهارات التي كانت الإدارتان المركزية والمحلية في حاجة إليها في التسيير الإداري وفي غيره. وهكذا لجأ الشجون والدايميو إلى وسائل وحيل لتخطّي عقبة التراتب والولاء. فعندما يتميز فرد من الساموراي لا يتناسب دخل

---

(٤٨) انظر مقتطفاً من هذه الكتابات وضِعت عام ١٧٩٠ في مقالة رونالد فيليب دور، في: Ronald P. Dore, «Talent and the Social Order in Tokugawa Japan,» in: Hall, Keiji and Yamamura, *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650*, p. 357.

أُسرته مع الوظيفة التي يستحقها، كان المسؤولون يعمدون إلى رفع دخل الأُسرة ومكانتها لتتلاءم مع الوظيفة[٤٩].

خامساً: القوة العسكرية

كان في إمكان الشجون، من حيث المبدأ، وحسب المبادئ التي تحكم علاقتهم بالدايميو، أن يجندوا، في حال الضرورة العسكرية، جيشاً مكوناً من ٤٠٠ ألف محارب. أو بعبارة أخرى، كانت تحت تصرفهم قوة عسكرية تفوق الإمكانيات العسكرية لأية دولة من الدول الأوروبية المعاصرة (في القرنين السابع عشر والثامن عشر)[٥٠]. غير أن عائقين كانا يقفان في وجه تجميع مثل هذه الأعداد الضخمة، وهما الجغرافيا والولاء. ذلك أن طبيعة الأرخبيل الجبلية كانت تشكل عرقلة حقيقية في سبيل تجميع القوات المحاربة التي يتوافر عليها الدايميو. في حين كان الولاء والثقة في الدايميو أساسيين في إشراك قواتهم في العمليات العسكرية التي يقوم بها الشجون. وعلى أي حال، لم يظهر طوال عصر **توكوغاوا** تهديد خارجي أو ضرورة تستدعي تجميع القوات بكاملها؛ فباستثناء العقد الأخير من هدا العصر الذي اشتدت فيه الأزمة بين الشجون ومعارضيه، لم يكن هناك حاجة إلى مثل هذا الاستعداد العسكري. وفي هذه الفترة، كان الدايميو والساموراي عموماً منقسمين بين مؤيدين للشجون ومعارضين له. ومن الدلائل القليلة على قدرات الشجون العسكرية تمرد **شيمابارا** (عام ١٦٣٧) الذي جند له الشجون ما ينيف على ١٠٠ ألف مقاتل، وتلك الاستعراضات التي قام بها الشجون الثالث **إييميتسو** في زياراته المتكررة إلى عاصمة الإمبراطور التي كانت ترافقه فيها أعداد تربو على١٠٠ ألف محارب (يروى أن واحدة من هذه الزيارات ضمت ٣٠٠ ألف محارب، كما سبقت الإشارة).

والواقع أن الشجون الأوائل طوروا نظاماً أو مؤسسات «سلمية» لم يعتمدوا فيها على القوة العسكرية بقدر ما سخّروا لها وسائل سلمية لضبط المجتمع ومكوناته. ذلك أن القوة العسكرية المفترض توافرها لدى الشجون شكلت وسيلة للترهيب فحسب، يهدد باستعمالها في حال الضرورة. وهذا ما كان يشار إليه

---

(٤٩) المصدر نفسه.

(٥٠) Conrad D. Totman, *Politics in the Tokugawa Bakufu, 1600-1843* (Berkeley, CA: University of California Press, 1988), p. 43.

باستعراض القوة الذي كان الشجون يقومون به بين الفينة والأخرى، وكان الهدف منه التأكيد لمن سولت له نفسه من الدايميو التمرد أن بإمكان الشجون تجنيد قوات لقمع تمردهم وعصيانهم. وعموماً يمكن الحديث عن حالتين من استعداد الشجون العسكري: حالة السلم وحالة الحرب. وبما أن عصر توكوغاوا كان في مجمله حالة سلم، فإننا سنقصر اهتمامنا على القوات الدائمة التي كانت الشجونة تستغلها لحفظ الأمن والحراسة.

كانت حاجات الشجون العسكرية في حال السلم محدودة، تتمثل أساساً في حراسة بعض المراكز والحماية الشخصية للشجون. لذا، كانت الأعداد المجندة باستمرار متواضعة؛ فهي لا تتجاوز بضعة آلاف محارب (ما بين ٥ آلاف و٧ آلاف). وكان الشجون يعتمدون، للقيام بها، على أُسر الساموراي الخاضعة لهم مباشرة كأُسرتي هاتاموتو وغوكينين (Gokenin)[٥١] اللتين كان لديهما نحو ٢٢ ألف محارب.

كان عدد الهاتاموتو في بداية عصر **توكوغاوا** يقارب خمسة آلاف فرد، يتحدر معظمهم من الساموراي الذين ساعدوا **إياسو** في الوصول إلى السلطة. وقد كانت الشجونة تصرف لصغارهم (أي الصغار من حيث الترتيب) معاشات سنوية من الأرز تختلف بحسب الاعتبار المعطى لهم، بينما تمنح إقطاعيات لمن هم في أعلى الترتيب، وإن تعدى إنتاج الأرض المقطعة لهم ١٠,٠٠٠ كوكو/أرز، يصنفون في خانة صغار الدايميو الخاضعين لسلطة الشجون المباشرة. كان هذا الصنف من الساموراي يشكلون نواة جيش **توكوغاوا**، وبمثابة الخزان أو المورد البشري الأول الذي يزود الشجونة بالموظفين. ذلك أن أغلب الوظائف المتوسطة والصغرى كانت مقصورة عليهم، كما كان كبارهم يشغلون وظائف عليا، خاصة الوظائف ذات الطابع العسكري من قبيل رئاسة حراس الشجون، والوظائف الإدارية المدنية: كالوظائف المرتبطة بالحجابة (نواب الحاجب الأكبر) والكتابة والمالية وغيرها، التي ظلت بعض أُسر الهاتاموتو تتوارثها لأجيال. وعموماً كان من حق الفرد من الهاتاموتو أن يختار من أبنائه من يرث منصبه ويحصل على المعاش أو الإقطاعية المخصصة له أو الوظيفة التي كان يقوم بها. وفي حال انعدام الوريث، كان يتم عادة اللجوء إلى التبني حتى لا تضيع

(٥١) الترجمة التي تستعمل في اللغة الإنكليزية مقابل Gokekin هي Housemen. والترجمة الأقرب في نظرنا هي «أهل الدار».

الامتيازات. وقد ظل الهاتاموتو أكثر الساموراي وفاء وإخلاصاً للشجون الذين كانوا يعتمدون عليهم ـ أكثر من غيرهم ـ في إدارة الأراضي الزراعية التابعة لأُسرة **توكوغاوا**، وفي العمل العسكري عند الاقتضاء وفي الإدارة كما أسلفنا. وقد ظلوا محافظين على ولائهم ووفائهم رغم تدهور الأوضاع الاقتصادية لمعظمهم في العهود الأخيرة لعصر إيدو[٥٢].

كان الغوكينين يتشكلون أساساً من صغار الساموراي التابعين مباشرة لأُسرة **توكوغاوا** والمصنَّفين في مرتبة ثانية بعد الهاتاموتو. ويرجع أصل هذه التبعية إلى عصر **كاماكورا**، حيث وقع تصنيف زهاء ألفين من المحاربين الذي قاتلوا إلى جانب **ميناموتو نو يوري ـ تومو** ضمن الغوكينين، أو ما يفيد الأتباع المباشرين للأُسرة (أُسرة **ميناموتو**). وقد ظلت أُسرهم محافظة على هذا التبعية وما ساوقها من امتياز التعيين في وظائف إدارية وعسكرية. وفي عصر إيدو، جرى تصنيف صغار الساموراي من أتباع أُسرة **توكوغاوا** ضمن هذه الخانة، وكانت الشجونة تصرف لهم معاشات سنوية من الأرز، لكن بمقادير أقل ممّا كانت تصرفه لهاتاموتو (للفرد الواحد ما بين ١٠٠ و٢٦٠ كوكو/أرز سنوياً). وقد كان عددهم في مطلع القرن السابع عشر زهاء ١٧ ألف فرد، يتولى البعض منهم وظائف صغرى في الجهاز الإداري ومراتب دنيا في القيادة العسكرية[٥٣]. كما كانوا خاضعين للترتيبات الخاصة بالهاتاموتو من حيث العمل العسكري والإداري وتوارث الانتساب إلى الفئة والوظيفة. وبسبب تدني أوضاعهم المادية في الفترة الأخيرة من عصر **توكوغاوا**، فضّل البعض منهم العمل الحرفي والتجارة عوض الاعتماد على المعاش السنوي.

كانت أهم أعمال العسكرية الموكلة إلى هذين الفصيلين من المحاربين في الأحوال العادية، العمل في حراسة الشجون داخل قلعة تشي ـ يودا (Chiyoda) (قلعة **إيدو**)، حيث تقيم مختلف الفرق المكلفة بالحراسة[٥٤]، وحراسة القلاع المهمة، كقلعة **أوساكا**. وقد كانت الفرق العسكرية التابعة للشجون تُعرف أيضاً بأسماء الأسلحة التي تستعملها، من قبيل المشاة (سينين دوشين Sennin dôshin)،

---

(٥٢) Totman, Ibid., pp. 45-46.

(٥٣) «Gokenin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 42.

(٥٤) كانت هناك أربع فرق مكلفة بحراسة الشجون: «أوبان» (ōban) (كبار الحراس)؛ و«شوينبان» (Shoinban) (الحراس الشخصيون للشجون)؛ و«كوشوغوني» (Koshōguni) (حراس الداخل)؛ و«شيمبان» (Shimban) (الحراس الجدد).

والرماة (رماة السهام موتشي ـ يوميغوني Mochiyumiguni)، وأصحاب البنادق (تيبو هياكونين ـ غومي Teppō hyakuningumi)(٥٥). وعموماً كان من المفروض أن يساهم كل القادرين على حمل السلاح من الهاتاموتو والغوكينين، سواء أولئك الذين يقومون بمهام عسكرية (**بانكاتا**) أو بمهام إدارية، في العمليات العسكرية المستعجلة التي لا تتطلب الاستعانة بالمحاربين التابعين للدايميو.

سادساً: مالية الشجون

اعتمدت موازنة الشجونة في المقام الأول على المداخيل التي كانت تحصل عليها من الأراضي، التي كانت تمتلكها أُسرة **توكوغاوا** الحاكمة في كل أرجاء البلاد وتديرها بصورة مباشرة. كما كانت تعتمد، في مقام ثان، على عائدات المناجم التي احتكرها الشجون الأوائل، والهدايا السنوية التي كانوا يتلقونها من الدايميو، بينما ظل الشجون ـ بسبب المبادئ الكونفوشيوسية ـ يحتقرون التجارة وممارستها. وعلى أي حال، فإن الجبايات المستخلصة من التجار أصبحت ذات أهمية بالنسبة إلى الشجون في الفترة الأخيرة من عصر **توكوغاوا**(٥٦). وعموماً، فإن الشجون كانوا ينفقون من عائداتهم الخاصة، شأنهم شأن كبار الدايميو. وكما علّق أحد الباحثين: «لفترة طويلة، لم تكن هناك حدود واضحة بين المالية الخاصة بأُسرة توكوغاوا والمالية العامة للباكوفو»(٥٧).

أشرنا إلى أن شجون القرن السابع عشر اتّبعوا سياسة مصادرة أراضي الدايميو، وأنهم احتفظوا بقسم من هذه الأراضي لأنفسهم. ونضيف أن هذه الأراضي، التي أصبحت في ملكية أُسرة **توكوغاوا**، كانت تُعرف بـ «تينريو» (Tenryu)، وأن إنتاجها في نهاية القرن السابع عشر كان يقدر بـ ٤,٥ مليون كوكو/أرز، وعائداتها في الفترة ذاتها ١,٥ مليون كوكو/أرز(٥٨). وهي أراض كانت تقع في أغنى سهول جزيرة **هونشو** (كانتو وكيناي)، وموزعة في كل أرجاء البلاد (في ٤٧ إقليماً من أصل ٦٨ إقليماً)(٥٩). وقد كان جُل هذه الأراضي (٨٥ بالمئة) يدار بواسطة وكلاء (دايكان) تابعين مباشرة لمفتشي المالية

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) Totman, *Politics in the Tokugawa Bakufu, 1600-1843*, p. 65.

(٥٧) Hall, «The Bakuhan System,» p. 174.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٥٩) Harold Bolitho, «Tenrū,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, pp. 9-10.

بإدارة الشجونة، بينما كان يُعهد بالأراضي البعيدة والمتفرقة إلى الدايميو، الذين كانت أراضيهم تقع بالقرب من أراضي الشجون.

حقق هذا النظام المعتمد على الاكتفاء الذاتي نجاحاً في القرن السابع عشر، حيث كان الشجون يتوافرون على عائدات مالية مهمة؛ إذ يروى أن **إياسو** خلّف لأبنائه ثروة تقدر بـ ١,٩٣٠,٠٠٠ ريو (العملة الذهبية)، ومناجم تنتج سنوياً ١٦٠,٠٠٠ ريو. ويروى أن الشجون الثالث إييميتسو كان يحتفظ بثروة تقدر بـ ٣,٠٠٠,٠٠٠ ريو، وأنه كان يجمع سنوياً من الهدايا مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ ريو[(٦٠)]. غير أن هذا الرخاء المادي لم يدم طويلاً؛ ففي أواخر القرن الثامن عشر، أصبح الدايميو يعانون الضائقة المالية والعجز في الموازنة، شأنهم شأن بقية الدايميو، وذلك لأسباب تتعلق بسوء الإدارة. وفي هذا الصدد، حاول الشجون القيام ببعض الإصلاحات المالية وغيرها للتخفيف من العجز المالي.

سابعاً: الاستمرارية: تأكيد الكونفوشيوسية

مثّل النصف الثاني من القرن السابع عشر والعقود الأولى من القرن الثامن عشر أوج نجاح نظام الباكوهان، ونجاح الشجون في إدارة البلاد إدارياً ومادياً؛ ففي هذه الفترة، تضاعفت المساحة المخصصة للزراعة، وازداد عدد السكان، وتوسعت المدن، وانتشر التعليم، وازدهرت الثقافة الحضرية. غير أن قرناً من الأمن وانعدام الحروب كانت له انعكاساته على أخلاق الساموراي، الذين اعتادوا على حياة الدعة والانغماس في الملذات التي أتاحتها أحياء المتعة التي انتشرت في المدن الكبرى. هذا بالإضافة إلى تراجع الأداء البيروقراطي وإدارة أراضي الشجون، ورواج تيارات فكرية تناهض أو تنتقد التيار الكونفوشيوسي الذي تبنّاه الشجون الأوائل. ومن بين الشجون الذين سعوا إلى تأكيد مبادئ الكونفوشيوسية ثانية في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر الشجون الخامس **تسونا ـ يوشي** (حكم ١٦٨٠ ـ ١٧٠٩)، إلا أن سيرته كانت مثار جدل وانتقاد.

كان **تسونا ـ يوشي** من الشجون القلائل الذين أثاروا انتباه المؤرخين ـ بعد شجون التأسيس ـ اعتباراً لسلوكه غير المعتاد، وإصداره قوانين تثير الاستغراب

(٦٠) Totman, *Politics in the Tokugawa Bakufu*, p. 77.

والدهشة. ففي الكتابة التاريخية الرسمية وغير الرسمية التي وضعت خلال عصر **توكوغاوا**، احتل تسونا ـ يوشي وضعاً خاصاً، وكُتبت سيرته بطريقة خالية من التبجيل المعتاد(٦١).

كما أنه كان موضوعاً لانتقادات كتّاب القرن الثامن عشر، وكانت حياته وأوامره الغريبة موضوعاً للسخرية في المسرح(٦٢). غير أن الأكيد هو أنه كان خلال حكمه، الذي دام ٢٩ سنة، مستبداً، يهابه كل الدايميو وأتباعه من الساموراي ويخافونه بقدر خوف أسلافهم من جده **إياسو** ووالده **إييميتسو**، أو يزيد.

تربى **تسونا ـ يوشي** على قيم الكونفوشيوسية، وبرع في دراسة مصادرها. وفي بداية حكمه، حاول إحياء تلك القيم واستعادة الهيبة التي فقدها الشجون، وذلك عبر إصدار أحكام قاسية في حق المخالفين لقوانين الشجونة من الدايميو، وفض النزاعات القائمة بينهم بصرامة فائقة. وهكذا أقصى ٣٠ دايميو وأعفاهم من مهامهم، وصادر قسماً مهماً من ممتلكات ١٣ دايميو، وعامل الأتباع المقربين (هاتاموتو) بالصرامة نفسها(٦٣). لكن الانتقادات التي وجِّهت إليه تناولت في الأساس قسوة أحكامه، واستبداده، وسلوكه الشخصي، وميوله الجنسية.

والشائع هو أن **تسونا ـ يوشي** كان يميل إلى إتيان الغلمان شهوة، وهو أمر لم يكن غريباً على مجتمع الساموراي؛ فجده **إياسو** اشتهر باحتفاظه بعدد من الوصفاء للغاية ذاتها، إلى جانب نسائه ومحظياته، وكذلك كان والده. وما أثار الانتقاد هو إدخال هذا الاعتبار في تعييناته واختيار معاونيه وتخطّي اعتبارات الولاء والتراتب المعتبرة في الترقية والتوظيف. فقد رقى عدداً من الشبان من مختلف شرائح الساموراي ـ من المقربين والمبعدين ـ وعيّنهم وكلاء لإدارة أملاك

---

(٦١) Donald H. Shively, «Tokugawa Tsunayoshi, the Genroku Shogun,» in: Albert Craig and Donald H. Shively, eds., *Personality in Japanese History* (Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1995).

(٦٢) كان الكاتب المسرحي الشهير تشيكاماتسو مونزيمون (Chikamatsu Monzaemon) (١٦٥٣ ـ ١٧٢٥) من الكتّاب الذين استغلوا حياة الشجون في مسرحياته الساخرة. ففي مسرحية كتبها عام ١٧٠٣، تناول بشكل مباشر حياة الشجون الذكور. وكذلك استغل حياته في مسرحية أخرى كتبها لمسرح العرائس عام ١٧١٤. في هذا الشأن، انظر: Donald H. Shively, «Chikamatsu's Satire on The Dog Shogun,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 18, nos. 1-2 (June 1955), pp. 159-180.

(٦٣) Shively, «Tokugawa Tsunayoshi, the Genroku Shogun,» p. 93.

الشجون، ومنح لبعضهم هانات، ونصّبهم دايميو عليها. وفي هذا الصدد ورد في تأليف تاريخي:

كان الحاكم غاوياً ممارسة الجنس مع الذكور؛ فمن بين أبناء توزاما [الدايميو والساموراي المبعدين] وهاتاموتو وحتى الجنود العاديين، كان يعين الوكلاء دون اعتبار لوضعهم، فإن كانوا وسيمين جرى اختيارهم بسبب الجنس(٦٤).

ولعل ما أثار أكثر الانتقادات في هذا الشأن، تلك الشائعات التي راجت حول علاقته بكبير حجابه **ياناغيساوا يوشي ـ ياسو** (Yanagisawa Yoshiyasu) (١٦٥٨ ـ ١٧١٤). ذلك أن هذا الأخير كان ينتمي إلى أُسرة متواضعة من الساموراي لا يتعدى دخلها ١٥٠ كوكو/أرز، ثم جرت ترقيته بسرعة فائقة إلى أن احتل أعلى منصب في الدولة بعد الشجون (عام ١٧٠٣) وارتفع دخله إلى ١٥٠ ألف كوكو/أرز. والمثير أن **تسونا ـ يوشي** لم يكتف بهذه الترقية، بل منح منصب كبير **الحجّاب** (سوبايوشين) صلاحيات تفوق صلاحيات مجلس كبار المستشارين بحيث أضحى **ياناغيساوا** ثاني رجل في الدولة، والوسيط بين الشجون وبقية أعضاء الاستشارة، وغيرهم. وكان في ذلك خطوة نحو إقرار استبداد الشجون وحاجبه، أي على نقيض الإجراءات الإدارية التي اتخذها إييميتسو. وبديهي أنه ليس هناك من تفسير سوى تلك العلاقة «الحميمة» التي جمعته بـ **ياناغيساوا**، أو ـ حسب شائعات أخرى ـ علاقته بزوجته التي أنجب منها طفلاً غير شرعي في وقت عجز فيه عن إنجاب خَلَف من زوجته ومحظياته(٦٥).

وكان ممّا أُخذ عليه في تصرفاته الشخصية، إعجابه الشديد بمسرح النو (Nō) (المسرح الياباني التقليدي)(٦٦) وممارسته الرقص والتمثيل أمام مستشاريه وكبار موظفي الدولة، بينما كان معلمو الكونفوشيوسية ينظرون باحتقار إلى هذه الممارسات التي لا تليق بالشجون والدايميو، ويصنفون العاملين في الفرجة ضمن المنبوذين(٦٧).

ومن القوانين التي عجِب لها معاصروه تلك التي تعلقت بحماية الكلاب

---

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) انظر الفصل الخاص بثقافة الـ «تشونين» في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وفي الفصل الثاني عشر حيث أفردنا فقرات لهذا المسرح.

(٦٧) Shively, Ibid., p. 93.

والحيوانات من تعسف الإنسان، والتي عُرفت بـ «شورويي أواريمي نو رئي» (Shōrui awaremi no rei) (أي قوانين الرفق بالمخلوقات الحية). والمثير للاستغراب ليس القوانين في حد ذاتها، بل تلك الصرامة التي واكبت تطبيقها والأحكام الصادرة في حق من ثبت إجرامهم في حق الكلاب وغيرها من الحيوانات؛ فممّا احتفظت روايات المؤرخين، أحكام بالإعدام وبالسجن لسنوات طويلة في حق من عذبوا أو أهملوا حيواناتهم الأليفة وغيرها، ومن ذلك، حكم بالانتحار على طريقة سيبوكو صدر في حق دايميو قتل كلباً عضه[٦٨]. وعند وفاة تسونا ـ يوشي، كان هناك ما ينوف على ٨ آلاف سجين بسبب خرقهم قوانين الرفق بالحيوان. ومن بين الحيوانات جميعها، كان له اهتمام خاص بالكلاب ورفاهيتها وصل إلى حد الهوس، فنال بسبب ذلك كنية «إينو كوبو» (Inu Kubō)، أي «الشجون الكلب». ذلك أنه أقام حظيرة في العاصمة **إيدو** لإيواء الكلاب الضالة، وأمر كل الدايميو بإقامة حظائر مماثلة، وإحصاء الكلاب وتصنيفها بحسب أجناسها، كما فرض ضريبة خاصة لإطعام الكلاب الضالة[٦٩]. وليس هناك من تفسير مقبول لعنايته بالكلاب سوى معتقداته البوذية، ومولده في سنة الكلب، ومشروعه العام لإحياء قيم الكونفوشيوسية[٧٠].

غطت هذه القوانين، التي كانت مستغربة في وقتها، على الوجه المشرق في شخصية **تسونا ـ يوشي**. فقد حكم في الفترة الذهبية لعصر إيدو التي توسع فيها العمران، وازدهرت التجارة، وبلغت فيها ثقافة التشونين أوجها (عهد غينريكو (Genroku) ١٦٨٨ ـ ١٧٠٤). والواقع أنه كان صاحب مشروع أراد به إحياء القيم الإنسانية للكونفوشيوسية، التي بدأت تضيع بسبب طغيان الماديات، وانغماس الساموراي والتجار في حياة الملذات. ذلك أن **تسونا ـ يوشي** كان يهدف إلى تحقيق مجتمع كونفوشيوسي مثالي، غير أن الطرق التي اتّبعها اتسمت بالشدة، وهو ما غطى على الأهداف النبيلة التي كان يرمي إليها[٧١]. وعموماً

---

(٦٨) في ما يخصّ مناقشة ضافية لقوانين الرأفة بالمخلوقات الحية، وأبعادها ومدى صحة الروايات التي بالغت في الأحكام الصارمة ضد مخترقي القوانين المذكورة، انظر: Beatrice Bodart Bailey, «The Laws of Compassion,» *Monumenta Nipponica*, vol. 40, no. 2 (Summer 1985), pp. 163-189.

(٦٩) المصدر نفسه، و Shively, Ibid., p. 95.

(٧٠) من الروايات الشهيرة حول سبب اعتناء تسونا ـ يوشي بالكلاب، أن أحد الرهبان البوذيين أمره بذلك بعد موت طفله الأول، وعدم إنجابه طفلاً آخر. فحسب هذه الرواية أن تسونا ـ يوشي أساء إلى الكلاب في حياة سابقة، وأن عليه أن يكفّر عن ذلك بالعناية بالكلاب في حياته الراهنة.

(٧١) Tsuji Tatsuya, «Politics in the Eighteenth Century,» pp. 428-429.

يصنف تسونا ـ يوشي من بين الشجون الذين شددوا بصورة عملية على الأخلاق الكونفوشيوسية، ورفعوا من مكانة معلميها. فهو نفسه كان عالماً من علمائها، يرأس حلقات تدريسها في بلاطه، ويقوم أحياناً بإلقاء محاضرات في تفسير أمهات كتبها[٧٢]. كما كان يجازي موظفيه إن هم أتقنوا دراستها. وعلى الرغم مّما قيل فيه من انتقادات، فإنه ترك البلاد حين وفاته عام ١٧٠٩ في حالة من الأمن والاستقرار.

ثامناً: إصلاحات القرن الثامن عشر: الحفاظ على التوازن

كان من الصعب الحفاظ على التوازن الذي حققته ما ابتكره الشجون الأوائل من إجراءات وتنظيمات إدارية وغيرها؛ ففي العقود الأولى من القرن الثامن عشر، بدأت مظاهر الأزمة تطفو على السطح، فكان من الضروري تدارك ما يمكن تداركه، للحفاظ على المكتسبات واستمرار السلطة في أُسرة **توكوغاوا**، وذلك من خلال القيام ببعض الإصلاحات.

بدأت الإصلاحات الأولى في عهد الشجون السادس **إيينوبو** (حكم ١٧٠٩ ـ ١٧١٢)، وكانت من اقتراح **أراي هاكوسيكي** (Arai Hakuseki) (١٦٥٧ ـ ١٧٢٥)، الذي اتخذه الشجون مستشاراً لديه، وهو مثقف مختص بالدراسات الكونفوشيوسية ومؤرخ وناظم للشعر. أراد أراي تحقيق إصلاح داخلي يرفع من الأداء الإداري، ويخفف من مداخيل الخزينة. وهكذا أحدث تغييرات في بروتوكول الشجونة ومظاهرها الرسمية التي من شأنها رفع مقام الشجون، ومن ذلك وصفه للشجون في المراسلات الرسمية مع كوريا بـ «ملك اليابان». أما في الجانب الاقتصادي، فقد قام بإحصاء الواردات والصادرات التي تمر عبر ميناء ناغاساكي، واتخذ إجراءات للحد من الاستيراد، ومنع تسرب العملتين الذهبية والفضية اللتين كانتا تُنفقان على بضائع غير نافعة. فحسب ادعائه في نهاية حكم **إيينوبو** (١٧١٢)، أنفقت اليابان الربع فقط مّما كان تنفقه من العملة الذهبية[٧٣]. غير أن الإصلاحات التي شرع فيها أراي لم تكن ذات تأثير بعيد، فهي لا تصنَّف في الأبحاث التاريخية ضمن الإصلاحات الرئيسية للقرن الثامن عشر. أما

(٧٢) المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٩، و: Conrad Tottman, *Early Modern Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), pp. 132-134.

(٧٣) Totman, Ibid., pp. 282-283.

الإجراءات التي اتخذت صورة إصلاحات، فهي تلك التي أُجريت في عهدي الشجون الثامن والحادي عشر.

١ ـ إصلاحات كيوهو (١٧١٦ ـ ١٧٣٥)

وقعت إصلاحات **كيوهو** (Kyôhô) في عهد الشجون الثامن **يوشي ـ موني**، الذي دام حكمه هو أيضاً زهاء ٣٠ سنة (حكم ١٧١٦ ـ ١٧٤٥)، وكان وصل إلى السلطة وهو يحمل آراء إصلاحية اكتسبها من تجربته في هان **كيئي** (Kii) الذي كان دايميو عليه[٧٤]. ففي عهده بدأت مداخيل الشجون في التراجع، فارتأى أن الإصلاحات البيروقراطية والبروتوكولية التي أجريت في عهد سلفه، لم تكن كافية لتحسين أداء الشجونة. وعوضاً عن ذلك، ارتأى الحل في العودة بالسلطة إلى ما كانت عليه في عهد **إياسو**، وذلك بتأكيد الحكم المباشر للشجون، والتقشف الذي كان دائماً سمة من أخلاق الساموراي، ورفع الجباية، وتحسين أداء وكلاء الشجون على الأراضي الزراعية (دايكان)، واستصلاح الأراضي وضمها إلى ممتلكات الشجون، واعتماد الكفاءة في اختيار الموظفين، ومراجعة القوانين الأساسية للشجونة، وتشجيع التعليم وبناء المعاهد في الهانات، والتخفيف من القيود التي كانت مفروضة على الدراسات الهولندية[٧٥].

والواقع أن هذا الفكر الإصلاحي لم يكن من اقتراح الشجون وحده، بل كان أيضاً من لدن **أوغيو سوراي** (Ogyo Sorai) (١٦٨٨ ـ ١٧٢٨)، الذي يُعَدّ أحد كبار مثقفي عصر **توكوغاوا** لما تميز به من معرفة موسوعية شملت الدراسات اللغوية والعلوم السياسية والعسكرية والموسيقى والشعر[٧٦]. فقبل عمله في الاستشارة لدى الشجون، كان قد نشر أبحاثاً في مجالات متعددة، وكانت له

---

(٧٤) للتذكير بما سبق في فقرات من هذا الفصل، فإن يوشي-موني لم يكن من سلالة هيدي ـ داتا التي توارثت السلطة حتى عام ١٧١٦؛ ذلك أنه يتحدر من سلالة يوري ـ نوبو، أحد أبناء إياسو الذي عُين دايميو على كيئي.

(٧٥) Martin Collcutt, Marius Jansen and Isao Kumakura, *Cultural Atlas of Japan* (New York: Facts on File, 1991), p. 138.

(٧٦) ولعلّ أهم ما ميزه من معاصريه هو الرجوع إلى مراجع الكونفوشيوسية في أصولها الصينية، وعدم الاكتفاء بترجماتها إلى اللغة اليابانية أو الطريقة التي تنطق بها في اليابان. وقد شبهه أحد الباحثين الغربيين بإيراسموس (Desiderius Erasmus) (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) الهولندي الأصل، الذي اشتهر بمعرفته الموسوعية ودراساته اللغوية في مطلع القرن السادس عشر. كما خصه الباحث الياباني ماروياما بعناية خاصة في دراسته المتعلقة بتاريخ الفكر في عصر توكوغاوا، واعتبره من أعظم المفكرين في تاريخ اليابان.
Maruyama, *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*, pp. 69-176.

تأملات فلسفية في الحكم والتجارب التاريخية في اليابان وغيرها من الدول المجاورة. فمن آرائه أن الرفاه الاقتصادي هو سبب في استمرار السلم:

«بعد تحقيق شروط السلم لمدة طويلة، يبدأ الفقر يطال الطبقات العليا والسفلى على حد سواء، وتبدأ البنية السياسية تتداعى بسبب الحرب الأهلية. فالواضح من حالات تاريخية، أن الانتقال من حالة الحكم الآمن إلى حالة الحرب الأهلية يكون بسبب الفقر الذي يطال المجتمع، ولهذا السبب فإن أساس كل حكم يجب أن يكون قبل كل شيء في العمل على توافر البلد على ثروة واسعة»[٧٧].

تُعَدّ إصلاحات **كيوهو** أهم حركة إصلاح عرفتها اليابان في عصر **إيدو** (قبل إصلاحات الميجي)؛ فحتى وإن هدفت في الأساس إلى تحسين الأداء الاقتصادي، فإن تداعياتها السياسية كانت واضحة في تعزيز سلطة الشجون، واستمرار حكم أُسرة **توكوغاوا**.

بدأ **يوشي ـ موني** في التفكير في الإصلاح منذ تربعه على عرش الشجونة (عام ١٧١٦) اعتباراً لما لاحظه من تراجع في المداخيل، غير أنه لم يشرع في الإجراءات العملية إلا في مطلع عقد العشرينيات. وقد عُنيت في البداية بالجهاز المركزي، خاصة توسيع الإدارة المشرفة على المالية التابعة لمجلس كبار المستشارين. وقد مُنح هذا المجلس الصلاحيات التي كان فقدها في عهد الشجون **تسونا ـ يوشي**، وجرى في الوقت ذاته تشديد المراقبة على وكلاء الشجون (دايكان). أما في ما يخص الجانب الاقتصادي، فقد بدأت الإصلاحات بجهود لتخفيض الإنفاق، ورفع مداخيل الجباية باستصلاح الأراضي وإدخال مزروعات جديدة ذات مردود أكبر، بالإضافة إلى العمل على استقرار العملة. وعموماً يقسم المؤرخون إصلاحات **كيوهو** إلى ثلاث مراحل: مرحلة أولى (١٧١٦ ـ ١٧٢١)، ومرحلة ثانية (١٧٢١ ـ ١٧٢٨)، ومرحلة أخيرة (١٧٢٩ ـ ١٧٣٥). ودون الدخول في تفاصيل كل مرحلة، يمكن إجمال القول في أن إصلاحات **كيوهو** شكلت محاولة ناجحة للحد من تدهور الشجونة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي[٧٨].

---

(٧٧) ورد هذا المقتطف مترجماً إلى اللغة الإنكليزية، في: Totman, *Early Modern Japan*, p. 287.

(٧٨) في ما يخص إصلاحات كيوهو، انظر: Kate Nakai, «Kyōhō Reforms,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, pp. 330-331.

٢ ـ إصلاحات كانسيئي (١٧٨٧ ـ ١٧٩٣)

جاءت إصلاحات كانيسئي (Kansei) بعد سلسلة من الكوارث الطبيعية، التي تسببت في مجاعات طاولت الكثير من الأقاليم، وسجلت في إثرها مداخيل الشجون نقصاً حاداً. ففي عام ١٧٨٣ ثار بركان **أساما** (Asama) (محافظة **ناغويا** حالياً)، مخلفاً ٢٠ ألف قتيل، ورماداً غمر مئات الكيلومترات المربعة من الأراضي الصالحة للزراعة. وفي العام نفسه، وبسبب البرد الشديد، انعدم الإنتاج الزراعي في إقليم طوهوكو (Tōhoku)، وهو ما أدى إلى مجاعة طاولت ٨٠ ألفاً من سكانه الذين هجروا أراضيهم. وقد عمت المجاعة (المعروفة بمجاعة تيمي Temmei) أقاليم أخرى من عام ١٧٨٢ إلى عام ١٧٨٧ وذهب ضحية لها مابين ٢٠٠ ألف و٩٠٠ ألف نسمة[٧٩] نتيجة انخفاض الإنتاج الزراعي في مجموع البلاد إلى الثلث. وهكذا هاجر الآلاف من الفلاحين نحو المدن، وارتفعت أسعار الأرز إلى أقصى مدى لها. وتساوق مع ذلك ارتفاع وتيرة احتجاج الفلاحين وانتفاضاتهم (٢٣٠ حركة احتجاج في الفترة المعنية)[٨٠]، حيث كانت جموع الفلاحين تهاجم القلاع ومتاجر التجار ومخازنهم. ونتيجة لانتشار النقد وتحكم التجار في اقتصاد البلاد، بدأ عموم الدايميو الساموراي يعانون الضائقة المالية، ويقبلون على الاقتراض من التجار.

وفي ظل هذه الظروف السيئة، انطلقت إصلاحات **كانسيئي** بهدف الحد من آثار الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلاد. وقاد هذه الإصلاحات **ماتسودايرا سادانوبو** (Matsudiara Sadanobo) (١٧٥٨ ـ ١٨٢٩)، الذي عيِّن وصياً على الشجون الحادي عشر **إيبناري** (حكم ١٧٨٧ ـ ١٨٣٧) ـ ولد في عام ١٧٧٣ ـ ورئيساً لمجلس كبار المستشارين من عام ١٧٨٧ إلى عام ١٧٩٣.

كان الهدف من الإصلاحات إعادة الفلاحين إلى قراهم التي هجروها، وإعادة تنظيم إدارة الأراضي التابعة للشجون بتعيين وكلاء جدد، وضبط علاقة الشجونة بشريحة كبار التجار التي أصبحت تتحكم في اقتصاد البلاد. ومن باب الزيادة في مداخيل الشجون وتخفيف معاناة الدايميو، جرى تأجيل أداء تأجيل القروض مدة أربع سنوات، وفرض ضرائب على كبار التجار. وما تجدر الإشارة

---

(٧٩) «Temmei Famine,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 381.

(٨٠) انظر الفصل الثالث الخاص بالفئات، حول حركات احتجاج الفلاحين، وخصوصاً الفقرات الخاصة بفئة الفلاحين.

إليه أن الإصلاحات لم تقتصر على الإدارة المركزية، ذلك أن الكثير من الدايميو حاولوا تطبيق مبادئها في هاناتهم.

ولعل أكثر ما يُذكر به ماتسودايرا عند مؤرخي فكر عصر **إيدو**، هو تدخله المباشر في توجيه الشجونة الأيديولوجي؛ ذلك أنه أصدر في عام ١٧٩٠ مرسوماً يمنع المعاهد من تدريس أي من الكتب التي تخالف مذهب **تشو هسي** الذي اعتمده الشجون الأوائل بإشارة من **هياشي رزان**[٨١]. والواقع أن هذا المنع جاء كردة فعل على انتشار تيارات فكرية تخالف المذهب المشار إليه، بل وتناهض الفكر الكونفوشيوسي عموماً[٨٢]. كما أنه كان لإصلاحات **كاسييي** آثار سلبية في ثقافة التشونين، وخاصة في المسرح[٨٣].

(٨١) انظر نص المرسوم مترجماً إلى اللغة الإنكليزية، في: Tsunda, *Sources of Japanese Tradition*, vol. 1.

(٨٢) بشأن تراجع مذهب تشو هسي وغلبة تيارات فكرية أخرى، انظر الفصل الخامس من: Maruyama, *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*, pp. 274-319.

(٨٣) لنا عودة إلى ذلك في القسم الثاني.

الفصل الخامس

الدايميو
ومؤسسة الهان

ظل معظم اليابانيين، إلى حدود قيام إصلاحات **الميجي**، يجهلون سلطة أعلى من السلطة التي يمثّلها الدايميو، أو يدركون حدوداً أوسع من حدود الهان الذي يعيشون فيه. ذلك أن ثلاثة أرباع المساحة العامة للجزر اليابانية كانت تابعة لحكم الدايميو، بينما كان المتبقي منها يدار بوساطة وكلاء الشجون، الذين لم يكونوا في الواقع سوى دايميو صغار خاضعين للسلطة المباشرة للأُسرة الحاكمة[1]. ففي الهان، أو المجال المخصص لكل دايميو، عاش الفلاحون والصنّاع والحرفيون والتجار يزرعون الأرض ويقومون بنشاطاتهم المختلفة؛ وإلى الدايميو كانوا يؤدون الجباية والمطلوب منهم من الكلف؛ وبواسطة أحكام الهان وقوانينه كانت تنظم حياتهم اليومية وتفض نزاعاتهم. فباستثناء سكان **إيدو** والمدن الكبرى، وثلة من التجار ومحترفي النقل، والساموراي الذين كانوا يرافقون الدايميو في زياراتهم السنوية إلى العاصمة **إيدو**، لم يكن لدى أغلب اليابانيين سوى تصور ضبابي غير محدد العالم للشجون، ناهيك عن الإمبراطور الذي لم يكن له إلا حضور رمزي في الذاكرة الجماعية. فالسلطة الحقيقية كانت ممثلة أساساً في الدايميو وفي أتباعه الساموراي، الذين كانوا يباشرون القضايا اليومية ويجسدون كل أوجه السلطة الإدارية والزجرية والجبائية منها. وفوق هذا وذاك، كان الدايميو يتحكمون في

(1) Harold Bolitho, «The Han,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, pp. 191-192.

جُل قوى اليابان العسكرية؛ ففي الهانات كانت تعيش جل أُسر الساموراي التي تتقن المهارات الحربية ويُعتمد عليها في كل عمل عسكري[٢].

لاشك أن مؤسسة الهان التي يرأسها الدايميو احتلت وضعاً محورياً في إدارة الأراضي اليابانية خلال عصر **توكوغاوا**، وأنها كانت الأكثر حضوراً في حياة جُل اليابانيين من الحكم المركزي، غير أنها لم تحظ بما تستحق من العناية في الكتابة التاريخية إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. ذلك أن التركيز انصب في البداية على السلطة المركزية الممثّلة في الشجون ومؤسسته الإدارية والعسكرية وعلى المؤسسة الإمبراطورية بدرجة أقل. وما ابتكار مصطلح الباكوهان في فترة متأخرة سوى اعتراف بهذه الأهمية؛ إذ إن المزج بين الباكوفو والهان في مفهوم موحد دليل على التحول الذي حدث في اهتمام المؤرخين، عند معالجتهم مختلف القضايا التي تهم تاريخ **توكوغاوا**. وبالفعل، اكتشف المؤرخون اليابانيون، نتيجة انفتاحهم على التاريخ المحلي، كماً هائلاً من الوثائق المهملة من قبيل السجلات المالية والجبائية والمذكرات الشخصية وغيرها، التي كان كل هان يحتفظ بها على حدة. ذلك أن وفرة هذه الوثائق وتنوعها من جهة، والتأثر بالمدارس التاريخية الغربية من جهة أخرى، فتحا آفاقاً جديدة أمام هؤلاء الباحثين، خاصة تلك المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والديمغرافي. كما وجد رعيل ما بعد الحرب من الباحثين الأمريكيين مادة دسمة في هذه الوثائق، فانبروا من جانبهم لبحثها واستغلالها وعقد الندوات المشتركة لدراستها؛ إذ يمكن القول، دون مبالغة، إن التواريخ المحلية شهدت في العقود الأخيرة قفزة نوعية وإنها تكاد تطغى على الأبحاث المتعلقة بتاريخ اليابان في هذه الفترة.

ورغم كثرة هذه الأبحاث والتنوع الذي طبعها، فإنه يصعب في المرحلة الراهنة التعميم أو الخروج بأحكام عامة عن مؤسسة الهان، أو رسم سمات تنطبق بدقة على مختلف مكوناتها التي فاقت أكثر من ٢٦٠ هاناً. ذلك أنه يكاد يستحيل وجود هانين يتشابهان تشابهاً تاماً، فهناك عوامل شتى تحكمت في مسار كل هان، من قبيل نوعية العلاقة مع الشجونة، والقرب أو البعد عن المركز، والمساحة والموقع وما يرتبط بهما من دخل جبائي وقوة اقتصادية، ونفوذ أُسرة الدايميو الحاكمة في الهان، إلى غير ذلك. غير أن هذا التنوع لا يمنع وجود حد أدنى من سمات متقاربة أو مشتركة، خاصة تلك المتعلقة بالبنية العامة للسلطة

---

(٢) المصدر نفسه.

والعلاقة مع الشجونة، وهو ما سنحاول الوقوف عليه في هذا الفصل الذي يهمنا فيه أن ندرس المكون الثاني لنسق الباكوهان. وهكذا، سنعرض في الفقرات التالية أولاً لأُسر الدايميو، التي كانت بيدها مقاليد السلطة، ثم لمؤسسة الهان كوحدة أو إمارة مستقلة إدارياً ومالياً، وأخيراً لعلاقة الهان بالحكم المركزي.

أولاً: الدايميو

يتكون مصطلح الدايميو من مقطعين: «داي»، أي كبير، و«ميو»، وهو اختصار لـ ميودين، أي أرض خاصة. ومن ثم، فإن الترجمة القريبة للمصطلح هي «كبير أرض خاصة»، وقد ظهر بهذا المعنى أول مرة في وثائق القرن الحادي عشر الميلادي، حيث كان المراد به كبار ملاّك الأراضي، سواء أكانوا من العسكريين أم من المدنيين، وذلك في مقابل مصطلح شوميو (Shõmyõ) الذي دل على صغار الملاّك. ثم تحول المراد به تدريجياً في أواخر القرن الرابع عشر ليأخذ معنى قريباً من الدلالة التي ارتبطت به منذ أواخر القرن الخامس عشر[٣].

ورد في فصل سابق أن ظهور أُسر الدايميو كقوة نافذة ومهيمنة على مختلف أقاليم اليابان تساوق مع تفكك سلطة **أشيكاغا** في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، وأن صعود هذه الأُسر كان من نتائج حرب **أونين** وما تلاها من صراع أهلي. لكن هذا الصعود لم يأت مصادفة أو لم يحدث فجأة، بل كان نتيجة السيرورة التي عرفها حكم الأقاليم. ففي إبان الحكم المركزي الذي أقامته أُسرة **ميناموتو** (عصر كاماكورا، ١١٩٢ ـ ١٣٣٣)، كان الشجون يعيّنون حكاماً عسكريين من أتباعهم الساموراي (الشوغو) لإدارة الأقاليم، وكان هؤلاء يخضعون كلية للشجون، وعرضة للنقل والإقالة والمساءلة من قبل السلطة المركزية. وما حدث في بداية عصر **موروماتشي** (١٣٣٦ ـ ١٥٦٨) هو أن شجون **أشيكاغا** اتخذوا من التعيين في منصب الشوغو وسيلة لمجازاة أُسر الساموراي التي ساندتهم في الوصول إلى السلطة، وأيضاً كأداة لضمان ولاء بعض أُسر الساموراي التي اكتسبت نفوذاً في الأقاليم. وهكذا زاد نفوذ هذه الأُسر، وأضحت تحتكر حكم بعض الأقاليم، وتتوارث منصب الشوغو لأجيال، وتسعى في الوقت ذاته إلى بسط سلطتها على أقاليم أخرى. ومن هذه الأُسر، على سبيل

(٣) انظر مادة: «Daimyõ,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, p. 61.

المثال لا الحصر، أُسر **شيمازو** (محافظة **ساتسوما**) و**تاكيدا** (محافظة **كائيي**) و**إيماغاوا** (محافظة **سوروغا**) التي أصبحت في ما بعد من كبار أُسر الدايميو، وتمكن البعض منها من البقاء في السلطة إلى نهاية عصر **توكوغاوا**(٤). وقد عُرف هؤلاء في أواخر عصر **موروماتشي** بـ شوغو ـ دايميو، تمييزا لهم من الشوغو العاديين، ثم تحول البعض منهم إبان الحرب الأهلية إلى سينغوكو ـ دايميو (أو دايميو الدويلات المتحاربة).

إضافة إلى «الشوغو»، كان هناك منصب آخر في هرمية السلطة المحلية لا يقل أهمية عن الحاكم العام من حيث النفوذ والاستفادة المادية. ويتعلق الأمر بجيتو (Jitõ) الذين سعى الشجون الأول من أُسرة **ميناموتو** إلى تعيينهم في البوادي بغاية فرض سيطرتهم عليها ومواردها المالية(٥). يمكن ترجمة جيتو بالناظر، أو وكيل الجباية(٦)، اعتباراً للغاية الأولى التي أُحدث من أجلها هذا المنصب. وعلى أي حال، فقد كان الجيتو يقومون، في عصر **كاماكورا**، بوظائف متعددة، من بينها جمع الجبايات في الأقاليم، وحفظ الأمن على الصعيد المحلي، وكذا مساعدة أصحاب الحق في أراضي الشوين من نبلاء **كيوطو** في الحصول على عائداتهم. وكان الشجون يختارون هؤلاء من بين أتباعهم المخلصين من الساموراي، شأنهم شأن الشوغو، غير أن منصب الجيتو أصبح متوارثاً في أُسر بعينها، اكتسبت مع الزمن نفوذاً وسلطة فاقا أحياناً سلطة الحاكم العام المعيّن حديثاً على الإقليم. وقد استفاد الجيتو من تدخلهم ومراقبتهم لأراضي الشوين التي كانوا يأخذون نصيباً من جبايتها (شيكي). وفي عصر **موروماتشي**، استولى هؤلاء على حقوق النبلاء في جبايات الشوين، وأصبحوا من كبار ملاّك الأراضي وذوي نفوذ على الصعيد المحلي يعرفون بكوكوجين (Kokujin)(٧). وقد شكلوا قبل الحرب الأهلية قوة سياسية وعسكرية على الصعيد الإقليمي، حيث كان

---

(٤) John Whitney Hall, «The Muromachi Bakufu,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 3, pp. 244-245.

(٥) حول الأهمية التي احتلها الجيتو في بنية السلطة المحلية وما أصبح يتمتع به من سلطات وامتيازات فيها، انظر على الخصوص: Nagahara Keiji, «The Decline of the Shoen System,» in:: *The Cambridge History of Japan*, vol. 3, pp. 260-268.

(٦) عادةً ما يترجم مصطلح جيتو إلى اللغة الإنكليزية بـ Steward، وذلك استناداً إلى المرجعية التاريخية التي كان فيها الـ Steward يقوم بوظيفة كبير الخدم أو يشرف على إدارة الأملاك وجمع مستحقاتها من الكراء. كما كان يطلق على المكلف بجمع الضرائب.

(٧) Michael Solomon, «Kokujin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 260.

الشوغو يعتمدون عليهم في تدبير أقاليمهم لما كانوا يتمتعون به من نفوذ كان ينقص الحكام العامين بسبب تراجع سلطة الحكم المركزي. وقد استغل الأقوياء منهم ظروف الحرب الأهلية ليزيحوا شوغو أقاليمهم، ويستولوا كلية على السلطة، وبالتالي ليشكلوا قسماً من دايميو الدويلات المتحاربة.

نخلص من هذين النموذجين إلى القول بأن صعود الدايميو لم يكن نتيجة ظروف الحرب الأهلية وحدها، بل جاء كمحصلة لتضافر جملة من عوامل تعلقت بضعف الحكم المركزي وتمثيله في الأقاليم، وبالسيرورة التي عرفها النسق الفيودالي الياباني. وقولنا هذا لا يقلل في شيء من دور الحرب الأهلية، التي دامت زهاء مئة سنة، وكانت بمثابة التربة الخصبة التي غذت ورعت تطلعات الراغبين في الوصول إلى السلطة. ذلك أن ظروف الحرب سنحت للأتباع بأن يتمردوا على سادتهم، ولأُسر الساموراي المتنفذة في الأقاليم (كوكوجين) من أن يتخلصوا من الحكام المعينين من قبل الشجون، وللشوغو ـ دايميو من أن يقطعوا خيط الولاء الرفيع الذي ظل يربطهم بالسلطة المركزية. غير أن الصراع القوي والتنافس الذي كان على أشده لم يتركا مجالاً للضعفاء أو فسحة لينعم غانم بغنيمته؛ فكم من أُسرة كبيرة تربعت على عرش السلطة وتمت إزاحتها بعد وقت قصير، وكم من أُسرة كانت في السفح وتسلقت إلى القمة.

يصعب على غير أهل التخصص الدقيق تتبع مسيرة هذه الأُسر المتصارعة أو رسم خريطة لمناطق نفوذها، لكن إن نحن وقفنا على مشارف نهاية الحرب الأهلية في منتصف القرن السادس عشر، نجد الحصيلة متمثلة في أكثر من مئتي أُسرة من أُسر الدايميو، تختلف من حيث أصولها وقوتها واتساع مناطق نفوذها. فهناك الأُسر التي كانت معيّنة في الأصل من قبل الشجون لحكم الأقاليم (شوغو ـ دايميو)، وتخلصت من تبعيتها للسلطة المركزية في ظل الحرب الأهلية. وقد سبقت الإشارة إلى نماذج منها؛ وهناك الأُسر التي كانت تحتل مناصب إدارية في السلطة المحلية ـ خاصة منصبي نيابة الشوغو ـ أو في وضعية تبعية، ثم استغلت ظروف الحرب للانقلاب على رؤسائها، وأُسرة أودا نموذج لهذا الصنف؛ وهناك الأُسر المنبثقة من أُسر الساموراي المتمركزة في الأقاليم، مثل أُسرة **ماتسودايرا** التي ينتمي إليها إياسو؛ وأخيراً هناك الدايميو المنتمون إلى أُسر كانت في أسفل التراتب ثم تسلقت بسرعة لتحتل الصدارة.

لم يكن تعميم مفهوم دايميو على هذا العدد الكبير يعني بالضرورة أن كل

من حمل اللقب يتمتع بالقوة والنفوذ نفسيهما؛ فالكثير منهم لم يكن له سوى الاسم ورقعة صغيرة من الأرض، ويدين بالولاء لمن هم أكبر منهم للحفاظ على امتيازاته. وفي المقابل، كان هناك دايميو ممن حققوا هيمنة إقليمية، وأنشأوا إمارات حقيقية تتمتع بكل سمات الدولة الصغيرة. ولم يكن يتعدى عدد هؤلاء ٢٠ دايميو، غير أنهم كانوا يقتسمون بالفعل حكم الأراضي اليابانية قبل إعادة توحيدها في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وعلى النقيض ممّا قد نتصوره أول وهلة من أن الحرب والصراع يؤديان حتماً إلى الفوضى وعدم الاستقرار، فإن البعض من سينغوكو دايميو استطاعوا في خضم الصراع إيجاد قواعد ثابتة، واتّباع سياسات تمكنهم من ترسيخ حكم أُسرهم وتضمن ولاء أتباعهم، وتؤمن جباية الأراضي التابعة لهم(٨). من هذه الإجراءات، ترتيب العلاقات بين مختلف الفئات الاجتماعية المكونة لإقطاعياتهم، والقيام بمسح الأراضي، وتحديد مداخليها بدقة، وسن تشريعات وقوانين لحفظ الأمن والاستقرار بها، وبناء القلاع وتحصين المواقع الدفاعية، والزيادة في الطاقة الإنتاجية لأراضيهم. وقد تصرف البعض منهم كما لو كانوا ملوكاً صغاراً أو أمراء يتمتعون بكل امتيازات الاستقلال الذاتي. ولعل في تعامل البعض منهم مع التجار والمبشرين البرتغاليين والإسبان، ما يؤكد هذه الاستقلالية والسلطة التي كانوا يتمتعون بها في مناطق نفوذهم، فأُسرة **شيمازو** في جزيرة **كيوشو** وأُسرة **أوتومو** في غرب اليابان، على سبيل المثال، فتحتا الموانئ والثغور التابعة لهما في وجه التجار البرتغاليين، ومكّنتا المبشرين من نشر العقيدة المسيحية في أراضيهما دون أن تكونا في حاجة إلى موافقة السلطات المركزية أو حتى استشارتها. كما أن عدداً من سينغوكو ـ دايميو اعتنقوا المسيحية، وأرغموا أتباعهم على اتباع الدين الجديد، على الرغم من المعارضة التي أبداها الإمبراطور لنشاط المبشرين.

كان **أودا نوبوناغا** واحداً من سينغوكو ـ دايميو، غير أن طموحاته لم تقف عند حدود الهيمنة الإقليمية كبقية أترابه، بل سعى، كما جرى تفصيل ذلك، إلى إخضاع كل أراضي اليابان لسلطة عسكرية مركزية. غير أن إخضاع هذه القوى المحلية، التي اشتد عضدها وألفت التحرر من نير الحكم المركزي وكلفه، لم يكن بالأمر الهين، حيث استغرق ما ينوف على ٥٠ سنة من الجهود المضنية. ولم يسع

(٨) Nagahara Keiji with Kozo Yamamura, «The Sengoku Daimyo and the Kandaka System,» in: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), p. 27

كل من **نوبوناغا** و**هيدي ـ يوشي** إلى القضاء على سينغوكو ـ دايميو أو التخلص منهم لأسباب كثيرة، أهمها أن هؤلاء أصبحوا عنصراً ضرورياً لإدارة الأقاليم يصعب الاستغناء عنهم أو إيجاد بديل يعوضهم. ومن الأكيد أن حروب التوحيد أدت إلى القضاء على بعض أُسر سينغوكو ـ دايميو، غير أنه سرعان ما كان يجري تعويضها بأُسر أخرى أكثر ولاء للنظام المستحدث. إذ كان المطلب الأول والأخير هو الولاء لممثل الحكم المركزي. وهكذا وضع **هيدي ـ يوشي** الأسس والإجراءات التي تضبط علاقة الولاء هاته، وتضيق حدود الاستقلال الذاتي الذي تمتع به هؤلاء الدايميو ردحاً من الزمن. وقد سبقت الإشارة في فصل توحيد اليابان إلى هذه الإجراءات التي تمثلت في أداء الولاء لـ **هيدي ـ يوشي**، وترك رهائن لديه، والخضوع لإجراء النقل وحتى الإعفاء عند الاقتضاء. ولعل عملية المسح العام للأراضي التي أمر بها تايكو كينتشي، كانت أهم إجراء في سبيل ضبط الدايميو ومعرفة مداخيلهم بدقة، بحيث أضحت نتائجها معياراً تقدر به الكلف والمساهمات العسكرية المفروضة عليهم؛ إذ كان غزو كوريا تطبيقاً عملياً في هذا الشأن.

تعتبر معركة **سيكي ـ غاهارا** (١٦٠٠) معلماً بارزاً في تاريخ اليابان؛ فبها تنتهي رسمياً فترة الحرب الأهلية (سينغوكو جيداي) ويبتدئ عصر **توكوغاوا** أو الفترة الحديثة. وقد كانت حاسمة أيضاً في تاريخ سينغوكو ـ دايميو، فبعدها تحول من بقي من الدايميو يتمتع باستقلال ذاتي إلى مجرد أتباع خاضعين للشجون. كانت المعركة بين **توكوغاوا إياسو** ومن ناصروه من الدايميو من جهة، والدايميو المناصرين لـ **تويوتومي هيدي ـ يوري** أو الراغبين في التخلص من التبعية للحكم المركزي، من جهة أخرى. وكان طبيعياً بعد انتصار **إياسو** في المعركة، أن يميز في تعامله بين من وقفوا إلى جانبه منذ البداية ومن عارضوه وخضعوا له إكراهاً بحد السيف. وكما سبقت الإشارة، كانت هذه الفئة الأخيرة عرضة للإقصاء أو مصادرة قسط كبير من أراضيها. وللتذكير، فقد جرى القضاء نهائياً على زهاء ٩٠ أُسرة من أُسر الدايميو وتوزيع أراضيهم على الأتباع المخلصين لأُسرة **توكوغاوا**، كما جرى تقزيم مناطق نفوذ من تم الإبقاء عليهم. هذا بالإضافة إلى عملية النقل التي طالت الكثير من هؤلاء المعارضين، والتي كان القصد منها إضعافهم وتحجيم نفوذهم.

كان من نتائج معركة **سيكي ـ غاهارا** أن أعيد ترتيب الدايميو، ليس بحسب نفوذهم وقوتهم العسكرية أو قيمة الأراضي التي يتصرفون بها، لكن بحسب

الموقف الذي اتخذوه من المعركة وموقعهم فيها، ودرجة ولائهم لأُسرة **توكوغاوا**، وصلة القرابة التي تربطهم بالفرع الحاكم منها. وهكذا جرى تصنيف الدايميو ضمن ثلاث فئات: شيمبان (Shimpan)؛ وفوداي (Fudai)؛ وتوزاما (Tozama). وهو تصنيف ليس بالمستحدث أو من ابتكار **إياسو**، ذلك أن سينغوكو ـ دايميو دأبوا على تصنيف أتباعهم الساموراي على نحو قريب، وباستعمال المصطلحات ذاتها تقريباً. وما يجب تأكيده هنا هو أن هذا التصنيف لم يكن يعني التخلي عن المعايير السالفة؛ إذ ظلت نتائج المسح العام (تايكو كينتشي) معمولاً بها في تحديد الكلف والمساهمات العسكرية طوال عصر **توكوغاوا**. كما كانت معتبرة في إعادة توزيع الأراضي إثر عمليات المصادرة التي استمرت طوال القرن السابع عشر، ذلك بأنها كانت أجود الأراضي وأكثرها إنتاجاً وأحسنها موقعاً (أو ذات الموقع الإستراتيجي) تخصص للمقربين من أُسرة **توكوغاوا** أو يحتفظ بها الشجون.

١ ـ شيمبان[٩]

يدرج في فئة شيمبان كل الدايميو المتحدرين من سلالة **توكوغاوا إياسو**. وقد كان عدد هؤلاء في البداية محصوراً في خمسة من أبناء **إياسو** الذين مُنحوا إقطاعيات (هانات) تعويضاً على حرمانهم من ولاية العهد، غير أن عددهم زاد طوال عصر **توكوغاوا** إلى أن بلغ ٢٠ دايميو. ذلك أن الشجون الذين خلفوا عدداً من الأبناء، كانوا يمنحون البعض منهم هانات على النهج ذاته الذي سلكه **إياسو**. ولم تكن أُسر الدايميو هاته تعامَل على قدم المساواة، فأُسر بعينها هي التي كان من حقها تزويد الشجونة بولي للعهد في حال انعدام وريث من صلب الشجون أو قريب (أخ أو عم. . .) يخلفه. وقد تعلق الأمر، عند وفاة إياسو، بثلاث أُسر كانت تعرف بغوسانكي (Gosanke)[١٠]، ثم أُضيفت إليها ثلاث أُسر

(٩) يتكون مصطلح شيمبان من مقطعين: «شين» (Shin) ويعني ذوي القرابة، و«هان». تحولت الهاء إلى باء مشددة عند الإدغام. وهو ما يمكن ترجمته بـ «هان» (ذوي القرابة). انظر مادة: «Shimpan,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 108.

(١٠) سبقت الإشارة إلى أبناء إياسو الذين كان من حق أحفادهم تولّي عرش الشجون في حال عدم وجود وريث من سلالة هيدي ـ داتا، وإلى أن الأمر يتعلق بثلاثة من أبناء إياسو، وهم، للتذكير ثانية، توكوغاوا يوشي ـ ناؤو (Tokugawa Yohinao) (١٦٠٠ ـ ١٦٥٠)، الذي أصبح دايميو على إقليم أواري، واستمرت أُسرته هناك، وتوكوغاوا يوري ـ نوبو (Tokugawa Yorinobu) (١٦٠٢ ـ ١٦٧١)، الذي عيّن دايميو على إقليم كيئي (Kii)، وتوكوغاوا يوري-فوسا (Tokugawa Yorifusa) (١٦٠٣ ـ ١٦٦١)، الذي عيّن دايميو على إقليم ميتو (Mito).

أخرى في القرن الثامن عشر كانت تعرف بغوسانكيو (Gosankyō)[١١]. وعموماً، كان هؤلاء الدايميو في مجموعهم يستمدون مكانتهم العليا وتشريفهم على باقي الدايميو بسبب صلة القرابة مع الشجون وتحدرهم من مؤسس الأُسرة، وأيضاً من قيمة الأرض المقطعة لهم، وقوة الساموراي الخاضعين لهم. مع الإشارة هنا إلى أن الأراضي المقطعة لهم لم تكن متساوية، فهناك، أُسر كان يفوق إنتاج أراضيها ٥٠٠ ألف كوكو/أرز، مثل الأُسرة القائمة على هان أواري (Owari)، بينما كان إنتاج أخرى يقل عن ٥٠ ألف كوكو/أرز. وعموماً كان مجموع إنتاج الأراضي الواقعة تحت نفوذ هذه الفئة من الدايميو يقدر في نهاية القرن الثامن عشر بـ ٢,٧ مليون كوكو/أرز. وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنه رغم المكانة المتميزة التي كان هؤلاء الدايميو يحظون بها، فإن تدخلهم في سياسة الشجونة وإدارتها كان محدوداً، ذلك أن الشجون كانوا يعتمدون في تدبير أمور دولتهم على فئة فوداي وأتباعهم المباشرين (هاتاموتو)، كما أُشير في فصل سابق.

٢ ـ فوداي

يدخل ضمن هذه الفئة أولئك الدايميو الذين وقفوا في صف إياسو في أثناء معركة **سيكي ـ غاهارا**، وكذا أولئك المخلصون من الساموراي الأتباع الذين جرت ترقيتهم إلى مرتبة دايميو، ومُنحوا هانات الأُسر التي أُقصيت أو الأراضي التي خضعت للمصادرة. وعموماً، كان مصطلح فوداي شائعاً منذ عصر **موروماتشي** للدلالة على أُسر الأتباع المقربين الذين كان من حقهم توريث المكانة التي استحقوها لأبنائهم ـ وهو ما يطابق المراد بالمصطلح من الناحية اللغوية[١٢]. وقد استعمله إياسو، قبل أن يصبح شجوناً، وكذا غيره مثل سينغوكو دايميو للتمييز بين أتباعهم.

لم يكن عدد هؤلاء خلال عصر **توكوغاوا** ثابتاً؛ إذ كان في مطلع القرن السابع عشر ـ بعد معركة **سيكي ـ غاهارا** ـ في حدود ٨٠ دايميو، ثم تزايد

(١١) أُضيفت في عهد الشجون الثامن يوشي- موني، أُسر أخرى تتمتع بالامتيازات ذاتها التي تتمتع بها سلالات أبناء إياسو المشار إليهم في الهامش السابق. وقد تعلق الأمر بأبناء ليوشي ـ موني من محظيات أو زوجات من الدرجة الثانية. وقد سار على نهجه بعض الشجون ممن جاؤوا بعده. انظر: «Gosankyō,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 47.

(١٢) تعني مفردة فوداي حرفياً «تتابع الأجيال»، ومنه اشتق مصطلح فوداي الذي يعني أُسر الأتباع التي تورث مراتبها لأبنائها. انظر: C. Totman, «Fudai,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 340.

طوال هذا القرن على حساب توزاما دايميو إلى أن بلغ في نهاية القرن الثامن عشر ١٤٥ دايميو. ورغم هذه الكثرة العددية، فإن أغلبيتهم كانت من بين صغار الدايميو الذين يتراوح إنتاج أراضيهم بين ١٠آلاف و٥٠ ألف كوكو/أرز. وعلى أي حال، لم تكن إقطاعية أكبر أُسرة من هذه الفئة تنتج أكثر من ٣٠٠ ألف كوكو/أرز، بينما كان مجموع الفئة يقتسم أراضي تنتج زهاء ٦ ملايين كوكو/أرز. والسبب الراجح هو أن شجون القرن السابع عشر كانوا، عند إعادة توزيع الأراضي المصادرة، يحرصون على إبقاء الدايميو الجدد في حدود اقتصادية متواضعة. وكما سبق الذكر في فصل سابق، كان فوداي دايميو أكثر الدايميو تعاوناً مع أُسرة **توكوغاوا** وإخلاصاً لها؛ فقد كان الشجون يأتمنونهم على أكبر الوظائف الإدارية والاستشارية للشجونة، فمنهم كانوا يختارون أعضاء المجلسين الاستشاريين، ومنهم يصطفون كبار الموظفين والقادة العسكريين. وعلى أي حال، كان ولاء فوداي دايميو لأُسرة توكوغاوا مأموناً، فهم مدينون في وجودهم وبقائهم لها ولاستمرارها في السلطة.

٣ ـ توزاما

تتشكل هذه الفئة الأخيرة من الدايميو من الذين لم يعلنوا ولاءهم لأُسرة **توكوغاوا** إلا في وقت متأخر، أي بعد أن تحققت هيمنتها وحصل مؤسسها على لقب الشجون. وعموماً يتحدر جُل هذه الفئة من أُسر عريقة نسبياً حققت مكتسباتها إبان الحرب الأهلية، حيث لم تكن مدينة لأحد في ما وصلت إليه من نفوذ في مناطقها. وحتى الأُسر التي صعدت مؤخراً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، كانت مدينة في وصولها إما لـ **أودا نوبوناغا** وإما لـ **تويوتومي هيدي ـ يوشي**، وليس لـ **توكوغاوا إياسو** وخَلَفه. أما استعمال شجون **توكوغاوا** مصطلح توزاما لوصف هذه الفئة، فيحمل دلالة تاريخية؛ إذ استُعمل في عصر **كاماكورا** لتمييز أُسر الساموراي الدخيلة أو الحديثة الولاء؛ فـ توزاما مفردة تعني لغة الأتباع الدخلاء (Outside Vassals)(١٣). وقد كان عدد هؤلاء الدايميو عقب معركة **سيكي ـ غاهارا** ١١٧ دايميو، ثم تناقص في عصر **توكوغاوا** إلى أن وصل إلى ٩٨ دايميو في نهاية القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من سياسة المصادرة والإقصاء التي اتبعها شجون القرن السابع عشر تجاه توزاما دايميو، فإن أُسراً

---

(١٣) C. Totman, «Tozama,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 97.

كثيرة ظلت محتفظة بقوتها ونفوذها وتحكّمها في مواقع استراتيجية، حيث كان يستحيل التخلص منها (انظر الجدول الرقم (٥ ـ ١) والخريطة الرقم (٥ ـ ١)). ففي نهاية عصر توكوغاوا، كان دايميو هذه الفئة ما زالوا يسيطرون على أراض ينوف إنتاجها على ٩ ملايين كوكو/أرز. كما أن أكبر أُسرة من الدايميو، من حيث القدرة الاقتصادية، كانت واحدة من فئة توزاما، وهي أُسرة مائيدا التي كان إنتاج أراضيها يفوق مليون كوكو/أرز، وترتب مباشرة بعد الفرع الحاكم من أُسرة توكوغاوا (انظر الجدول الرقم (٥ ـ ٢)).

كان الشجون يتوجسون خيفة من هؤلاء الدايميو ويساورهم الشك في ولائهم، لذا لجأوا إلى اتخاذ إجراءات المراقبة، وبث العيون لرصد تحركاتهم، وإرغامهم على قضاء فترة في العاصمة، وترك رهائن لدى الشجون حتى يأمنوا جانبهم. وفي المقابل، كان البعض من هؤلاء يعتبرون أنفسهم أنداداً للشجون، ويتحينون الفرصة ليتخلصوا من الخضوع للحكم المركزي الذي استبدت به أُسرة توكوغاوا. فحسب ما أورده أحد الباحثين، كان كبار مستشاري دايميو **تشوشو** عندما يحضرون لتهنئته بمناسبة رأس السنة، يسألونه سؤالاً روتينياً: «هل آن الأوان للبدء في القضاء على الباكوفو» [أُسرة توكوغاوا]، فيتلقون جواباً شبه طقسي: ما زال الوقت مبكراً، لم يحن الوقت بعد»[١٤]. وواقع الأمر أن هذا الوقت لم يحن إلا عند اشتداد الأزمة في خمسينيات القرن التاسع عشر، حيث كانت أُسرة **تشوشو** في طليعة الأُسر التي أطاحت شجونة **توكوغاوا**.

الجدول الرقم (٥ ـ ١)

أهم أُسر الدايميو في منتصف القرن السابع عشر، مرتبة بحسب إنتاج أراضيها

أُسرة الدايميو	الفئة	اسم الهان	الإنتاج بـ كوكو/أرز
مائيدا	توزاما	كانازاوا	١,٠٢٢,٧٠٠
شيمازو	توزاما	ساتسوما	٧٢٨,٠٠٠
داتي	توزاما	سينداي	٦٢٥,٦٠٠
توكوغاوا	شيمبان	أواري	٦١٩,٥٠٠

يتبــــع

(١٤) ورد هــذا الاســتــشــهــاد في: Maurice B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 38.

تابـــع

توكوغاوا	شيمبان	كيئي	٥٥٥,٠٠٠
هوسوكاوا	توزاما	كوماموتو	٥٤٠,٠٠٠
ماتسودايرا	شيمبان	إيتشزين	٤٤٧,٠٠٠
كورودا	توزاما	فوكوأوكا	٤٣٠,٠٠٠
أسانو	توزاما	أكي	٤٢٦,٠٠٠
موري	توزاما	تشوشو	٣٦٩,٠٠٠
نابيشيما	توزاما	ساغا	٣٥٧,٠٠٠
تودو	توزاما	أنوتسو	٣٢٣,٩٠٠
إيكيدا	توزاما	توطوري	٣٢٠,٠٠٠
إيكيدا	توزاما	أوكاياما	٣١٥,٠٠٠
إئي	فوداي	هيكوني	٣٠٠,٠٠٠

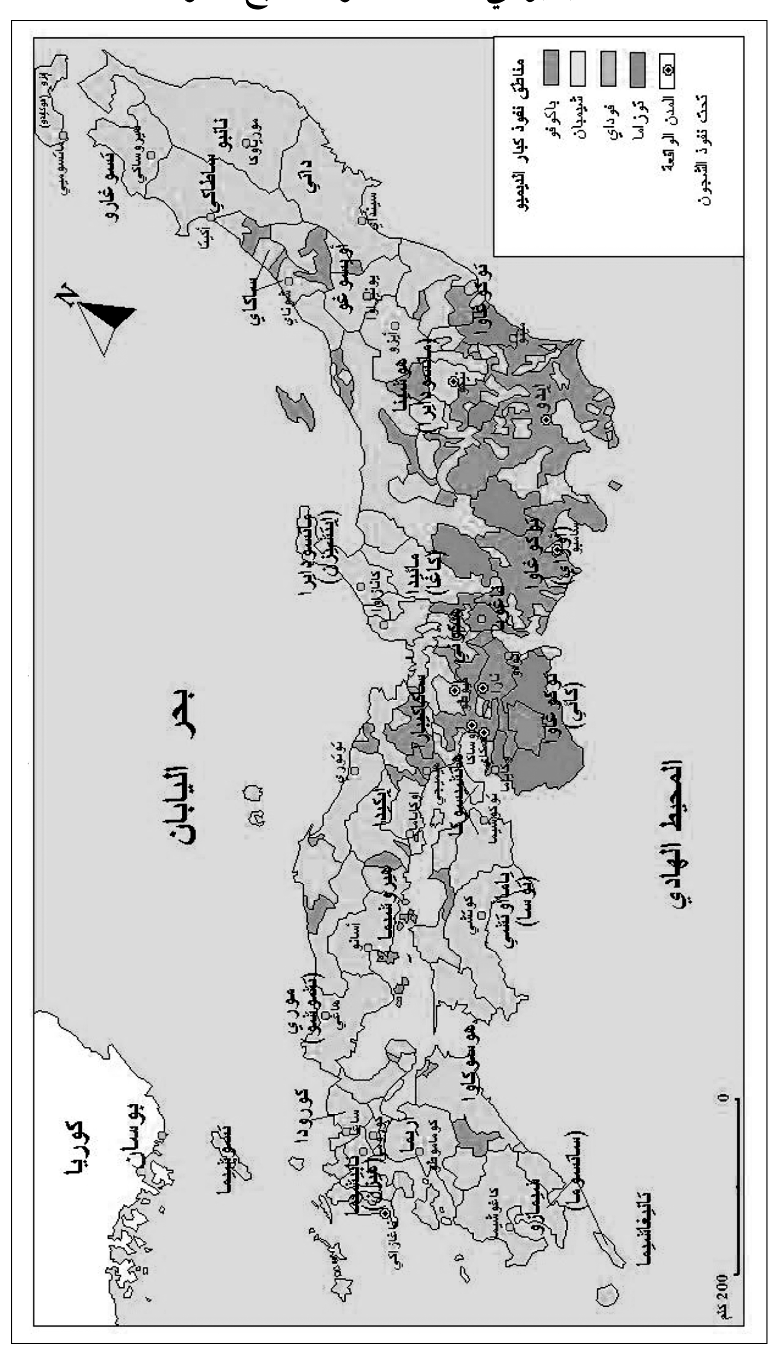
المصـــدر: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, p. 62.

الجدول الرقم (٥ ـ ٢)
توزيع الأراضي بحسب مختلف الفئات

الفئة	إنتاج الأرض مقدر بـ كوكو/ أرز
الأُسرة الإمبراطورية	١٤١,١٥١
أُسرة توكوغاوا (الفرع الحاكم):	
● الأراضي التي تديرها مباشرة (تينريو)	٤,٢١٣,١٧١
● الأراضي المقطعة للهاتاموتو	٢,٦٠٦,٥٤٥
شيمبان دايمو	٢,٧٠٠,٠٠٠
فوداي دايميو	٦,٦٢٥,٠٠٠
توزاما دايميو	٩,٨٣٤,٧٠٠
المعابد والمزارات	٣١٦,٣٢٠

المصـــدر: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 152.

الخريطة الرقم (٥ ـ ١)
مجالات الدايميو في منتصف القرن السابع عشر (١٦٦٤)



ثانياً: مؤسسة الهان

الهان (Han) هو المصطلح الذي شاع أخيراً في الكتابات التاريخية وفي غيرها لتعريف مجال نفوذ الدايميو (Daimyo Domain). وهو حديث الاستعمال نسبياً؛ إذ لم يظهر في اليابان إلا في القرن الثامن عشر، ولم يؤخذ به في الكتابات الرسمية إلا بعد إصلاحات الميجي[١٥]. أما خلال عصر **توكوغاوا**، فكان مجال الدايميو يُعرف بريوبون (Ryobun)، وهو مصطلح لا يقتصر على المجال الجغرافي فحسب، بل يشمل أيضاً البنية الإدارية والعسكرية والجبائية التي يرأسها الدايميو[١٦].

كان عدد الهان في مطلع القرن السابع عشر ١٨٥ هاناً، ثم ارتفع في نهايته إلى ٢٤٣ ليستقر خلال القرن الثامن عشر وإلى نهاية عصر توكوغاوا في حدود ٢٦٠ هاناً. ولم تكن هذه الهانات متساوية، سواء من حيث المساحة أو المردودية الجبائية أو الإمكانات الاقتصادية. فإن أخذنا المعيار الرسمي (أموتيداكا Omotedaka)[١٧]، الذي على أساسه تحدد الكلف التي يفرضها الشجون على الدايميو، نجد اختلافاً بيّناً بل شاسعاً بين الهانات، فهناك تلك التي يفوق إنتاجها المليون كوكو/أرز، أو نحو ذلك، في حين ينحصر إنتاج أخرى في ١٠ آلاف كوكو. غير أن هذا البون الشاسع بين طرفي النقيض، لا يعكس اختلافاً كبيراً بين الهانات في مجملها، فـ ١٠ بالمئة منها هي التي يزيد إنتاجها على ٢٠٠ ألف كوكو، بينما كان المعدل العام للباقي هو في حدود ٥٠ ألف كوكو. كما يضاف إلى الفارق في المساحة، الاختلاف في الإمكانات الاقتصادية الحقيقية لكل هان، والتي لا تظهر كاملة في الإحصاءات الرسمية؛ فهناك هانات تتمتع بمواقع جغرافية متميزة، وبمصادر متنوعة من زراعات تسويقية وموارد غابوية ومعدنية وغيرها، بيد أن البعض منها يكاد يقتصر اقتصادها على منتوج الأرز وحده. وبغض النظر عن هذا العامل الأخير، يمكن تقسيم الهانات من المنظور الرسمي (أو التقدير الجبائي) إلى هانات كبرى ومتوسطة وصغرى، حسب ما هو مبين في الجدول الرقم (٥ ـ ٣):

---

(١٥) الهان مصطلح صيني الأصل، استُعمل في الألفية الأولى قبل الميلاد في عصر دولة تشو (١٠٢٧ ق.م-٢٥٦ ق.م.). انظر: Harold Bolitho, «Han,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 92.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) «أوموتيداكا» هو السجل الرسمي المبني على الإحصاء الرسمي في عصر توكوغاوا الذي يضم مداخيل الأراضي، سواء التابعة للدايميو أو تلك الخاضعة للشجون مباشرة. انظر: C. Totman, «Omotedaka,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 103.

الجدول الرقم (٥ ـ ٣)

توزيع الهانات بحسب إنتاجها الرسمي

الفئة	العدد (عام ١٦١٤)	العدد (عام ١٧٣٢)
هانات كبرى يفوق إنتاجها ٢٠٠,٠٠٠ كوكو/ أرز	٢٦	٢٠
هانات متوسطة يتراوح إنتاجها ما بين ٥٠,٠٠٠ و٢٠٠,٠٠٠ كوكو/ أرز	٤٨	٧٨
هانات صغرى يقل إنتاجها عن ٥٠,٠٠٠ كوكو/ أرز	١١٧	١٦١
المجموع	**١٩١**	**٢٥٩**

المصدر: Harold Bolitho, «The Han,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4.

ولعل الاختلاف الأهم بين الهانات يكمن في تاريخ ظهورها، والفئة التي يصنَّف فيها الدايميو القائمون عليها. ذلك أن الهانات التي أُنشئت خلال عهد الدويلات المتحاربة أو في النصف الثاني من القرن السادس عشر، والتي ظلت بعد معركة **سيكي ـ غاهارا**، سواء بيد توزاما دايميو أو الدايميو الذين ساندوا إياسو، كانت تتمتع بتقاليد إدارية وقوانين قائمة ومواقع استراتيجية ومساحات كبيرة، كما هو واضح في الجداول والخريطة. كما أن أُسر الدايميو المهيمنة عليها كانت مترسخة في مناطق نفوذها، وعلاقاتها وطيدة مع أتباعها الساموراي، وتتمتع باستقلال أكبر في تعاملها مع أُسرة **توكوغاوا** التي لم تكن مدينة لها في وجودها. وذلك على النقيض من الهانات المستحدثة في القرن السابع عشر، والتي كانت في مجملها صغيرة المساحة وغير ذات أهمية استراتيجية، من غير تلك التي تخدم مصلحة الحكم المركزي، في حين كان الدايميو المعيَّنون عليها تابعين بصورة أكبر للشجون وأكثر عرضة للنقل والإقالة، كما كان موقعهم في مناطق نفوذهم أقل ترسخاً من مواقع نظرائهم ـ توزاما دايميو ـ ذوي التاريخ الطويل والصلة الوثيقة بالمجال الذي يتحركون فيه(١٨).

ثالثاً: الساموراي والتسيير الذاتي للهان

كان هناك شرطان ضروريان كي يحمل مجال ما صفة الهان: الشرط **الأول** هو أن يتجاوز إنتاجه ١٠ آلاف كوكو، **والثاني** هو أن يحصل الدايميو على وثيقة

(١٨) George Bailey Sansom, *A History of Japan, 1615-1867* (Tokyo: Tuttle, 1990), pp. 46-47.

رسمية من الشجون تعترف به وبمجاله. ففي عام ١٦١٧، أي بعيد سقوط قلعة **أوساكا**، حصل كل الدايميو الموجودين آنئذ على وثيقة من الشجون ممهورة بخاتمه القرمزي، يحدد فيها المجال الجغرافي والقرى المكونة له وطاقته الإنتاجية[١٩]. كانت هذه الوثيقة ضرورية، بل أساسية، بالنسبة إلى الدايميو الجدد والهانات المستحدثة في القرن السابع عشر؛ فهي بمثابة شهادة ميلاد للهانات الجديدة، وورقة اعتماد للدايميو المعيَّنين عليها، في حين لم تكن تعني الشيء الكثير بالنسبة إلى أصحاب الهانات المنشأة قبل صعود أُسرة **توكوغاوا**، فهي تحصيل حاصل أو اعتراف بما هو موجود فعلاً. ومع ذلك، استقبل هؤلاء الدايميو القدامى وثيقة الاعتراف بالهان وصاحبه بحذر، فهي وإن كانت تعترف بهم وبمجالهم، فهي تحمل في الوقت ذاته تهديداً مبطناً، فمانح العطاء يمكن أن يسحب عطاءه في أي وقت شاء[٢٠]. وهذا ما حدث فعلاً في عمليات المصادرة التي طاولت أملاك هؤلاء الدايميو في القرن السابع عشر. وقد كانت هذه الوثيقة ذات بعد آخر، فهي تستثني الإقطاعيات التي كان الدايميو ذوو الأراضي الشاسعة يقطعونها لأتباعهم بشروط لا تختلف كثيراً عن تلك التي يمليها الشجون على الدايميو، وهي إقطاعات كانت طاقتها الإنتاجية تفوق ١٠ آلاف كوكو أحياناً.

كان الدايميو، سواء القدامى منهم أو الجدد، يتمتعون باستقلال كبير في تدبير أمور سكان هاناتهم، واستخلاص الجباية منهم، وإخضاعهم للقوانين التي يضعونها أو يرونها صالحة لمجالهم. وكما سبقت الإشارة، يصعب استخلاص نموذج موحد للكيفية التي كانت تسير بها الهانات لاعتبارات عدة لا حاجة إلى تكرار ذكرها، غير أن من الممكن تأكيد بعض السمات المشتركة التي هي أساس البنية الفيودالية، سواء على الصعيد المركزي أو على الصعيد المحلي. وأولى هذه السمات، حق وراثة المنصب أو الوظيفة. وهكذا كان منصب الدايميو منصباً وراثياً من حق أُسرته الاحتفاظ به ما دام هناك وريث يقوم بالأمر. ومعلوم لدينا، أنه كان من حق الشجون استعادة الهان في حال انعدام وريث من صلب الدايميو أو بالتبنّي، غير أنه جرى التساهل في مسألة التبنّي ابتداء من النصف الثاني للقرن السابع عشر، حيث أصبح في الإمكان الاعتراف بالتبنّي الذي يحدث في آخر لحظة وصاحب الأمر على فراش الموت. وقد جنّب ذلك عدداً من أُسر

(١٩) Harold Bolitho, «The Han,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 193.

(٢٠) المصدر نفسه.

الدايميو من الوقوع تحت طائلة الإقصاء. وكما كان منصب الدايميو وراثياً، كذلك كانت مختلف الوظائف التي يسندها الدايميو لأتباعه والتي تبقى وراثية في الأُسرة القائمة بها لأجيال، ولا تنزع منها إلا في الحال التي ينعدم فيها الوريث أو تنقصه الكفاءة اللازمة للقيام بأعباء الوظيفة.

كان جُل الدايميو يحتفظون بأتباع من أُسر الساموراي التي تشكل، من جهة، قوتهم العسكرية المسموح لهم الاحتفاظ بها، وتزودهم من جهة أخرى، بالأطر الإدارية التي يكونون في حاجة إليها. فحسب قانون غون ـ ياكو (Gun-yaku)[٢١] المنظم للمساهمات العسكرية لكل هان، كان من واجب كل دايميو، مهما صغرت إمكانياته الاقتصادية، الاحتفاظ على الأقل بـ ٢٥٠ رجلاً من الساموراي يكونون في حال استعداد للعمل العسكري. غير أن سلطات الباكوفو لم تحدد، وعن قصد، سقفاً أو حداً أقصى لأعداد القوات العسكرية المخصصة لكل دايميو، أو كانت تغض الطرف عن التجاوزات الممكنة في هذا الشأن[٢٢]. وواقع الأمر أن كثرة الأتباع من الساموراي وما يساوقها من قوة عسكرية، كانت تتعلق أساساً بتاريخ أُسرة الدايميو ومدى تجدر علاقاتها بأتباعها؛ فمثلاً، كانت أُسرة **أويسوغي** (Uesugi) التي فقدت قسماً من مجال نفوذها، ترعى بأراضيها المتبقية قوات من الساموراي (قرابة ٨ آلاف محارب) تفوق أربع مرات حجم أُسرة في مثل إمكانياتها الاقتصادية التي كانت في حدود ١٥٠ ألف كوكو[٢٣].

كان الدايميو يعاملون أتباعهم الساموراي ويصنّفونهم على نحو قريب ممّا كان الشجون يفعلونه مع أتباعهم. ذلك أن الأتباع كانوا مرتبين في فئات بحسب قرابتهم من الدايميو ودرجة ولائهم له وأُسرته؛ فهناك فئة عليا مكونة من أقرباء الدايميو (كاشين Kashin)، تليها فئة الأتباع المقربين (فوداي)، وأخيرا فئة البعيدين (توزاما)[٢٤]. وقد كان من واجب الدايميو رعاية هذه الأُسر وتوفير معاشاتها، ومن ثم كانوا في البداية يقطعون لذوي قرابتهم والمقربين من أتباعهم

(٢١) مصطلح يُطلق على القوانين المنظمة للعلاقة بين الدايميو والشجون والمحدَّدة على أساسها مساهمة كل دايميو بعدد من المحاربين عندما يطلب الشجون ذلك. وقد صدر المرسوم الأول في عهد الشجون إياسو عام ١٦١٦، ثم صدر مرسومان في عهد الشجون الثالث إييميتسو في عامي ١٦٣٣ و١٦٤٩، انظر: «Gun-yaku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 69-70.

(٢٢) Bolitho, «The Han,» vol. 4, p. 219.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) Sansom, *A History of Japan, 1615-1867*, pp. 49-51.

أراضي يديرونها ويحصّلون جبايتها، بينما كانوا يخصصون لصغار الأتباع معاشات سنوية من الأرز.

كان المستفيدون من إقطاعات الدايميو يُعرفون في كثير من الهانات بتشيغيو ـ توري (Chigyo-tori)[٢٥]، حيث كانوا يتمتعون بحق التصرف في حدود معيّنة في الأراضي المُقْطعة لهم وتدبير أمور السكان القاطنين فيها. فمثلاً، كان من حقهم التقرير في شأن صنف المزروعات التي تستنبت في أراضيهم، والكيفية التي تستخلص بها الجباية من الفلاحين ونوعية أدائها، وكذا تحديد أعمال السخرة المفروضة عليهم (تنقية قنوات المياه وغيرها..، ومعاقبة المتأخرين عن أداء الجباية، وفض النزاعات). غير أن التجاوزات التي طبعت تصرفات البعض منهم، كانت تؤدي أحياناً إلى انتفاضة الفلاحين أو هجرهم لقراهم والعمل الزراعي، وهو ما دفع بالدايميو إلى التقليل تدريجياً من الأراضي المقطعة، والنزوع إلى تخصيص معاشات سنوية لجُل أتباعهم الساموراي. كما لجأوا، في الحالات التي تم فيها الإبقاء على تشيغيو ـ توري، إلى الحد من صلاحيات هؤلاء، حيث لم يعد من حقهم تحديد نسبة الجباية وفض النزاعات التي أصبحت من اختصاص قضاة يعيّنهم الدايميو. بدأت هذه الإصلاحات تطبق في كثير من الهانات في أواخر الأربعينيات من القرن السابع عشر؛ ففي عام ١٦٥٣، أصدرت سلطات الباكوفو أمراً للدايميو تحثهم فيه على إبعاد المقطع لهم عن الاتصال المباشر بالفلاحين، وتحديد مكان إقامتهم في القلاع بالقرب من الدايميو، وتخصيص معاش سنوي لهم عوض الإقطاع[٢٦].

وعموماً، اختار معظم الدايميو، في النهاية، نهج الإدارة المباشرة لمجال نفوذهم، وتحويل معظم الساموراي إلى مجرد أتباع يحصلون على معاش من مالية الدايميو. وحسب بعض التقديرات، كانت نسبة الأراضي التي تخضع لإدارة تشيغيو ـ توري في مجموع التراب الياباني أقل من ٢٥ بالمئة[٢٧].

ويرى أحد الباحثين اليابانيين أن التطور الذي انتهت مؤسسة الهان إليه في نهاية القرن السابع عشر هو تعبير عن نضج هذه المؤسسة؛ ذلك أن سينغوكو

---

(٢٥) مصطلح تشيغيو قديم الاستعمال في تاريخ اليابان؛ إذ يعود إلى عصر هييان. انظر: «Chigyo-Tori,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 274.

(٢٦) Sansom, Ibid., p. 51.

(٢٧) John Whitney Hall, «Introduction,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 15-16.

دايميو (في عهد الدويلات المتحاربة) غالباً ما كانوا يعتمدون في إدارة مناطق نفوذهم على أتباعهم عبر إقطاع أراض لهم، وأن هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم في مرتبة لا تقل كثيراً عن سادتهم الدايميو. وقد كان في ذلك مصدراً لانعدام الاستقرار السياسي داخل الهان. وبالتخلي عن هذا النهج، تكون مؤسسة الهان قد حققت نوعاً من المركزية، وتوحيد معايير التعامل مع الفلاحين الخاضعين لسلطة الدايميو، وكذا إخضاع الساموراي لسلطة قوية(٢٨).

وفي مقابل هذه الفئة التي تناقصت أعدادها بشكل كبير خلال عصر **توكوغاوا**، كان معظم الساموراي يتلقون راتباً سنوياً من الدايميو يُعرف بكيريماي (Kirimai) وكان المستفيدون منه يُعرفون بكيريماي ـ توري(٢٩). وقد كان هذا الراتب يختلف بحسب مكانة أُسرة الساموراي والوظيفة التي تشغلها في الهان، وأيضا بحسب مكانة الدايميو وإمكانياتهم الاقتصادية. فمثلاً، كان راتب وظيفة مستشار لدى دايميو متوسط الدخل ـ وهي أعلى وظيفة في الهان ـ لا يقل عن ٢٥٠ كوكو/أرز، وراتب الوظائف المتوسطة يتراوح بين ٧٠ و١٢٠ كوكو، بينما كان راتب أصغرها في حدود ٣ كوكو سنوياً(٣٠). ونرى ضرورياً التذكير بعنصر سبقت الإشارة إليه في فصل سابق، وهي أن التأهيل للوظيفة لم يكن متعلقاً بالكفاءة الفردية أو الاستحقاق بقدر ما كان متعلقاً بوضعية أُسرة الساموراي ومكانتها (أو بالمولد)؛ ومن ثم كان اختيار الموظف وتحديد راتبه، يتعلقان بالفئة التي ترتب فيها أُسرة الساموراي وقدر الراتب الذي تتلقاه فعلاً من الدايميو.

وعموماً، كانت الوظائف العليا مقصورة على أُسر بعينها تتوارثها لأجيال؛ فمثلاً كانت الأُسر التي تحتل مناصب الاستشارة تسعى إلى تعليم أبنائها وتوريثهم معارفها واختيار الأفضل منهم ليتولى المناصب المسندة إليها(٣١). ومع انتشار التعليم، أضحى مبدأ الكفاءة والاستحقاق مطروحاً، حيث بدأ بعض الكتّاب ينتقدون الاعتماد على المولد كأساس للتعيين في الوظائف، إذ رأوا في ذلك هدراً

---

(٢٨) انظر في هذا الشأن، المقال المتميز للباحث الياباني «ساساكي جينوسوكي»: Sasaki Junnosuke with R. P. Toby, «The Changing Rationale of Daimyo Control in the Emergence of the Bakuhan State,» in: Hall, Keiji and Yamamura, *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650*, pp. 271-294.

(٢٩) Sansom, *A History of Japan, 1615-1867*, p. 50.

(٣٠) Harold Bolitho, «The Han,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 231.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

للكفاءات وإسناداً للمسؤولية إلى غير مستحقيها(٣٢). والملاحظ، أن بعض الدايميو كانوا يتحايلون أحياناً لتعيين أشخاص بعينهم ـ ممن تتوافر فيهم الكفاءة ـ في وظائف عليا، وذلك بالرفع من دخل أُسرهم لتتناسب مع الراتب المخصص للوظيفة ومكانة القائم بها(٣٣).

في نهاية القرن السابع عشر، وصل جُل الهانات إلى تحقيق صيغة من الاستمرارية ـ سواء استمرار المجال أو استمرار أُسرة الدايميو ـ والاستقرار السياسي والضبط الإداري. فبعد عمليات مصادرة الأراضي والنقل التي استمرت طوال القرن، أصبح معظم الدايميو مطمئنين إلى مناطق نفوذهم يتمتعون بسلطة كبرى على أتباعهم. وهكذا لم يعد الدايميو مهددين سواء من سلطات الباكوفو أو من أتباعهم الذين تحولوا إلى مجرد أُجراء في خدمتهم بعد أن كانوا في فترة ما أنداداً لهم. ومع ذلك، لم يخل المشهد السياسي للهان، طوال عصر **توكوغاوا**، من صراعات بين أفراد أُسرة الدايميو أنفسهم وبينهم وأتباعهم، خاصة تلك الصراعات التي كانت تنجم عن وقوع فراغ في السلطة بموت الدايميو أو ضعفهم. فهناك حكايات كثيرة عن تنافس الإخوة، والصراعات بين الأب والابن، والعم وابن أخيه، والتي كانت تتخللها المؤامرات والدسائس وحتى القتل والاغتيال، وهو ما زود مسرح الكابوكي بمادة دسمة كانت تترجم إلى مسرحيات يُقبل على مشاهدتها الناس. وعموماً كان الدايميو مضطرين إلى إشراك أتباعهم في السلطة واتخاذ القرار بعد أن أصبحوا ملزمين بقضاء فترة من العام في العاصمة إيدو، والتغيب عن مجال نفوهم.

رابعاً: الفلاحون والتسيير الذاتي للقرى

لم يشكّل الساموراي بين سكان الهان سوى نسبة لا تتعدى ٥ أو ٦ بالمئة، بينما كانت الأغلبية مكونة من الفلاحين وأقلية أخرى من الحرفيين والتجار والصنّاع. وقد سبق شرح أوضاع الفلاحين العامة بتفصيل في فصل سابق. وما نضيفه هنا هو مساهمة الفلاحين في إدارة قراهم، التي كانت من نتائج

---

(٣٢) بهذا الشأن، انظر: Ronald Philip Dore, *Education in Tokugawa Japan* (Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1984) esp. chap. entitled: «Merit Society Versus Hereditary Society», pp. 193-199.

وعلى أيٍّ حال، فقد سبقت مناقشة هذه الفكرة في الفصل السابق.

(٣٣) Bolitho, «The Han,» vol. 4, p. 232.

الإجراءات والقرارات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** في نهاية القرن السادس عشر. فمن الأهداف التي سعى **هيدي ـ يوشي** إلى تحقيقها من وراء المسح العام للأراضي، تحقيق الهيمنة على مجموع التراب الياباني، ومعرفة الإمكانيات الاقتصادية لكل قطعة فيه، وكذا تحديد المسؤولية الجبائية. وكما سلف الذكر، كانت كل قطعة أرض زراعية تقيَّد في سجل الإحصاء باسم فلاح (رب أُسرة) يكون مسؤولاً عن أداء ما عليها من واجبات، كما اعتُبرت كل قرية مسؤولة عن أداء مجموع الجباية الواجبة في حق الفلاحين المنتمين إليها. غير أن تحديد المسؤولية الجبائية على هذا النحو، أحدث تغيراً جذرياً في طبيعة ملكية العقار وفي التسيير الذاتي للقرية. فمن جهة، كان في ظهور أسماء بعينها في سجلات الإحصاء تمييز لشريحة من الفلاحين تتمتع بصيغة من حق الملكية وتتحمل المسؤولية في القرية؛ ومن جهة أخرى، كان في اعتبار القرية وحدة جبائية إعطاء أهمية خاصة لهذه الوحدة في التراتب الإداري داخل الهان والأراضي التابعة للشجون مباشرة. فبعد أن جرى إبعاد الساموراي عن الاتصال المباشر بالفلاحين في منتصف القرن السابع عشر، ازدادت أهمية القرية (مورا Mura) بصفتها وحدة إدارية لا تنحصر واجباتها في جمع الجباية، بل تشمل أيضاً تدبير الحياة اليومية لساكنيها.

شكلت القرية (مورا) وحدة معترفاً بها في إدارة البوادي اليابانية طوال العصور التاريخية المعروفة؛ إذ يرجح ظهورها في القرن الرابع الميلادي، حيث استمرت كوحدة في التدبير المحلي إلى الفترة التي تعنينا[٣٤]. وقد كان عدد القرى في الفترة الأخيرة من عصر **توكوغاوا** زهاء ٦٣ ألف قرية، تختلف من حيث أعداد سكانها واتساع مجالها ونوعيته؛ فكانت هناك قرى السهول التي يشتغل أهاليها في الزراعة (نوسون N) أساساً، وقرى السفوح الجبلية التي يعتمد سكانها على النتاج الغابوي في المقام الأول (سانسون Sanson)، والقرى الساحلية التي يزاوج أهلها بين الصيد والزراعة (غيوسون Gyoson)[٣٥]. وفي ما يخص القرى الزراعية، كان المعدل العام لإنتاجها ٤٠٠ كوكو/أرز، ومتوسط عدد سكانها في حدود ٤٠٠ نسمة. هذا مع وجود قرى كبيرة يفوق إنتاجها ألف كوكو، وأخرى صغيرة ينزل إنتاجها إلى ٥٠ كوكو[٣٦].

---

(٣٤) انظر مادة: «Mura,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 5, p. 265.

(٣٥) Tsuneo Sato, «Tokugawa Villages and Agriculture,» in: [et al.], eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 37.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٥.

أشرنا إلى أن المسح العام للأراضي ميز شريحة من الفلاحين بوضع أسماء أفرادها قبالة قطع أرضية محددة المساحة والموقع والطاقة الإنتاجية. كان هؤلاء الفلاحون يُعرفون بهومبياكوشو (Hombyakushu)، وهم من يملكون ما يكفي من الأرض والأدوات الزراعية والدواب والحق في استغلال السفوح الجبلية المحاذية، ليجعل منهم وحدات إنتاج مستقلة ومكتفية بذاتها. وقد اعتبرت سلطات الباكوفو والهان هؤلاء مسؤولين عن الجباية وتدبير أمر قراهم، إثر قرارها بإبعاد الساموراي عن الفلاحين ومنعهم من التدخل المباشر في شؤونهم. وبموجب تعليمات من الشجون الثالث **إييميتسو**، كان على أعضاء هذه الشريحة من الفلاحين إنشاء هيئة أو لجنة مكلفة بالتسيير الذاتي للقرية، عُرفت بغونين ـ غومي (Gunin-gumi)، أو مجموعة خمسة أشخاص، وهي الهيئة التي أصبحت قسماً من الإدارة المحلية، سواء في الأراضي التابعة للشجون مباشرة أو تلك الخاضعة لحكم الدايميو. وقد كان الأصل فيها أن يتم اختيار ٥ أفراد من بين أهم أُسر هومبياكوشو، غير أن هذا العدد كان يزيد أو ينقص بحسب أهمية القرية، إذ من الممكن أن يصل إلى ١٢ فردا أو يقل عن ٣ أفراد[٣٧].

ومن هذه الهيئة ـ أو من عموم الأُسر الكبرى لشريحة هومبياكوشو ـ كان يجري اختيار رئيس للقرية (شيخ أو مقدم) يُعرف في بعض المناطق بنانوشي (Nanushi) ويُعرف في مناطق أخرى بشويا (Shõya)، تكون له الكلمة العليا في سياسة القرية وتدبيرها ويُعتبر المسؤول الأول عنها. وقد كان احتلال هذا المنصب يتم بطرق مختلفة، فإما أن يكون وراثياً في أكثر الأُسر نفوذاً، وإما أن تتناوب عليه ٣ أو ٤ أُسر تساعد شويا في مهمته؛ وكان يجري انتخابه في حالات قليلة. وعموماً كان المنصب وراثياً، تحتكره أُسرة بعينها لأجيال، كما هو شأن جُل الوظائف في جهاز الهان والباكوفو الإداري. وكيفما كان الأمر، كان لا بد من توافر شروط في «مقدم» القرية، منها المعرفة بالقراءة والكتابة، والإلمام بشؤون القرية، والتمتع باحترام سكانها[٣٨].

كانت المسؤوليات الملقاة على عاتق هيئة غونين ـ غومي و«مقدم» القرية (شويا أو نانوشي) كثيرة ومتنوعة؛ تتمثّل **أُولاها** في توزيع العبء الجبائي على الأُسر الخاضعة للضريبة حسب ما هو مسجل في حقها، والتأكد سنوياً من الأداء

(٣٧) انظر مادة: «Guningumi,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 45.

(٣٨) Sato, Ibid., pp. 54-55.

الكلي لما عليها من واجبات وكلف، وأنها على معرفة بالتعليمات الصادرة من سلطات الهان أو الباكوفو والالتزام بمقتضياتها. وتتمثّل **ثانيتها** في حفظ الأمن في القرية، وفض النزاعات التي قد تنشب بين أفرادها، ومراقبة سلوكهم، وتسجيل الوفيات والمواليد والزيجات والأُسر والأفراد الذين تتبناهم القرية، وباختصار، كل ما يتعلق بتدبير الحياة اليومية في القرية. وتتمثّل **ثالثتها** في الدفاع عن مصالح القرية إزاء القرى المجاورة، ورفع تظلماتها لسلطات الهان إن اقتضى الأمر ذلك. وتتمثّل **أخيراً** في رعاية معابد القرية ومزاراتها وتنظيم المواسم الدينية.

ويمكن القول إجمالاً إن المسؤولين عن القرية كانوا يقومون بالأعباء التي تقوم بها المجالس البلدية والقروية في كثير من البلدان اليوم[٣٩]. وللقيام بهذه الأعباء، كانت الأُسر الكبرى لهومبياكوشو تعقد اجتماعات دورية لمناقشة أهم القضايا التي تواجهها القرية، خاصة المتعلقة بنزاعات مع القرى المجاورة. كما كانت بعض القرى تضع قوانين داخلية (أعرافاً)، تكون أحياناً مكتوبة، يتعهد أفراد القرية بالالتزام بمقتضياتها؛ وفي حال خرقها، تصدر هيئة القرية في حق الأُسرة أو الفرد المنتهك للعرف عقوبات أقصاها النفي من القرية، في حين كانت أدناها والجاري بها العمل، تتمثّل في دفع غرامة مالية، أو تقديم هدايا من الأرز أو شراب الساكي إلى المعبد، أو القيام ببعض الأعمال لصالح القرية، كالحراسة الليلية وغيرها[٤٠].

كان أهم مشكل تواجهه القرى المعتمدة على إنتاج الأرز، هو مشكل مياه الري وتوزيعها بين القطع الزراعية في مجال القرية الواحدة، والقرى التي تشترك في مصدر مائي واحد. وللتغلب على النزاعات التي قد تحدث بسبب الماء، كان الفلاحون يشكّلون في ما بينهم جمعيات (تُعرف بـ ميزو ـ غومي Mizugumi) بغاية الإشراف على توزيع الماء على قطع الأرض بطريقة عادلة. كما كانت القرى الواقعة على مجرى مائي واحد تشكل لجاناً أو جمعيات للغرض ذاته، تضم أحياناً أكثر من ٥٠ قرية. وبديهي أن تنشب، في حال شح الأمطار ومياه الأنهار، نزاعات تصل أحياناً إلى حد التقاتل وسقوط الضحايا. وعموماً كانت النزاعات الصغرى تُحل على الصعيد المحلي، بينما كانت النزاعات الكبرى بشأن الماء

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٩، و Furushima Toshio, «The Village and Agriculture during the Edo Period,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*.

(٤٠) Sato, Ibid., pp. 51-53.

والحدود بين مجالات القرى والحق في استغلال الغابات، تبتّها سلطات الهان إن كانت القرى المعنية خاضعة للدايميو، أو سلطات الباكوفو إن كانت تحت سلطة الشجون مباشرة.

خامساً: مالية الهان

يتمثّل المصدر الأول لمالية الهان (أو الدايميو) في الجباية المفروضة على الأراضي الزراعية، سواء أكانت تنتج الأرز أو مزروعات أخرى، والتي كانت تشكل ما ينيف على ٨٠ بالمئة من المداخيل[٤١]، بينما تتمثّل النسبة المتبقية في الضرائب المختلفة المفروضة على النشاطات التي يقوم بها سكان الهان من الفلاحين والصيادين وغيرهم من حرفيي وتجار المراكز الحضرية. هذا إضافة إلى الكلف وأعمال السخرة التي يمكن احتسابها بمثابة ضرائب إضافية.

تُعرف الجباية المفروضة على الأراضي الزراعية بنينغو (Nengu)، أو ما يفيد الجزية أو الواجب السنوي، حيث كانت تجبى في موعد محدد من كل سنة، يحل فيه في كل قرية الموظف المكلف بالجباية (دايكان) وبيده سجل يتضمن التقديرات الجبائية والإحصاءات الخاصة بالقرى الواقعة تحت نفوذه. وفي الموعد نفسه يكون مسؤولو القرية قد جمعوا من الفلاحين نصيبهم في الجباية لتسليمها إلى دايكان مقابل إيصال يشهد ببراءة ذممهم.

كانت هذه التقديرات السنوية تقوم في البداية على أساس نتائج المسح الذي أُجري في نهاية القرن السادس، التي تحددت فيها الطاقة الإنتاجية لكل قطعة أرض بمعيار موحد (كوكو من الأرز أو ما يعرف بنظام كوكوداكا). غير أن معطيات هذا المسح كانت تتقادم بفعل توسع المساحات المزروعة. لذا، دأب الدايميو والشجون على القيام بعمليات مسح بين الفينة والأخرى لتحيين المعطيات السابقة. ولم تكن نسبة الجباية موحدة في كل الهانات، غير أنها كانت في مجملها مجحفة في حق الفلاحين؛ إذ كانت تتراوح ما بين ٤٠ و٥٠ بالمئة، وتصل أحياناً إلى ٧٠ بالمئة من الطاقة الإنتاجية المقدرة في سجلات الإحصاء[٤٢]. ولم يكن الجباة يكتفون بهذه النسبة، بل كانوا يضيفون إليها أتاوى أخرى تتعلق بمصاريف النقل، وتعويض الضياع الذي قد يحصل في الأرز في أثناء تخزينه وشحنه، وهو

---

(٤١) Bolitho, «The Han,» p. 213.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

مّا قد يضيف ١٠ بالمئة إلى النسبة الأصلية[٤٣].

ربما كان هذا الإجحاف واقعاً بالفعل في النصف الأول من القرن السابع عشر، أو استمر في بعض الهانات مدة أطول، غير أن تغيرات كثيرة طرأت على أوضاع الفلاحين والمساحات المزروعة وأصناف الزراعات في الفترات اللاحقة، وهو ما جعل نسبة الجباية، رغم بقائها عالية، لا تساير الإنتاج الحقيقي للأراضي. وبالتالي، بقي دخل الدايميو ثابتاً أو زاد بنسبة لا تتناسب مع الزيادة الحقيقية التي عرفها الإنتاج الزراعي؛ وبعبارة أخرى، تراكمت الثروة في يد ثلة من الفلاحين، على النقيض ممّا سعى إليه الدايميو والشجون. وقد كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في انقلاب الأوضاع هذا، منها:

- أن عملية استصلاح الأراضي، التي ازدهرت في القرن السابع عشر، لم تنعكس بصورة دقيقة في سجلات المسح المراجعة؛
- تخلي الكثير من الدايميو عن القيام بعمليات المسح في القرن الثامن عشر، واعتمادهم فقط على الإحصاءات القديمة؛
- مقاومة الفلاحين لتغيير الأوضاع الضريبية، حيث كانوا يعتبرون كل زيادة في الجباية بمثابة مس بحقوق مكتسبة، وكانوا يواجهونها بالتمرد وهجر العمل الزراعي، وهو أمر كان يخشاه الدايميو والشجون على حد سواء؛
- اتجاه الفلاحين إلى زراعة أراضيهم بمزروعات تسويقية، كالتبغ والقطن، التي كان مردودها المادي أعلى كثيراً ممّا هو مقدر لها بالأرز؛
- التخلي التدريجي عن أخذ الجباية عيناً (أرز) والتحول إلى الأداء النقدي الذي كان في أغلب الحالات لصالح الفلاحين[٤٤].

وقد خلص الباحث توماس سميث ـ أحد المختصين بالموضوع ـ بعد دراسة مقارنة لعدد من وثائق الجباية، مستقاة من هانات مختلفة ومتباعدة جغرافيا، أن نسبة الجباية خلال القرن الثامن عشر لا تعكس بأي حال التطور الحقيقي للإنتاج، وحتى وإن كانت هناك زيادات فهي ضئيلة لا تتناسب مع مداخيل الأراضي[٤٥].

---

(٤٣) Sato, «Tokugawa Villages and Agriculture,» p. 44.

(٤٤) انظر: Bolitho, «The Han,» pp. 225-231.

(٤٥) Thomas C. Smith, *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), pp. 50-70. =

تُعرف الأتاوى الأخرى، من غير الجباية السنوية على الأراضي الزراعية، بكومونوناري (Komononari)، وهي أتاوى كانت، رغم اختلافها وتنوع مصادرها، تقدّر هي أيضاً بمقابلها من الأرز. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت هناك أتاوى إضافية تفرض على الفلاحين مقابل استغلالهم للغابات المجاورة، وأخرى على الصيد في البحار والأنهار والبحيرات، بالنسبة إلى من يزاوجون بين نشاطي الصيد والزراعة. كما كانت هناك أتاوى مفروضة على الحرفيين والصنّاع والتجار في المراكز الحضرية، حيث كان أرباب كل نشاط اقتصادي، مهما صغر حجمه، يؤدون نسبة معيّنة من دخلهم(٤٦). وكان البعض من هذه الأتاوى يحدَّد في قدر ثابت يُدفع سنوياً نقداً أو عيناً، بينما كان البعض الآخر مؤقتاً أو عرضة للتقلب من سنة إلى أخرى(٤٧). وغني عن القول بوجود اختلافات بين هان وآخر في نوعية هذه الأتاوى وأهميتها، غير أنها لم تكن تشكل في معظم الهانات سوى نسبة ضئيلة من الدخل العام للدايميو، كما أشرنا في بداية هذه الفقرة.

أما في ما يخص الكلف وأعمال السخرة، فكانت هي أيضاً متنوعة؛ فمن أعمال السخرة التي كانت تُفرض على الفلاحين، حمل محفة الدايميو وأمتعته في حال السفر، والعمل في شق المسالك وإصلاحها، والمساهمة في عمليات البناء والترميم التي تخص الدايميو، والعمل في استصلاح الأراضي، وتعبئة الفلاحين في حال الكوارث الطبيعية كالفيضان والزلازل، إلى غير ذلك. وما يجدر تأكيده هنا هو أنه لم تكن تُفرض على الفلاحين أعمال سخرة في أراضي الساموراي، كما هو الشأن في النظام الفيودالي الأوروبي. فكما سلف الذكر، جرى إبعاد الساموراي عن الفلاحين ومنعهم من الاشتغال في الزراعة في عصر توكوغاوا. وهذا لا ينفي أن السخرة كانت موجودة في الفترات الأولى من النظام الفيودالي الياباني.

في مقابل هذه المداخيل، كان على الدايميو الإنفاق في سبل مختلفة، أهمها رواتب أتباعه الساموراي. فكما أشرنا سلفاً، كان على كل دايميو الاحتفاظ بعدد من الجنود الساموراي، وأن إدارة الهان كان يعمل بها عدد من الموظفين من

= انظر أيضاً مقالة بيسلي حول مداخيل الدايميو في أواخر عصر توكوغاوا، التي اعتمد فيها على الإحصاء الذي أجري عقب إقرار إصلاحات الميجي: William G. Beasley, «Feudal Revenue in Japan at the Time of the Meiji Restoration,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 19, no. 3 (May 1960), pp. 255-272.

(٤٦) Bolitho, «The Han,» pp. 213-214.

(٤٧) انظر مادة: «Komononari,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 267.

الساموراي. هذا بالإضافة إلى النفقات الأخرى كتلك التي تُصرف على تعليم أبناء الساموراي. ولعل أهم نفقة أثقلت كاهل الدايميو هي مصاريف السفر إلى العاصمة سنويان، والاحتفاظ بأكثر من إقامة فيها، والهدايا التي يقدمونها إلى الشجون وكبار موظفي الشجونة. إذ شكلت هذه المصاريف نصف مداخيل بعض الدايميو. فمثلاً كان على الدايميو البعيدين عن العاصمة أن يتنقلوا برفقة ألف من الأتباع ويتوقفوا في ٣٠ محطة، وكان عليهم في أثناء إقامتهم في العاصمة الإنفاق بسخاء، والتباهي أمام أقرانهم.

لم تكن أوضاع معظم الدايميو المالية، في الفترة الأخيرة من عصر توكوغاوا، مرْضية، بل كان البعض منهم على حافة الإفلاس. لذا اضطر الكثير من الدايميو إلى القيام بعدة إجراءات لسد العجز الحاصل في موازنة الهان؛ من هذه الإجراءات، استصلاح الأراضي الزراعية التي كانت الوسيلة الأكثر فعالية في القرن السابع عشر، عندما كان في الإمكان الزيادة من المساحة المزروعة. ومنها الزيادة في نسبة الجباية، غير أن هذه الزيادة كانت تقابل، كما أشرنا، بتمرد الفلاحين، فكان التخلي عنها. وهكذا اضطر الكثير من الدايميو في آخر المطاف إلى الاقتراض من التجار، أو تخفيض رواتب أتباعهم الساموراي، وتشجيع البعض منهم على البحث عن سبل عيش أخرى.

سادساً: الباكوفو والهان

يصعب الفصل بين مؤسستي الباكوفو والهان، فهما وجهان لعملة واحدة، ونتيجة لتطور نظام ترجع أصوله إلى القرن العاشر الميلادي، وهو ما دفع بالباحثين إلى تعريف المؤسستين بمصطلح واحد: «الباكوهان». وإن نحن فصلنا بينهما في هذا القسم من الدراسة، فذلك لسبب إجرائي يتعلق بضرورة البحث ليس إلا. ذلك أن ترابطاً عضوياً كان يربط بين المؤسستين ويجعل بقاء الواحدة منهما متوقفاً على بقاء الأخرى؛ فبقدر ما كان الشجون في حاجة إلى الدايميو لإدارة أراض تتسم بصعوبة التضاريس وتوزعها على عدة جزر، كان الدايميو في حاجة إلى نوع من الاستقرار والاطمئنان إلى مجال نفوذهم. وحتى وإن كان البعض من الهانات قد وجد قبل صعود أُسرة **توكوغاوا** إلى السلطة، إلا أن بقاء تلك الهانات واستمرار الدايميو القائمين عليها كانا في يد الشجون.

نخلص إلى أن نظام الباكوهان بشقيه حقق توازناً في توزيع السلطة والإدارة المالية، وأن الشجون استطاعوا الحفاظ على ذلك التوازن على الرغم من الأزمات

التي عصفت بالشجونة في أواخر القرن الثامن عشر. والملاحظ أن هذا النظام كان صالحاً وملائماً للظروف التي سادت في القرن السابع عشر والعقود الأولى من القرن الثامن عشر. لكن، وبعد أن عرف المجتمع تغيرات شملت ميادين متعددة ابتداء من أواسط القرن الثامن عشر، لم يعد في الإمكان الحفاظ على ذلك التوازن. هذا بالإضافة إلى احتواء نظام الباكوهان على نقاط ضعف كانت تهدد بسقوطه، ومنها التمييز بين الدايميو على أساس الولاء والقرب من أُسرة توكوغاوا. فدايميو توزما ظلوا يشكّلون تهديداً لسلطة أُسرة **توكوغاوا** على الرغم من جميع الإجراءات التي اتخذتها سلطات **توكوغاوا** للحد من سلطتهم. فعندما أتيحت الفرصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعجزت سلطات **توكوغاوا** عن حماية البلاد من التدخل الغربي، كانت أُسر الدايميو المبعدة في طليعة من قادوا الثورة وأطاحوا أُسرة **توكوغاوا**.

وعموماً يمكن التمييز بين مرحلتين في تاريخ العلاقة بين الشجون والدايميو: مرحلة **أولى** تمتد من وصول أُسرة توكوغاوا إلى السلطة (١٦٠٠) إلى نهاية القرن السابع تقريباً؛ وهي مرحلة اتسمت بقوة الشجون وإرساء قواعد النظام المستحدث، ومرحلة **ثانية** تبتدئ في مطلع القرن الثامن عشر وتنتهي بزوال الباكوفو في منتصف القرن التاسع عشر، وهي مرحلة استقرار بالنسبة إلى الدايميو.

الفصل السادس

مؤسسة الإمبراطور

من الظواهر المثيرة في تاريخ اليابان ظاهرة اختص بها دون غيره من تواريخ العالم، وهي استمرار أسرة إمبراطورية واحدة في الحكم دون انقطاع منذ نشأتها إلى اليوم؛ أي منذ ما ينوف على ٢٦٦٠ سنة حسب الأسطورة، أو ما يقارب ١٧٠٠ سنة، حسب ما يعتقده المؤرخون أو يؤكدونه. وقد زاد الاهتمام بهذه الظاهرة والمؤسسة الإمبراطورية عموماً اعتباراً للدور الذي قامت به في إصلاحات الميجي، وأيضاً لاستمرارها في البقاء على الرغم من الأخذ بمبادئ الحداثة الغربية وما نجم عنها من تغيرات سياسية عميقة. ومن الأسباب الرئيسية التي يركز عليها المؤرخون عادة، ذلك الترابط العضوي الوثيق بين معتقدات الشنتو وشخص الإمبراطور وما يمثله من رمز لوحدة الأمة اليابانية. وهو ولا شك عامل ذو أهمية قصوى، غير أن الدور السياسي للإمبراطور، رغم تراجعه خلال فترات طويلة من تاريخ اليابان، والأدوار الأخرى التي كان يقوم بها، لا يمكن إغفالها كسبب لهذه الاستمرارية. وفي عرضنا لوضع الإمبراطور في ظل أُسرة **توكوغاوا**، سنشير إلى بعض من الأسباب التي حملت أسرة الساموراي هاته، كسابقاتها، على الإبقاء على المؤسسة الإمبراطورية رغم ما بلغته من قوة وهيمنة.

أولاً: أسس المشروعية

بداية، يجب التنبيه إلى أن مصطلح «إمبراطور» ـ سواء في صيغته المعربة أو في أصله في اللغات الأوروبية ـ غير مناسب للسياق التاريخي لليابان، ولا يفي بمقتضيات هذا السياق؛ ومن ثم، فإن استعماله في الكتابات غير اليابانية ـ واستعمالنا له هنا ـ هو من باب تقريب المعنى لا غير. أما اليابانيون، فقد أطلقوا

منذ القرن السادس الميلادي على عاهلهم ألقاباً عدة[١]، من بينها لقب **تينو** (Tennõ) وهو مصطلح مكون من مقطعين: تين، ويعني السماء، ونو ويعني الملك أو العاهل أو الإمبراطور، وهو ما يمكن ترجمته بصورة تقريبية إلى «عاهل السماء» أو «العاهل السماوي» أو «العاهل المقدس»[٢]، مع التشديد على أن اليابانيين يقصرون استعمال هذا المصطلح على إمبراطورهم دون غيره، بينما يستعملون مصطلحات أخرى للدلالة على الملوك والأباطرة في جهات أخرى. وحسب معتقدات الشنتو، فإن **تينو** هو سليل الآلهة، يرتفع نسبه الأعلى إلى الإله **نينيجي نو ميكوتو** (Ninigi no Mikoto)[٣] حفيد إلهة الشمس **أماتيراسو** الذي أرسلته لإقرار العدل والأمن في أرض الآلهة (اليابان)، مزودة إياه برموز السلطة: السيف والعقد والمرآة التي ما تزال الأُسرة الإمبراطورية تحتفظ بها ـ أو بنسخ منها ـ إلى اليوم. و**جيمو**، الجد الأعلى للأُسرة الإمبراطورية والإمبراطور الأول الذي تولى الحكم فيها عام ٦٦٠ ق. م.، هو حسب الأسطورة حفيد **نينيغي**. وإلى هذا الجد الأعلى ينتسب كل الأباطرة الذين تقلدوا السلطة في اليابان منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، عبر سلسلة غير منقطعة من النسب الأبوي.

يصعب على الغريب عن ثقافة اليابان، والشرق الأقصى عموماً، إدراك ماهية **تينو**. وكخطوة أولى في هذا الشأن، لا بد من التذكير ثانية بمصطلح ومفهوم أساسي في ديانة الشنتو، وهو مفهوم **كامي** (جمع ومفرد في آن واحد)، الذي يُترجم إلى اللغة الإنكليزية عادة بـ Gods أو Deities ـ أو ما يقابلهما في اللغات الأوروبية الأخرى ـ ويمكن ترجمته إلى العربية بـ «آلهة» أو «معبودات». والغالب على هذه الترجمة هو المرجعية الغربية الخاصة بالبانثيون الإغريقي والروماني، وهو مرجعية تبعد كثيراً عن مرجعية اليابان والشرق الأقصى. وواقع الأمر أن مفهوم

(١) هناك ألقاب عدة يُعرف بها إمبراطور اليابان، منها على سبيل المثال لا الحصر، تينشي (Tenshi) (ابن السماء). انظر مادة: «Tennõ,» in: Edmond Papinot, *Historical and Geographical Dictionary of Japan*, with an introd. to the new ed. by Terence Barrow, Tut Books R (Rutland, Vt.: C. E. Tuttle, [1972]), p. 650.

(٢) الترجمة التقريبية المستعملة في اللغة الإنكليزية هي Heavenly Sovereign. مع الإشارة إلى أن مصطلح ميكادو (Mikado)، الذي يُستعمل أحياناً في اللغات الأوروبية للدلالة على إمبراطور اليابان، مصطلح غير مستعمل في اللغة اليابانية. وربما كان مستعملاً قبل القرن السادس الميلادي للدلالة على الإمبراطور مجازاً؛ إذ المعنى الأصلي لميكادو هو «الباب السامي» أو «الباب العالي».

(٣) نينيجي نو ميكوتو هو ابن الإله أمي نو أوشيهوميمي نو ميكوتو (Ame no Oshihomimi no Mikoto) ابن إلهة الشمس أماتيراسو، وحفيد إله الخلق تاكاميموسوبي نو كامي (Takamimusubi no Kami) من جهة الأم. وقد أرسلته جدته أماتيراسو وجده من جهة الأم إلى الجزر اليابانية لإقرار الأمن فيها. وكان نزوله أول مرة ـ حسب ما يعتقد ـ في جبل في جزيرة كيوشو.

الكامي يحوي حقلاً واسعاً من المفاهيم يصعب حصرها في مصطلح واحد في اللغات الأخرى. فمن جهة، هناك **الكامي** السماوية أو التي تعيش في السماء، من قبيل **أماتيراسو** إلهة الشمس التي ينتسب إليها الإمبراطور، وإله القمر وغيرهما، والتي يمكن مقارنتها في حدود معيّنة بآلهة البانثيون الإغريقي. ومن جهة أخرى، هناك **الكامي** الأرضية التي هي عبارة عن «آلهة» وأرواح تعيش على الأرض وتسكن المغارات والجبال والأنهار والأشجار... وهي أقل مكانة من الأولى، ويمكن ترجمة المراد بها عموماً بالأرواح. يضاف إلى هذين الصنفين صنف من البشر يمكن تصنيفهم ضمن مرتبة **الكامي** أيضاً، إما بسبب نسبهم «الإلهي» أو بسبب قدراتهم أو أعمالهم الخارقة، وهي مرتبة يمكن أن يرفع إليها بعض البشر بعد وفاتهم[٤]. ورغم الاختلاف الكبير بين الثقافتين الإسلامية واليابانية، تمكن مقارنة هذا الصنف الأخير من البشر في حدود ضيقة جداً بالصلحاء والأولياء بحسب المفهوم السائد في شمال أفريقيا، حيث يعتقد أن هؤلاء لهم درجة خاصة عند الله تمكّنهم من قضاء حاجات الناس[٥]. ففي هذا الصنف الأخير يمكن تصنيف تينو؛ فهو **كامي** يعيش بين البشر، أو شخص يمتلك قدرات خارقة تؤهله للتوسط لدى أجداده **الكامي** السماوية لجلب الرفاهية لرعاياه وأرض الآلهة (اليابان)، ومنع الأذى الذي يمكن أن يلحق بهم من جراء غضبهم.

وحسب **هيرشيل ويب**، فإنه يمكن تلخيص المفهوم القديم للإمبراطور في أن: الإمبراطور هو الواسطة بين الآلهة والشعب الياباني. وفي تصور اليابانيين، تمنحهم الآلهة النعَم المتمثّلة في الأرض التي يعيشون عليها، والطعام الوفير، والحماية من أخطار الطبيعة. وهذه الفوائد يدركونها من خلال مفهوم عام هو «أون» (On)، وهو يعني هنا العطايا الإلهية التي لا حصر لها ولا يمكن مجازاتها أو رد مقابل لها. و«أون» هي نقطة البداية في التعامل الأخلاقي بين البشر. والواجب الأخلاقي يقتضي تبادل الهدايا بين الشعب والآلهة. وجوهر رد الهدية هو الاعتراف بالجميل والخشية والتقديس. ويُعتبر الإمبراطور محور التعامل بين الآلهة والشعب الياباني؛ فهو يتلقى «أون» من الآلهة ويردها بالتقديس، ثم

---

(٤) Susanna Fessler, «The Nature of the Kami,» *Ueda Akinari and Tandai Shoshin Roku* (MN), vol. 51, no. 1 (Spring 1996), pp. 1-15.

(٥) في ما يخص التعريف بالأولياء والصلحاء، انظر: ديل إيكلمان، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد أعفيف (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٩)، ج ١، ص ١٩.

يمنحها لشعبه، وفي مقابل ذلك يكون هو ذاته موضوعاً للتقديس[٦].

وبسبب هذه الماهية الخاصة، اعتُبر **تينو**، طوال تاريخ اليابان المعروف وإلى عام ١٩٤٥، شخصاً مقدساً في مرتبة **الكامي**. فإلى وقت قريب، كان الجميع يخفض بصره في حضرته ولا يستطيع أحد التحديق في شخصه المقدس. كما كان الوصفاء يعاملون جسده بحذر شديد عند قص شعره وتقليم أظافره حتى لا يلمس جسده المقدس مقص أو موسى، وكذا يلزم الأطباء الحذر ذاته عند الكشف عليه[٧]. وعندما يُقسم أحدهم قسماً ملزماً، كان يُقسم بأهم آلهة الشنتو، ومن بينها تينو[٨]. وبسبب صلة القرابة التي تربطه **بالكامي** السماوية، وما يمتلكه من قدرات خارقة للتوسط لديها، كما أشرنا، فإن الوظيفة الدينية والاجتماعية هي الغالبة على الدور الذي اضطلع به **تينو** في جُل تاريخ اليابان.

ولإدراك مشروعية **تينو** السياسية وموقعه السياسي، نرى من المفيد مقارنة وضعه بوضع إمبراطور الصين الذي يحظى هو أيضاً بالتقديس. وأساس مشروعية هذا الأخير هو التفويض السماوي الذي يخول لأُسرته الحاكمة. وهو تفويض ارتبط بمعتقدات الصين القديمة التي تتمحور حول قوى غيبية عليا (تيين هسيا T'ien hsia) تتحكم في الكون. وهذه القوى العليا هي التي اعتمدها كونفوشيوس في نظريته للسلطة، حيث اعتبرها مصدراً للأخلاق أو التعاليم التي استلهمها الملوك والحكماء في قديم الزمان. فالإمبراطور يحكم باسم هذه القوى ويجسد إرادتها باتّباع تعاليمها. وعلى هذا الأساس، فهو حكيم ومقدس وأخلاقه وسلوكه تسمو فوق أخلاق الآخرين وسلوكهم. لكن المشكل الذي واجه **كونفوشيوس** هو أن هذا التفويض السماوي غير دائم؛ إذ يمكن للقوى العليا أن ترفعه أو تحجبه. ومن ثم ربط بين بقاء التفويض والتزام الحاكم بالأخلاق أو التعاليم السماوية؛ فإن حاد الإمبراطور عن هذه التعاليم، ظهرت علامات في الأرض (الكوارث الطبيعية والفوضى. . .) تفيد أن القوى الغيبية رفعت تفويضها وتخلت عن دعمها للأُسرة الإمبراطورية التي لم تعد تحكم باسمها. وهذا ما يفسر، في نظرية **كونفوشيوس**، تداول الأُسر في الصين، ويبيح للشعب الثورة على الأُسرة الإمبراطورية ـ التي

---

(٦) Herschel Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period* (New York: Columbia University, 1968), pp. 161-162.

(٧) Bob Tadashi Wakabayashi, «In Name: Imperial Sovereignty in Early Modern Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 17, no. 1 (Winter 1991), p. 31.

(٨) المصدر نفسه.

يُعتبر الإمبراطور ممثلاً لها ـ متى حادت عن التعاليم السماوية(٩).

يتفق مبدأ الحكم في كل من الصين واليابان من حيث وجوب تقديس الإمبراطور وطاعته. غير أن الاختلاف يكمن في استمرارية أُسرة إمبراطورية واحدة في اليابان، بينما هناك تداول للأسر في الصين. فعلى الرغم من أن اليابانيين أخذوا بالمبادئ الكونفوشيوسية الداعية إلى طاعة الإمبراطور وتقديسه في نهاية القرن السادس الميلادي، فإنهم لم يتخلوا عن المعتقدات الشنتوية التي تؤكد أسطورتها النسب السماوي للإمبراطور وماهيته غير البشرية الذي لا يشاطره فيها أحد. ومن ثم، فإن مسألة التفويض السماوي غير واردة في تسويغ حكم أباطرة اليابان، فهؤلاء جزء من عالم السماء. وإن كان هناك من تفويض، فهو ذاك التفويض الذي يخوله الإمبراطور للشخص الذي يحكم باسمه.

هذا الاعتبار الديني والقدسية اللذان حظي بهما شخص الإمبراطور، لم يأتيا من عدم؛ فهما مرتبطان بأسباب موضوعية أو تاريخية وأخرى غيبية (أو سحرية). وتتعلق الأولى بالدور السياسي الذي قامت به الأسرة الإمبراطورية في توحيد الجزر اليابانية وإخضاعها لسلطة مركزية موحدة، وهو ما شرحناه في عرضنا حول تأسيس الإمبراطورية اليابانية، حيث أكدنا أن هيمنة عشيرة **ياماتو** التي تنتمي إليها الأسرة الإمبراطورية على العشائر الأخرى في غضون القرن الرابع الميلادي، أدت إلى وضع أسس الدولة أو الإمبراطورية. أما الأسباب الغيبية، فتتعلق بديانة الشنتو التي عملت عشيرة **ياماتو** بعد نجاحها في توحيد قسم من جزيرة **هونشو** على تغليب تقديس الكامي الخاصة بها، وجعلها محورية في العبادة المنتشرة آنذاك، وذلك عبر تكريس الأسطورة التي تشيد وتعلي من شأن الكامي المرتبطة بها، وتؤكد تحدر الأُسرة الإمبراطورية منها. لم تناقش وضعية الإمبراطور في عصري **نارا** و**هييان**، حيث تعززت قدسية الإمبراطور وطاعته من خلال الأخذ بالمبادئ الكونفوشيوسية ودعم الديانة البوذية للمؤسسة الإمبراطورية، مقابل السماح بنشر تعاليمها. فمنذ القرن

(٩) على سبيل تأكيد هذا المنظور لتداول الدول في الصين، نورد هذا المقتطف الذي ورد في أحد التواريخ الصينية على لسان مؤسس دولة تانغ، التي أُسست في غضون الألفية الثانية قبل الميلاد، مع الإشارة إلى أن هذا المقتطف يُستغل للدلالة على تداول الأُسر حكم الصين. قال تانغ: «مرتبة ابن السماء هاته لا يقوم بها إلا من اتبع الطريق. فتيين هسيا ليست ملكاً لأُسرة واحدة، فهي ملك لذاك الذي يتبع الطريق (طريق الحكماء). ومن ثم، فإن من يتبع الطريق سيحكم هذه المملكة».

انظر: David Magarey Earl, *Emperor and Nation in Japan: Political Thinkers in Tokugawa Period* (Seattle: University of Washington University, 1964).

انظر أيضاً الفقرات الخاصة بالكونفوشيوسية في الفصل الثالث من القسم الأول من هذا الكتاب.

السادس، وبناء على دراسة المؤسسات السياسية الصينية والأخذ بها، أُدخلت الفكرة القائلة بأن الإمبراطور يمكن أن يكون في الوقت ذاته كبير الكهنة ورئيساً للحكم المدني، أي على غرار ما كان معمولاً به في الصين. وهو بالفعل ما اضطلع به الأباطرة إلى حين تفويض سلطتهم لأسرة **فوجي ـ وارا**. وفي القرنين السابع والثامن، توضح وضع المؤسسة الإمبراطورية، وحددت وظائف الإمبراطور في قوانين **ريستو ريو** التي وضِعت على أساس المبادئ المشار إليها.

لم تطرح مسألة مشروعية الإمبراطور إلا بعد استيلاء الساموراي على السلطة في أواخر القرن الثاني عشر، خاصة في الفترة التي حاول فيها الإمبراطور **غو ـ دايغو** استعادة السلطة من الساموراي. ففي خلال الأزمة التي مرت بها المؤسسة الإمبراطورية (١٣٣٦ ـ ١٣٩٢) التي انقسمت فيها إلى فرعين: واحد في الشمال (كيوطو) تحت هيمنة أسرة **أشيكاغا**، وفرع في الجنوب يوشينو (Yoshino)[(١٠)] مستقل عنها، ظهرت أولى الكتابات التي تطرقت إلى مشروعية حكم الإمبراطور. فخلال هذه الفترة، عمل المؤرخ **كيتاباتاكي تشيكافوسا** (Kitabatake Chikafusa) (١٢٩٣ ـ ١٣٥٤) مستشاراً لدى الإمبراطور **غو ـ دايغو**، وكان من مؤيدي إمبراطورية الجنوب المستقلة عن حكم الساموراي. ولدعم أباطرة الجنوب وجمع الدعم لهم، وضع مؤلَّفاً تاريخياً[(١١)] افتتحه بقوله:

«اليابان العظيم أرض الآلهة. فسلالة الآلهة وضعت أسسه، وإلهة الشمس (أماتيراسو) سلمته لأبنائها ليحكموه إلى الأبد. ففي بلدنا وحده توجد الحقيقة؛ وليست هناك أمثلة أخرى من هذا القبيل في أي من البلاد الأخرى. ولهذا السبب يُدعى بلدنا أرض الآلهة»[(١٢)].

ومن استقراء له لأحداث تاريخ اليابان في المؤلَّف ذاته، توصل **كيتاباتاكي**

---

(١٠) مقاطعة جبلية تقع في جنوب ياماتو (وأيضاً جنوب كيوطو)، مهد الإمبراطورية اليابانية. وقد احتلت موقعاً خاصاً في تاريخ المؤسسة الإمبراطورية منذ بدايتها، فإليها لجأ الكثير من الأمراء. ولعل هذا هو السبب الذي دعا الإمبراطور غو ـ دايغو إلى اللجوء إلى تلك المنطقة، حيث جعلها مقراً لحكمه الثائر على شجونة أشيكاغا. انظر مادة: «Yoshino,» in: Edmond Papinot, *Historical and Geographical Dictionary of Japan*, p. 757.

(١١) يُعرف هذا التأريخ في اللغة اليابانية بجينو شوتوكي (Jinnõ Shõtõki)، أو ما يمكن ترجمته بـ «سجل السلالة الشرعية للأباطرة السماويين». وقد وضِع في عام ١٣٣٩. وهي من المصادر التاريخية للعصور القديمة والوسطى اليابانية. انظر: Earl, Ibid., p. 14.

(١٢) H. Paul Varley, «Cultural Life in Medieval Japan,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 3, p. 457.

تشيكافوسا إلى أن استقرار السلطة في أسرة واحدة دليل على أن مصير اليابان كان دائماً محكوماً بقوى غيبية. كما يفسر الاستمرار الطويل للأُسرة الإمبراطورية بالقوى السحرية التي تمتلكها شارات السلطة التي منحتها **أماتيراسو** إلى حفيدها **نينيغي** عندما أرسلته إلى الجزر. فهذه الشارات (المرآة والعقد والسيف) التي تحتفظ بها الأُسرة الإمبراطورية محملة بقوى سحرية، وهي في الوقت نفسه رموز لمبادئ أخلاقية. فالمرآة التي تعكس الواقع كما هو رمز للصدق والأمانة، والعقد بنعومة ملمسه رمز للإحسان ومحبة الخير للآخر، والسيف بنصله الحاد رمز للعزيمة والشجاعة. والواقع أن **كيتاباتاكي** لم يخرج عن التقاليد اليابانية ومرجعيتها الدينية المتمثّلة في الشنتو وكتابي **كوجيكي** و**نيهون شوكي**، وما أضافه هو ربط رموز الأسطورة بأخلاق كونية مستقاة من الثقافة الصينية التي لم تكن غريبة على اليابانيين[١٣].

تغيرت المرجعية الفكرية في عصر **توكوغاوا** بتبنّي الشجون تيار الكونفوشيوسية الجديدة (مذهب **تشو هسي**) التي أضحت الأيديولوجية الرسمية لحكم الساموراي، فكان من الطبيعي أن تظهر آراء أخرى لتفسير موقع الشجون والإمبراطور من خلال المرجعية الكونفوشيوسية. وقد كان **هياشي رزان** مستشار الشجون **إياسو**، أول من تصدى للأمر بدفاعه عن موقع الشجون وأسرته **توكوغاوا** التي كان من أشد مناصريها. فبالنسبة إليه، كان الأمر واضحاً، فوضع **إياسو**، مؤسس دولة **توكوغاوا**، يماثل وضع الأباطرة المؤسسين للدول في الصين الذين ينقلبون على من سبقهم ويؤسسون حكماً يتبع التعاليم السماوية، ومن ثم يحظون بدعم القوى الغيبية. وبعبارة أخرى، اعتمد مبدأ التفويض السماوي الذي استغله **كونفوشيوس** في تفسير تداول الدول في الصين. وعلى هذا الأساس، يكون قد أخرج الإمبراطور من المعادلة السياسية أو التعاقد القائم بين الحكم الدنيوي والقوى الغيبية. لكن رغم أن **هياشي رزان** كان شديد التأثر بالثقافة الصينية، فإنه لم يكن غافلاً عن وضع الإمبراطور المتميز في اليابان، أو عن ديانة الشنتو التي كان من معتقديها وكبار دارسيها. فمن آرائه الشهيرة، تلك الداعية إلى التوفيق بين طريق الحكماء (الكونفوشيوسية) وطريق الكامي (الشنتو). وهو يقول عن شارات السلطة، في سياق توفيقه بين الطريقين:

---

(١٣) في ما يخص آراء كيتاباتاكي تشيكافوسا ومقتطفات منها، انظر: المصدر نفسه، و Earl, Ibid., p. 14; Webb, *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period*, pp. 165-168, and George Elison, «Kitabatake Vhikafasu,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 4, p. 224.

«المرآة تمثّل الشمس، والجوهرة تمثّل القمر، والسيف يمثّل النجوم. وعندما تكون هذه المصادر المشعة حاضرة، تكون السماء والأرض مضاءتين. وعندما تجتمع هذه الكنوز المقدسة الثلاثة في يد واحدة تكون طريقة الحكماء هي العليا»(١٤).

أما عن الأُسرة الإمبراطورية، فلم يحط من قيمتها أو شأنها، بل اعتبرها جزءاً لا يتجزأ من طريق الحكماء وأساس استمرار إمبراطورية اليابان:

«هذه الأرض هي أرض الآلهة. فمنذ عهد الإمبراطور **جيمو** الذي خلف الآلهة في تأسيس الإمبراطورية، ظلت السلالة الإمبراطورية تحكم دون انقطاع ضمن سلسلة متصلة. وفي ذلك نشر لطريق الحكماء. وهو الطريق الذي سلمته لنا الآلهة السماوية. وهذا هو طريق الآلهة [كامي]»(١٥).

لم يخرج مثقفو القرنين السابع عشر والثامن عشر المتأثرين بالكونفوشيوسية الجديدة عن الخطوط العامة للتفسير الذي أعطاه **هياشي رزان**، المتمثّل في أن الشجون حاكم يتمتع بمشروعية يستمدها من القوى الغيبية، وأن الإمبراطور في وضع أعلى من وضع الشجون، يستوجب التقديس، لكن ليست له علاقة بالحكم. وهو التفسير الذي تبناه شجون **توكوغاوا** إلى أن ضعفت سلطتهم في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. غير أن هذا التفسير لم يقبله كل مثقفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ إذ ظهرت تيارات فكرية تناهض التيار الكونفوشيوسي الرسمي، وتعارض حكم أسرة **توكوغاوا**. ومن ذلك التيار الداعي إلى الثقافة القومية ورفض التيارات الدخيلة، الذي ساوقته دعوة إلى التركيز على الذات والانكباب على دراسة المصادر الثقافية لليابان. وكان في إحياء الثقافة القومية وتثمينها تأكيد لأهمية الإمبراطور. ففي البداية، اعتبر هذا التيار أن الإمبراطور هو العاهل الحقيقي للبلاد، وأن الشجون مجرد حاكم ينوب عنه ويحكم بتفويض منه. وهو التفسير الذي بدأ الشجون يقبلونه في الفترة الأخيرة من حكمهم. وفي منتصف القرن التاسع عشر ـ عندما عجز الشجون عن الدفاع عن أرض الآلهة ـ تبنّى هذا التيار الدعوة إلى إطاحة حكم الشجون الذين اعتبرهم مغتصبين للسلطة، وإلى استعادة الإمبراطور لسلطاته الدنيوية، وهو ما جسدته إصلاحات الميجي. ولنا عودة إلى الموضوع في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

---

(١٤) Earl, Ibid., p. 22.

(١٥) المصدر نفسه.

ثانياً: وظائف الإمبراطور

يُعتبر **تينو** الراعي الأول لديانتي الشنتو والبوذية في اليابان؛ فهو يحتل في ديانة الشنتو مكانة سامية تماثل مكانة الحبر الأعظم أو البابا في الكنسية الكاثوليكية، إن جازت هذه المقارنة. ومنذ أن تم في القرن السادس الميلادي تبنّي الديانة البوذية في اليابان، وهي الديانة التي أصبحت ديانة رسمية للدولة، شأنها شأن ديانة الشنتو، أضحت المؤسسة الإمبراطورية مسؤولة أيضاً عن هذه الديانة ومعابدها. واعتباراً لهذه المكانة، يشرف **تينو** على عدد من الاحتفالات والطقوس الدينية، سواء تلك المتعلقة بديانة الشنتو أو بالبوذية. كما تقوم المؤسسة الإمبراطورية برعاية عدد من المعابد، خاصة تلك المرتبطة بالأسرة الإمبراطورية، مثل معبد **إيسي** ـ أكبر معابد الشنتو وأهمها ـ المخصص لإلهة الشمس **أماتيراسو** التي تنتسب إليها الأُسرة. وللتذكير، نشير إلى أن الطقوس والاحتفالات الدينية لديانة الشنتو المعروفة بماتسوري ارتبطت أساساً بالدورة الزراعية للأرز؛ فعلى أساس مراحل هذه الدورة، وضِع منذ القديم جدول زمني للماتسوري بغاية مرور زراعة الأرز في أحسن الظروف الطبيعية والحصول على أفضل النتائج. ومنذ القرن السادس الميلادي، أُضيفت إلى الماتسوري الشنتوية احتفالات وطقوس، ذات أصل بوذي أو أصل صيني، أُدرجت هي أيضاً ضمن روزنامة الاحتفالات التي تشرف عليها المؤسسة الإمبراطورية. أما في ما يخص حماية الديانة البوذية، فقد أشرنا في الفصل الذي خصصناه للحديث عن التبشير، إلى الأمر الذي أصدره الإمبراطور **أوغيماتشي** عام ١٥٦٨ لمنع نشر الدين المسيحي في عاصمته، وإرغام المبشرين على مغادرتها، وذلك إثر شكاوى تلقاها من بعض الطوائف البوذية.

ولم تقتصر وظيفة الإمبراطور على الوظيفة الدينية، فهو ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ يمتلك جميع السلطات التشريعية والسياسية في البلاد؛ فمند تبنّي النظام الصيني في الحكم، وتطوير النظام القانوني المعروف بـ **ريتسو ريو** في نهاية القرن السابع الميلادي إلى حين قيام حكم الساموراي في نهاية القرن الثاني عشر، كانت البلاد تسير بمراسيم تصدر عن الإمبراطور أو باسمه، وتُعنى بشؤون الدولة كلها، الكبيرة منها والصغيرة. ورغم استبداد أُسرة **فوجي وارا** بالسلطة في عهد **هييان**، فإنها كانت تحكم بتفويض من الإمبراطور أو بوصاية عليه، وكانت قراراتها كافة تصدر باسم الإمبراطور. غير أن الوضع تغير بصعود الساموراي إلى السلطة؛ إذ أصبحت السلطات السياسية في يد الشجون في ظل نظام الباكوفو، وأضحت أمور الدولة تسير بما يصدر عنه من مراسيم، ولم يستثن منها سوى المرسوم الذي يعيّن

بموجبه الشجون نفسه. فالملاحظ أنه رغم فقدان الإمبراطور كل سلطة فعلية، فقد ظل يمثّل المرجعية الأساسية للدولة، وظلت مشروعية السلطة السياسية ذاتها في يده، لا ينازعه فيها أحد. ومهما يكن من قوة الشجون العسكرية وإحكام قبضته على جميع مرافق الدولة، فإنه يبقى ـ من الناحية المبدئية ـ مجرد حاكم عسكري يعيّنه الإمبراطور ويفوض إليه حكم البلاد. لذا لم تجرؤ أية أُسرة من أُسرتي الساموراي، **ميناموتو** (١١٨٥ ـ ١٣٣٣) و**أشيكاغا** (١٣٣٦ ـ ١٥٦٨)، اللتين تعاقبتا على حكم البلاد من نهاية القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن السادس عشر على إزاحة الإمبراطور أو الاستغناء عن المؤسسة الإمبراطورية. فحتى في اللحظة الحرجة التي بلغ فيها النزاع أشده بين الإمبراطورين **غو ـ دايغو** و**أشيكاغا نو تاكاؤجي** عام ١٣٣٦، لجأ هذا الأخير إلى تعيين إمبراطور آخر من الأسرة الإمبراطورية ذاتها ليحصل منه على لقب الشجون، ويضفي المشروعية على حكم أُسرته.

وهذا هو الوضع عينه الذي استمر في الفترة التي تعنينا، أي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية نظام الباكوفو، واستعادة الإمبراطور **ميجي** السلطة عام ١٨٦٨. فعندما دخل أودا نوبوناغا إلى العاصمة كيوطو عام ١٥٦٨، كان ذلك ـ حسب ادعائه ـ بطلب من الإمبراطور **أوغيماتشي** (١٥٥٧ ـ ١٥٨٦)، وكان انتصاره انتصاراً للإمبراطور وشرعية الشجون المعيَّن من قبله. وقد كان أودا بعد إخضاعه لمعارضيه من كبار الدايميو في أوج سلطته، ولم يكن بمقدور أحد إيقافه أو الوقوف أمام تنفيذ أوامره. فهو لم يرض بتولي منصب نائب الشجون الذي عرض عليه، حيث كان يرى أن سلطته تفوق سلطة الشجون نفسه الذي سرعان ما تخلص منه ومن مؤسسته. كما فاوض الإمبراطور **أوغيماتشي** على التنازل عن العرش لصالح ولي عهده، غير أن الإمبراطور رفض الانصياع، وعرض عليه في المقابل رتبة من الرتب التي يمنحها[١٦]. والمثير أن أودا قبِل التشريف الذي منحه له الإمبراطور وجرى تعيينه رسمياً في منصب وزير اليمين **أودايجين** لديه. وهو منصب تعود مرجعيته إلى الفترة التي كان الإمبراطور يباشر فيها السلطة، ويفوض وزراءه الحكم باسمه. وبديهي أن **أودا** وصل إلى السلطة بفضل انتصاراته العسكرية، ولا منّة للإمبراطور عليه، بل كان في إمكانه إجباره

(١٦) حول العلاقة بين الإمبراطور أوغيماتشي وأودا نوبوناغا، انظر: Asao Naohiro and M. B. Marius, «Shogun and Tenno,» and Fujiki Hisashi with George Elison, «The Political Posture of Oda Nobunaga,» in: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), pp. 240-270, and pp. 173-184.

على التنازل عن العرش، إلا أن الرمز الذي يمثّله الإمبراطور والمشروعية المرتبطة به منحا أودا الصلاحيات كلها ليستبد بالسلطة.

سار **هيدي ـ يوشي** على النهج ذاته، وسعى هو أيضاً إلى الحصول على منصب لدى الإمبراطور، كما فعل سلفه أودا. وبالفعل، عُيِّن في منصب **كامباكو**، الذي لم يتقلده غيره في تاريخ اليابان سوى كبار أسرة **فوجي ورا** أيام أوج سلطتهم في عهد هييان. وإذا كان هذا التعيين قد جاء اعترافاً بسلطة قائمة بالفعل، فإن إضفاء المشروعية على هذا الواقع من قبل الإمبراطور، قد مكن **هيدي ـ يوشي** من ممارسة سلطة مطلقة على البلاد إلى حد جعلت البعض من المؤرخين يطلق عليه لقب «نابليون اليابان».

لم يختلف الأمر كثيراً عندما حقق **توكوغاوا إياسو** انتصاره الساحق في معركة **سيكي غاهارا** (١٦٠٠) وإخضاع جُل الدايميو لسلطته. لقد أراد **إياسو** بعد هذه الانتصار أن يعيد نظام الباكوفو إلى ما كان عليه، ويكرس الحكم في أسرته، وكان سبيله الوحيد إلى ذلك هو الحصول على لقب الشجون من الإمبراطور، حيث لم يكن إخضاع البلاد عسكرياً كافياً لتحقيق هذا الغرض. وبالفعل كان له ما أراد، وحصل على لقب الشجون عام ١٦٠٣، حيث تُعتبر هذه السنة البداية الفعلية لحكم أُسرته. ولم يقتصر الأمر على رأس الأُسرة، بل كان لزاماً على كل شجون جديد أن يسعى أولاً إلى الحصول على مرسوم تعيينه من الإمبراطور ليكون حكمه مشروعاً. ولم يشذ عن هذه القاعدة أي من الشجون الذين تعاقبوا على الحكم من أُسرة **توكوغاوا**.

إن المراجع التاريخية تهمل عادة وظيفة لم ينقطع الإمبراطور عن القيام بها وظلت حكراً عليه إلى اليوم، وهي منح الرتب والألقاب الشرفية. ولئن أشارت تلك المراجع إليها، فمن باب ذكر ما تبقى للإمبراطور من سلطة رمزية في ظل حكم الساموراي، والتي لا علاقة لها بالسلطة الفعلية. وللتذكير بما سبقت الإشارة إليه، فإنه جرى منذ القرن السابع الميلادي العمل بنظام مأخوذ في الأصل عن الصين يعرف بـ «كوراي»، ترتب بموجبه الأسرة الإمبراطورية والأرستقراطية الحاكمة كلّ على حدة، ضمن رتب عادة ما تتدرج صعوداً من الرتبة الثانية عشرة إلى الرتبة الأولى. وكان من حق الإمبراطور وحده منح هذه الرتب وترقية أصحابها. إضافة إلى ذلك، كان الإمبراطور يخلع على كبار القادة العسكريين وغيرهم من العاملين في البلاط ألقاباً فخرية جزاء خدماتهم. وقد كانت هذه الرتب والألقاب، حتى وإن صغر شأنها، ذات دلالة كبرى لدى الفرد وأُسرته، إذ كانت تشكل جزءاً

لا يتجزأ من هوية الفرد صاحبها من وظيفة كانت تدرج ضمن اللقب للفرد، وتؤخذ بعين الاعتبار في مكانته الاجتماعية، كما علّق على ذلك الباحث الياباني **واكاباياشي**: «هذه الألقاب الفخرية الرسمية كانت تحمل في طياتها مغزى كبيراً بالنسبة إلى الهوية واحترام الذات (أو الاعتداد بالذات) في الفترة ما قبل المعاصرة. ولذا، فإننا بتجاهل هذه التسميات نكون قد أهملنا علة رئيسية ـ وإن لم تكن الوحيدة ـ التي تفسر استمرار المؤسسة الإمبراطورية في البقاء وازدهارها في الفترة المعاصرة»[(١٧)]. والواقع أن الدايميو وكبار موظفي الشجون ومستشاريهم، كانوا يسعون بأنفسهم أو يوسطون الشجون للحصول على رتبة من الرتب التي كان يمنحها الإمبراطور، وذلك لما في الأمر من رفع لمكانتهم[(١٨)].

يضاف إلى منح الرتب والألقاب اختصاص الإمبراطور باختيار شعار الفترة التي يحكم فيها، والتي تدخل في إطار نظام **نينغو** الذي سبق شرحه. وبما أن المراسلات كلها كانت تحمل التاريخ الذي يحمل شعار الفترة، فإن ذلك كان بمثابة تذكير يومي بأن صاحب السلطة في البلاد هو الإمبراطور وليس الشجون. وكما أشرنا مراراً، فإن هذا النظام ما يزال معمولاً به في اليابان في التأريخ والمراسلات الرسمية وغير الرسمية.

ثالثاً: الأباطرة وشجون توكوغاوا

تعاقب على عرش اليابان من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، أي في الفترة التي تشمل مرحلة توحيد البلاد وعصر **توكوغاوا**، ١٦ إمبراطوراً، من بينهم امرأتان. وعموماً، تحسنت الأوضاع المالية للأباطرة إلى حد كبير خلال عصر إيدو، مقارنة بالأوضاع المزرية التي كان عليها الأباطرة في ظروف الحرب الأهلية الصعبة، والتي قلَّت فيها مواردهم إلى حد أن البعض منهم لم يجد المال الكافي لرعاية طقوس تتويجه. ذلك أن أسرة **توكوغاوا** خصصت عائدات سنوية، في حدود ١٥٠,٠٠٠ كوكو، كانت تؤخذ من الأراضي التابعة لها وتدفع إلى خزينة البلاط[(١٩)]. كما جرى الاعتناء بالقصر

---

(١٧) Bobt Wakabayashi, «In the Name Only: Imperial Sovereignty in Early Modern Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 17, no. 1 (Winter 1991).

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) حول الأوضاع العامة للمؤسسة الإمبراطورية في عهد توكوغاوا، انظر: المصدر نفسه، وJerrold M. Packard, *Sons of Heaven: A Portrait of the Japanese Monarchy* (New York: Collier Books, 1987), pp. 147-186. =

الإمبراطوري في **كيوطو** ومجال إقامة نبلاء البلاط (كوغي) بها. وفي المقابل فرضت شجونة **توكوغاوا** قيوداً صارمة على الإمبراطور وحاشيته. فخلال العقدين الأولين من القرن السابع عشر، أصدر الشجون **إياسو** ٦ مراسيم (في الأعوام: ١٦٠٣؛ ١٦٠٥؛ ١٦٠٦؛ ١٦١٢؛ ١٦١٣؛ ١٦١٥) تتعلق بالإمبراطور وحاشيته[٢٠]. ويعتبر المرسوم الرقم ١٦١٥ (المعروف بكينشو نارابي ني كوغي شوهاتو Kinshū narabi ni kuge shohatto) أهمها، لما تضمنه من بنود تحد من سلطات الإمبراطور وتقيد حركته، وتفرض شروطاً على تعييناته ومنحه للألقاب، وتتدخل في أدق تفاصيل علاقة الإمبراطور بحاشية بلاطه، إضافة إلى رقابة اتصاله بالعالم الخارجي الذي أصبح يمر عبر نائب الشجون في كيوطو (**كيوطو شوشي داي**) الذي كلف بمراقبة تحركاته والقيام بدور الوساطة بينه وبين سلطات الباكوفو. وأكثر ما استوقف الباحثين هو البند الأول من المرسوم، الذي نص على أن أهم ما يجب أن يشغل به الإمبراطور نفسه هو المعرفة[٢١]. وإذا كان جُل الباحثين اليوم يرون في هذا المرسوم إعلاناً رسمياً من قبل الشجون إياسو يحد نهائياً من تدخل الإمبراطور في أمور الدولة بأي شكل كان، فإن **لي باتلر** يرى أن المرسوم لم يحمل جديداً، بل إن المرسوم ـ حسب دراسته للظروف التي أحاطت بكتابته ـ وضعه **إياسو** بعد تفكير طويل واستشارة العارفين بتاريخ المؤسسة الإمبراطورية، وأنه لم يمس جوهر ما كان الإمبراطور يضطلع به من وظائف بالفعل[٢٢].

وكيفما كان الأمر، فقد انشغل الأباطرة خلال عصر **توكوغاوا** إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر بالمعرفة والأمور الدينية، وعاشوا حياة هادئة وسط حاشيتهم يتمتعون بالتقديس والاحترام. ولم تتبدل الأوضاع إلا بعد أن أجبر الشجون الثالث عشر إييسادا Iesada (حكم ١٨٣٧ ـ ١٨٥٨) على الموافقة على عقد معاهدات غير متكافئة مع الدول الغربية، فاحتاج إلى مصادقة الإمبراطور على تلك المعاهدات لتصبح سارية المفعول. وهكذا عادت المؤسسة الإمبراطورية ـ ممثّلة في شخص

= انظر خاصةً الفقرة المتعلقة بعهد إيدو ص ٢٠٤-٢٠٥، في: «Emperor,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, pp. 202-208, and Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), pp. 97-101.

(٢٠) Lee A. Butler, «Tokugawa Ieyasu's Regulations for the Court: A Reappraisal,» *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 45, no. 2 (December 1994), p. 511.

(٢١) انظر نص المرسوم الذي يحتوي على ١٧ بنداً مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: المصدر نفسه، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٦.

(٢٢) المصدر نفسه.

الإمبراطور كوميبي (Komei) (حكم ١٨٤٦ ـ ١٨٦٧) ـ إلى واجهة الأحداث، ودخلت المعترك السياسي مجدداً وبقوة، بعد أن أُطيح نظام الباكوفو (١٨٦٨).

أما عاصمة الإمبراطور **كيوطو**، التي همّشها قرار الشجون إياسو باختيار عاصمته في إقليم كانتو بعيداً عن إقليم كيناي المركز التقليدي للسلطة، فلم تفقد مكانتها كعاصمة روحية للبلاد، يرفع من قدسيتها إقامة الإمبراطور فيها. وحتى وإن لم تبلغ درجة المدينة المحرمة، عاصمة إمبراطور الصين، أو التوسع العمراني الذي عرفته مدينة إيدو، فهي ظلت أهم مركز ديني في البلاد، تحتضن أهم معابد الشنتو والبوذية والمؤسسات التعليمية التابعة لها، وهو ما جعل منها قِبلة للزوار من غير أهل السياسة. ففي هذه المدينة، وفي قصرها الإمبراطوري (أو ميكادو) المحاصر، ظل الإمبراطور يعيش حياة هادئة، يمارس وظائفه المعتادة، محاطاً بحاشية ظلت وفية له منذ عصر هييان.

خلاصة

استطاعت المؤسسة الإمبراطورية البقاء قرابة ألفي سنة على الرغم من إبعادها عن السلطة الزمنية، واستعادت حيويتها في وقت عصيب من تاريخ اليابان، فكانت محوراً لتغيير النظام السياسي الذي دام سبعة قرون. وفي اعتقادنا، لا يمكن إدراك أهم أبعاد إصلاحات الميجي إلا بإدراك موقع المؤسسة الإمبراطورية في المنظومة السياسية. فعلى الرغم من تهميشها ردحاً من الزمن، فإنها لم تفقد مشروعيتها، بل ظلت حاضرة بقدسيتها وجلالها. ذلك أن البعد السياسي لم يكن سوى واحد من أبعاد هذه المؤسسة التي جمعت بين ما هو سياسي وما هو ديني ورمزي. فخلال تاريخ اليابان المديد، اعتبر من غير المناسب أن يشغل **تينو** نفسه بالأمور الدنيوية وتسيير أمور الدولة. وواقع الأمر أن تينو لم يمارس السلطة السياسة أو يتدخل في أمور الدولة بصورة مباشرة إلا خلال فترتين قصيرتين من تاريخ اليابان، **الأولى** في عهد **نارا** (٧١٠ ـ ٧٩٤)، عندما تبنّت الدولة اليابانية النموذج الصيني القائم على أساس حكم مركزي قوي يرأسه الإمبراطور ويتمتع فيه بمكان الصدارة. وهي فترة لم تدم طويلاً؛ ففي القرن التاسع تولت أُسرة **فوجي وارا** السلطة، وحكمت بتفويض من الإمبراطور معظم عصر **هييان** (٧٩٤ ـ ١١٨٥). وكذلك سار الساموراي على النهج ذاته عندما استولوا على السلطة في نهاية القرن الثاني عشر، واستبدوا بالسلطتين السياسة والعسكرية تاركين للإمبراطور سلطة روحية ورمزية محدودة. وباستثناء المحاولة اليائسة التي قام بها الإمبراطور **غو ـ دايغو** في القرن الرابع عشر والتي

استعاد فيها السلطة السياسية لمدة ثلاث سنوات (ما بين عامي ١٣٣٣ و١٣٣٦)، فإن أياً من الأباطرة لم يمارس السلطة طوال الفترة الموالية.

أما الفترة **الثانية**، فهي التي تولى فيها **تينو** السلطة بإصلاحات **الميجي** عام ١٨٦٨؛ ففي هذه الفترة استعادت المؤسسة الإمبراطورية دورها السياسي، وكرس الدستور (دستور ١٨٨٩)، الموضوع في إطار الإصلاحات، صلاحيات كبرى للإمبراطور[٢٣]. غير أنها فترة لم تدم طويلاً هي أيضاً؛ إذ سرعان ما انتهت بهزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ وإقرار دستور جديد للبلاد. وفي ظل الهيمنة الأمريكية تخلى الإمبراطور بموجبه عن قدسيته ومعظم صلاحياته باستثناء سلطة دستورية تكاد تكون رمزية[٢٤]. وفي هذا الشأن يرى أستاذ القانون الياباني **إيشي ريوسوكي** أن النظام السياسي «**الطبيعي**» لليابان والتقاليد «**الصحيحة**» للحكم فيه يتمثلان في أن الأباطرة لا يحكمون، وأن الفترتين اللتين مارسوا فيهما حكماً فعلياً كانتا بتأثير من أنظمة سياسية أجنبية؛ في فترة أولى نتيجة تقليد النموذج الصيني، وفي فترة ثانية نتيجة التأثر بالأنظمة الغربية[٢٥].

ومن غريب المصادفات، أو من مكر التاريخ، أن يعمل الجنرال الأمريكي **دوغلاس ماك آرثر** في عام ١٩٤٦، من خلال فرض دستور جديد على اليابانيين، على إعادة الإمبراطور إلى الوضع ذاته الذي حطه فيه الشجون، وأن يجرده من

---

(٢٣) تشمل المواد الخاصة بالإمبراطور في دستور ١٨٨٩:

البند الأول: ستحكم إمبراطورية اليابان عبر سلسلة متصلة من الأباطرة إلى الأزل.

البند الثالث: شخص الإمبراطور مقدس لا تنتهك حرماته.

البند الرابع: الإمبراطور هو رئيس الإمبراطورية يجمع في شخصه حقوق سيادة الدولة ويمارسها طبقاً لمقتضيات الدستور الحالي.

البند الخامس: يمارس الإمبراطور السلطات التشريعية بموافقة الدايت الإمبراطوري.

البند السادس: يصادق الإمبراطور على القوانين ويأمر بإصدارها وتطبيقها.

البند السابع: يدعو الإمبراطور إلى انعقاد الدايت الإمبراطوري، وافتتاح أعماله وإنهائها، وله حق حل مجلس النواب.

البند الحادي عشر: يتولى الإمبراطور القيادة العليا للجيش والبحرية.

البند الثالث عشر: يعلن الإمبراطور الحرب، ويعقد السلم والمعاهدات.

المصـــدر: «The Meiji Japan Through Contemporary Sources,» Center for East Asian Cultural Studies (Tokyo), vol. 1, Basic Documents (1854-1898), pp. 93-97.

(٢٤) تنص المادة الأولى من دستور ١٩٤٦ على أن: الإمبراطور هو رمز الدولة ووحدة الشعب، يستمد مركزه من إرادة الشعب الذي يتمتع بالسلطة المطلقة. المصدر: **حقائق عن اليابان** (طوكيو: الجمعية الدولية للمعلومات التربوية، [د. ت.])، (Code No. 0502-0388).

(٢٥) انظر: «In Name: Imperial Sovereignty in Early Modern Japan,» pp. 25-57.

كل سلطاته السياسية باسم القيم الغربية. وهكذا عاد الأباطرة إلى المعرفة، وتركوا عالم السياسة كما فعلوا في جُل تاريخ اليابان.

الجدول الرقم (٦ ـ ١)
أباطرة اليابان منذ منتصف القرن السادس عشر إلى اليوم

الإمبراطور وترتيبه بحسب التأريخ الرسمي(*)	تاريخ الميلاد ـ تاريخ الوفاة	سنوات الحكم	ملاحظات
١٠٦ : أوغيماتشي	١٥١٧ ـ ١٥٩٣	١٥٥٧ ـ ١٥٨٦	
١٠٧ : غو ـ يوزئي	١٥٧٢ ـ ١٦١٧	١٥٨٦ ـ ١٦١١	
١٠٨ : غو ـ ميزونوأو	١٥٩٨ ـ ١٦٨٠	١٦١١ ـ ١٦٢٩	
١٠٩ : ميیشو	١٦٢٤ ـ ١٦٩٦	١٦٢٩ ـ ١٦٤٣	
١١٠ : غو ـ كوميو	١٦٣٣ ـ ١٦٥٤	١٦٤٣ ـ ١٦٥٤	
١١١ : غو ـ ساي	١٦٣٧ ـ ١٦٨٥	١٦٥٥ ـ ١٦٦٣	
١١٢ : رييغين	١٦٥٤ ـ ١٧٣٢	١٦٦٣ ـ ١٦٨٧	
١١٣ : هيغاشي ـ ياما	١٦٧٥ ـ ١٧٠٩	١٦٨٧ ـ ١٧٠٩	
١١٤ : ناكاميكادو	١٧٠٢/ ١٧٣٧	١٧٠٩ ـ ١٧٣٥	
١١٥ : ساكوراماتشي	١٧٢٠ ـ ١٧٥٠	١٧٣٥ ـ ١٧٤٧	
١١٦ : removeموموزونو	١٧٤١ ـ ١٧٦٢	١٧٤٧ ـ ١٧٦٢	
١١٧ : غو ـ ساكوراماتشي	١٧٤٠ ـ ١٨١٣	١٧٦٢ ـ ١١٧١	
١١٨ : غو ـ موموزونو	١٧٥٨ ـ ١٧٧٩	١٧٧١ ـ ١٧٧٩	
١١٩ : كوكاكو	١٧٧١ ـ ١٨٤٠	١٧٨٠ ـ ١٨١٧	
١٢٠ : نينكو	١٨٠٠ ـ ١٨٤٦	١٨١٧ ـ ١٨٤٦	
١٢١ : كوميي	١٨٣١ ـ ١٨٦٧	١٨٤٦ ـ ١٨٦٧	
١٢٢ : ميجي	١٨٥٢ ـ ١٩١٢	١٨٦٧ ـ ١٩١٢	
١٢٣ : تايشو	١٨٧٩ ـ ١٩٢٦	١٩١٢ ـ ١٩٢٦	
١٢٤ : شوا (هيروهيتو)	١٩٠٠ ـ ١٩٨٩	١٩٢٦ ـ ١٩٨٩	
١٢٥ : هيسي (أكيهيتو)	١٩٣٣ ـ	١٩٨٩ ـ	

(*) المقصود التأريخ الرسمي الذي يحتسب الأباطرة الوارد ذكرهم في الأسطورة على أساس اعتبار جيمو، الذي تولّ الحكم عام ٦٦٠ ق. م.، وهو الإمبراطور الأول.

المصـــدر: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, p. 202.

الفصل السابع

سياسة العزلة
تحصين الذات وتعزيز المشروعية

تبنّت شجونة **توكوغاوا**، منذ نهاية العقد الرابع من القرن السابع عشر (عام ١٦٣٩)، سياسة عزلة وطنية، تمثّلت عناصرها الرئيسية في حظر الديانة المسيحية، واضطهاد من تنصّر من اليابانيين، وطرد المبشرين والتجار البرتغاليين والإسبان، وتقييد سفر الرعايا اليابانيين إلى الخارج، وإغلاق اليابان في وجه الأجانب الغربيين عموماً باستثناء الهولنديين. وبناء على هذه السياسة، اقتصرت تجارة اليابان الخارجية على الصين وكوريا ودولة أوروبية واحدة هي هولندا. وقد استطاعت سلطات الباكوفو الحفاظ على هذه السياسة والالتزام بمقتضياتها ما ينوف على قرنين من الزمن، أي إلى حين وصول الحملة العسكرية الأمريكية بقيادة الكومودور **بيري** عام ١٨٥٣، التي أجبرت تلك السلطات على التخلي عن سياسة العزلة وتوقيع معاهدات تجارية ـ غير متكافئة ـ تكسر العزلة، وتفتح أسواق اليابان في وجه تجارة الدول الغربية.

بدأت سياسة العزلة بمرسوم أصدره **توكوغاوا إياسو** عام ١٦١٤ يحظر الديانة المسيحية، ويأمر بطرد المبشرين من الأرخبيل. ثم تعزز الحظر بمراسيم أخرى أصدرها الشجون الثالث **إييميتسو** بلغ عددها خمسة مراسيم، كانت غاية الأربعة الأولى منها ـ التي صدرت على التوالي في: نيسان/أبريل ١٦٣٣؛ تموز/يوليو ١٦٣٣؛ تموز/يوليو ١٦٣٥؛ حزيران/يونيو ١٦٣٦ ـ تضييق الخناق على المبشرين واضطهاد النصارى اليابانيين. غير أنها لم تقتصر على ذلك، بل تعدته إلى إجراءات أخرى ترمي إلى تقييد سفر الرعايا اليابانيين إلى الخارج ومراقبة التجارة الخارجية بمنع السفن اليابانية من السفر إلى الموانئ الأجنبية إلا بإذن مسبق من

الشجون، وإخضاع السفن الأجنبية لمراقبة شديدة من قبل حاكم ميناء **ناغاساكي** التابع لسلطة الشجونة[١]. وقد كانت هذه الإجراءات ضرورية، في نظر الشجون، لمنع اليابانيين من الاتصال بالمسيحيين وحرمان المبشرين من أية وسيلة تمكّنهم من نشر عقيدتهم. وقد توجت هذه السياسة بمرسوم أخير صدر في ٤ آب/أغسطس ١٦٣٩، ونص على طرد التجار البرتغاليين والإسبان من ميناء **ناغاساكي** ومنع سفنهم من الرسو في الموانئ اليابانية.

تُعرف هذه السياسة لدى مؤرخي اليابان اليوم بساكوكو (Sakoku)، وهو مصطلح يفيد لغة التكبيل بالأغلال، ويعود استعماله إلى مطلع القرن التاسع عشر، حيث ظهر أول مرة في ترجمة لقسم من كتاب **أنجلبرت كايمبفر** (Engelbert Kaempfer)[٢] عن اليابان. وقد كثر النقاش، منذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر، حول الأسباب الحقيقية التي دفعت شجونة **توكوغاوا** إلى اتخاذ هذا الإجراء الذي اعتُبر، في إثر «الانفتاح» على الغرب، من أسباب تأخر اليابان وتخلفه عن الدول الغربية. إذ بدا غريباً توجّه اليابانيين نحو الانغلاق على الذات، بعد أن كانوا، خلال القرن السادس عشر، مندفعين نحو توسيع مجالهم التجاري في جنوب شرقي آسيا، وكانت جوال يابانية تقيم في مختلف موانئها التجارية، وكان نشاطهم الملاحي مزدهراً في المنطقة[٣].

---

(١) في ما يتعلق بمحتويات المراسيم الخاصة بسياسة العزلة، انظر مادة: «National Seclusion,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 5, p. 346-347.

أما النصّان الكاملان لمرسومي ١٦٣٥ و١٦٣٩ فيوجدان في: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, pp. 221-223.

(٢) يتعلق الأمر بترجمة قسم من كتاب أنجلبرت كايمبفر، الذي طبع أول مرة مترجماً إلى اللغة الإنكليزية تحت عنوان *The History of Japan* وذلك عام ١٧٢٧. أما المترجم الياباني، فاسمه شيزوكي تاداوو (Shizuki Tadao) (١٧٦٠ ـ ١٨٠٦)، الذي اشتهر بترجمته عدداً من المؤلفات الهولندية، وقد قام بالترجمة المعنية هنا في عام ١٨٠٢.

انظر ترجمة شيزوكي تاداوو في: «Shizuki Tadao,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 152.

أما المصطلح الذي كان يُستعمل في عصر توكوغاوا للدلالة على السياسة المتبعة تجاه منع الاتصال بالأجانب، فكان كايكين (Kaikin)، وهو مصطلح صيني الأصل يفيد «المحظورات أو الممنوعات البحرية».

وفي ما يخص كيفية ظهور مصطلح ساكوكو، انظر: Ronald P. Toby, *State and Diplomacy in Early Modern Japan* (Stanford, Ct: Stanford University Press, 1991), pp. 12-16; Ronald P. Toby, «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 3, no. 2 (Summer 1977), p. 323, and Francine Hérail, *Histoire du Japon des origines à la fin de l'époque* (Meiji; Paris: Publications Orientalistes de France, 1989), pp. 322.

(يحتوي هذا التأليف التاريخي على عدد مهم من الوثائق المترجمة من اللغة اليابانية إلى اللغة الفرنسية).

(٣) خلال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، كانت هناك جوال يابانية =

ساد لفترة لدى الباحثين في التاريخ تفسيران لسياسة العزلة: تفسير **أول** يركز على الجانب الديني، يرى المدافعون عنه أن انتشار الدين المسيحي كان يشكل خطراً يهدد القيم الدينية والأخلاقية للشعب الياباني، ويقوض الأسس التي قامت عليها البنيتان السياسية والاجتماعية، ومن ثم كان ضرورياً التخلص من هذه العقيدة والمبشرين الكاثوليك الداعين إليها، وإبعاد التجار الذين ارتبطوا بهم وعملوا بتعاون وثيق معهم. وتفسير **ثان** يركز أكثر على البعدين السياسي والاقتصادي، يرى أصحابه أن الهدف الذي سعى إليه الشجون، هو إقرار الهيمنة التامة على مجموع التراب الياباني، ومنع الدايميو من الحصول على مصادر مالية تهدد حكم أسرة **توكوغاوا**، وكذا استفادة الشجونة من احتكار التجارة الخارجية. ومن ثم اتخذ الشجون منع الدين المسيحي ذريعة لبلوغ هذه الغاية اعتباراً للارتباط الوثيق بين نشاطي التجار والمبشرين. ومع الاختلاف البادي في أوليات كل من التفسيرين، فهما لا يتعارضان في العمق، كما أن لا أحد منهما يقصي الآخر، ومن اليسر التوفيق بينهما في تفسير يجمع في آن واحد بين الخطر المسيحي والسعي إلى احتكار التجارة الخارجية. وقد ظهر في الفترة الأخيرة تيار يدعو إلى إعادة تقييم سياسة الشجونة هاته بالنظر إليها ضمن منظور عام يشمل دول شرق آسيا وجنوبها، ولا يقتصر على علاقة اليابان بالدول الأوروبية. فإن كانت اليابان قد ضيقت نطاق اتصالها بأوروبا، فإنها استمرت في علاقات تجارية ودبلوماسية مع جيرانها في آسيا، ومن ثم لا يستقيم الحديث عن عزلة تامة أو أن الشجونة هدفت إلى عزل اليابان عن العالم الخارجي[٤].

نعرض في الفقرات التالية **أولاً** لعلاقة سياسة العزلة بالدين المسيحي، حيث إن المراسيم الأولى الخاصة بسياسة العزلة همت أساساً نشاط المبشرين واضطهاد المسيحيين اليابانيين؛ و**ثانياً** لعلاقة سياسة العزلة بالتجارة الخارجية والأسباب الكامنة وراء احتكار الهولنديين لهذه التجارة دون غيرهم من الأوروبيين؛

= مكونة من التجار ووكلائهم، تقيم في موانئ في جنوب شرقي آسيا: في سيام (تايلاند اليوم) ولوزون (شمال الفيليبين) وكمبوديا وتايوان، وغيرها من المراكز التجارية في جنوب شرقي آسيا. وبعد إقرار سياسة العزلة فر الكثير من المسيحيين اليابانيين إلى الفيليبين وتايلاند. غير أن هذه الجوالي الأخيرة فقدت الاتصال باليابان، واندمجت في المناطق التي وجدت فيها. انظر: «Nihonmachi,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 5, p. 378.

ونيهوماتشي هو الاسم الذي كانت تعرف به الأحياء التي تقيم بها الجوالي اليابانية، على غرار «تشاينا تاون» (Chinatown) أو الأحياء الصينية.

(٤) من المدافعين عن هذا الرأي رونالد توبي، انظر: Toby, *State and Diplomacy in Early Modern Japan*.

ونعرض أخيراً للعلاقات الخارجية لليابان مع جارتيها كوريا والصين؛ ونختم هذا الفصل بتقييم عام لسياسة العزلة.

أولاً: الخطر المسيحي وسياسة العزلة

أشرنا في فقرة اللقاء الأول مع الغرب إلى النجاح الذي حققه المبشرون خلال السنوات الأربعين الأولى من وجودهم في الأرخبيل، وإلى الكيفية التي استغلوا بها توزع البلاد ضمن إمارات شبه مستقلة عن الحكم المركزي ليعملوا بحرية تحت رعاية الدايميو، خاصة في جزيرة **كيوشو** وغرب اليابان، كما أكدنا الدعم الذي لاقوه من **أودا نوبوناغا**. غير أن هذه المرحلة لم تخل من خروقات وأخطاء ارتكبها المسيحيون الجدد في حق المعتقدات الأخرى، خاصة البوذية، فأدت إلى إصدار **هيدي ـ يوشي** المرسوم الأول الخاص بنشر المسيحية في اليابان، الذي كان بمثابة حجر الزاوية في السياسة التي سيتخذها الشجون الأوائل في حق المبشرين والمسيحيين اليابانيين.

نعِم المبشرون واليابانيون النصارى بفترة هدنة خلال العقد الأول من القرن السابع عشر، حيث كان **إياسو** مهتماً بتوسيع التجارة الخارجية وفتح موانئ الأرخبيل في وجه تجار آخرين من غير البرتغاليين. وفي الوقت ذاته، لم يتراجع عن القرارات التي أصدرها سلفه، كما لم يكن غافلاً عن التهديد الذي يمثله المبشرون؛ فحسب مراسلات **وليام آدمز**(٥) ـ الذي نال ثقته وكان مستشاره ـ كان **إياسو** يسأله (نعني **آدمز**) عن أحوال الأمم الأوروبية وعن تصرفات البرتغاليين والإسبان في جهات أخرى؛ ومن ثم كان على علم بما يجري في أوروبا وأمريكا من حروب، من قبيل محاولة غزو الملك **فيليب الثاني** لإنكلترا (١٥٩٨) وغزو الإسبان لأمريكا وإبادة شعوبها؛ إذ يبدو ذلك جلياً في وثيقة يعود تاريخها إلى العقد الأول من القرن السابع عشر، ينسب ما جاء فيها إلى **إياسو**:

«المسيحيون قدِموا إلى اليابان ليس من أجل إرسال سفنهم التجارية وتبادل البضائع، ولكن جاؤوا رغبة في نشر قانون الشر والقضاء على العقيدة

---

(٥) لم نطّلع مباشرة على رسائل آدمز، غير أن لافكاديو هيرن، الذي عاش في اليابان في أواخر القرن التاسع عشر، أورد مقتطفات من رسائله إلى زوجته وآخرين يخبر فيها عن علاقته مع الشجون وعمّا كان يدور بينهما من حوار. انظر: Lafcadio Hearn, *Japan: An Attempt at Interpretation*, Lafcadio Hearn Bunko; 3 (Tokyo: Tuttle, 2001), pp. 270-273.

الصحيحة، ومن ثم من المحتمل أن يغيروا حكومة البلد ويستولوا على أراضيه. إن في ذلك بذرة كارثة عظمى يجب سحقها. إن اليابان أرض الآلهة [إشارة إلى آلهة الشنتو] وأرض بوذا»[٦].

يظهر هذا النص وعي إياسو المبكر بحقيقة الخطر الذي يمثّله المبشرون، والوجود الأجنبي عموماً، على البلاد، ومدى التحول الذي حصل في موقف المؤسسة العسكرية في هذا الشأن؛ أي تحول من رؤية ضيقة تقتصر على الخطر الذي يهدد القيم والمعتقدات التي يؤمن بها اليابانيون إلى رؤية سياسية واسعة تدرك الخطر في بعديه الديني والسياسي، وتتحسب لخضوع اليابان للحكم للأجنبي. وبديهي أن وليام آدمز وغيره من الإنكليز والهولنديين ـ الذين بدأوا يصلون إلى الأرخبيل في مطلع القرن السابع عشر ـ كانوا وراء الإيحاء لـ **إياسو** بمثل هذه الأفكار في إطار المنافسة التجارية وعدائهم للإسبان والبرتغاليين. ففي عام ١٦١٠، بعث موريس أمير أورانج[٧] برسالة يحذره فيها من «جماعة اليسوع» التي تهدف إلى تنصير كل اليابانيين، ممّا قد يؤدي بالبلاد إلى حرب أهلية[٨].

على الرغم من هذا الوعي المبكر، لم يتخذ **إياسو** قراراً حاسماً في شأن الديانة المسيحية والمبشرين بها إلا في مطلع عام ١٦١٤. ولعل السبب في هذا التأخير هو رغبته الأكيدة في توسيع التجارة الخارجية. فقبل أن يتخذ قراره، عمل أولاً على ضمان استمرار هذه التجارة على يد الهولنديين الذين تعهدوا منذ البداية بإبعاد أنفسهم عن كل نشاط ديني، وأعلنوا تنصلهم من نشاط الإرساليات التبشيرية التي ترعاها الكنيسة. وهو ما سنعود إليه في حديثنا عن الظروف التي حصلت فيها الشركة الهولندية على امتياز التجارة في الموانئ اليابانية عام ١٦١١ والدور الذي قام به وليام آدمز في هذا الشأن.

في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٦١٤، أصدر **توكوغاوا إياسو** مرسوماً يحظر

---

(٦) ورد نصّ هذه الوثيقة مترجماً إلى اللغة الإنكليزية مستشهداً به في: المصدر نفسه، ص ٢٦٧-٢٦٨.
والنص ترجمه إرنست ساتو (Ernest Mason Satow) (١٨٤٣ ـ ١٩٢٩)، وهو دبلوماسي إنكليزي عمل في اليابان في أواخر عهد توكوغاوا وبداية عهد الميجي. وكان يتقن اللغتين اليابانية والصينية، وكتب عدداً من المقالات والكتب عن اليابان، من بينها مؤلف تحت عنوان: *Transactions of the Asiatic Society of Japan*، وعنه أخذ لافكاديو هيرن نص هذه الوثيقة.

(٧) المقصود هو (Mauritz of Nassau) المعروف في اللغة الهولندية بـ (Mauritz Prinz van Oranjie, Graaf van Nassau) (١٥٦٧ ـ ١٦٢٥) الذي كان حاكماً على الأقاليم المتحدة ما بين عامي ١٥٨٥ و١٦٢٥.

(٨) Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 74.

الديانة المسيحية في الأرخبيل، ويأمر الرعايا اليابانيين الخاضعين للحكم المباشر لأُسرة توكوغاوا بأن يقيدوا أنفسهم في واحد من سجلات الطوائف البوذية. وهو مرسوم تكلف بصوغه راهب الزن **إيشين سودين**، الذي حرر جُل المراسيم التي أصدرها **إياسو**، كما سبقت الإشارة في فصل سابق. فبعد أن صدّره بعبارة «إن اليابان أرض الآلهة» (شينكوكو Shinkoku)، التي أصبحت لازمة تتردد في كل المراسيم الخاصة بمنع الديانة المسيحية، يقول:

«إن الغاية التي يسعى إليها المسيحيون هي تملّك البلاد عبر نشر عقيدتهم الشريرة، ومخالفة قوانين الحكومة وتنظيماتها، وتشويه عقيدة الشنتو والطعن في القانون الحق»(٩).

كان المرسوم إيذانا بحملة اضطهاد ستطاول الرعايا اليابانيين معتنقي المسيحية والمبشرين، الذين أُمروا في المرسوم ذاته بمغادرة اليابان. كان عدد المبشرين آنئذ ٤٧ راهباً، من بينهم ٢٧ من اليسوعيين(١٠). وقد رفض جّلهم مغادرة البلاد، مفضلين العمل سراً بعيداً عن رقابة الشجون وأعوانه، كما فعلوا بعد صدور مرسوم **هيدي ـ يوشي** (١٥٨٧). لكن الأمر أضحى مختلفاً هذه المرة؛ فقد صدرت تعليمات صارمة لكل الدايميو، حيث لم يعد في إمكان أحد منهم، مهما بلغت قوته، أن يمنحهم الرعاية أو يتستر عليهم؛ فكل دايميو يؤويهم أو يشك في شعوره نحو النصارى، كان عليه أن يبرهن عن ولائه للشجون ويطرد المسيحيين من هانه، وكل دايميو يرفض الردة عن دين المسيحية يلقى أقسى العقوبات، بما فيها الإعدام حرقاً.

لم تهدأ هذه الحملة بوفاة إياسو عام ١٦١٦؛ ففي عهد الشجون الثاني (**توكوغاوا هيدي داتا**) جرى في عام ١٦٢٢ قطع رؤوس ٥٥ نصرانياً في ميناء ناغاساكي، كان من بينهم نساء وأطفال. وبلغت الحملة أشدها في عهد الشجون الثالث **توكوغاوا إييميتسو**، الذي أصدر عدة مراسيم (١٦٣٣ و١٦٣٤ و١٦٣٦) تحث الدايميو على القضاء نهائياً على الدين المسيحي في «هاناتهم»، وعدم الإبقاء على أي مسيحي على أرضهم مهما كان وضعه الاجتماعي، وتضع أيضاً الأسس الأولى لسياسة العزلة. كما لم يتورع **إييميتسو** عن التنكيل بمن رفضوا الردة عن دينهم، مذيقاً إياهم أسوأ العذاب وأشده قبل إعدامهم شنقاً. فقد كان السجناء

(٩) «Anti-Christian Edicts,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 74.

(١٠) Jurgis Elisonas, «Christianity and Daimyo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, p. 368.

منهم يُجمعون في زنزانات ضيقة يتعذر تحركهم فيها، ويُمنع عنهم الماء والطعام، ويتعرضون لأشد المحن بغاية إجبارهم على الردة عن الديانة المسيحية، فإن رفضوا يُتركون حتى الموت فريسة الجوع والمرض، أو يُعدمون بطرق مختلفة. كما أقدم الدايميو في هاناتهم على ممارسات أشد قسوة وتنكيلاً من تلك التي أقدمت عليها السلطات المركزية. والغريب في الأمر أن الدايميو النصارى كانوا الأكثر استعداداً للتخلي عن دينهم، في حين صبر على الشدة حتى الموت ضعاف القوم. وعموماً، يقدّر عدد من لقوا حتفهم على هذا النحو، أو شنقاً، ما بين ٥ آلاف و٦ آلاف فرد، وذلك خلال الفترة الممتدة من عام ١٦١٤ إلى عام ١٦٤٠[١١].

وقد تُوجت هذه الحملة بحادث **شيمابارا** الذي اتخذته الشجونة ذريعة لغلق أبواب اليابان. ففي كانون الأول/ديسمبر ١٦٣٧، وقعت انتفاضة في شبه جزيرة **شيمابارا** بالقرب من مدينة **ناغاساكي**، قام بها فلاحو المنطقة بسبب ما لحق بهم من إجحاف جبائي وإفراط في الكلف، وتبعهم في ذلك سكان المناطق المجاورة. وكان محتملاً أن يعتبر الحدث أمراً عادياً، يدخل ضمن انتفاضات الفلاحين واحتجاجاتهم التي تحدث بين الفينة والأخرى، لولا أن معظم سكان المنطقة كانوا من النصارى. ومن ثم أخذت الانتفاضة بعداً آخر في نظر الشجون **إييميتسو** التي اعتبرها مؤامرة من تدبير المبشرين رداً على سياسة اضطهاد المسيحيين التي ينهجها. وواقع الأمر أن المنطقة المشار إليها تعرضت أكثر من غيرها للاضطهاد الديني ولظلم الدايميو القائم عليها، إلا أن الانتماء المسيحي غلب على البعدين الاقتصادي والاجتماعي لانتفاضة فلاحيها، ذلك أن الثائرين اختاروا شاباً مسيحياً، يدعى **أماكوسا شيرو**[١٢]، زعيماً لهم، وكانوا يرددون شعارات ذات نفحة مسيحية. وهكذا جهزت سلطات الشجونة ١٢٥,٠٠٠ مقاتل، شكلوا قوات لم يُستجمع نظيراً لها[١٣] طوال تاريخها إلى حين

---

(١١) Mikiso Hane, *Premodern Japan: A Historical Survey* (San Francisco: Westview Press, 1991), p. 127.

(١٢) اتخذت شخصية أماكوسا شيرو (Amakusa Shiro) (١٦٢٨ ـ ١٦٣٨) بُعداً أسطورياً في تاريخ المسيحية في اليابان. فقد كان والده ساموراي في خدمة أحد الدايميو المعارضين لتوكوغاوا إياسو، الذين حاربوا ضده في معركة سيكي- غاهارا. وبعد المعركة فقد الكثير من أمثاله الساموراي جلّ امتيازاتهم، وهو ما جعلهم يساندون الفلاحين في انتفاضتهم ضد الإجحاف الجبائي الذي كان يلحق بهم. انظر: «Shimabara,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 98; Stephen Vlastos, *Peasant Protests and Uprisings in Tokugawa Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1990), pp. 18-49, and George Bailey Sansom, *A History of Japan, 1615-1867* (Tokyo: Tuttle, 1990), pp. 37-38.

(١٣) H. Bolitho, «The Han,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 205.

ثورة **الميجي** في القرن التاسع عشر، وقمعت الانتفاضة دون هوادة عام ١٦٣٨. وفي العام التالي، صدر المرسوم الخاص بإغلاق الموانئ اليابانية في وجه السفن الغربية، وطرد التجار البرتغاليين.

وإضافة إلى التعذيب والتقتيل وقمع التمرد بالقوة، استعملت الشجونة وسائل أخرى من قبيل الضغوط الاقتصادية والنفسية؛ ففي الفترة التي كان فيها البرتغاليون ما زالوا يمارسون نشاطهم التجاري في موانئ **كيوشو**، كان المسيحيون من التجار والحرفيين اليابانيين المتعاملين معهم يخيرون بين الردة أو فقدان تجارتهم ومصدر رزقهم، أو يمنع عليهم الاتصال بهم إن هم أصروا على الحفاظ على دينهم. كما ابتكرت وسيلة للاختبار الديني، تعرف بـ فومي (Fumie)[١٤] وتتمثّل في إجبار كل من اشتبه في معتقداته على امتهان الرموز المسيحية بالدوس مثلاً على صور المسيح والعذراء. وبعد أن جرى طرد للتجار والمبشرين بصورة نهائية، أنشئت لجان للتدقيق في الهوية الدينية تعرف بشومون أراتامي (Shûmon aratame) ـ شبيهة بمحاكم التفتيش الإسبانية ـ وهي عبارة عن لجان كانت تجتمع للنظر في شأن من يشك في دينهم. وقد استمرت في عملها معظم القرن السابع عشر. فعندما يعثر على شخص أو جماعة من هذا القبيل، كانوا يمثّلون أمام اللجنة ويمتحنون في دينهم، فإن ثبت انتماؤهم المسيحي أو شُك فيه، يتعرضون للتعذيب النفسي والجسدي إلى أن يعلنوا ردتهم، فإن لم يفعلوا يجري إعدامهم. هذا بالإضافة إلى إجبار جميع اليابانيين على التسجيل في واحد من المعابد البوذية. فابتداء من عام ١٦٣٨، أصبح كل ياباني مجبراً على تسجيل اسمه في سجلات المعابد البوذية ـ تعرف بتيرايوكي (Terauke) ـ[١٥] ويحصل عند الحاجة على وثيقة تثبت عدم اعتقاده في الديانة المسيحية؛ فمثلاً كان يُطلب من كل قادم جديد إلى مدينة **أوساكا**، أن يدلي بهذه الوثيقة قبل أن يسمح له بكراء أو شراء منزل في المدينة[١٦].

---

(١٤) فومي (Fumie) هو المصطلح التي تُعرف به صور المسيح والعذراء والقديسين المنقوشة على لوحات معدنية مختلفة الأحجام. وكان يجبر من يُشك في انتمائه المسيحي على الدوس عليها وامتهانها كوسيلة لمعرفة مدى وفائه للدين المسيحي. ومن ثم أصبحت هذه الوسيلة تعرف بفومي. انظر: «Fumie,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 368.

(١٥) حول نظام تيرايوكو، انظر: Kazuo Kasahara, eds., *A History of Japanese Religion*, translated by Paul McCarthy and Gaynor Sekimori (Tokyo: Kosei Publishing, 2001), pp. 342-344.

(١٦) انظر مادة: «Terauke,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 12.

وعلى الرغم من التشدد الذي أبدته الشجونة حيال المبشرين، فإن ما يزيد عن ٣٠ مبشراً أصروا على البقاء في الأرخبيل والعمل في السر، حيث تدّعي تقارير البعثات التبشيرية أن عدد المبشرين اليسوعيين ازداد في هذا الظرف العصيب ـ وصل إلى ٣٧ مبشراً ـ وأنهم تمكنوا من تنصير ما ينوف على ١٧ ألف فرد في حمأة حملة الاضطهاد. كما أن الوجود المسيحي لم ينته «رسمياً» في الجزر اليابانية إلا في أواخر عقد الستينيات من القرن السابع عشر؛ ففي عام ١٦٥٨، عُثر على ما اعتبر آخر مجموعة ظلت تمارس المعتقدات المسيحية سراً. ولم يكن يعني ذلك أن المعتقدات المسيحية اختفت نهائياً من المجتمع الياباني، إذ ظلت تمارس على نطاق محدود في مناطق من جزيرة كيوشو إلى نهاية عصر **توكوغاوا**. ذلك أن من ظلوا متشبثين بالعقيدة المسيحية، عملوا على إخفاء عقيدتهم وممارستها في إطار المعتقدات الشعبية، وامتنعوا عن إظهار ما يثير الشك حول انتمائهم المسيحي. والمثير أنه بعد قيام إصلاحات الميجي، اكتشف أحد المبشرين الفرنسيين عام ١٨٦٥ وجود ما يزيد على ٣٠ ألف فرد بالقرب من ميناء **ناغاساكي** ظلوا يعتقدون في المسيحية على طريقتهم الخاصة، وهم من عُرفوا بكاكوري كيريشيتان (Kakure Kirishitan)[١٧].

وبغضّ النظر عن الدوافع الدينية أو درء الخطر الذي يهدد معتقدات الشنتو والبوذية، يجدر بنا أن نتساءل عمّ إذا كان وجود المسيحيين في الأرخبيل شكل تهديداً لسلطة الدولة، أو في ما إذا كان هناك بُعد سياسي محض للتخلص من الدين المسيحي؟ فعند صدور مرسوم **توكوغاوا إياسو** (١٦١٤)، كانت أعداد المسيحيين اليابانيين في حدود ٣٠٠ ألف، حتى وإن كانت هناك تقديرات تضخّم العدد إلى ٧٠٠ ألف[١٨]، وعلى أي حال، فإن نسبة المسيحيين لم تكن تتعدى في أكثر التقديرات ٣ أو ٤ بالمئة من سكان يزيد عددهم على ١٢ مليون نسمة. أضف إلى هذا أن جُل المسيحيين كان متمركزاً في كيوشو، والكثير منهم اعتنق الدين تملقاً أو إكراهاً. فمن هذه الناحية، يمكن القول إن انتشار الديانة المسيحية في أثناء إصدار المرسوم لم يبلغ مرحلة تدعو إلى قلق السلطة، خاصة أن نشاط البعثات التبشيرية كان مر عليه أكثر من سبعة عقود، بيد أن نتائجه ظلت متواضعة. ومن ثم يكون الدافع مرتبطاً بقضية أكبر من الديانة المسيحية أو عدد

---

(١٧) انظر: Noriyoshi Tamaru and David Reid, eds., *Religion in Japanese Culture: Where Living Traditions Meet a Changing World* (Tokyo; New York: Kodansha International, 1996), p. 69.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٧.

معتنقيها. وهي قضية ربما كانت تتعلق باقتطاع أجزاء من اليابان أو إخراج عدد من الدايميو عن سلطة الشجون، أو باحتمال خضوع اليابان لحكم الأجانب. وهو ما تشير إليه بوضوح عبارة «تملّك البلاد» من قبل المسيحيين في مقدّم المرسوم. وواقع الأمر أن نشاط بعض المبشرين لم يكن يقتصر على نشر العقيدة المسيحية فحسب، بل كان يتعداه إلى خدمة مصالح البلدان القادمين منها، بتواطؤ مع الدايميو النصارى. فربان السفينة الإسبانية **سان فليبي**، التي جنحت إلى السواحل اليابانية وصادر **هيدي ـ يوشي** حمولتها، قال صراحة في تهديده إن المبشرين يمهدون الطريق للاحتلال. ونكتفي هنا بحادث يؤكد في حدود معيّنة ما ذهبنا إليه من وجود دافع سياسي وراء القرار الذي اتخذه **إياسو**. وقد وقع هذا الحادث قبل سنة من صدور مرسوم الحظر.

في عام ١٦١٣ أرسل **داتي ماساموني**(١٩) دايميو **موتسو** (شمال هونشو) مبعوثاً عنه ـ وهو أحد أتباعه يدعى **هاسيكورا تسوني ناغا**(٢٠) ـ إلى الملك **فيليب الثالث** (١٥٩٨ ـ ١٦٢١)(٢١) في مهمة تخص إقامة علاقة تجارية بين منطقة نفوذه والمستعمرات الإسبانية القريبة من اليابان. وبالفعل، سافر المبعوث ـ ومعه وفد كبير من الأتباع ـ على متن سفينة إسبانية اتخذت طريقها عبر الفيليبين والمكسيك (التي كانت تُعرف آنذاك بإسبانيا الجديدة (Neuva España)، حيث توقف هناك، واستقبله حاكم المكسيك. ثم توجه المبعوث إلى إسبانيا التي وصل إليها بعد سنة، حيث استُقبله الملك **فيليب الثالث** في مدريد، وجرى تعميده في حضرة الملك. ثم استأنف طريقه إلى روما، وهناك استقبله البابا **بولس الخامس** (١٦٠٥ ـ ١٦٢١)(٢٢). قد يبدو هذا الحدث عادياً في إطار التنافس بين الإرساليات على إظهار نجاحها للبابا؛ إذ كان هذا الوفد يمثل ثاني بعثة يابانية تسافر إلى أوروبا ويستقبلها البابا. لكن دعونا نتأمل قليلاً في الظروف التي أحاطت بهذه البعثة.

---

(١٩) داتي ماساموني (Date Masamune) (١٥٦٧ ـ ١٦٣٦) من كبار الدايميو في فترة توحيد اليابان، وينتمي إلى أُسرة عريقة من أُسر الساموراي التي وقفت إلى جانب ميناموتو في القرن الثالث عشر. وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن داتي ماساموني كان من الدايميو المؤيدين لتوكوغاوا إياسو وحاربوا في صفوفه في معركة سيكي غاهارا (Sekigahara) الحاسمة (١٦٠٠). انظر مادة: «Date Masamune,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 78.

(٢٠) (Hasekura Tsunenaga) (١٥٧١ ـ ١٦٢٢) أحد أتباع الدايميو ماساموني.

(٢١) الملك فيليب الثالث (١٥٧٨ ـ ١٦٢١) هو ابن الملك فيليب الثاني وملك إسبانيا من عام ١٥٩٨ إلى عام ١٦٢١. اشتهر في تاريخ المغرب والعالم الإسلامي بطرده للموريسكيين.

(٢٢) انظر تفاصيل هذا الحادث، في: Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 76.

ففي عام ١٦١١، وصل وفد إسباني برئاسة **سيبستيان بيسكاينو**(٢٣) إلى الأرخبيل بغاية تطوير علاقات تجارية بين اليابان ومستعمرة المكسيك. وقام داتي ماساموني باستدعاء أحد مرافقي الوفد من التجار (يدعى **رودريغو دو بيلاسكو**) لزيارة منطقة نفوذه شمال هونشو. وقبل ذلك التاريخ بقليل، كان **ماساموني** قد التقى بالراهب **لويس سوتيلو**(٢٤) في العاصمة إيدو، وفتح المجال لبعثته الفرنسيسكانية (الإسبانية) للعمل في مقاطعته، وكان ينوي إقامة كاتدرائية في عاصمته. ومن ثم يتضح أن إرسال المبعوث إلى مدريد وروما لم يأت صدفة، وإنما جاء نتيجة ترتيبات مسبقة وبإيعاز من الإرسالية التي كانت تعمل في عين المكان وتعرف الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة التي كانت تحوي مناجم مهمة من الفضة والذهب. وفوق هذا وذاك، فإن **هاسيكورا تسوني ناغا** سافر على متن سفينة **سيبستيان بيسكاينو**، وبرفقته إلى المكسيك.

تكمن أهمية الحدث في كونه يتعلق، من جهة، بواحد من كبار الدايميو وبمنطقة غنية بعيدة كل البعد عن جزيرة كيوشو، ويتعلق، من جهة أخرى، بإسبانيا ـ وليس بالبرتغال ـ التي كانت قد أنهت احتلال الفليبين، ولها مستعمرة كبرى على الساحل الآخر للمحيط الهادئ في القارة الأمريكية. ومع أن **داتي ماساموني** كان من الدايميو المقربين من **إياسو**، ومن حلفائه في معركة **سيكي غاهارا** الشهيرة، فإنه كان من المحتمل أن يصبح منافساً قوياً للشجون إن توافرت له الشروط المادية والعسكرية. وهذا ما كان سيتأتى له لو سار في مشروع التعاون مع الإسبان المحتلين للفيليبين والمكسيك؛ فالتجارة مصدر المال والسلاح. صحيح أن تحركاته لم تثمر، وأنه يذهب بعيداً في مشروعه، إلا أن فشله كان بسبب الموقف الحازم الذي اتخذه **إياسو** من المبشرين. فعندما عاد **هاسيكورا تسوني ـ ناغا** وجد الأوضاع تغيرت وحملة اضطهاد المسيحيين على أشدها. فحتى سيده **داتي ماساموني** تراجع عن موقفه، وارتد عن دينه المسيحي، وطرد المبشرين من أرضه، استجابة لمتطلبات الوضع المستجد في ظل تطبيق مقتضيات المرسوم المشار إليه سلفاً.

---

(٢٣) سيبستيان بيسكاينو (Sebastian Viscaino) (١٥٥١ ـ ١٦١٥) مبعوث إسباني جاء من قبل حاكم المكسيك بقصد إقامة علاقات تجارية مع اليابان، واستقبله الشجون «توكوغاوا إياسو» وابنه هيدي- داتا. وقد جاء أيضاً لتقديم الشكر للسلطات اليابانية على عنايتها بسفينة إسبانية كانت قد جنحت إلى الشواطئ اليابانية. انظر: Derek Massarella, *A World Elsewhere: Europe's Encounter with Japan in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (New Haven, CT: Yale University Press, 1990), p. 116.

(٢٤) لويس سوتيلو (Luis Sotelo)، كان من بين مرافقي هاسيكورا في زيارته إلى البابا. انظر: المصدر نفسه، ص ١٦٩.

ربما لا توجد علاقة مباشرة بين الحادث المشار إليه وإقدام **إياسو** على حظر الدين المسيحي رغم تزامنهما[٢٥]، غير أنه يمثّل نموذجاً من النشاط الذي كان المبشرون يقومون به بالإضافة إلى نشر الديني المسيحي؛ وهو نشاط كان يمس في العمق مشروع توحيد البلاد الذي سعى إليه زعماء القرن السادس عشر. ومن ثم يحق القول إن هناك دافعاً سياسياً وراء اتخاذ **إياسو** قرار التخلص من المبشرين والعقيدة المسيحية.

كانت ثمة جملة من العوامل أو الأسباب وراء رفض المجتمع الياباني للديانة المسيحية، تتعلق أساساً بطبيعة المعتقدات المسيحية ذاتها. ذلك أن الديانة المسيحية، سواء في القرن السادس عشر أو في الفترة الراهنة، ظلت غريبة على الثقافة اليابانية، ليس باعتبارها ديانة وافدة ـ فالبوذية هي أيضاً ديانة وافدة ـ لكن باعتبار طبيعة معتقداتها. فالتوحيد، أو عبادة الإله الواحد، الذي تدعو إليه المعتقدات المسيحية، يناقض تعدد الآلهة السائد في الثقافة الدينية اليابانية؛ كما أن الفصل النهائي بين الإله والإنسان في الديانات السماوية، يناقض الاستمرارية بين عالمي السماء والأرض، سواء في المعتقدات البوذية أو الشنتوية؛ فالكامي (آلهة الشنتو) تعيش في السماء كما تعيش في الأرض، و**بوذا** عاش بين البشر قبل أن تضفى عليه صفات القداسة والألوهية، وإمبراطور اليابان نموذج آخر في هذا الباب، فهو حفيد الآلهة يعيش بين الناس ويدبر أمورهم. أضف إلى هذا، الطابع الإقصائي الذي تتسم به الديانات السماوية عموماً؛ فمعتنق المسيحية أو الإسلام لا يمكن أن يكون إلا مسيحياً أو مسلماً، ولا شيء غير ذلك، بينما تتسم ديانتا الشنتو والبوذية بالمرونة والتعايش، إذ يمكن للفرد أن يكون بوذياً وشنتوياً دون أن يحصل تعارض أو إقصاء عقيدة لأخرى، فمعظم اليابانيين يعتقدون في آلهة الشتنو ويدينون بالبوذية ويدفنون بحسب طقوسها.

لا تخلو طبيعة المعتقدات المسيحية من بُعد سياسي، ألا وهو الولاء. فكما بات معروفاً لدينا، كان المجتمع الياباني يعتمد الولاء كأساس في العلاقات الاجتماعية والسياسية؛ فالساموراي يدينون بالولاء للدايميو، وهؤلاء يطوق أعناقهم الولاء

(٢٥) ربما لا توجد علاقة مباشرة بين الحادث المشار إليه في النص والمرسوم الذي أصدره إياسو عام ١٦١٤، غير أن المبعوث الإسباني إلى اليابان، سيبستيان بيسكاينو، استُقبله الشجون إياسو بنوع من الريبة، خاصة أنه امتنع عن الانحناء تعظيماً له. وممّا هو أكيد أن وليام آدمز كان وراء إصدار المرسوم بقصد التخلص من الاحتكار البرتغالي للتجارة الخارجية لليابان. انظر: Massarella, Ibid., pp. 116-117.

للشجون والالتزام بطاعته، والجميع يدين بالولاء للإمبراطور. بينما ولاء المسيحي الأول هو للمسيح؛ ومن ثم كان يُشك في أن يقدّم الدايميو والرعايا المتنصرون ولاءهم للمسيح على ولائهم للإمبراطور أو الشجون. وكما لا حظ أحد الباحثين، فإن اضطهاد المسيحية في تاريخ اليابان حصل في الفترات التي كان فيها المجتمع الياباني مقبلاً على التوحد وجمع الكلمة، وفي حاجة ماسة إلى تقوية هذا الولاء وتعزيزه، إذ وقع في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، أي في أوج توحيد البلاد بعد الحرب الأهلية وتمزق السلطة؛ وإبان الحرب العالمية الثانية، عندما كان اليابانيون في حاجة إلى الوحدة في مواجهة أمريكا.

واعتباراً لطبيعة الديانة المسيحية هاته ـ وليس بسبب سياسة الشجون وحدها ـ كانت حصيلة عمل الإرساليات هزيلة؛ فرغم تطلعات المبشرين المتفائلة في البداية وتفانيهم وتضحياتهم في سبيل نشر العقيدة، لم يتمكنوا من تنصير سوى عدد محدود من اليابانيين، كما لم ينجحوا في إقامة كنيسة محلية، مع الإشارة إلى أن إقبال الدايميو على الدخول في الدين المسيحي كان بسبب الرغبة في الحصول على نصيب من التجارة، وأن الكثير من أتباعهم أُرغموا على اعتناق الدين المسيحي. ومن ثم يمكن القول إن اعتناق البعض الدين المسيحي في النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يكن ناجماً عن اقتناع وإيمان صادق. وممّا يؤكد ذلك، أنه بعد أن عادت الإرساليات وعملت بحرية أكبر إثر انفتاح اليابان على الغرب عقب إصلاحات الميجي، لم يتمكن مختلف ممثلي الكنائس الغربية من نشر واسع للدين المسيحي، فعدد المسيحيين اليوم في اليابان لا يتعدى مليون ونصف مليون نسمة، معظمهم من الطبقة المتوسطة التي هي على اتصال مباشر بالثقافة الغربية[٢٦].

ثانياً: سياسة العزلة والتجارة الخارجية

يتضح ممّا سبق أن سياسة العزلة ارتبطت أساساً بالتخلص من الديانة المسيحية والمبشرين الداعين إليها؛ فكل المراسيم الصادرة في هذا الشأن، همت

(٢٦) تجدر الإشارة إلى أن المبشرين نشطوا بشكل مكثف بعد نهاية سياسة العزلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غير أن اليابانيين لم يقبلوا بحماسة على اعتناق الديانة المسيحية، إذ إن أعداد المسيحيين اليابانيين لم يزد في عام ١٩٩٤ على مليون ونصف مليون نسمة، أي ما يمثل نسبة ١ بالمئة. والملاحظ أن الذين يقبلون على الدين المسيحي هم من الطبقة الوسطى الحضرية التي تعلمت اللغات الأجنبية وكانت على اتصال بالثقافة الغربية في الجامعات. في ما يخص الإحصاءات المتعلقة بعدد المسيحيين اليوم، انظر: Tamaru and Reid, *Religion in Japanese Culture: Where Living Traditions Meet a Changing World*, pp. 222-223.

في المقام الأول بعثات التبشير والنصارى اليابانيين. لكن المثير أن ما انتهت إليه في آخر المطاف هو إغلاق أبواب اليابان، وطرد التجار البرتغاليين، ومنعهم من المتاجرة في الموانئ اليابانية، واحتكار الشجونة للتجارة الخارجية. فهل يمكن القول إن هذه الغاية الأخيرة كانت حاضرة في ذهن الشجون منذ البداية، وأنهم اتخذوا طرد المبشرين واضطهاد المسيحيين ذريعة ليتخلصوا من الهيمنة البرتغالية وليمنعوا الدايميو من المشاركة في هذه التجارة؟ يبقى هذا القول مجرد احتمال إن اعتمدنا فقط على ما هو واضح في المراسيم الخاصة بنشاط المبشرين الذي شكل خطراً على مشروع إخضاع البلاد لسلطة مركزية قوية، لكن إن نحن تتبعنا اهتمام الشجون بالتجارة الخارجية وحرصهم على مراقبتها، سيتضح لنا أن مسألة هذه التجارة ارتبطت هي أيضاً ارتباطاً وثيقاً بسياسة العزلة، وبعلاقات اليابان بجيرانها في شرق آسيا وجنوبها، وأنها لا تقل أهمية عن الخطر المسيحي. ونرى ضرورياً التذكير بمعطيات في هذا الشأن سبقت الإشارة إلى البعض منها.

١ ـ إن التجارة مع الصين، التي كانت المصدر الأول للمواد التي تستوردها اليابان من الخارج، احتلت مكانة خاصة في سياسة الحكومات المتعاقبة على اليابان منذ العصور القديمة (اليابانية). وقد كانت إمبراطورية الصين تشترط على الدول المجاورة أداء الإتاوة والتسليم بالتبعية لها مقابل السماح لهذه الدول بتسيير سفنها إلى الموانئ الصينية. وكان الشجون الثالث من أسرة أشيكاغا (يوشيميتسو، ١٣٦٨ ـ ١٤٠٨)، قد أحيا هذه العلاقات التجارية، وعقد اتفاقا مع إمبراطورية **مينغ** على أساس الاعتراف بالتبعية لإمبراطورها، والحصول منه على لقب «ملك اليابان». غير أن التبادل التجاري الرسمي مع الصين تأثر بغارات القراصنة اليابانيين (واكو)، التي أدت في النهاية إلى اتخاذ الصينيين قرار منع اليابانيين من المتاجرة في الموانئ الصينية (وذلك في عام ١٥٤٧). وقد استغل البرتغاليون هذا المنع في النصف الثاني من القرن السادس عشر ليقوموا بدور الوساطة بين اليابان والصين.

٢ ـ إن سينغوكو دايميو (دايميو الدويلات المتحاربة) انخرطوا في التجارة الخارجية منذ أمد ليس بقليل. فأُسر **أوتشي** غرب اليابان، و**أوتومو** و**شيمازو** في جزيرة كيوشو، كانت لها علاقات تجارية مباشرة مع الصين منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وهي الأسر ذاتها التي تعاونت مع التجار والمبشرين البرتغاليين، وفتحت لهم موانئها، ومكنتهم من العمل بحرية في غياب سلطة مركزية قوية.

٣ ـ إن استقلالية هذه الأُسر واستفادتها من عائدات التجارة الخارجية كانت تعرقل مشروع توحيد البلاد. لذا نجد أن أول خطوة أقدم عليها **هيدي ـ يوشي**، بعد إخضاعه غرب اليابان وجزيرة **كيوشو**، هي تقنين تجارة هاته الأُسر عن طريق إصدار تراخيص ممهورة بخاتمه القرمزي، كانت تمنح فقط لتجار بعينهم، وتتعلق بسفرية واحدة وبمكان معيّن، كما سبقت الإشارة في فصل سابق.

٤ ـ إن **توكوغاوا إياسو** وخَلَفه أبديا اهتماماً بالغاً بالتجارة الخارجية واستمرارها، رغم موقفهم المتشدد من المبشرين. فقد سار **إياسو** على نهج **هيدي ـ يوشي** في مراقبة التجارة الخارجية وإصدار تراخيص للتجار اليابانيين، كما أقدم على اتخاذ عدد من الإجراءات التي تعزز مراقبة الشجون لهذه التجارة وتطويرها. ومن بينها، وضع ميناء **ناغاساكي** تحت إدارة الشجونة المباشرة ـ وهو الميناء الذي أصبح في ما بعد المنفذ الوحيد للتجارة مع الخارج. وكذا اهتمامه ببناء السفن، والاستفادة من التقنيات الغربية المستعملة فيها. فمن بين الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ وليام آدمز مستشاراً لديه، معرفة هذا الأخير بصناعة السفن. وفي هذا الصدد أيضاً، أرسل إلى حاكم الفيليبين الإسباني في شأن تزويده بهذه التقنية.

ولعل المشكل الذي واجه **إياسو** وخَلَفه هو إيجاد حل لمعادلة صعبة تتمثل في التوفيق بين عناصر ثلاثة: استمرار التجارة الخارجية، وضمان وصول المواد التي كان السوق الياباني في حاجة إليها؛ التخلص من العقيدة المسيحية وإنهاء نشاط الإرساليات الذي ارتبط منذ البداية بالنشاط التجاري الأيبيري؛ وأخيراً منع الدايميو من الحصول على عائدات التجارة الخارجية التي تمكنهم من منافسة أسرة **توكوغاوا** اقتصادياً وعسكرياً. وقد وجدوا الحل **أولاً** في الإشراف المباشر على هذه التجارة ومراقبتها مراقبة دقيقة، و**ثانياً** في حصر هذه التجارة في بلد أوروبي واحد لا علاقة له بحركة التبشير. وهكذا وجدوا ضالتهم في **هولندا** التي نشط ممثلوها التجاريون في إقناع الشجون بإمكانية استمرار هذه التجارة على أيديهم، دون أن يؤثر ذلك في قرار الشجون بمنع الديانة المسيحية.

ثالثاً: استئثار هولندا بالتجارة الخارجية اليابانية

كانت إسبانيا الدولة الأوروبية الوحيدة التي كان ممثلون عنها حاضرين في الأرخبيل في النصف الثاني من القرن السادس عشر، إلى جانب البرتغاليين، خاصة بعد أن أصبحت لهم قاعدة في المنطقة في إثر احتلال الفيليبين عام

١٥٦٥، إلا أن نشاطهم التجاري تأخر إلى عام ١٥٨٤ وظل محدوداً مقارنة بنشاط البرتغاليين في هذا المجال. أما الدول الأوروبية الأخرى التي نافست البرتغاليين على تجارة اليابان بصورة جدية، فكانت أساساً بريطانيا وهولندا، حتى وإن تأخر وصول رعاياهما إلى الأرخبيل إلى مطلع القرن السابع عشر. وقد بدأ اهتمام البريطانيين والهولنديين بتجارة الشرق الأقصى في نهاية القرن السادس عشر، فآنذاك بدأت تصل إلى بريطانيا أصداء التقارير التي كان المبشرون البرتغاليون يبعثون بها، وأخذ التجار البريطانيون يفكرون في تسيير سفن إلى الشرق الأقصى للحصول على نصيب من تجارة التوابل وتسويق السلع البريطانية[٢٧].

ومع ذلك لم يبد البريطانيون اهتماماً كبيراً بالسوق الياباني، رغم نجاحهم في الحصول على تصريح بالمتاجرة في الموانئ اليابانية (١٦١٣)، بينما تطلع الهولنديون إلى منافسة البرتغاليين، سواء في اليابان أو في جنوب شرقي آسيا. والواقع أن المنافسة بين هاتين الدولتين ـ هولندا والبرتغال ـ في هذه الفترة بالذات كانت جزءاً من صراع قوي بينهما على احتكار تجارة جنوب شرقي آسيا، أضيف إلى العداء القائم بينهما في إطار الحرب الدائرة بين الهولنديين والإسبان، حلفاء البرتغاليين[٢٨]. ونرى من المستحسن الإشارة، ولو باقتضاب، إلى بعض المتغيرات التي طرأت، سواء على صعيد اليابان أو على صعيد أوروبا، والتي من شأنها الإفادة في إدراك المناخ العام الذي تحرك فيه الهولنديون وغيرهم من الأوروبيين في مطلع القرن السابع عشر.

على صعيد اليابان، وكما أضحى معروفاً لدينا، تمكن **توكوغاوا إياسو** في عام ١٦٠٣ من الحصول على لقب الشجون، واتخاذ الإجراءات اللازمة لتدعيم حكم عسكري قوي يخضع له الدايميو كلهم. ومن ثم يمكن القول إن الأوضاع تغيرت بشكل جذري لصالح سلطة مركزية قوية في إمكانها التحكم في التجارة الخارجية وفي تنقل الرعايا الأجانب داخل البلاد. كما أن الدايميو لم يعودوا، بعد خضوعهم للسلطة المركزية، يتمتعون بالقدر ذاته من الحرية في رعاية نشاط

---

(٢٧) أول ذكر لليابان في المصادر البريطانية، نجده عند المحامي والجغرافي البريطاني الشهير ريتشارد هاكلويت (Richard Hakluyt) (١٥٥٢ ـ ١٦١٦) في مؤلفه: *Principal Navigations*، الصادر في نهاية القرن السادس عشر (١٥٨٠). وفي ما يخص اهتمام الإنكليز بالشرق الأقصى، ورحلاتهم التجارية الأولى، انظر: Massarella, Ibid., pp. 49-88.

(٢٨) تجب الإشارة هنا إلى أن البرتغال أصبح تابعاً للتاج الإسباني عام ١٥٨٠.

تجاري خارجي خاص بهم أو تقديم الحماية للبعثات التبشيرية. أضف إلى هذا وذاك السياسة المعادية للديانة المسيحية وحركة التبشير التي تبنّتها سلطات **توكوغاوا**، وانعكست سلباً على التجار البرتغاليين الذين ارتبطوا بالمبشرين وبمجال نفوذهم ارتباطاً وثيقاً.

أما على صعيد أوروبا وهولندا بالذات، فقد كانت الأراضي المنخفضة في منتصف القرن السادس عشر تقع ضمن ممتلكات التاج الإسباني، في إطار علاقات القرابة والمصاهرة التي كانت تجمع بين الأُسر المالكة الأوروبية، خاصة بين فروع أُسرة **هابسبورغ** الحاكمة في كل من النمسا وإسبانيا. فعندما تولى الملك **فيليب الثاني** عرش إسبانيا، ورث أيضاً إمارات الأراضي المنخفضة، غير أن ثورة على العرش الإسباني اندلعت بقيادة **وليام** أمير **أورانج** أدت في عام ١٥٧٤ إلى إعلان استقلال الإمارات الشمالية (هولندا حالياً) تحت اسم **الأقاليم المتحدة**[٢٩] وبمجرد تأسيس هذه الدولة، سارع تجارها إلى البحث عن دعم اقتصادي لبلدهم الفتي، فكان من بين ما سعوا إليه الحصول على نصيب في تجارة الشرق الأقصى. ولتحقيق هذه الغاية، أسسوا منذ عام ١٧٩٥ شركات للملاحة والتجارة، اندمجت عام ١٦٠٢ في مؤسسة واحدة ترعاها الدولة هي **شركة الهند الشرقية الهولندية**[٣٠]. وقد كانت غاية هذه الشركة، والتي سبقتها، الوصول إلى مصادر التوابل، وفي مقدمتها الجزر الإندونيسية، وهو ما أدى إلى دخول الهولنديين في

(٢٩) كانت أسرة هابسبورغ (Habsburg) في القرن السادس عشر مهيمنة على عدد من عروش أوروبا، خاصةً في مركزيها النمسا وإسبانيا. وفي إطار علاقات القرابة والمصاهرة بين هذه الأُسرة وأُسر ملكية أخرى، وقعت الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا اليوم) تحت سيطرة إسبانيا. وهكذا ورث ملك إسبانيا فيليب الثاني (من عام ١٥٥٩ إلى عام ١٥٩٨) إمارات الأراضي المنخفضة. وقد ثار وليام أمير أورانج على العرش الإسباني، ونجح في تحقيق استقلال منطقة شمال الأراضي المنخفضة عن عرش إسبانيا، وهي التي عُرفت في بداية الأمر بـ «الأقاليم المتحدة»، وكانت عاصمتها أمستردام.

(٣٠) شركة الهند الشرقية الهولندية (Dutch East India Company) أو(Vereenigde Oost-Indische Compagnie)، شركة كانت تابعة رسمياً للحكومة الهولندية. تأسست عام ١٦٠٢ لرعاية المصالح التجارية الهولندية وحمايتها. وقد مثلت أداة في يد الحكومة الهولندية للتوسع الاستعماري والتجاري في منطقة الشرق الأقصى خلال القرن السابع عشر. ففي ظرف وجيز، أصبحت هذه الشركة من أهم الشركات التجارية العالمية في القرن السابع عشر وأقواها، نتيجة الاحتكار التجاري، وما منحته لها الحكومة الهولندية من صلاحيات تمكنها من بناء القلاع الدفاعية في المناطق الخاضعة للحكم الهولندي التي تتاجر بها، وعقد اتفاقيات السلم والتجارة، والدخول في التحالفات؛ أي كل ما كانت تراه ضرورياً لتوسيع مجال هولندا التجاري وحفظ مصالحها التجارية. لكن أوضاع الشركة تدهورت في القرن الثامن عشر، وانتقلت من شركة تجارية ملاحية إلى شركة تهتم بالإنتاج الزراعي، غير أن ديونها تكاثرت وأشرفت على الإفلاس، وهو ما أدى في النهاية إلى حلها في عام ١٧٩٩. انظر مادة: «Dutch East India Company,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

صراع مع البرتغاليين الذين سبقوهم إلى احتكار تجارة المنطقة(٣١). وقد تمكن الهولنديون من إزاحة البرتغاليين من عدد من المواقع، من بينها جزيرة **جاوا** التي احتلوها واتخذوها قاعدة لتجارتهم في الشرق الأقصى. ففي عام ١٦١٩ أقاموا فيها مركزاً في موقع **جاكارتا** الحالي أطلقوا عليه اسم **باتافيا**(٣٢). وفي عام ١٦٤١ احتلوا مدينة **مالاكا** التي مثّلت موقعاً استراتيجياً في التجارة البرتغالية في جنوب شرقي آسيا.

إن تحرك الهولنديين في جنوب شرقي آسيا والشرق الأقصى في مطلع القرن السابع عشر جعلهم على علم بما يجري في اليابان من سياسة معادية للمسيحيين، ولحركة التبشير التي كان البرتغاليون والإسبان يرعونها. وهكذا تحرك الهولنديون بذكاء، لا من أجل الحصول على نصيب في تجارة اليابان فحسب، بل بغاية إبعاد البرتغاليين تماماً من هذه التجارة واحتكارها لأنفسهم أيضاً. ففي عام ١٦١٠، بعث أمير **أورانج** برسالة إلى الشجون **إياسو** يحذره فيها من «جماعة اليسوع»، التي تهدف إلى تنصير اليابانيين كافة، الأمر الذي قد يودي بالبلاد إلى حرب أهلية، مذكّراً السلطات اليابانية في الوقت نفسه بأن اهتمام الهولنديين الرئيسي هو التجارة، وأن لا علاقة لهم بالكنيسة أو بالدعوة إلى الدين المسيحي. وبالفعل، تمكنت الشركة في العام التالي (١٦١١) من الحصول على تصريح رسمي من الشجون يسمح لها بالتجارة في جميع أرجاء اليابان، وبإقامة مخازن لها في ميناء **هيرادو**(٣٣). وفي الفترة ذاتها تقريباً حصلت

---

(٣١) ممّا تجدر الإشارة إليه عن هذا الصراع بين البرتغاليين والهولنديين حول تجارة جنوب شرقي آسيا، ما أثاره من نزاع قانوني حول حرية التجارة. فقد أدلى به رجل القانون الهولندي هوغو غروتييس (Hugo Grotuis) بأول مشورة قانونية في هذا الشأن. ففي عام ١٦٠٤ طلبت **شركة الهند الشرقية الهولندية** من غروتييس إبداء رأي قانوني في صراعها مع البرتغاليين حول احتكار هؤلاء لتجارة جنوب شرقي آسيا التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم. وقد أفتى بمبدأ حرية التجارة. وقد ضمّن هذا الرأي في كتيب جرى تداوله في تلك الفترة تحت عنوان *Mare Liberum*، ويعتبر من المصادر القانونية الأولى لحرية التجارة في البحار. انظر مادة: «Hugo Grotuis,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

(٣٢) باتافيا (Batavia) هو الاسم الذي أطلقه الهولنديون على موقع جاكارتا، عاصمة إندونيسيا اليوم. وقد كان الهولنديون قد احتلوها عام ١٦١٩ واتخذوا منها مركزاً تجارياً، وقاعدةً لاحتلال بقية جزيرة جاوا والجزر الإندونيسية الأخرى.

(٣٣) أورد كايمبفر في مؤلفه ترجمة لنص التصريح الذي حصلت عليه **شركة الهند الشرقية الهولندية** من الشجون عام ١٦١١، وهو تصريح يمنح الشركة حق إقامة مركز تجاري في مدينة هيرادو، ويدعو إلى احترام الهولنديين ومعاملتهم معاملة حسنة من قِبل السلطات اليابانية. انظر: Engelbert Kaempfer, ed., *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*, translated by Beatrice M. Bodart-Bailey (Honolulu: University of Hawaii Press, 1999), p. 229.

شركة الهند الشرقية الإنكليزية(٣٤) على تصريح مماثل عام ١٦١٣. ولا يفوتنا هنا ذكر شخصية بريطانية كان لها دور رئيسي في كسر الاحتكار الأيبيري وحصول هاتين الشركتين على امتياز المتاجرة في الموانئ اليابانية، ونعني به **وليام آدمز** الذي عرّفنا بدوره في أماكن أخرى من هذه الدراسة. فهو كان مهتماً بكسر الاحتكار الأيبيري لتجارة اليابان، فسخّر لذلك حظوته لدى الشجون، وشجع الهولنديين والإنكليز على المتاجرة في الموانئ اليابانية، ممهداً لهم الطريق عند سلطات الشجونة.

يمكن تقسيم الوجود الهولندي في اليابان إلى مرحلتين:

مرحلة **أولى** دامت من حصول الشركة الهولندية على التصريح بالمتاجرة عام ١٦١٠ إلى إقرار سياسة العزلة عام ١٦٣٩، وهي مرحلة كانت التجارة الخارجية اليابانية ما تزال مفتوحة في وجه الأجانب، بمن فيهم البرتغاليون والإسبان والإنكليز.

ومرحلة **ثانية** احتكر فيها الهولنديون، دون غيرهم من الأوروبيين، هذه التجارة. وهي مرحلة دامت من إقرار سياسة العزلة إلى أن اضطرت الشجونة إلى فتح أبواب اليابان والتخلي عن سياسة العزلة بضغط من الولايات المتحدة عام ١٨٥٤. فما سبب اختيار هولندا بالذات دون غيرها من الدول الأوروبية لتعويض البرتغاليين والإسبان، الذين مُنعوا رسمياً من متابعة نشاطهم التجاري في اليابان؟

السبب الديني هو الراجح، من وجهة نظر اليابانيين؛ فسياسة العزلة كانت تهدف إلى منع الديانة المسيحية، ومحو كل مظاهرها ورموزها من الأرخبيل. في حين ارتبطت التجارة الأيبيرية وحركة التبشير ارتباطاً وثيقاً يصعب فيه فصل إحداهما عن الأخرى كما لو كانتا وجهين لعملة واحدة. وفي المقابل، أبعد الهولنديون أنفسهم عن النشاط الديني منذ اتصالاتهم الأولى باليابانيين، وأظهروا في أكثر من مناسبة عدم اكتراثهم بنشر الديانة المسيحية؛ فإضافة إلى كونهم من

---

(٣٤) شركة الهند الشرقية البريطانية (The English East India Company) (وتعرف اختصاراً بـ (EIC) تأسست في عام ١٦٠٠ لاستغلال تجارة شرق آسيا والهند. وقد مارست احتكار التجارة البريطانية في الشرق الأقصى، وعملت كأداة للتوسع الإمبريالي البريطاني في الهند، في القرن الثامن عشر. كما كان لها دور في فتح أبواب الصين في القرن التاسع عشر. انظر مادة: «The English East India Company,» *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

أتباع المذهب البروتستانتي، وغير خاضعين لنفوذ الكنيسة البابوية التي كانت ترعى نشاط التبشير، فإنهم في الأساس تجار، يهمهم الربح بغض النظر عن القيم الدينية وغيرها. وقد بدا ذلك جلياً في حادث **شميبارا** (١٦٣٧)؛ ففي خضم الحملة التي كان الشجون **توكوغاوا إييميتسو** يشنها لقمع الانتفاضة، وفي أثناء محاصرته الثائرين، طلب من الهولنديين المتمركزين في ميناء **ناغاساكي** المساعدة على كسر المقاومة، فلم تتردد السفن الهولندية في قصف «إخوانهم المسيحيين» بأكثر من ٤٢٦ قذيفة مدفع[٣٥]. ولعلهم بعملهم ذاك أرادوا أن يثبتوا ولاءهم للشجون وعدم ارتباطهم بالولاء للمسيحية التي تجمعهم بإخوانهم في الدين. وقبل هذا الحادث عمل الهولنديون كل ما في وسعهم لإرضاء الشجون وحاشيته وتملقهم بالهدايا ليحافظوا على نشاطهم التجاري في ظل السياسة المعادية للمسيحية. وبالفعل كان لهم ما أرادوا، واختار الشجون هولندا لتكون الشريك التجاري الأوروبي الوحيد لليابان في أثناء الالتزام بسياسة العزلة.

جاء اختيار الشجون للهولنديين أيضاً نتيجة خضوع هؤلاء لجميع الشروط التي فرضتها عليهم السلطات اليابانية، والتي أقل ما يقال عنها إنها كانت مهينة، تنعدم فيها أبسط الحقوق التي يمكن أن يتمتع بها المقيم في بلد أجنبي. فإضافة إلى الامتناع التام عن نشر الديانة المسيحية والتبليغ عن أي نشاط يمت بصلة إلى التبشير تلحظه السفن الهولندية بالقرب من السواحل اليابانية، التزمت البعثة التجارية الهولندية بعدم إقامة القداس أيام الآحاد، والاحتفال بالأعياد الدينية، والترنم بالأناشيد الدينية أو إظهار أي رمز له صلة بالمسيحية، كتعليق الصلبان على مبانيها. ويضاف إلى هذا كله الإقامة الجبرية التي فُرضت عليها. ففي عام ١٦٤١ طُلب من البعثة الانتقال إلى جزيرة صغيرة قبالة ميناء **ناغاساكي** تُعرف باسم **ديشيما**[٣٦]، وهي جزيرة صغيرة محروسة لم يكن يقيم فيها سوى أفراد البعثة مع خدامهم الذين كان يُمنع عليهم مغادرتها دون إذن من حاكم ميناء

(٣٥) Kaempfer, Ibid., p. 188.

(٣٦) ديشيما جزيرة صغيرة جداً (طولها حوالى ٦٠٠م وعرضها ٢٤٠م) قبالة ميناء ناغاساكي. وترتبط بالميناء بجسر محروس، وتزوَّد بالماء من الميناء ذاته عبر أنابيب من قصب الخيزران. وكان فيها مجمع يحيط به سور يضم مخازن بضاعة، ودور تحيط بها حدائق لزرع الخضر، شيد خصيصاً للتجار البرتغاليين، وهو الذي سلّم إلى البعثة الهولندية مقابل كراء سنوي بعد رحيل البرتغاليين. وحسب وصف كايمفر، فإن الجزيرة أقرب ما تكون إلى السجن منها إلى مكان إقامة عادي. وقد وضعت على مدخل المجمع علامات تمنع الأهالي من الدخول إليه ما عدا العاهرات، كما كان محظوراً على الهولنديين والأجانب العاملين في البعثة التحرك في الجزيرة خارج النطاق المحدد لهم. انظر: المصدر نفسه.

ناغاساكي، ويحظر على اليابانيين دخولها. فـ **كايمبفر** الذي عاش فيها قرابة السنتين (١٦٩١ ـ ١٦٩٢) يقول إنها أقرب ما تكون إلى السجن، وإن الحياة فيها مملة ورتيبة يصعب تحملها[٣٧]. وقد كان **كايمبفر**، رغم عمله مع الهولنديين، من منتقدي صبرهم على المهانة مقابل الربح. يقول:

«في عام ١٦٤١، وبمجرد الإبعاد النهائي للبرتغاليين، صدرت الأوامر بأن نتخلى عن مقر وكالتنا التجارية القديمة بـ **هيرادو**، وأن نستبدل الحماية التي كنا نلقاها من أمير [دايميو] طيب ومتسامح، بالخضوع لحكومة **ناغاساكي** القاسية والصارمة، وأن نحبس أنفسنا تحت مراقبة مشددة داخل جزيرة صغيرة، الأصح أن يقال عنها إنها سجن بني للبرتغاليين. فبقدر ما كان جشع الهولنديين كبيراً، كان إغراء ذهب اليابان أقوى وأعظم. . ففي السعي وراء تجارة مربحة، ارتضى [ممثلو البعثة التجارية الهولندية] وضع أنفسهم في حبس دائم، ومن ثم كانت إقامتنا في **ديشيما**. . . لقد اختاروا تكبد مشاق كثيرة في بلد أجنبي وثني وغير متمدن، يتخلون فيه عن ممارسة شعائرهم الدينية أيام الآحاد، والاحتفال بأعيادهم، وعدم إقامة الصلوات والترنم بالأناشيد الدينية، والتخلي التام عن إظهار رمز الصليب أو الدعاء باسم المسيح أمام الأهالي أو إظهار أية علامة مسيحية. . . وأخيرا تحمل السلوك الفظ لهؤلاء الكفار (Infidels) الفخورين»[٣٨].

قد يكون قبول الشروط المشار إليها مبرراً من باب الغاية تبرر الوسيلة، أو في سبيل المال تهون الصعاب[٣٩]، لكن ما أثار انتقادات المؤرخين ومن كتبوا في الموضوع هو قبول الشركة الهولندية شرطاً آخر اعتُبر إهانة لكرامة الرجل «الأوروبي». فقد فُرض على رئيس البعثة التجارية أن يقوم سنوياً ـ عندما يصدر إليه الأمر ـ بزيارة العاصمة إيدو مصحوباً بالهدايا التي يرغب فيها الشجون،

---

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) في هذا الصدد تغنى الشاعر الهولندي فونديل (Joost Van den Vondel)، الذي عاش في القرن السابع عشر (١٥٨٧ ـ ١٦٧٩)، عندما زار أحد المراكز التجارية في جنوب شرقي آسيا، بقصيدة قال فيها:

حيثما يقودنا الربح، إلى كل بحر وشاطئ نسير،
حباً في الكسب، نستكشف كل مرافئ المعمور.

Wherever Profit Lead Us, to Every Sea and Shore
For Love of Gain the Wide World's Harbors we Explore.

ورد هذا النص الشعري مترجماً إلى الإنكليزية، في: Donald Keen, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830* (Stanford, CT: Stanford University Press, 1969), p. 3.

ويقدم الولاء لهذا الأخير على النحو الذي كان الدايميو يقومون به. وكان الولاء يتضمن الركوع والسجود بصورة مهينة أمام عرش الشجون(٤٠). فسلوك الهولنديين هذا، وقبولهم أوضاعاً يضحون فيها بالقيم الدينية والأخلاقية في سبيل تحقيق المنفعة المادية، هما ما أثارا الانتقاد، بل حتى الاستهجان(٤١). وعموماً لم يتردد الهولنديون في القيام بما كان الأوروبيون يستنكفون عن القيام به لتحقيق مصالحهم التجارية. فعندما زار ممثل عن الشركة الهولندية بيجين [بكين] عام ١٦٨٥، لم يتردد في الركوع أمام إمبراطور الصين ووضع جبهته على الأرض ثلاث مرات ثم تسع مرات على طريقة «الكوتو»(٤٢) المتبعة آنذاك في البلاط الصيني، في حين استنكف الكثير من المبعوثين الأجانب عن القيام بذلك، مثل المبعوث الروسي الذي علل رفضه بأن السجود لا يكون إلا للإله(٤٣).

---

(٤٠) يصف كايمفر استقبال الولاء الذي حدث في عام ١٦٩١ على النحو التالي: وما إن ظهر القبطان في البهو حتى صاح أحدهم بصوت عال مبالغ فيه «أوراند كابتن» [القبطان الهولندي] ليحثه على التقدم خطوة وإبداء احترامه. بعد ذلك انحنى [الكابتن] إلى الأرض وسار يحبو إلى الأمام على يديه وركبتيه في ممر بين صفي الهدايا التي وضعت واحدة فوق الأخرى أمام عرش الشجون. [وبعد أن توقف برهة] جاثماً على ركبتيه، أخذ يحني رأسه مراراً إلى الأرض، ثم تراجع حبواً إلى الوراء بالطريقة ذاتها التي تقدم بها على نحو شبيه [بزحف] جراد البحر دون أن يتبادلا [الكابتن والشجون] كلمة واحدة.

انظر: محمد أعفيف، «الولاء والدبلوماسية: نموذج العلاقة بين اليابان وهولندا خلال القرن الثامن عشر،» في: **التاريخ والدبلوماسية: قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق وتقديم عبد المجيد القدوري (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٣)، ص ١٤١-١٧٢.

(٤١) انتقد المؤرخ الفرنسي هنري كوردي (Henri Cordier) في كتاب له عن التاريخ العام للصين وعلاقتها بالدول الأجنبية سلوك الهولنديين. يقول:

»Ils sacrifient tout, amis comme ennemis ... même la religion ... pour ménager leur crédit. L'histoire coloniale des Hollandais est une belle page de l'histoire du développement commercial de l'Europe, mais une vilaine page de l'histoire de l'humanité«.

Cordier Henri, *Histoire geéneérale de la Chine et de ses relations avec les pays étrangers depuis les temps les plus anciens jusqu'à la chute de la dynastie mandchoue*, 4 vols. (Paris: Paul Geuthner, 1920), vol. 3, p. 231.

ورد هذا النص مستشهداً به في: Christopher Howe, *The Origins of Japanese Trade Supremacy: Development and Technology in Asia from 1540 to the Pacific War* (Chicago, IL: The University of Chicago Press, 1996), p. 18.

(٤٢) «الكوتو» (Kowtow) طقس كان متبعاً في البلاط الصيني يتعين على كل من يستقبلهم الإمبراطور القيام به أمامه. ويتمثل في الركوع، ثم وضع الجبهة على الأرض ثلاث مرات ثم تسع مرات (في وضع قريب من السجود). وهو طقس كان متبعاً أيضاً في العبادة. وقد فرض البلاط الصيني هذا التقليد على الزوار الأجانب، حيث اعتبر قيامهم بذلك اعترافاً بالأصل الإلهي للإمبراطور واعترافاً بمركزية الصين في العالم. وكان من نتائج حرب الأفيون (١٨٤٠) إلغاء هذا التقليد. انظر مادة: «Kowtow,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom)..

(٤٣) Keen, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*, p. 4.

واقع الأمر أن هولندا كانت في القرن السابع عشر تعيش عصراً ذهبياً هيمنت فيه على التجارة العالمية، حيث أصبحت أمستردام المركز التجاري الأول في أوروبا، في حين تراجعت البرتغال وإسبانيا؛ إذ كانت السفن التجارية الهولندية تجوب كل بحار المعمور وتتاجر بكلّ شيء. ومن ثم، فإن الحرص على احتكار تجارة اليابان هو حرص على شبكة تجارية كانت تغطي معظم المراكز التجارية الرئيسية في العالم القديم. وكان من نتائج تحمل الإهانة والتضحية بالقيم أن تمكن الهولنديون من إرساء دعائم نشاط تجاري في اليابان لم ينقطع طوال فترة العزلة (١٦٣٩ ـ ١٨٥٤)، تمكنوا خلالها من تسيير ٦٠٠ سفينة إلى ميناء **ناغاساكي** محملة بالبضائع من أوروبا والمراكز التجارية الخاضعة لهم، أو التي يتاجرون بها[٤٤].

وقد أورد **كايمبفر**، الذي عاين هذه التجارة عن قرب في نهاية القرن السابع عشر، قائمة بالمواد التي كانت السفن الهولندية تحملها إلى اليابان. وهي بضائع مستوردة من كل أرجاء العالم القديم: الحرير الخام من **الصين** و**تونكان** و**بلاد فارس**، والثياب القطنية من أوروبا، وجلود الحيوانات من **البنغال**، والفلفل الأسود والسكر وعود الصندل والمسك وتوابل أخرى من **تيمور** و**بورنيو** و**سومطرة**، إضافة إلى مواد أخرى متنوعة من الجزيرة العربية و**الموزامبيق** و**سيام** و**كمبوديا**[٤٥]؛ إذ يعكس هذا التنوع مدى توسع الشبكة التجارية التي كانت تتحرك فيها شركة الهند الشرقية الهولندية التي ساهمت بشكل كبير في الازدهار الاقتصادي الذي عرفته هولندا في القرن السابع عشر. ففي إطار هذه الشبكة المتسعة، كانت تجارة اليابان ـ حسب **كايمبفر** ـ تدر أرباحاً مهمة على الهولنديين لا تقل في شيء عما كان البرتغاليون يجنونها منها[٤٦].

رغم الحصار الذي ضُرب على البعثة التجارية الهولندية، والقيود التي فُرضت على تحركات أفرادها، كان وجود الهولنديين في أرخبيل اليابان مدة تنوف على قرنين ونصف قرن ذا تأثير واضح في معرفة اليابانيين بالغرب. فقد كانت

---

(٤٤) في الفترة ١٦٤١ - ١٨٤٨، بلغ عدد السفن الهولندية التي رست في ميناء ناغاساكي ٦٠٦ سفن، بمعدل ثلاث سفن في السنة، مع الإشارة إلى أن النشاط التجاري الهولندي قلّ بشكل لافت بعد حلّ **شركة الهند الشرقية الهولندية** عام ١٧٩٩. انظر: Frits Vos, «Netherlands and Japan,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 5, pp. 361-363.

(٤٥) Kaempfer, ed., *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*, p. 209.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢١٣.

البعثة همزة وصل بين اليابان وأوروبا، عبرها تسربت معارف غربية أصبحت تدرّس بشكل منظم في القرن الثامن عشر في إطار ما كان يُعرف بالدراسات الهولندية ـ وهو ما سنعود إلى التفصيل فيه في فصل لاحق ـ ومن خلال ما كتبه أعضاء البعثة تعرف الغربيون على اليابان. وأحسن مثال في هذا الباب، **تاريخ اليابان** لـ **إنجلبرت كايمبفر** الذي اعتمدنا عليه كثيراً في هذا الفصل، وكان أول مؤلف يُنشر بلغة أوروبية في مطلع القرن الثامن عشر عن هذا البلد، ويُعتمد مرجعاً في الجامعات الغربية.

رابعاً: استئناف العلاقة مع كوريا: التجارة وتأكيد المشروعية

شكلت البضائع الصينية حصة مهمة من واردات اليابان من الخارج، ومن ثم كان التجار اليابانيون والسلطات المتعاقبة على حكم اليابان يحرصون على تلبية حاجيات الأرخبيل من هذه البضائع. وعندما حظر الصينيون التعامل التجاري مع اليابان في أواسط القرن السادس عشر (١٥٤٧)، نشط القراصنة والمغامرون من التجار الصينيين في تهريب المنتجات الصينية وتزويد عملائهم اليابانيين بها. وفي السياق ذاته، كانت السفن التجارية الأوروبية ـ البرتغالية في مرحلة أولى والهولندية في مرحلة ثانية ـ تأتي محمّلة في قسم منها بما تقتنيه من البضائع الصينية، سواء من الموانئ الصينية ذاتها أو من المراكز التجارية في جنوب شرقي آسيا التي يكثر فيها التجار الصينيون، كما هو واضح في الفقرات السالفة. غير أن الوساطة الأوروبية لم تكن الوحيدة في هذا الباب؛ إذ شكلت **كوريا** وجزر **ريوكيو** معبرين للبضائع الصينية، ومصدراً لا يقل أهمية في تزويد السوق الياباني.

كانت **كوريا** على مر العصور حلقة وصل بين الجزر اليابانية والقارة الآسيوية، خاصة الصين؛ إذ كانت بمثابة جسر ومعبر للإنسان والثقافة، وباب من أبواب التجارة. وقد شكلت جزيرة **تسوشيما**، التي تقع وسط المضيق الفاصل بين شمال جزيرة كيوشو وجنوب شبه الجزيرة الكورية، مركزاً حيوياً للتبادل التجاري والنقل بين القارة والأرخبيل. ومنذ أواخر القرن الثاني عشر، خضعت هذه الجزيرة لحكم أُسرة صو (Sô)[٤٧] التي توارثت منصب الشوغو فيها،

(٤٧) أُسرة صو من أُسر الدايميو العريقة، ذلك أنها تولّت منصب الشوغو (أو الحاكم العسكري) على جزيرة تسوشيما منذ عصر كاماكورا. وقد استمرت في البقاء كواحدة من أُسر الدايميو في عصر إيدو. انظر مادة: «So Family,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 220.

وأصبحت من أُسر دايميو الدويلات المتحاربة إبان الحرب الأهلية، ثم جرى الإبقاء عليها كواحدة من أُسر الدايميو (توزاما) الكبيرة طوال عصر **إيدو**. وقد حافظت هذه الأُسرة على علاقات ودية مع السلطات الكورية بسبب موقعها ومصالحها التجارية، فرغم خضوعها رسمياً للحكم الياباني، فإنها كانت تدخل أحياناً في علاقة تبعية مع كوريا، وتؤدي الإتاوة لسلطاتها مقابل استمرار نشاطها التجاري[٤٨].

تأثرت علاقة اليابان بكوريا سلباً بالحملة التي شنها **هيدي ـ يوشي** في أواخر القرن السادس عشر (١٥٩٢ و١٥٩٧)، ورام من خلالها الوصول إلى الصين. وبعد أن استقرت الأوضاع لـ **توكوغاوا إياسو**، أبدى رغبة أكيدة في إحياء العلاقات مع كوريا، وإصلاح الأخطاء التي ارتكبها سلفه، ولربما كان يأمل في عودة اليابان ثانية ـ عن طريق كوريا ـ إلى حظيرة العالم الصيني الذي أُقصي منه منذ ما ينوف على نصف قرن من الزمن[٤٩]. فبمجرد استلامه مقاليد السلطة (١٦٠٣)، شرع في إرجاع عدد من الرعايا الكوريين الذين ظلوا محتجزين في اليابان منذ الحملة المشار إليها. وقد بلغ عدد من أُعيدوا إلى ديارهم إلى حدود عام ١٦٠٥ قرابة ٦ آلاف فرد[٥٠]، وهو ما كان سبباً في استعادة الثقة بين أسرة **يي** (Yi) (١٣٩٢ ـ ١٩١٠) الحاكمة آنذاك في كوريا[٥١] وأُسرة **توكوغاوا**.

وهكذا استؤنفت العلاقات تدريجياً بين البلدين، وأرسلت السلطات الكورية

---

(٤٨) حدث في عام ١٤٦١ أن طلب متزعم أُسرة صو شيغي ـ موتو (So Shigemoto) (١٤١٩ ـ ١٤٦٧) من البلاط الكوري تعيينه حاكماً على جزيرة تسوشيما. ذلك أن أُسرة صو كانت تستغل الظروف السياسية والاقتصادية، وتستفيد من وضعها الجغرافي الخاص وعلاقتها بكوريا لتدعيم سلطتها على جزيرة تسوشيما. انظر: Jurgis Elisonas, «The Inseparable Trinity: Japan's Relations with China and Korea,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 245.

(٤٩) Toby, «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu,» pp. 229-330.

(٥٠) كانت أول دفعة من الذين أعيدوا إلى كوريا سنة ١٦٠٣، وقد بلغ عددهم ٨٠٠ فرد. ثم استمر إطلاق سراح الكوريين على دفعات إلى أن بلغ عددهم عام ١٦٠٥ قرابة ٦٠٠٠ فرد. انظر: Elisonas, Ibid., pp. 294-295.

(٥١) تأسست دولة يي (Yi)، التي تُعرف أيضاً بدولة تشوسن (Chosen)، عام ١٣٩٢ على يد القائد العسكري يي سونغ ـ غيي (Yi Song-Gye). وقد استمرت في الحكم حتى عام ١٩١٠، أي إلى حين الغزو الياباني لكوريا. وقد كانت كوريا في جُل مراحلها التاريخية تدين بالولاء للصين، وتتعرض أحياناً للاحتلال الصيني. في ما يخص نبذة عن تاريخ دولة يي، انظر: *A Handbook of Korea* (Seoul: Samsung Moonwha Printing, 1998), pp. 63-82.

أول بعثة دبلوماسية رسمية إلى اليابان عام ١٦٠٧[٥٢]، حيث استقبلها الشجون **هيديتادا** ووالده **إياسو**. وقد توجت هذه الزيارة بإطلاق سراح فوج آخر من المحتجزين الكوريين[٥٣]، وعقد اتفاق تجاري بين كوريا واليابان عام ١٦٠٩ (اتفاق كييو Kiyu) يسمح لأسرة **صو** بتسيير ٢٠ سفينة سنوياً إلى ميناء بوسان (جنوب كوريا)، والاحتفاظ بمركز تجاري في ضواحي الميناء نفسه، يقيم فيه الرعايا اليابانيون[٥٤]. وقد بقي هذا الاتفاق ساري المفعول طوال عصر **إيدو**، حيث ظلت جزيرة **تسوشيما** مركزاً تجارياً لتبادل السلع بين كوريا واليابان، واستمرت أسرة **صو** مهيمنة على تجارة رابحة لا تقل قيمة وحجماً عن تلك التي كانت تمر عبر ميناء **ناغاساكي**. وقد كان أساس هذه التجارة تبادل الأنسجة والخيوط الحريرية الصينية، والأعشاب الطبية الكورية والصينية، والكتب مقابل سبائك الفضة والمصنوعات اليابانية ـ السيوف والمراوح.

أما في الجانب الدبلوماسي، فقد توالى وصول البعثات الكورية إلى بلاط الشجون إلى أن بلغ عددها في نهاية عصر إيدو ١٢ بعثة ـ كانت آخر بعثة في عام ١٨١١[٥٥]. والواقع أن هذه السفارات كانت تشكل حدثاً كان الطرفان يعدان له بعناية. فالسلطات الكورية كانت تأخذها مأخذ الجد وتعتبرها مناسبة أيضاً للتبادل الثقافي بين البلدين. وقد كان عدد أعضاء السفارة الكورية كبيراً (يفوق ٤٠٠ فرد)، يجري اختيارهم بعناية من الشعراء والأدباء ودارسي الكونفوشيوسية والأطباء المبرزين، كي يمثلوا بلدهم أحسن تمثيل، ويبرزوا تفوق

---

(٥٢) كان أول مبعوث كوري إلى اليابان هو الكاهن يوجونغ (Yujong)، الذي حلّ في جزيرة تسوشيما عام ١٦٠٥، أي بعد أن أطلق سراح أفواج من المحتجزين الكوريين. وقد جاء مبعوثاً إلى دايميو تسوشيما يحمل نبأ السماح لأُسرة صو باستئناف نشاطها التجاري في الموانئ الكورية. وقام صو، يوشي ـ توشي (Yoshitoshi) دايميو تسوشيما بمرافقة الراهب الكبير إلى قلعة فوشيمي (Fushimi) (قلعة بالقرب من العاصمة كيوطو)، حيث استقبله الشجون هيدي ـ داتا الحديث العهد بالتولية، والشجون المتقاعد إياسو. انظر: Elisonas, Ibid., p. 294.

(٥٣) يتعلق الأمر بفوج مكون من ١٢٤٠ أسيراً كورياً، جرى تسليمهم إلى البعثة الكورية في أثناء زيارتها إلى العاصمة اليابانية. انظر: المصدر نفسه.

(٥٤) يُعرف المكان المخصص لإقامة الرعايا اليابانيين بالقرب من ميناء بوسان باسم وايبغ ـ وان (Waegwan) (أي مكان إقامة اليابانيين)، وهو عبارة عن موقع محاط بالأسوار. أمّا عن تخصيص مكان معيّن للتجار اليابانيين في ميناء بوسان، فهو ليس بالأمر المستحدث، إذ كان أمراً معمولاً به منذ مطلع القرن الخامس عشر. انظر مادة: «Waegwan,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 198.

(٥٥) كان وصول هذه البعثات في الأعوام التالية: ١٦٠٧؛ ١٦١٧؛ ١٦٢٤؛ ١٦٣٦؛ ١٦٤٣؛ ١٦٥٥؛ ١٦٨٢؛ ١٧١١؛ ١٧١٩؛ ١٧٤٨؛ ١٧٤٦ و١٨١١. انظر: Toby, *State and Diplomacy in Early Modern Japan*, pp. 36-37.

الثقافة الكورية حين مناظرة أقرانهم اليابانيين[٥٦]. وعادة ما كانت السفارة تستغرق وقتاً يقارب السنة، تحل أثناءها في أماكن مختلفة من اليابان، ويلتقي أعضاؤها بفئات مختلفة من الشعب الياباني قبل أن يستقبلهم الشجون. وفي المقابل، كان حلول هذه البعثات في الأرخبيل حدثاً يحتفى به في العاصمة إيدو بحضور كبار الدايميو، ويأخذ لدى الشجون ومعاونيه مغزى سياسياً يستغلونه في الدعاية لشجون **توكوغاوا**. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن يُسمح في المقابل لمبعوثي الشجون بالذهاب إلى العاصمة الكورية، أو تخطّ ميناء **بوسان** وحدود المركز التجاري المخصص للرعايا اليابانيين[٥٧].

أثار استئناف العلاقات مع كوريا وحلول سفاراتها في اليابان جملة من القضايا تتعلق بالسيادة وشكليات المراسلات الدبلوماسية، نرى من المفيد الوقوف عليها، لما لها من صلة أيضاً بعلاقة اليابان بالصين.

أشرنا سلفاً إلى أن أُسرة **صو** المتحكمة في جزيرة **تسوشيما** كانت المستفيد الأول من هذه التجارة الكورية، وأن بقاءها وازدهارها الاقتصادي كانا مرتبطين بوساطتها التجارية مع **كوريا**. وهكذا، لم يكن أمر استئناف العلاقة بين البلدين ليتم على هذا النحو السريع لولا السعي الحثيث الذي بذله **صو يوشي ـ توشي**، دايميو **تسوشيما**، الذي لجأ إلى تزوير رسائل من الشجون إلى ملك كوريا لكي يعجل بربط الاتصال بين السلطات المركزية للبلدين. فعندما زار الكاهن الكوري **يوجونغ** (Yujong) جزيرة تسوشيما عام ١٦٠٥، في أول اتصال شبه رسمي بين البلدين بعد حملة هيدي ـ يوشي، طلب من **صو يوشي ـ توشي** حث الشجون على كتابة رسالة رسمية إلى ملك كوريا حتى يتسنى له إرسال بعثة دبلوماسية إلى اليابان. وقد وضعه هذا الطلب في مأزق: فمن جهة، كان متأكداً من أن الشجون لن يحرر رسالته وفق المعايير المقبولة لدى البلاط الكوري، الذي هو في وضعية تبعية لإمبراطور الصين، وكان، من جهة أخرى، مستعجلاً لاستئناف العلاقات. وهكذا عمد صو يوشي ـ توشي إلى تزوير رسالة من الشجون **هيديتادا** إلى ملك كوريا (**يي سونجو** Yi Sonjo)، حكم ١٥٦٧ ـ ١٦٠٨) تحمل التاريخ

---

(٥٦) يتحدث الباحث ماريوس جانسن عن وجود ٣٤ كتاباً من أدب الرحلة التي ألفها الكوريون الذين سافروا إلى اليابان ضمن البعثات الدبلوماسية خلال عصر إيدو. ويروي أصحابها عن مناظراتهم مع أقرانهم اليابانيين، ويصفون بدقة مشاهداتهم في اليابان. انظر: Jansen, *Making of Modern Japan*, pp. 68-72.

(٥٧) انظر مادة: «Waegwan,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 198.

الصيني، ومختومة بتوقيع الشجون، مضافاً إليه لقب «ملك اليابان» (نيهون كوكوأو Nihon Koku). وكان واضحاً لملك كوريا ومساعديه أن الرسالة مزورة، لكنهم تغاضوا عن الأمر، وأرسلوا بعثة دبلوماسية عام ١٦٠٧. وقد كان التزوير واضحاً لسببين:

الأول هو أن في إطلاق لقب «ملك اليابان» على الشجون اعترافاً بالتبعية لإمبراطورية الصين؛ ذلك أن أول من حمل هذا اللقب ـ والوحيد في تاريخ اليابان ـ هو الشجون الثالث من أُسرة **أشيكاغا (يوشي ـ ميتسو)** الذي قبِل التبعية وتأدية الإتاوة لإمبراطور الصين مقابل الحصول على حق متاجرة السفن اليابانية في الموانئ الصينية. لذا كان الكوريون متأكدين من أن الشجون لن يختم رسالته بـ «ملك اليابان»، اللهم إلا إذا كان قد قبِل ضمنياً التبعية للصين. وهو أمر لم يكن يتصور حدوثه في ذلك الظرف. ففي وقت قريب جداً (١٥٩٧)، كان **هيدي ـ يوشي** قد رفض اللقب نفسه حينما عرضه عليه إمبراطور الصين كتسوية لاحتلال كوريا، معتبراً الأمر إهانة ومساً بسيادة الإمبراطورية اليابانية.

أما السبب **الثاني**، فيتعلق بالتأريخ. وللتذكير، فإنه كان من حق إمبراطور اليابان ـ وما يزال إلى اليوم ـ اختيار اسم أو شعار لفترة حكمه أو قسم منها، وبه يتم التأريخ. وهو نظام نينغو المعمول به في الصين، التي هي مصدر الأصل الذي قلده اليابانيون. وقد كان التأريخ على هذا النحو بمثابة رمز يحمل دلالة على السيادة، سواء في الصين أو اليابان، لذا لم يكن معقولاً أن يختم الشجون رسالته بالتاريخ الصيني إلا إذا كان يعترف بسيادة الإمبراطورية الصينية وتبعيته لها[٥٨].

افتُضح أمر التزوير عام ١٦١٥، غير أن الشجون لم يتخذ إجراء عقابياً في حق أُسرة **صو**، في وقت كان فيه بعض الدايميو يحرمون من هاناتهم وتصادر أراضيهم لأسباب تقل عن ذلك كثيراً. وهكذا استمرت هذه الأُسرة في موقعها ووساطتها التجارية، في حين لم ينل العقاب سوى أحد أتباعها الذي اعتبر مسؤولاً عن التزوير[٥٩]. وليس من تفسير لهذا التغاضي سوى حرص الشجون

(٥٨) في ما يتعلق بمسألة التزوير، انظر: Elisonas, «The Inseparable Trinity: Japan's Relations with China and Korea,» pp. 296-298; Toby: «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu,» pp. 331-333, *State and Diplomacy in Early Modern Japan*, pp. 76-77.

(٥٩) يُعرف حادث التزوير هذا بقضية «ياناغاوا»، نسبة إلى «ياناغاوا شيغي ـ أوكي» (Yanagawa Shigeoki)، الذي حوكم بعد افتضاح تزوير رسائل من الشجون إلى ملك كوريا. انظر: المصادر نفسها.

على استمرار العلاقة مع كوريا. ومن باب ضبط هذه العلاقة ومراقبتها وضمان استمرارها، جرى تعيين كتابة خاصة تشرف على المراسلات مع كوريا والدول الآسيوية، كما جرى التغلب على شكليات المراسلة بابتكار لقب جديد شرع الشجون في ختم رسائله به إلى ملوك كوريا ابتداء من عام ١٦٣٦، وهو لقب «أمير اليابان الأعظم» (نيهون كوكو تايكون Nihon-Koku Taikun)، الذي لم يكن متداولاً في القاموس الدبلوماسي الصيني، وبالتالي لم يكن يحمل في طيه أية إشارة إلى التبعية للصين. أما عن التاريخ فكان يستعاض عن نينغو (الياباني) أحياناً بالتأريخ باسم السنة وموقعها من الدورة الستينية[٦٠].

يدافع الباحث رونالد توبي (Ronald P. Toby) عن رأي يشاطره فيه باحثون يابانيون، يقول إن استئناف العلاقة مع كوريا وحرص الشجون على بقاء تلك العلاقة واستمرارها، لم يكونا بدافع الحصول على البضائع الصينية والآسيوية فحسب، وإنما أيضاً بدافع تأكيد مشروعية حكم أسرة **توكوغاوا**؛ فالمشروعية في يابان القرن السابع عشر ـ حسب هذا الرأي ـ «لم تكن تُستمد من الإمبراطور وحده، بل كانت تقوم على قاعدة مركّبة تتمثّل في اكتساب السلطة والامتثال للقيم الأصيلة (أو الأرثوذوكسية) في الحصول عليها، واعتراف العناصر الرئيسية في المجتمع السياسي بتلك السلطة. وقد كان المجتمع السياسي في تلك الفترة مشكّلا من مكونات داخلية ـ تشمل البلاط الإمبراطوري وعلية الساموراي وكبار رهبان البوذية وعلماء [الكونفوشيوسية] والتجار ـ وأخرى خارجية تتمثّل في المجتمع الدولي الذي هو في تلك الحال إمبراطورية مينغ الصينية»[٦١]. وهو يشبه أمر الاعتراف الخارجي بسلطة الشجون، بما يحدث راهناً في حال الانقلاب العسكري، حيث يسعى مدبرو الانقلاب، في أول مسعى لهم، إلى اعتراف الدول الأجنبية بحكمهم أو بثورتهم[٦٢].

العودة إلى حظيرة العالم الصيني واعتراف إمبراطور الصين بحكم الشجون لم يكونا ليتما إلا بإعلان التبعية للصين. وهو أمر كان اليابانيون يرفضونه، ؛ فـ **يوشي ـ ميتسو** ظل يلاحقه عار المس بسيادة الإمبراطورية اليابانية والخروج عن طاعة الإمبراطور جراء قبوله لقب «ملك اليابان» من إمبراطور الصين. كما أن

(٦٠) Toby, «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu,» p. 343.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

(٦٢) المصدر نفسه.

تهديد **هيدي ـ يوشي** لإمبراطورية **مينغ** وأحداث غزوه لكوريا ـ التي ما تزال حديثة العهد ماثلة في أذهان الصينيين ـ كانا يشكّلان عرقلة أخرى في هذا السبيل. هذا بالإضافة إلى استمرار غارات القراصنة اليابانيين على السواحل الصينية التي كانت السبب في قطع العلاقات التجارية بين البلدين. واعتباراً لهذا كله، كان الحل الممكن أمام **توكوغاوا إياسو** وخَلَفه **هيديتادا** و**إييميتسو** هو ولوج العالم الصيني عن طريق **كوريا**. ومن ثم جاء هذا الحرص على استئناف العلاقات مع **كوريا**، والتغاضي عن الاحتيال الذي قام به دايميو **تسوشيما**. والواقع، كما يشهد بذلك معاصرو الفترة، أن الشجون ومستشاريه استغلوا حلول السفارات الكورية في العاصمتين **إيدو** و**كيوطو** أحسن استغلال ليقنعوا أتباعهم بهذا الاعتراف الخارجي المقدم من دولة تابعة إلى الصين. فسفارة ١٦٠٧، روج لها بأنها جاءت لتهنئة **هيديتادا** بمناسبة تعيينه شجوناً؛ وأشيع أن السفارة الثانية (١٦١٧) أتت لتقديم الهدايا للشجون وتعزيته في وفاة والده (**إياسو**) وتهنئته على نجاحه في توحيد اليابان وقضائه نهائياً على أسرة **هيدي ـ يوشي**. فحسب ما ورد في مذكرات **ريتشارد كوكس** ـ ممثل الشركة البريطانية في الأرخبيل[(٦٣)] ـ التي كتبها عن أحداث يوم ١٣ آب/ أغسطس ١٦١٧: «إن الإمبراطور (يقصد الشجون) أصدر تعليماته بأن يعامَل الكوريون معاملة حسنة ويحظوا بالاحترام في الأراضي التي يمرون بها». مضيفاً «إن تقارير تقول إنهم جاؤوا ليعلنوا طاعتهم للإمبراطور ويقدموا الإتاوة له، وإلا فإن الإمبراطور سيعلن الحرب عليهم مرة أخرى»[(٦٤)]. ثم مضيفاً في المدخل الخاص بيوم ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٦١٧ ـ يوم وصول البعثة إلى كيوطو ـ «يقال إن الكوريين جاؤوا لتقديم الهدايا للإمبراطور. . . . [والتعبير] عن رغبتهم في أن يضع الإمبراطور الكوريين تحت

---

(٦٣) ريتشارد كوكس (Richard Cocks) (١٥٦٦ ـ ١٦٢٤) عمل ممثلاً لـ **شركة الهند الشرقية الإنكليزية** في اليابان من عام ١٦١٣ إلى عام ١٦٢٣. وكان مقيماً في ميناء هيرادو، غير أنه زار العاصمة إيدو مرات عدة، واستُقبل من قِبل الشجون توكوغاوا هيدي- داتا. وقد اشتهر كوكس بمذكراته التي دوَّن فيها الأحداث التي شهدها بين عامي ١٦١٥ و١٦٢٢، والتي ضمّنها أيضاً الكثير من مراسلاته. انظر مادة: «Richard Cocks,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 334, and «Richard Cocks,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom)..

(٦٤) ورد هذا النص ضمن مذكرات ريتشارد كوكس ومراسلاته التي نشرت عام ١٨٩٩، تحت عنوان: Richard Cocks, *Diary of Richard Cocks: Cape-Merchant in the English Factory in Japan, 1615-1622*, 2 vols. (New York: B. Franklin, [1964?]), vol. 1. p. 301,

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على النص كما استشهد به رونالد توبي، في: Toby, «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu,» pp. 338-339.

حمايته كما فعل والده من قبل، وأن يدافع عنهم في حال غزو أمة أجنبية. . .»[٦٥]. وفي السياق ذاته أُشيع ـ حسب مصدر آخر ـ أن سفارة **١٦٤٣** جاءت لتعلن تغيير ولاء الكوريين من الصين إلى اليابان[٦٦].

في حكم الأكيد أن ما كان يشاع ويقال عن هذه السفارات لا يطابق ما كان الكوريون يفكرون فيه أو يسعون إليه من إرسال سفاراتهم إلى بلاط الشجون. فربما كان همهم الأساسي هو ضمان عدم حصول اعتداء وغزو ثان لبلدهم من قبل اليابانيين. غير أن مستشاري الشجون كانوا يستغلون المناسبة ويحولونها إلى حملة دعائية تلمع صورة الشجون وتؤكد مشروعيته. فحلول هذه السفارات في اليابان كان يجري ترتيبه والإعداد له بعناية، حيث كان يستدعى كبار الشجون لحضور استعراض أعضاء السفارة ـ عادة ما يزيد عددهم على **٤٠٠** فرد ـ وهداياهم وهم في طريقهم إلى قصر الشجون (انظر الصورة). ولعل في ذلك ما يوحي للحاضرين بأن هؤلاء جاؤوا لتقديم ولائهم إلى الشجون على النحو الذي كان الدايميو يقومون به سنوياً.

خامساً: العلاقة مع الصين: عائق السيادة

لم تبد إمبراطورية **مينغ** تحمساً أو رغبة في التعامل مع أسرة **توكوغاوا** وإقامة اتصال مباشر معها، بينما لم يكن **إياسو** مستعداً للتنازل عن السيادة اليابانية، وإعلان التبعية مقابل الاعتراف بسلطته واستئناف العلاقات التجارية المباشرة. وبعد أن باءت محاولات هذا الأخير بالفشل في سبيل إقامة علاقة على قدم المساواة، اختار الاتصال عبر طرف ثالث ـ **كوريا** وجزر **ريوكيو** ـ وتشجيع التجار الصينيين على المتاجرة من ميناء **ناغاساكي** لتزويد اليابان بما يحتاج إليه من بضائع صينية.

تمثّلت محاولات ربط الاتصال المباشر مع الصين في رسائل حررت بأمر من الشجون **إياسو** وخَلَفه **هيديتادا** إلى حاكم إقليم فوكيين (Fukien)[٦٧]، كانت أولاها في عام ١٦١١[٦٨]. وقد تعمد الشجون ألا تحرر باسمه، وألا توجّه رأساً

---

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) إقليم يقع في الجنوب الشرقي للصين، قبالة جزيرة فرموزة (تايوان)، ويحتل موقعاً وتجارياً متميزاً في التجارة الخارجية الصينية. انظر مادة: «Fukien,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

(٦٨) Toby, Ibid., p. 323.

إلى إمبراطور الصين، تفادياً للإحراج عند الرفض، خاصة أنها لا تستجيب للمعايير الصينية المشار إليها. وبعد أن تأخر الرد على هذه الرسالة ورسائل أخرى، ولم يحظ طلب إياسو بالقبول، عمد **إياسو** إلى تشجيع دايميو **ساتسوما** (جزيرة كيوشو) على إخضاع جزر **ريوكيو** التابعة آنذاك لإمبراطورية الصين، خاصة بعد النجاح الذي حققه في استئناف العلاقات مع كوريا.

كانت جزر **ريوكيو**، الواقعة في أقصى جنوب الأرخبيل، تتمتع بوضع خاص؛ فهي تشكل مملكة مستقلة تدين بالولاء لإمبراطورية الصين، وترتبط بعلاقات تجارية معها، وهي أيضاً مركز تجاري لبضائع جنوب شرقي آسيا وعلى علاقات تجارية بأُسرة **شيمازو** المتحكمة في القسم الجنوبي لجزيرة **كيوشو** منذ فترة ليست بالقصيرة. وعندما استقر الأمر لـ **إياسو**، طلب **شيمازو إييهيسا** (١٥٧٨ ـ ١٦٣٨)، دايميو **ساتسوما**، من ملك **ريوكيو** (**شو نيئي** Sho Nei حكم ١٥٨٩ ـ ١٦١٢)[٦٩] إرسال سفارة لتهنئة الشجون، غير أن هذا الأخير لم يستجب للطلب. وفي عام ١٦٠٩، شجع **إياسو** الدايميو **إييهيسا** على غزو جزر **ريوكيو** بحجة أنها امتنعت عن أداء الإتاوة وإعلان التبعية. وبالفعل جرى غزو جزر **ريوكيو** وإخضاعها لأسرة **شاميزو**، وحضر ملكها **شوني نيئي** إلى **إيدو** معلناً تبعيته لليابان[٧٠]. لكن المثير أن السلطات اليابانية طلبت من ملك **ريوكيو** الحفاظ على علاقة التبعية مع إمبراطورية الصين والاستمرار في أداء الإتاوة لها، وذلك حرصاً على استمرار امتيازها التجاري ووساطتها بين اليابان والصين. وقد استمرت هذه التبعية المزدوجة إلى حين قيام إصلاحات الميجي، حيث جرى الإخضاع النهائي لجزر **ريوكيو** وأمست تُعرف بمحافظة **أوكيناوا**، نسبة إلى أكبر جزيرة فيها.

عاشت مملكة **ريوكيو** خلال هذه المرحلة في وضع خاص حرصت شجونة **توكوغاوا** على الإبقاء عليه لتأمين مصالحها التجارية وهيمنتها الإقليمية. لقد كان من اليسير على الشجون تجهيز حملة عسكرية لإخضاع جزر ريوكيو لسلطات إيدو، كما كان في إمكان أُسرة **شيمازو** إلحاق الجزر نهائياً بهانهم لو أنهم لقوا

(٦٩) في ما يخص نبذة مختصرة عن تاريخ ريوكيو، انظر مادة: «Okinawa,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, pp. 84-90.

(٧٠) في ما يخص الوساطة التجارية بين اليابان والصين عبر جزر ريوكيو، انظر: Robert K. Sakai, «The Satsuma-Ryukyu Trade and the Tokugawa Seclusion Policy,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 23, no. 3 (May 1964), pp. 391-403.

التشجيع من الشجون. غير أن **إياسو** وخَلَفه كانوا يرون مصلحتهم في هذه التبعية المزدوجة التي تفتح أمامهم نافذة على تجارة القارة، وفي الوقت ذاته تبقي أسرة **شيمازو** في حدود معيّنة تمنعها من أن تصبح قوة تهدد أُسرة **توكوغاوا**.

وفي المقابل كانت السلطات الصينية، سواء في أواخر دولة **مينغ**، ودولة **مانشو** (١٦٣٦ ـ ١٩١٢)[٧١] التي خلفتها، تعلم بما هو حادث في جزر **ريوكيو** وأمر خضوعها للهيمنة اليابانية، غير أنها تغاضت عن الأمر، واستمرت في تلقّي البعثات من ملوك **ريوكيو** وتقبل هداياهم مقابل تمتيعهم بحق التعامل التجاري في الموانئ الصينية. واستمرت كذلك في إرسال البعثات الرسمية لتنصيب الملوك الجدد على **ريوكيو**[٧٢]. فربما كانت هي أيضاً راضية عن هذه الوساطة ولا ترى فيها ضرراً في ظل الحظر المفروض على المتاجرة مع اليابان منذ عام ١٥٤٧، وتعذّر إقامة علاقات رسمية مباشرة. وعلى أي، ففي عام ١٦٨٤، خففت السلطات الصينية من القيود المفروضة على التجارة مع اليابان، وأرسلت ١٣ سفينة (١٦٨٥) إلى ميناء **ناغاساكي** لاستيراد النحاس من اليابان، وتبعتها في ذلك سفن تجارية خاصة[٧٣]. وقد كان لذلك تأثير سلبي في تجارة **ريوكيو** وهان **ساتسوما** في القرن الثامن عشر.

وفي ظل هذه الظروف المبهمة، كانت هيمنة أُسرة **شيمازو** على الجزر أمراً واقعاً، سواء في السياسة أو الاقتصاد؛ فقد فرضت على ملكها (**شوني نيئي**)، قبل السماح له بالعودة إلى بلده، توقيع عدد من المعاهدات تنص على الامتثال للأوامر الصادرة له من الدايميو، وإرسال سفينة محملة بالإتاوة سنوياً، والعمل على ضمان استمرار العلاقة التجارية مع دايميو **ساتسوما**، وإخضاع واردات جزره وصادراتها لمراقبة سلطاته، وكذا الامتناع عن المتاجرة بأية مادة من المواد أو مغادرة أية سفينة للجزر إلا بإذن من السلطات ذاتها. وفي المقابل، تعهد الدايميو بعدم إخضاع سكان الجزر للاسترقاق، أو إجبار تجارها بالقوة على البيع أو

---

(٧١) دولة مانتشو (Manchu) حكمت معظم الصين رسمياً من عام ١٦٤٠ إلى عام ١٩١٢. وقد كانت الأُسرة تتحكم منذ القرن الثاني عشر في المنطقة الشمالية من الصين، خاصة في منطقة منشوريا، وكانت تدين بالولاء لأُسرة مينغ. ومنذ مطلع القرن السابع عشر، بدأت تشن الغارات على المناطق الجنوبية التابعة لأُسرة مينغ، إلى أن تحققت هيمنتها على مجموع التراب الصيني. انظر: Jian Bozan [et al.], *Histoire générale de la Chine* (Beijing: Editions en Langues Etrangères, 1985), pp. 95-102.

(٧٢) Sakai, «The Satsuma-Ryukyu Trade and the Tokugawa Seclusion Policy».

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٥.

الشراء، وكذا التزم بترك تسيير أمور الجزر الداخلية للملك. وكما أشرنا سلفاً، كان دايميو **ساتسوما** يشجعون ملوك **ريوكيو** على تمتين العلاقات مع البلاط الصيني، واغتنام كل فرصة لإرسال الهدايا وتقديم التهاني، في الحين ذاته الذي يعملون فيه على إخفاء هيمنتهم على الجزر.

لم يصل حجم المبادلات التجارية التي كانت تتحكم فيها أُسرة **شيمازو** عبر هيمنتها على جزر ريوكيو حجم التجارة المارة عبر ميناء **ناغاساكي**، غير أنها (أي الجزر) كانت في القرن السابع عشر معبراً مهماً للبضائع الصينية (المنسوجات والخيوط الحريرية أساساً) والمواد المستوردة من جنوب شرقي آسيا (التوابل) والبضائع الأوروبية. والملاحظ أن أُسرة **شيمازو** كانت تساهم في رأس مال تجارة **ريوكيو** مع الصين، وتعمل على إيجاد منافذ للبضائع التي تستوردها في مراكز مختلفة من اليابان. لا نريد الدخول في تفاصيل هذه التجارة وأرقامها، غير أن ما أبرزناه من استمرار **ساتسوما** و**تسوشيما** في التجارة الخارجية يقلل في نظرنا من قيمة الرأي القائل إن الشجون كانوا يهيمنون هيمنة تامة على هذه التجارة، أو يراقبونها بالكامل.

إضافة إلى منفذ **ريوكيو**، شجع الشجون التجار الصينيين على المتاجرة من ميناء **ناغاساكي** وتجاهل الحظر المفروض على التجارة مع اليابان. وبالفعل، استجاب عدد من هؤلاء لنداء الشجون، وسيّروا سفناً إلى هذا الميناء، حيث كان لهم جالية مقيمة وحي خاص بهم ونشاط تجاري ملحوظ. والمفارقة أن الجالية الصينية في **ناغاساكي** ـ التي قاربت ٥,٠٠٠ فرد في نهاية القرن السابع عشر ـ كانت تتمتع بحرية التنقل والعبادة وإقامة المعابد لمختلف طوائفها، في الوقت الذي كان مفروضاً على الهولنديين الإقامة في جزيرة صغيرة محروسة، والامتناع عن إقامة شعائرهم الدينية علناً[٧٤].

تنامى حجم التجارة المباشرة مع الصين عبر ميناء **ناغاساكي** خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ ففي عام ١٦٤٠ رست في هذا الميناء ٤٠ سفينة، وفي عام ١٦٨٨ ارتفع عددها إلى ١٩٣ سفينة. غير أن المبادلات التجارية مع الصين ـ والتجارة الخارجية لليابان عموماً ـ تراجعت خلال القرن الثامن عشر بسبب نضوب الموارد المالية والنقص الحاصل في استخراج معدني الذهب والفضة.

---

(٧٤) انظر: Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 88.

ومن ثم فرضت الشجونة قيوداً على المبادلات التجارية الخارجية، وحددت أعداد السفن الصينية وغيرها المسموح بها سنوياً.

يتضح من كل ما سبق أن شجونة **توكوغاوا** اخترقت الحظر الصيني، واستغلت طرقاً غير مباشرة للحصول على البضائع الصينية. لكن الأكثر أهمية من التجارة هو التواصل الثقافي مع الصين؛ إذ يُعَدّ عصر **توكوغاوا** أكثر العصور اليابانية احتكاكاً وتأثراً بالفكر الصيني، خاصة الفكر الكونفوشيوسي كما تطور في عهد دولة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧). ذلك أن المدارس التي أُنشئت لتربية أبناء الساموراي وتأهيلهم كانت مقرراتها تقوم أساساً على تدريس هذا الفكر والمعارف الطبية والعلمية والآداب الصينية. كما كان من بين البضائع التي تلقى رواجاً في السوق الياباني، الكتب المستوردة من الصين[٧٥].

خلاصة

الآن، وقد استعرضنا مختلف مظاهر علاقات اليابان الخارجية خلال عصر **توكوغاوا**، يحق القول إن عزلة اليابان لم تكن تامة، وإن اليابان لم تكن بلداً منغلقاً على نفسه، كما هو شائع. فاليابان ظلت محافظة على علاقة تجارية منتظمة ومستمرة مع هولندا، وكانت ثلة من مثقفيه تطّلع على المعارف الغربية عبر قناة البعثة الهولندية المقيمة بالقرب من ميناء **ناغاساكي**، الذي شكّل نافذة يطل المثقفون منها على ما يجري في العالم الخارجي. كما انبرى البعض من هؤلاء إلى تعلّم اللغة الهولندية وترجمة الكتب الهولندية، خاصة في المجال الذي أثار اهتماماً خاصاً لديهم. أما عن الصين، التي ظلت دائماً مصدراً ورافداً للثقافة اليابانية، ومورداً أساسياً للبضائع التي يقبل عليها السوق الياباني، فقد تحايل اليابانيون على القيود المفروضة على العلاقات الرسمية مع الصين، ولبّوا حاجاتهم عبر **كوريا** وجزر **ريوكيو**. والواقع أن اليابان ظلّت طوال فترة «العزلة» تعيش في انسجام مع محيطها الطبيعي، حيث لم تشكل العلاقات مع أوروبا سوى حادث عارض، ظهر في منتصف القرن السادس عشر، وانتهى في منتصف القرن السابع عشر.

---

(٧٥) في ما يخص الحضور الصيني في المجتمع الياباني خلال عصر إيدو، وكذا إقبال اليابانيين على البضائع الصينية ورواج الكتب الصينية بين مثقفي اليابان، انظر: Marius B. Jansen, *China in the Tokugawa World* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992).

لقد قيل الكثير عن مساوئ العزلة، خاصة في الفترة التي انفتحت فيها اليابان مجدداً على الغرب، واختلف الباحثون في تفسير أسبابها ودواعيها، غير أن لا أحد ينكر اليوم أن سياسة العزلة حمت اليابان من تدخل القوى الغربية في شؤونها الداخلية؛ فبفضل هذه السياسة والحرص الشديد على تطبيقها، لم يتمكن الغربيون من الوصول إلى الأرخبيل مجدداً، وظل اليابانيون بعيدين عن الهيمنة الغربية التي طاولت مناطق قريبة منهم. ولعل الأهم من هذه الحماية، هو ذلك التطور الاقتصادي الداخلي الذي اعتمد أساساً على السوق الداخلي. ففي فترة العزلة، حققت اليابان نمواً اقتصادياً ملحوظاً، وحققت التجارة الداخلية ازدهاراً غير مسبوق. وإجمالاً، كانت سياسة العزلة وسيلة تحكّم فيها اليابانيون في علاقتهم بالآخر، ولم تكن «انغلاقاً على الذات»، كما هو شائع في بعض الكتابات.

القسم الثاني

عصر توكوغاوا

بوادر التحديث

الفصل الثامن

النمو الاقتصادي
والطفرة الديمغرافية

أولاً: النمو الاقتصادي

عرفت اليابان خلال عصر **توكوغاوا** نمواً اقتصادياً أمكن رصده كمياً في القطاعات الاقتصادية الحيوية، خاصة في قطاع الزراعة، الذي ظل المؤشر الرئيسي على الثروة وعماد الاقتصاد الياباني قبل إصلاحات الميجي، وقطاع التعدين الذي عرف طفرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وشكّل نتاجه العمود الفقري في التبادل التجاري مع الخارج. كما أمكن رصده في حجم التجارة الداخلية، وانتشار النقد في مبادلات السلع وغيرها، وظهور فئة من التجار راكمت ثروات هائلة. ولعل أهم مؤشر على هذا النمو هو تزايد أعداد السكان بوتيرة متسارعة، فمثّل نتيجة مباشرة لتوسع الأراضي الزراعية وزيادة معدلات إنتاج الأرز. وعموماً مرَّ الاقتصاد الياباني خلال عصر **توكوغاوا** بمرحلة نمو سريع دامت من مطلع القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، ثم بفترة ركود استمرت إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، ومرّ أخيراً بفترة انتعاش قبيل إصلاحات الميجي.

والواقع أن هذا النمو لم يبدأ مع عصر **توكوغاوا**؛ إذ توجد مؤشرات عدة تؤكد أن الانطلاقة الاقتصادية بدأت عملياً في الفترة الأخيرة من عهد الدويلات المتحاربة، وفي أثناء فترة التوحيد في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وكما سبقت الإشارة في فصول سابقة، فإن فترة الحرب الأهلية لم تكن فترة ركود اقتصادي، بل على النقيض من ذلك، شكّلت منطلقاً لنمو

اقتصادي. ذلك أن الإطار السياسي الذي نجم عن الحرب الأهلية أدى إلى وجود شبه دويلات صغيرة تتنافس في ما بينها، ويسعى الدايميو القائمون عليها إلى الرفع من مداخيلهم المادية وتنويعها لتغطية نفقات الحرب، وتحقيق رغباتهم التوسعية وطموحاتهم السياسية في الوصول إلى سدة الحكم على الصعيد المركزي. وقد زادت حدة هدا التنافس في النصف الثاني من القرن السادس عشر ـ في أثناء فترة التوحيد ـ التي شهدت نشاطاً تجارياً مع الخارج، وعدداً من مشاريع الري التي ساهمت بشكل كبير في زيادة المساحة المزروعة، وزيادة مماثلة في إنتاج الأرز؛ إذ مثّل ذلك في نظر بعض المختصين بداية لثورة زراعية في اليابان[(١)].

كما أن إقبال الدايميو وزعماء التوحيد على بناء القلاع وإحداث مراكز حضرية جديدة ـ كما سنبين ذلك في الفصل الموالي ـ كان سبباً في حركة اقتصادية ورواج تجاري وازدهار عدد من الحرف المرتبطة بالبناء التي تطورت بها تقنيات استغلت على الخصوص في مشاريع الري. فحسب أحدث الدراسات التاريخية بشأن اقتصاد اليابان، فإن تحولاً اقتصادياً حدث في نهاية القرن السادس عشر؛ إذ مثل شبه قطيعة مع اقتصاد العصور الوسطى اليابانية[(٢)].

استمر هذا النمو دون انقطاع حتى منتصف القرن الثامن عشر؛ ذلك بأن

---

(١) من بين من تبنّوا هذا الرأي الباحث كوزو يامامورا، الذي دعم رأيه هذا بأمثلة من مشاريع الري التي أقيمت في النصف الثاني من القرن السادس عشر. انظر: Kozo Yamamura, «Returns on Unification: Economic Growth in Japan, 1550-1650,» in: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), pp. 327-372.

انظر، على الخصوص، الجدول الرقم (٨ ـ ١)، ص ٣٤١ من هذا الكتاب.

(٢) تأسس في مطلع عقد السبعينيات فريق مكّون من أربعين باحثاً يابانياً مختصين بالتاريخ الاقتصادي. وقد عمل فريق البحث هذا طوال عقدين على إعادة كتابة التاريخ الاقتصادي الياباني واعتمد بالخصوص على المنهج الكمّي لتقويم حصيلة الاقتصاد الياباني (أو التاريخ الاقتصادي الكمّي Quantitative Economy History). وفي أواخر عقد الثمانينيات، نُشرت أعمال هذا الفريق ضمن ٨ مجلدات باللغة اليابانية، اختصّ المجلد الأول باقتصاد اليابان من مطلع القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر. وقد تُرجم القسم الأكبر من هذا المجلد إلى اللغة الإنكليزية عام ٢٠٠٤ ونُشر تحت عنوان: Akira Yahami [et al.], eds., *The Economic History of Japan: 1600-1990*, 3 vols. (Oxford: Oxford University Press, 2004).

وفي ما يخص مراجعة عامة لأعمال هذا الفريق، انظر: Kozo Yamamura, in: *Journal of Japanese Studies*, vol. 17, no. 1 (Winter 1991), pp. 127-143.

وقد اعتمدنا في هذا الفصل على نتائج الدراسات التي تضمنها المؤلف المشار إليه. أما الإشارة إلى تحوّل نوعي في الاقتصاد الياباني في مطلع القرن السابع عشر، فهي مأخوذة من مقدمة المحرّر، انظر: Yahami [et al.], *The Economic History of Japan: 1600-1990*, pp. 1-12.

الإجراءات التي اتخذها **هيدي ـ يوشي** وعززتها سلطات شجونة **توكوغاوا** خلقت جواً ملائماً لاستمرار ذلك النمو. ولعل أهم ما حققته تلك السلطات هو الأمن والاستقرار الاجتماعي اللذان شكّلا ـ كما أكدنا ذلك مراراً ـ عاملاً رئيسياً في كل ما حققته اليابان في مختلف المجالات في الفترة الحديثة. ومّما تجدر الإشارة إليه في ما تحقق في مجال الاقتصاد، احتكار السلطة المركزية لضرب العملة (الذهبية والفضية بصورة خاصة) وعملها على توحيدها، ومعايير الكيل والقياس في كل أرجاء اليابان. وكذا تأمين الطرق ووضعها تحت المراقبة المباشرة لسلطة الشجون، الذي يسّر تنقّل الإنسان والبضائع. وقد سبقت الإشارة إلى المبادرات التي قام بها كل من **أودا نوبوناغا** و**هيدي ـ يوشي** الخاصة بالقطاع الاقتصادي، والمتمثلة في إلغاء الحواجز والمكوس على أبواب المدن ـ التي كانت تعرقل التجارة ـ ومراقبة التجارة الخارجية. وهي إجراءات استمرت شجونة **توكوغاوا** في العمل بها، وعززتها بسياسة العزلة التي حمت الإنتاج المحلي، وكانت سبباً في تطويره.

كما ساهم نمو السكان السريع خلال القرن السابع عشر في رفع إنتاج الأرز وغيره لتلبية الطلب المتزايد على المواد الاستهلاكية. وفي السياق ذاته، ساهم توسع العمران وزيادة أعداد الساكنة الحضرية وظهور فئة غنية ـ من غير الساموراي ـ في خلق سوق استهلاك كان له دور في تطور إنتاج البوادي، وتصنيع عدد من المنتجات الزراعية.

ثانياً: استصلاح الأراضي والإنتاج الزراعي

ظلت زراعة الأرز، منذ دخولها إلى الأرخبيل زهاء القرن الثاني قبل الميلاد، مقتصرة على السهول والأودية التي يمكن ريها دون استعمال تقنيات ري معقدة. وبما أن هذه الأراضي لم تشكل سوى نسبة بسيطة من مساحة يغلب عليها الطابع الجبلي، فإن المساحة المزروعة ظلت هي أيضاً متواضعة إلى حدود منتصف القرن السادس عشر. فعلى الرغم من تشجيع الحكم الإمبراطوري، الذي أقيم في عصر **هييان**، على استصلاح الأراضي واستغلالها عدة أجيال من قبل مستصلحيها من النبلاء وغيرهم، فإن المساحة المخصصة لزراعة الأرز بقيت في حدود تقل عن المليون هكتار، وذلك بسبب محدودية التكنولوجيا المستعملة في الري.

ولا تُعرف بالضبط أسباب النقلة النوعية التي حدثت في تكنولوجيا الري وتطورها في عهد الدويلات المتحاربة، إلا أن في حكم الأكيد أن الحاجة كانت الدافع الأول لتطويرها، وأنها لم تكن منعزلة عن التطورات التي عرفتها تقنيات الهندسة المدنية عموماً، وبناء القلاع واستغلال المناجم خصوصاً. وفي حكم الأكيد أيضاً أنها بلغت درجة من الإتقان والتطور في نهاية القرن السادس عشر، واستفاد منها الكثير من الدايميو في تطوير إمكانات مجالاتهم الزراعية قبيل عصر **توكوغاوا**(٣).

وقد سبق أن أشرنا في التقديم الجغرافي إلى أن الأرخبيل يتوافر على ما ينيف على مئة نهر، غير أنها أنهار قصيرة وسريعة الجريان بحيث يصعب التحكم في مجاريها، ومن ثم كانت تستغل مياه البعض منها في المناطق القريبة من مصباتها فقط، أو في السهول الواسعة، كسهل **كانتو**. وقد كان المشكل التقني يتمثّل في بناء السدود والحواجز والمصطبات والقنوات وغيرها من المنشآت التي من شأنها حجز مياه الأنهار وتجميعها، والصمود أمام ضغطها عند الفيضان. وعموماً كانت المواد المستعملة في بنائها تتمثّل أساساً في الطين والأعمدة الخشبية التي كانت، إضافة إلى ضعف مقاومتها لضغط المياه، تحتاج إلى صيانة مستمرة واستبدالها في حال تهرئها. ومن ثم كانت الحاجة إلى مواد ذات خصوصيات تصمد أمام ضغط المياه وتدوم مدة أطول بعد وضعها. وهذا ما حققه استعمال الصخور كمادة أساسية في بناء السدود والحواجز. والواقع أن تقنية تقطيع الصخور واختيار الأجود منها ونقلها من المحاجر إلى مواقع البناء تطورت في مجال هندسة القلاع التي أقبل الدايميو على بنائها منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وهكذا استغلت هذه التقنية في مجال الري. فمن النماذج التي شاع استعمالها في بناء الحواجز لتحويل قسم من مياه الأنهار أو تشكيل خزانات لتجميع المياه، تقنية تعرف بطريقة «كيشو» (Kishū)(٤). وهي تتمثّل في اختيار المقطع الملائم من النهر لبناء حاجز لتحويل قسم من مياهه والتحكم في

---

(٣) Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, «Shaping the Process of Unification: Technological Progress in Sixteenth and Seventeenth Century Japan,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 14, no. 1 (Winter 1988), pp. 77-78.

(٤) تطورت هذه التقنية في إقليم كاي (Kai) الذي كان تحت حكم أُسرة تاكيدا (Takeda)، وذلك في عهد الدايميو تاكيدا شينغين (Takeda Shingen) (١٥٢١ ـ ١٥٧٣). انظر: Tsuneo Sato, «Tokugawa Villages and Agriculture,» in: Chie Nakane [et al.], eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 63.

الفيضانات والاستفادة منها. أما الحواجز، فكانت تقام من الصخر، حيث كان يجري تقطيع الصخور المناسبة ووضعها ضمن مجموعات، تثبت كل منها في شبكة من قصب الخيزران حتى تشكل قطعة متراصة. ثم توضع هذه القطع جنباً إلى جنب وبعضها فوق بعض، إلى أن تشكل في النهاية حاجزاً متراصاً يثبت بأعمدة من شجر الصنوبر والأرز الياباني، التي توضع أفقياً وعمودياً، ويحكم ربطها بحبال ومسامير قوية[٥]. مع الإشارة إلى أن تقنية تقطيع الأخشاب ونجارتها تطورت هي أيضاً في هذه الفترة، واستُعملت أولاً في بناء القلاع والمعابد[٦].

وقد مكّنت هذه التقنية وغيرها من التقنيات، المتمثلة في حساب ضغط المياه واختيار المواد والتقنيات الملائمة لكل حالة، من القيام بمشاريع ري في مختلف أرجاء اليابان. ففي الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، جرى بناء ما ينيف على ٤٠٠ قناة لتحويل المياه، وزهاء ٣٥٠ خزاناً، حسب ما هو مبيّن في الجدول الرقم (٨ ـ ١):

الجدول الرقم (٨ ـ ١)

مشاريع الري في عصر توكوغاوا

الفترة الزمنية	عدد الخزانات	عدد القنوات
قبل عام ١٥٥٠	٤٦	٢٢
من ١٥٥١ إلى ١٦٠٠	٣	١١
من ١٦٠١ إلى ١٦٥٠	٦٦	٥٥
من ١٦٥١ إلى ١٧٠٠	٩٣	١٢١
من ١٧٠١ إلى ١٧٥٠	٢٧	٥٢
من ١٧٥١ إلى ١٨٠٠	٢٣	٣١
من ١٨٠١ إلى ١٨٦٨	٩٩	١٣٩
المجموع	**٣٥٧**	**٤٣٣**

المصدر: Matao Miyamato, «Quantitative Aspects of Tokugawa Economy,» in: Akira Yahami [et al.], eds., *The Economic History of Japan: 1600-1990*, 3 vols. (Oxford: Oxford University Press, 2004), vol. 1: *Emergence of Economic Society in Japan, 1600-1859*, p. 40.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٦) المصدر نفسه.

ونتيجة لهذا التطور التقني ومشاريع الري التي واكبته، جرى استصلاح عدد من الأراضي، سواء عن طريق جر المياه إليها عبر القنوات، أو عن طريق تجفيف المستنقعات التي كانت تغمرها مياه الفيضانات. وهكذا تضاعفت المساحة المزروعة في نهاية عصر **توكوغاوا** ثلاث مرات عما كانت عليه في أواسط القرن الخامس عشر، كما هو مبيّن في الجدول الرقم (٨ ـ ٢):

الجدول الرقم (٨ ـ ٢)

تطور المساحات المزروعة خلال عصر توكوغاوا

العام	المساحة المزروعة بالـ تشو (قرابة هكتار)
زهاء ٩٣٠(*)	٨٦٠,٠٠٠
زهاء ١٤٥٠(*)	٩٥٠,٠٠٠
١٦٠٠	٢,٠٦٥,٠٠٠
١٦٥٠	٢,٣٥٤,٠٠٠
١٧٠٠	٢,٨٤١,٠٠٠
١٧٢٠	٢,٩٢٧,٠٠٠
١٧٣٠	٢,٩٧١,٠٠٠
١٧٥٠	٢,٩٩١,٠٠٠
١٨٠٠	٣,٠٣٢,٠٠٠
١٨٥٠	٣,١٧٠,٠٠٠
١٨٧٢	٣,٢٣٤,٠٠٠

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٨.

أما عن التقديرات الخاصة بالأعوام المتبوعة بعلامة (*) فقد اعتمدنا فيها على: Tsuneo Sato, «Tokugawa Villages and Agriculture,» in: Chie Nakane [et al.], eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan* (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 62.

فالملاحظ من الجدول الرقم (٨ ـ ٢) أن استصلاح الأراضي وصل أوجه في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، حيث لم يعد في الإمكان إضافة أراض جديدة إلى المجال الزراعي. وعموماً كان إقبال الدايميو والفلاحين على استصلاح الأراضي كبيراً، بسبب استفادتهم منها. فالدايميو كانوا في حاجة إلى الزيادة في مداخيلهم لتغطية نفقاتهم، ومن ثم عملوا على إقامة مشاريع ري في هاناتهم، بينما كان الفلاحون يستفيدون من الأراضي التي يستصلحونها لأنفسهم،

حيث إنها كانت تظل مدة من الزمن معفاة من الجباية؛ ذلك أن إجراء مسح الأراضي لم يكن يساير عملية الاستصلاح، إضافة إلى أن البعض من الدايميو تخلى في القرن الثامن عشر عن القيام بعمليات المسح، مكتفياً بالسجلات القديمة التي كانت في مجملها لصالح الفلاحين. كما تجدر الإشارة إلى أن استصلاح الأراضي استقطب عدداً من أُسر التجار الغنية في مدينة **أوساكا**، التي استثمرت في مجال الاستصلاح وانخرطت في عملية إنتاج الأرز، إضافة إلى المتاجرة فيه[(٧)].

واكب توسع الأراضي زيادة في إنتاج الأرز ومزروعات أخرى، خاصة القطن. ففي الإحصاء الذي استُخلص من مسح الأراضي الذي قام به **هيدي ـ يوشي** في أواخر القرن السادس عشر، كان مجمل ما تنتجه الأراضي اليابانية في حدود ١٨ مليون كوكو، بينما فاق هذا الإنتاج في أواخر عصر **توكوغاوا** ٤٥ مليون كوكو، أي بنسبة تفوق ١٤٠ بالمئة. وفي ما يلي جدول يبين تطور إنتاج الأرز الذي واكب توسع الأراضي الزراعية:

الجدول الرقم (٨ ـ ٣)
تطور إنتاج الأرز خلال عصر توكوغاوا

العام	إنتاج الأرز بالـ كوكو
١٦٠٠	١٩,٧٣١,٠٠٠
١٦٥٠	٢٣,١٣٣,٠٠٠
١٧٠٠	٣٠,٦٣٠,٠٠٠
١٧٢٠	٣٢,٠٣٤,٠٠٠
١٧٣٠	٣٢,٧٣٦,٠٠٠
١٧٥٠	٣٤,١٤٠,٠٠٠
١٨٠٠	٣٧,٦٥٠,٠٠٠
١٨٥٠	٤١,١٦٠,٠٠٠
١٨٧٢	٤٦,٨١٢,٠٠٠

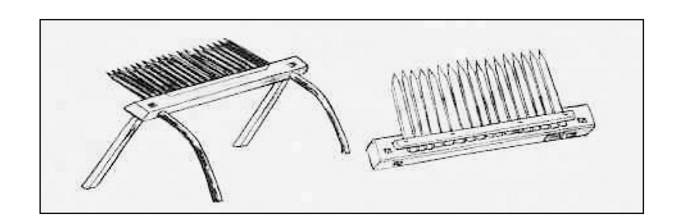
المصدر: Miyamato, Ibid., p. 38.

(٧) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب، حيث تمّت الإشارة إلى أُسرة كونوئيكي التي اتجهت إلى الاستثمار في استصلاح الأراضي وتملّكها في القرن الثامن عشر. انظر أيضاً: Sato, «Tokugawa Villages and Agriculture,» p. 65.

ترجع الزيادة في إنتاج الأرز، إضافة إلى توسع الأراضي الزراعية المخصصة له، إلى تطور التقنيات المستعملة في الزراعة. فعلى الرغم من عدم حدوث تطور نوعي في أدوات الحرث، التي ظلت في مجملها أدوات يدوية بسيطة تعتمد على الجهد العضلي للإنسان(٨)، فقد حدث تطور في تقنيات سماد الأرض والتخلص من النباتات الطفيلية والحشرات الضارة. ففي ما يخص تخصيب الأراضي، أُدخلت أنواع من الأسمدة الطبيعية نخص بالذكر منها دقيق السردين المجفف، الذي أبان عن فعالية مهمة في الرفع من مستوى إنتاج الأرز. أما بالنسبة إلى التخلص من الحشرات التي كانت تفتك بالمحصول في فصل الصيف، فقد استُعملت الزيوت المستخلصة من شحم الحيتان للقضاء عليها. هذا مع الإشارة إلى انتشار كتيبات الإرشاد التي تدل الفلاحين على كيفية استعمال الأسمدة وغيرها، والأوقات

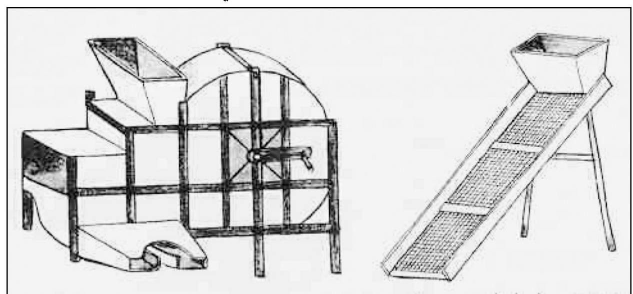
(٨) تجدر الإشارة إلى أن استعمال الدواب في حرث الأرض ظل محدوداً في اليابان. أمّا قلب الأرض، فكان يتمّ بأدوات يدوية من قبيل العتلة (Hoe) أو الجاروف (Sape). ولعل أهم تطوير أدخل على الأدوات هو ذلك الذي تعلّق بفصل حبوب الأرز عن السنابل؛ إذ استُعملت لهذه الغاية أدوات على شكل مشط، كما هو مبيّن في الشكلين التاليين أدناه:

سيمبا كوكي



وأدوات أخرى على شكل مراوح وغرابيل تشغّل باليد لتنقية الأرز:

آلات تشغل باليد لتنقية الأرز ابتُكرت في عصر توكوغاوا



المصدر: Sato, Ibid., p. 68.

المناسبة لها. والواقع أن هذا الصنف من التآليف كان له دور في نشر وتعميم التطورات التقنية بين عموم الفلاحين، إذ كان المسؤولون عن القرى يحرصون على اقتنائها والتطبيق العملي لما تحويه من إرشادات وتقنيات. وقد ازدهرت هذه التآليف على الخصوص في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أي بعد أن استنفدت إمكانيات استصلاح أراض جديدة، وأصبح من الضروري العمل بتقنيات جديدة للاستفادة من الأراضي الموجودة[٩].

لم يقتصر الإنتاج الزراعي في عصر **توكوغاوا** على الأرز وحده؛ إذ كان الفلاحون يزرعون حبوباً أخرى وفواكه وخضراً ومواد تسويقية، من قبيل الشاي وحبوب الصوجا، إضافة إلى المنتجات ذات الاستخدام الصناعي، كالقطن وخيوط الحرير والمواد المستعملة في تلوين الأنسجة والأشجار التي تستغل في إنتاج الورق. ذلك أن عدداً من الفلاحين حولوا قسطاً من أراضيهم لهذه الزراعات التي شكلت دخلاً إضافياً لهم يخرج عن نطاق الجباية المفروضة أساساً على إنتاج الأرز، إضافة إلى كون البعض منها لا يحتاج إلى ري أو إلى عناية طوال أشهر السنة. كما دفع التوسع الحضري بفلاحي المناطق القريبة من المدن إلى إنتاج ما يحتاج السكان الحضريون إليه من مواد استهلاكية.

شكل إنتاج القطن والحرير خلال عصر **توكوغاوا** نقطة تحوّل في البنية الاقتصادية للبوادي اليابانية. ذلك أن زراعة القطن وصناعة النسيج المرتبطة بها أضحتا أهم قطاع صناعي قبل إصلاحات الميجي؛ فالتحول نحو هذا القطاع وما حققه من توسع في منتصف القرن الثامن عشر كان، في رأي المختصين، أول خطوة نحو التصنيع في اليابان قبل إصلاحات الميجي[١٠].

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٦٥، و Matao Miyamoto, «Quantitative Aspects of Tokugawa Economy,» in: Ibid., p. 45.

وقد استشهد هذا المؤلف الأخير بعدد من عناوين الكتب الخاصة بالإرشاد الزراعي، التي اعتمد مؤلفوها على الملاحظة، حيث كانت هذه الكتيبات ذات فائدة في نشر التطورات التقنية التي تظهر في مختلف جهات اليابان.

(١٠) كما استشهد الباحث توماس سميث بعدد من كتيبات الإرشاد الزراعي، التي تناولت استعمال الزمن والتخطيط للزراعة، انظر: Thomas C. Smith, *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), pp. 211-216.

على سبيل المثال، انظر: Satoru Nakamura, «The Development of Rural Industry,» in: Nakane [et al.], eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*, pp. 81-96, and Osamu Saito and Masayuki Tanimoto, «The Transformation of Traditional Industries,» in: Yahami [et al.], *The Economic History of Japan: 1600-1990*, vol. 1, pp. 268-300.

ولم تكن زراعة القطن وتصنيعه بالأمر المستحدث في عصر **توكوغاوا**، إلا أنهما ظلا محدودين وغير ذوي أهمية حتى حدود القرن السادس عشر؛ فهناك إشارات في المصادر التاريخية تفيد بأن خيوط القطن كانت تُستورد في البداية (في عصر **ميناموتو** ١١٨٥ ـ ١٣٣٣) من الصين، وتصنع منها ثياب كي تباع للنبلاء ورجال الدين الذين كانوا يقبلون عليها. كما أشارت عمليات المسح التي قام بها دايميو الدويلات المتحاربة في القرن السادس عشر إلى وجود زراعة القطن في بعض الأقاليم (مثل إقليمي ميكاوا وشينانو)[١١]. ذلك أن الطلب على الأنسجة القطنية ازداد في أثناء الحرب الأهلية وفي أواخر عصر الدويلات المتحاربة، بسبب إقبال جنود الساموراي عليها واستعمالهم لها في صنع اللباس وأشرعة السفن. ومن ثم اتجه التجار اليابانيون إلى توسيع استيرادهم للقطن من كوريا والصين.

كما استغل البرتغاليون هذه الحاجة، فشكلت الثياب القطنية مادة أساسية في تجارتهم مع اليابان التي كانوا يجلبونها من الهند وأوروبا. ولعل ارتفاع أثمان الأنسجة القطنية المستوردة، وتزايد الإقبال عليها من مختلف الفئات في القرن السابع عشر هو ما دفع بفلاحي المناطق الملائمة لزراعة القطن وإنشاء مقاولات صناعية (تقليدية) لغزل القطن ونسجه. وقد سبقت الإشارة في الفصل الخاص بالفئات إلى أن سلطات الباكوفو فرضت على الفلاحين وسكان المدن الاقتصار على الألبسة القطنية، ومنعت عليهم الألبسة الحريرية التي ظلت علامة تميز للساموراي.

كان إقليم **كيناي** في البداية هو أكثر المناطق ملاءمة لزراعة القطن، غير أن نجاح هذه الزراعة بسبب توافر الظروف الطبيعية الضرورية، وما كانت تحققه من أرباح إضافية للفلاحين، دفع بفلاحي المناطق الأخرى، خاصة سهل **كانتو**، إلى الاندفاع نحو هذه الزراعة وتصنيع نتاجها محلياً. وهو ما أحدث تحولاً في البنية الاقتصادية في البوادي المذكورة، حيث خصصت بعض القرى نصف أراضيها لزراعة القطن أو كانت تناوب زراعتها مع الأرز[١٢]. كما استفادت هذه الزراعة

(١١) Furushima Toshio, «The Village and Agriculture during the Edo Period,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, pp. 510-511.

(١٢) المصدر نفسه.

من تقنيات السماد المستحدثة وغيرها، ومن كتب الإرشاد الزراعي المتعلقة بكيفية إنتاج القطن وتصنيعه[13]. وتجدر الإشارة من جهة أخرى إلى التطور الذي حصل في المناسج التي أُدخلت عليها تحسينات للرفع من الإنتاج والجودة، وإلى ازدهار تجارة الأقمشة القطنية، وتخصص بعض الأُسر التجارية في أوساكا بتسويقها، كأسرة **ميتسوي** التي سبق ذكرها في القسم الثاني من هذا البحث. وقد كان لهذا الازدهار الصناعي في البوادي أثر في حياة الفلاحين وفي رفع مستوى معيشتهم، وهو ما انعكس إيجابياً على زيادة أعداد السكان، كما سنبيّن ذلك في القسم الثاني من هذا الفصل.

كان قطاع تصنيع القطن من القطاعات التي تضررت بعد توقيع الشجون معاهدات غير متكافئة مع الدول الأوروبية ابتداء من عام ١٨٥٤؛ إذ إن غزو السوق الياباني بالأنسجة الأوروبية، بعد فتح أسواق اليابان مجدداً أمام التجارة الخارجية، أضر بالصنّاع التقليديين الذين لم يستطيعوا منافسة المنتج الأوروبي الأقل كلفة.

وفي سياق تصنيع المنتجات الزراعية أو شبه الزراعية، تجب الإشارة إلى صناعة الأنسجة الحريرية التي ازدهرت بشكل ملحوظ في عصر **توكوغاوا**. وللإشارة، فإن صناعة الأنسجة الحريرية كانت موجودة في اليابان منذ العصور القديمة، خاصة في العاصمة **كيوطو** التي اشتهرت، وما تزال تشتهر، بجودة نسيجها على النطاق العالمي. غير أن هذه الصناعة كانت تعتمد في قسم منها على خيوط الحرير الصينية التي استمر استيرادها من الصين طوال القرن السابع عشر، أي إلى أن قررت السلطة المركزية الحد من نفقات الاستيراد التي كانت سبباً في تسرب العملة الفضية التي قل إنتاج مناجمها في النصف الثاني من القرن السابع عشر[14]. ففي إثر هذا الإجراء، اتجه الفلاحون اليابانيون في

---

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) كانت اليابان تستورد من الصين معظم ما كان نساجو كيوطو يحتاجون إليه من خيوط الحرير. وقد بلغ هذا الاستيراد ذروته في مطلع القرن السابع عشر، حيث قُدرت الكمية المستوردة سنوياً بـ ٣٠٠,٠٠٠ كين (كين يساوي ٠,٥٩ كغ)، أي ما يعادل ١٧٧ طناً، ثم تراجعت في نهاية القرن السابع عشر إلى أقل من ١٠,٠٠٠ كين (أقل من ٦ أطنان).

وقد كانت الشركة الهولندية العاملة في اليابان من أكثر المتضررين من الحد من استيراد خيوط الحرير، ذلك أن وساطتها التجارية بين الصين واليابان كانت تعتمد كثيراً على مبادلة خيوط الحرير بالعملة الفضية، التي قننت سلطات توكوغاوا خروجها من الأرخبيل. انظر: Kazui Tashiro, «Foreign Trade in the Tokugawa Period,» in: Yahami [et al.], *The Economic History of Japan: 1600-1990*, p. 109.

المناطق الملائمة إلى تربية دود القز، وإنتاج خيوط الحرير، وتزويد صنّاع كيوطو. غير أن الأمر استغرق بضعة عقود ليصل الإنتاج إلى المستوى المطلوب من حيث الكم والكيف.

وفي منتصف القرن التاسع عشر كان إنتاج الحرير الخام المحلي قد بلغ مستوى عالياً من الجودة، وغطى حاجات السوق المحلي. ولم يقتصر الأمر على تلبية الطلب المحلي، بل تعداه إلى التصدير؛ فعلى النقيض من الصناعة القطنية، استفاد قطاع الحرير من فتح أسواق اليابان أمام التجارة الخارجية في إثر توقيع المعاهدات مع الدول الأوروبية. فحسب إحصاءات التصدير لعامي ١٨٦٢ و١٨٦٣، كان معدل ما صدّرته اليابان من الحرير الخام سنوياً ٢٧٠,٠٠٠ كان (الكان يساوي ٣٧٥٩ غ)، أو ما يعادل ١١٥ طناً. وقد مثل ذلك ٧٥ بالمئة من الإنتاج المحلي آنذاك. ونظراً إلى إقبال السوق الأوروبي على الحرير الياباني، ارتفع سعر الحرير داخلياً بنسبة ٦٠ بالمئة في السنوات الموالية[١٥]. واعتباراً لهذا التطور الذي عرفه إنتاج الحرير الخام والمنسوجات الحريرية في عصر توكوغاوا، فإن اليابان تتصدر اليوم الدول المنتجة للحرير، إذ إنها تنتج ما يعادل ثلث الإنتاج العالمي[١٦].

إضافة إلى هاتين الصناعتين، كان الفلاحون اليابانيون في عصر **توكوغاوا** يقومون بصناعات أخرى، من قبيل صناعة خمر الساكي، الذي يعود تاريخ تصنيعه إلى أقدم العصور (أول إشارة إليه تعود إلى القرن الثالث الميلادي)، وخمر شوتشو (Shochu) ـ وكلاهما يُستخلص من تخمير الأرز، وكذا زيت الصوجا ومرقها (soy sauce)، والأصباغ المستعملة في النسيج، والورق الذي كثر الإقبال عليه في هذا العصر. هذا بالإضافة إلى الصناعات المرتبطة بالأخشاب، وغيرها من الصناعات التي يضيق المجال للتفصيل فيها.

كانت الفقرة الخاصة بفئة التشونين مناسبة لإثارة التطورات التي عرفتها التجارة والمعاملات التجارية، وما ساوقها من ممارسات تتعلق بتداول النقد وصرفه. ونحن نعتقد أن في ذلك كفاية لإعطاء فكرة عن إرهاصات النظام الرأسمالي في الياباني. كما أننا لا نود الخوض في المزيد من القضايا الاقتصادية

---

(١٥) Saito and Tanimoto, «The Transformation of Traditional Industries,» p. 269.

(١٦) Hosoda Kazuo, «Silk,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 8, p. 194.

المتعلقة بعصر **توكوغاوا**، بسبب ضيق مجال هذا البحث، الذي اقتصرنا فيه على المؤشرات العامة فحسب.

ثالثاً: الطفرة الديمغرافية

حظي تزايد سكان اليابان بوتيرة متسارعة خلال القرن السابع عشر باهتمام عموم مؤرخي عصر **توكوغاوا**، وليس باهتمام الباحثين في الديمغرافيا والاقتصاد وحدهم. ذلك أن تلك الزيادة مثّلت طفرة ديمغرافية غير مسبوقة في تاريخ اليابان، واعتُبرت في رأي الباحثين، على اختلاف مشاربهم، مؤشراً إيجابياً على ما خبرته اليابان من تطور في مستويات مختلفة خلال ذلك العصر.

ولا شك أن زيادة السكان بوتيرة متسارعة أثارت قلق الباحثين منذ أواخر القرن الثامن عشر ـ أي منذ أن نشر مالتوس (في عام ١٧٩٨) تحذيره بشأن الأخطار الناجمة عن عدم التناسب المحتمل بين زيادة السكان والموارد الاقتصادية، وهو ما يصدق، إلى حد ما، على بعض الدول النامية اليوم ـ غير أن آراء معظم الباحثين تكاد تتفق على أن الزيادة إن ظلت في حدود معقولة تكون عاملاً مساعداً على النمو الاقتصادي؛ فأوروبا في مقتبل ثورتها الصناعية عرفت طفرة ديمغرافية لم تشكل في حينها عائقاً أمام تطور اقتصادها. ولعل أهم نموذج في هذا الباب هو الزيادة التي عرفها سكان بريطانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي جاءت مواكبة ومساندة لثورتها الصناعية. والأمر ذاته يصدق على حال اليابان، التي لم تعرف ثورة صناعية، غير أنها عرفت نمواً في مجال الإنتاج الزراعي، ومن ثم كانت طفرتها الديمغرافية انعكاساً لنموها الاقتصادي. وعلى أي حال، لم يصل تعداد سكان اليابان إلى الحد الذي تنطبق عليه نظرية مالتوس ـ على الرغم من استغلال بعض الباحثين اليابانيين المتأثرين بالفكر الماركسي في العقود الأولى من القرن العشرين لأوضاع الفلاحين المزرية في أواخر عصر **توكوغاوا** للقول بأن اليابان وقعت في الورطة التي تنبأ بها مالتوس(١٧).

وعموماً، فإن المعطيات الديمغرافية، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، هي مرآة ينعكس عليها مستوى عيش السكان ووضعهم الصحي، وآثار المجاعات

---

(١٧) Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 224.

والأوبئة، وغير ذلك ممّا يمكن قراءته في المتاح من الإحصاءات الديمغرافية.

لقد توافرت لدى الباحثين إحصاءات شبه متواترة منذ أواخر القرن السادس عشر[١٨]، أي منذ الإجراءات التي قام بها **هيدي ـ يوشي** بشأن مسح الأراضي وتحديد وضع الفئات. أما في عصر **توكوغاوا**، فقد دأبت سلطات الشجون على إجراء إحصاءات دورية احتفظت الوثائق بسجلاتها. هذا إضافة إلى سجلات المعابد البوذية التي كان لزاماً على عموم الناس تقييد أنفسهم بها في إطار قوانين استئصال العقيدة المسيحية[١٩].

هذا إضافة إلى وثائق بعض الهانات التي ضمت إحصاءات دقيقة ومتواترة أمكن استغلالها من قبل الباحثين لرسم صورة دقيقة للتطور الديمغرافي في مناطق بعينها. غير أن تلك السجلات كانت في مجملها غير تامة، ومشوبة بالنقص أحياناً بسبب إهمالها فئات معيّنة، أو تركيزها على شريحة من السكان (فئة الذكور في سن معيّنة). ولعل أهم إحصاء شامل لسكان اليابان قبل إصلاحات الميجي هو إحصاء عام ١٧٢١، الذي أمر به الشجون **يوشيموني** (Yoshimune)، ويُعتبر حجر الزاوية في جميع التقديرات الإحصائية التي يقوم بها الباحثون اليوم[٢٠]. غير أن المرسوم الخاص به نص على تعداد الفلاحين والتجار وسكان المدن والكهنة، بينما استثنى الساموراي وأُسرهم وأتباعهم والقائمين على خدمتهم[٢١]. وقد بذل المؤرخون اليابانيون جهوداً مضنية في العقود الأخيرة لتصحيح تلك النواقص، والوصول إلى إحصاءات تقريبية ترسم التطور اليابان الديمغرافي منذ مطلع القرن السابع عشر.

---

(١٨) قام بعض دايميويي الدويلات المتحاربة بإحصاءات لغايات متعددة يتعلق البعض منها بأعداد المحاربين. وهناك سجلّات متوافرة في هذا الصدد تخص النصف الثاني من القرن السادس عشر. انظر: Akira Hayami and Hiroshi Kito, «Demography and Living Standards,» in: Yahami [et al.], *The Economic History of Japan: 1600-1990*, vol. 1, pp. 215-216.

(١٩) في ما يخص توافر الإحصاءات وتنوعها في عصر توكوغاوا، انظر: Susan B. Hanley and Kozo Yamamura, *Economic and Demographic Change in Preindustrial Japan, 1600-1868* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977), pp. 40-43.

(٢٠) تجدر الإشارة إلى أن هذا الإحصاء ليس الإحصاء الوحيد في عصر توكوغاوا؛ إذ دأب الشجون بعد يوشيموني على إصدار مراسيم للقيام بإحصاءات عامة لمختلف الفئات. وعلى هذا الأساس توجد إحصاءات خاصة بالأعوام: ١٧٥٠، ١٧٥٦، ١٧٨٦، ١٧٩٨، ١٨٠٤، ١٨٢٢، ١٨٢٨، ١٨٣٤ و١٨٤٦؛ إذ جرت العادة على القيام بالإحصاء كل ست سنوات أو عشر سنوات، كما أمر بذلك الشجون يوشيموني. انظر: المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٢١) المصدر نفسه.

ليس ثمة أدلة تاريخية بشأن أعداد السكان قبل أواخر القرن السادس عشر، غير أن المؤرخين اعتمدوا على بعض المؤشرات التي من شأنها إعطاء فكرة عن تعداد السكان، ومنها مؤشر إنتاج الأرز، حيث يعتقد أن كل كوكو من الأرز يكفي لإعالة شخص واحد لمدة سنة. وعلى هذا الأساس وغيره، جرى تقدير أعداد سكان الجزر اليابانية خلال مختلف العصور التاريخية. فحسب بعض التقديرات، كان تعداد السكان في أواخر عصر جومون ٨٠ ألف نسمة، ثم ارتفع إلى ٦٠٠ ألف نسمة في عصر يايوئي (أي بعد دخول زراعة الأرز).

أما خلال عصري **نارا** و**هييان**، فإن تعداد السكان كان يتراوح ما بين ٥ و٦ ملايين نسمة[٢٢]. وقد ظلت وتيرة الزيادة تسير على نحو ضعيف منذ ذلك التاريخ حتى أواخر القرن السادس عشر؛ إذ إن تعداد سكان اليابان لم يبلغ ١٠ملايين إلا في أواخر القرن الرابع عشر[٢٣]، وإن كانت هذه التقديرات لا تخرج في مجملها عن نطاق الافتراض. إلا أن الأمر بدأ يختلف في ما يخص أواخر القرن السادس عشر، الذي توافرت في شأنه معطيات كثيرة. غير أن وفرة المعطيات لم تؤد بالضرورة إلى اتفاق الباحثين حول رقم محدد ودقيق، فقد ظهر الاختلاف بينهم حول تعداد السكان قبيل الطفرة الديمغرافية (أي في مطلع القرن السابع عشر)، فساد في العقود الأولى من القرن العشرين اعتقاد بأن تعداد السكان كان في حدود ١٨ مليوناً، اعتماداً على إنتاج الأرز المستخلص من مسح الأراضي الذي قام به هيدي ـ يوشي (أي ١٨ مليون كوكو)[٢٤]. غير أن الدراسات الحديثة أعادت النظر في هذا التقدير، وتوصلت إلى أن الرقم القريب من الصحة لا يتعدى ١٢ مليوناً. وقبل التفصيل في أسباب الطفرة الديمغرافية، نرى من المفيد إدراج أحد التقديرات المعمول بها في أحدث الدراسات.

---

(٢٢) Hiroshi Kito, «Expectations of a Low Birth Society: From the Perspective of Historical Demography,» *Japan Medical Association Journal*, vol. 45, no. 1 (January 2002), p. 36.

(٢٣) D. Eleanor Westney and Samuel J. Coleman, «Population,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 222.

(٢٤) من الباحثين الذين دافعوا عن هذا الرقم وكرسوه في أبحاثهم، الباحث يوشيد توغو (Yoshida Togo) (١٨٦٤ ـ ١٩١٨)، وهو جغرافي ومؤرخ، عمل في جامعة واسيدا (Wasida).

الجدول الرقم (٨ ـ ٤)
تطور أعداد سكان اليابان خلال عصر توكوغاوا

العام	تعداد السكان (نسمة)
١٦٠٠	١٢,٠٠٠,٠٠٠
١٦٥٠	١٧,١٨٠,٠٠٠
١٧٠٠	٢٧,٦٩٠,٠٠٠
١٧٢٠	٣١,٢٨٠,٠٠٠
١٧٣٠	٣٢,٠٨٠,٠٠٠
١٧٥٠	٣١,١٠٠,٠٠٠
١٨٠٠	٣٠,٦٥٠,٠٠٠
١٨٥٠	٣٢,٢٨٠,٠٠٠
١٨٧٠	٣٣,١١٠,٠٠٠

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٨.

وحسب هذه التقديرات، فإن نسبة الزيادة السنوية هي على النحو التالي:

الجدول الرقم (٨ ـ ٥)
نسبة زيادة السكان بحسب الفترات

الفترة الزمنية	النسبة المئوية
١٦٠٠ ـ ١٦٥٠	٠,٧٢
١٦٥١ ـ ١٧٠٠	٠,٩٦
١٧٠١ ـ ١٧٢٠	٠,٦١
١٧٢١ ـ ١٧٣٠	٠,٢٥
١٧٣١ ـ ١٧٥٠	ـ ٠,١٦
١٧٥١ ـ ١٨٠٠	ـ ٠,٠٣
١٨٠١ ـ ١٨٥٠	٠,١٠
١٨٥١ ـ ١٨٧٢	٠,١١

المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٨.

يتبين من القراءة الأولى لمعطيات هذين الجدولين الرقمين (٨ ـ ٤) و(٨ ـ ٥) أن أعداد سكان اليابان تضاعفت في أقل من قرن، وأنها بلغت أوجها في

نهاية العقد الثالث من القرن الثامن عشر، حين فاق تعداد السكان ٣٢ مليون نسمة، وأنها دخلت منذ ذلك التاريخ في مرحلة ركود إلى مطلع القرن الثامن عشر، ثم عادت إلى الارتفاع ثانية، مع الإشارة إلى أن سكان اليابان عرفوا طفرة ديمغرافية ثانية بعد إصلاحات الميجي؛ فمن ٣٣,١١١,٠٠٠ نسمة ـ حسب إحصاء عام ١٨٧٢ ـ بلغ تعداد سكان اليابان زهاء ٥٧ مليون في عام١٩٢٠.

ومما لا شك فيه أن ازدياد أعداد السكان في القرن السابع عشر ـ أي حاصل الفرق بين المواليد والوفيات ـ كان ازدياداً طبيعياً، حيث لم تستقبل اليابان، سواء في هذه الفترة أو في فتراتها التاريخية المعروفة، هجرة مكثفة أو توافداً من الخارج يستحق الذكر. ومن ثم، فإن السؤال سيكون عن أسباب هذه الزيادة.

بداية يمكن إبعاد السبب المتعلق بالطب، ذلك أن اليابان لم تعرف تطوراً ملحوظاً أو نقلة نوعية في مجال الطب أو العناية الصحية؛ إذ ظل أطباؤها يعتمدون على المعارف الصينية التي كانت سائدة لديهم قروناً، ولم يشرعوا في التخلي عنها وتعويضها بالمعارف الطبية الغربية إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن ثم، فإن الجواب الأقرب إلى الصحة يكاد ينحصر في توسع الرقعة الزراعية وزيادة إنتاج الأرز، المشار إليهما في الفقرات السالفة. إذ يلحظ من مقارنة جدولي إنتاج الأرز والسكان تناسباً مثيراً؛ فالطفرة الديمغرافية جاءت مساوقة لارتفاع إنتاج الأرز، بينما جاء استقرار أعداد السكان بعد أن بلغ إنتاج الأرز مداه ولم يعد في الإمكان استصلاح أراض جديدة.

ومن قراءة في المؤشرات الديمغرافية (الخصوبة، المواليد، الوفيات، سن الزواج، الأمل في الحياة. . .) التي أمكن استخلاصها من سجلات **توكوغاوا**، يتأكد أن تغيراً طرأ على هذه المؤشرات، خاصة في القرن السابع عشر، أي في أثناء الطفرة الديمغرافية. ودون الدخول في التفاصيل ـ التي تهم أهل الاختصاص ـ والفروق الموجودة بين الأقاليم، يمكن القول إجمالاً إن النسبة العامة للخصوبة أو الزيادة بلغت ٣٥ في الألف ـ بينما قاربت في بعض الأقاليم ٤٥ في الألف[٢٥]. أما الوفيات، فقد ظلت مرتفعة بين الأطفال، في حين تناقصت بين البالغين إلى سن الخمسين[٢٦].

---

(٢٥) Hayami and Kito, «Demography and Living Standards,» pp. 327-329.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

لا ريب أن زيادة إنتاج الأرز كانت سبباً مهماً في الطفرة الديمغرافية، غير أن هناك أسباباً أخرى، نذكر منها توسع العمران، والهجرة إلى المدن، وازدهار الزراعات التسويقية والصناعية، وغيرها، بما أتاح للفلاحين ـ أي الشريحة الكبرى من المجتمع الياباني ـ دخلاً إضافياً، ومكنت شبابهم من إقامة أُسر في سن مبكرة. وإضافة إلى هذه العوامل المساعدة على النمو الديمغرافي، ركزت الباحثة **سوزان هانلي** على الثقافة المادية (Material Culture) لعصر توكوغاوا[٢٧]. ففي رأيها، يجب عدم الاقتصار على توافر الغذاء أو السعرات الحرارية المتاحة لكل فرد، وتطور المعرفة الطبية، كعاملين وحيدين لتفسير النمو الديمغرافي، بل يجب النظر أيضاً إلى الظروف الحياتية للأفراد، من سكن وفراش ولباس وتوافر الماء والصرف الصحي ونوعية الطعام وكيفية تحضيره. . . إلى غير ذلك. ومّما خلصت إليه هو أن مظاهر الثقافة المادية كلها عرفت تحسناً ملموساً في عصر **توكوغاوا**، سواء في المراكز الحضرية التي تكاثرت، أو في القرى.

كما ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات عن أسباب تعمير اليابانيين وارتفاع سن الأمل في الحياة لديهم مقارنة بالشعوب الصناعية الأخرى (٧٧,٩ سنة بالنسبة إلى الذكور و٨٥,١ سنة بالنسبة إلى الإناث، حسب إحصاءات الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٣). ومما جرى التركيز عليه «ثقافة الطعام أو المائدة» (Culture de la table) والتوازن في الغذاء اليومي لدى الفرد الياباني، وهو غذاء يرتكز على الأرز والسمك وحبوب الصويا (ومشتقاتها من زيت ومرق وتوفو[٢٨] وحلويات)، والخضر المسلوقة، وتقل فيه نسبة الدهنيات[٢٩]. مع الإشارة إلى أن الكثير من الأطباق التي يشتهر بها المطبخ الياباني اليوم يعود ابتكارها إلى عصر إيدو[٣٠]. وفي اعتقادنا أن ثقافة الطعام مدخل لا يجب إغفاله في الدراسات الديمغرافية.

وعلى النحو ذاته من الاهتمام بالطفرة الديمغرافية، اهتم الباحثون أيضاً

---

(٢٧) Susan B. Hanley, *Everyday Things in Premodern Japan: The Hidden Legacy of Material Culture* (Berkeley, CA: University of California Press, 1999).

(٢٨) التوفو (Tofu) صنف من الجبن يُستخلص من حليب الصوجا. وهو يشبه الجبن الأبيض شكلاً.

(٢٩) Nagayama Hisao (Historien des Cultures de la Table), «La Longévité est au fond du bol,» *Nipponia*, no. 29 (2004), pp. 12-15.

(٣٠) قامت مدينة إيدو بدور كبير في تطوير الكثير من الأطباق، إضافة إلى أنها كانت ملتقى لمختلف ثقافات الأقاليم.

بأسباب توقف النمو الديمغرافي وتراجعه في القرن الثامن عشر. ولعل السبب الأرجح الذي يساق في هذا الباب هو بلوغ استصلاح الأراضي مداه، واستقرار إنتاج الأرز في حدود معيّنة. وهو عامل أساسي في الاستقرار الديمغرافي، غير أن هناك عوامل أخرى كان لها دور في تراجع أعداد السكان في الفترة المشار إليها، منها الأوبئة والمجاعات وممارسة تحديد النسل الطوعي.

كانت الجزر اليابانية، بسبب عزلتها النسبية وطبيعتها الجبلية وندرة استقبالها لهجرات من الخارج، أقل عرضة للأوبئة التي عمت جهات أخرى من العالم. ومن ثم، فإن تاريخ الأوبئة في اليابان يختلف في توقيته وأسبابه عن تاريخ الأوبئة على الصعيد العالمي[٣١]. وقد شكّل داء الجدري في مقدم الأدواء المسببة للوفيات ـ خاصة بين الأطفال ـ وأكثرها تردداً في تاريخ اليابان؛ إذ كان يصل أحياناً إلى درجة الوباء في المناطق التي ينتشر فيها. وفي عصر **توكوغاوا**، لم تخل عشرية منه من انتشار هذا الداء على نحو يقرب من الوباء[٣٢]. إذ كان عند انتشاره على نحو وبائي يتسبب في موت ١٠ بالمئة من الأطفال، وهو ما يكون له تأثير في انعكاس على نسبة المواليد في السنوات التالية. ويلي الجدري داءُ الحصبة من حيث السبب في الوفاة، وكان يتردد ويتسبب في وفيات الأطفال على نحو قريب من الجدري[٣٣].

أما المجاعات، فقد عرفت اليابان خلال عصر **توكوغاوا** عدداً منها، وكانت متباينة من حيث الأهمية والدوام والتسبب في الوفيات. وعموماً كانت موجات البرد ـ وليس الجفاف ـ هي التي أعاقت نمو الأرز وأنقصت المحصول الزراعي، وبالتالي أدت إلى المجاعة. وأهم هذه المجاعات، من حيث الفتك بأعداد كبيرة من السكان، مجاعة كيوهو (Kyōhō) (١٧٣٢ ـ ١٧٣٣) التي تسببت خلال سنتين في وفاة ١٢ ألف نسمة، بينما عانى المجاعة ما ينيف على مليونين ونصف مليون نسمة، ثم مجاعة تينميئي (Tenmei) (١٧٨٣ ـ ١٧٨٧) التي كانت بدايتها بسبب انفجار بركان أساما (٤ آب/أغسطس ١٧٨٣)، الذي أثّر في المناخ بصورة سلبية؛ إذ قُدر ـ اعتماداً على إحصاءات السكان ـ أن تلك المجاعة أودت بحياة

(٣١) Ann Bowman Jannetta, *Epidemics and Mortality in Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987), pp. 27-29.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٤٤.

زهاء مليون نسمة من سكان اليابان. وأخيراً مجاعة تيمبو (Tempō) التي بدأت في مطلع ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وكانت سبباً في عدد من الوفيات وفي هجرة مكثفة من البوادي إلى المدن[٣٤].

من الظواهر المثيرة في التاريخ الديمغرافي لعصر توكوغاوا، الممارسة الطوعية لتحديد النسل من قبل بعض أُسر الفلاحين؛ فحسب الدراسات التي أُجريت، تبين أن سبب استقرار أعداد سكان اليابان لا يتوقف عند الإنتاج الزراعي، بل يتعداه إلى انخفاض في الخصوبة نجم عن ممارسة تحديد النسل ـ بطرق مختلفة، منها وأد الأطفال[٣٥].

---

(٣٤) Conrad Tottman, *Early Modern Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), pp. 236-244.

(٣٥) Thomas C. Smith, «Peasant Families and Population Control in Eighteenth Century,» in: Smith, *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920*, pp. 103-132.

الفصل التاسع

التمدن والمواصلات

أولاً: التمدن

إن ظاهرتي التمدن (Urbanization) وتنامي سكان الحضر سمتان بارزتان في التطور الذي عرفه المجتمع الياباني خلال عصر **توكوغاوا**، ويمكن اعتبارهما مؤشراً على بداية التحديث، أو على الأقل علامتين من علامات التغير الذي عرفه المجتمع الياباني في هذا العصر، وانفرد به عن باقي المجتمعات الآسيوية والشرقية عموماً. ذلك أنه تسنّى تصنيف اليابان منذ نهاية القرن السابع عشر ضمن أكثر بلدان العالم ارتفاعاً من حيث نسبة سكان الحضر والتوسع الحضري، مثلها في ذلك مثل دول قليلة في أوروبا كفرنسا وإنكلترا[١]. بل إن المدن اليابانية الكبرى

(١) Nakai Nobuhiko and J. L. McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 519.

كانت إنكلترا في نهاية القرن الثامن عشر تتصدر دول العالم من حيث تعداد سكان الحضر، حيث عرفت منذ الثورة الصناعية انطلاقة نحو التوسع الحضري، ففاقت نسبة سكان الحضر بها نسبة ٣٠ بالمئة في عام ١٨٠٠، تليها فرنسا بنسبة تقارب ٢٠ بالمئة، ثم هولندا. وكانت اليابان تأتي مباشرة بعد الدول الأوروبية من حيث ارتفاع نسبة سكان الحضر. ويبين الجدول التالي تقديرات سكان الحضر في العالم عام ١٨٠٠:

تقديرات سكان الحضر في العالم عام ١٨٠٠

المنطقة	التعداد العام للسكان (مليون نسمة)	تعداد سكان الحضر (مليون نسمة)	النسبة المئوية لسكان الحضر (بالمئة)
أوروبا (باستثناء الإمبراطورية الروسية) ● إنكلترا وفرنسا	١٦٠ (٣٩)	٢٠ (٧)	ما بين ١٢ و ١٤ حوالى ٢٠

يتبـــع

كانت تتصدر قائمة المدن ذات الكثافة العالية في العالم في العصر الحديث[٢]؛ فعدد سكان إيدو (طوكيو اليوم) كان يقارب المليون نسمة في نهاية القرن السابع عشر ـ ٩٠٤,٠٠٠ نسمة في عام ١٦٩٥ ـ في حين لم تقترب لندن من هذا العدد إلا بعد قرن من الزمن ـ عدد سكان لندن في بداية القرن التاسع عشر ٨٦٠,٠٠٠ نسمة. أما باريس، فكان عدد سكانها في مطلع القرن الثامن عشر ٥١٠,٠٠٠ نسمة[٣]. ولم يكن يضاهي مدينة إيدو من حيث تعداد السكان سوى عاصمة آسيوية أخرى هي **بيجين** [بكين] التي قاربت المليون نسمة في أواسط القرن الثامن عشر (وبالتحديد ٩٠٠,٠٠٠ نسمة)، مع الإشارة إلى أن **إيدو** لم تكن حالة استثنائية؛ فسكان كل من مدينتي **أوساكا** و**كيوطو** كانوا في التاريخ نفسه في حدود ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، وهو رقم قياسي أيضاً بالنسبة إلى الفترة[٤]. وعلى أي حال، كانت نسبة سكان الحضر في اليابان في مطلع القرن التاسع عشر تزيد

تابـــع

اليابان	٣٠	٥	ما بين ١٦ و ١٧
الإمبراطورية الروسية	٣٩	٣	ما بين ٨ و ٩
الصين	٣٠٠	١٨	ما بين ٦ و ٧
آسيا باستثناء الصين	٣١٠	٢٠	ما بين ٣ و ٥
أفريقيا	١٠٧	زهاء ٣	ما بين ٢ و ٤

ملاحظة: يجب أخذ الإحصاءات الواردة في الجدول على أنها مجرد تقديرات، ذلك أن مصادر أخرى تعطي تقديرات مختلفة بالنسبة إلى تعداد سكان العالم في نهاية القرن الثامن عشر.

المصـــدر: Cyril E. Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia: A Comparative Study* (New York: Free Press, 1975), p. 82.

(٢) في مطلع القرن التاسع عشر، كانت هناك حوالى ٧٠ مدينة في العالم يفوق تعداد سكانها ١٠٠ ألف نسمة، خمس منها في اليابان. وفي الفترة ذاتها، كانت هناك ٢٠ مدينة يزيد عدد سكانها عن ٣٠٠ ألف نسمة، ثلاث منها في اليابان. ولربما كانت إيدو هي المدينة الوحيدة في العالم التي تجاوزت المليون نسمة في الفترة المشار إليها. حول هذه التقديرات، انظر: Gelbert Rozman, «Edo's Importance In the Changing Tokugawa Society,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 1, no. 1 (Autumn 1974), p. 91.

(٣) في ما يخص مقارنة دقيقة بين تطور أعداد سكان مدينتي طوكيو ولندن، انظر: «Tokyo and London: Comparative Conceptions of the City,» in: Albert M. Graig, eds., *Japan: A Comparative View* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979), p. 51.

انظر، خاصة، الرسم البياني المرفق بالصفحة نفسها. وبالنسبة إلى مقارنة بين سكان باريس وسكان طوكيو، انظر: James McClain and John M. Merriman, «Edo and Paris: Cities and Power,» in: James McClain and John M. Merriman, eds., *Edo and Paris: Urban life and the State in the Early Modern Era* (Ithaca: Cornell University Press, 1994), esp. table, p. 13.

(٤) Satoru Nakamura, «The Development of Rural Industry,» in: Chie Nakane, *Japanese Society* (Berkeley, CA: University of California Press, 1972), pp. 84-85.

على ١٦ بالمئة، وهي نسبة لم تبلغها أو تفقها في الفترة ذاتها سوى دول أوروبية قليلة، كما سبقت الإشارة.

ليست ظاهرة التمدن بالأمر المستحدث في تاريخ اليابان أو ليست ظاهرة خاصة بعصر **توكوغاوا**؛ فمنذ أن دخلت اليابان العالم الصيني في القرن السادس الميلادي، سارت على نهج الصين في إنشاء المدن واتخاذها مراكز للإدارة العامة والمحلية والتبادل التجاري، فكان إنشاء مدينة **نارا** (عام ٧١٠) ـ أول عاصمة حقيقية للإمبراطورية اليابانية ـ التي جاءت محاكية في تصميمها لمدينة **تشانغ آن** (Ch'ang An)[٥]، عاصمة دولة **تانغ** (٦١٨ ـ ٩٠٧) الصينية، ثم **كيوطو** ـ عاصمة الإمبراطور من عام ٨١٠ إلى عام ١٨٦٨ ـ التي جرى اختيار موقعها وتصميمها بعناية لتضاهي نظيرتها الصينية. كما كان في كل إقليم من أقاليم اليابان التي يزيد عددها على الستين، عواصم للإدارة المحلية، إضافة إلى الموانئ والمراكز التجارية المنتشرة في جميع أرجاء اليابان. وباستثناء العاصمة **كيوطو**، ظلت هذه المدن في حدود متواضعة، لا يزيد عدد سكانها على بضعة آلاف نسمة، تنحصر وظيفتها أساساً في الإدارة، وتلبية حاجيات التجارة في مرتبة ثانية. ومن ثم، كان من المثير في تاريخ الفترة التي تعنينا (عصر توكوغاوا) أن تحدث هذه الطفرة العمرانية في وقت قصير، وأن يتوجه اليابانيون نحو إحداث مدن جديدة، ويقبل سكان البوادي على الهجرة إلى المدن، وتتكاثر بالتالي أعداد سكان الحضر، وهي ظواهر لم تشهدها سوى دول معيّنة في أوروبا الغربية.

إن موضوعنا الرئيسي في هذا الدراسة هو البحث في الأسباب التي هيأت اليابان للالتحاق سريعاً بركب الحضارة الغربية، وتمدن اليابان في هذه الفترة التي سبقت إصلاحات الميجي من الأسباب التي يجب أخذها بالاعتبار؛ فالتمدن يمكن اعتباره من الركائز التي انبنى عليها التحديث في أوروبا، وذلك لما للمدن من دور كقاطرة للتغيير. فغير خاف ما كان للمدن الإيطالية التجارية في فجر عصر النهضة من دور في إحياء الحضارة الغربية؛ إذ كانت هي وغيرها من المدن رائدة التغيرات الكبرى التي عرفتها المجتمعات الغربية، حيث شكلت مراكز لثوراتها العنيفة وغير العنيفة، وقواعد للمجموعات التي تحدت بنجاح سلطة الأنظمة

---

(٥) كانت تشانغ آن (Ch'ang An) عاصمة لعدد من الدول الصينية، غير أنها ازدهرت في عصر أُسرة تانغ، وكانت واقعة بالقرب من مدينة سيان (Sian)، عاصمة إقليم شينسي (Shensei).

التقليدية (الفيودالية) وقضت عليها[٦]. وقد كانت هذه المدن رائدة بسبب توجهها التجاري واستقلالها المادي والإداري، واحتضانها طبقة التجار الصاعدة، التي شكلت، في ما بعد، الطبقة البرجوازية. فنمو أوروبا الحديثة كان في جانب كبير منه بسبب نمو وازدهار هذه الطبقة من تجار المدن، التي كانت في موقع من المجتمع مكّنها من الهيمنة على الاقتصاد في مرحلة، وتكوين مؤسسات سياسية جديدة تلائمها في مرحلة ثانية. ومن ثم كانت هذه المدن، وبمعطياتها تلك، المركز الطبيعي للتغير السياسي بعد أن كانت رائدة التغير الاقتصادي[٧].

لم ترق المدن اليابانية، قبل القرن السادس عشر، إلى مستوى المدن التي تستقل بذاتها، أو تقود التغيير وتتحدى شرعية المؤسسات الفيودالية؛ فقد ظلت تتبع النموذج الصيني، وتقوم أساساً بالوظيفة الإدارية، رغم أهمية التجارة في البعض منها. ولعل الاستثناء الوحيد في هذا الباب هو مدينة **سكاي**[٨] التي شكّلت نموذجاً فريداً من حيث الاستقلال الإداري والاعتماد على التجارة. فـ **سكاي** كانت المنفذ البحري لـ **كيوطو** و**نارا**، ومركزاً تجارياً يعتمد على المتاجرة مع الصين وكوريا وجنوب شرقي آسيا. ومنذ أواخر القرن الخامس عشر، استطاع أهاليها تحقيق استقلال إداري عن الحكم المركزي (شجونة **أشيكاغا**) وعن دايميو الدويلات المتحاربة المحيطين بها، وضمان عدم الاعتداء عليهم في أثناء الحرب الأهلية[٩]. وقد شكّل تجار المدينة مجلساً لإدارتها ـ يعرف بإيغوشو (Egôshu)[١٠] ـ حيث أصبحت مستقلة، على غرار المدن الإيطالية. ولعل هذا ما أدهش المبشر البرتغالي

---

(٦) انظر المقال المتميز للباحث رودس ميرفي الذي يعقد فيه مقارنة بين مدن أوروبا الغربية والمدن الصينية: Rhoads Murphey, «The City as a Center of Change: Western Europe and China,» *Annals of the Association of American Geographers*, vol. 44, no. 4 (December 1954), pp. 349-362.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٢.

(٨) تقع مدينة سكاي اليوم بالقرب من مدينة أوساكا. وكانت من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر مركزاً تجارياً مهماً، وميناء يختص بالتجارة الخارجية. وقد بلغت المدينة أوجها في القرن السادس عشر.

(٩) V. Dixon Morris, «The City of Sakai and Urban Autonomy,» in: George Elison and Bardwell L. Smith, eds., *Warlords, Artists and Commoners: Japan in the Sixteenth Century* (Honolulu: University Press of Hawaii, 1981), pp. 23-45, and Tani Naoki, «Medieval Cities,» in: Tadao Umesao, eds., *Seventy-Seven Keys to the Civilization of Japan* (Osaka: Sogensha Inc., 1985), pp. 97-100.

(١٠) إيغوشو مصطلح عُرفت به الهيئة التي تولّت إدارة بعض المدن في عصر أشيكاغا، والتي تعتبر مدينة سكاي أهم نموذج لها. وقد كانت هذه الهيئة تتكوّن من كبار التجار الذين يتولون مسؤوليات إدارة المدينة وأسواقها، وأداء ما عليها من أتاوى. كما كانت تتولى أحياناً الدفاع عن المدينة. انظر: Morris, Ibid., pp. 36-39, and «Egoshu,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, pp. 184-185.

غاسبار فيليلا وشبهها بمدينة البندقية[١١]. غير أن هذه التجربة لم تشكل سوى حالة من الحالات القليلة التي لم تنعم بالبقاء طويلاً؛ ففي أثناء توحيد البلاد في النصف الثاني من القرن السادس عشر، خضعت سكاي تباعاً لـ **نوبوناغا** و**هيدي ـ يوشي**، قبل أن توضع تحت الإدارة المباشرة للشجون في عصر توكوغاوا. وهكذا، فقدت أهميتها التجارية لصالح **ناغاساكي**، التي أصبحت الميناء الرئيسي للتجارة الخارجية، ولصالح **أوساكا** التي ازدهرت بجانبها. وكذلك كان مصير المدن القليلة من هذا القبيل، إذ فقدت استقلاليتها بعد توحيد البلاد.

كما أن المدن التي استُحدثت في عصر **توكوغاوا** لم ترق أيضاً إلى مستوى مدن أوروبا الغربية، غير أن تكاثرها وانتشارها في كل أرجاء البلاد جعلا منها مجالاً يستقطب عشرات الآلاف من سكان البوادي الباحثين عن فرص العمل وتحسين ظروف العيش، ومن ثم أضحت مراكز استهلاك مهمة، تدفع المزارعين إلى تنمية إنتاجهم وتنويعه لتلبية الطلب المتزايد على الغذاء، وضرورات الحياة اليومية. وكذا عملت على ازدهار الرواج التجاري وتحسين طرق المواصلات. كما كان من نتائج تكاثر سكان الحضر ووجود تجمعات سكنية كبرى، تكوين ثقافة خاصة بهذه الفئة من السكان، تمثلت في تنامي أصناف الفرجة، وتكاثر أحياء الترويح عن النفس، وتجزية أوقات الفراغ[١٢]. وحتى وإن لم تقم المدن اليابانية في العصر الحديث بالدور ذاته الذي اضطلعت به بعض المدن في أوروبا، فإنها شكّلت عنصراً فاعلاً في النمو الاقتصادي ومراكز ذات توجه ثقافي مغاير، كما أدت إلى ظهور فئة التشونين (سكان المدن) التي شاركت البرجوازية الأوروبية في العصر الحديث في كثير من سماتها وتطلعاتها.

نعرض في الفقرات التالية أسباب هذه الطفرة الحضرية، وأصناف المدن التي تكاثرت في عصر **توكوغاوا**، ونوعية ساكنيها وكيفية إدارتها، وتدبير الحياة اليومية فيها، مع التركيز على نموذجي **إيدو** و**أوساكا** اللتين ارتقتا في وقت قصير إلى تجمعين حضريين كبيرين، وكانتا بمثابة قاطرتين للتنمية في عصر ما قبل الميجي. أما ثقافة التشونين، فنتركها لفصل تال.

---

(١١) ورد هذا التشبيه في رسالة بعث بها غاسبار فيليلا إلى أحد المبشرين في الهند عام ١٥٦١. وقد ورد في الرسالة قوله: «إن مدينة سكاي واسعة جداً، ويعيش فيها عدد كبير من التجار. وهي كمدينة البندقية تدار بواسطة حكامها الخاصين». انظر: Morris, Ibid., p. 286, and Naoki, «Medieval Cities,» p. 97.

(١٢) Nobuhiko and McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» pp. 519-520.

١ ـ المدن القلاع (Jôkamachi)

إلى حدود القرن السادس عشر، كانت في اليابان أصناف من المدن ذات أصول ووظائف مختلفة، وفي مقدمتها المدن العتيقة التي أُنشئت في الأصل لتكون عواصم للإمبراطور، مثل **نارا** و**كيوطو**. وقد أشرنا إلى أن هاتين المدينتين صُممتا على غرار النموذج الصيني، غير أن **كيوطو**، التي ظلت مقراً للإمبراطور وحاشيته منذ مطلع القرن التاسع الميلادي، هي التي بلغت درجة من التوسع والكثافة السكانية التي فاقت ٢٠٠ ألف نسمة بسبب احتكارها المجالين السياسي والثقافي؛ ففيها استقر الإمبراطور والأرستقراطية اليابانية والكتّاب والعلماء والشعراء والفنانون ورجال الدين؛ وفيها وجدت كبرى المعابد والمؤسسات الدينية والتعليمية؛ إضافة إلى كونها مركزاً للصناعات التقليدية، خاصة صناعة النسيج التي كانت تشغل قرابة نصف سكان المدينة. كما مثّلت نموذجاً حضارياً في اللباس والأكل والسلوك، حيث ما تزال تحتفظ حتى اليوم بهذه الريادة الثقافية رغم تهميشها من قبل **طوكيو**. وإلى جانب **كيوطو**، كانت هناك عواصم محلية لإدارة الأقاليم، غير أنها لم تخرج عن نطاق الوظيفة الإدارية، وظل سكان معظمها في حدود متواضعة.

تمثّل الصنف الثاني من المدن في المراكز التجارية، أو المدن التي تقوم أساساً على الوظيفة التجارية، مثل **سكاي**، الآنفة الذكر، و**هاكاتا** (Hakata)، شمال جزيرة كيوشو، التي كانت تستفيد من التجارة مع كوريا، و**ناغاساكي** و**هيرادو** ـ اللتين ازدهرتا بسبب احتضانهما التجار البرتغاليين ـ و**أتسو** Otsu، المرفأ الرئيسي على بحيرة **بيوا**. وقد كانت هذه المدن تشكّل شبكة من المراكز التجارية تتمتع بمرافئ للتجارة الخارجية والداخلية أو تقع على المحاور الطرقية الرئيسية في وسط جزيرة **هونشو**. وهي جميعها تتصل بالعاصمة **كيوطو** أو تتمحور حولها. وعلى أي حال، كان سكان هذه المدن في حدود متواضعة لا تزيد على ١٥ ألف نسمة. أما الصنف الثالث، فيمكن أن نسمّيه المدن المحلية، أو الأسواق التي تنشأ عادة في الوسط القروي لتلبية حاجيات الفلاحين التجارية وغيرها، والتي غالباً ما تزدهر بالقرب من المعابد والمزارات التي تؤمّن لها الحماية، وترقى إلى مستوى مدن صغرى.

أما الأمر الذي استجد في القرن السادس عشر، وكان سبباً في انطلاق حركة التمدن بوتيرة متسارعة خلال الفترة اللاحقة، فهو ما أفرزته الحرب الأهلية

من إقبال دايميو الدويلات المتحاربة على بناء القلاع، مع الإشارة إلى أن إنشاء التحصينات الدفاعية والقلاع ليس بالأمر الجديد أيضاً في تاريخ اليابان؛ فضرورة صد الهجمات الخارجية ـ خاصة بعد الغزو المغولي في القرن الثالث عشر ـ أو قمع التمردات الداخلية وحراسة المحاور الطرقية، دفعت السلطات اليابانية المركزية والمحلية، منذ العصور القديمة اليابانية، إلى إقامة قلاع في المواقع الاستراتيجية التي تتمتع بحماية طبيعية. لكن عدد هذه القلاع ظل محدوداً، والكثير منها لم يدم طويلاً أو لم يتطور إلى مراكز حضرية دائمة. أما الجديد في الأمر خلال القرن السادس عشر، فهو توزع الأراضي اليابانية إلى أكثر من ٢٠٠ إقطاعية فيودالية، وتنافس الدايميو القائمين عليها على تحصين مناطق النفوذ والدفاع عن مكتسباتهم الأرضية، وهو ما أدى بهم إلى إنشاء قلاع على حدود أراضيهم وفي المواقع الاستراتيجية فيها.

والجديد أيضاً هو أن جُل هذه القلاع تحول إلى تجمعات حضرية تُعرف بـ «جوكا ماتشي» (Jôkamachi)، أو ما يمكن ترجمته بالمدن القلاع[١٣]. ذلك أن هذه القلاع، التي أُنشئت أساساً لتكون مقراً للدايميو أو لمرابطة المحاربين الساموراي، سرعان ما استقطبت عدداً من الحرفيين والتجار وغيرهم لتزويد هؤلاء بما يحتاجون إليه من مشغولات صناعية وأدوات حربية، كالسيوف والرماح والدروع ـ وحتى البنادق التي انتشر تقليدها في نهاية القرن السادس عشر ـ والقيام بالعمليات التجارية والنقل وأشغال البناء. وقد حرص سينغوكو دايميو (دايميو الدويلات المتحاربة) على ازدهار قلاعهم، وذلك بتزويدها بأسواق ومعابد، وتشجيع ذوي الحرف المختلفة على الاستقرار فيها، علاوة على تحصينها بالخنادق وغيرها من التجهيزات الدفاعية[١٤].

لم تكن الحرب الأهلية وتراجع نفوذ السلطة المركزية منذ مطلع القرن الخامس عشر وغيابها شبه التام في الأقاليم في النصف الأول من القرن السادس عشر، مواكبة بركود الاقتصاد أو تراجع التجارة والزراعة؛ فالحروب والصراعات بثت

---

(١٣) الترجمة الإنكليزية لـ «جوكا ماتشي» هي Castle Town (ماتشي = مدينة، جوكا = قلعة).

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٢، وبالنسبة إلى عرض مفصّل في الموضوع، انظر: Wakita Haruuko and Susan B. Hanley, «Dimensions of Development: Cities in Fifteenth- and Sixteenth-Century Japan,» in: John Whitney Hall, Nagahara Keiji and Kozo Yamamura, eds., *Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), pp. 326-295.

روح الاستقلال عند كبار الساموراي وصغارهم، ورفعت من وتيرة النمو الاقتصادي بسبب سعي هؤلاء إلى تحقيق موارد إضافية تغطي تكاليف الحروب. وقد ظهر هذا النمو في تحسين تقنيات الزراعة والتعدين والرفع من إنتاجيهما وزيادة حجم التجارة الخارجية واستعمال النقد(١٥). فالبعض من هؤلاء الدايميو، ممن توافرت لديهم الموارد المادية، هم الذين أقدموا على بناء القلاع وتحصينها وحتى التفنن في تزيينها، ليس لغايات دفاعية فحسب، ولكن لإثبات الذات والرمز إلى استقلاليتهم وقوتهم أيضاً. وكان في ذلك السبب في انطلاق هذه الطفرة العمرانية.

ولعل **أودا نوبوناغا**، الذي لم يكن في الواقع سوى واحد من كبار دايميو الدويلات المتحاربة، أحسن مثال في هذا الباب؛ فبعد أن أحكم سيطرته على وسط جزيرة **هونشو**، شرع عام ١٥٧٦ في بناء قلعة **أزوتشي** (Azuchi) على جبل مطل على بحيرة **بيوا**، واستغرق بناء القلعة ثلاث سنوات، ثم قام بترميم قلعة **غيفو** (Gifu) التي اتخذها مقراً لسلطته مدة من الزمن.

لم يكن الهدف العسكري سوى أحد الأهداف التي كان الدايميو يسعون إليها من التفنن في بناء القلاع، بينما كان الهدف الاقتصادي أهمها. فالدايميو مثلاً كانوا يغرون التجار والصنّاع ليقيموا قرب قلاعهم بإعفائهم من الأتاوى، ومنحهم عدداً من الامتيازات. و**أودا نوبوناغا** نفسه أقدم على إلغاء نقاط التفتيش داخل المناطق الخاضعة له (مجال تينكا)، وحرر أسواق المدن القلاع التي بناها، أو خلّصها من الأتاوى وهيمنة «الحنط» (زا Za)، ليغري التجار والصنّاع كي يقيموا فيها(١٦). ذلك أن العائق الأكبر لنمو هذه المراكز الحضرية المستحدثة، كان يتمثل في الحواجز الفاصلة بين المقاطعات الفيودالية والمكوس المفروضة على الطرق وأبواب المدن ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى العاصمة **كيوطو** ـ وهيمنة النبلاء والمؤسسات الدينية على «حنط» التجار والصنّاع التي كانت تأخذ منها أتاوى سنوية مقابل حمايتها، كما أشرنا في فصل سابق.

وبعد أن أنهى **هيدي ـ يوشي** توحيد البلاد، سار على النهج ذاته في تحرير الأسواق، وإلغاء الحواجز، والقضاء على هيمنة «الحنط»، واتخاذ إجراءات

---

(١٥) John Whitney Hall, «The Castle Town and Japan's Modern Urbanization,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), p. 172.

(١٦) Wakita Osamu and J. L. McClain, «The Commercial and Urban Policies of Oda Nobunaga and Toyotomi Hideyoshi,» in: Hall, Keiji and Yamamura, Ibid., pp. 226-227.

أخرى، كتوحيد المعايير ووحدات القياس والكيل، ونزع أسلحة الفلاحين وغير ذلك ممّا كان له تأثير في ازدهار المدن القلاع. كما اهتم بإنشاء قلاع خاصة به، ومنها قلعة **أوساكا**، التي اتخذها مقراً لقيادته وعاصمة له، فأصبحت في ما بعد المدينة الثانية في اليابان، بعد **إيدو**، وأيضاً قلعة **فوشيمي** التي أمضى فيها الفترة الأخيرة من حياته. وعلى أي حال، فإن قلعة **أوساكا** نموذج للتطور الذي عرفته المدن القلاع يستحق الوقوف عليه، وهو ما سنفعله في فقرة لاحقة.

توالت مسيرة إنشاء المدن القلاع طوال القرن السابع عشر، خاصة في العقود الأولى التي صادفت إقرار حكم أسرة **توكوغاوا**، وإعادة توزيع الهانات، وترتيب أوضاع الدايميو. ورغم أن الشجون الأوائل منعوا الدايميو من إقامة أكثر من قلعة واحدة في هاناتهم، فإن هذا المنع لم يحترمه البعض من كبار الدايميو، في حين كان قرار تجميع الساموراي بالقرب من الدايميو وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالفلاحين، بمثابة دافع قوي لتوسع المجال الحضري للقلاع، التي اتخذها الدايميو عواصم لهم، على غرار **إيدو** عاصمة الشجون، التي تُعتبر بحق أهم نموذج للمدن القلاع في تاريخ اليابان.

لا يُعرف بالضبط عدد المدن القلاع التي بُنيت في عصر **توكوغاوا**، لأن البعض منها لم يعمر طويلاً، غير أن بعض التقديرات تشير إلى أن عددها في نهاية القرن الثامن عشر راوح بين ١٤٤ و١٦٤ مدينة، بينما يشير دليل للمواقع الأثرية والمزارات نُشر قبيل إصلاحات الميجي إلى وجود ٢٦٩ قلعة. والملاحظ أن بعض هذه القلاع جرى هجره أو تحول إلى قرى صغيرة لا ترقى إلى مستوى المدينة[١٧]. وحسب أحد الباحثين الجغرافيين، فإن أكثر من ٢٠٠ تجمع حضري ـ يمكن أن يطبق عليه وصف المدينة ـ في العقود الأولى من القرن العشرين يعود أصله إلى القلاع التي بُنيت في آخر عهد الدويلات المتحاربة وعصر **توكوغاوا**[١٨]. وعموماً فإن كثيراً من المدن اليابانية اليوم، الكبرى منها والمتوسطة، ترجع أصولها إلى المدن القلاع، كما سنبيّنه في جدول مرفق بهذا الفصل.

والملاحظ في تاريخ هذه المدن القلاع، أن جُلها شيد في الفترة الأخيرة من

---

(١٧) وردت هذه التقديرات في دراسة لجغرافية مدن اليابان صدرت في عام ١٩٣٤. انظر: Robert Burnett Hall, «The Cities of Japan: Notes on Distributions and Inherited Form,» *Annals of the Association of American Geographers*, vol. 24, no. 4 (December 1934), p. 184.

(١٨) المصدر نفسه.

الحرب الأهلية، أو في العقود الأولى للقرن السابع عشر التي أحكمت فيها شجونة **توكوغاوا** سلطتها على البلاد، أي حين بدأ الأمن يستتب، ولم يعد هاجس الدفاع والضرورة العسكرية المتحكمين في اختيار مواقع هذه القلاع. ومن ثم كان العامل الاقتصادي حاضراً بشكل ملحوظ. ويتجلى ذلك في أن جُل هذه المدن يقع عند قدم الجبل أو التقاء الجبل بالسهل ووسط السهول، وليس في المرتفعات، التي كانت عادة تشكّل تحصيناً طبيعياً للقلاع العسكرية. ذلك أن الدايميو ابتعدوا عن هذه المواقع التقليدية، واختاروا عوضاً عنها مواقع في السهول تمكّنهم من تجميع أتباعهم الساموراي بسهولة، ومراقبة أراضيهم الزراعية. كما راعوا في اختيار مواقعها القرب من المحاور الطرقية أو الموانئ البحرية والنهرية، لتسهيل نقل البضائع، واستقطاب النشاط التجاري لمدنهم. أما التحصينات الدفاعية، فكانت تتمثّل في إحاطة القلاع بأسوار عالية وبخنادق مائية أو استغلال المجاري المائية كحواجز طبيعية. وإذا كان يصعب التعميم في هذا الشأن، فإن النماذج التي دُرست أثبتت حضور هذا الاعتبار الاقتصادي بشكل قوي[(١٩)]؛ فأُسرة **مائيدا** راعت في اختيارها لبناء قلعة **ناكازاوا** الاعتبارات المذكورة، إضافة إلى إقامة ميناء **ميانوكوشي** (Miyanokoshi) على بحر اليابان، على بُعد بضع كيلومترات من القلعة، وحفر قناة لربطها بالميناء عبر النهر القريب منها، لتسهيل اتصالها بالمراكز التجارية والمدن والمراكز التجارية الأخرى[(٢٠)].

كان تصميم هذه المدن القلاع يخضع لاعتبارات التراتب التي تحكم علاقة الدايميو بأتباعه. فنواة المدينة هي القلعة التي يقيمها الدايميو لإقامته شخصياً وكبار الساموراي من أتباعه، والتي يعكس اتساعها ونوعية بنائها عادة قوة الدايميو وثروته ومكانته. وقد كانت القلعة عبارة عن مجمع كبير تزيد مساحته أحياناً عن ٥ كم^{٢}، يحاط بالأسوار ويتوسطه برج (تينشو Tenshu) وتنتشر فيه مجمعات صغرى ـ محاطة هي أيضاً بالأسوار ـ مخصصة لسكن الدايميو والمقربين منه من الساموراي، وللمخازن وغيرها. وقد كانت الأبراج (تينشو) المكونة من عدة طبقات (في حدود ٧ طبقات) موجهة في الأصل لأغراض دفاعية، حيث يقيم المرابطون من

(١٩) من نماذج القلاع التي دُرست، قلعة كانازاوا التي درسها الباحث جيمس ماكلين، في: James L. McClain, *Kanazawa: A Seventeenth Century Japanese Castle Town* (New Haven, CT: Yale University Press, 1982).

(٢٠) Nobuhiko and McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» pp. 528-29.

الساموراي، غير أنها تحولت في نهاية المطاف إلى عنصر للزينة يتفنن الدايميو في هندسته وتزويقه. أما الأسوار، فلم تكن تقتصر على سور واحد، بل كانت بعض القلاع تحاط بحلقتين من الأسوار أو أكثر، وهي أسوار كانت تُبنى بالصخر، وتتخذ شكلاً مائلاً، وتتخللها شرفات وفوهات، وترفع على زواياها الرئيسية أبراج للمراقبة والدفاع عن القلعة. وكانت للقلعة عدة أبواب، إضافة إلى بوابتها أو مدخلها الرئيسي. أما الدور وغيرها، فكانت تُبنى بالخشب، وتغلف أسقفها بالقرميد. وفي ما يخص التحصينات الخارجية، كان السور الخارجي يطوق بخندق مائي أو بقسم من مجرى مائي طبيعي لحماية القلعة، ثم يعزز بحواجز ترابية زيادة في التحصين. والواقع أن هذه الاحتياطات الدفاعية أثبتت نجاعتها، فقد أشرنا إلى أن **أودا نوبوناغا** عجز عن اقتحام قلعة أوساكا عام ١٦١٤، وأنه لم يتمكن منها إلا بالحيلة بعد مرور عام واحد على حصارها. وفي ما يلي نص يصف فيه الراهب **لويس فروا** قلعة **أزوتشي**، التي استقبله فيها **أودا نوبوناغا** عام ١٥٨٠:

على قمة الهضبة أقام **نوبوناغا** قصره وقلعته، التي يمكن مقارنتها من حيث الهندسة والقوة والثروة والعظمة بأعظم المنشآت العمرانية في أوروبا؛ فهي قوية محكمة البنيان تحيط بها أسوار من الحجر يبلغ ارتفاعها ٦٠ سباناً [١٣,٧٤ متراً][٢١] وتنيف على ذلك في بعض الأماكن؛ وبداخل الأسوار يوجد عدد من الدور الجميلة والأنيقة، كلها مزينة بالذهب ودقيقة الصنع إلى حد تبدو فيه وقد بلغت ذروة الأناقة التي يمكن أن يحققها الإنسان. وفي وسطها [أي القلعة] يوجد صنف من الأبراج يطلقون عليه «تينشو»، والواقع أن مظهره أكثر نبلاً وروعة من أبراجنا. فهو مكون من سبع طبقات، كل منها مصنوع من الداخل والخارج بطريقة هندسية رائعة؛ وما أعنيه بالداخل أن الجدران مزينة برسومات مطلية بالذهب وألوان مختلفة، بينما طليت الواجهات الخارجية لكل طبقة من الطبقات السبع بألوان مختلفة[٢٢].

وهذا نص آخر يصف فيه قلعة **أوساكا** كتبه في تقرير له عام ١٥٩٨:

اختار **هيدي ـ يوشي** هذا المكان لبناء مدينة جديدة أخرى، وقصر وقلعة،

(٢١) سبان (Span) وحدة إنكليزية قديمة لقياس الطول، وهي تساوي ٢٢,٩ سنتم.

(٢٢) Michael Cooper, *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543-1640*, Publications of the Center for Japanese and Korean Studies (Berkeley, CA: University of California Press, 1981), p. 134.

لأن هذا الموقع هو الأحسن في كل أراضي **غوكيناي** [سهل **كيناي**].والواقع أن هذه البنايات الجديدة أكثر جمالاً من تلك الموجودة في **أزوتشي ياما** [جبل **أزوتشي** ويقصد به القلعة التي تحمل اسمه] التي كان **نوبوناغا** يستعرض فيها قوته وعظمته. وقبل كل شيء، شيد **هيدي ـ يوشي** قلعة رحبة وواسعة جداً [زهاء ٧ كم٢(٢٣)] يتوسطها حصن، وبها دور وأسوار وشرفات للحراسة، وكل منها شبيه بالحصن في ما يخص مداخلها ومخارجها. وبالنسبة إلى البوابات، فهي مصفحة بالحديد. وفي هذه القلعة توجد مساكن إقامته هو وأعوانه وأصدقائه المقربين ومقار عملهم. وهناك يحتفظ بكنزه ومخزون كبير من الأسلحة والمؤن. وقد شيد كل هذا داخل أسوار القلعة القديمة وخنادقها(٢٤)، لكن مع إعادة تعزيز كل الأقسام الأصلية بحصون وأسوار تتسم بالجمال والاتساع ودقة البناء، مثلها مثل البناءات الجديدة. وقد أضاف خصوصاً، وعن قصد، برجاً (تينشو) مطلياً بالذهب واللون الأزرق يمكن رؤيته من مسافة بعيدة، حيث يستعرض به تيهه وعجرفته. وبداخل القلعة باحة بها حديقة (نيوا) تنمو أزهارها طوال الفصول الأربعة، وتحتوي على صخور وأشجار وشجيرات قصيرة ونباتات خضراء، وأشياء أخرى طبيعية(٢٥).

كانت هذه القلاع إذن مفخرة للدايميو، ومعرضاً لقوتهم وثروتهم، يتباهون بها أمام أترابهم. كما أنها شكّلت مكان إقامة يميزهم وكبار أتباعهم من سائر الساموراي. وهذا القرب في المكان يعكس أيضاً مدى القرب من الدايميو؛ ففي الأماكن المحاذية للتحصينات الخارجية للقلعة مباشرة، كانت تشيد أحياء الساموراي من ذوي الرتب المتوسطة، تحاط هي أيضاً عند نهايتها بخندق مائي أو حاجز ترابي. وما وراء هذا الحاجز أو الخندق الثاني، كانت تقام أحياء الساموراي من ذوى الرتب الصغرى، وتُترك أحياناً دون تحصينات دفاعية أو خنادق تحيط بها. وفي داخل أحياء الساموراي الموالية للقلعة مباشرة، تنتشر أحياء كبار التجار المقربين من الدايميو، والصنّاع والحرفيين الذين يقدمون خدمات مباشرة له ـ مثل صنّاع السيوف والدروع والنجارين وغيرهم. بينما كانت أحياء صغار التجار، أمثال بائعي الخضر والشاي والزيت والورق والحطب. . . وذوي الحرف الثانوية،

---

(٢٣) طولها من الشرق إلى الغرب ٣,٣ كم، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢,٤ كم. انظر مادة: «Ōsaka Castle,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 120.

(٢٤) الواقع أن هيدي ـ يوشي لم يكن المشيد الأول لقلعة أوساكا؛ فقد كان ثمة قلعة في المكان نفسه.

(٢٥) Cooper, Ibid., p. 135.

أمثال صانعي المظلات والنحاسين (أوالصفارين) والصباغين والحلاقين. . . توجد ضمن أحياء الساموراي ذوي الرتب الدنيا. وفي مشارف هذه الأحياء، توجد المعابد والمزارات وبعض المنشآت ذات الصبغة الدفاعية كتلك التي تراقب الطرق المؤدية إلى القلعة. وخارج نطاق المدينة ككل، كانت مساكن (أو أعشاش) فقراء المدينة والمنبوذين والبغايا وعمال البناء والحمالين، وغيرهم ممن يشقون مقابل أجور زهيدة[٢٦]. وحقيقة الأمر أن التوزيع الجغرافي لسكان المدينة على هذا النحو عكس بصورة جلية التراتب الاجتماعي، الذي ظلت المدن اليابانية محافظة عليه إلى وقت قريب.

يتضح من توزيع الأحياء هذا، أن المدينة القلعة كانت موجهة في الأصل لإقامة الدايميو الساموراي وأُسرهم، غير أن حاجات هؤلاء تطلبت وجود ذوي حرف ومهارات أخرى وعمال إلى جانبهم. والواقع أن بناء القلعة في حد ذاته مثّل بالنسبة إلى الدايميو مشروعاً عمرانياً ضخماً تطلب مخصصات مالية كبيرة، وصنّاعاً مهرة في جل مجالات البناء، كالعمال المختصين في تقطيع الصخر ونقله، ومحترفي النجارة والصباغة والحدادة. . وغيرهم. وبما أن أغلب الدايميو لم يكونوا يتوافرون في هاناتهم على هذا الصنف من مهرة الحرفيين، فقد كانوا مضطرين إلى استقدامهم من المراكز الحضرية العتيقة، ككيوطو التي اشتهرت بطول باع أهاليها في كثير من الحرف. وقد كان مآل هؤلاء الاستقرار بالقرب من القلاع التي ساهموا في بنائها. مع الإشارة إلى أن الساموراي، المختصين أساساً بالمهارات الحربية وشؤون الإدارة، لم يكن في إمكانهم القيام بأعمال التجارة وأعباء الخدمات الأخرى، اعتباراً لوضعهم الاجتماعي والقوانين والأعراف التي تحكم سلوكهم، والتي تجعلهم يفقدون امتيازاتهم إن هم تعاطوا حرفة التجارة أو غيرها. ولذا كانت المدن القلاع منذ انطلاقتها مقراً أيضاً لفئات متعددة من السكان، كما هو واضح في توزيع سكانها.

هناك عوامل كثيرة ساهمت في نمو عدد سكان المدن القلاع وتوسُّع مجالها الحضري. ولعل العامل **الأول** في هذا الشأن هو الأمر التي فرضته شجونة **توكوغاوا** على الدايميو في أن يعملوا على تجميع أُسر الساموراي حول قلاعهم، وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالفلاحين درءاً للتجاوزات التي قد تُرتكب في حق

(٢٦) Nobuhiko and McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» p. 531, and Hall, «The Castle Town and Japan's Modern Urbanization».

هذه الفئة الأخيرة، وهو ما جعل هذه المدن المقر الرئيسي لسكنى الساموراي على اختلاف مراتبهم في مجموع التراب الياباني. والعامل **الثاني**، هو النمو الديمغرافي بوتيرة متسارعة خلال القرن السابع عشر، وقد أدى إلى ارتفاع عدد السكان من ١٢ مليوناً إلى ٣٠ مليون نسمة، كما أشرنا في فصل سابق.

هذه الطفرة الديمغرافية انعكست على وضعية الفلاحين والعلاقات الأُسرية، وعلى الحق في استغلال الأرض وملكيتها، وأدت بالتالي إلى إيجاد أفراد لا تتوافر لهم إمكانية بناء أُسر خاصة بهم، أو أُسر تنعدم لديها وسيلة للتعيش من الأرض والحرف المرتبطة بها. وهذا ما حمل بعض الأفراد والأُسر على الهجرة إلى المدن القلاع القريبة منهم، بحثاً عن أعمال لا تتطلب مهارة خاصة. كما كانت هذه المدن تستقطب النساء الفقيرات لتعاطي حرفة البغاء أو اللواتي كن يُجلبن مرغمات على احترافها. هذا بالإضافة إلى سنوات المجاعة أو قلة الإنتاج الزراعي، التي كان يضطر معها سكان القرى إلى الهجرة هرباً من المجاعة.

هناك عامل **ثالث** ساهم في ارتفاع نسبة غير الساموراي في المدن القلاع، وهو عامل ارتبط بالنمو الاقتصادي وسعي الدايميو إلى تطوير اقتصاد هاناتهم والتحكم في مواردها. فقد أشرنا في فصل سابق إلى أن مداخيل الدايميو كانت من الأرز أساساً، غير أن متطلبات تحويل هذه المادة إلى نقد لتغطية نفقات السفر السنوية إلى **إيدو** والإقامة بها فترة من السنة ـ في إطار نظام إطار ساكين كوطاي ـ وتغطية تكلفة المشاريع التي يكلفهم بها الشجون، دفعت الدايميو إلى إقامة علاقات مع كبار تجار الأرز، وحث البعض منهم على الاستقرار في قلاعهم للقيام بالمعاملات التجارية الخاصة بهذه المادة وبغيرها من المواد. وفي إطار تنويع المداخيل، شجع الدايميو بعض الحرفيين على إقامة ورش لصناعة خمر الساكي والجعة والمشغولات الخشبية المطلية (اللك) التي يكثر عليها الطلب في المراكز الحضرية الكبرى أو تُصدّر إلى الخارج. وبديهي أن يؤدي ذلك كله إلى استقطاب صنّاع آخرين للسكن في المدن القلاع.

لا يتوافر الباحثون على إحصاءات دقيقة، في ما يخص توزيع نسب سكان المدن القلاع، غير أن من أدلوا دلوهم في الموضوع، قدّروا النسبة العامة للساموراي في مجموع هذه المدن بـ ٥٠ بالمئة، مع تأكيدهم وجود حالات تصل فيها نسبة هؤلاء إلى ٧٠ بالمئة وحتى ٨٠ بالمئة، كما هو الشأن في مدينتي **كاغوشيما** (Kagoshima) و**سينداي** (Sendai)، وحالات أخرى يقلون فيها عن

٥٠ بالمئة[٢٧]. وفي السياق ذاته، يقدّر أن نسبة ١٠ بالمئة من سكان الهان كانوا في نهاية القرن الثامن عشر يقطنون في المدن القلاع[٢٨]. وهي نسب تبقى نسبية وظرفية، على اعتبار أن التجمعات الحضرية الكبرى التي شكلها البعض من المدن القلاع ـ خاصة إيدو و**أوساكا** ـ استقطبت مئات الآلاف من المهاجرين. وفي ما يلي جدول ببعض المدن اليابانية التي ترجع انطلاقتها إلى تأسيس قلعة فيها:

الجدول الرقم (٩ ـ ١)
مدن يابانية كانت في الأصل قلاعاً

القلعة	ملاحظات
هيمجي	تقع في غرب جزيرة هونشو، على نهر إيتشكاوا (Ichikawa). يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر، غير أنها تحولت إلى قلعة مدينة عندما اتخذتها أسرة إيكيدا مقراً لها عام ١٦١٠، ورممت قلعتها وأضافت إليها. وهي اليوم مدينة يزيد عدد سكانها على نصف مليون نسمة.
كانازاوا	تقع في وسط جزيرة هونشو على بحر اليابان. يرجع تاريخ بدايتها إلى القرن الخامس عشر، حيث كانت مقراً لطائفة بوذية، ثم تحولت إلى مدينة قلعة بعد أن اتخذتها أُسرة مائيدا مقراً لها، وشيدت فيها قلعة في عام ١٥٨٠. وهي اليوم مدينة يتعدى سكانها نصف مليون نسمة.
كوماموتو	تقع في جزيرة كيوشو. وهي موقع تجمع حضري صغير من القرن السابع الميلادي، غير أنها أصبحت مدينة قلعة في مطلع القرن السابع عشر، بعد أن شيدت قلعة فيها. عدد سكانها اليوم زهاء ٦٠٠ ألف نسمة.
هيروشيما	تقع في الجنوب الغربي لجزيرة هونشو. كانت في الأصل قرية للصيادين، ثم تحولت إلى مدينة بعد أن شيدت قلعة فيها في مطلع القرن السابع عشر. ويصل تعداد سكانها إلى مليون نسمة.
ناغويا	كان **أودا نوبوناغا** هو أول من شيد قلعة صغيرة فيها لمراقبة وسط جزيرة هونشو. ثم شيد **توكوغاوا إياسو** قلعة كبيرة فيها عام ١٦٠٩. وقد اتسعت المدينة المحيطة بها اعتباراً لأهميتها الاستراتيجية بين إيدو وكيوطو، واتخاذها عاصمة من قبل أبناء إياسو. وهي اليوم رابع مدينة في اليابان، ينيف تعداد سكانها على مليوني نسمة.
سينداي	تقع شمال جزيرة هونشو. شيدت قلعتها عام ١٦٠١ من قبل داتي ماساموني. وهي اليوم العاصمة الاقتصادية والسياسية للمنطقة الشمالية الشرقية لليابان. تعداد سكانها زهاء ٨٠٠ ألف نسمة.

المصدر: تمّ تجميع المادة من المداخل الخاصة بهذه المدن في موسوعة اليابان، *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983).

مع الإشارة إلى أن إحصاءات سكان المدن تقريبية؛ إذ ترجع إلى ثمانينيات القرن الماضي التي وضعت فيه الموسوعة.

---

(٢٧) Hall, Ibid., p. 178.

(٢٨) لمزيد من المعلومات المفصلة حول تكاثر نسبة غير الساموراي في المدن القلاع، انظر، على وجه الخصوص، الجدول المرفق بدراسة توماس سميث، في: Thomas C. Smith, *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), pp. 47-48.

٢ ـ مدن أخرى

رغم هيمنة المدن القلاع على المدن المستحدثة خلال عصر **توكوغاوا**، فإن هناك أصنافاً من المدن ذات وظائف أخرى، نشأت وازدهرت في هذه الفترة أيضاً، ومنها المدن المحلية المعروفة بـ زايغو ـ ماتشي (Zaigomachi). وقد تطورت هذه التجمعات الحضرية بشكل خاص في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، انطلاقاً من قرى صغيرة، وذلك نتيجة تنوع المنتجات الزراعية، والحاجة إلى تصنيعها محلياً وتسويقها. فمثلاً، عمل ازدهار زراعة القطن في بعض السهول، التي أصبحت تشكل في البعض منها نسبة ٥٠ بالمئة من إنتاجها، على تحويل البعض من قراها إلى مراكز حضرية صغيرة تختص بجمع القطن وغزله ونسجه، والمتاجرة في الأقمشة والألبسة المصنوعة منه. وحصل التحول نفسه مع تطور استخلاص الحرير من دود القز في القرى الواقعة في السفوح الجبلية ذات الطبيعة الملائمة؛ إذ تخلى بعض القرويين عن زراعة الأرز لقلة مردوديتها، وتحولوا، بمساعدة من تجار المدن، إلى مختصين بتربية شرانق القز، واستخلاص خيوط الحرير وتصنيعها[٢٩]. والملاحظ أن مدن زايغو ـ ماتشي أصبحت مراكز للصنّاع والتجار، وتحولت في ما بعد إلى مدن مهمة، مثل مدينة كاشيوابارا (Kashiwabara) وسط جزيرة هونشو، التي يفوق تعداد سكانها اليوم ٢٥٠ ألف نسمة، ومدينة توندابایاشي (Tondabayashi)، جنوب أوساكا، التي تختص اليوم بصناعة النسيج والصناعات الغذائية. والدليل على أهمية هذه المدن التجارية والاقتصادية أن سكانها من الصنّاع والتجار ـ زايغو ـ شونين (Zaigo-shonin) (أو التجار القرويين) ـ أصبحوا في القرن الثامن عشر ينافسون تجار المدن في تجارة القطن الخام والمنسوجات القطنية والزيت والأصباغ والخضر، وحتى الأرز، وتولوا تعهد النقل على الطرق.

أشرنا إلى أن اليابان عرفت قبل القرن السادس عشر مدناً صغرى كانت بمثابة أسواق محلية لتلبية حاجيات سكان القرى. وقد تكاثرت أعداد هذه المدن الأسواق ـ المعروفة بإيتشيبا ـ ماتشي (Ichibamachi) ـ بشكل كبير في القرن

(٢٩) نشير هنا إلى ما كتبه أحد الباحثين اليابانيين، وهو الباحث ناريتا جوهيوئي (Narita Jôhyoe)، من أنه ابتداء من أواسط القرن الثامن عشر، تطورت في إقليم أومي (Omi) (سهل يقع جنوب بحيرة بيوا، وتحيط به جبال سوزوكا (Suzuka) وهيرا (Hira)) تربية شرانق القز وغزل الحرير، إلى درجة أنها غيرت اقتصاد المنطقة بصورة كلية، وأن الآلاف من القرويين تحولوا إلى هذا النشاط، حيث كانوا يعتقدون أن كل أهالي هذه المناطق سيغتنون منه. ورد هذا الاستشهاد في: Smith, Ibid., pp. 204-205.

السادس عشر، إلى أن زاد عددها على ١٥ ألف مركز، غير أنها لاقت منافسة قوية من المدن القلاع التي أُنشئت في القرن السابع، وهو ما اضطر البعض منها إلى التخلي عن وظيفتها لصالح هذه الأخيرة. وعلى أي حال، ارتقى عدد من هذه الأسواق إلى مدن تجارية تابعة لمدن القلاع القريبة منها. وإضافة إلى هذين الصنفين، تطورت تجمعات حضرية على طول المحاور الطرقية، تُعرف بشوكوبا ـ ماتشي (Shukuba-machi)، كما نشأت مدن في الموانئ المستغَلة في الملاحة الداخلية تُعرف بميناتو ماتشي (Minatomachi)، وسنرجئ الحديث عنهما إلى الفقرات الخاصة بالمواصلات.

٣ ـ التدبير الإداري للمدن

من القضايا التي أُثيرت حول هذه المدن الناشئة، مسألة تتعلق بإدارتها؛ فمع تنامي هذه المدن وتكاثر سكانها وتنوعهم، ظهرت مؤسسات لمواكبة تنوع سكانها.

بداية يجب التمييز بين المدن التي كانت تخضع لإدارة الشجون مباشرة، مثل العاصمتين **إيدو** و**كيوطو** ومدينتي **أوساكا** و**ناغاساكي** ـ وهو ما سنعرض له في تقديمنا لنموذجي **أوساكا** و**إيدو** ـ وبين المدن التي كانت تخضع للدايميو. ففي ما يخص هذه الأخيرة، خاصة المدن القلاع، فنذكر بجملة من المعطيات وردت متفرقة في الفقرات السابقة، وهي أن هذه المدن كانت مقر الدايميو وعواصم حكمهم، وأن قاطنيها من الساموراي كانوا موزعين في أحياء القلعة والمدينة بحسب رتبهم وقربهم من الدايميو، وأن غير الساموراي كانوا هم أيضاً موزعين في أحياء بحسب أهميتهم والخدمات التي يقدمونها للدايميو والساموراي. وقد كان هذا التراتب مجسداً على الأرض في أحياء منفصلة، تنتهي بأبواب تغلق عليها في المساء، وكان معتبراً في إدارة المدينة أيضاً. وقد كانت المدينة ككل تخضع لأعضاء مجلس المستشارين المحيطين بالدايميو والمستقرين معه في القلعة، في حين كان تدبير الحياة اليومية لسكان المدينة يخضع لإدارتين منفصلتين: إدارة خاصة بأُسر الساموراي، وأخرى خاصة بالتجار والصنّاع والحرفيين، وغيرهم.

كان مجلس المستشارين المكوَّن من كبار أُسر الساموراي يتكلف بتدبير المجالات السياسية والاقتصادية والإدارية لمجموع التراب الخاضع للهان، ومن ثم كان التدبير العام للمدينة القلعة والمدن الأخرى يقع تحت سلطتهم وسلطة الدايميو. كما كان يتبع للمجلس إدارات خاصة بالقضاء ومراقبة المعابد وغيرهما؛ فإليها يرجع بت القضايا التي قد تحدث في المستويات السفلى لتدبير شؤون

المدينة. أما أحياء الساموراي على اختلاف مستوياتهم، فكانت خاضعة للأعراف والقوانين العسكرية التي تطورت إبان الحرب الأهلية، أي قبل استقرار الساموراي في مراكز حضرية. وهكذا، كانت كل مجموعة من أُسر الساموراي ـ في حدود ١٥٠ أُسرة ـ تخضع لقائد يكون مسؤولاً عنها وعن تصرفاتها والتزامها بقوانين الدايميو. كما كانت هذه المجموعات مقسمة هي أيضاً إلى وحدات صغرى، على رأسها قائد مسؤول عنها. وفي حال وقوع جريمة أو خرق للقانون، يقوم القائد بحل القضية إن كانت في متناوله، وإذا لم تكن، يبلغ عنها ويرفعها إلى من هو أعلى منه، إلى أن تصل إلى الإدارة المعنية في القلعة. أما بالنسبة إلى أحياء التجار وعموم سكان المدينة، فكان المجلس يستعين في تدبير أحيائها بمجموعة مختارة من كبار التجار والحرفيين، يقع على عاتقهم تدبير الحياة اليومية لأحيائهم. فمثلاً، كان عليهم جمع الواجب في حقهم من الأتاوى، ومساعدة سلطات الأمن ومرافقتها في حال القبض على المجرمين. وعموماً كان المطلوب منهم العمل على أن يحترم سكان أحيائهم القوانين، ويلتزموا بالسلوك الحسن، في حين تُترك المسائل الأخرى، كالقضاء والأمن، للساموراي والإدارات العليا للمدينة. وكان النظام ذاته ينطبق على المدن الأخرى التابعة للدايميو، باستثناء أنه كان يعين على كل منها قائد من الساموراي يدير المدينة، ويشكل حلقة وصل مع سلطات الهان[٣٠]. وإضافة إلى هذا الجهاز الإداري للمدن، المكون من مستويات عدة، والذي لم تستكمل ترتيباته إلا في أواخر القرن السابع عشر في بعض الجهات، وضع بعض الدايميو في الفترة نفسها قوانين خاصة بسكان مدنهم، تقوم على أساس التمييز بين فئات الساموراي من جهة وبينهم وعموم سكان المدينة من جهة أخرى. فمثلاً، نصت القوانين التي وضعها أُسرة **مائيدا** على نوعية اللباس من الحرير التي يحق لكل فئة من الساموراي ارتداؤها، في حين حرم على العموم لباس الحرير الرفيع، واكتفاء كبار التجار بأقل أنواعه جودة. كما حُددت أصناف الأكل والشرب الخاصة بكل فئة من السكان ووسائل النقل، كالمحفات التي لا يحق لغير كبار الساموراي استعمالها[٣١].

---

(٣٠) اعتمدنا في هذه الفقرة على الدراسة التي أنجزها جيمس ماكلين عن قلعة كانازاوا المشار إليها سلفاً، وأيضاً على: Hall, «The Castle Town and Japan's Modern Urbanization,» pp. 181-182, and Nobuhiko and McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» pp. 531-538.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

٤ ـ أوساكا: أكبر سوق في اليابان

كان موقع **أوساكا** مقراً لتجمع حضري صغير منذ القرن الخامس الميلادي[٣٢]، واستمر، إلى غاية القرن السادس عشر، مجرد ميناء ثانوي يأخذ نصيباً من التجارة مع الصين. وقد ازداد موقع أوساكا أهمية، نسبياً، عندما اتخذته إحدى الطوائف البوذية مقراً لها في أثناء الحرب الأهلية، إلا أنه لم يأخذ بعداً آخر إلا عندما اختاره **هيدي ـ يوشي** ليقيم فيه قلعته ليدير من هذه القلعة حملاته على غرب البلاد وجزيرة كيوشو. وواقع الأمر أن أوساكا تتمتع بموقع جغرافي متفرد وسط جزيرة هونشو (سهل كيناي)؛ فهو يطل على البحر الداخلي، ويتصل بكيوطو عبر نهر يودو (Yodo)[٣٣] المستغَل في الملاحة النهرية؛ وهو الموقع نفسه الذي استفادت منه مدينة سكاي. ولهذا الاعتبار اختارها **هيدي ـ يوشي** في عام ١٥٨٣ لبناء قلعة كبيرة تفوق مساحتها مساحة قلعة **أزوتشي** عدة مرات (طولها من الشرق إلى الغرب ٣,٣ كم، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢,٤ كم)، مستعيناً بأتباعه من الدايميو ليزودوه بالعمال والصنّاع ومواد البناء. وحسب وصف الراهب **أليساندور فيلينيانو**، الذي عاين مراحل البناء الأولى (١٥٨٣)، فإن ما بين ٢٠ ألفاً و٣٠ ألفاً من العمال كانوا يعملون في بنائها ليل نهار[٣٤]. وقد ارتفع عدد العمال في حمأة البناء إلى ٥٠ ألفاً، وجرى استقدام الصنّاع والحرفين من ٣٠ إقليماً[٣٥]. ولم يكتف **هيدي ـ يوشي** ببناء القلعة، بل حرص على بناء الأحياء المحيطة بها، وشق القنوات لتسهيل وصول البضائع إليها وتصريفها إلى المناطق المجاورة. كما أنه استقدم التجار وذوي الحرف من المدن القريبة (**سكاي** و**كيوطو** و**فوشيمي** وغيرها) ليعمروا المدينة المحيطة بالقلعة، وأخذ البعض من أتباعه الدايميو يقيمون مقاراً فيها. وبالفعل توسعت المدينة بشكل كبير في العقود القليلة التالية على حساب مدينة سكاي، واتخذت طابع مدينة تجارية

---

(٣٢) الاسم الأول الذي عُرف به موقع أوساكا هو نيناوا.

(٣٣) يودو، أو Yodogawa، نهر وسط جزيرة هونشو، ينبع من بحيرة بيوا ويصبّ في خليج أوساكا. وقد كان يُستغل في النقل الداخلي، حيث بدأ استغلاله لهذا الغرض من القرن الثالث عشر الميلادي، كما أصبح ذا أهمية في شبكة المواصلات الداخلية في عصر توكوغاوا، حيث كان يصل العاصمة كيوطو بمدينة أوساكا، انظر: «Yodogawa,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 326.

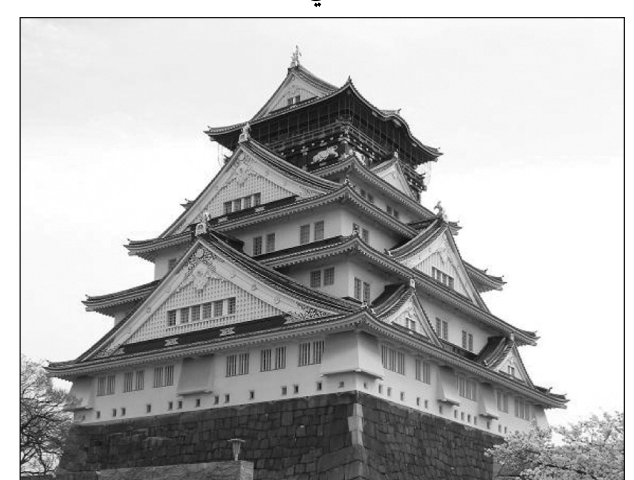
(٣٤) William B. Hauser, «Osaka Castle and Tokugawa Authority in Western Japan,» in: Jeffrey P. Mass and William B. Hauser, *The Bakufu in Japanese History* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1985), p. 157.

(٣٥) المصدر نفسه.

كبيرة، وأصبحت أهم موانئ اليابان منذ مطلع القرن السابع عشر. فحسب وصف جون ساريس (John Saris)(٣٦)، **ممثل** شركة الهند الشرقية البريطانية، الذي زراها عام ١٦١٣:

وجدنا **أوساكا** مدينة كبيرة تضاهي في كبرها مدينة **لندن**. وفيها جسور من الخشب عالية الارتفاع، تصلح لعبور نهر عريض مثل نهر **التيمس** في **لندن**. وهي الآن الميناء البحري الرئيسي لليابان كلها(٣٧).

قلعة أوساكا في صورتها الراهنة



ورغم أن الشجون **إياسو** اختار **إيدو** موقعاً لقلعته ومقراً لسلطته المركزية، فإنه، ومن خلفوه من الشجون، أولوا **أوساكا** عناية خاصة، لا بسبب مينائها وأهميتها التجارية فحسب، ولكن بسبب ما ترمز إليه أيضاً من هيمنة على غرب

---

(٣٦) جون ساريس (١٥٧٩-١٦٤٣) بريطاني الأصل من مدينة يوركشاير. وصل إلى اليابان عام ١٦١٣ ليقيم فرعاً لشركة الهند الشرقية البريطانية. وقد استقبله الشجون هيدي ـ داتا، وأقام في اليابان ستة أشهر. انظر ترجمته في: Cooper, *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543-1640*, p. 411.

(٣٧) النص مأخوذ في الأصل من كتاب نشر عن ساريس إلى اليابان عام١٩٠٠ وضم مذكراته، انظر: John Saris, *The Voyage of Captain Saris to Japan, 1613*, edited by Ernest M. Satow (London: Printed for the Hakluyt Society, 1900).

وقد اعتمدنا على المقتطف الوارد في: Cooper, Ibid., p. 284.

اليابان وجنوبها الذي كان معادياً لأُسرة توكوغاوا؛ إذ لم يكن الحكم ليستقر لهذه الأُسرة إلا بالاستيلاء على القلعة وتدمير المعالم التي ترمز إلى أُسرة **هيدي ـ يوشي**. وبعد أن خضعت أوساكا لسلطات الباكوفو (١٦١٥)، اهتم الشجون الثاني والشجون الثالث بإعادة بناء القلعة وتوسعة المدينة. ويُعتبر عمران **أوساكا** من المشاريع العمرانية الكبرى التي قامت بها شجونة توكوغاوا؛ ذلك أن أشغال البناء استمرت فيها زهاء عقد من الزمن (من عام ١٦٢٠ إلى عام ١٦٢٩)، وساهم فيها ٦٠ دايميو بالعمال والصنّاع والمال ـ بلغت النفقات الإجمالية قرابة ١٥ مليون كوكو/أرز[٣٨]. كما اهتم الشجون **هيديتادا** والشجون **إييميتسو** بإضافة أحياء إلى المدينة، وشق قنوات إضافية، وبناء الجسور، إلى غير ذلك[٣٩]. ومن اهتمام الشجون بها وقوفهم على أشغال البناء، وزياراتهم المتكررة إليها، وهم في طريقهم إلى العاصمة كيوطو، وأيضاً وضعها تحت الإدارة المباشرة للشجونة، وعدم تركها في يد أي من الدايميو القريبين منها.

توسعت مدينة أوساكا بسرعة مذهلة خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر؛ ففي عام ١٦٣٤، كان عدد سكانها يفوق ٤٠٠ ألف نسمة، ولم يكن الساموراي بينهم يشكلون سوى نسبة ضئيلة (في حدود ٥ بالمئة)[٤٠]. والسبب هو توجه المدينة التجاري، واتخاذها مركزاً لمبادلة المنتجات الزراعية بالنقد، سواء من قِبل الدايميو أو من قِبل الشجون. وكان جُل دايميو غرب اليابان وجنوبها يرسلون مداخيلهم من الأرز إلى أوساكا لمبادلتها بالنقد الذي يحتاجون إليه في نفقاتهم وتكاليف سفرهم السنوي إلى إيدو والإقامة فيها ـ في إطار نظام سانكين كوطاي. وحسب إحصاءات عام ١٧٢٠، فإن حجم ما كانت تستقبله أوساكا من أرز في تلك الفترة بلغ ٤ ملايين كوكو سنوياً[٤١]. ومن ثم أصبحت أهم سوق

---

(٣٨) هذا التقدير هو للباحث الياباني واكيتا أوسامو (Wakita Osamu)، وقد حوله إلى مقابله من الدولار الأمريكي عام ١٩٧٠ الذي كتب فيه البحث، فبلغ ١٨١,٢ مليون دولار. انظر: Hauser, «Osaka Castle and Tokugawa Authority in Western Japan,» p. 161.

(٣٩) اشتهرت أوساكا بكثرة جسورها وقناطرها، التي تعبر النهر والقنوات والخنادق المائية. وقد كان عددها في القرن الثامن عشر ١٥٠ جسراً. انظر: Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 169.

(٤٠) انظر: Gary P. Leupp, *Servants, Shophands, and Laborers in the Cities of Tokugawa Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992), p. 11, and Najita Tetsuo, *Visions of Virtue in Tokugawa Japan* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1987), p. 2.

(٤١) Nobuhiko and McClain, «Commercial Change and Urban Growth in Early Modern Japan,» p. 559.

لهذه المادة الحيوية، يتحكم تجارها في أسعاره على صعيد الأرخبيل إلى حد أن اليابانيين كانوا يلقبونها بـ «مطبخ اليابان». وليس الأرز المادة الوحيدة في هذا الباب، بل كان سوقها يستقبل ويتاجر بنسبة مهمة من المنتجات الزراعية الأخرى، والأخشاب والمنتجات البحرية والمعادن. كما أنها أصبحت مركزاً لصناعة السفن، المستغلة في الملاحة الداخلية، وتصنيع النحاس والورق والشمع وخمر الساكي والثياب القطنية[٤٢].

ولعل الأمر الأهم من الهيمنة على سوق الأرز هو تطور صنف من المؤسسات المالية التي تختص بالبيع بالجملة، وتساير تطور الإنتاج إلى أن يصل إلى سوق أوساكا، ثم تقوم بتوزيعه في مناطق مختلفة من اليابان. وكذلك ظهور مؤسسات مالية تقرض الدايميو الذين كانوا بحاجة إلى سد العجز في موازناتهم. والمثير أن هذه المؤسسات أخذت تستعمل في نهاية القرن السابع عشر نوعاً من السندات تسلّم إلى الدايميو وغيرهم ممن كان في إمكانهم صرفها نقداً في الأماكن التي توجد فيها فروع للمؤسسة[٤٣]. وقد كانت هذه السندات تُصرف في البداية خلال ٣٠ يوماً، ثم أصبحت في ما بعد تتداول وتباع، ويؤدى بها دون تاريخ نهاية محدد. ولعل مثال مؤسسة أُسرة ميتسويي (Mitsui) المالية ـ التي تأسست عام ١٦٧٣ في العاصمة ثم اتخذت من أوساكا مقراً لنشاطها عام ١٦٩١ ـ نموذج في هذا الشأن. وقد سبقت الإشارة إلى هذه المؤسسات التجارية في حديثنا عن فئة التشونين.

أما إدارة المدينة، فقد كانت تتبع مباشرة للشجون ولمجلس كبار المستشارين (روجو). وكباقي المدن التي تمتعت بهذه الوضعية الخاصة[٤٤]، كان الشجون يعين حاكمين أو ثلاثة حكام عليها في وقت واحد، يتناوبون على إدارتها، وكانوا عادة من أُسر الساموراي التابعة مباشرة لأُسرة توكوغاوا (هاتوموتو). وقد كان هؤلاء يقومون بمهمتي القضاء وحفظ الأمن في المدينة، يساعدهم في ذلك عدد من الأعوان والإدارات الفرعية. كما كانوا يستعينون بممثلي الأحياء والحرف لضبط النظام في المناطق التابعة لهم.

---

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٥٥٩ ـ ٥٦١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.

(٤٤) كانت المدن ذات الأهمية الخاصة تتبع للشجون مباشرة. وفي مقدمها العاصمتان إيدو وكيوطو، وأوساكا ونارا وناغاساكي ونيكو وفوشيميو وأوراغا (Uraga)، وجزيرة سادو في بحر اليابان ذات الترسبات المعدنية من الذهب والفضة.

وفي نهاية المطاف، أصبحت أوساكا في نهاية القرن السابع عشر والفترات اللاحقة أهم سوق في اليابان يعج بفئات مختلفة من السكان، ويحتضن صنائع وحرفاً متنوعة، وفيه جميع أصناف الفرجة التي واكبت ظهور فئة التشونين أو سكان المدن. كما أضحت مركزاً ثقافياً ينافس إيدو وكيوطو، خاصة بعد أن أُنشئ فيها معهد كايتوكودو (Kaitokudo) الذي اهتم بتدريس أبناء التجار، واتسم باتساع المعارف التي يلقنها لطلابه. كما تكاثرت فيها دور الوراقة والنشر. وعلى هذه الصورة وصفها **كايمبفر** عندما حل فيها عام ١٦٩٣:

أهلها ميسورون، إذ هناك عدد كبير من الصنّاع والحرفيين والورش المختلفة. كما أن هناك عرضاً وافراً لجميع الخدمات التي ترضي ما تشتهيه الحواس. ولهذا، فإن اليابانيين يصفونها بأنها مركز الملذات الدنيوية كافة، حيث تعرض المسرحيات على العموم داخل بنايات خاصة كل يوم. والناس الذين يمتلكون أشياء غريبة من قبيل الحيوانات الغريبة أو المدربة على أداء بعض الخدع وغيرها يأتون إليها من مختلف جهات البلاد لعرض خدعهم وممتلكاتهم الغريبة مقابل أجر مالي[٤٥].

٥ ـ إيدو، المدينة القلعة التي تخطت عتبة المليون نسمة

كانت **إيدو** (طوكيو) أول مدينة في تاريخ العالم تجتاز عتبة المليون نسمة في العصر الحديث؛ فمن قلعة صغيرة في نهاية القرن السادس عشر تحولت في نهاية القرن السابع عشر إلى أكبر مدينة من حيث تعداد السكان والمساحة والنشاطات، لا تضاهيها في ذلك سوى مدينتين في أوروبا هما لندن وباريس.

تقع مدينة إيدو على خليج يحمل الاسم ذاته على الساحل الشرقي لجزيرة هونشو المطل على المحيط الهادئ. وقد ظلت فترة طويلة مجرد قرية صغيرة للصيادين، إلى أن بُنيت فيها قلعة صغيرة في القرن الخامس عشر (١٤٥٧)، ثم تحول مسارها جراء اختيارها من قِبل **إياسو توكوغاوا** لتكون مقراً لإدارته، بعد أن عيّنه **هيدي ـ يوشي** حاكماً على المنطقة عام ١٥٩٠. ومن ثم أضحت المقر الرئيسي لأُسرة **توكوغاوا**، إلى أن غدت عاصمة للشجونة في إثر حصول **إياسو** على لقب الشجون (١٦٠٣).

انطلقت مسيرة **إيدو** كأية مدينة قلعة من المدن القلاع التي ازدهرت في هذه

(٤٥) Engelbert Kaempfer, ed., *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*, translated by Beatrice M. Bodart-Bailey (Honolulu: University of Hawaii Press, 1999), p. 313.

الفترة، غير أنها تميزت من نظيراتها من عواصم الدايميو بوظيفتها الإدارية المركزية. وتعتبر قلعة **إيدو** (التي تُعرف باسم تشييودا (Chiyoda)) أكبر قلعة في اليابان، وربما أكبر قلعة في العالم. ذلك أن بناءها اعتُبر مشروعاً قومياً ساهم فيه جُل الدايميو بالعمال والحرفيين ومواد البناء، واستغرق العمل في الشطر الثاني منها، بعد أن أصبحت عاصمة للشجون، زهاء نصف قرن من الزمن ـ من عام ١٦٠٣ إلى عام ١٦٥١[٤٦]. وقد شيدت على هضبة **موساشينو** (Musashino) المطلة على خليج **إيدو** والمحاذية للضفة الغربية لنهر **سوميدا** (Sumida)، وأيضاً بالقرب من أنهار صغيرة أخرى تصب في الخليج ذاته (**أراكاوا** (Arakawa) و**ناكاغاوا** (Nakagawa) و**تاماغاوا** (Tamagawa). وحول السياج الأول من الخنادق للقلعة، أقيمت أولاً الأحياء الخاصة بأُسر الساموراي (هاتاموتو أو حملة الأعلام)، ثم أحياء الدايميو الذين اضطروا إلى تشييد إقامات لأُسرهم في إطار نظام تناوب الإقامة (سانكين كوطاي). ومع تكاثر سكان المدينة، انتشرت على طرفي القلعة الشرقي والجنوبي، أحياء أخرى خاصة بالحرفيين والصنّاع والتجار ودور الفرجة والمطاعم وصالونات الشاي والأسواق. كما جُهزت مدينة **إيدو** بعدد من الجسور والقنوات التي تُستغل في النقل بين أحيائها وتربطها بالأنهار القريبة منها، وكذا بشبكة من القنوات لتزويد مختلف أحيائها بالماء وصرف المياه المستعملة[٤٧]، وغير ذلك من المرافق. وفي عام ١٦٥٧، تعرضت المدينة لحريق هائل أتى على معظم بناياتها، وأودى بحياة ما ينيف على ١٠٠ ألف نسمة من سكانها[٤٨]، وهو ما كان سبباً في إعادة التفكير في تصميم المدينة واتخاذ احتياطات تمنع انتشار النيران بسهولة من مكان إلى آخر. وهكذا جرى الفصل

---

(٤٦) بلغ محيط القلعة عند الانتهاء من بنائها ١٦ كم. وقد أحيطت بسياج من الأسوار والخنادق. كما أن القلعة ذاتها تحتوي على قليعات، أهمها القليعة الداخلية التي هي مقر الشجون، وهي محاطة أيضاً بأبراج وأسوار وخنادق مائية على محيط يقارب ٦,٥ كم. وفي أماكن متفرقة من القلعة، توجد أربع رقع محصنه هي الأخرى. وكانت القلعة تحتل وسط العاصمة إيدو، وفيها اليوم القصر الإمبراطوري، غير أن المنشآت العمرانية التي شيدها الشجون دمرتها سلسلة من الحرائق في أواخر عصر توكوغاوا.

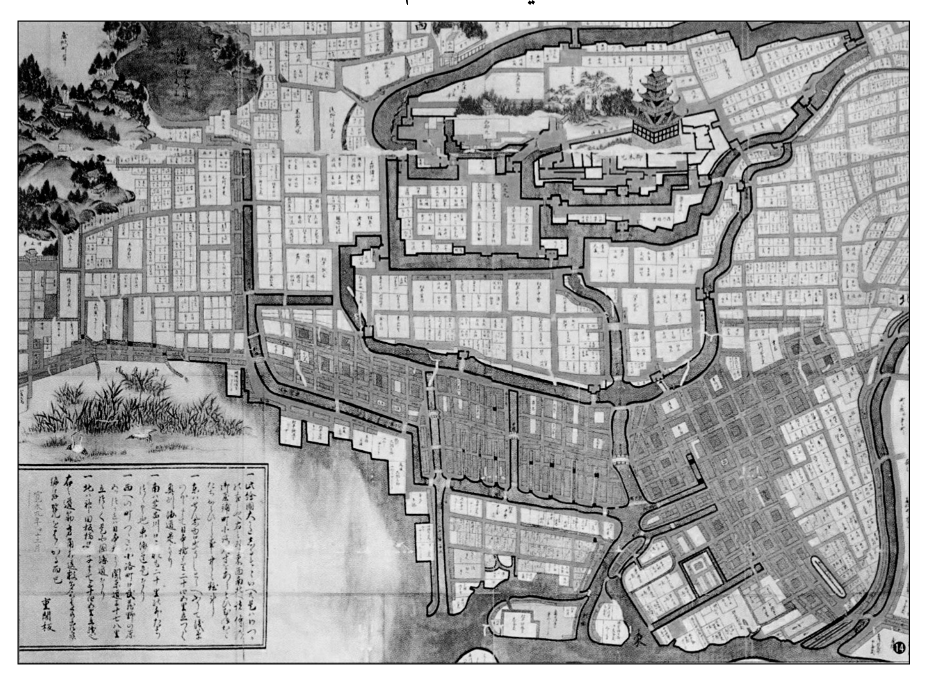
(٤٧) للمزيد من التفاصيل حول شبكة المياه التي زودت بها مدينة إيدو، انظر المقال المتميز لهاتانو جون (Hatano Jun) في: Hatano Jun, «Edo's Water Suply,» in: McClain and Merriman, *Edo and Paris: Urban Life and the State in the Early Modern Era*, pp. 234-250.

(٤٨) كان هذا الحريق الذي حدث في الشهر الأول من عام ١٦٥٧، وهو يعرف بحريق ميريكي (Meireki)، إذ كان حريقاً مهولاً ومدمراً لم تسلم منه القلعة ذاتها، في حين دمرت النيران ١٦٠ مجمعاً مسكناً من مساكن الدايميو، و٣٥٠ معبداً، و٥٠ ألفاً من دور التجار والحرفيين، و٧٧٠ من دور الساموري. وقد قُدر عدد الضحايا البشرية بـ ١٠٨ آلاف ضحية. انظر: William W. Kelly, «Incendiary Actions: Fires and Firefighting in the Shogun's Capital and the People's City,» in: McClain and Merriman, Ibid., p. 311.

بين الأحياء بشوارع واسعة، وترك بقع فارغة، وإضافة جسور تسهل تنقّل الناس وفرارهم في حال وقوع حريق.

وإذا كان مجال هذا البحث يضيق عن الإحاطة بكل ما يتعلق بهذه المدينة، فإنه يمكن القول إجمالاً إن توزيع مجالها ومرافقها خضع لمبدأ التراتب الذي طبع العلاقات الاجتماعية في عصر **إيدو**، حيث كانت القلعة ذاتها مخصصة للشجون وأعوانه المقربين، وكانت الأحياء المحيطة بها مخصصة لأُسر الساموراي الخاضعة لإمرته، ولأُسر الدايميو. أما مساكن التجار والصنّاع والحرفيين ومحلاتهم وورشهم، فقد وزِّعت في الجهة الشرقية للقلعة على ضفتي نهر سوميدا ضمن أحياء تعرف باسم تشو (Cho) ـ الذي هو جذع مصطلح «التشونين» الذي عُرف به سكان المدن، مع الإشارة إلى أن ضفاف الأنهار والقنوات المتفرعة عنها وجنبات الجسور استُغلت كأسواق تجارية ـ كسوق السمك الشهير ـ وأماكن للفرجة والترويح عن النفس. ويجد القارئ في الملحق صوراً تظهر بعضاً من أحياء إيدو ومرافقها، كما رسمها فنانو هذه المدينة وزوارها، وهي تغني عن المزيد في هذا الباب.

الخريطة الرقم (٩ ـ ١)
إيدو في حوالى عام ١٦٣٢



كان من أسباب تكاثر سكان مدينة إيدو اختيارها عاصمة للشجون، وإقرار نظام سانكين كوطاي الذي ألزم جميع الدايميو بتمضية فترة من السنة في العاصمة إيدو، وترك قسم من أُسرهم فيها عند عودتهم إلى هاناتهم. فالقرار هذا كان بمثابة انطلاق لهجرة مكثفة إلى قلعة إيدو، وتوسع العمران في محيطها في فترة وجيزة. ذلك أن استقرار الدايميو في العاصمة لم يكن مقصوراً على أُسرهم أو أتباعهم من الساموراي، بل شمل أيضاً عدداً كبيراً من الملحقين في خدمتهم والمعروفين بـ «هوكونين»[٤٩] والمأجورين؛ إذ كان كل دايميو يرعى عدداً كبيراً من الأفراد في محال إقامته. فعلى سبيل المثال، كان دايميو **تشوشو** (من أُسرة **موري**) يحتفظ في مجمعه السكني بما يزيد على ٥ آلاف فرد[٥٠]. وعموماً، فإن الهجرة إلى إيدو، سواء من هؤلاء أو من غيرهم من التجار والحرفيين والباحثين عن فرص العمل من البوادي القريبة والبعيدة، وصلت ذروتها في القرن السابع عشر، حيث بلغ معدل الهجرة إليها في مطلعه زهاء ١٠ آلاف نسمة سنوياً، ليرتفع في نهايته إلى ١٨ ألف نسمة، ثم ليستقر ثانية عند حدود ١٠ آلاف نسمة خلال القرن الثامن عشر[٥١].

الجدول الرقم (٩ ـ ٢)

تطور عدد سكان إيدو خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر

العام	تعداد السكان
١٥٩٠	زهاء ٧٠٠٠
١٦١٠	١٠٠,٠٠٠
١٦٤٠	٤٠٠,٠٠٠
١٦٨٠	٨٠٠,٠٠٠
١٧٢٠	١,٠٠٠,٠٠٠
١٨٠٠	١,٣٠٠,٠٠٠

المصــــدر: Gelbert Rozman, «Edo's Importance in the Changing Tokugawa Society,» *Journal of Japanese Studies*, vol. 1, no. 1 (Autumn 1974), p. 93.

---

(٤٩) «هوكونين» (Hōkōnin) مصطلح قديم الاستعمال يراد به الأفراد الذين كانوا يعملون في خدمة النبلاء. وبالنسبة إلى عصر توكوغاوا، كان القصد منه الذين كانوا في خدمة الدايميو من غير الساموراي. انظر: Leupp, *Servants, Shophands, and Laborers in the Cities of Tokugawa Japan*, p. 15.

(٥٠) Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 149.

(٥١) Rozman, «Edo's Importance In the Changing Tokugawa Society,» p. 100.

وعندما بلغ تعداد سكان إيدو المليون نسمة، توزعوا بالتساوي بين الساموراي وأُسر الدايميو وأتباعهم من جهة، والتشونين من جهة ثانية.

كانت إدارة العاصمة إيدو، شأنها شأن المدن الخاضعة لسلطة الشجون مباشرة، تتبع لمجلس كبار المستشارين (روجو)، الذي كان من اختصاصاته تعيين حاكمين اثنين يتناوبان على إدارة هذه المدن. غير أن تنوع عناصر سكان إيدو وتكاثر أعدادهم، طرحا مشاكل متعددة، كان من الضروري حينها تأليف هيئات فرعية لتسييرها وضبط الأمن فيها. وعموماً، لم تكن إيدو تسيَّر من قِبل إدارة موحدة؛ فهي مقسمة في الأصل إلى أحياء، يتميز البعض منها بوضعية خاصة تعكس الامتياز الذي يتمتع به قاطنوها. وهي أحياء تحاط عادة بالأسوار وببوابات تغلق ليلاً، وتطبق فيها قوانينها الخاصة. وأهم هذه الأحياء ـ التي كانت تشغل حيزاً مهماً من مساحة المدينة ـ مجمعات الدايميو السكنية، بما تضمه من أتباع وخدام، فكانت تخضع لإدارة الدايميو الذين يضبطون الأمن فيها بحسب قوانينهم وأعرافهم. وكذلك الشأن بالنسبة إلى أحياء الساموراي (هاتاموتو)، التي كانت مهيكلة بحسب التراتب المتعارف عليه، وتتبع لتنظيماتها العسكرية الخاصة بها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. مع التذكير بأن حملة الأعلام كانوا تابعين لسلطة مجلس صغار المستشارين. ويضاف إلى هذين الصنفين، المعابد والمزارات التي كانت تراقب من قِبل هيئة من المندوبين التابعين للشجون، أو ما يُعرف بجيشا بوغيو (Jisha bugyo)، وتتمتع في الوقت نفسه باستقلال في تدبير أمورها الخاصة، وإدارة الأحياء المحيطة بها والواقعة تحت حمايتها.

ولحفظ الأمن في هذه الأحياء الخاصة، كان القائمون عليها يستعينون بحراس خاصين يقومون بأعمال الدورية نهاراً، وحراسة أبوابها ليلاً. إلا أن هذا الاستقلال في التدبير لم يكن يعني الغياب التام لتدخل للسلطات العليا، ذلك أن الشجونة فرضت قوانين على الدايميو والساموراي المقيمين في المدينة والمكلفين بالمعابد والمزارات، تخص سلوكهم ونوعية لباسهم، إلى غير ذلك. كما كان مجلس كبار المستشارين يتدخل في حال ارتكاب واحد من هؤلاء جريمة ما داخل أحيائهم التي لا تخضع لسلطات حاكمي المدينة[٥٢].

يتضح ممّا سبق أنه لم يُترك للحاكمَين، اللذين كانا يتناوبان شهرياً على تدبير

---

(٥٢) Katõ Takashi, «Governing Edo.,» in: McClain and Merriman, *Edo and Paris: Urban Life and the State in the Early Modern Era*, pp. 41-67.

أمور المدينة، سوى أحياء التشونين. وللقيام بهذه المهمة، كان القائم منهما بالعمل يحضر يومياً إلى قلعة **إيدو** للتشاور مع أعضاء مجلس كبار المستشارين في الأمور التي تخص التدبير اليومي والقضايا الطارئة، ويعود بعد الظهر إلى مكتبه لسماع القضايا والشكاوى التي يرفعها إليه التجار والحرفيون، وبت قضايا الإجرام وغيرها من القضايا المعروضة عليه. وقد كانت المهمة الأساسية للحاكمين ضمان الأمن، والحفاظ على النظام في أحياء التشونين، يساعدهما في ذلك مجموعات من الحراس أو الشرطة. ومع تكاثر السكان والأحياء، استعان الحاكمان بهيئات من التجار والحرفيين تتموقع في مستويات مختلفة، وأهمها هيئة قيدومي المدينة ماتشي ـ دوشييوري (Machidoshiyori)، وهي أعلى هيئة من غير الساموراي سُمح لها بالتدخل في تدبير المدينة. وقد كانت مكونة من ٣ أفراد يمثلون أُسراً من التجار ظلت تتوارث هذا المنصب طوال عصر إيدو، وتتمثّل مهمتها في تبليغ المراسيم والقوانين المستجدة الخاصة بالتجار والحرفيين، وجمع الأتاوى، وتنفيذ الكلف المفروضة عليهم، ورفع شكاواهم إلى الحاكمين، وفض النزاعات الصغيرة التي قد تنشب في الأحياء الخاصة بهم. وقد كان أفرادها يتمتعون بامتيازات لم يحظ بها سوى الساموراي، من قبيل حمل السيف في أثناء تأدية مهامهم، وشرف استقبال الشجون لهم مرة واحدة في السنة[٥٣]. وفي مستوى أدنى، ظهرت هيئات أخرى على مستوى «تشو» (أو الحي)، تتمثل في أشخاص يترأسون أحياءهم ـ يُعرفون بنانوشي (Nanushi) ـ ويقومون بدور الوساطة بين قيدومي المدينة والسكان، وهم الأقرب إلى الواقع اليومي لحياة التشونين. هذا بالإضافة إلى تأجير حراس خاصين لحماية الأحياء من غير الشرطة التي كانت تحت إمرة الحاكمين.

ولعل أهم مؤسسة عرفتها مدينة **إيدو**، وأثارت انتباه المؤرخين، هي مؤسسة مكافحة الحرائق التي أُنشئت ونُظمت بعد الحريق الهائل الذي شب في عام ١٦٥٧. ذلك أن الحرائق ظلت خطراً محدقاً بالمدينة يتهددها في كل حين، وهاجساً يؤرق سلطات المدينة وسكانها، بسبب تداخل البنايات واكتظاظها واستعمال الخشب كمادة أولية في تشييدها. ولتفادي الحرائق الكبيرة، أُعيد تصميم المدينة بعد عام ١٦٥٧، كما أشرنا إلى ذلك، وصدرت المراسيم التي تُلزم قاطني المدينة من الساموراي وغيرهم بإنشاء فرق لمكافحة الحرائق تكون

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٥.

مجهزة وعلى استعداد للتدخل. وهي فرق كان يراوح عدد كل منها بين ١٥ و٣٠ فرداً، يتكلف سكان الأحياء المتجاورة بنفقاتها وتجهيزاتها.

كما أُنشئت أبراج لمراقبة الحرائق، مزودة بأجراس للإنذار بالقرب من القلعة وفي جُل الأحياء. غير أن التقنيات المستعملة في الإطفاء ظلت محدودة وغير متطورة، تتمثّل في السلالم، وجرادل المياه والسُّتَر الواقية وأدوات الهدم. ذلك أن المهمة الأولى لهذه الفرق هي حصار النار ومنع انتشارها إلى جهات أخرى، عبر تدمير المبنى المعرض للنار، وهدم المباني المجاورة تفادياً لانتقال النار إلى مناطق أخرى. وكان الغرض من اختيارنا هذه المنشأة المدنية إبراز واحد من تطورات الحياة المدنية، التي لم تظهر في مدن أوروبية إلا في وقت متأخر.



تُعَدّ إيدو نموذجاً للمدينة التي ينطبق عليها بحق وصف قاطرة التغيير؛ فقد تعددت وظائفها والأدوار التي قامت بها، خاصة الأدوار الثقافية والاجتماعية

التي كانت سبباً في إحداث تغيير في المجتمع الياباني ككل. وهذا ما سنحاول إجماله في نقاط تُبرز الدور الذي قامت به **إيدو**، وتدعم في الوقت نفسه ما ذهبنا إليه في مقدمة هذا الفصل، من أن انتشار المدن وتكاثر سكان الحضر في اليابان خلال عصر توكوغاوا كانا عنصرين فاعلين في التمهيد لالتحاق اليابان بركب الحضارة الغربية في وقت وجيز بعد إصلاحات الميجي.

أ ـ قامت إيدو بدور متفرد في تاريخ اليابان، ربما عز نظيره في تاريخ العالم ككل، وهو دور بوتقة انصهرت فيها مختلف ثقافات الأقاليم، حيث تطورت ثقافة شبه موحدة عمت مجموع اليابان. ذلك أن نظام سانكين كوطاي، الذي أُجبر بموجبه عشرات الآلاف من سكان الأقاليم على الانتقال سنوياً إلى العاصمة واستقرار قسم منهم فيها، كان فاعلاً في تلاقح ثقافي فريد، وإشاعة نمط من السلوك والثقافة؛ إذ إن هؤلاء كانوا يحملون معهم إلى العاصمة ثقافاتهم ولهجاتهم المحلية وصناعاتهم وفنونهم، فيؤثرون ويتأثرون، ثم يعودون من حيث أتوا، ناقلين ما تعلموه، ومشيعين ما اكتسبوه من ثقافة في أقاليمهم. ولم يقتصر الأمر على الجانب الثقافي الفكري، كتقريب اللهجات وتلقّي المعرفة في معاهد إيدو وتبادل الرأي بين الدارسين، بل شمل أيضاً الثقافة المادية، كنقل المهارات الحرفية وغيرها[٥٤]. والمثير أنه بعد مرور جيلين أو ثلاثة أجيال على العمل بنظام تناوب الإقامة، كان جُل الدايميو وكبار المسؤولين على الصعيد المحلي قد ولدوا في العاصمة وتربوا على ثقافتها. ومن ثم ساهمت إيدو في خلق نوع من الانتماء القومي، بعد الفرقة والتناحر إبان الحرب الأهلية.

ب ـ أضحت إيدو خلال فترة قصيرة تنافس العاصمة كيوطو في المجالين الثقافي والفكري؛ إذ تكاثرت فيها المعاهد التعليمية والمؤسسات الدينية، وأضحت المكان المفضل للأدباء والشعراء والفنانين، كما احتلت المركز الأول في عالم الطباعة والنشر. هذا بالإضافة إلى نشر التعليم بين فئة التشونين بعد أن كان مقصوراً على فئة الساموراي.

ج ـ كان من نتائج وجود هذا التجمع الهائل من السكان، خلق ثقافة مدينية تتمثّل خاصة في تطوير أصناف كثيرة من الفرجة والمسرح وضروب

(٥٤) قد يجد القارئ في هذه الفقرة تكراراً لبعض ما أوردناه عن نظام سانكين كوطاي في فصل سابق، غير أن في تكرار ذلك فائدة لمعرفة جانب من الدور الذي قامت به العاصمة إيدو بسبب هذا النظام.

الحكي والتباري الرياضي وفنون الترويح عن النفس. وهو أمر لا يختلف عما عرفته باريس أو لندن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

د ـ مثّلت إيدو على الصعيد الاجتماعي قطباً للهجرة ساهم في تغيير عادات عشرات الآلاف من القرويين وثقافتهم. كما مثّلت على الصعيد الاقتصادي مركزاً ضخماً للاستهلاك، عمل على زيادة حجم المنتجات الزراعية للمناطق الريفية المحيطة بها ـ وحتى المناطق البعيدة عنها ـ لتلبية الطلب المتزايد. هذا بالإضافة إلى أن إيدو كانت أيضاً مركزاً تجارياً وصناعياً منافساً لأوساكا.

ومن ثم يمكن القول إن هذه التجمعات السكانية ـ وفي مقدمتها إيدو ـ كانت بمثابة قاطرة للتنمية.

ثانياً: المواصلات

شكّلت طرق المواصلات البرية والبحرية أداة من أدوات الحكم المركزي في إدارة البلدان والتحكم فيها. وكانت أحياناً ذات أهمية كبرى لا تقل شأناً عن الاستعدادات العسكرية ذاتها، كما هو حال الإمبراطورية الرومانية التي تمكنت من إدارة أراضيها الشاسعة بواسطة شبكة طرق اعتنت بترصيفها وحمايتها. ولم تكن أهمية المواصلات تكمن، سواء في الإمبراطورية الرومانية أو في غيرها، في الجانب العسكري فحسب، بل كانت تتعدى ذلك إلى التبادل التجاري والتواصل والبريد. ولاشك أن طرق المواصلات عامل رئيسي في أي تحديث؛ فمن أسباب التقدم الأوروبي في القرن الخامس عشر تطور تقنيات الملاحة، التي جعلت الاكتشافات الجغرافية الكبرى ممكنة. كما أن اكتشاف القوة البخارية واستغلالها في تسيير السفن والقطارات كانا من علامات التفوق الأوروبي في القرن التاسع عشر.

واعتباراً لما تشكّله المواصلات عموماً، وشبكات الطرق خصوصاً، من بنية تحتية ضرورية لكل حركة تحديث، وما كان لهذه الشبكات من دور في الإسراع بإصلاحات الميجي، ارتأينا أن نفرد لها فصلاً مستقلاً، خاصة أن مسارات الطرق البرية كانت الأساس في وضع خطوط السكك الحديد الأولى في اليابان في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، أي بعد إصلاحات الميجي مباشرة.

١ ـ الطرق البرية

يتميز الأرخبيل بخاصيتين جغرافيتين: إحاطة البحر به من كل الجهات، وغلبة الطبيعة الجبلية على معظم جزره. لذا كان من الطبيعي أن يعتمد اليابانيون في المقام الأول على المواصلات البحرية في السفر ونقل البضائع بين مختلف أرجاء الأرخبيل. وبالفعل تطورت منذ العصور القديمة شبكة للمواصلات البحرية وعبر البحيرات، تربط الموانئ اليابانية في ما بينها، وتربط الأرخبيل بكوريا والصين. غير أن الإمبراطورية اليابانية اهتمت أيضاً، ومنذ تأسيسها، بالطرق البرية التي أخذت بعداً عسكرياً بالنسبة إلى الحكم المركزي، خاصة في تسيير الحملات العسكرية لإخضاع المناطق المتمردة في شمال البلاد وغربها.

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادي، أي بعد الأخذ بمبادئ الحضارة الصينية، أُنشئت في اليابان شبكة طرق على النمط الصيني لربط مختلف الأقاليم ـ التي قسمت إليها اليابان بمقتضى الإصلاحات الكبرى (إصلاحات تايكا عام ٦٤٦). وكذلك أُحدث نظام للبريد اعتمد على محطات موزعة بانتظام على الطرق. أما في عصر **توكوغاوا**، فقد توسعت شبكة الطرق بشكل لافت، واتخذت بعداً استراتيجياً بالنسبة إلى سلطات الباكوفو. فحسب شهادات الأوروبيين الذين سافروا على واحد من المحاور الطرقية، كانت الطرق اليابانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تفوق مثيلاتها في أوروبا، من حيث التنظيم والعناية.

٢ ـ المحاور الطرقية

كانت اليابان قبل عصر **توكوغاوا** مزودة بشبكة من الطرق البرية التي كانت تُستعمل في تنقّل الأفراد أو في التحرك العسكري. ورغم تفضيل التجار السفن والنقل البحري لنقل بضائعهم، فإن الطرق البرية كانت تنال نصيباً من التجارة. وما حدث خلال الحرب الأهلية هو استيلاء دايميو الدويلات المتحاربة على الطرق المارة بمناطق نفوذهم وإقامة حواجز التفتيش عليها، وفرض المكوس على مستعمليها[٥٥]. وهذا ما سعى إلى إلغائه زعماء القرن السادس عشر، خاصة **نوبوناغا** الذي بدأ بإلغاء هذه الحواجز في مجال «تينكا»

(٥٥) George Bailey Sansom, *A History of Japan, 1334-1615* (Tokyo: Tuttle, 1990), pp. 259-260.

(أو المجال الخاضع لحكمه العسكري)، وسار على نهجه **هيدي ـ يوشي**.

وعند استيلاء أُسرة **توكوغاوا** على السلطة، اعتبر الشجون الأوائل ـ خاصة **إياسو** ـ أن الطرق التي تربط عاصمتهم **إيدو** بمختلف الأقاليم تشكل مرفقاً حيوياً يدعم السيادة والسلطة المركزية التي يمثّلونها، ويحقق رغبتهم في إقامة حكم مركزي قوي يخضع له الدايميو كلهم، حتى وإن تمتع هؤلاء بصيغة من الاستقلال الذاتي في تسيير هاناتهم. وعلى هذا الأساس، تقرر منذ البداية تحقيق نظام طرقي ممركز غير خاضع للدايميو(٥٦). ذلك أن الطرق البرية كانت ذات بُعد استراتيجي يخدم مصالح متعددة؛ فهي ذات أهمية كبرى في تسيير الحملات العسكرية، كما هو الأمر مثلاً في حصار قلعة أوساكا (عام ١٦١٤) والقضاء على انتفاضة **شيمابارا** (عام ١٦٣٧)؛ ومهمة أيضاً في تنقل المفتشين جونكينشي (Junkenshi) وكوني ميتسوكي (Kuni- metsuke) المكلفين بمراقبة الدايميو، وكذا تبليغ أوامر الشجون إلى مختلف الأقاليم في أسرع وقت ممكن. هذا إضافة إلى تسهيل الاتصال وتلقّي الإيرادات والمستحقات من الأراضي التابعة لأُسرة **توكوغاوا**، التي كانت موزعة في كل أرجاء البلاد.

ولتحقيق نظام مركزي للطرق، أقدم **إياسو** ومن خلفوه على اتخاذ قرارات وإجراءات نجملها في:

أ ـ اعتبار شبكة الطرق الرئيسية ملكاً عاماً تابعاً لسلطة الشجون. ولا يُستثنى منها سوى الطرق الفرعية الواقعة داخل كل هان. أما القصد بالشبكة الرئيسية، فهي تلك المعروفة بـ **غوكايدو** (Gokaido) (أو الطرق الخمس) والمسالك الملحقة بها، والتي تربط العاصمتين **إيدو** بـ **كيوطو**، وتربط إيدو بشمال جزيرة هونشو ووسطها عبر مسالك مختلفة. وهي جميعها تنطلق من (أو تنتهي إلى) **نيهون باشي** (جسر اليابان) الواقع وسط العاصمة (انظر الخريطة الرقم ١٠).

ب ـ إلزام الدايميو بالمساهمة في بناء الطرق والجسور وصيانتها والعناية بها، وقد أُدخلت ضمن الكلف المفروضة عليهم. وكذا إجبار الدايميو على إلغاء

---

(٥٦) انظر: Constantine Nomikos Vaporis, *Breaking Barriers, Travel and the State in Early Modern Japan* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994), pp. 17-19.

تعتبر هذه الدراسة أهم دراسة أنجزت عن الطرق والرحلات عبر الطرق البرية التي كتبت باللغة الإنكليزية. وقد اعتمد صاحبها على أصناف متنوعة من الوثائق والكتابات المتعلقة بالسفر والمذكرات الموضوعة باللغة اليابانية.

حواجز التفتيش الخاصة على الطرقات (سيكيشو sekisho) التي كانوا قد أقاموها في مناطق نفوذهم وتعويضها بأخرى خاضعة للشجونة. ففي التعديل الذي أُدخل على القانون الخاص بالساموراي والدايميو (بوكي شوهاتو) عام ١٦٣٥، نصَّ البند الرقم (١٥) على أن من واجب الدايميو العناية بالطرق والمحطات والجسور والعبّارات لتأمين استمرار خدمات النقل، ونصَّ البند الرقم (١٦) على أنه لا يُسمح بإقامة مراكز خاصة لاستخلاص المكس على الطرق، أو إقامة مراكز للمكس في محطات عبور الأنهار[٥٧].

ج ـ إقامة محطات طرقية تتوزع بكيفية منتظمة على المحاور الطرقية الرئيسية، وإعطاؤها وضعاً خاصاً تُعفى فيه من الجبايات مقابل الخدمات التي تقدمها للمسافرين من جهة، والعمل من جهة أخرى على تنظيم الخدمات المقدمة للمسافرين الرسميين وغيرهم.

د ـ استحداث منصب في إدارة الشجونة خاص بالطرق، يتبع له عدد من المراقبين الذين يبلغون الإدارة المركزية بكل ما يتعلق بالطرق والمحطات الطرقية والمسافرين.

يبدو من هذه الإجراءات أن الشجون الأوائل اعتبروا الطرق ذات أهمية قصوى في إحكام سيطرتهم على البلاد في إطار نظام الباكوهان. ذلك أن وضع الطرق تحت الإدارة المباشرة للسلطة المركزية، شكل أداة إضافية تعزز الحكم المركزي يراقب الشجون من خلالها تحركات الدايميو.

كانت الشبكة الطرقية، كما تطورت في عصر توكوغاوا، مكونة من المحاور الطرقية الكبرى المشار إليها. وقد كان **توكايدو** (Tokaido) (أو الطريق البحري الشرقي) أهم محور فيها وأكثرها استعمالاً؛ فهو يربط العاصمتين عبر الطريق الساحلي المحاذي للمحيط الهادي على مسافة يبلغ طولها زهاء ٤٨٨ كم. وهو طريق قديم الاستعمال ـ ربما يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي ـ روعي في تخطيطه تفادي الصعاب الطبوغرافية ومحاولة تخطيها في أقل نقاطها ارتفاعاً؛ الأمر الذي يمنحه السير بالقرب من الساحل حيث تخف حدة الارتفاع. ومع ذلك، يقطع هذا الطريق ما ينيف على ١٢ مجرى مائياً، كان من الصعب إقامة جسور على البعض منها أو عبورها في حال الفيضان. ولهذا المحور امتداد يصل **كيوطو**

(٥٧) انظر نصي هذين البندين في الترجمة الإنكليزية للمرسوم، في: David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, p. 208.

بالعاصمة التجارية **أوساكا**[٥٨]. وبالإضافة إليه، هناك محورا **كوشو كايدو** (Koshu Kaido) و**ناكا سيندو** (Naka Sendo) (أو الطريق الجبلي)، اللذان يربطان العاصمتين عبر طريق داخلي، على مسافة طولها ٥٢٧ كم؛ ومحور **نيكو كايدو** (Nikko Kaido) الذي يربط **إيدو** بمنتجع **نيكو** الذي توجد فيها مدافن الشجون، وطوله ١٤٤ كم؛ وأخيراً محور **أوشو كايدو** (Oshu Kaido)، الذي ينطلق من العاصمة إيدو نحو شمال الجزيرة. كما كان لهذه المحاور الرئيسية طرق إضافية، تقع هي أيضاً تحت السيطرة المباشرة للشجون، وهي تربط إيدو بأقصى شمال جزيرة هونشو من جهة، وكيوطو وأوساكا بالأقاليم الغربية والجنوبية وجزيرة كيوشو ـ التي تستقبل معظم التجارة الخارجية ـ من جهة أخرى. ومع إقرار نظام سانكين كوطاي، أنشأ الدايميو طرقاً في مناطق نفوذهم ـ كانت تخضع لإدارتهم ـ تصل مدنهم بواحد من الطرق المؤدية إلى **إيدو**[٥٩]. وهكذا أضحت الشبكة الطرقية في نهاية المطاف بمثابة أنهار تصب جميعها في مدينة إيدو، تزودها جداول تأتيها من مختلف جهات اليابان.

لعل أهم ما يثير الانتباه في هذه الشبكة الطرقية، هو العناية التي كانت إدارة توليها لها والمتمثلة في السهر عليها وحمايتها ونظافتها. ذلك أن المحاور الطرقية لم تكن مجرد مسالك ترسمها حوافر الدواب، بل كانت تعبَّد وتُرصف وتحظى طوال الوقت بالصيانة والعناية. فكل من مر من الأوروبيين بواحدة من هذه الطرق ـ خاصة **توكايدو** ـ أشاد بالكيفية التي هيئت بها والعناية التي تحظى بها مقارنة بالطرق في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فقد لاحظ الطبيب السويدي **كارل ثونبرغ**[٦٠]، الذي كان ملحقاً بالبعثة التجارية الهولندية، وسافر إلى إيدو عام ١٧٧٦:

الطرق في هذا البلد واسعة ومجهزة بقناتين لصرف المياه، و[هي] في وضع

---

(٥٨) حول دراسة تخص طبيعة المنطقة التي يعبرها محور توكايدو، انظر: Robert B. Hall, «Tokaido: Road and Region,» *Geographical Review*, vol. 27, no. 3 (July 1937), pp. 353-377.

وهي دراسة جغرافية مزودة بعدد من الخرائط. وعلى العموم، فإن المعلومات المتعلقة بوصف هذا الطريق مستقاة من هذه الدراسة.

(٥٩) في ما يخص تقدير مسافات هذه المحاور، اعتمدنا على: Vaporis, *Breaking Barriers, Travel and the State in Early Modern Japan*.

(٦٠) كارل بيتر ثونبرغ (Carl Peter Thunberg) (١٧٤٣ ـ ١٨٢٨)، طبيب سويدي الأصل مختص بعلم النبات، التحق بالعمل في **شركة الهند الشرقية الهولندية**، وسافر إلى اليابان في إطار عمله كطبيب للبعثة عام ١٧٧٥. وله عدة مؤلفات عن اليابان. انظر ترجمته في: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 29.

جيد طوال السنة، خاصة في هذا الفصل [فصل الربيع] الذي يقوم فيه أمراء البلد [يقصد الدايميو]، وكذلك الهولنديون بزيارتهم السنوية إلى العاصمة. فالطرق في هذه الفترة، لا تفرش بالرمل فحسب، بل تكنس بالمكانس قبل وصول المسافرين، ويجمع روث الخيل وكل القاذورات، وعند الطقس الحار والمغبر تُرش الطريق بالماء(٦١).

هذه الملاحظة بشأن العناية بنظافة الطريق، أبدى مثلها الطبيب **كايمبفر** في أثناء مروره بتوكايدو عام ١٦٩١، غير أنه علل سبب اجتهاد الفلاحين في هذا الصدد بقوله:

ولم يكن من الصعب على رؤساء القرى الحفاظ على الطريق نظيفة، بما أن كل القاذورات التي توسخها كان من الممكن استعمالها من قبل فلاحي القرى المجاورة. فأوراق الأشجار وثمار الصنوبر التي تتساقط يومياً كانت تُجمع وتُستغل كوقود بدل عيدان الأشجار. كما أن أطفال الفلاحين، كانوا يجمعون روث الخيل ليُستغل في [تسميد] الأراضي الزراعية، وكذلك كانت تجمع فضلات المسافرين وما يلقون به للغرض ذاته. فلهذه الغاية، كان في إمكان المسافرين التوقف في واحدة من العشات الصغيرة المنصوبة على طول الطريق بالقرب من الأراضي الزراعية لقضاء حاجاتهم(٦٢).

وواقع الأمر أن الطرق في اليابان كانت بمثابة مشاريع عمرانية تبنى وتصان كما هو الشأن ـ إلى حد ما ـ بالنسبة إلى الطرق الرومانية. وعلى أي حال، فقد تأثر اليابانيون بالصينيين الذين كان لهم باع طويل في بناء الطرق والقناطر. وهكذا كانت قارعة الطرق، في المناطق المستوية، تعبّد أولاً ثم تُرصف بالحصى الذي يُدك قبل أن يُفرش بالرمل. واعتباراً لما تشكله مياه الأمطار من خطر على بنية الطريق، كانت تقام على جانبي القارعة مصاطب أو حواجز ترابية لحماية الطريق من الفيضان وتدفق المياه إليها، هذا إضافة إلى مصرفين مهيأين للغرض نفسه. أما في المنحدرات الجبلية، فكانت الطرق تُرصف بالصخر تحسباً لانجراف

(٦١) النص المستشهد به مأخوذ من مؤلف شارلز ثونبرغ: Karles Peter Thunberg, *Travels in Europe, Africa, and Asia, Made between the Years 1770 and 1779*, 3rd ed., 4 vols. (London: Printed for F. and C. Rivington, 1795-1796), vol. 3, p. 107.

وقد اعتمدنا في الترجمة على المقتطف الوارد في: Vaporis, Ibid., p. 39.

(٦٢) Kaempfer, ed., *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*, pp. 248-249.

التربة[٦٣]. ونظراً إلى ما كانت بعض الطرق تشهده من إقبال وحركة سير، فإن الطرق كانت تُشق بعرض يكفي ـ حسب تعبير **كايمبفر** ـ مرور ركبين في آن واحد دون حصول اكتظاظ[٦٤]. فعرض طريق **توكايدو**، الذي نتوافر في شأنه على شهادات كثيرة، كان يراوح بين ٦ و٧ أمتار، ويصل إلى ١٠ أمتار بالقرب من المدن.

كما كان يجتهد في توفير كل أسباب الراحة لمستعملي الطريق، كزرع الأشجار الباسقة على الجنبات ليستظل بها المسافرون اتقاء حرارة الشمس وأشعتها؛ وتحويل مياه الجداول القريبة إلى حافة الطريق ليرتوي منها المارة ودوابهم؛ ووضع علامات ترشد المسافرين وتدلهم على المسافات، وإقامة نصب للآلهة التي تحمي المسافرين. والمثير أن بعض المقاطع من الطريق كانت مزودة بمصابيح إنارة كانت تنصب بمبادرة خاصة من الرهبان والكهان في المناطق القريبة من معابدهم ومزاراتهم.

تعتبر القناطر من المنشآت الرئيسية المقامة على شبكة الطرق، وقد كان جّلها في الطرق اليابانية مشيداً بأخشاب الأرز، غير أن القناطر المبنية بالصخر كانت موجودة، خاصة في جزيرة **كيوشو** التي تأثرت أكثر من غيرها بهندسة القناطر الصينية. وقد أحصى **كايمبفر** في أثناء رحلته من **ناغاساكي** إلى **إيدو** خمس قناطر، يزيد طول البعض منها على ٣٠٠ متر. وكما لاحظ، فإنه من كثرة العناية بها تبدو وكأنها قد شُيدت للتو[٦٥]. ومع ذلك، لم تكن المجاري المائية مجهزة كلها بجسور، وذلك لأسباب مختلفة، منها، في المقام الأول، السبب الطبيعي ومحدودية تقنيات العصر، ذلك أن بعض المجاري كان يتعذر بناء قناطر عليها لاتساعها وتعرضها للفيضان، كما هو الحال في نهر أوئي (Ōi) الواقع على طريق توكايدو. غير أن بعض الباحثين يرجحون أيضاً أسباباً أخرى، كالدواعي الأمنية والاعتبارات الاقتصادية[٦٦]. فبعض المجاري المائية كانت تشكّل حواجز طبيعية تمنع الغزاة، حيث كان يفضل مثلاً عدم إقامة قناطر على الأنهار القريبة من العاصمة إيدو لصد الهجمات المحتملة. كما أن المعابر أو المقاطع السهلة لعبور الأنهار كانت تشكّل نقطاً مثالية لإقامة حواجز التفتيش.

---

(٦٣) Hall, «Tokaido: Road and Region,» p. 262.

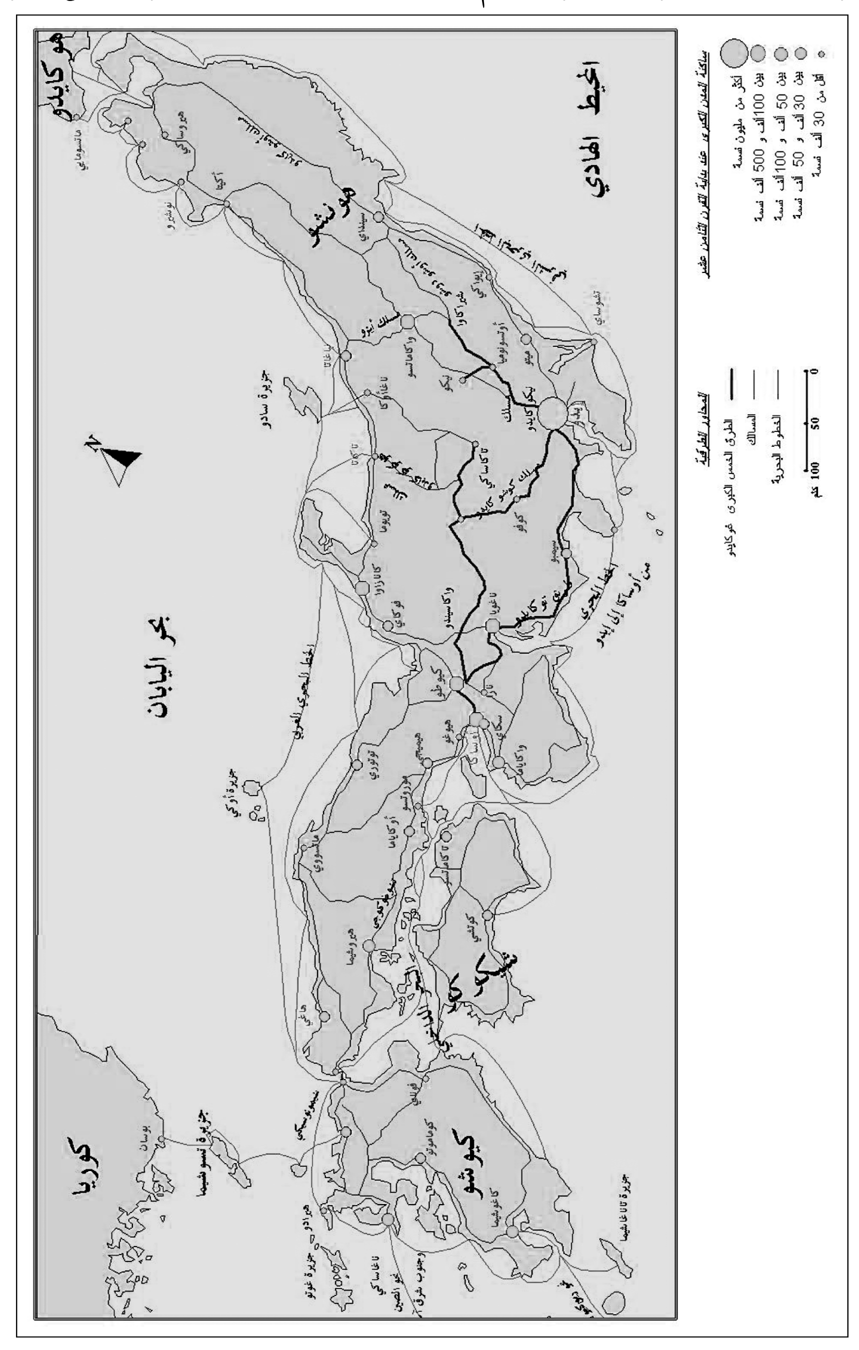
(٦٤) Kaempfer, Ibid., p. 247.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) Vaporis, *Breaking Barriers, Travel and the State in Early Modern Japan*.

الخريطة الرقم (٩ ـ ٢)

طرق المواصلات البرية والبحرية وأهم المدن خلال عهد توكوغاوا (القرن الثامن عشر)



وفي حال انعدام الجسور، كان العبور يتم بطرق مختلفة؛ فهناك العبّارات أو السفن الصغيرة التي كانت تُستعمل في المجاري وتمكّن من الملاحة فيها، والمنصات الخشبية المحمولة على أكتاف الحمالين في المجاري القليلة العمق، وفي حالات أخرى كان المسافرون يُحملون على ظهور الحمالين، أو يقطعون النهر سيراً على الأقدام. وعموما كان يستعان بخبرة سكان القرى المجاورة لإرشاد المسافرين إلى مناطق العبور الأقل عمقاً، إذ كانت الخدمات المتعلقة بالعبور من الكلف المفروضة على القرى المجاورة للطرق.

كانت حالة الطرق في عصر توكوغاوا جيدة بسبب صيانتها من جهة، وبسبب وسائل النقل المستعملة فيها من جهة أخرى. فوسائل النقل كانت مقصورة بالنسبة إلى البضائع على الخيول والحمالين، بينما كان جُل المسافرين يقطعون المسافات سيراً على الأقدام، باستثناء علية القوم الذين يركبون الخيل أو يُنقلون على محفات تُحمل على أكتاف الحمالين؛ وهي إما محفات مغطاة على شاكلة الهودج هاكو ـ كاغو (Hako-kago) أو مكشوفة ياما ـ كاغو (yama-kago). وليس يعني غياب العربات في النقل على الطرق أن العجلات لم تكن تُستغل، فقد جرى التخلي عن العربات في الطرق الرئيسية لأسباب تتعلق أساساً بالوضع الطبوغرافي المتميز بكثرة المنحدرات والمرتفعات. ولذا كان يُقتصر على استعمال العربات ذات العجلتين في المدن ـ كما تدل على ذلك الرسومات المطبوعة بالحفر على الخشب ـ أو في بعض المقاطع المستوية من الطرق. ويضيف بعض الباحثين سبباً آخر يتعلق بمعارضة «حنط» الحمالين لاستعمال العربات في النقل، بدعوى أنها تضر بمصالحهم.

٣ ـ المحطات الطرقية ونقاط التفتيش

لعل أهم ما ميز الطرق اليابانية هو كثرة المحطات التي تختص بتقديم خدمات مختلفة للمسافرين. وقد كانت هذه المحطات المعروفة بـ **شوكوبا ماتشي** (Shukuba machi) محط عناية من قبل السلطات المركزية منذ عصر **هييان**، وذلك لما لها من دور في تأمين النقل على الطرق، والإسراع بحركة السير، ومراقبة تنقّل الرعايا، وتقديم الخدمات إلى المسافرين الرسميين، وضمان وصول الأتاوى والضرائب إلى العاصمة من مختلف الأقاليم، إضافة إلى اندراجها ضمن خدمة البريد الرسمي وأهميتها في حال الحملات العسكرية. وقد زادت هذه العناية في

عصر **توكوغاوا**، اعتباراً للأهمية التي اكتستها الطرق الرئيسية، كما سبقت الإشارة. ومما يؤكد ذلك أن أول ما بدأ به **إياسو** مشروعه الرامي إلى وضع نظام طرقي ممركز هو وضع المحطات المقامة على طريق **توكايدو** تحت إدارة الباكوفو المباشرة.

وضعت سلطات الباكوفو في عصر **توكوغاوا** هذه المحطات الطرقية في وضع خاص تعفى فيه من الأتاوى المفروضة عليها من قِبل الدايميو بحُكم وقوعها في مجال نفوذهم، مقابل الكلف والخدمات التي تقدمها إلى المسافرين. وتتمثّل هذه الكلف ـ المعروفة بسيكي ـ غو (Sukego) ـ في توفير عدد معيّن من الخيول والحمالين، والعناية بمقاطع الطريق القريبة من المحطة. وقد كانت أعداد خيول النقل المفروض توافرها في كل محطة يراوح بين ٣٠ فرساً و١٠٠ فرس لكل محطة، والعدد نفسه تقريباً بالنسبة إلى الحمالين، حيث يتحدد العدد حسب الإمكانية الاقتصادية لكل محطة[٦٧]. ولم يكن المقيمون في المحطة مسؤولين وحدهم عن هذه الكلف، بل كان يشاطرهم في القيام بأعبائها سكان القرى المجاورة؛ إذ كانت القرى المجاورة للمحطة في دائرة معيّنة مسؤولة أيضاً عن الكلف المنوطة بالمحطة. غير أن هذه الأعباء كانت تزداد ثقلاً عندما تكثر حركة السير على الطرقات، خاصة في الموسم الذي تسافر فيه وفود الدايميو إلى إيدو. ومن ثم كانت أعداد الحمالين والخيول المطلوبة تزيد على الإمكانات الاقتصادية لسكان المحطة، وكانت تسبب معاناة إضافية لهؤلاء.

كانت هذه المحطات في عصر توكوغاوا موزعة بشكل منتظم على الطرقات الرئيسية، تفصل بينها مسافات محددة، راوحت عادة بين ٥ كم و١٠ كم. فمثلاً، كان طريق **توكايدو** (٤٨٨ كم) مزوداً بـ ٥٧ محطة، أي بمعدل ٨,٥ كم بين محطة وأخرى. وكذلك كان المحور الجبلي (**ناكا سيندو**، ٥٢٧ كم) مزوداً بـ ٦٧ محطة، أي بمعدل ٥,٢ كم[٦٨]. هذا بالإضافة إلى المحطات التي لم تكن تتمتع بوضع رسمي وكان سكان القرى المحاذية للطريق يقيمونها للاستفادة من حركة السير من أجل الترويج لمنتجاتهم. وعموماً كانت المسافات

---

(٦٧) كانت أعداد الخيول المفروض توافرها في كل محطة تتناسب مع الإمكانات الاقتصادية، وذلك على أساس فرسين وحمالين لكل ١٠٠ كوكو/أرز.

(٦٨) انظر: Vaporis, Ibid., p. 23.

الفاصلة بين محطة وأخرى تقل في المناطق الجبلية، حيث يصعب السير، وتقام محطات استراحة إضافية.

لم تكن هذه المحطات متماثلة، سواء من حيث الحجم أو من حيث نوعية الخدمات التي تقدمها إلى المسافرين؛ فقد تميزت من بينها مثلاً، المحطات المعروفة بهونجين (Honjin)[٦٩] التي كانت فيها فنادق للدايميو (تحمل التسمية نفسها) وغيرهم من كبار المسؤولين، بينما كان البعض من المحطات مجرد مراكز استراحة محدودة الخدمات. أما عن أعداد السكان المقيمين في هذه المحطات، فكانت تراوح بين ألف و٥ آلاف نسمة، إذ كانت كثافة السكان تزيد بحسب أهمية المحطة وأهمية المحور الطرقي.

فعلى سبيل المثال، كان متوسط عدد سكان المحطات الواقعة على طريق **توكايدو** يبلغ ٣٩٥٠ نسمة[٧٠]، وهو عدد يضع الكثير منها ضمن خانة المدن، سواء أخذنا الأمر بمعيار تعداد السكان أو بنوعية النشاطات التي يقومون بها. هذا مع الإشارة إلى أن بعض المحطات كان يقوم أيضاً بوظائف أخرى؛ فمحطة فوشيمي على طريق **توكايدو** هي في الوقت نفسه مدينة قلعة، كان عدد سكانها يقارب ٢٥ ألف نسمة قبيل إصلاحات الميجي[٧١].

تنوعت الخدمات التي تقدمها المحطات الطرقية، وهي تتعلق أساساً بوظائف تتمثل في تغيير الحمالين وأحصنة النقل، وتوفير الأكل والمبيت للمسافرين. وفي ما يخص الوظيفة الأولى، فقد كانت تحت إشراف رسمي يقوم بها مسؤول إداري يشرف على مكتب يدير شؤون الحمالين والخيول. ذلك أن الإدارة المركزية حددت ثلاثة مستويات من المسافرين، لكل منهم تعامل خاص:

الأول كبار المسؤولين في الباكوفو، والمبعوثون الرسميون، وذوو الحيثيات الخاصة، وكانت الخدمات تقدم لهم مجاناً.

---

(٦٩) يرجع ظهور هذا الصنف من المحطات إلى القرن الرابع عشر، وقد كانت خدماتها في عهد إيدو موجهة بالأساس لإقامة الدايميو في أثناء توجههم إلى العاصمة إيدو، أو الرجوع منها. انظر: «Honjin,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 223.

كما أن مصطلح هونجين يُطلق أيضاً على دور المبيت الخاصة بالدايميو.

(٧٠) Vaporis, Ibid., p. 23.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

والثاني المسؤولون على الصعيدين المركزي والمحلي والدايميو وأتباعهم، وكانت تسعيرة النقل محددة بالنسبة إليهم في كل المحطات.

والثالث عامة المسافرين، الذين كان عليهم التفاوض في شأن أتعاب الحمالين وكراء الخيول[٧٢]. أما الوظائف الأخرى، فكان يقوم بها الخواص الذين يتنافسون في تنويع خدماتهم لاجتذاب المسافرين. وقد عدّد **كايمبفر** أصنافاً من فنادق المبيت التي صادفها في أثناء رحلته إلى إيدو، ووصف بدقة مرافقها وما تقدمه من خدمات بحسب مستوياتها، خاصة تلك المهيأة للدايميو وعلية القوم. كما كانت في جُل المحطات أحياء خاصة بالتجارة وأخرى بالترويح عن النفس، كأحياء البغاء المرخص لها. مع الإشارة كذلك إلى أن النساء كن يعملن أيضاً كمضيفات وجليسات في صالونات الشاي والمطاعم وأماكن الإقامة. وفي الوقت ذاته، كان الكثير من المحطات يضم معابد ومزارات خاصة بالديانتين البوذية والشنتوية.

أما مراقبة مستعملي الطرق والبضائع وأداء مكس المرور على طرق بعينها، فلم يكونا بالأمر المستحدث في عصر توكوغاوا؛ فمنذ العصور القديمة اليابانية، أقيمت حواجز على الطرق المؤدية إلى سهل **كيناي**، حيث العاصمة الإمبراطورية، حماية لها من الحملات المحتملة[٧٣]. كما تكاثرت هذه الحواجز في جميع أرجاء الأرخبيل في عصري **كاماكورا** و**موروماتشي** وعهد الدويلات المتحاربة، حيث كانت تؤدي، إضافة إلى حفظ الأمن، وظيفة اقتصادية تتمثّل في مراقبة تنقل البضائع، والحصول على مداخيل إضافية من المكوس المستخلصة من مستعملي الطرق. وكما سبقت الإشارة، عمل كل من **نوبوناغا** و **هيدي ـ يوشي** على إلغاء الحواجز في المناطق التي خضعت لمجال نفوذهما، وذلك بغاية تشجيع التجارة في المدن القلاع التي أقاماها. وكذلك أمر الشجون **توكوغاوا إياسو** الدايميو كلهم بإلغاء الحواجز والمكوس على الطرق الرئيسية المارة بمجال نفوذهم. غير أن الحواجز ومراكز التفتيش التي ألغيت جرى تعويضها بأخرى تابعة للسلطات المركزية للباكوفو، أقيمت أساساً على المحاور الطرقية الرئيسية الخمسة

---

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧.

(٧٣) بدأ العمل بنصب حواجز على الطرق المؤدية للعاصمة بعد إصلاحات تايكا (٦٤٥). وقد أقيمت في الأصل بدافع الحفاظ على سلامة الإمبراطور، فمثلاً كانت هذه الحواجز تُغلق حين يموت الإمبراطور أو يتنازل عن العرش. انظر: «Sekiho,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 57.

(غوكايدو)، خاصة بالمناطق القريبة من العاصمة إيدو. وقد بلغ عدد النقاط المستحدثة ـ التي ظلت تعرف باسمها القديم سيكيهو (Sekiho) ـ ٥٢ نقطة، كان جُلها موضوعاً في وسط جزيرة هونشو، بين سهلي كانتو وكيناي، حيث جرى اختيار مواقعها في النقاط التي يصعب تفادي المرور منها ـ كالمعابر الجبلية والنهرية ـ إذ كان يستحيل مثلاً الدخول إلى العاصمة إيدو دون المرور عبر أكثر من نقطة تفتيش. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، كانت الإجراءات الخاصة بنقاط التفتيش قد استُكملت كلها، سواء ما تعلق منها بالمراسيم المنظمة أو البنى التحتية أو الجنود والعاملين فيها.

أما السبب المعلن لإقامة هذه الحواجز، فهو ما أورده الطبيب **كايمبفر**، واستقاه غالباً من السلطات الرسمية في نهاية القرن السابع عشر. يقول **كايمبفر**:

يتعين في هذه البلدة مراقبة أمتعة جميع المسافرين وأغراضهم، خاصة تلك الخاصة بأمراء الإمبراطورية [يقصد الدايميو]، من قبل مندوبين معينين من قبل [الشجون] لهذه الغاية، وذلك لمنع مرور الأسلحة والنساء. وهذه المراقبة واحد من القرارات السياسية التي اعتبر الأباطرة الجدد الحاكمون حالياً [يقصد شجون أُسرة توكوغاوا] أن من الضروري القيام بها لحماية أنفسهم وتأمين امتلاكهم للعرش، وهو قرار يتمثّل في إبقاء زوجات أمراء الإمبراطورية [الدايميو] وبناتهم في إيدو، العاصمة الإمبراطورية، كرهائن لضمان ولاء أزواجهم وأقربائهم. وكذلك، لمنع توريد الأسلحة [لإيدو]. . . التي إن تم توريدها بكميات كبيرة، فإن بعض الأمراء قد يعلنون الثورة على الحكومة[٧٤].

يبدو من هذا التبرير أن سياسة إقامة الحواجز ونقاط التفتيش على الطرق ارتبطت أساساً بنظام سانكين كوطاي، الذي كان يتعين بموجبه على كل الدايميو الإقامة بالعاصمة إيدو فترة من الزمن، وأداء الولاء للشجون سنوياً، وهو أمر صحيح إلى حد ما. فالشجون كانوا قد أجبروا الدايميو على أن يحتفظوا بقسم كبير من أُسرهم في العاصمة في أثناء غيابهم عنها حتى يضمنوا ولاءهم وعدم تمردهم على سلطة الشجون. ومن ثم كان من الضروري مراقبة خروج نسائهم (الرهائن) من العاصمة. ومن باب الاحتياط الأمني، كان من

(٧٤) Kaempfer, *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*.

الضروري أيضاً الحد من أعداد الأسلحة التي يتوافر عليها الدايميو وأتباعهم في العاصمة. غير أن الأوامر الصادرة للقائمين على هذه الحواجز كانت تنص على مراقبة جميع المسافرين، والتأكد من صلاحية التصاريح التي يحملونها، وهو ما يعني أن الأمر كان يتعدى منع نساء الدايميو، ليشمل منع جميع المشتبه فيهم من الدخول إلى العاصمة والمدن الكبرى. ذلك أن أعداداً كبيرة من الساموراي الذين لم يعودوا مرتبطين بساداتهم (أو من يُعرفون بـ الرونين) كانوا يسببون مشاكل أمنية في المدن، حيث كانوا يثيرون الشغب، ويقدمون على السرقة والسلوك المشين. هذا إضافة إلى أن نقاط التفتيش شكلت أداة في يد السلطات المركزية لمراقبة السير على الطرق، والتأكد من هويات المسافرين، وذلك حفاظاً على الأمن في العاصمة من جهة، ومنعاً لجميع التحركات المشبوهة باتجاه العاصمة، وهي التحركات المرتبطة بالدايميو المعادين لأُسرة توكوغاوا، من جهة أخرى. وبالفعل، نجحت سلطات الباكوفو في مسعاها عبر سيطرتها على الطرق، وإقامة حواجز لمراقبة تنقّل الناس، مع الإشارة إلى أن نقاط التفتيش هاته استمرت في البقاء إلى حين قيام إصلاحات الميجي.

٤ ـ دواعي السفر

تعددت دواعي السفر واستعمال الطرقات في عصر إيدو؛ فهناك في الأساس الاستعمال الرسمي المتمثّل في سفر المسؤولين وتنقّل الدايميو السنوي، غير أن عامة الناس كانوا يقبلون أيضاً على السفر في الطرق البرية رغم العراقيل المتمثّلة في الحصول على تصاريح مسبقة، والخضوع للمراقبة في نقاط التفتيش. فقد كان من نتائج استتباب الأمن والعناية بالطرق خلال عصر توكوغاوا، إقبال عامة الناس على التنقّل وازدهار صناعة السفر. فرغم ضرورة الحصول على تصريح مسبق، كان الكثيرون ينجحون في اختلاق الأعذار وابتكار الأسباب لتخطي هذه العرقلة. ومن التبريرات التي كان يلجأ إليها هؤلاء، زيارة المعابد والمزارات الدينية، خاصة معبد **إيسي** وسط جزيرة هونشو.

وحسب شهادات الأوروبيين، فإن الطرق التي مروا منها كانت تعج بالمسافرين، وهو أمر أثار دهشتهم مقارنة بالطرق في أوروبا. وتساوقاً مع هذه الحركة، ازدهرت التجارة في المحطات الطرقية التي أصبحت أمكنة ملائمة لبيع المنتجات والمصنوعات اليدوية المحلية التي كان المسافرون يقبلون على اقتنائها.

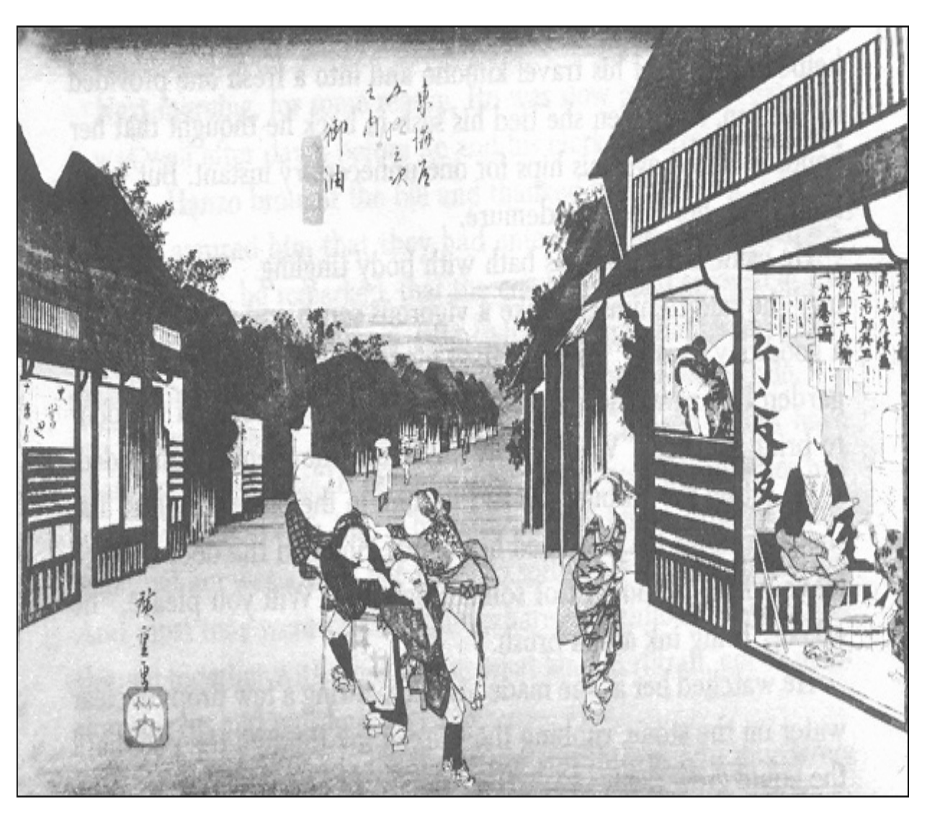
كما تفقن أصحاب الفنادق والمطاعم الموجودة بها في تنويع خدماتهم، وهو ما جعل السفر متعة في حد ذاته. وعلى الصعيد الثقافي، ازدهر صنف من الكتابة خاص بالإرشاد السياحي؛ إذ تعددت المطبوعات التي ترشد المسافر (السائح) إلى أهم المواقع الطبيعية والمعالم التاريخية، وكذا الخرائط التي تبين أمكنة وجودها. كما أقبلت دور النشر على طبع مذكرات السفر وكتب الرحلات الداخلية.

ونختم هذا الفصل بهذه الفقرة من مسرحية ألّفها المسرحي الشهير **تشيكاماتسو مونزيمون** (Chikamatsu Monzaemon) (١٦٥٣ ـ ١٧٢٥)، وقد وردت على لسان فتاة تقف أمام فندق في إحدى المحطات، وهي تنادي على الزبائن. تقول الفتاة:

إن كنت ترغب في التوقف، فهنا المكان. توقف، توقف هنا. الغرف رخيصة. عندنا الأجنحة الرفيعة والبيوت المتواضعة. عندنا كل ما تتطلع إليه، كل ما ترغب فيه. الأواني نظيفة، حصائر[*] البيوت غيرت هذا الصيف، شراب الساكي جيد، الشاي من النوع الممتاز. توقف هنا ولن تؤدي سوى ثمن حطب التدفئة. الحمام له مرجل خاص؛ الماء الساخن متوافر بكثرة؛ أغطس قليلاً في مغطس واختبر بنفسك... إن كنت تريد المتعة في الفراش، فعندنا ما تريد. عندنا البنت الخجول، والمرأة المجربة. ستدعك رجليك وتدلك ظهرك، ستقدم لك غليوناً مشتعلاً. سترسل الدفء إلى كل جسدك، ستبعث القشعريرة فيك حتى النخاع[٧٥].

(*) القصد هو الحصائر السميكة المعروفة بـ تاتامي التي تغطى بها أرضية البيوت في اليابان.

(٧٥) هذا النص مأخوذ من مسرحية كُتبت عام ١٧٠٨ تحت عنوان «تامبا يوساكو» (Tamba Yosaku). وقد ورد مترجماً إلى الإنكليزية في المؤلف الذي جمعه الباحث دونالد كين، المختص بالأدب الياباني: Donald Keen, trans., *Four Major Plays of Chikamatsu* (New York: Columbia University Press, 1961), pp. 103-104.



مضيفة تقنع مسافراً بالدخول إلى الفندق الذي تعمل به في إحدى المحطات الطرقية. وتحمل الصورة في وسطها اسم الرسام ودار الطبع. (رسم الفنان أوتاغاوا هيروشيغي)

الفصل العاشر

التعليم والدراسات الغربية

أدرك رواد حركة الميجي ومفكروها أهمية التعليم والمعرفة ومكانتهما في الحضارة الغربية وكونهما الأساس الذي بُني عليه تفوق الغرب، وليست القوة العسكرية كما توهم البعض في جهات أخرى. فقبيل الإصلاحات، كتب **ساكوما شوزان** (Sakuma Shōzan) (١٨١١ ـ ١٨٦٤) و**يوشيدا شوين** (Yoshida Shōin) (١٨٣٠ ـ ١٨٥٩) و**فوكوزاوا يوكيتشي**، وغيرهم من مفكري الإصلاح، داعين إلى الأخذ بمناهج الغرب التعليمية التي اعتبروها السبيل إلى اللحاق بالغرب[١]. وبعد نجاح الحركة في إطاحة نظام الباكوفو، احتل التعليم الأولوية ضمن الإصلاحات التي أقدم عليها زعماؤها. فقبل انتقال الإمبراطور **ميجي** إلى طوكيو، جرت تلاوة القسم الإمبراطوري بين يديه (٦ أبريل/نيسان ١٨٦٨). وهو قسم اشتمل على خمسة مبادئ تحدد السياسة العامة للعهد الجديد التي تعهد الإمبراطور أمام أجداده للقيام بها. وقد نص المبدأ الخامس على طلب المعرفة:

سيجري السعي إلى المعرفة في كل أرجاء العالم من أجل وضع أسس الإمبراطورية[٢].

---

(١) يُعتبر فوكوزاوا يوكيتشي (١٨٣٥ ـ ١٩٠١) رائد إصلاح التعليم في اليابان؛ فبعد سفره ضمن بعثة تعليمية إلى الولايات المتحدة (١٨٦٠)، عاد مقتنعاً بأن سبب تقدم الغربيين هو التعليم. وفي عام ١٨٦٦، أصدر مؤلَّفاً تحت عنوان **أشياء غربية** (*Western Things*) خصّ قسماً منه للتعليم في الدول الغربية. انظر: Eiichi Kiyooka, trans. and ed., *Fukuzawa Yukichi on Education: Selected Works,* introduction by Kazuyoshi Nakayama ([Tokyo]: University of Tokyo Press, 1985), pp. 3-19.

(٢) نصّ القسم الإمبراطوري مترجم إلى اللغة الإنكليزية، انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan through Contemporary Sources*, 3 vols. (Tokyo: The Centre, [1969-1972]), vol. 2, pp. 72-73. =

وفي وقت مبكر جداً من بداية إصلاحات الميجي، أصدر مجلس الدولة (داجوكان Dajokan) إعلاناً (٥ أيلول/سبتمبر ١٨٧٢) يدعو إلى بناء المدارس وتعميم التعليم الابتدائي وإجبارية تعلم الأولاد والبنات دون تمييز[٣]. وبالفعل حققت اليابان قفزة نوعية في تعميم التعليم، حيث أضحت بعد مرور فترة قصيرة على الإصلاحات من الدول الرائدة في هذا المجال[٤].

يُجمع دارسو إصلاحات الميجي على أن العامل الرئيسي لنجاح تلك الإصلاحات وتحقيق تقدم في المجالات التي طاولتها، هو اهتمام زعماء الحركة بالتعليم، وإنشاء الجامعات الخاصة والعمومية، واستقدام الأساتذة من الدول الغربية. هذا من جهة، ويجمع دارسو النظام التعليمي في اليابان، من جهة أخرى، على أهمية عصر **توكوغاوا** ودوره في وضع الأسس والبنية التحتية التي استغلتها النهضة التعليمية في عصر الميجي وما بعده[٥].

هذا الإجماع على أهمية عصر **توكوغاوا** له ما يبرره، ذلك أن التعليم في هذا العصر عرف نقلة نوعية وتطورات مهمة لم يشهد لها مثيل في تاريخ اليابان، إلى حين قيام إصلاحات الميجي، وذلك على الرغم من بقائه تعليماً نخبوياً موجهاً في المقام الأول إلى فئة الساموراي الحاكمة ولتكريس الفوارق الاجتماعية القائمة. وقد تمثّلت هذه التطورات: **أولاً**، في الرعاية التي أولتها سلطات الباكوهان، سواء

= يُعتبر هذا القسم من النصوص التي اختلف في شأن تفسيرها وتأويلها. وعلى أيٍّ حال، فإن النص الإنكليزي «الرسمي» واضح في ما يخص المبدأ الخامس: «Intellect and Learning shall be sought for throughout the world, in order to establish the foundations of the Empire».

(٣) انظر نص الإعلان في: المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٧، وقد ورد في ديباجة هذا الإعلان: «إن كل فرد من الأفراد لن يستطيع أن يشق طريقه في الحياة، أو يستثمر ثروته، أو ينمي تجارته ومواهبه ومعرفته، دون أن ينال قسطاً من التعليم». انظر: رؤوف عباس، **المجتمع الياباني في عصر الميجي** (القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٠)، ص ٥٥. وممّا يدل على الأهمية التي أولاها زعماء الإصلاح للتعليم، الطلب الذي تقدم به موري أرينوري (Mori Arinori) (١٨٤٧ ـ ١٨٨٩)، أول مبعوث دبلوماسي إلى الولايات المتحدة، إلى جماعة من المسؤولين الأمريكيين: «أود أن أعرف منكم آثار التعليم في الرخاء المادي للبلاد ومصالحها التجارية والفلاحية والصناعية، وآثاره في الظروف الاجتماعية والأخلاقية والصحية للشعب، وتأثيره في قوانين الحكومة». انظر: Herbert Passin, *Society and Education in Japan* (Tokyo: Kodansha International, 1982), p. 3.

(٤) من الدراسات المقارنة حول التحديث في اليابان وبلاد أخرى، دراسة مقارنة بين روسيا واليابان، ويبدو من هذه المقارنة أن تمتّعت بامتياز لم يكن لروسيا. انظر: Cyril E. Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia: A Comparative Study* (New York: Free Press, 1975), pp. 101-112.

(٥) R. Rubinger, «Education: From One Room to One System,» in: *Japan in Transition, from Tokugawa to Meiji*, edited by Marius B. Jansen and Gilbert Rozman (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), pp. 195-202.

على الصعيد المركزي (الشجونة) أو على الصعيد المحلي (الهانات)، لتعليم أبناء الساموراي، وحرصها على إقامة مدارس لهم ورعايتها بالتمويل وغيره. و**ثانياً**، في ظهور نظام تعليمي مواز خاص بأبناء التجار والصنّاع والفلاحين. و**ثالثاً**، في التطور النوعي والكمي للمناهج التعليمية، وتعدد توجهاتها مسايرة للحاجيات والمستجدات. وقد نجم عن هذه التطورات في نهاية المطاف ـ في أواخر عصر **إيدو** ـ انتشار واسع للمعرفة بالقراءة والكتابة بين الساموراي، وانتشار متوسط، لكن لا يستهان به، بين الفئات الأخرى أو عامة الناس. وهو ما أظهرته الإحصاءات التي أُجريت في بداية عصر الميجي، وكذا مختلف تقديرات الباحثين الذين اهتموا بالموضوع. فقد قدّر الباحث **رونالد دور**، وهو أكثر المختصين اهتماماً بهذا الشأن[٦]، النسبة العامة للعارفين بالقراءة والكتابة عشية إصلاحات الميجي (١٨٦٨) بـ ٤٠ بالمئة بين الذكور و١٠ بالمئة بين الإناث. في حين يرى الباحث الأنثربولوجي الياباني **أوميساوو تاداوو** أن هذه النسبة بلغت في المدن الكبرى (**إيدو** و**أوساكا وكيوطو**) في الفترة ذاتها حوالى ٥٠ بالمئة، وهي نسبة، في نظره، لم تعرفها جُل المدن الأوروبية إلا في فترة لاحقة[٧]. ففي إنكلترا مثلاً، توصلت لجنة بريطانية (British Select Committee) في عام ١٨٣٧ إلى أن طفلاً واحداً من بين أربعة أو خمسة أطفال يلج المدرسة في المدن الصناعية البريطانية[٨]. وغني عن القول إن بعض الدول النامية لم تبلغ هذه النسبة في مشارف القرن الحادي والعشرين.

لاشك أن ارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة عامل رئيسي في التنمية، كان له كبير الأثر في الإسراع بالإصلاحات التي أقدمت عليها اليابان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غير أن التطورات التي حصلت في نظام التعليم خلال عصر **توكوغاوا** اتسمت بظاهرتين لا تقلان أهمية عن نسبة العارفين بالقراءة،

---

(٦) Ronald Philip Dore, *Education in Tokugawa Japan* (Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1992).

تعدّ دراسة رونالد دور أهم دراسة جرى إنجازها بشأن التعليم في عصر توكوغاوا. وتكمن أهميتها في اعتماد صاحبها على المصادر والوثائق اليابانية، وكذا على ما كتبه اليابانيون في الموضوع. ورغم مرور أكثر من ثلاثة عقود على صدور هذه الدراسة، فهي ما تزال المرجع الأكثر وثوقاً واستعمالاً لدى الباحثين. وقد استفدنا الكثير من هذه الدراسة كما سيتضح ذلك في الهوامش التالية.

(٧) Umesao Tadao, *The Roots of Modern Japan* (Tokyo: The Japan Forum, 1990), pp. 9-10.

(٨) Dore, Ibid., p. 291, and Brian Simon, *The Two Nations and the Educational Structure, 1780-1870* (London: Lawrence and Wishart, 1981), p. 170.

وهما فصل التعليم عن المؤسسات الدينية، والأخذ بمبدأ الاستحقاق. ذلك أن التعليم في اليابان حقق في هذه الفترة خطوة نحو علمنة التعليم وتحريره من هيمنة الدين؛ وهي الظاهرة التي اعتُبرت نقلة نوعية في التعليم الغربي، انطلقت تدريجياً في أوروبا في الفترة ذاتها تقريباً، ولم تتحقق بالكامل إلا في الفترات اللاحقة. كما شرعت إدارة الباكوفو في فترتها الأخيرة في الأخذ بمبدأ الاستحقاق ـ أو المهارة الفردية والتميز في الدراسة ـ ومنحه الاعتبار في التعيينات الخاصة بجهازها الإداري عوض الاعتماد فقط على الامتيازات التي يمنحها الأصل ووضع الفرد في التراتب الاجتماعي. ويضيف الباحث **جان بيير ليهمان** في هذا الشأن، «إن كانت اليابان أكثر بلدان العالم اليوم عملاً بمبدأ الاستحقاق في تعليمه، فذلك يرجع إلى ما قطعته من خطوات في هذا الباب في عصر **توكوغاوا**»[(٩)].

تتسم العوامل والأسباب التي ساهمت في هذا التطور ودعمه بالتداخل والتفاعل في ما بينها. ولعل العامل **الأول** والأساسي هو الأمن والاستقرار اللذان استطاعت شجونة **توكوغاوا** تحقيقهما والحفاظ عليهما ما ينيف على قرنين ونصف قرن من الزمن. وهو عامل ما كان ليتحقق بالاعتماد على القوة العسكرية وحدها، لولا دعمه بأيديولوجيا ترسخ هيمنة الساموراي وتسوغ النظام الاجتماعي القائم. وقد وجدت سلطات **توكوغاوا** في مبادئ الكونفوشيوسية الفلسفة الملائمة للقيام بهذا الدعم، ومن ثم كان ضرورياً تكريسها بطرق مختلفة، من بينها تعليم تشرف عليه وتحدد برامجه. فالملاحظ أن المصادر الأساسية للكونفوشيوسية ومراجعها شكّلت، كما سنبيّن ذلك، العمود الفقري للمنهاج الدراسي الذي كان على الطلاب الساموراي دراسته في مراحلهم الأولى من التعليم.

والعامل **الثاني**، هو النمو الاقتصادي عموماً والتمدن بشكل خاص ـ أو توسع المدن ونمو عدد سكانها ـ المتمثّل في مدينة **إيدو** ثم في المدن القلاع التي أسسها الدايميو كعواصم لهم، على غرار **إيدو**؛ إذ أصبحت المدن المحدثة والقديمة مراكز لتجمعات الساموراي بعد أن أرغمتهم سلطات الباكوهان على الاستقرار فيها وترك البوادي. وقد سهل ذلك ولوج أبناء الساموراي إلى المدارس التي أُقيمت لهم في كل عاصمة من عواصم الدايميو. ذاك أن

---

(٩) Jean Pierre Lehmann, *The Roots of Modern Japan* (New York: St. Martin Press, 1982), pp. 115-116.

الاستقرار في المدن وانعدام الحروب، جعلا من الساموراي سكاناً حضريين يميلون إلى الحياة الحضرية، ويُقبلون على التعليم كوسيلة للرفع من المكانة الاجتماعية والإدارية عوضاً عن المهارات الحربية والبسالة في المعارك. كما كانت المدن مقراً للتجار والصنّاع الذين شكّلوا نواة لطبقة برجوازية ناشئة (التشونين)، لها ثقافتها وتطلعاتها، وتتمتع بدخل يفوق أحياناً دخل الساموراي. فهذه الطبقة أقبلت على التعليم الذي أُتيح لها عبر الانتشار السريع لمدارس الـ **تيراكويا**. ويضاف إلى هذين العاملين عامل **ثالث**، وهو ازدهار دور النشر وتوافر الكتب في شتى الموضوعات، الجدية منها وغير الجدية، وكان في البداية نتيجة توسع المعرفة بالقراءة والكتابة، ثم أمسى عاملاً مساعداً لانتشارها. فهذا الازدهار كان مواكباً بالضرورة لوجود جمهور من القراء، غير أنه بات في الوقت نفسه حافزاً على التعلم، خاصة في المدن. ولإدراك هذا التطور الذي حصل في عصر **إيدو**، نرى من المفيد إعطاء لمحة عن تاريخ التعليم في اليابان قبل هذا العصر.

أولاً: لمحة عن تاريخ التعليم قبل عصر إيدو

لم تبدأ عملية التعلم والتعليم ـ إن أُخذت بالمعنى المنحصر في المعرفة بالقراءة والكتابة ـ في اليابان إلا في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي، مع الانفتاح على الثقافة الصينية الذي ساوقه دخول الديانة البوذية وتبنّي نظام الكتابة الصيني. فقبل هذا الانفتاح، كان المجتمع الياباني مجتمعاً شفوياً تنتقل تقاليده ومعارفه ومهاراته من جيل إلى جيل، عبر التقليد ورواية الأساطير والقصص الشعبية والخرافات المتداولة شفوياً. وقد ارتبطت عملية التعليم بعد الانفتاح بالديانة البوذية التي كانت، في أثناء انتقالها من كوريا إلى اليابان في صيغتها الصينية، تتوافر على رصيد هائل من الأدبيات المترجمة إلى اللغة الصينية أو المكتوبة أصلاً بها، والتي لم يكن من سبيل للوصول إليها إلا عبر تعلم هذه اللغة ونظام كتابتها. ففي هذا الإطار، قام الرهبان البوذيون بدور رائد في نشر المعرفة بالقراءة والكتابة وانتقال المجتمع الياباني من الطور الشفوي إلى طور الكتابة والتدوين؛ إذ كانت عملية نشر البوذية وبناء المعابد في العاصمة **نارا** أولاً، ثم في مختلف أرجاء اليابان ثانياً، مصحوبة بإقامة مراكز للتعليم ملحقة بالمعابد(١٠).

---

(١٠) في ما يخص الدور الذي قام به الرهبان البوذيون في نشر المعرفة بالقراءة والكتابة، وكذا تاريخ التعليم في اليابان عموماً، انظر: Karasawa Tomitaro, «Education before 1600,» in: *Kodansha* =

ومع ذلك، ظل التعليم طوال العصور القديمة (اليابانية) منحصراً في فئة محدودة جداً تتمثل أساساً في رجال الدين وفئة النبلاء (كوغي).

أقبلت فئة النبلاء (كوغي) في عصر **نارا** (٧١٠ ـ ٧٩٤)، وبشكل لافت، في عصر **هييان** (٧٩٤ ـ ١١٨٥)، على تعليم أبنائها، أخذاً بنموذج مثيلتها في الصين؛ فإضافة إلى المراكز التعليمية التابعة للمعابد، أُنشئت في العاصمة **كيوطو** وفي الأقاليم معاهد خاصة بتعليم أبناء هذه الفئة، بهدف إعدادها لتولي مناصب إدارية في الدولة، وذلك من خلال تلقينها مبادئ الكونفوشيوسية التي كانت أساس القوانين والتشريعات التي أخذها اليابانيون عن الصين[١١]، مع الإشارة إلى أن التعليم النظامي وغير النظامي اهتم، إضافة إلى المعارف البوذية الكونفوشيوسية، بالآداب والفنون الصينية، خاصة الشعر والموسيقى اللذين حظيا بإقبال كبير لدى النبلاء؛ إذ شهد عصر **هييان**، على وجه الخصوص، نهضة أدبية وثقافية ساهمت فيها بشكل كبير أرستقراطية **كيوطو**، بمن فيهم النسوة اللواتي استفدن من عملية التعليم غير النظامية. وكان من أسباب توسع المعرفة بالقراءة والكتابة، خاصة بين النساء، ابتكار أسلوب مبسط لكتابة اللغة اليابانية (الـ كانا)[١٢]، الأمر الذي سهل عملية التعلم، وحرر الكتابة نسبياً من النظام الصيني المعقد. كما لم يُستثن أبناء العامة من التعليم بشكل قاطع، فقد أنشأ الراهب البوذي **كوكاي** (٧٧٤ ـ ٨٣٥)[١٣]، على سبيل المثال، مدرسة في

Encyclopedia of Japan, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 2, p. 172, and *Japan: Profile of* = *a Nation* (Tokyo; New York: Kodansha Internationa, 1995), pp. 166-167.

ومن المعابد الأولى التي كان لها دور في هذا الشأن معبد هوريوجي (Horyuji)، الذي أقامه الأمير شوطوكو (Shotoku) (٥٧٤ ـ ٦٢٢) في نارا عام ٦٠٧. وكان هذا الأمير أول من دعا من الأُسرة الإمبراطورية إلى نشر البوذية في اليابان.

(١١) يتعلق الأمر هنا بداي غاكوريو (Daigakuryo)، وهي عبارة عن مؤسسة تعليمية عليا شبيهة بالجامعة، كانت مخصصة لأبناء النبلاء، حيث تعمل على تلقينهم المبادئ الكونفوشيوسية المتعلقة بشؤون الحكم وتهيئتهم لتولي شؤون الدولة. وقد أُنشئت هذه المؤسسة في العاصمة كيوطو في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي في عهد الإمبراطور تينجي (Tenji) (٦٦١ ـ ٦٧٢). كما أُنشئت مدارس مماثلة، لكن بمستوى أقل، في الأقاليم كانت تحمل عموماً اسم: كوكو غاكو (Kokugaku). انظر: «Daigakuryo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, pp. 56-57.

(١٢) انظر التنبيه المتصدر لهذا البحث الذي شرحنا فيه كيفية كتابة اللغة اليابانية. وللتذكير، فإن رموز الـ «كانا» عبارة عن مقاطع صوتية: حرف أو حرفان زائداً حركة. وهي التي ابتكرها اليابانيون لكتابة المفردات اليابانية التي لا يوجد لها أصل في الرموز الصينية، وهي تشبه من حيث المبدأ الحروف الأبجدية، أي أنها رموز تؤدي وظيفة صوتية.

(١٣) سبق التعريف بهذا الراهب في الفصل الثالث من القسم الأول من هذا الكتاب.

كيوطو لتعليم هؤلاء الأطفال المبادئ الأولية للبوذية، وذلك على غرار ما كان معمولاً به في بعض المدارس في الصين. غير أن هذا الصنف من التعليم لم ينتشر إلى المدن اليابانية الأخرى، وانتهى بموت الراهب صاحب المبادرة.

انضمت فئة المحاربين إلى دائرة المهتمين بنشر المعرفة بين أوساطها بعد انتقال السلطة إلى الساموراي في مطلع العصور الوسطى اليابانية (١١٨٥ ـ ١٦٠٠)؛ إذ اهتم الساموراي بتعليم أبنائهم ضماناً لاستمرار هيمنتهم، وعملاً على تكوين الأطر اللازمة للقيام بأعباء الباكوفو الإدارية. واستغلوا لهذا الغرض المدارس، أو البنية التحتية المشار إليها، التي أُعدت لتعليم أبناء النبلاء في العاصمة والأقاليم. كما نشطت في هذه الفترة الطوائف البوذية وطوائف الزن في نشر التعليم بين عامة الناس، وعدم حصره في فئة الساموراي المهيمنة. وعلى أي حال، ففي أثناء الحرب الأهلية (عهد الدويلات المتحاربة ١٤٧٧ ـ ١٥٦٨)، انحط التعليم في المدارس المقامة في الأقاليم، وانقطع التدريس في الكثير منها. وعموماً، يمكن القول إن التعليم في اليابان ظل إلى حدود منتصف القرن السادس عشر، تعليماً نخبوياً تستفيد منه في الأساس الفئات المهيمنة ـ الكوغي في عهدي **نارا** و**هييان**، والساموراي في عهدي **كاماكورا** و**موروماتشي** ـ وأنه، أي التعليم، استُغل لتكريس النظام الفئوي؛ وبعبارة أخرى انعكست فيه الصورة التي كان عليها المجتمع الياباني.

١ ـ التعليم في عصر توكوغاوا

لم يكن نظام التعليم في عصر إيدو موحداً، ولم تكن مناهجه الدراسية تتبع نمطاً واحداً. فبداية، يمكن التمييز بين نظامين للتعليم: نظام خاص بأبناء الساموراي، وآخر خاص بأبناء العامة. وفي كلٍّ من النظامين، كانت هناك اختلافات. فبالنسبة إلى تعليم الساموراي، كانت هناك معاهد ومدارس رسمية يشرف عليه الشجون والدايميو، ومدارس خاصة يمتلكها معلمو الكونفوشيوسية ـ على مختلف مذاهبهم ـ وهؤلاء فضّلوا إنشاء مدارس يدرسون فيها معتقداتهم وتفسيراتهم الخاصة للكونفوشوسية.

أ ـ تعليم الساموراي

تدهور تعليم أبناء الساموراي خلال عهد «الدويلات المتحاربة»، نتيجة الحرب الأهلية والانشغال الدائم بالصراع الذي ساد زهاء مئة سنة، حيث لم تعد

هناك سوى نسبة قليلة من الساموراي تتمتع بمعرفة جيدة، أما معظم الساموراي، فكانت معرفتهم تنحصر في معرفة أوليات القراءة والكتابة. وقد أشرنا إلى أن معظم مدارس الأقاليم انقطعت عن التدريس في هذه الفترة، بينما كان الدايميو والمحاربون في مختلف أرجاء البلاد يعتمدون على رهبان الزن في تحرير عقودهم ووثائقهم، وتقديم المشورة في الأمور السياسية، اعتباراً لما لهؤلاء من معرفة بالثقافتين الصينية واليابانية، وإلمام بالكتابات ذات الصلة بتسيير أمور الدولة[١٤]. ومن المستحدثات التي طرأت في نهاية هذه الفترة، تلك المدارس التي أقامتها إرساليات التبشير في النصف الثاني من القرن السادس عشر لأبناء المتنصرين من الساموراي وغيرهم في المناطق التي تكاثروا فيها ـ في موانئ **كيوشو** خاصة. وقد كانت في الأساس مدارس ابتدائية تعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين المسيحي والأناشيد الدينية، غير أنها اندثرت بطرد المبشرين وفرض سياسة العزلة[١٥].

وصلت أُسرة **توكوغاوا** إلى السلطة بقوة السلاح، وبعد سلسلة المعارك التي خاضها **توكوغاوا إياسو** ومن سبقوه في سبيل إخضاع الدايميو وتحقيق سلطة عسكرية مركزية. غير أن **إياسو** أدرك منذ بداية حكمه، أن الاستقرار الذي حققه لن يستمر إلا بتهذيب الدايميو وأتباعهم من الساموراي، وتثقيفهم بعد أن أبعدتهم سنوات الحرب عن مجال المعرفة.

وواقع الأمر أن **إياسو** لم يأت بجديد، فمنذ استيلاء الساموراي على السلطة في نهاية القرن الثاني عشر، كانت المعرفة حاضرة في تكوين المحاربين. فهناك ما يُصطلح عليه بـ **بو**[١٦]، وهو ما يعني إجمالاً الحرب والمهارات العسكرية، وتدبير المعارك من جهة، وهناك **بون**[١٧]، وهو ما يقصد به التعليم والثقافة والمعرفة عموماً، من جهة ثانية. وقد شكل **بو** و**بون** شقين في ثقافة الساموراي يكمل

---

(١٤) انظر: Donald G. Shively, «Popular Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, p. 715.

(١٥) تجدر الإشارة في هذا الشأن إلى أن المبشر مويس ألميدا (Luis De Almeida) (١٥٢٥ ـ ١٥٨٣) أنشأ مئتي مركز ومدرسة للتعليم. انظر: Karasawa Tomitar?, «Education before 1600,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 2, p. 172.

(١٦) بو (Bu) هو الجذع الذي اشتُق منه مصطلح «بوشيدو»، أو طريق المحاربين أو أخلاق المحاربين.

(١٧) بون (Bun) هو الجذع الذي اشتُق منه مصطلح «بونكا» (Bunka)، الذي يراد به الثقافة في اللغة اليابانية اليوم.

أحدهما الآخر ويدعمه. وكما تغنى بذلك أحد شعراء القرن الرابع عشر، «من لم يعرف طريق **بون** لا يمكنه أن يحقق الانتصار في طريق **بو**»[(١٨)]. أو بعبارة أخرى، إن المعرفة ضرورية للساموراي، وفي غيابها يتعذر عليهم تحقيق النصر في المجال العسكري. لكن ظروف الحرب الأهلية، المشار إليها، جعلت الساموراي يهملون **بون** (أو التعليم والمعرفة) لفترة دامت قرابة قرن من الزمن، ويكرسون وقتهم للأعمال الحربية. وبعد أن تحقق الاستقرار، أراد **إياسو** إحياء هذا الجانب من ثقافة الساموراي، فهيأ له الأرضية القانونية التي تضفي عليه الطابع المؤسساتي.

أشرنا في مناسبات مختلفة إلى أن **توكوغاوا إياسو** أصدر جملة من المراسيم بغاية تنظيم الدولة وضبط العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع الياباني، ومن بينها مرسوم خص به الساموراي يُعرف بـ **بوكي شوهاتو (١٦١٥)**، الذي أشرف على إعداده كلٌّ من **إيشين سودين**، وهو راهب من طائفة الزن ساهم في تطوير مؤسسات الباكوفو في عصر **توكوغاوا**، و**هياشي رزان**، الذي كان أحد كبار معلمي الكونفوشيوسية الجديدة في القرن السابع عشر، كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق. وقد تعرض المرسوم، المطبوع بالتعاليم الكونفوشيوسية، لكل ما يتعلق بوضع الساموراي وسلوكهم وطريقة عيشهم. وما يهمنا من هذا المرسوم هو البند الأول الذي نص على ما يلي:

يجب الكد والاجتهاد في تعلم «**بون**» [المعرفة] وممارسة «**بو**» [الفنون الحربية]، بما فيها استعمال القوس وركوب الخيل. فالمعرفة (بون) في اليد اليسرى والسلاح في اليد اليمنى يمثلان معاً الطريق الذي سار عليه القدامى. ومن ثم يجب الأخذ بهما جنباً إلى جنب وبتضافر بينهما. إن استعمال القوس وركوب الخيل من المهارات الأساسية للجنود. وقد قيل إن الحرب لعنة. وعلى أي حال، فإنها متروكة إلى الحين الذي لا مناص منه. ففي وقت السلم، لا تنسوا إمكانية قيام الاضطرابات. قوموا بتدريب أنفسكم وكونوا على استعداد[(١٩)].

---

(١٨) صاحب هذا القول هو إيما غاوا ريوشون (Imagawa Ryoshun) (١٣٢٦ ـ ؟)، وهو من المحاربين الساموراي ومن الشعراء المشهورين في القرن الرابع عشر الميلادي. وقد ظلت أشعاره تُقرأ في الفترة التي تعنينا، حيث يُعَد عموماً من كبار شعراء اليابان. انظر ترجمته في: «Imagawa Sadayo,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 272.

أمّا عن القول الوارد في النص، فهو مأخوذ عن: Dore, *Education in Tokugawa Japan*, p. 16.

(١٩) David J. Lu, *Japan: A Documentary History*, 2 vols. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997), vol. 1, p. 206.

يبدو جلياً من هذا البند المكانة التي احتلتها المعرفة في تفكير واضعي المرسوم، والاعتبار الذي يجب أن تأخذه في تعليم الساموراي، وأيضاً تأكيد السعي في طلبها. وبديهي أن وضع المراسيم وإصدار الأوامر الرسمية لن يؤديا بالضرورة إلى إحداث تغيير في سلوك الناس أو حملهم على نهج معين. لكن ما يبدو من الإجراءات العملية التي واكبت المرسوم، هو إصرار شجونة **توكوغاوا** على الحفاظ على مكتسباتها وتثبيتها بكل الوسائل المتاحة لديها. فالملاحظ أن **إياسو** وغيره من الشجون الأوائل لم يهدفوا إلى نشر المعرفة بين الساموراي حباً بالمعرفة وتقديراً لها، أو من أجل التكوين للعمل في الإدارة فحسب، بل كانوا يهدفون أيضاً إلى إشاعة ثقافة معيّنة بين الساموراي ترسخ فيهم قيم الطاعة والولاء للحاكم، وتدعم في الوقت نفسه المؤسسة العسكرية القائمة؛ إذ كانوا يرون أن هناك ترابطاً قوياً بين الأخلاق والحفاظ على الأمن والسلم. فنظام الحكم الذي أقامه **إياسو** لن يستمر، في نظره ونظر من تبعوه، إلا بقيم الولاء والطاعة والإحساس بالواجبات الأخلاقية. وعلى هذا الأساس جاء التشديد على الكونفوشيوسية الجديدة التي كانت منتشرة آنذاك بين معلمي هذه الفلسفة، وفي مقدمتهم **هياشي رزان** الذي عمل مستشاراً لدى الشجون الثلاثة الأوائل.

(١) الأهداف

لعل السؤال الأول الذي قد يُطرح عند الحديث عن أي تعليم، يتعلق أساساً بالغايات والأهداف التي يسعى ذلك التعليم إلى تحقيقها. وفي هذا الصدد، ركز جُل المنظّرين الأوائل للتعليم في عصر توكوغاوا، الذين كانوا في معظمهم من معلّمي الكونفوشيوسية، في المقام الأول على الجانب الأخلاقي في تكوين الساموراي؛ ففي رأي واحد منهم، وهو إيتو جينساي[٢٠]، فإن التعليم «ليس فقط صقل العقل ولكن صقل الإرادة أيضاً، أو بعبارة أخرى أن يكون المرء طيباً وذا سلوك قويم أفضل من أن يكون عالماً. وأن التعليم والتربية لن يتم تحقيقهما إلا عبر دراسة «طريق القدامى»، خاصة طريق كونفوشيوس»[٢١]. والمقصود هنا بالطريق هو ما تعلّمه مصادر الكونفوشيوسية الأساسية من قبيل محبة الخير والرعاية من جانب الأب والزوج والأخ الأكبر والحاكم، والولاء والطاعة من

(٢٠) إيتو جينساي (Ito Jinsai) (١٦٢٧ ـ ١٧٠٥) من معلّمي الكونفوشيوسية ودعاتها في القرن السابع عشر. وقد اشتهر بدعوته إلى المصادر الأصلية لهذه الفلسفة، وأسس مدرسة خاصة في كيوطو.

(٢١) Dore, Ibid., p. 38.

جانب الابن والزوجة والأخ الأصغر والرعية. وهو ما يمكن ترجمته سياسياً بأن «الطريق» يجعل الحكام يحكمون بصورة أفضل أو بطريقة مثلى، ويجعل إدارة المحكومين أكثر يسراً. وعن علاقة التعليم بالحكم يقول دازاي شونداي Dazai) (Shundai (١٦٨٠ ـ ١٧٤٧): «الأمر الأول الضروري لحكم الدولة هو مهارة الإنسان. ومهارة الإنسان تأتي من الدراسة»[٢٢]. وبناء على ذلك، وضِع تصور لتعليم الساموراي يجمع بين المعرفة بالمبادئ الكونفوشيوسية والمهارات الحربية والمعارف الأخرى التي تفيدهم في تحمّل الأعباء الإدارية والعسكرية.

كان من نتائج التشديد على الجانب الأخلاقي، انتشار واسع للفلسفة الكونفوشيوسية، وترسيخ مبادئها التي أضحى التعليم الأداة الأولى لنقلها. فالمدارس التي أُنشئت في العاصمة وفي مختلف الأقاليم أسسها في البداية فلاسفة أو معلمون من دعاة الفلسفة الكونفوشيوسية، أمثال **هياشي رزان** و**إيتو جينساي** المشار إليهما. كما كان جُل الدايميو، قبل الانتشار الواسع للمدارس في القرن الثامن عشر، يحرصون على وجود معلم أو دارس للكونفوشيوسية (يُعرف بـ «جوشا Jusha») بين ظهرانيهم، يعمل مستشاراً لديهم ومعلّماً لأبنائهم وأبناء كبار الساموراي. وبعد إنشاء المدارس، شكّل المعلمون «جوشا» أهم العاملين فيها، وشكلت المصادر الكونفوشيوسية أهم الكتب المقروءة بها[٢٣]. ونرى ضرورياً فتح قوس للقول بأن التشديد على الأخلاق المستمدة من الفلسفة الكونفوشيوسية شكّل خطوة نحو فصل التعليم عن هيمنة المؤسسات الدينية ـ البوذية على وجه الخصوص. فالكونفوشيوسية، حتى وإن اتخذت بُعداً دينياً في الصين، واعتبرها الباحثون اليوم كذلك، فإنها ظلت في اليابان فلسفة أخلاقية وفلسفة في الحكم لا غير.

وعلى أي حال، لم يدعُ **كونفوشيوس** ـ سواء في أثناء حياته أو في الأقوال المنسوبة إليه ـ إلى عبادة بالمعنى المتعارف عليها، كما أن الأخلاق المنسوبة إليه لم تكن مصحوبة بوعيد ينذر بعقاب غيبي أو بترغيب يعد بجزاء في هذه الدنيا أو

---

(٢٢) Herbert Passin, *Society and Education in Japan* (Tokyo: Kodansha International Ltd., 1982), pp. 185-186.

ورد هذا النص ضمن ملحق ضم عدداً من النصوص التي تخص عصر توكوغاوا.

(٢٣) في ما يخص الدور الذي كان يقوم به معلمو الكونفوشيوسية (جوشا)، انظر: John W. Hall, «The Confucian Teacher in Tokugawa Japan,» in: David S. Nivison and Arthur F. Wright, eds., *Confucianism in Action* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1959), pp. 268-301.

في الحياة الأخرى. وكل ما دعا إليه هو تحقيق حياة دنيوية مثلى للفرد والمجتمع عبر الإيمان بأخلاقها والاقتناع بها على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة. وكيفما كان الأمر، فقد حصل أيضاً فصل بين التعليم والمؤسسات الدينية على صعيد المجال أو مكان الدراسة؛ فالمدارس الأولى التي أُنشئت في عصر **توكوغاوا** كانت بمبادرات خاصة، ولم تتخذ المعابد والأديرة ـ البوذية، أو الشنتوية ـ مكاناً لها، بل أعدت لها مباني خاصة، ولم تتلق الدعم المالي من المؤسسات الدينية، بل من السلطات الدنيوية: الشجون في العاصمة والدايميو في الأقاليم.

تمثّل الهدف الثاني للتعليم في التكوين العسكري والمهارات الحربية، التي مثلت الامتياز الرئيسي للساموراي عن الفئات الاجتماعية الأخرى. فـ **بو**، أو استعمال السلاح، كما أشرنا، هو الشق الثاني والرئيسي في ثقافة الساموراي. ذلك أن جُل المعاهد التي أنشأها الدايميو أولت عناية خاصة للميراث العسكري للساموراي، وخصصت حيزاً مهماً من برامجها للتكوين العملي لأبناء الساموراي بغاية إكسابهم المهارات الحربية، خوفاً على ضياعها في زمن السلم. ومع التطور الاقتصادي وتنوع الحاجات، برزت أهداف أخرى للتعليم تستجيب للحاجات المستجدة للمجتمع الياباني. وقد انعكست هذه الحاجات في الموضوعات الجديدة التي أُدرجت في مناهج التعليم؛ ففي حوالى منتصف القرن الثامن عشر، برز تيار قومي يركز على الثقافة المحلية والقومية اليابانية، ويدعو إلى إعطائهما الأولية في مجال التدريس. وهو التيار المعروف بكوكو غاكو (Kokugaku)، أو ما يمكن ترجمته بالدراسات القومية التي احتل فيها تاريخ اليابان والأُسرة الإمبراطورية وديانة الشنتو والآداب اليابانية مكان الصدارة.

فقد أُنشئت في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مدارس خاصة بهذا التيار، تعتمد برامج مختلفة عما كان سائداً في المدارس التي ترعاها المؤسسات الرسمية. وهو تيار كان حاضراً في الأحداث التي أدت إلى إصلاحات الميجي، حيث أدى دوراً لصالح الإمبراطور في مواجهته مع الشجون، بعد أن عجزت سلطات الباكوفو عن دفع أخطار التهديد الغربي. وفي الفترة ذاتها تقريباً، أي من أواخر القرن الثامن عشر إلى إصلاحات الميجي، ظهر لدى بعض المدارس والمعاهد اهتمام بالدراسات الغربية المستقاة أساساً من المصادر الهولندية. وهو ما سنعرض له على حدة في هذا الفصل. واعتباراً لكل ما ذُكر، يمكن تلخيص التوجهات العامة للتعليم في مختلف فترات عصر إيدو في أربعة محاور رئيسية: الدراسات الصينية (الكونفوشيوسية أساساً)؛ التكوين العملي العسكري والمدني؛

الدراسات القومية أو الدراسات اليابانية؛ وأخيراً الدراسات الغربية.

(٢) مدارس الساموراي

يتطلب الحديث عن المدارس والمعاهد التي أُنشئت لتعليم أبناء الساموراي في عهد **إيدو**، التذكير بأمرين سبقت الإشارة إليهما:

الأمر **الأول** هو أهمية المبادرة الخاصة في إنشاء المدارس والمعاهد في الفترة الأولى من عهد **إيدو**، ذلك أن الرعاية الرسمية للتعليم لم تأت إلا في فترة متأخرة نسبياً.

والأمر **الثاني** هو أن الانتشار الواسع للتعليم لم يتأت إلا في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، وهو ما تؤكده تواريخ إنشاء المعاهد الرسمية، حيث إن تكاثرها لم يبدأ بوتيرة متسارعة إلا في الفترة المشار إليها.

كان أبناء الساموراي في خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر، يتلقون تعليمهم الأوّلي أو المعرفة بالقراءة والكتابة في منازلهم على يد أفراد من أُسرهم أو بواسطة معلّم يُستأجر، إن كانت الأُسرة ذات دخل يسمح لها بذلك. وقد سبقت الإشارة إلى أن جُل الدايميو حرصوا على الاستعانة بمعلم للكونفوشيوسية (جوشا) يقوم بوظائف متعددة، من بينها تعليم أبنائهم المبادئ الأساسية لهذه الفلسفة. وقد كان **هياشي رزان**، في واقع الأمر، أول من قام بهذه الوظيفة بالنسبة إلى الشجون الأول، وقلدهم الدايميو في ذلك؛ إذ كان معلمو الكونفوشيوسية يقومون بعمل الاستشارة والكتابة، إضافة إلى التعليم.

لم تظهر الحاجة إلى إنشاء معاهد يتعلم فيها أبناء الساموراي تعليماً يفوق المستوى الأوّلي إلا في منتصف القرن السابع عشر تقريباً، وذلك نتيجة ظهور حاجة ملحة إلى أن يتقن الساموراي معارف تفيد الدايميو في إدارة هاناتهم، وقد ساوقها إلحاح الشجون في مراسيمهم ولقاءاتهم السنوية بالدايميو على أن العالم قد تغير، وأن الذين لا يتعلمون كيف يديرون أمورهم بحكمة واعتدال ويتصرفون في موازناتهم بدقة ويتصرفون تصرفاً شخصياً مثالياً، يكونون عرضة للزوال. هذا بالإضافة إلى حالة السلم التي دامت طويلاً ولم تترك للساموراي مناسبة للترقي من غير اكتساب المعرفة. وهذا ما شجع الشجون على إنشاء المدارس الخاصة بدعم مالي منهم، وإقبال الدايميو على إنشاء معاهد في عواصمهم، من جهة، وإقبال الساموراي على التعليم من جهة أخرى.

كانت أعداد معاهد الهانات (هان ـ غاكو Hangaku) في القرن السابع عشر قليلة، حيث لم يُقبل على تأسيسها سوى الدايميو ذوي الدخل الكبير، غير أن أعدادها تكاثرت بشكل مثير في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، كما هو مبين في الجدول الرقم (١٠ ـ ١):

الجدول الرقم (١٠ ـ ١)
تطور أعداد هان ـ غاكو

الفترة الزمنية	عدد المدارس التي أُنشئت في كل فترة
قبل عام ١٧٥٠	٤٠
١٧٥٠ ـ ١٧٨٨	٤٨
١٧٨٩ ـ ١٨٢٩	٧٨
١٨٣٠ ـ ١٨٦٧	٥٩
المجموع في آخر عصر توكوغاوا	٢٢٥

المصـــدر: Richard Rubinger, *Private Academies of Tokugawa Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1982), p. 5.

تختلف المعاهد التي أنشأها الدايميو في هاناتهم عن المدارس الخاصة، سواء من حيث البنايات وطاقم التدريس، أو من حيث مناهج التعليم والإمكانيات المادية. ذلك أن سلطات الهان كانت تخصص أرضاً لإقامة المنشآت الدراسية وملحقاتها لإقامة الطلبة والأساتذة، ومورداً مالياً لتغطية نفقاتها. كما كان الدايميو يشرفون على عملية التدريس ويعملون على استقطاب المعلمين للعمل بها. وقد تمكن الباحث **رونالد دور** من جمع مادة وثائقية مهمة حول بعض هذه المعاهد يمكن الأخذ بها كنموذج في هذا الباب، حتى وإن كان من الصعب، في رأيه، تعميم النماذج التي توصل إلى توثيقها[٢٤]. وعموماً، كانت هان ـ غاكو تتوافر على مجمع يضم أقساماً للدراسة، وغُرفاً لإقامة الطلبة والأساتذة، ومكتبة تتوافر فيها الكتب المقررة وغيرها. كما كان الدايميو يخصصون لها مبلغاً مالياً سنوياً يُنفق على إطعام الطلبة، ودفع رواتب المعلمين وموظفي المؤسسة، وشراء الكتب ونسخها، وغير ذلك من النفقات الإضافية[٢٥].

(٢٤) Dore, *Education in Tokugawa Japan*.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

كان المنهاج الدراسي في جُل هذه المعاهد يقسم ويدرس حسب مراحل الدراسة والتدرج في السن؛ فما بين سني السابعة والعاشرة، يتعلم التلاميذ الكتابة والقراءة من خلال التمرن على قراءة المصادر الكونفوشيوسية (الكتب الأربعة) (مع الإشارة إلى أن هذه المصادر كانت مكتوبة باللغة الصينية في الأصل، إلا أن اليابانيين طوروا طريقة لقراءتها ونطق محتواها باللغة اليابانية، وذلك بتغيير ترتيب الرموز وتصريف الأفعال بحسب ما تقتضيه قواعد اللغة اليابانية.) وبعد إتقان المعرفة بالقراءة والكتابة، يكون التلاميذ على استعداد لمتابعة دراستهم في مختلف فروع المعارف الصينية المتاحة، وذلك عبر متابعة دراسة اللغة الصينية التي كانت السبيل إلى قراءة الكتب المختصة في الطب والفلك والحساب، إلى غير ذلك. وابتداء من سن الرابعة عشرة، يبدأ الطلبة في تعلم المهارات العسكرية المتمثّلة في المبارزة بالسيف، والرماية، وركوب الخيل، والجيدو، وتقنيات الأسلحة النارية، وذلك في موازاة متابعة الدراسة العادية.

كان المنهاج الدراسي في هذه المعاهد يتبع التعليمات الرسمية الصادرة عن سلطات الباكوفو والمتعلقة أساساً بترسيخ المذهب الرسمي الذي تبنّته تلك السلطات. ومن ثم كان ضرورياً الاقتصار على المراجع الخاصة بمذهب **تشو ـ هسي**. وقد أشرنا في فصل سابق إلى أن **ماتسودايرا سادانوبو**، مستشار الشجون، أصدر في عام ١٧٩٠ مرسوماً يمنع المعاهد من تدريس أي من الكتب التي تخالف مذهب **تشو هسي** الذي اعتمده الشجون الأوائل بإشارة من **هياشي رزان**، وذلك إثر ملاحظته خروج البعض منها عن التوجه العام للشجونة.

اتسم النظام التعليمي في هذه المعاهد بالصرامة والشدة ومراعاة مبدأ التراتب؛ فجلوس التلاميذ في قاعة الدرس كان يراعى فيه مكانة الأُسرة التي ينتمي إليها التلميذ، وكذا الأمر بالنسبة إلى المهارات الحربية التي كان يميز فيها بين الطلبة على المبدأ ذاته. وفي أواخر عصر توكوغاوا، راحت معظم هذه المعاهد تأخذ بنظام الامتحانات.

إضافة إلى المعاهد الرسمية، كانت الفرصة متاحة أمام أبناء الساموراي، خاصة في العاصمة والمدن الكبرى، لمتابعة دراستهم في المدارس الخاصة. وتُعرف هذه المدارس بشيجوكو (Shijuku)، وهي في مجملها مدارس أسسها معلمو الكونفوشيوسية ودارسوها. وقد كان رائد هذه الحركة المعلم **فوجي ورا سيكا**، الذي كان من الدعاة الأوائل للكونفوشيوسية الجديدة في اليابان، وتتلمذ على

يديه **هياشي رزان** الذي قام بدور رئيسي في نشر أفكار المذهب وتطبيقها على أرض الواقع. فعندما عمل **هياشي** مستشاراً لدى الشجون الأوائل ونال الحظوة لديهم، طلب في عام ١٦٣٠ دعماً مالياً من الشجون الثالث توكوغاوا **إييميتسو**، لإقامة مدرسة خاصة به في العاصمة **إيدو**. وتُعتبر المؤسسة التي أنشأها وتلك التي أقامها أبناؤه وأحفاده من بعده أحسن نموذج للمدارس الخاصة ذات التوجه الكونفوشيوسي الرسمي.

ولم يكن **هياشي** وحيداً في هذا الباب، فقد تكاثرت المبادرات من معلمين آخرين نذكر منهم أحد مجايليه وهو **ماتسوناغا سيكيغو** (Matsunaga Sekigo) (١٥٩٢ ـ ١٦٥٧)، الذي تتلمذ هو أيضاً على يد **فوجي ورا سيكا**، وأسس مدرسة خاصة به عام ١٦٤٨ تخرج فيها حوالى ٥٠٠٠ طالب[٢٦]. غير أن انتشار هذه المدارس بقي محدوداً إلى غاية منتصف القرن الثامن عشر، حيث لم يتعد عددها ١٩ مدرسة، ولم تتكاثر أعدادها إلا في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث أضيفت مدارس ذات توجهات أخرى من غير التوجه الكونفوشيوسي. ففي هذه الفترة، أُنشئت مدارس تركز مناهجها على الدراسات اليابانية التي كانت انطلاقتها على يد **موتوأوري نوريناغا** (Norinaga Motoori) (١٧٣٠ ـ ١٨٠١)، الذي يعَدّ بحق رائد التوجه القومي[٢٧]. وفي الفترة ذاتها أيضاً، بدأ الاهتمام بالدراسات الغربية، وخصوصاً الطب، فأُنشئت مدارس في العقد الأخير من القرن الثامن عشر تدرّس المعارف الغربية المستقاة أساساً من المصادر والمراجع الهولندية[٢٨].

والجدول الرقم (١٠ ـ ٢) يبين التوزيع الزمني لتأسيس مدارس شيجوكو، ويوضح في الوقت نفسه الطفرة التي عرفتها أعدادها في نهاية عصر **إيدو**، مع الإشارة إلى أن هذا الجدول لا يتضمن عدداً من المدارس الصغيرة التي كانت تختص بتدريس مبادئ القراءة والكتابة:

---

(٢٦) تُعرف المدرسة التي أنشأها ماتسوناغا بـ «كوشودو» (Koshudo)، وقد ساهم في تمويلها حاكم كيوطو. انظر: المصدر نفسه، ص ١٨.

(٢٧) في ما يخص سيرة موتوأوري نوريناغا وتوجهه القومي وتياره الداعي إلى دراسة التراث الياباني وتفسيره الخاص لكتاب الـ **كوجيكي**، انظر: Peter Nosco, *Remembering Paradise: Nativism and Nostalgia in Eighteenth Century Japan* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1990), pp. 159-233.

(٢٨) ومن أشهر المعلمين ذوي التوجه الكونفوشيوسي، الذين اشتهروا بتأسيس مدارس خاصة بهم نذكر: يوشيدا شوين، وأوغيو سوراي و«هيروسو تانسو» (Hirose Tansō) (١٧٨٢ ـ ١٨٥٦).

أما في ما يخص الدراسات الهولندية، فقد خصصنا لها فقرة خاصة في هذا الفصل.

الجدول الرقم (١٠ ـ ٢)
تطور أعداد المدارس الخاصة

الفترة الزمنية	عدد مدارس شيجوكو التي أنشئت في كل فترة
قبل عام ١٧٥٠	١٩
١٧٥١ ـ ١٧٨٨	٣٨
١٧٨٩ ـ ١٨٢٩	٢٠٧
١٨٣٠ ـ ١٨٦٧	٧٩٦
المجموع في نهاية عصر إيدو	**١٠٦٠**

المصدر: المصدر نفسه، ص ٥.

ويمكن تصنيف هذه المدارس الخاصة، بحسب اختصاصاتها، على النحو التالي:

الجدول الرقم (١٠ ـ ٣)
تصنيف المدارس الخاصة بحسب الاختصاص

الاختصاص	العدد
الدراسات الصينية: الكونفوشيوسية، الشعر والآداب الصينية	٦١٢
الخط (كاليغرافي) مستوى عال: تعليم الخط، إضافة إلى الدراسات الصينية واليابانية	٤١٥
الحساب ومبادئ القراءة والكتابة	١٧٥
الدراسات الغربية: اللغة الهولندية والطب والتقنيات العسكرية	٤٧
الدراسات العسكرية: الرماية وركوب الخيل والمدفعية (في القرن التاسع عشر)	١٩
المبادئ الأولية للقراءة والكتابة	٣٠
الدراسات اليابانية	٩
تخصصات أخرى: الدراسات البوذية، الرسم..	٢٦
المجموع	**١٣٣٣**

المصدر: المصدر نفسه، ص ١٣.

وعلى الرغم من تكاثر هذه المدارس في أواخر عصر إيدو، فإنها ظلت صغيرة من حيث الحجم والإمكانات المادية والبشرية؛ فهي في مجملها بناية واحدة صغيرة، تضم ردهة تُعقد فيها حلقات الدرس، وأحياناً مجرد قاعة ملحقة بمنزل صاحب المدرسة الذي يكون المعلم الوحيد بها. أما أعداد الطلبة، فكانت

تراوح في كل فترة دراسية بين ٣٠ و٥٠ طالباً. ورغم قلة إمكانياتها تلك، فإنها قامت بدور رائد في تعليم أبناء الساموراي وغيرهم قبل قيام السلطات الرسمية بإنشاء معاهد تابعة لها.

وبالإضافة إلى هذه المؤسسات، التي اتخذت سمة المدرسة وكانت الدراسة فيها منتظمة، كان هناك عدد من المعلمين في إيدو وكيوطو وأوساكا، يعرضون دروساً خصوصية لمن يريد التخصص في بعض الفنون، كالرسم والخط والموسيقى والشعر وتصفيف الزهور والطبخ والمسرح، إلى غير ذلك. ففي عام ١٦٨٥، بلغ عدد المعلمين من هذا الصنف في العاصمة كيوطو ٢٤١ معلماً، ثم ارتفع في عام ١٧١٧ إلى ٤٤٠ معلماً[٢٩]. وما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه المدارس الخاصة لم تكن مقتصرة على أبناء الساموراي؛ إذ كان في إمكان أبناء العامة من ساكنة المدن ولوجها، بل إن بعض المعلمين كانوا يعرضون خدماتهم لهذه الفئة أساساً.

ب ـ تعليم أبناء العامة

لم تبدِ السلطات الرسمية اهتماماً كبيراً بتعليم العامة، إذ كانت انطلاقة هذا التعليم بمبادرات خاصة وأعمال تطوعية وخيرية، وليس بدعم مالي من الشجون أو الدايميو، بينما اختلفت آراء المسؤولين والكتّاب ـ الذين هم في أغلبهم من الساموراي ـ حول جدوى تعليم أبناء العامة. وعموماً، لم يكن هؤلاء يعارضون تماماً تعليم العوام، فإن كانت قلة منهم ترى أن من الأفضل أن تبقى العامة بعيدة عن المعرفة ـ بناء على أن العامة خُلقت لتكون مطيعة وليس لتكون متعلمة ـ فلا أحد من هذه القلة عبّر عن ذلك صراحة أو دافع عنه في كتاباته. فالمعلم **أوغيو سوراي**، الذي اشتهر عنه قوله «إن حكم اليابان سهل لأن شعبه لا يعرف القراءة»، لم يمانع في أن يتعلم العامة القليل من المبادئ العامة للكونفوشيوسية. أما التيار الغالب لدى مثقفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيرى أن على الحاكم الصالح رفع أخلاق الناس عموماً متى أُتيحت له الفرصة. فالأخلاق تؤكد قيام الفرد بواجباته واحترام مكانته الاجتماعية. فإذا كان العوام متخلقين، فإنهم يكونون أكثر طاعة وولاء، وأكثر كفاءة في الإنتاج. ولعل الاختلاف الذي كان بين هؤلاء هو حول طبيعة المعرفة التي يحبذ أن تكتسبها العامة: هل تنحصر فقط في المبادئ الأساسية للقراءة

---

(٢٩) Donald G. Shively, «Popular Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 723-724.

والكتابة والحساب؟ أم من المستحسن أن تشمل أيضاً مبادئ الكونفوشيوسية؟ أم تتوسع إلى المعارف الصينية الأخرى[٣٠]؟ ومن المثقفين الذين يمكن استثناؤهم في هذا الباب، **إيشيدا بايغان**[٣١] الذي اشتهر بدفاعه عن التشونين وحقهم في المساواة مع الفئات الأخرى، بما في ذلك حقهم في التعليم.

لم يترك إهمال السلطات الرسمية تعليم أبناء العامة واختلاف المثقفين حول طبيعة تعليمهم أي أثر في اندفاع سكان المدن وغيرهم نحو اكتساب معرفة تستجيب لحاجاتهم. ولتلبية هذه الحاجة، أُنشئت في المدن والقرى مدارس **تيراكويا** و**غوكو**، التي كانت بمبادرات شخصية أو بترتيب من الآباء أو رؤساء القرى. ولعل ما يثير اللبس حول مصطلح **تيراكويا**، هو أن الجذع **تيرا** يعني معبداً بوذياً، وهو ما قد يوحي أول وهلة بأن هذه المدارس كانت تحت رعاية المعابد البوذية. والواقع أنه لا علاقة لها البتة بذلك، وإنما اشتُق المصطلح بسبب ارتباط التعليم في الماضي بإنشاء المعابد البوذية في عصر **نارا**، كما سبقت الإشارة. أما المقصود بتيراكويا في عصر إيدو، فهو مؤسسات تعليمية مخصصة في الأساس لتعليم أبناء العامة ـ وإن كان البعض منها موجهاً لتعليم أبناء الساموراي، وهي تشمل مدارس تختلف من حيث البناء ومناهج الدراسة وأعداد التلاميذ. غير أن الطابع العام الغالب عليها، هو أنها كانت صغيرة وذات إمكانيات مادية محدودة؛ فهي في الغالب عبارة عن قاعة واحدة يشرف على التدريس بها معلم واحد، بينما تكون أعداد التلاميذ في حدود ٣٠ أو ٤٠ تلميذاً. فحسب المسح الذي قامت به الإدارة المكلفة بالتعليم في بداية عصر الميجي، فإن نسبة ١٠ بالمئة من مدارس تيراكويا هي التي فاقت أعداد تلامذتها ١٠٠ تلميذ، واتخذت طابع مؤسسة تعليمية ذات أقسام متعددة وطاقم للتعليم[٣٢].

ليس هناك إحصاءات مدققة حول أعداد هذه المدارس وتطورها خلال عصر **توكوغاوا**، غير أن بلوغ نسبة العارفين بالقراءة والكتابة في آخر هذا العصر ٤٠ بالمئة بين الذكور يشير إلى أن أعدادها كانت كبيرة، وأنها كانت منتشرة في جميع أرجاء اليابان. والشائع لدى الباحثين هو أن عددها فاق ١٠ آلاف مدرسة قبيل إصلاحات الميجي.

(٣٠) Dore, *Education in Tokugawa Japan*, pp. 214-215.

(٣١) سبق التعريف بهذا الكاتب في الفصل الخاص بالفئات.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

والجدول الرقم (١٠ ـ ٤)يحوي تقديراً لتطور أعداد مدارس تيراكويا وغوكو.

الجدول الرقم (١٠ ـ ٤)
تطور أعداد مدارس تيراكويا وغوكو

الفترة الزمنية	أعداد المدارس التي أُنشئت في كل فترة	
	تيراكويا	غوكو
قبل عام ١٧٥٠	٤٧	١١
١٧٥١ ـ ١٧٨٨	٤٧	١١
١٧٨٩ ـ ١٨٢٩	١٢٨٦	٤٢
١٨٣٠ ـ ١٨٦٧	٨٦٥٧	٤٨
المجموع	**١٠,٢٠٢**	**١١٨**

المصدر: المصدر نفسه، ص ٥.

كان القائمون على التدريس في هذه المدارس من خلفيات ثقافية وفئوية متباينة؛ فهم من الساموراي (رونين) ورهبان البوذية والشنتو والعوام، وذوي تخصصات ومعارف مختلفة. أما عملهم في التعليم، فكان إما عن اقتناع بنشر المعرفة بغض النظر عن الكسب المادي، وإما عن رغبة في الحصول على دخل يغطي الحاجات الضرورية أو إضافة تتمم تلبيتها، أو بسبب الإعاقة الجسدية التي تمنع عن ممارسات نشاطات أخرى. والملحوظ أنهم كانوا في أغلبهم يمارسون التعليم كعمل إضافي، حيث كانوا يتعيشون أساساً من الحِرف والمهارات التي يتقنونها. وعلى أي حال، لم يكن الكسب من التعليم كبيراً؛ إذ كان دخل المعلم، في أغلب الحالات في المدن، يتأتى من الهدايا التي يتلقاها دورياً وفي المناسبات من الآباء، وليس من رسم معلوم يدفعه التلاميذ. أما في بعض القرى، فكان رؤساء القرى يخصصون للمعلم مقداراً سنوياً من الأرز مقابل قيامه بتعليم أبنائهم(٣٣) (أي على نحو قريب من «الشرط» في البادية المغربية)(٣٤).

---

(٣٣) Dore, Ibid., p. 255.

(٣٤) بالنسبة إلى غير العارفين بتاريخ المغرب وثقافته، نشير إلى أن التعليم التقليدي في البوادي المغربية كان يقوم على أساس التعاقد مع فقيه يدرّس أبناء القرية أو الدوّار القرآن مقابل قدر معلوم من القمح أو غيره، وهو ما يعرف بـ «الشرط»، أي الشرط الذي يتعاقد عليه.

كانت الغاية الأولى من تعليم أبناء العامة، سواء في البوادي أو في المدن، هو تمكينهم من معرفة أولية في القراءة والكتابة، بينما كان التجار في المدن يحرصون على أن يتعلم أبناؤهم، إضافة إلى ذلك، الحساب واستعمال أداة العد (abacus). وقد استُغلت لهذه الغاية في البداية مصنفات قديمة تحوي أشعاراً وحكماً ومبادئ أخلاقية (كونفوشيوسية وبوذية)، كان على التلاميذ نقلها وحفظ ما فيها. لكن الحاجة إلى تعليم يستجيب لحاجيات التلاميذ العملية دفعت إلى تأليف كتيبات تعليمية تخصصية، منها كتيب مدرسي لأبناء التجار (شوباي أوراي Shōbai ōrai: شوباي = تجار وأوراي = مبادئ أولية) وضِع عام ١٦٩٣، وهو يتضمن مصطلحات تجارية وأسماء البضائع وتقنيات التجارة. وفي السياق ذاته، وضِعت كتيبات أخرى (تنتهي عناوينها بـ أوراي) للفلاحين ومختلف الحرفيين والصنّاع. ومنها أيضاً كتاب خاص بالسفر عبر الطريق الرئيسي (توكايدو) يتضمن أسماء الأماكن والمنتجات المحلية والأحداث التاريخية المرتبطة ببعض المواقع؛ فخلال عصر **إيدو**، جرى وضع ما ينيف على ٧ آلاف تأليف من هذا الصنف، تنتهي كلها بـ أوراي (أو مبادئ أو أوليات)[٣٥]. والواقع أن التعليم في الكثير من مدارس تيراكويا كان تعليماً عملياً، يشكّل قسماً فقط من التكوين العام الذي يتلقاه أبناء العوام، إذ المفروض أن يغادر الطفل المدرسة عند سن معيّنة ليتعلم الحرفة أو التجارة التي تمارسها أسرته.

لم تكن البنات ـ في المدن على الأقل ـ محرومات من ولوج هذه المدارس، بل على النقيض، كان بعض التجار يحرصون على تعليم بناتهم كي يساعدنهم في العمل التجاري، خاصة في مسك الحسابات. وعلى غرار الكتيبات التعليمية الموضوعة لمختلف الحِرف، وضِعت كتيبات خاصة بـ «التربية النسائية» تتضمن تطوير المهارات التي تعين المرأة في حياتها اليومية، كخياطة الملابس، والطبخ، والعناية بالأطفال، والطرق السليمة لاستقبال الضيوف والعناية بهم، واستعمال مساحيق التجميل، إلى غير ذلك[٣٦].

لم يقتصر تعليم أبناء على التعليم الأولي، بل كانت الفرص متاحة أمام قلة منهم لمتابعة دراسة متقدمة (أو عليا إن صح التعبير)؛ ففي بعض الهانات، كان يُسمح لأبناء الفلاحين وغيرهم من العوام الانخراط في معاهد هان ـ غاكو التي

(٣٥) Shively, «Popular Culture,» pp. 719-720.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٧٢٢ ـ ٧٢٣.

كانت مخصصة لأبناء الساموراي. فحسب البحث الذي قام به **رونالد دور**، كان هناك ١٧ هاناً تسمح لأبناء العامة بالدراسة فيها، و٧٥ هاناً لم تكن تمانع في أن يلتحق هؤلاء بتلك المعاهد(٣٧). أما في ما يخص المدن، فقد كان جل المدارس الخاصة (**شيجوكو**) يستقبل الطلبة دون تمييز بسبب الانتماء الفئوي.

من الأمثلة المتميزة للمعاهد الخاصة بأبناء العوام، المعهد الذي أُنشئ في مدينة **أوساكا** لأبناء التجار. وكان هذا المعهد، الذي أُسس عام ١٧٢٤ بمبادرة من مجموعة من تجار أوساكا، يحمل اسم **كايتوكودو** (Kaitokudō). وقد جاء كردة فعل من التجار الذين كانوا يحتلون في الأيديولوجيا الرسمية أسفل درجة في الترتيب الرباعي للفئات، ويريدون إقامة منبر تعليمي وأخلاقي لا يرون فيه أنفسهم في مرتبة دنيا. وقد اعتمد هذا المعهد، شأنه شأن المعاهد الخاصة بأبناء الساموراي، تدريس مذهب **تشو ـ هسي**. وبعد مرور سنوات على تأسيسه، أضحى أهم معهد لتكوين أبناء التجار. واعتباراً لهذه المكانة، لقي الدعم من الشجون **توكوغاوا يوشي ـ موني**، الذي عرف عنه ميله إلى تشجيع تعليم العوام(٣٨).

٢ ـ الدراسات الغربية والمعرفة بثقافة الغرب

هدفت سياسة العزلة، التي أُقرت في العقود الأولى من القرن السابع عشر، إلى قطع كل السبل التي قد تؤدي إلى عودة العقيدة المسيحية إلى أرخبيل اليابان؛ فكان من قراراتها منع اتصال اليابانيين بالأوروبيين بتقييد سفرهم خارج الأرخبيل في جانب، ومنع الأجانب، وخاصة الأوروبيين من الدخول إلى التراب الياباني في جانب آخر. ولم يستثن من هذا المنع، الذي طبّق بشكل صارم طوال قرنين، سوى البعثة التجارية الهولندية التي أُجبرت على الإقامة في عزلة تكاد تكون تامة في جزيرة قبالة ميناء **ناغاساكي**. ومع ذلك، شكلت هذه الجزيرة منفذاً تسرب منه الكثير من المعارف الغربية، التي أثرت بشكل مثير في مسار المعرفة في اليابان، ابتداء من العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر، وزعزعت الثقة في المعارف الصينية التي سادت في التعليم الياباني لما ينيف على ١٢٠٠ سنة.

(٣٧) Dore, Ibid., p. 219.

(٣٨) في ما يخص هذا المعهد وأهميته، انظر الدراسة التي قام لها الباحث تيتسوأو ناجيتا، وخص بها هذا المعهد، في: Tetsuo Najita, *Visions of Virtue in Tokugawa Japan: The Kaitokudo Merchant Academy of Osaka* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1987).

تعرّف اليابانيون على الثقافة الغربية أول مرة خلال «القرن المسيحي» (١٥٤٣ ـ ١٦٣٩)، الذي نشط فيه التجار البرتغاليون وإرساليات التبشيرئ ففي تلك الفترة تعرفوا على الأسلحة النارية التي قلدوا صناعتها، وعلى الساعات والرسم بالزيت وبعض تقنيات الملاحة والأدوات المستعملة فيها، بما في ذلك الخرائط. أما المعارف التي ثمّنها اليابانيون آنذاك، فمنها المعرفة الطبية، إلا أن الأطباء اليابانيين لم يتعاطوا دراسة الطب الغربي بسبب عائق اللغة وتشبعهم بتقنيات الطب الصيني ومبادئه.

كانت المعارف المستقاة من الغرب تُعرف في البداية بنامبانغاكو (Nambangaku) أو «معارف برابرة الجنوب»، بسبب أن البرتغاليين أتوا من جنوب الأرخبيل (الهند وإندونيسيا؛ أما لفظ برابرة، فكان يُطلق، بصورة عامة، على الأجانب من غير الصينيين والكوريين)، ثم أصبحت تُعرف في فترة العزلة برانغاكو (Rangaku)، نسبة إلى هولندا[٣٩] التي شكلت الواسطة الوحيدة للتعرف على الغرب وثقافته. وواقع الأمر أن الاتصال بالبعثة الهولندية ـ التي هي حلقة الوصل ـ كان محدوداً في المترجمين اليابانيين الذين كانوا الوحيدين ممن يسمح لهم بالاتصال المباشر بأفرادها، بالإضافة إلى المومسات اللواتي كان يسمح لهن بالعبور إلى جزيرة **ديشيما**[٤٠]. مع التشديد على أن معرفة هؤلاء باللغة الهولندية ـ ما عدا استثناءات قليلة ـ[٤١] كانت معرفة شفوية محدودة وغير مسندة بمعاجم، إضافة إلى كونها معرفة محتكرة من قِبَل أُسر بعينها. هذا، دون أن يغيب عن أذهاننا أن هؤلاء المترجمين كانوا موظفين رسميين لدى الشجون وملزمين بقوانين سياسة العزلة، ومن ثم، لم يكن لهم أثر يذكر في نقل المعرفة الغربية[٤٢]. ولعل المناسبة الوحيدة التي كان في إمكان عموم اليابانيين رؤية أفراد البعثة فيها، فهي تلك الزيارة السنوية التي كان يقوم بها وفد من البعثة إلى العاصمة إيدو لأداء الولاء وتقديم الهدايا للشجون. غير أن سفر الوفد كان يتم تحت حراسة مشددة

(٣٩) حرف اللام غير موجود في اللغة اليابانية، وينطق راء إن وجد في المفردات الأجنبية. فمثلاً تتحول «هولندا» إلى «أوراندا»، و«إسلام» إلى «إسرامو». أمّا مصطلح «رانغاكو»، فهو مكون من ران (اختصاراً لـ «أوراندا»)، و«غاكو» التي تعني دراسات.

(٤٠) ديشيما هو اسم الجزيرة الصغيرة التي كانت تقيم بها البعثة الهولندية، وقد سبق التعريف بها وبظروف العيش فيها في الفصل الخاص بسياسة العزلة في القسم الثاني من هذه الدراسة.

(٤١) Donald Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1969), p. 20.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١١.

تمنع أياً كان من الاقتراب منه. أما سفر الرعايا اليابانيين إلى الخارج، فكان ممنوعاً منعاً باتاً ومن يخالفه يعاقب أشد العقاب (الإعدام). ولذا لم تتوافر أدبيات عصر **إيدو** على تآليف الرحلة التي كانت شائعة في الفترة ذاتها في جهات أخرى، كالمغرب مثلا، وكان من شأنها أن تنقل مشاهدات أصحابها عن أحوال أمم الغرب. غير أن استثناءات غير مقصودة حدثت في هذا الشأن نتيجة جنوح بعض السفن التجارية اليابانية ـ التي تربط الموانئ اليابانية ـ عن مسارها، وأُخذ ربابنتها أسرى من قِبل الدول المجاورة ـ خاصة روسيا التي أضحت أقرب بلد أوروبي إلى اليابان بعد توسعها في سيبيريا وبلوغها الطرف الأقصى من القارة الآسيوية. واعتباراً لكل ما ذُكر، لم يبق من سبيل للتعرف على ثقافة الغرب سوى ما تحويه الكتب التي كانت تصل بطريقة أو بأخرى إلى أيدي بعض الدارسين اليابانيين. وهذا السبيل نفسه كان ضيقاً ومحفوفاً بالمخاطر، وأن قوانين العزلة منعت استيراد الكتب الصينية أو المترجمة إلى اللغة الصينية التي تحوي أي شيء يمت إلى الدين المسيحي بصلة.

٣ ـ الطب، أو نقطة البداية في إحياء الثقافة الغربية

كان من تقاليد البعثة الهولندية التجارية أن تستعين بخدمة طبيب يقيم مع البعثة مدة زمنية. وكان الطبيب المقيم يرافق عادة وفد البعثة في زيارته السنوية لـ **إيدو**. وكان الشجون يثمّنون معرفة هؤلاء الأطباء، ويطلبون استشارتهم في أثناء وجودهم في العاصمة. وعلى الرغم من تثمين المسؤولين الطب الغربي، فإنه كان يتعذر على الأطباء اليابانيين الاتصال بأطباء البعثة أو الاستعانة بمعارفهم. وما حدث في عام ١٧٧١ هو وقوع كتاب في علم التشريح (*Anatomische Tabellen*)، من تأليف طبيب ألماني هو يوهان آدم كولموس (Johann Adam Kulmus)[٤٣]، في يد طبيب ياباني هو **سوغيتا غيمباكو** (Sugita Gempaku) (١٧٣٣ ـ ١٨١٧)[٤٤]. وقد أُعجب هذا الأخير بالرسوم التوضيحية المرفقة بالنص، فأراد مقارنتها بالواقع المحسوس، غير أن عائقاً دينياً كان يمنعه من ممارسة التشريح بنفسه؛ ذلك أن أجساد الموتى هي مصدر للنجاسة. وهكذا كان عليه الاستعانة

(٤٣) ينتمي سوغيتا غيمباكو إلى أُسرة مارست الطب في هان أوباما (Obama) (محافظة فوكئي)؛ فوالده كان طبيب الدايميو الخاص.

(٤٤) جرى وضع هذا التأليف عام ١٧٢٢، وقد ترجم إلى اللغة الهولندية عام ١٧٣٤، وصدر تحت عنوان: *Ontleedkundige Tafelen*. انظر: Frits Vos, «Sugita Gempaku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 258.

بواحد من فئة المنبوذين ليقوم بتشريح جثة بشرية بحضوره وزميل له هو **مايينو ريوتاكو** (Maeno Ryôtaku) (١٧٢٣ ـ ١٨٠٣). يقول **سوغيتا** عن تجربته:

عندما قارنت أنا و**ريوتاكو** ما رأيناه مع الرسوم التوضيحية الموجودة في الكتاب الهولندي، اكتشفنا أن كل شيء مطابق تماماً للوصف المتضمن في الكتاب»[٤٥].

ولعل أهم ما توصل إليه هذان الطبيبان هو الاختلاف الموجود بين المعلومات الواردة في كتب الطب الصينية وتلك التي اكتشفوها بواسطة التجربة والاستعانة بتأليف غربي في الطب؛ إذ كان في ذلك زعزعة للثقة في المعرفة الطبية الصينية، وبداية التشكيك في مصداقية المعارف الصينية في مجملها. وهكذا، كانت ردة الفعل الأولى للطبيب الياباني هي الشروع في ترجمة كتاب التشريح الذي وقع بين يديه. غير أن الترجمة من اللغة الهولندية إلى اللغة اليابانية في تلك الفترة لم تكن بالأمر الهين، لعدم وجود معاجم ومختصين حرفيين في مجال الترجمة. وعلى الرغم من هذه الصعوبة، تمكن **سوغيتا**، بمساعدة من زميله **مايينو ريوتاكو** وآخرين، من ترجمة كتاب التشريح ونشره عام ١٧٧٤، حيث كان أول تأليف في الطب الغربي يُترجم إلى اللغة اليابانية. وقد أثارت هذه البادرة انتباه المثقفين اليابانيين إلى أهمية الثقافة الغربية عموماً وليس مجال الطب وحده، ذلك أنها شكّلت منطلقاً لإنشاء معاهد لتدريس المعارف الهولندية. وفي هذا الصدد، يروي الطبيب السويدي **كارل بيتر ثونبيرغ** (Carl Peter Thunberg) (١٧٤٣ ـ ١٨٢٨)، الذي أُلحق بالبعثة الهولندية عام ١٧٧٥، كيف كان اليابانيون ينظرون إليه في أثناء زيارته لـ **إيدو**، بإعجاب وتقدير كبيرين، ويمطرونه بأسئلة في مجالات معرفية مختلفة، منتظرين منه الإجابة عنها كما لو أنه كان عالماً وملماً بكل شيء[٤٦].

كانت هذه البادرة بمثابة خطوة أولى نحو تغير نظرة المثقفين اليابانيين إلى الثقافة الغربية، التي أضحت تعرف بـ «رانغاكو» عوض التسمية القديمة «نامبانغاكو»، التي أُطلقت عليها في نهاية القرن السادس عشر، وكانت ذات بُعد قدحي محمّل باحتقار واضح. وكان بديهي أن يثير اهتمام بعض الدارسين بثقافة الغرب حساسية لدى زملائهم من دارسي الكونفوشيوسية الذين ظلوا مناصرين

(٤٥) Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*, p. 22.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.

للثقافة الصينية ومعارفها، وبالتالي أن يدفع بهم إلى تسفيه أي مروق من الثقافة والمعارف التي سادت في اليابان منذ القرن السادس الميلادي. غير أن دعاة تعلم ثقافة الغرب دافعوا عن موقفهم، وانبروا لتعلم اللغة الهولندية ونشر المعارف الغربية التي تمكنوا من الوصول إليها. وقد كان **سوغيتا غيمباكو** و**مايينو ريوتاكو** وتلميذه **أوتسوكي غينتاكو** (Otsuki Gentaku) (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) رواد هذا التيار؛ فهذا الأخير هو من أول من ألف في نحو اللغة الهولندية وقواعدها، ووضع معجماً مزدوج اللغة (هولندية ـ يابانية) لتيسير تعلّمها على المبتدئين. والواقع أن **أوتسوكي** بذل جهداً خارقاً في تعلم تلك اللغة، متجشماً عناء السفر إلى **ناغاساكي** للاستعانة بمعرفة المترجمين المقيمين بها. وفي عام ١٧٨٦ أنشأ **أوتسوكي غينتاكو** في العاصمة **إيدو** معهداً لتعليم اللغة الهولندية والطب الغربي، وغير ذلك من المعارف المستقاة من الكتب الهولندية. ومن العادات التي أدخلها، احتفال طلبة المعهد برأس السنة الهولندية (المسيحية).

وفي عام ١٨١١ استقبله الشجون **إيناري** (حكم ١٧٨٧ ـ ١٨٣٧) وعيّنه على رأس هيئة علمية مكلفة بترجمة الكتب الأجنبية التي كانت في الأساس كتباً هولندية. وقد كان مشروع الترجمة هذا من أهم المشاريع التي أقدمت عليها سلطات **توكوغاوا** في التعرف على ثقافة الغرب قبل إصلاحات الميجي. فمن الأعمال المهمة التي قامت بها هذه الهيئة (المعروفة ببانشو واغي غويوغاكاري (Bansho Wage Goyôgakari) أو مترجمو الأعمال الكتب الأجنبية) الشروع في ترجمة موسوعة فرنسية في الاقتصاد (كانت مترجمة إلى اللغة الهولندية)، ويتعلق الأمر بـ *Dictionaire economique* الذي ألفه **نويل شوميل** (Noël Chomel) عام ١٧٠٩ في ٧٧ جزءاً. وعلى الرغم من أن هذه الهيئة لم تستطع إكمال ترجمة هذا الكتاب (استمرت في ترجمته من عام ١٨١١ إلى عام ١٨٣٩)، فإن اختيار هذا الصنف من المعرفة المتعلق بالاقتصاد وحياة الناس للترجمة، والقيام به تحت إشراف الشجون وبأمر منه، يدلان على تحول جذري في الموقف الرسمي تجاه الثقافة الغربية[٤٧].

والواقع أن هذا التحول بدأ تدريجياً منذ العقود الأولى للقرن الثامن عشر، عندما صدرت أولى المراسيم التي تخفف الحظر على الكتب المستوردة من البلاد الغربية. أما في أواخر القرن، فكانت الكتب الهولندية متداولة على نحو لافت؛

(٤٧) Katagiri Kazuo, «Ōtsuki Gentaku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 134.

ففي هذا الصدد كتب **ماتسودايرا سادانوبو**، الذي كان وصياً على الشجون **إيبناري** والحاكم الفعلي للبلاد من عام ١٧٨٧ إلى عام ١٧٩٣ قائلاً:

بدأت أجمع الكتب الهولندية منذ عام ١٧٩٢ أو عام ١٧٩٣. فهذه الأمم البربرية تتميز بمهارات في العلوم، ويمكن أن يجنى الكثير من الفائدة من أعمالها في الفلك والجغرافيا وأيضاً من أسلحتها ومن طرقها المتبعة في الطب. وعلى أي حال، فإن من شأن كتب هذه الأمم أن تشجع فضولاً عديم الجدوى، أو أن تكون محتوية على أفكار مسيئة. لذا، قد يُنصح بمنعها، غير أن منع هذه الكتب لن يمنع الناس من قراءتها. وفوق هذا وذاك، هناك فائدة يمكن أن تؤخذ منها. ولذا يجب أن لا يُسمح بتداول أعداد كبيرة منها بين ناس غير مسؤولين، بينما من المحبذ أن توضع في مكتبة حكومية(٤٨).

وفي العقود الأولى من القرن التاسع، كانت الدراسات الهولندية منتشرة في أرجاء البلاد، وكان الإقبال على معاهدها كبيراً. ففي نظرة تأملية إلى ما حدث من تغيير خلال ٥٠ سنة، كتب **سوغيتا غيمباكو** في عام ١٨١٥:

يقال إن وضَعت نقطة زيت في بركة تنتشر لتغطي سطح البركة بكامله، وهو أمر ينطبق على ما حدث. ففي البداية كنا ثلاثة أشخاص فقط اجتمعنا لوضع مخطط لدراستهم. واليوم، وبعد مرور خمسين سنة، وصلت هذه الدراسات إلى كل ركن من أركان هذه الأرض، وكل سنة تصدر ترجمات جديدة(٤٩).

٤ ـ الفلك مجال آخر هز الثقة في المعرفة الصينية

اعتمد اليابانيون منذ أواخر القرن السادس الميلادي على علم الفلك الصيني في كل ما يتعلق بالتقويم، ومراقبة حركة الشمس والقمر، إلى غير ذلك. والحقيقة أن علم الفلك، سواء في الصين أو في العالم الإسلامي، لم يكن متأخراً عن نظيره في أوروبا إلى حين حدوث ثورة **كوبرنيك** في مطلع القرن السادس عشر، التي غيرت جميع المفاهيم السابقة. ولم يكن هناك من سبيل ليتعرف اليابانيون على نظرية **كوبرنيك** بشكل مباشر في القرن السادس عشر؛ فرهبان إرساليات التبشير لم يكونوا متحمسين لها، بل ربما كانوا من معارضيها أو جاهلين بها. وفي المقابل، تبيّن لليابانيين في الفترة ذاتها مدى تقدم الأوروبيين في

(٤٨) Keene, Ibid., pp. 75-76.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠.

المعرفة بأحوال الأرض وخرائطها (الجغرافيا)، وهو ما ثمّنه الشجون الأول **إياسو**، الذي استعان بخدمة **وليام آدمز** تقديراً لمعرفته في هذا الشأن. وفي السياق نفسه، سعى المسؤولون اليابانيون إلى الحصول على الخرائط التي كانت متداولة بين البحارة الذين وصلوا إلى الأرخبيل، ومن ذلك احتفاظ الشجون بخريطة للعالم منذ منتصف القرن السابع عشر.

كان اهتمام المسؤولين اليابانيين بعلم الفلك من الأسباب التي أثارت انتباههم إلى تقدم هذا العلم في أوروبا. ومما جاء في التأريخ الرسمي **توكوغاوا جيكي** في هذا الشأن، أن الشجون الثامن **يوشي ـ موني** (حكم ١٧١٦ ـ ١٧٤٥) أمر بالعمل على تحسين التقويم المعمول به، لما في ذلك من فوائد تنفع في تحديد مواعيد زراعة الأرز والاحتفالات الدينية التي تواكبها؛ ولأن أمر التقويم هو من اختصاص الحاكم. ويضيف أن بطانته أشارت عليه بخبير في الفلك يدعى **ناكاني غينكيئي** (Nakane Genkei)، فلما حضر هذا الأخير إلى العاصمة، أخبر الشجون بأهمية كتاب صيني قرأه مؤخراً، ولم يكن سوى اختصار لكتاب أوروبي في علم الفلك. ومن هنا بدأ الاهتمام بالفلك الأوروبي. غير أن الكتب الصينية التي تتطرق إلى علم الفلك في أوروبا كانت نادرة؛ فقد كانت سياسة العزلة تمنع استيراد الكتب ذات الصلة بالدين المسيحي، والتالي تمنع جميع الكتب الغربية[٥٠]. وهكذا، وبالتماس من خبير الفلك، أصدر الشجون **يوشي ـ موني** في عام ١٧٢٠ مرسوماً يخفف الحظر المفروض على الكتب الغربية، وأمر في عام ١٧٤٠ اثنين من الدارسين بتعلم اللغة الهولندية على يد المترجمين الذين كانوا يرافقون البعثة الهولندية إلى **إيدو**. وبالفعل، أثمر عمل الشجون، وصدرت أولى الترجمات المتعلقة بالمعارف الهولندية عام ١٧٥٠، غير أنها كانت تتعلق بعلم النبات وليس بعلم الفلك[٥١].

ولعل أهم خطوة في طريق التعرف على علم الفلك الغربي، كانت في اكتشاف نظرية **كوبرنيك**؛ فمنذ سبعينيات القرن الثامن عشر، شرع المترجمون في الترويج لما سمعوه من الهولنديين بأن هناك نظرية في الغرب تقول إن الشمس ثابتة وإن الأرض هي التي تتحرك. وكان ممن أثارهم الخبر **شيبا كوكان** (Shiba Kôkan) (١٧٤٧ ـ ١٨١٨)، الذي تابع الأمر وتأكد من صحته من المراجع

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٣ ـ ١٤.

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٥.

الهولندية التي وقعت بين يديه، فأصدر في البداية كتيباً يعرض فيه لفكرة **كوبرنيك**، ثم طوره إلى كتاب صدر في عام ١٨٠٨، فيه شرح لنظريته[٥٢].

كان **شيبا** في الأصل رساماً يستخدم تقنيات الرسم بالزيت الغربية، كما كان مهتماً بالجغرافيا ورسم خرائط العالم. ويُعتبر اليوم من رواد الدراسات الغربية في اليابان، وأول من نادوا بتحديث اليابان، على الرغم من أن دعوته لقبول نظرية **كوبرنيك** لاقت الاستهجان من الكثير من مجايليه، خاصة من الرهبان البوذيين.

لم يذهب التعريف بنظرية **كوبرنيك** سدى، بل لاقى استحساناً وتقبلاً مع مرور الوقت؛ ففي عام ١٨١١، لاحظ القبطان الروسي **فاسيلي ميخايلوفيتش غولوفنين** (Vassilii Mikhailovich Golovnin) (١٧٧٦ ـ ١٨٣١) في مذكراته عن سنوات الأسر التي قضاها في اليابان، أن مستجوبيه من اليابانيين كانوا على معرفة بنظرية **كوبرنيك** ومقتنعين بها[٥٣]. كما أن التعرف على علم الفلك الغربي أثّر في واحد من رواد فكرة التحديث في اليابان، وهو **هوندا توشيآكي** (Honda Toshiaki) (١٧٤٤ ـ ١٨٢١)، الذي كان من بين من أسسوا معاهد خاصة لتعليم الدراسات الغربية. كان **هوندا** دارساً للرياضيات والفلك، وعارفاً بالاقتصاد، إضافة إلى تعاطيه الملاحة البحرية. ففي كتابين أصدرهما عام ١٧٩٨، دعا إلى الاستفادة من علم الفلك الغربي، لا في تحسين التقويم فقط، بل في تطوير الملاحة البحرية أيضاً، وذلك في إطار مشروع عام وضعه لتحسين اقتصاد البلاد، وإنهاء العزلة التي فرضها اليابانيون على أنفسهم[٥٤].

---

(٥٢) المصدر نفسه، و Cal French, «Shiba Kōkan,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 84.

(٥٣) فاسيلي ميخايلوفيتش غولوفنين قبطان في البحرية الروسية وقع في الأسر بعد اقتراب سفينته من جزيرة هوكايدو، وذلك في عام ١٨١١. وقد قضى في الأسر قرابة ثلاث سنوات. وبعد أن عاد إلى روسيا كتب مذكراته التي تعرض فيها لسنوات الأسر في اليابان. ونُعَدّ مذكراته هاته من المصادر المهمة بشأن وضع اليابان في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. هذا بالإضافة إلى أن اليابانيين استقوا منه معلومات كثيرة حول روسيا عندما كان في الأسر. انظر: George Alexander Lensen, «Golovnin Vassilii Mikhailovich,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 43-44, and Conrad Tottman, *Early Modern Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), pp. 490-491, and Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*, pp. 78-79.

(٥٤) John J. Stephan, «Honda Toshiaki,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 219-220.

٥ ـ خطر الاحتلال، والانتباه إلى تفوق التقنيات العسكرية الغربية

بات خطر احتلال الجزر اليابانية ماثلاً للعيان في أواخر القرن الثامن عشر، بعد أن أصبحت روسيا جاراً للأرخبيل. فمن المعلومات التي تجمعت لدى المسؤولين اليابانيين عن نوايا روسيا في احتلال الجزر الشمالية، أضحى ضرورياً إعادة النظر في التقنيات العسكرية التقليدية، والتفكير في تعويضها بتقنيات أكثر تقدماً وذات فعالية في حماية الشواطئ. ففي عام ١٧٩١، أصدر **هياشي شيهيئي** (Hayashi Shihei) (١٧٣٨ ـ ١٧٩٣) كتاباً بشأن أهمية الدفاع عن الشواطئ بالنسبة إلى الدول البحرية. وكان هو أيضاً من رواد الدراسات الغربية، ومن المدافعين عن الأخذ بالتقنيات الغربية والتخلي عن التقنيات الصينية، التي لم تعد ملائمة لتطورات العصر. يقول **هياشي**:

«ما الأمة البحرية؟ إنها بلد يحده البحر من كل الجهات. وهناك استعدادات عسكرية تلائم الأمة البحرية، وهي تختلف عن تلك نصت عليها الكتب العسكرية الصينية وعن التقنيات التقليدية التي تدرّسها مختلف المدارس في اليابان.

يتمثل الاستعداد العسكري بالنسبة إلى اليابان في المعرفة بالطريقة التي تردّ بها الغزو الأجنبي، وهذه المعرفة أضحت حيوية الآن. والطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي تطوير القوات البحرية؛ وأهم عنصر في هذه القوات هي المدافع»[٥٥].

واضح أن **هياشي** كان يدعو من جهته إلى الأخذ بالمعارف الغربية والتقنيات العسكرية. وعلى الرغم من أن دعوته لم تلق في حينها استجابة من لدن سلطات الباكوفو، فإن الأخذ بهذه التقنيات وتطويرها أضحى من أولويات هذه السلطات في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعد تعاظم التهديد الغربي. وعلى أي حال، لنا عودة إلى الموضوع في الفصل الأخير.

أثمرت جهود الرعيل الأول من دعاة الأخذ بثقافة الغرب، فكان من نتائجها إنشاء معاهد خاصة بالدراسات الهولندية بلغ عددها في أواخر عصر إيدو ٤٧ معهداً. وعلى الرغم من أن أعداد الطلبة الذين أقبلوا على الدراسة كانت قليلة نسبياً، فإن تأثيرها كان بالغاً؛ ففيها تخرج الكثير من رواد الإصلاح وزعماء

---

(٥٥) Keene, Ibid., pp. 39-40.

حركة الميجي وأشهر أطباء اليابان في القرن التاسع عشر[٥٦]. ذلك أن الدراسة في هذه المعاهد اتسمت بحرية البحث وبالانفتاح على الآخر وثقافته، وكان اليابانيون بفضلها في نهاية القرن الثامن عشر أكثر من الشعوب القريبة من أوروبا اطلاعاً على الثقافة الغربية[٥٧].

نخلص من هذه الفقرة الخاصة بالدراسات الغربية والتعليم في اليابان في عصر **توكوغاوا** عموماً إلى تأكيد ظاهرتين اتسم بهما تعامل اليابانيين مع ثقافة الآخر:

● السعي نحو المعرفة: وهو ظاهرة رصدناها أولاً في سعي اليابانيين إلى اكتساب المعارف الصينية ابتداء من القرن الخامس، ورصدناها ثانياً في سعيهم إلى اكتساب المعرفة الغربية ابتداء من القرن الثامن عشر، على الرغم من سياسة العزلة والحصار المفروض على كل ما يمت إلى الديانة المسيحية بصلة. والملاحظ في كلتا الحالتين أن معرفة الآخر لم تُفرض عليهم، بل كانت بمبادرة من اليابانيين أنفسهم.

● الحس العملي أو البراغماتي في تعامل اليابانيين مع ثقافة الآخر: ويبدو

---

(٥٦) يصعب إعطاء لائحة كاملة بكل الشخصيات التي تخرّجت في معاهد الدراسات الغربية وساهمت، بشكل أو بآخر، في حركة الميجي، أو قامت بأدوار رئيسية فيها، لذا سنكتفي ببعض المشاهير:

فوكوزاوا يوكيتشي: رائد إصلاح التعليم؛ يعود إليه الفضل في إنشاء أول جامعة خاصة في اليابان على الطريقة الغربية.

إيتو هيروبومي (Itō Hirobumi) (١٨٤١ ـ ١٩٠٩): أشهر من دعا إلى إطاحة نظام الباكوفو، ورئيس أول حكومة يابانية عصرية في عهد الميجي، والذي يرجع إليه الفضل في وضع أول دستور لليابان.

كيدو تاكايوشي (Kido Takayoshi) (١٨٣٣ ـ ١٨٧٧): كان من أشد مناصري الإمبراطور وواحداً من الزعماء الذين أطاحوا أُسرة توكوغاوا.

إينويي كاأورو (Inoue Kaoru) (١٨٣٦ ـ ١٩١٥): تقلد عدة مناصب وزارية في عهد الميجي (وزارات الأشغال العامة والخارجية والتجارة).

هذا بالإضافة إلى أن أشهر أطباء اليابان في القرن التاسع عشر درسوا في هذه المعاهد، أمثال: إيتو غيمبوكو (Itō Gemboku) (١٨٠٠ ـ ١٨٧١): كان من رواد التلقيح ضد الجدري، وأسس أول مركز للتلقيح في العاصمة إيدو عام ١٨٥٧، تحول في ما بعد إلى كلية الطب في إطار جامعة طوكيو.

أوغاتا كوان (Ogata Kōan) (١٨١٠ ـ ١٨٦٣): كان طبيباً ومدرساً ومترجماً ومؤسساً لمدرسة للطب الغربي في مدينة أوساكا، تحوّلت في ما بعد إلى جامعة أوساكا.

(٥٧) ففي رأي شارل عيساوي أنه كان من السهل على العرب، بسبب قربهم من أوروبا وتاريخهم الطويل من العلاقات مع دولها، أن يتعرفوا على الثورة العلمية التي حدثت مع عصر النهضة الأوروبية، لكن، وبسبب لامبالاتهم وازدرائهم للكفار، كانوا [في نهاية القرن الثامن عشر] أقل من اليابانيين معرفة بهذه الثورة. وقد أدلى شارل عيساوي بهذا الرأي للباحث الأمريكي دونالد كين في مراسلة خاصة، وأورده هذا الأخير مستشهداً به في: Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*, p. 123.

هذا في تعاملهم مع المعارف الصينية أو مع المعارف الغربية؛ ففي العصور القديمة اليابانية، اندفع اليابانيون إلى الأخذ بمكونات الثقافة الصينية في حدود ما يفيدهم. وعندما تبين لهم في القرن الثامن عشر أن المعارف الغربية أكثر تطوراً من المعارف الصينية، تخلوا عن هذه الأخيرة، وأقبلوا على تعلم اللغة الهولندية وترجمة الكتب التي رأوا فيها فائدة. والملاحظ أن ثقافة الآخر تظل دائماً غريبة وغير متأصلة في الثقافة اليابانية. فعلى الرغم من إقبال اليابانيين على الثقافة الصينية لما يربو على ١٢٠٠ سنة، فإنها ظلت تُعتبر ثقافة وافدة. والأمر نفسه يصدق اليوم على أخذهم بالثقافة الغربية. ففي القرن الثامن عشر ظهر تياران: تيار يدعو إلى العودة إلى الأصول أو الثقافة القومية التي تعلي من شأن المرجعيات الأصلية، وتيار يدعو إلى الأخذ بثقافة الآخر. وعلى الرغم من التعارض البادي بينهما، فأنهما التقيا معاً في إصلاحات الميجي: استعادة الرجوع إلى الأصل باستعادة الإمبراطور لسلطاته، وإعطاء مكانة خاصة لديانة الشنتو على حساب البوذية والكونفوشيوسية؛ والأخذ بتقنيات الغرب لمواجهة التهديد الإمبريالي.

الفصل الحادي عشر

صناعة الكتاب

يعتبر خبراء التنمية اليوم انتشار الكتاب وعدد العناوين التي تصدرها المطابع ودور النشر سنوياً، ضمن المعايير التي يعتمدونها في قياس التنمية البشرية. والمعايير ذاتها يمكن أن يأخذ به المؤرخون في تقييمهم انتشار المعرفة والاهتمامات المعرفية خلال الفترات التاريخية التي يدرسونها؛ إذ يُعتبر انتشار الكتاب أو محدودية تداوله في مجتمع ما خير دليل على توسع المعرفة بالقراءة والكتابة ـ والمعرفة عموماً ـ أو انحسارها في ذلك المجتمع[1]. وفي ما يخص موضوعنا، أي اليابان خلال عصر **التوكوغاوا**، يلاحظ الدارس ازدهاراً غير مسبوق لصناعة الكتاب وتسويقه، وتنوعاً كبيراً في العناوين الصادرة عن دور النشر. وبديهي أن هذا الازدهار جاء مساوقاً لانتشار التعليم وارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، غير أن تيسير الكتاب عبر طباعة قليلة الكلفة وتنويع الموضوعات المتناولة، كانا حافزين على الإقبال على التعلم والقراءة. فالنسبة العالية للعارفين بالقراءة المسجلة في نهاية عصر **توكوغاوا** ـ المشار إليها في فصل سابق ـ لم تكن لتتأتى لولا توافر الكتاب ويُسر الوصول إليه.

---

(١) فعلى سبيل المثال، يكفي دارس العصر العباسي قراءة **الفهرست** لابن النديم، الذي اشتغل بحرفة الوراقة في بغداد، ليعرف أصناف المعارف التي كانت رائجة في عصره وكذا مصادرها واهتمامات معاصريه المعرفية والفكرية. انظر: أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، **الفهرست**، ١٠ ج (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، [د. ت.]).

كان ابن النديم، الذي عاش في بغداد في القرن الرابع الهجري (؟-٣٧٥ هـ) واحترف مهنة الوراقة فيها، أدرى الناس بما يروج في عصره من علوم ومعارف، وذلك بحكم مهنته، التي تجمع بين النسخ وتهيئة الكتاب وترويجه. وبالفعل، قام بإحصاء جّل الكتب الرائجة آنذاك في بغداد، وأعطى صورة واضحة عن أصناف المعارف والمترجمات، وغيرها.

أولاً: الطباعة ابتكار صيني

إن الحديث عن صناعة الكتاب وترويجه يدفعنا بالضرورة إلى موضوع الطباعة وتطورها في اليابان، وكذا صناعة الورق التي تُعتبر مستلزماً رئيسياً لها. فتاريخياً، شكّل تيسير الكتاب عن طريق الطباعة إنجازاً مهماً في تاريخ المعرفة الإنسانية، وأداة فاعلة في انتشارها وتطورها. ونحن في غنى عن التذكير بما شكّله تطوير تقنية الطباعة على يد الألماني **غوتنبرغ**(٢) في حوالى منتصف القرن الخامس عشر، من نقلة نوعية في تاريخ الكتاب، وما مثّله من عامل تغيير في مسار الثقافة الغربية؛ إذ أصبح **غوتنبرغ** وإنجازه رمزين من رموز التفوق الغربي، وأضحى العمل بالطباعة نقطة تحول في التاريخ الأوروبي، بل ومؤشراً من مؤشرات بداية عصر النهضة في أوروبا. ورغم الهالة التي أحيطت به، فإنه لم يكن المبتكر الأول للطباعة ذاتها بقدر ما كان مطوراً لواحدة من تقنياتها المعروفة في عصره(٣). أما ابتكار الطباعة، فهو، باعتراف الباحثين الغربيين أنفسهم، ابتكار صيني. فقد كانت الصين السبّاقة إلى الانتقال من النسخ باليد إلى الطباعة، والسبّاقة أيضاً إلى اختراع الورق والحبر اللذين شكّلا أهم عنصرين في تطور الكتابة وتحريرها، من النقش على الحجر والرسم على رق الحيوانات وعظامها، في حين لم تصل صناعة الورق إلى أوروبا إلا في القرن الثاني عشر، وبتأثير مباشر من الحضارة الإسلامية(٤).

يعود تاريخ ابتكار الطباعة في الصين إلى القرن الثاني للميلاد تقريباً(٥)، وقد سبقه توصل الصينيين في مرحلة سابقة إلى تصنيع الورق من عجين ألياف

---

(٢) ولِد يوهانس غوتنبرغ (Johannes Gutenberg)، في أواخر القرن الرابع عشر (لا يُعرف تاريخ ميلاده بالضبط) في مينز (Mainz)، ألمانيا، وتوفي في شباط/ فبراير ١٤٦٨. ويرجع إليه الفضل ليس لابتكاره مبدأ الطباعة ولكن لتطويره أسلوب الطباعة بحروف معدنية متحركة، ذلك أن حرفته الأصلية كانت صناعة المعادن وصهرها. انظر: ألكسندر ستيبتشفيتش، **تاريخ الكتاب: القسم الثاني**، ترجمة محمد الأرناؤوط، عالم المعرفة؛ ١٧٠ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣)، ص ٨٠-١٠٢.

(٣) هناك آراء تشكك في أسبقية غوتنبرغ إلى الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة. والأكيد أن الطباعة بالحروف المتحركة المصنوعة من الخشب كانت معروفة في أوروبا قبل ابتكار غوتنبرغ. ولربما وصلت هذه التقنية إلى أوروبا من الشرق الأقصى. انظر: المصدر نفسه.

(٤) يجمع الباحثون على أن الورق وصل أولاً من الصين إلى العالم الإسلامي، ومنه انتقل عبر الأندلس إلى أوروبا في القرن الثاني عشر. ولم تزدهر صناعة الورق إلا في القرن الثالث عشر في إيطاليا أولاً. انظر على سبيل المثال، «Papier,» in: *Encyclopedia Universalis*.

(٥) انظر مادة: «Printing: History of Printing,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

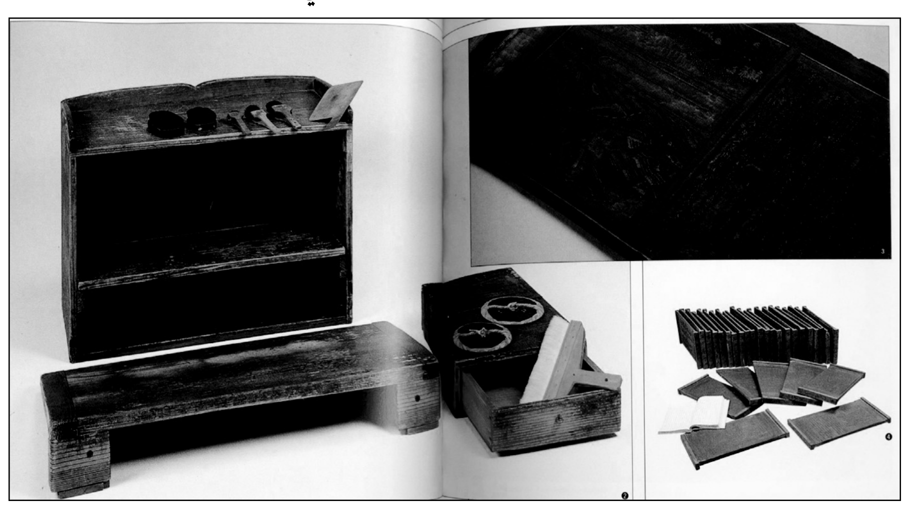
الأشجار، واستخلاص الحبر من مواد نباتية؛ إذ كان توافر الورق والحبر عاملين رئيسيين في التوصل إلى مبدأ الطباعة. والأساس في هذا المبدأ هو نقش النصوص الرسمية، أو النصوص ذات الطابع الديني، على الحجر، خوفاً عليها من الضياع والتحريف، فظهرت في إثر ذلك إمكانية الحصول على نسخ طبق الأصل عبر طلاء الحجر المنقوش بالحبر، وتمرير ورقة عليه كي ينطبع عليها النص. وفي وقت لاحق، استُبدل الحجر بألواح خشبية (أو قوالب خشبية) تُنقش عليها الرموز بشكل بارز. وهذه الطريقة الأخيرة هي التي تصنَّف اليوم ضمن تقنيات الطباعة المعروفة بزيلوغرافيا (Xylography) أو الطباعة بالنقش على الخشب، حيث استُعملت في أوروبا في القرن التاسع عشر لطبع الرسومات والصور.

إن تقنية الطباعة بالقوالب الخشبية تقنية بسيطة، سواء من حيث المبدأ أو من حيث المستلزمات من المعدات والمواد الأولية. ورغم التطورات التي أُدخلت عليها، فقد بقيت محافظة على بساطتها الأولى إلى وقت متأخر جداً ـ إلى أواخر القرن التاسع عشر. فهذه التقنية، كما جرى إحياؤها والعمل بها في اليابان في القرن السابع عشر، لم تكن تحتاج إلا إلى معدات بسيطة ولوازم طباعة تتمثّل في: ورق رقيق غير نشاف؛ ألواح خشبية قابلة للنقش عليها بسهولة ـ وكانت تُستخلص عادة من أشجار التوت البري؛ حبر ومواد يطلى بها اللوح حتى يسهل امتصاصه للحبر، إضافة إلى طاولات خشبية ومقابض معدنية لتثبيت الورق والألواح، وأزاميل وفُرَش بمقاييس مختلفة. في حين يقتصر إنجاز عملية الطباعة على ورشة صغيرة أو دكان يعمل فيه ثلاثة أو أربعة أفراد: خطاط، ونقاش على الخشب، عامل أو اثنان مختصان بالطباعة وتحضير الكتاب أو المطبوع (انظر الرسم المرفق).

في البداية، يقوم الخطاط بكتابة النص على الورقة، مستعملاً الفرشاة والحبر الصيني. وبمجرد الانتهاء من عمله، أي قبل أن يجف الحبر، يتم تثبيت الورقة على اللوح الخشبي المعد لهذا الغرض، حيث يواجه الوجه المكتوب سطح اللوح. وبعد أن يجف المداد والتأكد من انطباع النص على اللوح، يسلّم هذا الأخير إلى النقاش الذي يقوم بحفر جنبات الرموز وداخلها، التي تكون قد رسمت بشكل معكوس على اللوح، ليجعلها بارزة. وأخيراً تأتي عملية الطبع ذاتها حيث يثبت اللوح المنقوش على طاولة، ويطلى بالحبر قبل أن توضع عليه صفحة الورق المراد الطباعة عليها. وبعد وضع الورقة بشكل محكم فوق اللوح، يمرر فوقها بفرشاة عريضة أو مدلك خفيف حتى ينطبع النص على الصفحة. وهكذا تتكرر عملية

الطبع صفحة صفحة. أما المهمة الأخيرة في إنجاز الكتاب أو المطبوع، فتتمثل في ترتيب الصفحات بعد طبعها على الوجهين، وجمعها في مجلد. والملاحظ في تقنية الطبع هاته عدم اللجوء إلى الضغط (press) أو استعمال آلة ضاغطة، كما هو الشأن في تقنيتي الطباعة التيبوغرافية (أو الحروف المتحركة) والليتوغرافية (الطباعة الحجرية). ورغم بساطة الطباعة بالنقش على الخشب، وقلة تكلفتها، وسهولة عملياتها، فإن طاقتها الإنتاجية تظل محدودة في كمية ضئيلة، إذ سرعان ما يتهرأ اللوح المنقوش ويتآكل بعد طباعة بضع مئات من الصفحات على أكثر تقدير.

أدوات الطباعة بالنقش على الخشب في عهد إيدو



انتقلت الطباعة بالنقش على الخشب إلى اليابان في حوالى القرن الثامن الميلادي، حيث جاءت في إثر الانفتاح على الصين والأخذ بمكوناتها الثقافية، خاصة الديانة البوذية ونظام الكتابة الصيني. وقد وصلت الطباعة إلى اليابان بعد أن استكملت جميع مقوماتها التقنية في عهد أُسرة **تانغ** (٦١٨ ـ ٩٠٧). وممّا تذكره المصادر اليابانية، أن الإمبراطورة **شوتوكو** (٧٦٤ ـ ٧٧٠)(٦) هي أول من

---

(٦) الإمبراطورة شوتوكو (Shotoku) (٧١٨ ـ ٧٧٠) تولّت عرش الإمبراطورية اليابانية مرتين: الأولى تحت لقب الإمبراطورة كوكن (Koken)، وذلك من عام ٧٤٩ إلى عام ٧٥٨، والثانية تحت لقب الإمبراطورة شوتوكو، وذلك من عام ٧٦٤ إلى عام ٧٧٠. وهكذا احتلت على التوالي المرتبتين ٤٦ و٤٨ ضمن السلالة الإمبراطورية التي حكمت اليابان. وقد اشتهرت هذه الإمبراطورة بتديّنها الشديد وبتشبثها بالعقيدة البوذية، فهي التي أمرت بنحت تمثال كبير لبوذا وإهدائه إلى معبد تودايجي (Todaiji). انظر بعضاً من أخبارها في: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 4, p. 253.

استعمل تقنية الطباعة الصينية في استنساخ أعداد كبيرة من التعاويذ داراني (Dharani) لتوزَّع على المعابد البوذية[٧]. ورغم طباعة عدد كبير من هذه التعويذة، فإنه لم يبق منها اليوم سوى نسخ قليلة يُحتفظ بها في معبد **هوريوجي** قرب مدينة نارا، وبعض المجموعات الخاصة[٨]. أما أقدم مطبوع آخر جرى تحضيره بالتقنية ذاتها، وما يزال قيد الحفظ، فيعود تاريخه إلى نهاية القرن الحادي عشر (١٠٨٨)[٩]. والتفسير الممكن لهذا الفارق الزمني وغياب الطباعة طوال ثلاثة قرون، هو إما التخلي نهائياً عن الطباعة وسد الحاجات بالنسخ باليد، وإما ضياع المعرفة بتقنيتها إلى أن أُعيد استقدامها ثانية من الصين في القرن الحادي عشر.

استمرت الطباعة جّل العصور الوسطى اليابانية (من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر) في خدمة المعابد البوذية التي كانت تستغلها في طباعة كتبها ومنشوراتها الدينية. وقد اشتهرت كبريات المؤسسات والمعابد البوذية في كل من **كيوطو ونارا** ـ خاصة في معبد **كوفوكوجي**[١٠] ـ بنشاطها في مجال الطباعة الذي لم يتوقف طوال الفترة الآنف ذكرها. كما اشتهرت المؤسسات التابعة لمذهب الزن البوذي، على وجه الخصوص، بجودة مطبوعاتها التي ضاهت جودة مثيلاتها الصينية، وكانت تصدر انطلاقاً من مراكز الطباعة التابعة لمعابده المعروفة في كل من كيوطو وكاماكورا بـ **غوزان**[١١] (أو المعابد الخمسة). وعلى أي حال، فقد ظل

---

(٧) داراني (Dharani) مصطلح مأخوذ من اللغة «السنسكريتية» (الهندية)، وهو عبارة عن نصّ تلخّص فيه مبادئ العقيدة، ويجري التيمّن بقراءته أو الاحتفاظ به في أماكن العبادة، وغيرها. وهو يقوم لدى العامة بوظيفة تعويذة أو تميمة تجلب الخير والمنفعة وتحفظ من الشر. انظر مادة: «Dharani,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

ومما تتناقله المصادر التاريخية أن الإمبراطورة شوتوكو أمرت في عام ٧٧٠ بطباعة أعداد كبيرة من داراني وتوزيعها على المعابد البوذية الرئيسية في العاصمة، وحولها، حيث وضِعت داخل مجسمات صغيرة على شكل «باغودا». وقد كانت الغاية من هذا العمل الديني تهدئة أرواح أفراد من أُسرة ففوجي ورا الذين قضوا في انتفاضة وقعت عام ٧٦٤. انظر في هذا الشأن: Delmer M. Brown, «Introduction,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999, 1996-1997), vol. 3, p. 38.

(٨) انظر: مادة: «Printing,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 247.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) معبد كوفوكوجي (Kofukuji) معبد بوذي يتوسط مدينة نارا. يعود تاريخ تأسيسه إلى عام ٦٠٩، وكان معبداً شبه خاص بأُسرة فوجي ورا. وقد أعيد بناؤه برعاية من ميناموتو نو يوري تومو (١١٤٧-١١٩٩)، مؤسس شجونة كاماكورا. ويُعتبر اليوم موقعاً أثرياً مهماً يضم تحفاً نادرة وتماثيل يرجع تاريخ البعض منها إلى القرن السابع الميلادي. انظر مادة: «Kofukuji,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, pp. 243-44.

(١١) لفظ غوزان (Gozan) يعني حرفياً الجبال الخمسة. وبما أن أغلب المعابد كانت تقام في المناطق الجبلية، فقد أصبح الجبل مرادفاً للمعبد، ومن ثم فإن المقصود بـ «غوزان» هو «المعابد الخمسة». أما المراد =

استعمال الطباعة، سواء في مرحلتها الأولى أو الثانية، مقصوراً على المطبوعات الدينية، ولم يشمل المطبوعات ذات التوجه الأدبي أو التاريخي، مع التذكير هنا بذلك الازدهار اللافت للنظر الذي شهدته مجالات الشعر والقصة وكتابة الملاحم في عهدي **هييان** و**كاماكورا**(١٢).

يفسر الباحث **دونالد كين**، المختص بتاريخ الأدب الياباني، عدم استخدام الطباعة في نشر الكتب غير الدينية بفرضيات مختلفة، ربما تكون واحدة منها، أو كلها، صائبة.

فالفرضية **الأولى** ترجح الجانب الاقتصادي؛ إذ تقول إن السبب هو قلة الطلب على الكتب ذات التوجه الأدبي، وبالتالي وجود إمكانية سد الطلب عليها بالنسخ اليدوي.

وتميل **الثانية** إلى التفسير الديني، إذ ترى أن الكتب المطبوعة ارتبطت في ذهن عامة الناس بالكتب الدينية، وأن طباعة غيرها كانت في نظرهم مساساً بالمعتقدات. في حين تركز الفرضية الثالثة والأخيرة على الجانب الفني، حيث ترى أن القراء كانوا يثمّنون الجانب الفني من عمل الخطاطين ورسومات الفنانين المرفقة بالنص، ومن ثم اعتقدوا أن الطباعة تفسد عمل هؤلاء، وتضيع معه جمالية النص المرسوم باليد(١٣).

وأنّى يكن السبب، فقد حدث في نهاية القرن السادس عشر تحوّل كبير في عملية الطباعة، حيث جرى إدخال تقنيات جديدة في هذا المجال. كما أن الإقبال على الكتاب ابتداء من منتصف القرن السابع عشر، غلب الاعتبار الاقتصادي وجعل الطباعة أرخص تكلفة من النسخ اليدوي. لكن قبل التطرق إلى تطورات الطباعة في الفترة اللاحقة، نرى ضرورياً الإشارة إلى الورق وفن الخط في الثقافة اليابانية، اعتباراً لما لهذين العنصرين من صلة وثيقة بالطباعة في اليابان.

= هنا فهو المعابد الخمسة الكبرى المقامة في كل من طوكيو وكاماكورا. كما يطلق «غوزان» على مجموع المعابد التابعة للمعابد الرئيسية المشار إليها. وقد أدت هذه المعابد منذ تأسيسها أدواراً سياسية وثقافية في العصور الوسطى اليابانية.

(١٢) في ما يتعلق بازدهار النتاج الأدبي في عصر هييان، انظر: Helen Craig McCullough, «Aristocratic Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 2, pp. 431-448.

أما عن تأريخ عام للأدب الياباني خلال عصري هييان والعصور الوسطى اليابانية، انظر: Donald Keene, *Seeds in the Heart: Japanese Literature from Earliest Times to the Late Sixteenth Century* (New York: Henry Holt, 1993).

(١٣) Donald Keene, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1999), p. 2.

ثانياً: الورق ابتكار صيني أيضاً

كتب **بول بيليو**، العالم الفرنسي المختص بالدراسات الصينية: «إن كان النقاش سيطول بنا إلى ما لانهاية حول اختراع الطباعة، هل كان في أوروبا أم في الصين، فإن الأمر الأكيد هو أن انتشار الطباعة ما كان ليتم لولا الورق، والحال هذه أن الورق صيني الأصل»(١٤).

من الأكيد أن المصريين القدامى كانوا أول من استعمل ورق البردي المستخلص من قصب البردي الذي ينمو بكثرة على ضفاف النيل، إلا أن ورق البردي بقي محدود الانتشار لضعف نسيجه من جهة، وارتباطه بنبات يتطلب ظروفاً مناخية خاصة من جهة أخرى. أما الورق بالشكل القريب ممّا نعرفه اليوم، فقد بدأ تصنيعه في الصين منذ مطلع القرن الثاني للميلاد. وقبل ذلك، جرب الصينيون الكتابة على الحرير وشرائح قصب الخيزران والنقش على صفائح النحاس، وهي مواد إما غالية الثمن وإما ثقيلة الوزن يصعب تداولها ونقلها بيسر. وممّا سجّله المؤرخ **غو كان جو**(١٥) ـ أحد مؤرخي البلاط الصيني في القرن الخامس الميلادي ـ أن **تساي لون** Ts'ai Lun (توفي ١١٤) توصل في عام ١٠٥ إلى اكتشاف طريقة لصناعة الورق. ومنذ ذلك التاريخ، بحسب المؤرخ ذاته، شرع الصينيون في إنتاج الورق واستعماله(١٦). غير أن نتائج الحفريات الأركيولوجية التي أُجريت حديثاً أثبتت أن الورق ظهر في الصين قبل ذلك التاريخ بقرنين على الأقل، وأنه مر بمراحل متعددة قبل أن يأخذ شكله المتطور في مطلع القرن الثاني الميلادي(١٧). وعلى أي حال، تكمن أهمية اختراع **تساي لون** ومن سبقوه، في وفرة المادة الأولية التي

---

(١٤) بول بيليو (Paul Pelliot) (١٨٧٨ ـ ١٩٤٥)، عالم فرنسي مختص بالدراسات الصينية، ارتبط اسمه بالموقع الأثري الصيني دون هوانغ (Dunhuang)، حيث توصلَ إلى اكتشاف عدد من المخطوطات القديمة. انظر مادة: «Dunhuang,» in: *Encyclopedia Universalis*.

وقد ورد الاستشهاد الوارد في النص في: Michel Cartier, «Des Inventions Capitales,» *Historia*, no. 22 (mars-avril 1993), p. 65.

(١٥) غو كان جو (Gokanjo)، مؤرخ صيني عاش في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. ألَّف تأريخاً لأُسرة شو الأخيرة يُعرف بهو هان شو (Hou Han Shu).

(١٦) ألكسندر ستيبتشفيتش، **تاريخ الكتاب: القسم الأول**، ترجمة محمد الأرناؤوط، عالم المعرفة؛ ١٦٩ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢)، ص ٤٨، و Robert Laffont, ed., *Histoire du développement culturel et scientifique de l'humanité*, 2 vols. (Paris: UNESCO, 1969), pp. 611-613.

(١٧) يتعلق الأمر بحفريات أُجريت في عام ١٩٥٧ في موقع شينكزي (Shenxi) في الصين، وعُثر فيها على بقايا من ورق يعود تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد. كما تمكّن الباحثون من تتبّع المراحل التي مرّ بها تطور صناعة الورق. انظر مادة: «Chine: Sciences et techniques en chine,» in: *Encyclopedia Universalis*.

صنعوا منها عجينة الورق، والتي يمكن استخلاصها من لحاء الشجر ونشارة الخشب والتبن وغيرها، وهي مواد متوافرة بكثرة، ورخيصة الكلفة.

انتقل الورق إلى اليابان في حوالى القرن السابع الميلادي، ولربما قبل ذلك؛ فأول إشارة تاريخية في هذا الصدد، نجدها في مؤلَّف **نيهون شوكي**، الذي يتحدث عن مبعوثين من كوريا وصلوا إلى اليابان عام ٦١٠ كان أحدهم ـ وهو **تام تشي** (Tam-chi) ـ يجيد الرسم وتحضير الورق والحبر(١٨). غير أن في المصدر ذاته إشارات أخرى تفيد على نحو غير مباشر بأن الورق كان موجوداً في اليابان قبل ذلك التاريخ (منتصف القرن السادس الميلادي). وكيفما كان الأمر، فقد أقبلت الإدارة الإمبراطورية في عصر **نارا** (٧١٠ ـ ٧٩٤)، اقتداء بنظيرتها الصينية، على استعمال الورق بشكل مكثف في مراسلاتها وتوثيقها، كما استفاد الرهبان البوذيون من الورق في نشر معتقداتهم وإذاعة منشوراتهم(١٩). وقد كان عصر **هييان** (٧٩٤ ـ ١١٨٥) عصراً ذهبياً لتصنيع الورق المحلي، أو ما يُعرف بـ «واشي» (أو الورق الياباني)(٢٠)، حيث كثرت استعمالات الورق، وتعددت الأغراض المستغل فيها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، استُعمل الورق في الطقوس الدينية، سواء البوذية أو الشنتوية(٢١)، واستُغل في المعمار لإقامة الحواجز الفاصلة بين أقسام المنازل وغيرها من المنشآت العمرانية، وكذا في الأبواب المنزلقة ولوحات التزيين(٢٢). أما محترفو الكتابة والرسم، فكان الاختيار أمامهم واسعاً لانتقاء ما شاؤوا من أصناف الورق بحسب اختصاصاتهم وموضوع كتابتهم؛ إذ كان السوق الياباني يعج منذ عصر **نارا** بأكثر من ٢٠٠ صنف من الورق، منها المصنَّع محلياً ومنها المستورد من الصين. وقد دأبت أرستقراطية هييان على التأنق في انتقاء الورق بحسب ما يريد أفرادها كتابته؛ فهناك ورق الرسائل

---

(١٨) *Nihongi; Chronicles of Japan from the Earliest Times to A.D. 697*, translated by W. G. Aston; introd. by Terence Barrow, 2 vols. (Rutland, VT: C. E. Tuttle, [1972]), book XVII, p. 140.

(١٩) انظر مادة: «Washi,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 232.

(٢٠) واشي (Washi) لفظ مكوّن من مقطعين: «وا» وتعني اليابان أو النسبة إلى اليابان، و«شي» وتعني الورق.

(٢١) نشير هنا، على سبيل المثال، أن فن أوريغامي (Origami) أو ثني قطع الورق وتشكيلها على صورة دمى صغيرة تمثّل الحيوانات وغيرها، استُعمل في البداية لأغراض دينية خاصة بطقوس الشنتو قبل أن يصبح وسيلة لتعليم الأطفال وتسليتهم.

(٢٢) تجدر الإشارة هنا إلى أن الورق يدخل بشكل كبير في المنشآت العمرانية التقليدية اليابانية. وما يزال إلى اليوم يُستعمل في الأبواب المنزلقة المعروفة في اللغة اليابانية بفوشيمي (Fushimi)، والحواجز الفاصلة بين أقسام المنزل أو بين المنزل والحديقة والمعروفة بشوجي (Shuji).

الغرامية، وورق تدوين الشعر وغير ذلك من أصناف الورق التي كانت تزين حواشيها بأشكال مختلفة، استجابة للذوق والموضوعات الموجهة إليها.

استمرت صناعة الورق مزدهرة في اليابان طوال العصور الوسطى اليابانية (١١٨٥ ـ ١٥٥٩)، حيث انتشرت ورش صناعة الورق في جميع أرجاء اليابان، واختص كل إقليم بنوع خاص من الورق بحسب ما يتوافر عليه من المواد الأولية التي تدخل في تحضير عجينه. ورغم قلة الطلب على الأصناف الرفيعة، فإن استعمال الورق بشكل مكثف في تهيئة الدور والمنشآت العمرانية، نما استهلاكه وأُكثر من الطلب عليه. أما في عصر توكوغاوا، موضوعنا الرئيسي، فإن انتشار التعليم، وازدهار الطباعة، والاستعمال الرسمي، وتعدد مجالات الاستعمال الأخرى، كل ذلك أدى إلى زيادة هامة في استهلاك الورق وإنتاجه. وهكذا، لم يخل هان واحد من الهانات من مصنع لهذه المادة لسد الحاجات المحلية وتزويد العاصمة **إيدو** ومدينتي **كيوطو** و **أوساكا**، حيث ازدهرت دور النشر وزاد الإقبال على الورق. وخلاصة القول، إنه قد توافر لليابان أحد المقومات الأساسية لازدهار الطباعة والنشر في عصر التوكوغاوا، ألا وهو الورق.

ثالثاً: رحلة الخط من الصين إلى اليابان

إضافة إلى الورق، مثّل فن الخط عنصراً مهماً آخر في الطباعة، على النحو الذي تطورت به في اليابان. والخط، سواء في الثقافة اليابانية أو الثقافات الشرق الآسيوية المتأثرة بالصين، يُعتبر فناً قائماً بحد ذاته؛ فاللفظ الياباني شودو (Shodo) (أو طريق الكتابة) يتضمن معنى وحقلاً دلالياً يفوق مجرد إتقان الكتابة باليد وضبط رسم الحروف ومقاييسها، كما هو المراد من لفظ Calligraphy في اللغة الإنكليزية ومثيله في اللغات الأوروبية .ذلك أن مصطلح شودو يحيل إلى ثقافة بكاملها وإلى فرع من فروع المعرفة الضرورية لثقافة الفرد. ففن الخط في اليابان، كما في الصين، فن رفيع يماثل الرسم وقرض الشعر؛ ذلك أن تصنيف الفنون في ثقافة هذين البلدين يعتمد معايير تختلف عن تلك المتبعة في الثقافة الغربية؛ فهي ترتب بحسب قربها أو بعدها من الفكر والوجدان. وبما أن فن الكتابة هو الأداة الأولى لنقل فكر الإنسان وأحاسيسه على الورق، فإنه يصنَّف مع الرسم في المرتبة الأولى. غير أن قرب الخط من الروح ليس بالمفهوم الخاص بالصين، بل نجده حاضراً في ثقافات أخرى. فقد أورد **الماوردي** في **أدب الدنيا والدين** هذا الاستشهاد: «قال حكيم الروم: الخط هندسة روحانية وإن ظهرت

بآلة جسمانية، وقال حكيم العرب: الخط أصيل في الروح وإن ظهر بحواس الجسد»[٢٣]. ولعل الثقافة الإسلامية الأقرب إلى الثقافة الصينية من حيث إيلاء الخط عناية خاصة، حيث اعتُبر الخط فناً، وموضوع إبداع، وعنصر جمال وتزيين في العمارة، وغيرها.

اعتباراً لهذه المكانة التي حظي بها الخط في ثقافات الشرق الأقصى عموماً، ساد لدى اليابانيين اعتقاد أن الامتياز في هذا الفن تعبير عن سمو وجدان الفرد، وإنجاز لا يحققه إلا القليل من الأفراد[٢٤]. ومن ثم لقي عناية خاصة في المقررات التعليمية التقليدية، وظل يدرّس كموضوع رئيسي طوال تاريخ اليابان ـ وما يزال يدرّس اليوم في المدارس الابتدائية والثانوية، وتنظَّم حوله مباريات وطنية ومحلية بصورة دورية. فإضافة إلى التحكم في استعمال الفرشاة والحبر، كان الهدف من شودو، وما يزال، التربية على الانضباط والإحساس بالجمال، وتنمية الذوق السليم، والسمو بالأخلاق.

انتقل فن الخط إلى اليابان في إثر تبنّي نظام الكتابة الصيني في القرن السادس الميلادي تقريباً، حيث كان اليابانيون في البداية مجرد مقلدين لما كان سائداً في الصين من نماذج كتابية. ويعتبر الراهب البوذي **كوكاي** (٧٧٤ ـ ٨٣٥)[٢٥]، الذي أقام مدة في الصين، أول من استوعب أساليب الخط التي كانت سائدة في عصر إمبراطورية **تانغ** الصينية، وعمل على نشرها في اليابان[٢٦]. ورغم استمرار تقليد الصين في هذا المجال، فإن ابتكار مقاطع الـ «**كانا**» كرديف لرموز «الكانجي» (الصينية) لكتابة اللغة اليابانية، جعل اليابانيين يبتكرون أساليب خاصة بهم، ويعملون على تبيئة أساليب الخط الصيني. ذلك أن مقاطع الـ «كانا» كانت تُرسم بلمسة واحدة من الفرشاة، أو بخط واحد متصل، في حين أن كل خط في رموز «الكانجي»، المكونة من خطوط عمودية

---

(٢٣) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق مصطفى السقا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨)، ص ٦٨. وقد جاء هذا الاستشهاد ضمن باب العلم. تجدر الإشارة إلى أن هناك جدلاً بين الباحثين حول المقصود بحكيم الروم، غير أن ابن النديم يورد في **الفهرست** الاستشهاد ذاته لكن بنسبته إلى صاحبيه: «قال إقليدس: الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمانية. وقال النظام: الخط أصيل في الروح وإن ظهر بحواس البدن». انظر: ابن النديم، **الفهرست**، ص ١٦.

(٢٤) انظر مادة: «Calligraphy,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 232.

(٢٥) سبق التعريف بهذا الراهب في فصل سابق.

(٢٦) ويتعلق الأمر بثلاثة أساليب للكتابة كانت متداولة آنذاك في إمبراطورية تانغ. ولسبب غير خاف، يصعب علينا شرح الاختلاف بينها. انظر: McCullough, «Aristocratic Culture,» p. 416.

وأفقية ومائلة، كان يُرسم على حدة. ولعل الكتابة بمقاطع الـ «كانا»، التي قد تتداخل أحياناً في ما بينها ـ كما هو الشأن في اللغة العربية ـ هو ما جعل اليابانيين يفضلون الطباعة بالنقش على الخشب حتى بعد تعرفهم على الطباعة بالقطع المتحركة في نهاية القرن السادس عشر، كما سنبين ذلك. وعلى أي حال، استمر التأثير الصيني حاضراً في تطور فن الكتابة الياباني؛ إذ كانت المستجدات التي تحدث في الصين تصل إلى اليابانيين تباعاً طوال العصور الوسطى اليابانية. ففي هذا الصدد، قامت طائفة الزن البوذية، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بدور الوسيط بين اليابان وإمبراطورية **سونغ** الصينية (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) التي عاشت فترة ازدهار تطورت فيها فنون كثيرة[٢٧]. فرهبان هذه الطائفة ومبشريها ـ من اليابانيين والصينيين ـ حملوا خلال تنقّلهم ذهاباً وإياباً بين القارة والأرخبيل، عدداً من المؤلفات المكتوبة بخطوط مختلفة، وكذا مصنفات خاصة بالخط ذاته. وقد استمروا في القيام بهذا الدور إلى حدود منتصف القرن السابع عشر .

رابعاً: الطباعة والنشر في عصر توكوغاوا

في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وصلت إلى اليابان تقنيتان جديدتان للطباعة، واحدة من كوريا والأخرى من أوروبا. ورغم تباعد الشقة بين مصدريهما، فإنهما كانتا متقاربتين كثيراً من حيث المبدأ. ويتعلق الأمر بالطباعة بواسطة القوالب أو الأحرف المتحركة، التي تُعتبر المبدأ الأساسي في اختراع **غوتنبرغ**. وقد أشرنا سلفاً إلى أن هذا الأخير كان مطوراً لواحدة من تقنيات الطباعة في عصره أكثر مما كان مبتكراً لمبدأ جديد في الطباعة، وأنه حتما لم يكن المخترع الأول للطباعة. وفي هذا الصدد، يؤكد مصدر صيني يعود إلى القرن الحادي عشر، أي إلى عصر أُسرة **سونغ**، أن أحد العامة، ويدعى **بي شانغ**، توصل إلى الطباعة بحروف متحركة، مضيفاً تفصيلاً لهذا الابتكار الذي اعتمد صاحبه على قوالب من الطين المشوي[٢٨]. غير أن ابتكاره هذا لم يلق نجاحاً في بلده الصين لأسباب متعددة، منها كثرة الرموز في نظام الكتابة الصيني، وهي بالآلاف، وعدم ملاءمة قوالب الطين لها، إضافة إلى هشاشة الطين وعدم احتماله الاستعمال المتكرر. ويبدو أن فكرة **بي شانغ** انتقلت إلى كوريا، حيث جرى في

---

(٢٧) إمبراطورية سونغ (Sung) تُعرف أيضاً ببينين سونغ (Pinyin Song). حكمت الصين من عام ٩٦٠ إلى عام ١٢٧٩.

(٢٨) انظر: ستيبتشفيتش، **تاريخ الكتاب: القسم الثاني**، ص ١٤-١٥.

القرن الثالث عشر تطوير نمط للطباعة بحروف متحركة مصوغة من المعدن[٢٩]. ومن المرجح أن يعود تاريخ أقدم كتاب طُبع بهذه الطريقة في كوريا ـ رغم أنه لم يحتفظ بأية نسخة منه ـ إلى عام ١٢٣٩[٣٠]. لكن في حكم الأكيد أن الدولة الكورية قامت في مطلع القرن الخامس عشـر (١٤٠٣) بإنشاء مصنع لصهر قوالب الحروف المتحركة المستعملة في الطباعة، وأشرفت على طباعة عدد من الكتب والمنشورات بهذه الطريقة[٣١]. وليس مستبعداً أن يكون هذا الابتكار الكوري ـ الصيني قد عرف طريقة إلى أوروبا، حيث جرى تطوير الطباعة التيبوغرافيية في منتصف القرن الخامس عشر.

وعندما قامت القوات اليابانية في عهد **تويوتومي هيدي ـ يوشي** بغزو كوريا في عامي ١٥٩٢ و١٥٩٧، كان ممّا أخذته معها نماذج من مطابع تشتغل بالقوالب أو الحروف المتحركة المعدنية. وقد جرى تقديم هذا الابتكار الجديد إلى الإمبراطور **غو يوزيئي** (١٥٨٦ ـ ١٦١١)[٣٢]، الذي أمر بصنع نموذج مماثل لكن بحروف متحركة من الخشب. وبالفعل جرى تحضير المطبعة، وتمت طباعة ٨ كتب بأمر من الإمبراطور، لم يكن الغرض منها البيع أو التداول العام بقدر ما كان تقديمها كهدايا، ومناسبة لتجزية وقت الإمبراطور وتسليته بهذا الاختراع. كما استغل **توكوغاوا إياسو** الابتكار الكوري مستعملاً حروفاً من معدن البرونز، وتبناه بعض المعابد البوذية[٣٣]. لكن رغم جودة المطبوعات المحضرة بهذه الطريقة، فإن استعمالها ظل محدوداً جداً، وذلك لأسباب تتعلق بعدم صلاحيتها لنظام الكتابة الصيني الكثير الرموز ولتداخل مقاطع الـ «كانا»، وأسباب أخرى تتعلق بتكلفتها العالية ومستلزماتها وتعقّد تقنيتها، مقارنة بالطباعة عن طريق النقش على الخشب المفصلة أعلاه. وهكذا جرى التخلي عنها في العقود الأولى من القرن السابع عشر، لصالح الطريقة التقليدية المأخوذة عن الصين منذ مئات السنين.

وفي العقود الأخيرة من القرن السادس عشر أيضاً، أدخل المبشرون

---

(٢٩) «The Korean Overseas Culture and Information Service,» in: *A Handbook of Korea* (Seoul: Samsung Moonwha Printing, 1998), p. 324.

(٣٠) ستيبتشفيتش، المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣١) «The Korean Overseas Culture and Information Service».

(٣٢) الإمبراطور «غو يوزي» (Go-Yozei)، هو الإمبراطور السابع بعد المئة ضمن السلالة الإمبراطورية. وقد ولد سنة ١٥٧٢ وتوفي سنة ١٦١٧.

(٣٣) انظر مادة: «Printing,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*.

اليسوعيون إلى اليابان أول مطبعة تيبوغرافية على النمط الأوروبي، حيث جرى تركيبها في بلدة قريبة من **ناغاساكي**. ورغم أن هذه المطبعة كانت تعمل أساساً بالحروف اللاتينية ولخدمة نشاط البعثة التبشيرية، فإنها استُغلت بشكل محدود جداً في طباعة بعض المؤلفات باللغة اليابانية أو المترجمة إليها، باستعمال الرموز الصينية ومقاطع الـ «هيراغانا». وكيفما كان الأمر، فقد ظل دورها ثانوياً، وكان تأثيرها شبه منعدم في ما عرفته الطباعة من ازدهار خلال الفترة اللاحقة(٣٤). وعموماً، فإن الكتب التي طُبعت بالتقنيتين الكورية والأوروبية، منذ دخولها إلى اليابان في نهاية القرن السادس عشر حتى تم التخلي عنها في العقود الأولى من القرن السابع عشر، لم يتعد عددها ٣٠٠ مطبوعة، وهو ما مثّل نسبة ٢٠ بالمئة من العناوين التي طُبعت في تلك الفترة(٣٥).

لعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن أول وهلة هو: لماذا لم يأخذ اليابانيون بالطباعة التيبوغرافية، سواء الوافدة عليهم من كوريا أو من أوروبا؟ كنا قد أشرنا إلى أن كثرة الرموز شكّلت عائقاً إجرائياً في هذا الباب، غير أن بعض الباحثين يشدد أكثر على الجانب الفني، إذ يرى أن التقنية الوافدة لم يكن في إمكانها المحافظة على جمالية الرموز كما يبدعها الخطاطون، كما كان من المتعذر تقنياً طبع الرسومات التي كانت تصحب النصوص عادة، وتُعتبر جزءاً منها(٣٦).

أما الباحث **دافيد تشيبت**، فإنه يغلّب الجانب الاقتصادي، فيرى أن التزود بكميات كبيرة من معدن البرونز والاحتفاظ بها، شكلا عائقاً مادياً وتكلفة باهظة بالنسبة إلى المستثمرين في مجال الطباعة التجارية(٣٧). ويعزز **كونراد توتمان**، المختص بتاريخ الفترة، هذا الرأي، مضيفاً أن معدن البرونز أصبح في القرن السابع عشر يستعمل بكثرة في سك النقود، وهو ما دفع سلطات الباكوفو إلى مراقبة إنتاج هذا المعدن واستعمالاته(٣٨). وفي اعتقادنا أن هذه الأسباب مجتمعة، سواء أكانت إجرائية أم اقتصادية أم فنية، هي التي حملت اليابانيين على إهمال

---

(٣٤) انظر: Donald, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867*, p. 2.

(٣٥) انظر: Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 164.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٣ ـ ٤.

(٣٧) David Chibbett, *The History of Japanese Printing and Book Illustration* (Tokyo: Kodansha, 1977), p. 78.

(٣٨) Conrad Tottman, *Early Modern Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), p. 198.

الطباعة التيبوغرافية والاستغناء عنها، رغم استئناسهم بتقنيتها، إذ لم يعودوا إليها إلا بعد إصلاحات الميجي.

خامساً: دور النشر

بدأ انتشار دور الطباعة والنشر في العقود الأولى من القرن السابع عشر، وبلغ أوجه في القرن الثامن عشر، ثم سار بوتيرة متسارعة إلى حين قيام إصلاحات الميجي. وقد تولت مدينة **كيوطو** الريادة في البداية قبل أن تلتحق بها وتنافسها مدينتا **إيدو** و**أوساكا** على دورها كمركز رئيسي لنشر الكتاب. فـ **كيوطو** بقيت محافظة على وظيفتها الثقافية والروحية، رغم فقدانها مكانتها السياسية في العصور الوسطى (اليابانية)؛ حيث ظلت طوال هذه العصور مقراً لأكبر المعابد ومراكز النشر التابعة لها، وكذا دور الطباعة الخاصة ومعاهد التدريس الكبرى. ومن ثم كانت هذه المدينة، في الفترة الأولى من عصر **التوكوغاوا**، الأكثر تأهلاً للقيام بهذا الدور إلى أن حلّت العاصمة **إيدو** محلها. ويلخص الجدول التالي، المأخوذ من نتائج الدراسات التي قام بها أحد المختصين اليابانيين بتاريخ الطباعة، التطور الحاصل في انتشار دور الطباعة وتوزيعها بين المدن الثلاث، من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر:

الجدول الرقم (١١ ـ ١)

تطور أعداد دور النشر وتوزيعها بحسب موقعها

الفترة الزمنية	كيوطو	إيدو	أوساكا	المجموع
القرن السابع عشر	٧١٠	٢٤٢	١٨٥	١١٣٧
القرن الثامن عشر	٥٣٦	٤٩٣	٥٦٤	١٥٩٣
منتصف القرن التاسع عشر	٤٩٤	٩١٧	٥٠٤	١٩١٥

المصـدر: Katsuhisa Moriya, «Urban Networks and Information Networks,» in: Chie Nakane and Shinzabur Oishi, eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*, edited by Conrad Totman (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 115.

تُستخلص من الجدول الرقم (١١ ـ ١)، إضافة إلى تراجع **كيوطو** واحتلال **إيدو** مكان الصدارة كمركز للطباعة، زيادة حثيثة في أعداد دور النشر طوال عصر **التوكوغاوا** إلى أن بلغت في نهايته حوالى ٢٠٠٠ دار. هذا مع الإشارة إلى وجود دور نشر أخرى في مراكز حضرية من غير تلك المشار إليها في الجدول.

فبحسب المصدر نفسه، كان هناك ٤٠٧ دور نشر أخرى موزعة على ٦ أقاليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر(٣٩).

لا شك أن وجود ما ينيف على ٢٠٠٠ دار للنشر أمر مثير للدهشة، وليس له من تفسير سوى رواج سوق الكتاب. لكن ما يجب التنبيه إليه **أولاً** هو أن المقصود بدار للنشر ليس ما قد يخاله القارئ بمعاييرنا الراهنة؛ فدور النشر كانت في مجملها دكاكين لبيع الكتب، وورشاً للطباعة يراوح عدد العاملين في كل منها بين خمسة أو ستة أفراد، على نحو ما وصفناه آنفاً. فهي أقرب ما تكون شبهاً بحوانيت الوراقين في بغداد في العصر العباسي، حيث كان الوراق يجمع بين النسخ وبيع الكتب. و**ثانياً**، أن الإحصاءات المبينة أعلاه هي إحصاءات شملت دور النشر التي احتفظت الوثائق بأسمائها، أو جرى التعرف عليها عن طريق مطبوعاتها، في حين أن بعض هذه الدور لم يدم طويلاً أو دام بضعة أشهر فحسب. ومع ذلك، فإن هذين التنبيهين لا يقللان في شيء مّما قصدناه من توسع مجال الطباعة. فهناك في المقابل دور نشر استمرت ناشطة فترة طويلة زادت على القرنين من الزمن، كما أن عدد دور النشر التي ظهرت خلال عصر التوكوغاوا، بلغ في مجمله أكثر من ٣٠٠٠ دار (بالضبط. . . .)، وهو في اعتقادنا مؤشر قوي على ازدهار سوق الكتاب، وإقبال جمهور عريض على القراءة.

هناك عوامل متعددة تبرر وجود هذا العدد الكبير من دور النشر، وتفسر ظاهرة توسع مجال الطباعة. ولعل العامل **الأول** والأكثر تأثيراً هو انتشار المعرفة بالقراءة والكتابة: فلولا الإقبال على الكتاب، لما وجِدت دور للنشر حسب قانون العرض والطلب؛ ذلك بأن تحوّل الساموراي من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلم، وبالتالي تحولهم من فئة محاربة إلى أخرى مقبلة على المعرفة وساعية إلى التحصيل، وكذا بزوغ فئة التشونين في المدن التي نالت حظاً من التعليم وأقبلت بدورها على القراءة، عملا معاً على إيجاد جمهور واسع من القراء. وفي مقابل ذلك، كان تيسير الكتاب عبر طباعة سهلة التقنية، وتنويع الموضوعات المتناولة، حافزين على الإقبال على التعلم والقراءة، كما أشرنا سلفاً. فهناك علاقتان سببية وجدلية عملتا إيجابياً على ازدهار صناعة الكتاب من جهة، وارتفاع نسبة العارفين بالقراءة من جهة ثانية. يضاف إلى هذا العامل، الدعم الرسمي والتشجيع الذي حظي به

(٣٩) يتعلق الأمر بناغويا (Nagoya)، وإيسي (Ise)، وهيروشيما (Hiroshima)، وكانازاوا (Kanazawa)، سينداي (Sendai)، وناغاساكي (Nagasaki).

الكتاب من قِبل أُسرة **توكوغاوا**. فقد أورد أحد مؤرخي هذه الأُسرة، على لسان مؤسسها **إياسو**، قوله:

إن لم يكن باستطاعتنا توضيح مبادئ العلاقات الإنسانية، فإن المجتمع والحكومة لن يعرفا الاستقرار، والفوضى لن تعرف نهاية. والكتب هي الوسيلة الوحيدة لنشر هذه المبادئ وجعلها مفهومة. لذا، فإن طباعة الكتب ونشرها بين عموم الناس هما الاهتمام الأول الذي يجب أن يكون لكل حكومة هدفها الخير والنفع العام[٤٠].

وواقع الأمر أن اهتمام **إياسو** بالكتاب جاء في إطار نشر مبادئ الكونفوشيوسية، التي اتخذتها **التوكوغاوا** أيديولوجيا لدعم نظامها. وبالفعل، قدم **إياسو** دعماً مالياً للنشر، واستغل التقنية المستوردة من كوريا في طباعة عدد من المؤلفات التي تخدم أهدافه. ومع ذلك، لم تشرف الدولة على قطاع الطباعة الذي ظل في أيدي الخواص، حيث لم تسهم المؤسسات العمومية إلا بالنزر اليسير في هذا المجال، بينما كانت مساهمتها بطريق غير مباشر عبر تشجيعها التعليم وإنشاء المعاهد والمؤسسات التعليمية.

ومن العوامل المساعدة أيضاً، أن عملية الطباعة لم تكن في حاجة إلى رأس مال كبير؛ فحسب الوصف الذي قدمناه في مطلع هذا الفصل، لم تكن تقنية الطباعة بالنقش على الخشب تحتاج إلى معدات أو آليات معقدة، ومن ثم كان الاستثمار فيها بسيطاً، مقارنة بمؤسسات النشر الأوروبية المعتمدة على التقنية التيبوغرافية. ففي أوروبا، كانت عملية النشر موزعة بين الطابع، الذي كان في حاجة إلى آلة طباعة وأصناف متنوعة من الحروف المصوغة في قوالب معدنية، وبين الناشر الذي كان يؤجر خدمة الطابع ويعمل على توزيع الكتاب[٤١]. أما في اليابان، فكان الطابع هو الناشر والموزع في آن واحد، في حين شكلت المعرفة أو المهارة اليدوية أهم استثمار يقوم به في هذا المجال؛ إذ كان إتقان

---

(٤٠) هذا النص مقتطف من تأريخ لأُسرة توكوغاوا يُنسب إلى المؤرخ ناروشيما موتوناوو (Narushima Motonao). وقد ورد مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: Ryusaku Tsunda, ed., *Sources of Japanese Tradition*, 2 vols. (New York: Columbia University Press, [1964]), vol. 1, pp. 331-332.

(الترجمة إلى العربية من إنجاز الباحث).

(٤١) Henry D. Smith II, «The History of the Book in Edo and Paris,» in: James L. McClain, John M. Merriman and Ugawa Kaoru, eds., *Edo and Paris: Urban Life and the State in the Early Modern Era* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1997).

عملية النقش على الخشب وإجادة فن الخط هما الأمرين الضروريين في المقام الأول للحصول على طباعة جيدة. وعموماً، كانت دور النشر اليابانية في عصر **إيدو** عبارة عن مقاولات صغيرة خاصة لا تخرج عن نطاق الحِرف اليدوية الأخرى؛ إذ كانت في الأساس مؤسسات عائلية يعمل فيها أفراد الأُسرة الواحدة الذين يتقاسمون العمل في ما بينهم، ويورثون مهاراتهم من جيل لآخر؛ فحتى نساء الأُسرة كن يساهمن في تهيئة الكتاب في مراحله الأخيرة، بالجمع والخياطة والتجليد. أما الاستعانة بمن هم غرباء عن العائلة، فكانت تتم عبر استئجار نقاشين وخطاطين ورسامين، أو توظيفهم عند الحاجة، أو في حال توسع المقاولة. وكيفما كان الأمر، فقد كان المنخرطون في حرفة الطباعة منضويين تحت تنظيم حرفي تحكمه أعرافه الخاصة، شأنه شأن التنظيمات الحرفية لأخرى[٤٢]. مع الإشارة، إلى أن محترفي النقش على الخشب كانوا منضويين تحت تنظيم حرفي فرعي خاص بهم. وقد اعترفت سلطات الباكوفو في مطلع القرن الثامن عشر بهذه التنظيمات الحرفية فأصبحت الأخيرة معترفاً بها رسمياً.

لقد شكّل توافر الورق وترسخ صناعته وثقافته في المجتمع الياباني عاملاً مساعداً آخر على انتشار الطباعة؛ فانتشار التعليم وازدياد إقبال السلطات المركزية والإقليمية على الورق دفعا بالدايميو إلى إقامة معامل جديدة لتحضير الورق في هاناتهم. وقد اشتهرت مدينة مينو[٤٣] بصناعة الورق الذي كان يستعمل في الطباعة، حيث إن القياس الذي كانت تصنع عليه الورق أصبح قياساً معيارياً لدى معظم الطابعين في اليابان.

سادساً: رواج الكتاب

لم يحدث تحوّل يُذكر في تقنية الطباعة في القرن السابع عشر، لكن تحولاً حقيقياً وتغيراً جذرياً حصلا في أصناف المطبوعات وموضوعاتها وتخصصاتها المعرفية. فالطباعة التي كانت تهيمن عليها المعابد والمؤسسات الدينية وتحتكرها في نشر مطبوعاتها، تحولت إلى طباعة تجارية متحررة ومتفتحة على جميع أصناف

(٤٢) انظر: المصدر نفسه، و D. H. Shively, «Popular Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 4, and John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), p. 731.

(٤٣) من المدن القلاع التي ظهرت مع التوسع العمراني في القرن السادس عشر.

المعرفة والكتابات. والطباعة من أجل الربح دفع الناشرين إلى طباعة الكتب التي يُقبل عليها القراء، وترضي أذواقهم وتطلعاتهم. فبالإضافة إلى أدبيات الكونفوشيوسية، وغيرها من الكتب التي كانت مقررة في البرامج التعليمية، كانت المؤلفات التاريخية والأدبية، أو ذات الطابع الأدبي، والترفيهية والعملية والكتب المبسطة أكثر الكتابات استفادة من عملية النشر. ومع ازدياد نسبة العارفين بالقراءة وارتقاء ثقافة التشونين في المدن ـ منذ أواخر القرن السابع عشر ـ تنوعت المطبوعات لترضي جمهوراً من القراء عريضاً ومتعدد المشارب، إذ لم تعد الكتب التعليمية تشكل سوى نسبة محدودة من المطبوعات. وفي ما يلي أهم المجالات التي شملتها الطباعة خلال عصر توكوغاوا، بغضّ النظر عن تطور نسبها:

١ ـ الكتب التعليمية أو ذات الصلة بمناهج الدراسة، التي كانت مقررة في مدارس الساموراي. وهي كتب اهتمت أساساً بالأدبيات الصينية الكلاسيكية، خاصة الأصول الكونفوشيوسية وشروحها، والشعر الصيني، والعلوم المأخوذة عن الصين، كالطب والرياضيات، وكذا العلوم العسكرية والمهارات الحربية وأخلاق الساموراي، مع ما يضاف إليها من كتب مدرسية عامة، كتلك المتعلقة بتعليم اللغة وقرض الشعر أو المعاجم، وغيرها، التي كانت تستفيد منها مدارس «العامة» (التيراكويا). ويشار أيضاً إلى أن بعض المعاهد كان يمتلك ورش طباعة خاصة به لرفد طلبته بما يحتاجون إليه من الكتب المقررة(٤٤)، أو كان يتعاقد مع دور نشر للقيام بذلك.

٢ ـ الأدبيات اليابانية الكلاسيكية، كالمؤلفات التاريخية من قبيل «الكوجيكي» و«نيهون شوكي»، وكتب الملاحم والقصص التي أُلفت في عصري **هييان** و**كاماكورا**.

٣ ـ المؤلفات الأدبية والتاريخية المعاصرة، ونعني بها ما كان يؤلف في حينه من نصوص تاريخية وقصصية وشعرية ومسرحية (لمسرح الكابوكي على الخصوص). مع التشديد هنا على الازدهار الذي عرفه النتاج الأدبي في عصر التوكوغاوا، والذي خصصنا له فقرة في فصل آخر.

(٤٤) Ronald Philip Dore, *Education in Tokugawa Japan* (Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1992), p. 110.

٤ ـ كتب الإرشاد والتعليم المبسطة، وهي كتب متعددة الأغراض، منها: كتب الإرشاد السياحي التي تعرّف القارئ على المدن والمآثر وطرق الوصول إليها، وكتب تعليم العزف على الآلات الموسيقية، وكتب تهيئة الحدائق، وكتب تصفيف الزهور (إيكيبانا)، والكتب التعليمية الميسرة التي تستهدف الفلاحين والصنّاع. فعلى سبيل المثال، ظهرت منذ أواخر القرن السابع عشر كتب حول استعمال الأدوات الزراعية والمخصبات وكيفية زراعة القطن[٤٥].

٥ ـ الكتب الترفيهية أو «الخفيفة»، وهي التي تناولت الموضوعات التي كان يقبل عليها عامة الناس ممن نالوا حظاً يسيراً من التعليم، وكانت من قبيل القصص الغرامية المبسطة المستقاة من التراثين الصيني والياباني، والكتب الإباحية أو المتناولة للموضوعات الجنسية الفاضحة، والتي كان يتم تيسير انتشارها وجذب القراء إليها، من طريق تزيينها برسومات وصور (تُعرف بـ إيزوشي ezoshi)، أو تحرر بمقاطع الـ «الكانا» السهلة القراءة. ومن باب الإشارة، نذكر أن تياراً ظهر في القرن السابع عشر دعا أصحابه إلى الاقتصار على الكتابة بمقاطع الـ «الكانا» فقط، وقد كانت كتابتهم تُعرف بـ «كانا زوشي». ويجد القارئ معلومات إضافية عن هذا التيار في الفقرة المخصصة للكتابة الأدبية في عصر توكوغاوا[٤٦].

هذا التوسع في مجال النشر يدل على تطور نوعي في مجال الكتابة لم يحصل في جُل ثقافات العالم في الفترة ذاتها، باستثناء ثقافات بعض الدول الأوروبية، ولعل في ذلك ميزات تُحسب لصالح اليابان عند مقارنتها ببعض الدول التي يُعتقد أنها كانت مماثلة لها أو كانت وإياها في مستوى واحد من التطور. وأولى هذه الميزات تحرر الكتابة والنشر من هيمنة الموضوعات الدينية أو المقررات التعليمية ذات الصلة الوثيقة بها. وإن رمنا المقارنة بالوطن العربي، فإننا لن نجد ربما مثيلاً لهذا التنوع أو تنوعاً قريباً منه إلا في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، كما يستخلص من **فهرست** ابن النديم المستدل به سلفاً.

---

(٤٥) انظر: Tsuneo Oishi, «Tokugawa Village and Agriculture,» in: Chie Nakane and Shinzaburo Oishi, *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*, translated and edited by Conrad Totman (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 78.

(٤٦) اعتمدنا في تحديد هذه المجالات، وكذا الفقرات التالية، على المراجع التالية: Shively, «Popular Culture;» Smith II, «The History of the Book in Edo and Paris;» Katsuhisa Moriya, «Urban Networks and Information Networks,» and Donald, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867*.

إن تنوع موضوعات الكتب هذا يدفعنا حتماً إلى التساؤل عن الكميات المطبوعة، وعدد العناوين التي كانت تصدر عن دور النشر سنوياً. وفي غياب إحصاءات دقيقة في هذا الشأن، تصدى أكثر من باحث لهذا الموضوع، واتّبع كلٌّ منهم طريقة خاصة للتوصل إلى إحصاءات تقريبية؛ فالباحث الياباني **كونتا يوزو**، الذي اعتمد على فهارس (أو كتالوغات) باعة الكتب، توصل إلى أن عدد العناوين التي احتوتها هذه الفهارس عام ١٦٩٢، كان في حدود ٧٢٠٠ عنوان. واعتماداً على تقديرات وحسابات أخرى قام بها، خلص إلى أن المعدل السنوي خلال القرن السابع عشر وإلى غاية العام المذكور كان ١٠٠ عنوان سنوياً. وفي القرن الموالي، وبالضبط في الفترة الممتدة بين عامي ١٧٣١ و١٨١٤، أصبح عدد العناوين التي نشرتها مطابع **كيوطو** و**إيدو** و**أوساكا** مجتمعة يراوح، بحسب تقديره، بين ٣٦٠ و٦٠٠ عنوان سنوياً. ويشير إلى أن الباحث لم يُدخل في تقديراته سوى المؤلفات الأكاديمية والكتب الجادة، مستثنياً الكتب «الخفيفة» أو الهزيلة كالتي تعتمد على الرسومات. أما الباحث الأمريكي **ريمون نان**، الذي اعتمد طريقة أخرى، فقد توصل إلى أن حصيلة ما طُبع طوال الفترة الممتدة من عام ١٦٠٠ إلى عام ١٨٦٨، انحصر في ١٩٥,٠٠٠ عنوان. وبعد إقصاء بعض المطبوعات، وإجراء تعديلات أخرى، خلص إلى تقدير يقول بأن معدل ما نُشر إلى غاية عام ١٧٣٠ كان ٢٣٦ عنواناً سنوياً. وفي الفترة الموالية، التي تنتهي بإصلاحات الميجي، كان ٥١٠ عناوين سنوياً. لكن هذا الرقم يبقى في نظره قابلاً للتعديل، لأن عدداً من العناوين اندثرت ولم يعثر على أثر لذكرها في ما اعتمده من مصادر. وما يمكن استخلاصه من هذه التقديرات، على اختلاف الطرق المتبعة، أن معدل العناوين المنشورة في القرن الثامن عشر فاق ٦٠٠ عنوان سنوياً، مع الإشارة إلى أن هناك باحثين آخرين رفعوا تقديراتهم إلى أرقام تتجاوز حدود المعقول، ولا نرى حاجة لذكرها.

ولعل ما يفيدنا أكثر في هذا الباب، هو المقارنة بين اليابان وبلدان أخرى في الفترة ذاتها، أو في ظروف تاريخية مشابهة. ففي هذا الصدد، خلص الباحث **هنري سميث**، الذي قارن بين صناعة الكتاب في كلٍّ من فرنسا واليابان، إلى أن معدل عدد العناوين المنشورة في اليابان قبل إصلاحات الميجي، وعددها في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، لم يكونا متفاوتين بشكل كبير. أما في ما يخص العالم الإسلامي، فقد لا يغيب عن القارئ التعثر الذي لاقته الطباعة التيبوغرافية في الدولة العثمانية، حتى وإن كان التعرف عليها مبكراً في مركز الدولة وأطرافها،

وكذا تأخر دخول الطباعة الحجرية إلى جُل دول الوطن العربي إلى القرن التاسع عشر واقتصارها في المراحل الأولى على المطبوعات الدينية، حيث لم تتجاوز العناوين المطبوعة خلال القرن التاسع عشر بكامله في بعض الدول ١٠٠٠ عنوان في أحسن الأحوال[٤٧].



كتب مطبوعة ومنشورة في عصر ايدو



(٤٧) على سبيل المثال، انظر: فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب، ١٨٦٥ - ١٩١٢**، تعريب خالد بن الصغير (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٦)، خاصةً الفصل الرابع، تحت عنوان: «الطباعة في العالم الإسلامي»، ص ١٠٣ - ١٢٣. ومن باب المقارنة مع المغرب، نذكّر بأن الطباعة الحجرية دخلت إلى المغرب حوالى ١٨٦٥، وأن عدد العناوين التي طبعت به لم يتجاوز بضع مئات.

أشرنا في فقرة سابقة إلى أن نقطة الضعف الأولى للطباعة الـ «زيلوغرافية» تكمن في عدم تحمّل الألواح أو القوالب الخشبية الاستعمال المتكرر، ومحدودية الأعداد المستنسخة الممكنة من اللوح الواحد. وقد أمكن التغلب نسبياً على نقطة الضعف هاته باختيار الأنواع الجيدة من الخشب، ومع ذلك ظل عدد النسخ المطبوعة يراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ نسخة، مع الأخذ في الاعتبار تكرار طبع الكتاب الواحد، وإمكانية الطباعة المقرصنة أو غير المشروعة. ففي هذا الصدد، نشير إلى أن الكتب التي يكثر الإقبال عليها، كان يُطبع منها ما ينوف على ٤٠٠٠ نسخة في السنة الواحدة، وهو ما يعني أنه كان على الطابع أن يعيد نقش الألواح وتجديدها ٨ مرات على الأقل[٤٨]. ومّما استرعى انتباهنا في بحثنا عن عدد النسخ التي كانت تُطبع من الكتاب الواحد، هذا الاستثناء الذي وقع في نهاية عصر توكوغاوا. ففي عام ١٨٦٧، عندما نشر **فوكوزاوا يوكيتشي** كتابه عن أحوال الغرب (أو أشياء غربية)، جرت طباعة حوالى ١٥٠,٠٠٠ نسخة منه[٤٩]. ونعتقد أن هذا الرقم كاف في حد ذاته لأخذ فكرة تقريبية عن المدى الذي وصل إليه رواج الكتاب وانتشار التعليم والإقبال على القراءة عشية إصلاحات الميجي، ولعله يغنينا عن المزيد من القول في هذا الباب.

سابعاً: عوامل مساعدة أخرى

شكّلت المكتبات ومحلات الإعارة الخاصة عنصراً آخر ساهم بشكل كبير في رواج الكتاب وتداوله. فقد كانت جُل المعاهد الخاصة بأبناء الساموراي مزودة بمكتبات لتوفير الكتب المقررة، وغيرها مما يحتاج إليه الطلبة والمعلمون. وكانت هذه المكتبات تخضع لقوانين تميز بين الكتب التي تنحصر قراءتها داخل المجمع التعليمي وتلك التي يمكن إعارتها وأخذها خارج المجمع[٥٠]، بينما شكّلت مصاريف شراء الكتب وطبعها وترميمها قسطاً لا يستهان به ضمن الميزانيات

---

(٤٨) Moriya, «Urban Networks and Information Networks,» p. 116.

(٤٩) يقول المؤلف في مذكراته: «لقي سايو جيجيو (أشياء غربية) من بين إصداراتي أكبر رواج وأقبل عليه عدد كبير من القراء. وبلغ مبيع مجلده الأول بصفة خاصة نحو ١٥٠,٠٠٠ نسخة للطبعات التي أصدرها المؤلف بنفسه، فإذا أضيفت إلى هذا الرقم الطبعات التي طرحها قراصنة النشر وبيعت على نطاق واسع في غربي البلاد، فإن إجمالي المبيع يصل بالقطع إلى مئتي ألف نسخة أو ربع مليون نسخة». انظر: فوكوزاوا يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١)، ص ٤٧٤.

(٥٠) Dore, *Education in Tokugawa Japan*, p. 108.

العامة لهذه المعاهد(٥١). ولعل الظاهرة التي تستحق الوقوف عندها، هي انتشار محلات إعارة الكتب وتزايد أعدادها باطراد، سواء في العاصمة **إيدو** أو في المدن الأخرى. كانت هذه المحلات تُعرف بكاشي هون يا (Kashihon-ya)، وقد تأخر ظهورها إلى مطلع القرن الثامن عشر(٥٢)، غير أنه سرعان ما زاد الإقبال عليها، وتكاثرت أعدادها، وأضحت تجارة رابحة. فمن معاينة تمت في العاصمة **إيدو** عام ١٨٠٨، جرى إحصاء ٦٥٦ محلاً لإعارة الكتب، ثم ارتفع هذا العدد في عام ١٨٣٠ إلى حوالى ٨٠٠ محل. وكذلك الشأن بالنسبة إلى مدينة **أوساكا** التي كان فيها في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر حوالى ٣٠٠ محل إعارة، تقدم خدماتها إلى ما يُقدّر بـ ٤٠٠ ألف نسمة(٥٣). ولم تكن محلات الإعارة هاته في مستوى واحد؛ فقد كان منها الصغير الذي يديره شخص واحد، والكبير الذي يحتوي على مجموعة من ١٠ آلاف كتاب أو يزيد، ويعمل فيه قرابة ١٠ أفراد. هذا إضافة إلى باعة الكتب المتجولين، الذين كانوا يطوفون بمجموعاتهم من الكتب على زبنائهم في الأحياء البعيدة، وحتى خارج التجمعات الحضرية(٥٤).

إن ظاهرة كراء الكتب وممارستها من قبل الوراقين وباعة الكتب ليست بالظاهرة الخاصة باليابان؛ ففي جُل الثقافات التي انتشر فيها الكتاب، مارس باعة الكتب الإعارة في مقابل مادي كرديف لعملهم الأصلي. فحوانيت الوراقين في بغداد ومدن أخرى في العالم الإسلامي نموذج في هذا الباب، وحادث ممات الجاحظ جراء تساقط الكتب عليه في أثناء مبيته في حانوت وراق كان يكتريها خير دليل على ما نقول. كما أن أوروبا لم تخل من محلات الإعارة قبل أن تنتشر فيها فضاءات عامة للقراءة التي ستُعرف بالمكتبات العامة أو الوطنية. وقد تأخر ظهور مثل هذا الفضاءات في فرنسا مثلاً إلى القرن الثامن عشر، حيث لم تفتح المكتبة الوطنية في باريس أبوابها إلا في مطلع ذلك القرن.

يكمن السبب **الأول** في ظهور محلات كراء الكتب وانتشارها في غلاء سعر الكتاب، ووجود جمهور من القراء ذي دخل محدود؛ فقد كانت الكتب

---

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) Smith II, «The History of the Book in Edo and Paris,» pp. 346-347.

(٥٣) Moriya, «Urban Networks and Information Networks,» p. 117.

(٥٤) المصدر نفسه.

غالية الثمن، وفي غير متناول جُل القراء في المدن في عصر توكوغاوا. فعلى سبيل المثال، كان سعر قصة غرامية يساوي نفقة شهر من طعام فرد متوسط الدخل، وسعر كتاب زهيد (من قبيل قصة بورنوغرافية) يساوي ثمن طعامه على مدى أسبوعين.

أما الكتب «الجادة» من قبيل الأصول الكونفوشيوسية المؤلفة من عدة أجزاء، فلم يكن يستطيع شراءها سوى أغنياء التجار وكبار الساموراي. وعلى هذا، شكل كراء الكتب حلاً وسطاً، حيث كان سعر الإعارة لحوالى أسبوع يساوي أقل من عُشر الثمن الأصلي للكتاب[٥٥].

---

(٥٥) المصدر نفسه.

الفصل الثاني عشر

ثقافة التشونين

أو العالم العائم

مع انصرام القرن السابع عشر وإطلالة القرن الثامن عشر، كانت اليابان قد نعمت بقرن من الأمن والاستقرار، أضحت معه الحرب الأهلية ومآسي الصراعات والمعارك مجرد أحداث بعيدة في الذاكرة الجماعية. ففي هذا القرن، انصرف الساموراي عن الحروب والإعداد لها، وأصبح السعي إلى المعرفة شاغلهم الرئيسي، بينما ظهرت فئة جديدة من سكان المدن نافستهم في مجال الثقافة وحياة الرفاهة. ففي ظل الرخاء والتوسع الحضري، ازدهر الأدب والشعر والرسم والموسيقى، ومختلف فنون الفرجة بين سكان التجمعات الحضرية الكبرى ـ **إيدو** و**أوساكا** و**كيوطو** ـ بصورة لم يسبق لها نظير في تاريخ اليابان.

تُعرف فترة الازدهار الثقافي هاته بنسبتها إلى عهد **غينروكو** (genroku)[١] الذي صادف حكم الشجون **تسونا ـ يوشي** الشهير بانفلاته الأخلاقي؛ وهي فترة قصيرة تمتد من عام ١٦٨٧ إلى عام ١٧٠٩، غير أنها أضحت شعاراً للازدهار الثقافي، الذي دام معظم القرن الثامن عشر. ففي أواخر السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، عاش الكاتب المسرحي **تشيكاماتسو مونزيمون** والقصاص **إيهارا سايكاكو** والشاعر **ماتسواو باشو** (Matsuo Bashô)، وغيرهم من الأدباء والرسامين الذين كانوا طليعة تيار ثقافي جديد يستجيب لذوق فئة التجار الصاعدة

(١) «غينروكو» هو الشعار الذي يُعرف به عهد الإمبراطور هيغاشي ـ ياما (Higashiyama)، والذي تولّى عرش إمبراطورية اليابان من عام ١٦٨٧ إلى عام ١٧٠٩.

وتطلعاتها. . في هذه الفترة، تشكّلت سمات الثقافة اليابانية التي ما تزال ماثلة للعيان إلى اليوم. ففيها ظهر طقس الشاي، وفن تصفيف الزهور (إيكيبانا)، ومصارعة السومو، ومدارس الرسم المتعددة، ومختلف أصناف الموسيقى، وكذا الطباعة بالألوان، إضافة إلى كتابة القصة والشعر والمسرح وصنوف الفرجة الأخرى.

تُعرف هذه الحركة الثقافية عموماً بـ «الثقافة الشعبية»، تمييزاً لها من ثقافة الخاصة التي اختصت بها أرستقراطية كيوطو في عصر هييان والساموراي في الفترات التالية. ذلك أن الفئات التي ظلت غائبة، أو مغيبة، عن المجال الثقافي، انخرطت في مجالات الإبداع التي كانت حكراً على فئة بعينها. غير أن هذا التوجه «الشعبي» لم يكن يعني غياب الساموراي عنه، فهؤلاء انخرطوا أيضاً مع سكان المدن في هذا التوجه، الذي ساد في عصر إيدو. فأغلب المبدعين في مجال الأدب والكتابة المسرحية في القرن السابع عشر كانوا أدباء من الساموراي، سواء ممن احتفظوا بامتيازات فئتهم، أو من الرونين الذين تخلوا عن تلك الامتيازات طوعاً أو كرهاً، لينخرطوا في مجالات كان محرماً عليهم العمل فيها. ولم تظهر المساهمة الفعلية لسكان المدن في حقل الإبداع إلا في أواخر القرن المذكور والقرن الذي تلاه.

هناك أسباب كثيرة يمكن أن تفسر في آن واحد الازدهار الثقافي وتوجهه الشعبي، في مقدمتها التوسع الحضري وتنامي سكان الحضر، وتمتع فئة التجار وسكان المدن بقدر من الثروة مكنتهم من الإنفاق والإقبال على حياة المتعة، وارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، وتحسين طرق المواصلات، إضافة إلى الأمن والاستقرار السياسي الذي عمَّ جميع أرجاء البلاد، وهي أسباب سبق شرح ظروفها وحيثياتها.

هذه الأسباب كلها ساهمت، بشكل أو بآخر، في إرساء الأرضية التي قامت عليها «الثقافة الشعبية»، غير أن الاكتفاء الذاتي المادي للعاملين في حقولها، كان سبباً رئيسياً في استقلال هذه الثقافة واستمرارها؛ فكل بضاعة تحتاج إلى مستهلك بقدر ما تحتاج إلى منتج. وكذلك مجال الثقافة، فهو في حاجة إلي مستهلكين بقدر ما هو في حاجة إلى مبدعين؛ فكلما زاد الإقبال على الاستهلاك، زاد الإنتاج وتطور. ومّما عرفه مجتمع المدن في عصر **توكوغاوا** تنامي الثروة وتوزيعها بين عدد كبير من الأفراد (خاصة فئة التجار)، وهو ما ساهم في خلق سوق استهلاك لم يعد مقتصراً على فئة الساموراي وحدها. وبالتالي، لم يعد الإنتاج الثقافي في حاجة إلى رعاية الشجون والدايميو وكبار الساموراي، بل أصبح مكتفياً بذاته.

والواقع أن معظم الإنتاج الفني والأدبي للثقافة الشعبية في عصر توكوغاوا كان نتاج سكان المدن (من ساموراي وغيرهم)، وموجهاً إلى هؤلاء السكان الذين كانوا أكبر مستهلكيه. ولعل من أسباب انتشار هذا الإنتاج بين عدد كبير من الأفراد، ذلك التطور السريع الذي عرفه مجتمع المدن، وتلك التطورات التقنية التي ساهمت في تيسير الحصول علي ذلك الإنتاج بأقل التكاليف. ومن ذلك ازدهار الطباعة، وخاصة الطباعة بالألوان التي أعطت انطلاقة كبرى لفن الرسم. فرسامو عصر إيدو انتفعوا بشكل مثير من ازدهار الطباعة وصناعة الكتاب ومن المسرح؛ إذ غدوا يتعيشون من مبيعات نتاجهم المطبوع، ومن عملهم في تزيين الكتب بالرسومات التي كان الإقبال عليها كبيراً، وأضحت جزءاً لا يتجزأ من صناعة صنف من الكتب. ومع ازدهار المسرح، أضحى رسم وجوه كبار الممثلين ووقفاتهم المثيرة على خشبة المسرح مجالاً لإبداع حظي بإقبال كبير بعد تطور تقنية الطبع بالألوان. وينطبق الأمر نفسه على المبدعين في مجال القصة والشعر؛ فمع ارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة وتكاثر دور النشر، أضحى المبدعون يعتمدون في عيشهم على مبيعاتهم من الكتب. كما أن الإقبال على المسرح دفع بعدد منهم إلى الكتابة المسرحية، التي أضحت وسيلة سهلة للكسب. وغني عن القول إن العاملين في مجال المسرح والفرجة كانوا يعتمدون على ما يؤديه رواد المسرح من رسوم؛ فكبار الممثلين كانوا يُحسبون ضمن فئة الأغنياء رغم تدني وضعهم الاجتماعي. والخلاصة، أن مجال الثقافة والإبداع تخلص من هيمنة فئة بعينها، وحقق استقلالاً مادياً كان سبباً في ازدهاره وتطوره[٢].

أما الثقافة الشعبية، فهي بدورها ثقافة المتعة والإقبال على ملذات الحياة. ولعل تسمية عالم الفرجة والفن وأحياء المتعة بأوكييو (Ukiyo)، أو العالم العائم[٣]، ما يوحي بتسامي هذا العالم عن الواقع اليومي؛ فأوكييو مصطلح بوذي الأصل، القصد منه الحياة الزائلة أو الحياة الدنيا التي هي إلى زوال، ثم أخذ معنى إيجابياً في مجتمع أواخر القرن السابع عشر. فعوض ما كان يعنيه من حياة الدنيا القصيرة المليئة بالآلام، أصبح يعني دنيا المتعة القصيرة التي لا تدوم إلا قليلاً. والمتعة هنا ليست متعة رخيصة مبتذلة، بل هي متعة راقية وغالية تتحقق في التمتع بالجمال في أبهى

---

(٢) في ما يخص أسباب ازدهار الثقافة الشعبية، على سبيل المثال لا الحصر، انظر: Peter Nosco, *Remembering Paradise: Nativism and Nostalgia in Eighteenth-Century Japan* (Cambridge, MA: Council on East Asian Studies, Harvard University, 1990), pp. 15-40.

(٣) عادة ما يترجم مصطلح «أوكييو» في اللغة الإنكليزية بـ (Floating World).

صوره[٤]. وقد كان فن الرسم إحدى متع العين التي أقبل اليابانيون عليها من خلال تثمينهم أعمال كبار الفنانين. لذا، فإن أشهر ما يُنسب إلى أوكييو هو مدرسة الرسم التي سادت في أواخر القرن السابع عشر (تُعرف بـ Ukiyo-e).

تعددت مظاهر ثقافة التشونين (أو الثقافة الشعبية) ومجالات إبداعاتها، إلى حد يصعب معه الإلمام بها جميعاً، أو يتعذر على غير ذوي الاختصاص الخوض في البعض منها. فمثلاً يتعذر علينا شخصياً الخوض في مدارس الرسم اليابانية التي ظهرت أو ازدهرت في عصر إيدو، أو إدراك تفاصيلها واختلافاتها، لعدم امتلاكنا المعرفة الضرورية. لكن يكفي أن نقول إن كبار الفنانين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مثل **موني** و**فان غوغ**، تأثروا بفن الرسم الياباني. واعتباراً لهذا العائق، سنكتفي بالإشارة إلى مجالات أخرى، أهمها المسرح، الذي نخصه ببقية هذا الفصل.

أولاً: أحياء المتعة

تمحور عالم أوكييو (العالم العائم) حول أحياء المتعة والمسارح والمطاعم والصالونات، التي أُنشئت على هامش المدن الكبرى، وتمتعت بوضع خاص. وتمحور أيضاً حول عالم يجمع بين خليط من الناس من مختلف المشارب والفئات؛ عالم يقصده علية القوم، وذوو الحيثيات من الساموراي، والأدباء والشعراء والممثلون والرسامون والشعراء، ويقصده أيضاً التجار وكل من يستطيع إليه سبيلاً. عالم نجومه الغواني (غيشا)، والآمر الناهي فيه المال الذي يذهل عن رؤية الحيثيات. عالم شعاره المتعة: متعة الأكل والشرب في مطاعمه وصالوناته؛ متعة الفرجة في مسارحه؛ متعة الحواس جميعها بالقرب من غانية تجيد الرقص والغناء وفن الأنس.

لقد تميز عصر **توكوغاوا** بظهور أحياء المتعة هاته، أحياء جاءت مساوقة للتوسع الحضري وصعود فئة التجار. وكانت هذه الأحياء تُعرف لدى اليابانيين بتسميات مختلفة لم تكن أية منها تحمل معنى قدحياً (مثل يوكاكو yūkaku = حي اللهو وإيروماتشي iromachi = مدينة الحب). ومنذ أواخر القرن السادس عشر، أصبحت هذه الأحياء معترفاً بها ومرخصاً لها. فبعد أن اتُّخذت قلعة إيدو عاصمة للشجون، جرى تخصيص حي في أطراف المدينة لهذه الغاية. وكان موقع هذا الحي

---

(٤) Donald Jenkins, *The Floating World Revisited* (Portland: Portland Art Museum, 1993), p. 4.

يُنقل من مكان إلى آخر بحسب اتساع المدينة، على أن يبقى حياً معزولاً بعيداً عن التجمعات السكنية. وبعد الحريق الهائل الذي دمر قسماً كبيراً من مدينة **إيدو** عام ١٦٥٧، اغتنمت سلطات المدينة الفرصة لنقل هذا الحي إلى مكان يبعد عن العاصمة حوالى ٦ كم، هو حي **يوشي ـ وارا** (Yoshiwara)(٥)، الذي ظل يقوم بوظيفته حتى القرن العشرين(٦). وقد كان حياً مغلقاً ومحاطاً بسور وخندق يقتصر الولوج إليه على بوابة واحدة خاضعة للمراقبة. وكان الترتيب نفسه قائماً في مدينتي أوساكا (حي **شيماتشي** Shimmachi) وكيوطو (**حي شيمابارا** Shimabara)، وفي عواصم الدايميو، وكان في معظمه نظير حي **يوشي ـ وارا**. وقد كانت هذه الأحياء موضوعاً لعدد من المراسيم التي تنظم العمل فيها والدخول إليها، منها، مثلاً، أن الدعارة لا تمارَس إلا داخل أسوارها، وأن أية ممارسة لها خارجها يعاقب عليها، وأن على العاملات فيها البقاء حيث هن وعدم مغادرتها. ومنها الإجراءات المتعلقة بمنع المشبوهين من الدخول إليها، ومعاقبة المتاجرين ببيع البنات لبيوت الدعارة(٧). ولعل اهتمام سلطات الشجون والدايميو بتنظيم هذه الأحياء يدخل في إطار تحقيق مجتمع منضبط وخاضع لتنظيمات صارمة.

من الخطأ الاعتقاد بأن هده الأحياء هي مجمع لبيوت الدعارة، أو أن وظيفتها المتاجرة بالجنس، بل إن هذه الأحياء شكلت فضاء تُستعرض فيه جميع ضروب الترفيه؛ ففيها كانت تظهر مستحدثات الموسيقى والرقص والغناء، وآخر مستجدات الأزياء وتصفيف الشعر والماكياج، وحولها كانت تدور إبداعات الشعراء والقصاصين والمسرحيين، ومنها كانت تُستلهم لوحات الرسامين. فإذن، كانت عاملاً فاعلاً في التطور الثقافي الذي عرفه عصر إيدو، إضافة إلى ما شكّلته من فسحة واستراحة من القهر الاجتماعي. فحي **يوشي ـ وارا** وأمثاله شكلت ملجأ للهروب من القيود الاجتماعية الصارمة، وملاذاً للتخلص، ولو للحظات قليلة، من قوانين الفئات التي تملي على كل فرد كيفية عيشه ونوعية لباسه وصنف العمل الذي يقوم به. كانت هذه الأحياء مفتوحة في وجه كل من

---

(٥) كان حي يوشي ـ وارا في مقاطعة سينزوكو (Senzoku) وسط طوكيو اليوم، وتبلغ مساحته زهاء ثمانية هكتارات. انظر: Liza Crihfield, «Yoshiwara,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 8, pp. 349-351.

(٦) بقي هذا الحي مكاناً للمتعة وإقامة «الموسمات» إلى عام ١٩٥٧، حيث صادق فيه البرلمان على قانون يمنع الدعارة. انظر: المصدر نفسه.

(٧) Teruoka Yasutaka, «The Pleasure Quarters and the Tokugawa Culture,» in: C. Candrew Gerstele, ed., *18th Century, Japan: Culture and Society* (London: Cruzon Press, 1989), p. 5.

امتلك المال، سواء أكان تاجراً أم فلاحاً أم من الساموراي. ففيها يتساوى الساموراي المرتبون في أعلى التراتب الاجتماعي مع التجار المرتبين في أسفله، لا يفرق بينهم سوى القدرة على الإنفاق.

ومن الخطأ أيضاً وصف العاملات في أحياء المتعة بالمومسات، فمن وصفن بالـ «غيشا» أو بأوصاف قريبة منه[٨] كن يتمعن بثقافة راقية تشمل حفظ الشعر، وإتقان العزف على الأدوات الموسيقية، وآداب السلوك. فهن يماثلن إلى حد كبير الجواري في المجتمع العباسي؛ إذ كن يؤخذن وهن صغيرات السن، ويوضعن في بيوت الـ «غيشا»، حيث يجري تكوينهن وتربيتهن. ومّما كان يفرض عليهن، تعلم العزف على الآلة الوترية شاميسين التي شاع استعمالها في عصر إيدو، وفنا الرقص والغناء اللذان كانا أساس الأداء المسرحي، وفن الكتابة، وتصفيف الزهور والإتيكيت، إضافة إلى تعلم كيفية اللباس واستعمال المساحيق وتصفيف الشعر. وبعد فترة التدريب، تجتاز البنات امتحاناً يصنَّفن في إثره في مرتبة معيّنة ضمن تراتبية الـ «غيشا»، ويسجَّلن في قائمة المعترف بهن والمسموح لهن بالعمل في أحياء المتعة[٩].



(٨) تجدر الإشارة إلى أن مصطلح «غيشا» تأخر استعماله إلى منتصف القرن الثامن عشر. وقد كانت العاملات في أحياء المتعة يُعرفن بمصطلحات أخرى مثل «تايو»، الذي يُطلق على المرتبات في الأعلى، و«تنجين» (Tenjin) على المرتبات في الرتبة الثانية، و«كاكوي» (Kakoi)، و«هاشي جورو» (Hashi jorō) في المرتبات التالية. انظر: D. H. Shively, «Popular Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), p. 746.

(٩) Liza Crihfield, «Geisha,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 14-15.

لم تكن العاملات في أحياء المتعة مرتبات في خانة واحدة، بل كن يخضعن لتراتبية وتنظيمات داخلية، شأنهن شأن بقية أفراد الفئات الاجتماعية. ففي القرن السابع عشر، كانت أعلى درجة تصنَّف فيها العاملات في أحياء المتعة هي درجة تايو (Tayū)، وهي رتبة لا تبلغها سوى أقلية منهن (في عام ١٦٤٣، كان عدد العاملات في حي **يوشي ـ ورار** ٩٨٧ امرأة، ٧٥ فقط منهن كن يصنَّفن ضمن تايو). والواقع أن النساء من هذا الصنف كن يتمتعن بسلطة قوية في اختيار زبائنهن وأسعارهن وفرض شروطهن. فممّا كتبه القصاص **إيهارا سايكاكو** عنهن:

أما الضيف الذي لا ترغب فيه تايو، فإنه مهما علا شأنه ـ سواء أكان من الدايميو أم من غيرهم ـ ومهما توافر له من المال لرشوة صاحبة الدار، لن يستطيع مقابلتها (مقابلة تايو). وأولئك الذين ترفضهم الـ تايو يشعرون بعار كبير وبإحباط عميق[١٠].

كان الرفض لأسباب تخرج عن الغنى يدفع بالبعض إلى تعلم الآداب الكلاسيكية، وقواعد السلوك، وحفظ الشعر لترضى عنهم واحدة ممن عشقوا القرب منها. وعلى أي حال، لم يكن سعر قضاء سويعات بصحبة واحدة منهن بالمسير لأي كان. فحسب بعض التقديرات، كان سعر قضاء يوم بصحبة تايو (في القرن السابع عشر) يتطلب مبلغ ٥٣ قطعة من العملة الفضية («مونمي»)[١١]. وقد احتفظت المصادر التاريخية بأسماء شهيرات من بنات تايو ممن طبقت شهرتهن أرجاء اليابان، بل بلغت الصين، وسعى إليهن الأغنياء وذوو الحيثيات من الأقاصي ليتمتعوا بصحبتهن. ومنهن أيضاً من اشتهرن كشاعرات لهن مكانتهن في الأدب الياباني[١٢].

---

(١٠) Yasutaka, «The Pleasure Quarters and the Tokugawa Culture,» p. 9.

(١١) المصدر نفسه. ٥٣ مونمي تعادل، على وجه التقريب، ١١٠ آلاف ين، حسب صرفه عام ١٩٩٠، أو زهاء ٦ آلاف درهم بالعملة المغربية.

(١٢) ومن هؤلاء الشهيرات يوتشي- يو (Yachiyo)، التي استقرت في حي شيمابارا في كيوطو، وغادرت الدنيا في سن الشباب (٢٤ سنة)، وكانت تجيد الغناء والعزف على أكثر من آلة موسيقية، ولها باع في أكثر من فن، إضافة إلى نظم الشعر. وممّا يُنسب إليها، هذه الأبيات التي ربما تفقد الكثير من روعتها بالترجمة:

رجل من القمر
هنا في جيبي
نور القمر معي
في غرفة نومي.

انظر: المصدر نفسه، ص ١١.

والمثير أن كتيبات وضِعت لإرشاد زائري أحياء المتعة، وضُمنت جملة من المعلومات: وصف لبيوت الـ «غيشا»، وقائمة بأسماء العاملات فيها ورتبهن، ووصف لخصائصهن الجمالية، وذكر الفنون التي تجدنها، والأجر الذي يطلبنه مقابل أتعابهن. هذا إضافة إلى خريطة تبين موقع كل بيت. وقد نشر أكثر من ١٠٠ مؤلَّف من هذا الصنف خلال القرن السابع عشر وحده[١٣].

وكما أشرنا، كانت أحياء المتعة وغوانيها موضوعاً أثيراً لدى رسامي عصر إيدو، فأشهر لوحات هذا العصر تلك التي اتخذت الـ «غيشا» موضوعاً لها، ورصدت حركاتهن وغنجهن.

ثانياً: الأدب في عصر إيدو

الأدب الياباني حافل وغني، وتعود بدايته ـ أو المدون منه على الأقل ـ إلى دخول نظام الكتابة الصيني والمؤثرات الصينية في نهاية القرن السادس الميلادي. فمنذ أن امتلك اليابانيون ناصية هذه اللغة والكتابة بها، افتنوا بنظم الشعر على النمط الصيني وباللغة الصينية ذاتها، حيث كان نظم الشعر ميزة وفخراً لأدباء عصر هييان. أما النثر، فإن أفضل ما يمثله في هذا العصر هو نتاج أديباته اللواتي أصبحن معْلماً في تاريخ الأدب الياباني، مثل **موراساكي شيكيبو** صاحبة «**حكاية غينجي**»، التي تُعتبر رائدة الأدب الروائي في العالم. وقد تميزت العصور الوسطى اليابانية بكتابة الملاحم (مونوغاتاري)، التي جمعت بين الكتابة التاريخية وقصص البطولة. وهكذا، فعند حلول عصر إيدو، كان هناك تراث أدبي غني ومتنوع يمكن المتح منه وتطويره. وبالفعل حدثت نقلة نوعية في النتاج الأدبي في هذا العصر بسبب الظروف المؤاتية التي فصّلنا في ذكرها.

نال الشعر في عصر إيدو حظاً كبيراً من التطور الذي عرفته مختلف التعبيرات الأدبية. ففيه تطورت أصناف من القصائد، مثل هايكاي (Haikai) (يُعرف صنف منه بـ هايكو) الذي ما يزال تعبيراً يحظى بالإقبال إلى اليوم، وصنف واكا (Waka)[١٤]. وفي رأي النقاد أن الشعر الياباني عرف نقلة نوعية في قصائد الشاعر **ماتسواو**

(١٣) Shively, «Popular Culture,» p. 745.

(١٤) أهم تأليف باللّغة الإنكليزية عن الأدب الياباني هو: Donald Keene, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1999).

ففيه يعرض لمختلف التعبيرات الأدبية الشعرية منها والأعمال الدرامية. وقد اعتمدنا عليه في أخذ فكرة عامة عن هذا الأدب.

باشو (١٦٤٤ ـ ١٦٩٤) التي وضعها في قالب هايكاي، ونال بها شهرة واسعة في جميع أرجاء اليابان[١٥]. غير أن المثير في هذا العصر هو تطور الكتابة المسرحية والروائية في نتاج كلٍّ من المسرحي **تشيكاماتسو مونزيمون** والقصاص **إيهارا سايكاكو**.

يُعَدّ **إيهارا سايكاكو** ظاهرة في الكتابة القصصية في القرن السابع عشر، لا على صعيد اليابان وحدها، لكن على الصعيد العالمي أيضاً (تُرجمت أشهر مؤلفاته برعاية من اليونسكو). بدأ **سايكاكو** كشاعر، حيث لا يقل إنتاجه الشعري قيمة عن نتاجه القصصي، ثم تحول إلى الكتابة المسرحية قبل أن يختص بمجال القصة.

ولد **سايكاكو** (١٦٤٢ ـ ١٦٩٣) في مدينة أوساكا لأُسرة تنتمي إلى فئة التجار، وعاش في أبهى فترات ازدهار ثقافة التشونين، التي يُعَدّ أحد صانعيها وأبرز رموزها. وقد مثلت كتاباته تطلعات فئة التجار الصاعدة، ووصفت بدقة حياة المتعة التي أقبلت عليها. كتب **سايكاكو** عمّا كان يسمعه ويراه، وعمّا خبره بنفسه من خلال سرد يتسم بالوصف الدقيق وحساسية بالغة وشجاعة في التعبير عمّا يخالج أبناء فئته (التشونين)، التي ترزح تحت قوانين **توكوغاوا**. كان امتلاك المال وما يحققه من متع ـ لم تكن متاحة لأغلب الساموراي ـ هو الملاذ المتبقي لهذه الفئة المتطلعة إلى دور في السياسة والمجتمع ظلت محرومة منه. ولعل ذاك ما أراد **سايكاكو** قوله على لسان أبطاله ووصف حياتهم. القول بأن سكان المدن هم أناس يحتلون أهمية خاصة في مجتمع جديد يختلف عن مجتمع العصور الوسطى، ويعيشون حياة رفاهية لم تكن متاحة بهذا القدر لمن سبقوهم. لقد كان **سايكاكو** أحسن معبّر عن «طريق التشونين (تشونين دو) الذي خالف طريق الساموراي (البوشيدو). كما أن وصفه لدقائق الأمور التي عاينها جعلت من كتابته مصدراً تاريخياً لمعرفة دقائق الحياة اليومية للعقود الأخيرة من القرن السابع عشر، خاصة حياة ساكنة المدن.

تحاكي كتابة **سايكاكو** قليلاً واقعية الأدب الأوروبي في القرن التاسع عشر، خاصة في وصفه دقائق أحياء المتعة وحياة بناتها اللواتي أُجبرن على العمل فيها، وكذا في وصف مكابدة العشاق؛ فجُل أبطاله أمضوا حياتهم في طلب المتعة في هاته الأحياء التي جعل منها مسرحاً لأحداث قصصه.

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٤٨.

من أول مؤلفاته القصصية وأشهرها **حياة رجل عاشق**(١٦). وقد نُشرت هذه الرواية أول مرة عام ١٦٨٢، وفيها يحكي مغامرات رجل يتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن المرأة والمتعة. ففي كل فصل من الفصول الأربعة والخمسين، التي هي بعدد سنوات عمر بطله ـ أي منذ أن شعر بميل نحو المرأة ـ يقدم المغامرات التي كان حدثت له في كل سنة. وقد سمّى **سايكاكو** بطل قصته **يوميسوكي** (تعني لغوياً رجل الأحلام)، وجعله يبدأ مغامرات عشقه في سن السابعة إلى أن بلغ الستين (سن موته). وفي نهاية عمره، جعله يقرر الإبحار إلى جزيرة يعمرها النساء فقط. ومزج طوال سرده بين كل ما يعتري التجربة الإنسانية، بين المرح والتعاسة، بين ابتسامة الدنيا تارة وعبوسها تارة، بين المتعة والحقيقة المرة.

لم تخل كتابة **سايكاكو** القصصية الأخرى من هذا البحث عن المتعة الحسية التي دقق في وصفها على لسان أبطاله من الجنسين. ففي روايته **حياة امرأة عاشقة**(١٧) ـ نشرت أول مرة عام ١٦٨٦ ـ يحكي على منوال قصته الأولى مغامرات امرأة من بنات المتعة، منذ عز الشباب وإقبال العاشقين لجمالها، إلى أرذل العمر وإدبار الناس عنها. ويقال الأمر نفسه عن مجموعته **خمس نساء عشقن الغرام**(١٨)، التي تحكي حياة نساء من انتماءات اجتماعية مختلفة.

اتسم **سايكاكو** بجرأة قلما توافرت لمجايليه؛ جرأة جعلته يُظهر خفايا مجتمع **توكوغاوا**. فهو من القلائل في تاريخ الأدب العالمي قبل القرن العشرين ممّن كتبوا بصراحة متناهية عن العلاقات المثلية بين الرجال. ففي مجموعته القصصية **المرآة الكبرى لعشق الغلمان**(١٩) (نُشرت أول مرة عام ١٦٨٧)، يسرد ٤٠ حالة من علاقات حميمة جمعت بين رجال بالغين وفتيان. فهو يشيد في القسم الأول بذاك العشق الخاص، ويرسم صوراً للتفاني والإخلاص في هذا الصنف من الحب الذي كان منتشراً في مجتمع الساموراي، وكان عادة يعرف نهايته عندما يبلغ

(١٦) Ihara Saikaku, *The Life of an Amorous Man*, translated by Kenji Hamada (Tokyo: Tuttle Publishing, 2001).

(١٧) Ihara Saikaku, *The Life of an Amorous Woman*, translated by Ivan Morris, UNESCO Collection of Representative Literary Works (New York: A New Directions Books, 1969).

(١٨) Ihara Saikaku, *Five Women who Loved Love*, translated by WM. Theodore de Bary (Tokyo: Tuttle Publishing, 2003 (1956)).

(١٩) Ihara Saikaku, *The Great Mirror of Male Love*, translated by Gordon Schalow (Stanford: Stanford University Press, 2003).

الغلام سن التاسعة عشرة، بينما خص القسم الثاني لمحيط مسرح الكابوكي الذي كان مجالاً للدعارة الذكورية.

اهتمت كتابات **سايكاكو** الأخرى بحياة سكان المدن التي كان أحسن ناطق باسمها، كما أشرنا.

لاشك أن الكتابة الأدبية، سواء في مجال الشعر أو السرد القصصي والروائي وما يحاكيهما، شكلت جزءاً لا يتجزأ من التطور أو النهضة التي عرفتها جُل الأمم. فالشعر وضروب الكتابة النثرية رسما مظهراً رائقاً للحضارة الإسلامية أيام عنفوان عطائها في العصر العباسي. وكذلك لا يمكن فصل النهضة الأوروبية عن أقلام شكسبير وموليير وفيكتور هيغو وفلوبير، وغيرهم ممن عبّروا عن مظاهر تلك الحضارة وارتقائها، فشكلت كتابتهم مظهراً من مظاهرها. وفي السياق نفسه، يُعتبر النتاج الأدبي لعصر إيدو ـ الذي يضيق المجال عن إيفائه حقه ـ مظهراً من مظاهر التطور الذي عرفه المجتمع الياباني، وخطوة من الخطوات التي قطعها في مجال التحديث.

ثالثاً: المسرح

يُعتبر المسرح في نظر الكثير فناً غربياً نشأ وترعرع في ظل الثقافة الغربية، باعتبار أن ظهوره الأول كان في بلاد الإغريق في غضون القرن الخامس قبل الميلاد. ولا أحد يجادل في أقدمية المسرح الإغريقي وأهميته، سواء في تميزه بنصوص مسرحية مكتوبة تخرج من النطاق الميثولوجي إلى نطاق الدراما ومحاكاة الواقع اليومي، أو في تراثه الذي مهّد الأرضية ووضع القاعدة التي أسس عليها المسرح في أوروبا في عصر النهضة، وأعطى الشكل الذي يُعرف المسرح به اليوم. غير أن الاعتراف للثقافة الغربية بهذا الفضل والسبق لا ينفي أن تكون ثقافات أخرى قد عرفت أشكالاً من التعبير المسرحي، حتى وإن لم تصل إلى درجة التعقيد التي بلغتها الصيغة اليونانية. فإن كان القصد من المسرح (Theater) ـ بحسب ما يوحي به الأصل اللغوي للمفردة ـ هو وجود فضاء يحوي منصة يؤدي عليها مشخصون عروضاً أمام جمهور تُخصص له أماكن للجلوس للتحلق حولها، فإن ظهوره لم يقتصر على الثقافة الغربية، بل إن حضارات أخرى سبقت الإغريق في هذا الباب. فهناك دلائل أثرية وغيرها تشير إلى وجود أصناف من الفضاء المسرحي في كلٍّ من مصر القديمة وبلاد فارس والهند والصين. إلا أن الأداء المسرحي في كثير من الثقافات القديمة ارتبط أساساً بعرض الرقصات الدينية المصحوبة

بالموسيقى وتقمص الراقصين والعارضين لشخصيات ميثولوجية. وما أثارنا في ما يخص ثقافة الشرق الأقصى عموماً، والثقافة اليابانية خصوصاً، هو استثناؤها في هذا الباب بتطور فن مسرحي فيها يكاد يماثل المسرح الغربي في جُل مظاهره؛ فهو يتوافر على جميع المقومات الأساسية للمسرح «الغربي»، من فضاء ونصوص درامية وكتّاب مسرحيين وممثلين محترفين ولباس وماكياج وأقنعة. . . إلى غير ذلك، مع التشديد على أن تطوره كان بمعزل تام عن أي تأثير من الثقافة الغربية. ولعل أهم ما يستخلصه المرء من دراسة الفن المسرحي في اليابان والصين، هو أن الثقافة الغربية لم تختص وحدها بهذا الفن، وأن الادعاء جزماً بأن المسرح تطور في هذه الثقافة فحسب ادعاء يحتاج إلى إعادة نظر.

عرف المجتمع الياباني قبل عصر **توكوغاوا** أصنافاً من الفرجة ازدهرت بشكل خاص في عصر **هييان**، الذي تلا الانفتاح على الثقافة الصينية، ومنها الصنف المعروف بساروغاكو (sarugaku) الذي وصل إلى اليابان في القرن الثامن ثم تطور في القرون التالية ليشمل الرقص والموسيقى والغناء والألعاب البهلوانية وتقديم السكتشات الهزلية والعروض المسرحية القصيرة التي يقوم بها مجموعة من المشخصين بصحبة الأداء الموسيقى. وقد اختصت بهذا المجال فرق جوالة محترفة (منضوية في «حنطة» حِرفية) كانت تقدم عروضها في مآدب الأرستقراطية والمواسم الدينية تحت رعاية المعابد التي كانت تدعمها[٢٠]. فمن هذا الصنف من الفرجة انبثق مسرح النو (Nō) في القرن الرابع عشر. غير أن المسرح الياباني لم يبلغ أوج ازدهاره إلا في عصر **توكوغاوا**، حيث جاء مساوقاً لتوسع المدن وتنامي سكان الحضر وظهور أحياء المتعة؛ ففي مطلعه نشأ مسرح الكابوكي (Kabuki) ومسرح العرائس بونراكو (Bunraku) اللذان حظيا بإقبال كبير، وتطورت تقنياتهما على نحو مثير خلال القرن الثامن عشر إلى أن أصبحا أهم فرجة في المدن الكبرى، خاصة في العاصمة **إيدو**.

١ ـ مسرح النو

يأخذ مسرح النو أصوله من الفنون الشعبية (الرقص والغناء) التي هي دينية الطابع، وكانت شائعة في عصر **هييان**[٢١]. وهو عبارة عن عرض درامي يؤديه

---

(٢٠) Gerhild Endress, «Sarugaku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 22.

(٢١) ترجع الأصول التي انبثق عنها مسرح النو إلى عصر هييان، الذي ظهرت فيه فرق ذات طابع ديني، كانت تمارس الرقص والموسيقى، وتطوف على المدن والقرى لأداء عروضها. كما كانت هناك رقصات =

ممثّل أو ممثلان رئيسيان بصحبة آخرين ثانويين، يرتدون جميعاً أقنعة وألبسة ترمز إلى الشخصيات التاريخية أو الميثولوجية التي يقومون بدورها، ويشاطرهم في الجلوس على المنصة موسيقيون (طبالون وعازف ناي) ومنشدون يقومون بدور الراوي والمعبّر عمّا يدور في خلد الممثلين. أما الأداء المسرحي، فيجمع بين الرقص والتمثيل والإلقاء الغنائي بلغة شاعرية (مقاطع منظومة). إنه أداء يطبعه التصنع والحركة البطيئة المضبوطة بالنغم الموسيقي، ممّا يُبعد المشهد المسرحي عن الحياة الواقعية(٢٢).

بدأت العروض الأولى لمسرح النو في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، في عهد الشجون الثالث من أُسرة **أشيكاغا** (**يوشي ـ ميتسو** ١٣٥٨ ـ ١٤٠٨)، الذي دشن عهداً من الانفتاح مجدداً على الثقافة الصينية، وتبنّى مذهب الزن البوذي الذي كان له الأثر البالغ في عدد من الفنون التي تطورت في اليابان في الفترات اللاحقة(٢٣). ففي عهده لمع نجم **كانامي** (Kan'Ami) (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤) ـ المؤسس الأول لمسرح النو ـ الذي حظي باستحسان الشجون ودعمه. وقد كان **كانامي** مشخصاً بارعاً، يتمتع بمواهب خاصة في الرقص والغناء والتشخيص مكّنته من إحداث نقلة نوعية في العروض، التي كانت تقوم بها الفرق الجوالة في عصر **هييان**، والتي كانت موجهة في الأساس إلى العامة. ذلك أن **كانامي** رفع من مستوى الرقصات والأداء الغنائي ليرضي ذوق الشجون والشريحة العليا من الساموراي، مؤكداً في الوقت نفسه العنصر الدرامي بكتابته وعرضه لمسرحيات تتخذ مرجعيتها من الميثولوجيا وملاحم الساموراي. وقد خلفه بعد وفاته ابنه **زيآمي** (Zeami) (١٣٦٣ ـ ١٤٤٣) الذي سار على نهج والده، وأرسى قواعد مسرح النو بكتابته أو إعادة صوغه لما ينيف على ٩٠ نصاً مسرحياً، ووضعه رسائل تبين كيفية الأداء التي يجب أن يتبعها الممثل(٢٤). وهكذا أصبح

= مرتبطة بالشعائر الدينية، خاصة الشنتوية، مثل تلك التي كانت تؤدى في موسم الحصاد. ومن بين هذه الفرق صنف عُرف بساروغاكو (Sarugaku) كان يجمع بين الرقص والأداء الدرامي والألعاب البهلوانية وغيرها ممّا يرضي ذوق العامة. وقد كانت هذه الفرق منضوية ضمن التنظيم الحرفي (زا)، وتعمل تحت رعاية المعابد الكبرى الموجودة في العاصمة كيوطو.

(٢٢) انظر: Yoshikoshi Tatsuo, «Nō,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, pp. 23 -29.

وقد تمكنّا خلال زيارة لليابان من مشاهدة عرض من مسرح النو»، ووصفنا هنا يعتمد على المراجع المعتمدة، إضافة إلى ما سجلناه من ملاحظات.

(٢٣) سبق التعريف في اللمحة التاريخية بالشجون، كما جرت الإشارة إلى انفتاحه على الصين وتشجيعه للفنون.

(٢٤) Royall Tyler, «Zeami,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 369.

مسرح النو الفرجة المفضلة لدى الشريحة العليا (الشجون والدايميو ونبلاء **كيوطو**)، التي كانت تستمتع به وتدعم فرقه. وعلى الرغم مّما تسببت فيه ظروف الحرب الأهلية في نهاية القرن الخامس عشر من تراجع نسبي لمعظم الفنون، فإن مسرح النو لم يختف تماماً، بل ظل قائماً، وأُعيد إحياؤه على نحو مثير في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وبخاصة في عهد **هيدي ـ يوشي** الذي بلغ فيه أوجه[٢٥]. فمن المعروف عن **هيدي ـ يوشي** أنه كان راعياً لعدد من الفنون، بيد أنه كان مغرماً بمسرح النو بصورة خاصة؛ فقد كان يحضر عروضه ويثمّنها، إذ يرى في استحسانه لها تأكيداً لانتمائه إلى الأرستقراطية العسكرية، وبالتالي استحساناً يرفع من أصله المتواضع[٢٦]. والمثير أنه لم يكتف بالفرجة، بل كان يشارك في التمثيل أيضاً، ويختار أصعب الأدوار، ويوصي بكتابة نصوص مسرحية خاصة به تظهر شخصيات بطولية تماثله ليضطلع بدورها[٢٧]. وفي عصر **توكوغاوا**، تبنّى الشجون مسرح النو، وجعلوا عروضه شبه مقصورة عليهم لا تقام إلا في بلاطهم. وعلى غرار القطاعات الأخرى، سنوا قوانين تنظم كل الجوانب المتعلقة به (موضوع النص المسرحي، وممارسة الحرفة وتوارثها، وشكل المنصة وأبعادها. . . إلى غير ذلك). إلا أن استئثار الشجون بهذه الفرجة، ومنع العامة من الوصول إليها، عملا على استقرار هذا الفن وعدم تطوره، على نقيض مسرح الكابوكي، الذي انبثق عنه وعرف تطوراً لافتاً وأضحى أهم فرجة يقبل عليها سكان المدن. وأياً كان الأمر، فتقاليد مسرح النو ما تزال قائمة إلى الآن، إذ هناك مسارح خاصة بها، واليابانيون يحرصون أشد الحرص على بقائها لكونها عنصراً هاماً في الثقافة اليابانية.

نود في هذه العجالة الوقوف على جوانب من شكل مسرح النو ومضمونه تُبرز مدى قربه من التطور الذي عرفه المسرح العالمي. فمن حيث الشكل، كانت العروض تؤدى على خشبة أو منصة تقام في الهواء الطلق، بحيث تكون مرتفعة عن الأرض ٩٠ سنتمتراً، ومغطاة بسقف تسنده أربعة أعمدة خشبية، ومقسمة إلى

(٢٥) Donald Keene, «Joha, a Sixteenth-Century Poet of Linked Verse,» in: George Elison and Bardwell L. Smith, eds., *Warlords, Artists and Commoners: Japan in the Sixteenth Century* (Honolulu: University Press of Hawaii, 1981), p. 113.

(٢٦) مما يدل على تثمين هيدي ـ يوشي لمسرح النو، أنه عندما استدعى الإمبراطور لزيارة مقر إقامته (في آذار/ مارس ١٥٨٦، كما سبقت الإشارة في فصل سابق) أعد خمسة عروض مسرحية انتقاها بنفسه لتؤدى في هذه المناسبة الكبرى.

(٢٧) Keene, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867*, p. 231.

ثلاث مساحات، لكل منها وظيفة معيّنة: مساحة رئيسية (٦ م x ٦ م) في المقدمة ومساحة جانبية (١,٥م x ٦ م) يستغلهما الممثلون، ومساحة داخلية في المؤخرة (٣ م x ٦ م) يشغلها الموسيقيون. وترتبط المنصة في جانبها الأيسر (بالنسبة إلى المشاهد) بقاعة الملابس (قاعة المرايا) عبر جسر، وهي عبارة عن ردهة طويلة (٢ م x ١٠ م) موضوعة على نحو مائل، وتنتهي بستارة تحجب قاعة المرايا، وهي قسم من الفضاء المسرحي تصلح لخروج الممثلين ودخولهم وأداء مقاطع من التمثيل. وتكون المنصة عادة عارية من الديكور باستثناء الستارة الخلفية التي تحمل رسماً لأشجار الصنوبر، ومجسمات للأشجار نفسها توضع على جانب الجسر (انظر الصورة). أما الإيحاء بالزمان والمكان، فيتم عبر الإنشاد الذي تفتتح به المسرحية، بينما تؤدي الأعمدة دوراً مهماً في الأداء المسرحي، فلكل عمود اسم خاص ووظيفة معيّنة؛ إذ يقف كل ممثل عند واحد منها أو يتنقل بينها بحسب ما يقتضيه الدور أو المقطع الذي يؤديه (هناك مثلاً عمود خاص بالممثل الرئيسي، وآخر بالممثل الثانوي).



خشبة مسرح الـ نو وتبدو في الصورة مختلف الأقسام التي توزع إليها الخشبة كما هو مشار إليه في النص.
المصدر:
KEJ., Vol. 6, p.22

رسم قديم (قبل عصر إيدو) لمسرح الـ نو في الهواء الطلق

كان ممثلو النو يستعينون بعدد من الأكسسورات التي كانت تساعدهم على إبراز الشخصية المسرحية، وتحمل إشارات كثيرة تغني عن القول والتعليق، مثل

اللباس والأقنعة والمظلات والمراوح والسبحات وأغصان الخيزران، ولوازم أخرى يستغلها الممثلون في أثناء الأداء. وقد كانت الأقنعة المصنوعة من الخشب أهم عنصر فيها، وهي إما أقنعة ثابتة (الحسناء، العجوز، الشرير. . .) وإما أقنعة تُصمم وتُصنع خصيصاً لأداء مسرحي واحد. وكانت تفيد، إضافة إلى التعرف على الشخصية، في أداء الممثل لأكثر من دور، وخاصة القيام بدور النساء، على اعتبار أن الممثلين كانوا من الذكور. والأمر نفسه بالنسبة إلى المظلة والمروحة المزينتين بالرسوم واللتين يوحي حملهما أو فتحهما بشكل معيّن بدلائل يعيها المتفرج. أما الفرقة الموسيقية (ثلاثة طبالين وعازف ناي)، فكانت تقوم بدور هام في المسرحية؛ فهي من جهة تضبط حركات الممثلين ورقصاتهم، وتضفي من جهة أخرى عنصر الإثارة على المشهد المسرحي. وحتى فترات الصمت التي تعقب قرع الطبول تخلّف وقعاً خاصاً في نفس المشاهد. وكذلك كان المنشدون يقومون بدوري الكورال والراوي، وهو ما يتيح للممثل التفرغ، في أغلب الأوقات، لأداء الحركات المسرحية والرقصات.



يمكن إجمال النصوص المسرحية في صنفين رئيسيين: صنف تدور أحداثه حول شخصيات خرافية أو أسطورية، وصنف آخر يدور حول شخصيات تاريخية معروفة أو شخصيات معاصرة. وقد تأثر النص المسرحي بعدة عناصر. فمن حيث المضمون أو الرسالة التي يريد إيصالها إلى المتلقي، تأثر بمذهب الزن خصوصاً، وبالديانة البوذية عموماً، ذلك أن مسرح النو نشأ في وقت سادت فيه ثقافة الزن لدى فئة الساموراي، فمؤسسوه ـ خاصة **زيآمي** ـ والكثير من كتّابه والعاملين فيه كانوا من رهبان الزن، كما أن عروضه الأولى كانت تتم تحت رعاية المعابد البوذية. لذا يبدو طابع الزن واضحاً في الاقتصاد في القول والعبارة المبهمة التي تحمل أكثر من دلالة، والاعتماد على الحركة. أما الحكاية، فكانت تستقى من

الأساطير الشعبية والبوذية أو من قصص الملاحم (مونوغاتاري)، التي شاعت كتابتها بعد وصول الساموراي إلى السلطة. بينما تأثر أسلوبه اللغوي بصنوف الشعر التي كانت سائدة، خاصة صنف هايكاي (Haikai)[٢٨].

وعموماً كانت الرواية تتبع نمطاً يكاد يكون موحداً، فهي تبتدئ بدخول ممثل ثانوي واكي (waki) يتقمص شخصية راهب بوذي، ومن خلال رقصته الأولى والمقطع الغنائي الذي يؤديه بصحبة الكورال، ينقل المشاهد إلى المكان والزمان والفصل (الربيع أو الخريف. .) الذي تدور فيه أحداث المسرحية. وفي نهاية المشهد الأول، يستحضر روح الشخصية المعنية في الرواية، وهي إما روح شخصية أسطورية أو تاريخية معروفة، وإما روح مكان أو شيء من الأشياء، يتقمصها الممثل الرئيسي (شيتي). وعبر توالي فصول المسرحية ـ قد تدوم من خمس ساعات إلى يوم بكامله ـ يتعرف المتفرج على الأحداث من خلال الأسئلة التي يطرحها واكي على الروح المستحضرة (الممثل الرئيسي)، وكذا المقاطع الغنائية التي يؤديها الممثلون فرادى أو بصحبة الكورال. وتنتهي المسرحية عادة بخلاص الروح وعودتها إلى الراحة الأبدية. والأهم من الحكاية في مسرح النو ـ التي غالباً ما تكون معروفة لدى المتفرج ـ هو الأداء المسرحي، ودقة الحركة والإلقاء، وجودة الغناء والرقص، والروح التي يضفيها كلُّ ممثل على المسرحية. وهذه كلها مهارات كانت متوارثة في أُسر بعينها يكتسبها الأبناء منذ الصغر. ومن أجل الحفاظ على هذا الفن، توجد اليوم في اليابان مدارس لتعليم هذه المهارات. وكما علق على ذلك **دايسيتز سوزوكي** المختص بمذهب الزن: «دراسة مسرح النو هي في واقع الأمر دراسة للثقافة اليابانية في مجملها. فهو يحوي القيم الأخلاقية والمعتقدات الدينية، والتطلعات الفنية للشعب الياباني»[٢٩].

تجدر الإشارة إلى أن تعبيراً مسرحياً آخر تطور في موازاة مسرح النو، وهو مسرح كيوغن (Kyogen) الذي كان يؤدي بمواصفات النو نفسها وفي فضائه المسرحي، لكن مع اختلاف في الموضوع. ذلك أنه اختص بالموضوعات الهزلية التي كانت تؤدي في مشاهد قصيرة في أثناء الفترات الاستراحة بين فصول مسرحيات النو. ويبدو أن أصول مسرح كيوغن ترجع إلى الصين؛ إذ كان من

---

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٢٩) Daisetz Teitaro Suzuki, *Zen and Japanese Culture* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958), p. 419.

جملة المكونات الثقافية التي تبنّاها اليابانيون في القرنين السابع والثامن الميلاديين. وقد مارستها في البداية فرق ساروغاكو، التي انبثق عنها مسرح النو، كما سبقت الإشارة. وعموماً، تميز هذا المسرح بأقنعته الخاصة، وبتخصص ممثلين في أدائه، إضافة إلى تحرره من الموعظة الدينية، وتناوله موضوعات تسخر من الواقع اليومي[٣٠].

٢ ـ مسرح الجوروري أو «بونراكو»

هذا المسرح هو عبارة عن عروض درامية غنائية تقدَّم إلى جمهور من الكبار عبر دمى متحركة على نحو يختلف عمّا هو مألوف في مسرح العرائس، المعروف في جهات أخرى، سواء من حيث الشكل أو الموضوع. وكانت بداية هذا المسرح في اليابان في منتصف القرن السادس تقريباً؛ إذ ظهر كشكل من أشكال السرد القصصي المصحوب بآلة موسيقية، دون أن يكون مرفقاً في أوله بالدمى المتحركة. وكان يُعرف في الأصل بجوروري، نسبة إلى أميرة عاشت في القرن الثاني عشر، وكانت حكاية غرامها تُروى من قبل الرهبان الجوالين بمصاحبة العزف على الآلة الوترية بيوا[٣١]. ومن ثم أصبحت جميع الحكايات التي تروى على المنوال نفسه تُعرف بجوروري[٣٢]. والتغيير الذي طرأ في أواخر القرن السادس عشر هو استقدام الآلة الموسيقية شاميسين[٣٣] من جزر ريوكيو لاستخدامها في مصاحبة السرد القصصي. وقد أحدثت نقلة نوعية في أدائه.

أما الدمى، فكانت تقنياتها معروفة في اليابان منذ عصر هييان، حيث كانت تُستغل من قِبل رهبان الشنتو وفرق الفرجة، لكن جرى التخلي عنها إلى أن أُعيد

---

(٣٠) P. G. O'Neill, «Kyogen,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, pp. 325-329.

(٣١) بيوا (Biwa) آلة وترية بخمسة أوتار، تشبه إلى حد ما آلة العود. استُقدمت من الصين في عصر نارا.

(٣٢) من الروايات الشائعة حول بداية مسرح العرائس، رواية تقول إن قرينة هيدي ـ يوشي طلبت من وصيفة لها تدعى أونو أوزو (Ono Ozu) أن تكتب لها حكاية، على غرار ما كتبته موراساكي شيكيبو وسي شيناغون في القرن العاشر. وبالفعل، كتبت لها حكاية عن غرام الأميرة جوروري بميناموتو نو يوشي ـ تسوني (Minamoto no Yoshitsune) (١١٥٩ ـ ١١٨٩)، بطل أسرة ميناموتو الذي أوصلها إلى السلطة (وقد شاعت هذه القصة تحت عنوان «جوروري هيمي مونوغاتاري» (Joruri Hime Monogatari) أو حكاية الأميرة جوروري. وقد نالت هذه الحكاية شهرة واسعة، وأصبحت متداولة على لسان الرواة في النصف الثاني من القرن السادس عشر. انظر: Torigeo Bunzu, «Edo Joruri,» in: Gerstle, ed., *18th Century Japan: Culture and Society*, pp. 51-52.

(٣٣) شاميسين آلة موسيقية وترية (ثلاثة أوتار) صينية، استُعملت في البداية لمصاحبة عروض البونراكو، قبل أن تصبح مكوناً رئيسياً في الموسيقى اليابانية التقليدية.

استعمالها في مصاحبة سرد الجوروري(٣٤). ولم تكن الدمى عندما أضيفت إليه في نهاية القرن المشار إليه بذات أهمية، إذ كانت عبارة عن دمى صغيرة بتقنيات بسيطة تُستغل كوسيلة لإيضاح فصول القصة التي يرويها المنشد (أو الحكواتي) بصحبة عازف الشاميسين.

مر مسرح الجوروري بتطورات تقنية كان أهمها في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، وهي التي أعطته شكل البونراكو الذي ما يزال يمارس إلى اليوم. فبعد أن حظي مسرح الدمى بالإقبال، وتصدر مجال الفرجة، طورت تقنياته وغيّر شكل الدمى التي أضحت عنصراً رئيسياً في الأداء، وليس مجرد وسيلة للإيضاح. وهكذا زيد في حجمها، وطورت تقنياتها، فأضحت في نصف حجم الإنسان العادي (طولها زهاء ٩٠ سنتمتراً)، تحتاج كل واحدة منها إلى ثلاثة أفراد لتحريك أطرافها على نحو منسجم (تقني رئيسي يحرك الرأس واليد اليمنى، ومساعدان يحركان اليد اليسرى والرجلين)، أي على نحو مخالف للكراكيز التي تُحرك بخيوط من أعلى. كما أضحت عروض البونراكو ـ وما تزال ـ تقدم على منصة مزودة بحاجز يختفي وراءه النصف التحتي للتقنيين، وتظهر فوقه الدمى بكامل حجمها. والملاحظ أن التقنيين لا يعمدون إلى إخفاء أنفسهم عن المشاهد، فهم يقفون وراء الدمى مرتدين لباساً أسود اللون (يضيف المساعدون منهم غطاء يخفي وجوههم). وعلى منصة جانبية (على يمين المتفرج) يجلس عازف الشاميسين برفقة المنشد في وضع مواجه للجمهور، فلا يريان فيه الدمى. والواقع أن المنشد لم يفقد قيمته، على الرغم من المكانة التي احتلتها الدمى، فهو المغني والراوي والمتحدث بلسانها (أي الدمى) التي يعيرها صوته ويؤدي أدوارها. وغالباً ما يكون هو صاحب الفرقة الذي يتوقف عليه نجاحها وشهرتها. وعموماً يتطلب الأداء المسرحي تمريناً مضنياً ليحصل الانسجام بين حركة الدمى والموسيقى ورواية المنشد، وهو ما يضفي الحياة على المشهد المسرحي، كما لو كانت الدمى من لحم ودم.

هناك عاملان ساعدا على نجاح مسرح الدمى في القرن السابع عشر:

يتمثل **أولهما** في الإمكانات التي يتيحها في الإخراج الدرامي والتي تفوق

---

(٣٤) James T. Araki, «Bunraku,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, pp. 212-215.
هناك رأي يقول إن تقنيات الدمى استُقدمت هي الأخرى من جزر ريوكيو، شأنها شأن الآلة الموسيقية شاميسين.

إمكانيات نظيره «الإنساني»، فالدمى تتيح تمثيل شخصيات ومشاهد يعجز الممثل العادي عن القيام بها، مثل الشخصيات الغرائبية وذات القوى الخارقة، ومشاهد قطع الرأس.

ويتمثّل **ثانيهما** في النظرة الدونية التي كان يُنظر بها إلى ممثلي الكابوكي في بدايته، حين كان متماهياً مع تعاطي الدعارة.



كان مسرح الجوروري منذ نشأته متحرراً من التبعية للساموراي والشجون؛ فغرضه في الأصل ترفيه التشونين، حيث كانت عروضه في البداية تقدَم في الدُور الخاصة وفي قاعات الشاي المنتشرة في أحياء المتعة في المدن الكبرى (إيدو وأوساكا وكيوطو)، إلى أن أصبحت له مسارح خاصة به. ويمكن إدخاله ضمن الثقافة الشعبية التي تطورت في عصر توكوغاوا كردة فعل تجاه ثقافة الخاصة التي يحتكرها الساموراي ـ المتمثّلة هنا في مسرح النو الذي احتكره الشجون. فقبل ازدهار النشر وتوسع المعرفة بالقراءة والكتابة، كانت النصوص الأدبية المنسوخة باليد حكراً على فئة معينة، ومن ثم ظهر الجوروري ليذيع مختارات منها بين عامة الناس بشكل مشوق ومحبب، يجمع بين رواية الحكواتي ونغمات الشاميسين وحركة الدمى.

لم تكن موضوعات الجوروري في البداية تخرج عن الحكايات المتداولة (مونوغاتاري)، وعن تلك التي كان مسرح النو يعرضها ولم تكن في متناول عامة الناس. غير أن إمكاناته الفنية سرعان ما أثارت انتباه كبار الكتّاب الذين رأوا فيها وسيلة لإيصال نتاجهم الأدبي إلى الجمهور العريض الذي كان يُقبل على مشاهدة مسرح الدمى. وهكذا حدثت نقلة نوعية في العقدين الأخيرين من القرن السابع عشر يرجع الفضل في جانب كبير منها إلى الكاتب المسرحي **تشيكاماتسو مونزيمون** (Chikamatsu Monzeamon) (١٦٥٣ ـ ١٧٢٥)، الذي يصفه البعض بـ «شكسبير اليابان».

ولد **تشيكاماتسو** لأُسرة من الساموراي (إتشيزين) فقدت امتيازاتها وانتقلت للعيش في **كيوطو** وهو في سن الطفولة. تلقى في كيوطو تعليمه كباقي أبناء الساموراي، وبرع في نظم الشعر. بدأ حياته العملية في وظائف ثانوية لدى نبلاء البلاط، إلى أن اختار الانضمام إلى محترفي الفرجة، على الرغم ممّا يحمله ذلك من حط لمكانته الاجتماعية وإساءة لسمعته. وهكذا، كتب **تشيكاماتسو** ما ينيف على ١٠٠ مسرحية ـ أغلبها لمسرح الدمى ـ شكّلت منعطفاً في الكتابة المسرحية اليابانية، وأثرت في المسرح الياباني شكلاً ومضموناً[(٣٥)]. ولم تكن مسرحياته الأولى تخرج في ظاهرها عن نطاق قصص الملاحم المتداولة؛ فمسرحيته الأولى (التي عرضها مسرح البونراكو في كيوطو عام ١٦٨٣) كانت مستقاة من ملحمة أُسرة **سوغا** العريقة، التي ارتبط اسمها بدخول البوذية إلى اليابان، والتي كثيراً ما تناولها مسرح النو. إلا أن **تشيكاماتسو** لم يكتف بما هو معروف عنها إلى حدود القرن الثالث عشر، بل تابع مسيرة أجيالها، مضيفاً فصولاً من الصراع والبطولة والدسائس والانتقام والتمرد وقصص الغرام وعبء الواجب والتضحية في سبيل الحب، إلى غير ذلك. ولعل أهم شخصية ركز عليها هي شخصية البغي التي أظهرها في لبوس امرأة رقيقة المشاعر، تحب وتتفانى في حب عشيقها إلى حد الموت. والواقع أن **تشيكاماتسو** تستّر بين حنايا السياق التاريخي ليُظهر ما كان مجايلوه من أبناء الساموراي يعانونه من تمزق بين الامتثال لقيم البوشيدو (وقيم الكونفوشيوسية عموماً) والتمرد عليها والانسياق وراء العاطفة والانغماس في ملذات الحياة التي وفرتها أحياء المتعة. وعموماً أصبحت موضوعات الغرام والتعارض بين الواجب والعاطفة، سواء في سياق تاريخي معيّن أو في سياق معاصر، موضوعات أثيرة لدى **تشيكاماتسو** في مسرحياته التالية، ولدى الكتّاب الآخرين الذين ألفوا لمسرح الدمى وحذوا حذوه. ومن الموضوعات الدرامية التي تكررت في مسرحي البونراكو والكابوكي، قصة الحب المستحيل الذي يجرمه العرف، أو تقف في وجهه قيم المجتمع والانتماء الفئوي، أو تعوقه الضائقة المالية، كعشق تابع لابنة سيده ـ وربما لزوجة سيده الفاتنة ـ أو حب يجمع بين رجل من الساموراي وقينة تقيم في بيت للدعارة، أو فتاة تباع لدور المتعة ويعجز

(٣٥) تمكنّا من قراءة أربع مسرحيات لتشيكاماتسو مونزيمون مترجمة إلى اللغة الإنكليزية. انظر: Chikamatsu Monzaemon, *Four Major Plays*, translated by Donald Keene (New York: Columbia University Press, 1998).

وهناك زهاء ١٠ مسرحيات أخرى مترجمة إلى هذه اللغة.

عشيقها عن جمع المال لعتقها. كما استفاد كتّاب مسرح العرائس من الأحداث الواقعية، فنقلوها في صيغة درامية إلى المسرح، ومنها حادث انتحار أحد التجار في أوساكا بسبب عشقه لامرأة، حيث استلهم منه المشهد الدرامي لانتحار العاشقين كنهاية للحب المستحيل.

كان الانتحار في جُل المسرحيات مشهداً مؤثراً، تطبعه نفحة بوذية؛ فقبل أن يقْدم العاشقان على قتل نفسيهما، يعبّران في مقاطع شعرية عن إخلاصهما وعشقهما، وعن أملهما في أن يلتقيا في العالم الآخر بعد خلاص روحيهما، وأن يتذكر الناس حبهما على مر العصور. وما يلحظه قارئ هذه النصوص اليوم، هو تأكيدها الزائد «الواجب» غيري (giri) الذي يطوق أعناق محاربي الساموراي ويلجم عاطفتهم، وكذا الخوف من العار الذي قد يلحق بهم وبأُسرهم إن هم خرجوا على قواعد السلوك المسطرة لهم؛ العار الذي لا يمكن غسله أو التخلص منه إلا بالانتحار. وما قد يلحظه أيضاً، هو تركيز نصوص هذا المسرح ـ رغم أنها نصوص موجهة أساساً إلى التشونين ـ على فئة الساموراي وقيمهم؛ فشخصية الفلاح تكاد تغيب عنها نهائياً، وإذا ظهرت شخصية التاجر في إحداها فهي شخصية نمطية أو متسمة بشهامة الساموراي. ولا غرابة في الأمر، فمسرح الدمى كان يلقى الرعاية من نبلاء البلاط في كيوطو ومن كبار الساموراي في المدن الأخرى، كما أن أغلب من كتبوا للمسرح (بونراكو وكابوكي) كانوا من فئة الساموراي ممن اضطرتهم ظروفهم المادية إلى العمل في مجال الفرجة، أو ممن اختاروا هذا الدرب عن قناعة، كما هو شأن **تشيكاماتسو**. أضف إلى هذا وذاك أن الثقافة السائدة في عصر توكوغاوا كانت ثقافة الساموراي، وأن الثقافة الشعبية التي كان مسرح البونراكو من ضمنها، كانت محاكاة لثقافة النخبة التي حرمت العامة من الوصول إليها.

لم ينته تأثير **تشيكاماتسو** عند إعطاء مسرح البونراكو زخماً، وتحرير موضوعاته من النمط التقليدي، بل إنه طاول أيضاً شكل الكتابة وتقنية الأداء؛ ذلك أن **تشيكاماتسو** كان واعياً بمحدودية أداء الدمى، ومن ثم أولى النص المسرحي بشقيه (السرد والحوار) عناية خاصة، حيث كان يتخير كلماته والوزن المناسب لمقاطعه الشعرية، ويتلاعب بترتيب اللفظ ليُحدث التأثير المطلوب لدى المشاهد ويشد انتباهه، ويضفي الحياة على الحركة الضيقة للدمية. ومن ثم أيضاً، كان حرصه الشديد على طبع مسرحياته ونشرها قبل العرض المسرحي، حتى يتسنى للبعض متابعة المقاطع الشعرية التي لم يكن في متناول الجميع الخلوص إلى

معانيها. كما استغل الحوار المسرحي ليكسر بعض المحرّمات (التابوهات) ويقول على لسان شخصياته ما يستحيل عليهم قوله في المواقف العادية؛ فالمرأة التي كان يحرَّم عليها الكثير، نجدها في مسرح **تشيكاماتسو** امرأة عاشقة وجريئة، على غير عادتها، تبوح بغرامها وتتغنى بعشق حبيبها وتفانيها في حب يتحدى الموت:

ولو أن جسدي طُعن، وعظامي دُقت إلى أن أضحت تراباً، وتحول جسمي إلى رماد، فإن روحي ستظل في هذا العالم تتبع ظله ملتحمة بجسده[٣٦].

لم يعرف مسرح البونراكو بعد وفاة **تشيكاماتسو** تطوراً كبيراً من حيث الموضوع، على الرغم من الإقبال والانتشار الواسعين اللذين حظي بهما طوال القرن الثامن عشر، حيث كان المنافس الأول في نصفه الأول لمسرح الكابوكي. ولعل أهم تطور عرفه هو ابتكار تقنيات جديدة أضفت الحيوية على أداء الدمى. ففي العقود الأولى من القرن الثامن عشر، أضحى ٣ تقنيين ـ بدلاً من تقني واحد ـ يحركون الدمى ـ بعد أن زودت الدمى بشفاه قابلة للحركة، وجفون تغمض وتفتح، وأيد تمسك بالأشياء، وحواجب وعيون يتحكم في حركتها، كانت في مجملها تُذهل المشاهد، وتغطي أحياناً على ضحالة النص[٣٧]. ونتيجة لهذا التطور التقني، يعتبر مسرح الدمى الياباني اليوم من أرقى الفنون في هذا المجال، على الصعيد العالمي.

٣ ـ مسرح الـ كابوكي

يمثّل الكابوكي قمة التجربة المسرحية في اليابان، حيث بلغت درجة من الإتقان والتعقيد لا تقل في شيء عن مثيلاتها في أوروبا، ولم تعد تُغفل في أية دراسة عامة عن تطور المسرح على الصعيد العالمي. وقد ظهر هذا المسرح في مطلع القرن السابع عشر، واستكمل جُل مقوماته في مطلع القرن الثامن عشر، التي ظل محافظاً عليها إلى اليوم. والملاحظ أنه أُنشئ في الأصل لإرضاء سكان المدن، فجاء ظهوره مرتبطاً بأحياء المتعة في كل من **إيدو** و**أوساكا** و**كيوطو**، وكانت نزعته في البداية إلى إشباع الغرائز والابتعاد عن الذوق الرفيع الذي ميز مسرح النو، الذي اختص به الشجون وكبار الساموراي. كما مثّل في أوله نزعة من التمرد على القيم

(٣٦) Keene, *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867*, pp. 270-271.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

والنظام الصارم الذي فرضته سلطات توكوغاوا؛ فمصطلح «كابوكي» كان يعني، في غير سياق الفرجة، عدم التقيد بالأعراف والخروج عن التقاليد[٣٨]. غير أن مسرح الكابوكي عرف في نهاية القرن السابع عشر نقلة نوعية، شأنه شأن مسرح العرائس، حين برع فيه ممثلون موهوبون، واستقطب كتّاباً مرموقين غيّروا من مجراه. واعتباراً لانتشاره الواسع والإقبال عليه، وما كان له من تأثير اجتماعي، فقد كان موضوعا لجملة من التقنينات التي فرضتها عليه سلطات الباكوفو.

كانت بداية مسرح الكابوكي على يد امرأة تدعى أوكوني[٣٩]، أسست فرقة نسائية في العاصمة كيوطو عام ١٦٠٣، وكانت تقدم عروضاً تشمل الغناء والرقص وتمثيليات هزلية، لكن بلغة ماجنة وبأسلوب من الإغراء والحركات ذات الإيحاءات الجنسية، كتلك الشائعة لدى بائعات الهوى في بيوت الدعارة[٤٠]. وعلى غرار فرقة أوكوني التي لاقت إقبالاً في العاصمة، تأسست فرق أخرى جوالة اتّبعت الأسلوب نفسه، إضافة إلى انخراط العاملات فيها في الدعارة، اللواتي كن يتخذن العروض وسيلة لإغراء الزبائن. كما تأسست في الفترة ذاتها (عام ١٦١٢ تقريباً) فرق واكاشو كابوكي (Wakashu Kabuki) مكونة من شبان يافعين يتشبهون بالنساء، ويتقمصون أدوارهن ويمارسون البغاء[٤١]. وكان بديهياً

---

(٣٨) تجدر الإشارة إلى أن مصطلح الكابوكي كان شائعاً في مطلع القرن السابع عشر، بعد توحيد البلاد تحت حكم الساموراي العسكري؛ إذ كان يطلق على شباب الساموراي، الذين خالفوا القواعد المتعارف عليها في السلوك واللباس وتسريحة الشعر كدليل على احتجاجهم وإحباطهم. وقد كان هؤلاء يُعرفون بكابوكي مونو (Kabuki Mono) (أناس الـ «كابوكي»)، وهو ما يعني الأشخاص المنحرفين أو غير الملتزمين بالأعراف. انظر: Eiko Ikegami, *The Taming of the Samurai: Honorific Individualism and the Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995), pp. 204-205, and Maurius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 118.

(٣٩) لا يُعرف الكثير عن حياة أوكوني (Okuni) سوى أنها كانت تعمل مساعدة في معبد شنتوي في العاصمة كيوطو، وأنها كانت تتخذ من عروضها الراقصة والتمثيلية وسيلة لجمع التبرعات للمعبد الذي تنتمي إليه (معبد إيزومو (Izumo)). وعموماً نالت أوكوني شهرة واسعة بسبب عروضها، واعتُبرت في رأي جُل الباحثين أنها واضعة الأسس لمسرح الكابوكي. انظر: Ted T. Takaya, «Okuni,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, p. 97.

تجب الإشارة إلى أن فرقاً نسائية قبل فرقة أكوني كانت تقصد العاصمة كيوطو لتقديم عروض، وللغاية الدينية ذاتها. انظر: Donald Shively, «Popular Culture,» in: *The Cambridge History of Japan*, vol. 4, p. 749.

(٤٠) لعلّ هذا الأسلوب الذي خرج عن المألوف في أداء الرقصات وحركات الإغراء هو الذي أعطى لهذه الفرق اسم الـ «كابوكي»، الذي يحمل تضميناً لغوياً بالمعنى ذاته. انظر: Ted T. Takaya, «Kabuki,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, pp. 90-95.

(٤١) كان الشذوذ الجنسي (اللواط) شائعاً في مجتمع توكوغاوا، خصوصاً بين الساموراي والرهبان البوذيين. وربما تعود بدايته إلى عصر هييان، أو إلى دخول الديانة البوذية، حيث كان يمارس في الصين من قبل =

أن يواكب عروض هؤلاء الشباب الصخب والعربدة والشجار ولعب القمار وسمسرة الجنس، الأمر الذي تنبهت إليه سلطات الباكوفو، فأصدرت أول المراسيم التي رمت إلى الحد من الظاهرة وإيقافها عند حدود معيّنة. وهكذا صدر في عام ١٦٢٩ مرسوم أول يمنع النساء من العمل في عروض الكابوكي، وصدر في عام ١٦٥٢ مرسوم ثان يفرض على الشبان الذين يقومون بأدوار النساء الالتزام بشروط معيّنة، والامتناع عن ممارسة الدعارة، وعدم الاختلاط بالساموراي وباقي سكان المدن والفلاحين[٤٢].

وعموماً كان مسؤولو الباكوفو ومعلمو الكونفوشيوسية (أمثال **هياشي رزان**)[٤٣] ينظرون إلى عروض الكابوكي الأولى على أنها ممارسات تفسد الأخلاق وتكسر القيم المجتمعية وتهدد الأمن، خاصة وأن جمهورها لم يقتصر على سكان المدن بل شمل أيضاً عدداً من كبار الساموراي (من موظفي الدولة)[٤٤]. إلا أن سلطات الباكوفو كانت ترى أيضاً أن الكابوكي، مثله مثل الدعارة، شر لا بد

= الرهبان وغيرهم. وقد شاع بين الساموراي إبّان الحرب الأهلية، وبلغ مستوى عالياً في عصر توكوغاوا، بحيث لم تكن ممارسته تسيء إلى أخلاق الفرد أو تحط من مكانته؛ فبعض الشجون أنفسهم كان معروفاً بتفضيله الغلمان. ولعل أشهر مثال في هذا الباب الشجون الخامس توكوغاوا تسونا ـ يوشي (١٦٤٦ ـ ١٧٠٩) الذي اشتهر بعلاقته مع حاجبه ياناغيساوا يوشياسو (Yanagisawa Yoshiyasu) (١٦٥٨ ـ ١٧١٤)، وأيضاً بترقيته عدداً من الأفراد لتولى مناصب عليا بسبب علاقاته الجنسية معهم. وكذلك كان إياسو، مؤسس شجونة توكوغاوا، يحتفظ في بلاطه بعدد من الغلمان للغرض نفسه. انظر: Donald H. Shively, «Tsunayoshi: The Genroku Shogun,» in: Donald H. Shively, eds., *Personality in Japanese History* (Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1995), pp. 97-98, and Noguchi Takenori and Paul Schallow, «Homosexuality,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, pp. 217-218.

(٤٢) الواقع أن سلطات الباكوفو أصدرت عدداً من المراسيم متعلقة بمسرح الكابوكي. وفي ما يخص منع النساء من ممارسته، قد تكرر إصدار المراسيم بعد عام ١٦٢٩، بعد أن تبين أن بعضهن لم يلتزمن بالحظر (مراسيم ١٦٣٠، ١٦٤٠، ١٦٤٥ و١٦٤٦). أما في ما يخص الرجال الذين يتقمصون دور النساء، فقد وضِعت لهم عدة شروط، منها حلق مقدمة الرأس كعلامة على بلوغ سن الرشد. انظر: Donald H. Shively, «Bakufu Versus Kabuki,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), pp. 231-257.

(٤٣) هناك نص منسوب إلى هياشي رزان، يصف فيه الكابوكي بعبارات ساخرة، فهو لا يعدو في نظره مجرد نساء يتشبهن بالرجال، ويغنين بأصوات قبيحة. انظر النص في: Shively, «Popular Culture,» p. 750.

(٤٤) إلى جانب هياشي رزان، كتب آخرون طوال القرن السابع عشر في الموضوع ذاته، ومن ذلك هذا النص الذي كُتب عام ١٦٦٢: «عندما بنيت المسارح للبغايا للقيام بعروض الـ «كبوكي»، افتن بهن المتهورون والمنحرفون من كبار القوم وصغارهم، فكانوا يتدافعون ويتشاجرون أمام المسارح ويعقدون لقاءات معهن.. مبددين ثرواتهم ومشوهين سمعتهم. وقد انخرط البعض في شجارات كانت تنتهي بهم إلى المحاكم. فلهذا السبب مُنع «كابوكي» النساء، لما كان يحدثه من فساد وإزعاج للبلاد وما ينتج من ذلك من كوارث». انظر: المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

منه؛ فهما معا يصرفان الناس عن شرور أعظم[٤٥]. ولهذا الاعتبار، لم تمنع تلك السلطات الكابوكي منعاً نهائياً، لكن عملت، بغية حفظ الأمن والأخلاق، على حصره في أحياء المتعة الهامشية، ومنع القائمين بها من السكن في غيرها، إضافة إلى إخضاعهم لرقابة صارمة.

لا يُعرف بالضبط متى اتخذ مسرح الكابوكي شكله المسرحي المعروف، غير أن من المحتمل أن تكون القوانين الزجرية التي صدرت في العقود الأولى من القرن السابع عشر، قد دفعت بالعاملين فيه إلى الاقتصار على العروض الدرامية والابتعاد عن الممارسات الأخرى التي شابت نشأته. وأياً كان الأمر، قامت سلطات الباكوفو في منتصف القرن المذكور (١٦٥٢) بمنع جميع أصناف الكابوكي فترة قصيرة، إلى أن جرى التوصل مع العاملين فيه في العام نفسه إلى صيغة تفرض شروطاً على ممارسته؛ فآنذاك جددت التصاريح ببناء مسارحه في كل من **كيوطو** و**أوساكا** و**إيدو**، وترسخ كفرجة معترف بها رسمياً وإن أُعطي لها اسم آخر[٤٦]. وقد استفاد واضعو الكابوكي في صيغته الجديدة من جميع التعابير المسرحية التي سبقته: استفادوا من مسرح النو في حركة الممثلين والرقص ومصاحبة العروض بالموسيقى، ومن الكيوغن في الموضوعات التي تخرج عن الصبغة الدينية، ومن البونراكو في الاستعانة بالمنشد/ الراوي وعازفي الشاميسين، إضافة إلى اقتباس مسرحياته التاريخية وغيرها. وعلى الرغم من هذه التأثيرات الواضحة، تطور الكابوكي في نهاية الأمر ليصبح فناً مستقلاً بذاته، وبمواصفات لم تتوافر لأي من التعابير المسرحية التي سبقته.

بلغ مسرح الكابوكي أوجه في القرن الثامن عشر، خاصة في نصفه الثاني الذي شهد تراجعاً نسبياً لمسرح الدمى. ففي هذا العصر الذهبي، أضحى الكابوكي أهم فرجة في **إيدو** (وفي **أوساكا** و**كيوطو** أيضاً)، وأضحت مسارحه عالماً للخيال الجامح والقصص الرومانسية والبطولية والدسائس ـ على الخشبة وخارجها ـ ومجالاً للإبداع الفني والأدبي واستعراض آخر ما استجد في الرقص والغناء والأزياء.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٤٦) في منتصف القرن السابع عشر، مُنع استعمل مصطلح الـ «كابوكي» لارتباطه، في الأصل بالمسرح النسائي وبممارسة الدعارة. وهكذا، عُرف لفترة بكيوغن زاكوشي (Kyoden-Zakushi) (العروض الهزلية أو المحاكاة الساخرة). انظر: Masakatsu Gunji, «Kabuki and its Social Background,» in: Chie Nakane and Shinzabur Oishi, eds., *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*, edited by Conrad Totman (Tokyo: University of Tokyo Press, 1990), p. 193.

وأضحى ممثلوه حديث كل لسان، يتابع الناس أخبارهم ويقلدون أزياءهم. وفي هذه الفترة أيضاً حقق مسرح الكابوكي جُل الخصائص الأساسية للمسرح، وطور تقنيات وممارسات مسرحية ـ ميزت لاحقاً السينما اليابانية ومنحتها تلك الصيغة المميزة عالمياً. وهذا لا يعني في شيء أن الكابوكي كان نسخة مشابهة للمسرح الأوروبي، بل كان صيغة من صيغ المسرح العالمي، لها أعرافها وتقنياتها التي تطورت ضمن ثقافة معيّنة لإرضاء جمهور له تطلعاته الفنية وأذواقه الخاصة. ولم يكن الكابوكي مجرد صنف من أصناف الفرجة أو تعبير فني فحسب، بل كان ظاهرة اجتماعية، بكل ما تحمله الظاهرة من أبعاد؛ فتأثيره تعدى الفرجة وتخطى أحياء المتعة وسكان المدن ليصل إلى جميع أرجاء اليابان. ذلك أن مسرح الكابوكي كسر الحواجز، واخترق كل مكونات المجتمع الياباني في عصر توكوغاوا، فأضحى الفرجة التي يشترك فيها الساموراي وسكان المدن والفلاحين. ولن نستطيع في هذه العجالة الإلمام بجميع جوانب مسرح الكابوكي، لذا سنكتفي ببعض المظاهر، التي نعتقد أنها تقرّب القارئ من هذه الظاهرة في شكلها الفني وتأثيرها الاجتماعي.

أ ـ الفضاء المسرحي

يتضح من رسومات القرن الثامن عشر أن الفضاء المسرحي الذي تقدم فيه عروض الكابوكي لم يكن يختلف في ظاهره عن نظيره في باريس أو في غيرها من العواصم الأوروبية، التي وجِدت فيها مسارح في الفترة ذاتها؛ فالمسرح الياباني اتسم بمواصفات المسرح الأوروبي ذاتها تقريباً؛ فهو عبارة عن بناية مستطيلة مسقوفة ومزودة بمنصة للأداء المسرحي، وشرفات جانبية، وقاعة فسيحة لجلوس المتفرجين. ولعل الاختلاف الظاهر هو وجود ممر مرتفع على جانب صالة المتفرجين، يستغله الممثّل الرئيسي عند دخوله أول مرة إلى المسرح يُعرف بهاناميتشي (hanamichi) (انظر الصورة)؛ ويستغل أيضاً كقسم من الديكور وموقع لأداء مقاطع من المسرحية. أما خشبة المسرح، فكانت، على غرار خشبة مسرح النو، مقسمة إلى مساحات معيّنة، واحدة منها خاصة بالجوقة الموسيقية[٤٧]، غير أنها

(٤٧) كانت خشبة المسرح تعكس هي أيضاً التراتب الاجتماعي المعمول به في جميع مستويات المجتمع الياباني. وعلى هذا الأساس، كانت الجهة اليمنى للخشبة مخصصة للممثلين، الذين يتقمصون أدوار الشخصيات ذات الاعتبارات الخاصة: كبار الساموراي، وممثلو السلطة ومبعوثوها.. وغيرهم، في حين كانت الجهة اليمنى مخصصة للممثلين الذين يتقمصون أدوار صغار القوم. انظر: Ted T. Takaya, «Kabuki,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 93.

كانت أكثر اتساعاً، وكانت تزوَّد ـ بحسب متطلبات كل عرض ـ برسومات خلفية ومجسمات توحي بمكان المسرحية وزمانها، وأيضاً بستارة تُسدل عند نهاية كل فصل. ويُنسب إلى الكاتب المسرحي **ناميكي شوزو** (Namiki Shozō) (١٧٣٠ ـ ١٧٧٣)، الذي اختص بكتابة المسرحيات التاريخية، أنه ابتكر تقنيات أُدخلت على الخشبة، منها الخشبة الدوارة أو القابلة للحركة التي تتيح الانتقال بسرعة من مشهد إلى آخر، والرافعات التي يتعلق بها الممثل وتوحي بطيرانه في الهواء، والأبواب السحرية (trapdoor) التي توهم باختفاء الممثل أو الأشياء في لمح البصر(٤٨).

كانت مسارح الكابوكي خاضعة لقوانين الباكوفو، التي كانت تصدر التصريح بإنشائها وتحدد مواقع إقامتها. وقد رخصت هذه القوانين ببناء أربعة مسارح كبرى في كل من العاصمتين و**أوساكا** في أحياء المتعة الموجودة فيها، غير أن حادثاً أخلاقياً وقع في **إيدو** عام ١٧١٤ دفع بسلطات هذه المدينة إلى هدم واحد منها، فلم يبق فيها سوى ثلاثة مسارح إلى نهاية عصر **توكوغاوا**(٤٩).

وبالإضافة إلى هذه المسارح المرخص لها (والمعروفة بأو شيباي O-shibai)، كان هناك مسارح صغيرة (ثمانية في إيدو) غير معترف بها رسمياً، لكن السلطات تغاضت عن نشاطها ـ وكان البعض منها ملحقاً بالمعابد والمزارات التي يمارس عمله تحت رعايتها. والفرق هو أن المسارح المرخص لها كانت تستقطب كبار الممثلين والمستثمرين، وتنشط في العلن ـ أو بما يمكن أن نسميه بلغة اليوم وسط «ضجة إعلامية» ـ عبر الدعاية وإعلان عروضها على أبواب المسارح، وعبر الملصقات التي توضع على حيطان البنايات(٥٠). كما كانت في أماكن مشهورة،

---

(٤٨) Ted T. Takaya, «Namiki Shōzō,» in: Ibid., vol. 5, p. 327.

(٤٩) كان في العاصمة إيدو حتى مطلع القرن الثامن عشر أربعة مسارح كبرى هي: ناكامورا ـ زا (Nakamura-za)، وإيتشيمورا ـ زا (Ichimura-za)، وموريتا ـ زا (Morita-za)، وياماموراـ زا (Yamamurar-za)، الذي جرى تدميره عام ١٧١٤. أما الحادث المشار إليه في النص، فيتعلق بامرأة من نساء الشجون (تدعى إيجيما، ١٦٨١ ـ ١٧٤١) ارتبطت بعلاقة جنسية مع إيكوشيما شينغورو (١٦٧١ ـ ١٧٤٣)، أحد الممثلين المشهورين آنذاك. فلما شاع الخبر، أمرت سلطات الباكوفو بتدمير المسرح الذي كان الممثل يعمل فيه. انظر: Masakatsu Gunji, «Kabuki and its Social Background,» p. 193, and Donald Shively, «Popular Culture,» p. 755.

(٥٠) كانت أبواب المسارح الكبرى مزودة ببرج صغير (ياغورا (Yagura)) تُقرع فيه الطبول كوسيلة للدعاية وجلب الزبائن. وكان بمثابة دليل على أن المسرح مرخص له من قبل سلطات المدينة. انظر: Gunji, Ibid., p. 193.

تحيط بها بيوت المتعة والمطاعم وقاعات الشاي التي تقدم إلى زبائن المسرح الطعام والشراب.

لم يقتصر فضاء الفرجة على المدن الكبرى؛ فقلاع الدايميو (أو عواصم الأقاليم) كانت تتوافر بدورها على فرقها المحلية، وعلى مسارح للكابوكي المعدَّة أيضاً لاستقبال الفرق الزائرة من المدن الكبرى. بل إن قرى الفلاحين والصيادين لم تُحرم من الكابوكي، إذ كانت فرق المدن الكبرى والقلاع تبرمج جولات في القرى في الأعياد الدينية ومواسم المزارات. وبما أن الفلاحين كانوا ممنوعين من مشاهدة الكابوكي وممارسته، فإن العروض كانت تقدم تحت غطاء رقصات دينية تقدم قرباناً لكامي المزارات.

لم يتسم الفضاء المسرحي في اليابان بقواعد صارمة تُفرض على المتفرجين، كالتزام الهدوء أو ارتداء زي معين، بل كان مجالاً للمرح والانفلات من ضوابط السلوك الاجتماعي، يتناول فيه المتفرجون الشراب، ويشجعون الممثلين على نحو قريب ممّا يجري اليوم في ملاعب كرة القدم أو كرة السلة. وبما أن العرض المسرحي كان يستمر يوماً بكامله، فإن قاعات الشاي المحيطة به كانت جزءاً من فضائه، ففيها يستريح المتفرجون، ويتناولون طعامهم، ويحجزون مقاعدهم.



ب ـ الممثلون

يُعتبر الممثل سيد مسرح الكابوكي والمحور الذي يدور حوله الأداء المسرحي، خلافاً لمسرح العرائس الذي يتمحور حول صوت المنشد/الراوي وجودة النص. ولهذا السبب، لم يتوافر الكابوكي في البداية على نصوص مسرحية مكتوبة على النحو المتعارف عليه، وكل ما كان الكتّاب يفعلونه هو وضع خطاطة عامة لأحداث المسرحية، بينما يتركون السيناريو للممثل الرئيسي الذي قد يضيف مشاهد من عنده أو يحذف أخرى من النص الأصلي، كما يتركون له الحوار الذي يرتجله أو يعدّه بحسب ما يرتئيه. واعتباراً لأهمية الممثل هاته، فإن بعض الكتّاب ـ مثل **تشيكاماتسو** ـ وضع نصوصاً مسرحية لممثل بعينه، حسب ما يمتلكه من قدرات وطاقات. بل إن بعض الممثلين المشهورين كان يتولى وضع مسرحياته بنفسه. وعموماً كان الممثلون الرئيسيون يتحدرون من أُسر مارست حرفة التمثيل أجيالاً، وعلى دراية بكل متطلبات العمل المسرحي، كما لم يكونوا غرباء عن مجال الأدب والكتابة؛ فمثلاً دانجورو الخامس اشتهر كشاعر، ونُشرت له دواوين شعرية، إضافة إلى توليه كتابة بعض مسرحياته. ومن الوظائف التي كانت تُسند إلى الممثل الرئيسي إدارة الإنتاج المسرحي. . . . وهو ما كان يتيح له إمكانية توزيع الأدوار واختيار ما يناسبه منها.

يتطلب التمثيل على خشبة الكابوكي خبرة خاصة، ومواصفات جسدية معيّنة، وإتقان عدد من المهارات، بما فيها الفنون الحربية. فالممثل الناجح في ذلك يستطيع القيام بالأدوار كلها، ويجيد الرقص والفنون الحربية، إضافة إلى أن حركة الممثل على الخشبة كانت منمّطة ومتصنّعة إلى حد المبالغة، ومتناسقة مع الإيقاع الموسيقي، كما هو الشأن في مسرح النو الذي يعدّ الأصل في جُل تقنيات التمثيل التي سادت المسرح الياباني. وما كان يثمّنه المتفرجون ليس الواقعية التي يضفيها الممثل على الدور، بل التعبير بالجسد، وضبط الممثل للحركة وإتقانه أدق تفاصيلها، وبخاصة وقفته في وضع معيّن (مييي mie: وضع une pose) برهة من الزمن، وتعد لحظة درامية في المشهد المسرحي، ثمّنها رسامو الفترة أيضاً، وخلّدوها في لوحات تعدّ من روائع فن الرسم الياباني (انظر الصورة).

كان أداء دور المرأة (أوناغاتا onnagata) على خشبة الكابوكي من أصعب الأدوار وأكثرها تطلباً لموهبة واستعداد خاصين؛ فبالإضافة إلى ضبط الحركة

المسرحية وإتقان الرقص، كان على الممثل أن يمتلك الرشاقة وغنج الجسد والصوت الرخيم، وأن يحاكي حركة المرأة في أدق تفاصيلها إلى الحد الذي يبدو فيه تمثليه طبيعياً وواقعياً. ذلك أن المرأة، كما جرى تصورها في جُل مسرحيات الكابوكي، كانت مثالاً للمرأة اليابانية التي يُفترض أن تتسم بالجمال والرقة والوفاء والتواضع واللين وتحمّل المشقة. ومن ثم كان على الممثل الذي يقوم بهذا الدور أن يبذل قصارى جهده لإظهار المرأة ـ دون تصنّع ـ في أبهى صور الجمال والفتنة؛ وهذا الجهد أو التفاني الذي يبذله الممثل في تحقيق المبتغى والاعتناء بأدق التفاصيل، هو الذي يثمّنه الجمهور الياباني، سواء في مجال التمثيل أو في مجالات أخرى. ومن ثم أيضاً، لم يكن القيام بهذا الدور مجالاً ليفصح فيه الممثل عن ميوله الجنسية ـ إن كان مثلياً ـ بل كان عليه أن يوحي للمشاهد بأنه امرأة بالفعل، وهو أمر لم يكن ليتأتى بالماكياج وارتداء الزي النسائي، وإنما بالتمرين والدراسة والملاحظة والمعاشرة اليومية للنساء.



لذا كان بعض الممثلين ممن يقومون بهذا الدور يعيش حياته العادية ـ خارج المسرح ـ كما لو كان من النساء بالفعل، سواء في اللباس أو الحديث بلهجة النساء. .[٥١]. والمثير أنه بعد أن سُمح للنساء بالاشتراك في عروض الكابوكي في القرن العشرين، لم تتمكن الممثلات من النجاح في هذا الدور كما نجح فيه الممثلون الذكور، وعلى هذا أصبح من تقاليد الكابوكي أن يتولى هذا الدور ممثل ذكر.

لم يكن ولوج عالم المسرح في متناول أي كان، كما لم تكن الموهبة وحدها كافية لاعتلاء الخشبة، ذلك أن حرفة التمثيل، شأنها شأن باقي الحِرف في عصر توكوغاوا، كانت إرثاً أو رأس مال تحتكره أُسر بعينها، ينتقل من الآباء إلى الأبناء، ويقتضي منهم الالتزام والتمرن منذ الصغر لإتقان فنون الصنعة، وحمل اسم الأُسرة. ولم يقتصر الأمر على ممارسة الحرفة بل تعداه إلى احتكار أُسر أدواراً بعينها. ومن أشهر الأُسر التي احتكرت صنفاً معيّناً من البطولة، تلك التي أسسها **إيتشيكاورا دانجورو** (Ichikawa Danjūrō) (١٦٦٠ ـ ١٧٠٤) في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر، واستمرت في الحرفة حتى القرن العشرين، منجبة ما ينيف على عشرة أجيال من الممثلين (كان آخرهم **إيتشيكاورا دانجورو الحادي عشر ١٩٠٩ ـ ١٩٦٥**). غير أن الانتماء إلى الأُسرة لم يكن مؤهلاً في حد ذاته، بل كان على المرشح لحمل اسم المؤسس[٥٢] أن يثبت جدارته واستحقاقه لتسلم المشعل. فمن العادات التي كان معمولاً بها أن يقف الممثل الرئيسي عند دخوله إلى المسرح وسط الممر هاناميتشي، ويعلن اسمه وتاريخ أُسرته وأمجادها في مجال التمثيل.

مبدئياً كان الممثلون في عصر **توكوغاوا** يصنَّفون في أدنى مستويات التراتب الاجتماعي، في وضع قريب من وضع المنبوذين، مثلهم مثل باقي محترفي الفرجة (الرقص والغناء والموسيقى والألعاب البهلوانية. . .) ومتعاطي الدعارة، الذين يُعرفون في مجملهم بكاوارامونو (kawaramono) أو أهالي ضفاف النهر، نسبة إلى الأحياء الهامشية المخصصة لهم وللعاهرات وذوي الحرف المدنسة (أكو باشو Aku basho، أو أحياء الشر). وكما أشرنا سلفاً، كانوا خاضعين لقوانين صارمة

(٥١) ممّا يروى في هذا الصدد أن أحد الممثلين كان يستحمّ في الحمام العمومي الخاص بالنساء، ولم يكن الناس يستغربون الأمر. انظر: Donald Shively, «Popular Culture,» p. 754.

(٥٢) كان الممثلون يحتفظون بالاسم الشخصي للمؤسس الأول للأُسرة، مع إضافة رقم تسلسلي لتمييزهم. فعندما يثبت أحد الأبناء جدارته في التمثيل، يغير اسمه الشخصي في حفل علني ليحمل اسم المؤسس.

تلزمهم بالبقاء في هذه الأحياء، وعدم المجازفة بالتنقل إلى غيرها. غير أن هذا الوضع القانوني أو الرسمي كان بعيداً عن الواقع اليومي الذي يعيشه الممثلون، فمن المنظور المادي، كانوا في عداد الأغنياء؛ إذ إن رواتب كبار الممثلين بلغت في أواخر القرن الثامن عشر أرقاماً خيالية تتعدى الألف ريو[٥٣] من العملة الذهبية في السنة (بلغ راتب الممثل إياوائي هانشيرو الخامس ١٣٠٠ ريو)[٥٤]، وهي أعلى كثيراً ممّا كان يتلقاه كبار موظفي الشجون، بل أعلى من مداخيل بعض الدايميو. أما السكن، فقد تحايلوا عليه بشرائهم منازل فخمة في أحياء التجار باسم وكلائهم، حيث كانوا يقيمون ويحيون حياة الترف، يحيط بهم الخدم وكل مظاهر الأبهة.

تزامن العصر الذهبي للكابوكي مع ازدهار فن الرسم والنشر وطبع الرسوم بأكثر من لون. وكانت أحياء المتعة المكان المفضل لكبار الرسامين، حيث كانوا يمضون جُل وقتهم يستلهمون لوحاتهم من الحياة اليومية للعاملين فيها. وحظي الممثلون بنصيب الأسد من أعمال هؤلاء، إذ كانوا موضوعاً مفضلاً لديهم، سواء في رسم وجوههم (portrait) أو وقوفهم على خشبة المسرح، وكانت أعمالهم تحظى بإقبال الجمهور. ومن ثم كان في طبع صور الممثلين دعاية للمسرح.

كانت حرفة التمثيل، شأنها شأن باقي الحِرف، متوارثة، تختص بها أُسر بعينها على مدى أجيال. وقد اشتهرت أُسر (مثل أُسر **إيتشيكاورا دانجورو** و**باندو ميستوغورو** و**إوائي هانشيرو**) باستمرارها في التمثيل المسرحي لما ينيف على عشرة أجيال. وكانت أُسر بعينها تختص بهذه الأدوار، وتحتكرها لأجيال.

وعموماً، وكما أشرنا سلفاً، استغل القائمون على مسرح الكابوكي جميع التقنيات والوسائل التي كانت متوافرة، لكن مع إدخال تعديلات عليها أو تطويرها. وهكذا استُبدلت الأقنعة بمكياج كان عبارة عن رسم بأصباغ قوية يخفي ملامح الممثل، ويُظهر على نحو لافت الشخصية المراد تمثيلها (المرأة، الشرير . . .). كما استُعين بالشعر المستعار للغرض نفسه ولأداء الأدوار النسائية وغيرها من الشخصيات التي تتكرر في المسرحيات، وتمكين الممثل من أداء أكثر من دور في

(٥٣) عملة ذهبية ومكيال لوزن المعادن الثمينة. وفي بداية عصر توكوغاوا، كان الريو يساوي ١٥غ من الذهب، ثم خُفض إلى ٧,٨ غ في عام ١٦٩٥.

(٥٤) ولإعطاء فكرة تقريبية، فإن الريو الواحد كان ثمن «كوكو» واحد من الأرز الذي يستهلكه الفرد الياباني في السنة.

المسرحية الواحدة. كما لم يستغن مسرح الكابوكي عن مصاحبة الفرق الموسيقية، التي كانت تتكون من ثمانية عازفين على الشاميسين، الذين يخصص لهم مكان على خشبة المسرح.

ج ـ نصوص مسرح الكابوكي

عُرضت على خشبة مسرح الكابوكي أصناف شتى من الموضوعات. وعموماً لم يختلف مسرح الكابوكي في هذا الباب عن مسرح الدمى، حيث إن كثيراً من النصوص المسرحية لهذا الأخير أُعيد اقتبساها وجرى عرضها من جديد. وهكذا تم عرض مسرحيات تاريخية، وأخرى تركز على الرقص والحركة، بينما شكلت الأحداث الواقعية مصدراً لعدد من المسرحيات التي كانت تحظى بإقبال الجمهور أكثر من غيرها. كما أن بعض الممثلين ابتكر شخصيات بطولية يتكرر ظهورها في مسرحياته التي كان يشارك في كتابتها.

الفصل الثالث عشر

الأزمة والبديل، أو التهديد الغربي وظهور فكر الإصلاح

بدأت أعراض الضعف تظهر على نظام الباكوهان في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، بسبب الأزمات الاقتصادية التي كانت الظروف الطبيعية طرفاً فيها، فكان رد فعل السلطات الرسمية القيام بإصلاحات لتدارك ما يمكن تداركه، ورتق خروق التسيير المالي والإداري. غير أن الضعف الداخلي تساوق مع المد الإمبريالي الغربي، الذي بدا واضحاً في وصول سفن من بعض الدول الغربية، التي قصدت المرافئ اليابانية، متحدية الحظر، ومحمّلة برسالة واضحة تدعو إلى فتح أبواب اليابان أمام التجارة الخارجية، وإنهاء سياسة العزلة.

والواقع أن سياسة العزلة كانت إجراء عملياً ومعقولاً يخدم، في رأي واضعيها، مصالح اليابان «القومية»؛ إذ ارتأى من وضعوا تلك السياسة أن من الضروري إيقاف زحف المسيحية، وإبعاد المبشرين الداعين لها، وقمع معتنقيها من اليابانيين، بسبب تعارض عقيدتها مع القيم الوطنية، وتشكيلها أداة تحقق مطامح الأوروبيين التوسعية؛ وارتأوا أيضاً ضرورة مراقبة التجارة الخارجية مع الدول الأوروبية، التي كان من شأنها تزويد الدايميو المعارضين لسلطة الشجون أو المنافسين له، بالمال والأسلحة النارية. غير أن تطبيق سياسة العزلة والالتزام بها، كانا متوقفين من جهة، على مدى قدرة سلطات الباكوفو على الاستمرار فيهما والوقوف في وجه من يريد تكسيرهما، وكانا متوقفين من جهة أخرى، على مدى امتثال الدول الغربية، المعنية بالتجارة مع الجزر اليابانية، لتلك السياسة.

استطاعت شجونة **توكوغاوا** فرض سياسة العزلة، ونجحت في ذلك أكثر من

قرنين من الزمن، غير أن الأوضاع الداخلية والدولية تغيرت مع مطلع القرن التاسع عشر، فلم يعد في الإمكان الإبقاء على أبواب اليابان موصدة. ذلك أن الضعف دبّ في الشجونة، وتكاثرت مشاكلها المادية وقوي معارضوها، في الوقت الذي بلغ بعض الدول الغربية مدى من التفوق التقني والقوة العسكرية استغلته في فتح الأبواب أمام منتجاتها الصناعية والحصول على المواد الأولية. ومع ذلك، استفادت اليابان من عدم اهتمام الدول الغربية بها في القرن الثامن عشر، حيث لم تكن ضمن أولويات المد الإمبريالي، أي على نقيض الهند ومصر والصين، التي شكلت أهدافه الأولى. وربما لم يهتم الغربيون باليابان بسبب بعدها الجغرافي ومحدودية سوقها، وتكلفة الوصول إليها. وكيفما كان الأمر، فقد تغيرت الأوضاع بعد نهاية الحروب النابوليونية، وأضحت اليابان بدورها عرضة للضغوطات ومحط اهتمام من طرف تلك الدول. وفي هذه المرة، لم يكن الاهتمام من جانب البرتغال وإسبانيا اللتين منعتا من دخول الأسواق اليابانية في القرن السابع عشر، وإنما من جانب روسيا وإنكلترا والولايات المتحدة، أقوى دول العالم في مطلع القرن التاسع عشر.

نعرض في القسم الأول من هذا الفصل للتهديد الغربي الذي بدأ في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، وانتهى في أواسط القرن التاسع عشر بإجبار السلطات اليابانية على إنهاء سياسة العزلة، وتوقيع معاهدات غير متكافئة مع الدول الغربية. ونعرض في قسمه الثاني لردود الفعل الرسمية، وردود فعل المثقفين التي تمثلت في كتابات تدعو إلى الإصلاح؛ إذ نرى في التأريخ لعلاقات اليابان بالدول الغربية وردود فعل اليابانيين تجاه الضغوط الغربية مناسبة لإبراز الكيفية التي تعامل بها اليابانيون في لقائهم الثاني مع الغرب، وكيفية استغلالهم لذاك التهديد في العمل على إدخال تغييرات جذرية على نظامهم السياسي والاجتماعي والتعليمي، تُوّجت بإصلاحات الميجي.

أولاً: التهديد الغربي

١ ـ روسيا

جاء الاهتمام الروسي بالجزر اليابانية في إطار التوسع في سيبيريا ومنطقة أمور (Amur)[١]، والانفتاح على شمال المحيط الهادئ؛ إذ شكل هذا التوسع

(١) أمور، أو أمورسكايا (Amurskaya) باللغة الروسية، منطقة في أقصى شرق روسيا، تقع وسط =

أولوية لدى السلطات الروسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. غير أن وصول الروس إلى تخوم **منشوريا** كان يهدد التبادل التجاري القائم بين الصين وروسيا عبر الطرق البرية، لذا كانت روسيا ترغب في إقامة علاقات تجارية مع الجزر اليابانية لتزويد مناطقها على الساحل الشرقي بما تحتاج إليه من مواد غذائية ومواد أخرى كان يصعب إيصالها عبر الطرق البرية(٢). فلهذه الحاجة التجارية إذن، كانت روسيا أول دولة غربية ترغب في فتح الأسواق اليابانية، وترسل سفناً إلى الموانئ اليابانية لتخبر عن قرب عزم السلطات اليابانية، وتجس نبض قدرتها على الاستمرار في سياسة العزلة.

في عام ١٧٧١، قام البارون **فون بينيوفسكي** (Baron Von Benyowsky)، وكان منفياً إلى شبه جزيرة **كامتشاتكا** (Kamchatka)(٣)، بالاستيلاء على سفينة صغيرة والإبحار بها في اتجاه مرفأ **أوا** (Awa) الواقع في جزيرة **شيكوكو**. وقد أوهم من التقى بهم من اليابانيين بأنه هولندي الجنسية، وأن روسيا تخطط للهجوم على جزيرة **هوكايدو** في السنة الموالية، الأمر الذي أثار قلق السلطات اليابانية. وفي عام ١٧٧٨، أقدمت سفينة تجارية روسية على الرسو في جزيرة **كوناشيري** (Kunashiri) الواقعة شرقي **هوكايدو**، وطلب قائدها من دايميو المنطقة إقامة علاقات تجارية مع بلده. ثم تكرر مثل هذا الطلب من قِبل سفينة روسية أخرى تدعى **إكاترينا** (Ekaterina) كانت قد رست في ميناء **نيميرو** (Nemurro) في **هوكايدو**، بقصد إرجاع بحارة يابانيين نجوا من الغرق. وكما كان منتظراً، رفضت السلطات المحلية العرض، وطلبت من ربان السفينة التوجه إلى ميناء **ناغاساكي** المخصص للتجارة مع الدول الأجنبية. لكن قائد السفينة فضّل العودة إلى بلده، لعلمه المسبق بأن طلبه سيُرفض أيضاً في ميناء **ناغاساكي**(٤).

= حوض نهر يحمل الاسم نفسه، ورافده زيا. وكانت روسيا قد تخلّت عن هذه المنطقة للصين في عام ١٦٨٩، ضمن معاهدة نيرتشينك (Nerchinek)، ولم تستعدها إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. انظر مادة: «Amur,» in: *Encyclopedia Britannica* (2000) (Cd-Rom).

(٢) William G. Beasley, «The Foreign Threat and the Opening of the Ports,» in: *The Cambridge History of Japan*, General Editors John W. Hall [et al.], 6 vols. (Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999), vol. 5, p. 265.

(٣) كامتشاتكا شبه جزيرة في أقصى شمال شرقي روسيا على المحيط الهادئ، بالقرب من بحر بيرينغ. كما أنها تقع مباشرة شمالي جزر الكوريل الموجودة اليوم تحت السلطة الروسية، وتنازع اليابان روسيا في شأن السيادة عليها.

(٤) عن هذه المحاولات الروسية المبكرة، انظر: Mikiso Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, 2nd ed. (Oxford: West View Press, 1992), p. 65.

وفي عام ١٧٩٩، تولت الشركة الروسية ـ الأمريكية[٥] جميع الأمور التجارية المتعلقة بشمال المحيط الهادئ. وقد مُنحت هذا الشركة صلاحيات تدبير شؤون المستعمرات، إضافة إلى الاحتكار التجاري. إلا أن المشكل الرئيسي الذي واجهها هو تزويد المراكز التابعة لها والواقعة على الساحل الشرقي لروسيا، أي المشكل عينه الذي واجه السلطات الروسية. وهكذا خططت الشركة لتطوير علاقات تجارية مع الصين واليابان لتزويد هذه المراكز عن طريق البحر، إضافة إلى استغلال إمكانات اليابان التجارية، خاصة إمكان تزويد السوق الأوروبي بالحرير والشاي المستوردين من اليابان.

وعلى هذا الأساس، نظمت الشركة بعثة برئاسة **نيكولاي ريزانوف** من أجل البحث في إقامة علاقات تجارية مع اليابان. وقد وصلت السفينة إلى ميناء **ناغاساكي** في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٠٤، وتقدم **ريزانوف** بطلب في هذا الشأن، مدعوماً برسالة من القيصر **ألكسندر الأول**[٦] موجهة إلى السلطات اليابانية. وعلى الرغم من المجاملة التي قوبل بها، أبلغه أحد المسؤولين، بعد انتظار طويل (نيسان/ أبريل ١٨٠٥) رفض السلطات اليابانية طلبه وهداياه، الأمر الذي جعل **ريزانوف** يغضب ويقفل راجعاً، وهو يتدبر أمر القيام بغارات بحرية على جزيرة **سخالين** وجزر **الكوريل**. وقد كتب في هذا الصدد إلى القيصر معللاً قراره بأن السبيل الوحيد لفتح أبواب اليابان أمام التجارة هو استعمال القوة. وبالفعل نفذ الغارات التي خطط لها بين عامي ١٨٠٦ ـ ١٨٠٧، لكن عمله العدائي ذاك لم يغير من رأي السلطات اليابانية، بل على النقيض من ذلك، دفعها إلى تقوية وجودها العسكري في الجزر الشمالية للأرخبيل[٧]. وفي هذا الصدد، أرسلت سلطات **توكوغاوا** في عام ١٨٠٨ فريق بحث برئاسة **ماميا رينزو** (Mamiya Rinzo)[٨]

(٥) الشركة الروسية ـ الأمريكية (Russian-American Company) أو (Rossiysko-Amerikanskaya Kompaniya) شركة تجارية روسية اتخذت هذا الاسم منذ عام ١٧٩٩. وقد منحها قيصر روسيا حق الاحتكار التجاري في المناطق الواقعة شمالي خط عرض ٥٥°، خاصة في ألاسكا. وقد ترأسها النبيل الروسي نيكولاي ريزانوف (Nikolay P. Rezanov) (١٧٦٦ ـ ١٨٠٧)، الذي كان على معرفة باللغة اليابانية، وكتب أعمالاً في هذا المجال.

(٦) ألكسندر الأول (Alexander I) قيصر روسيا من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٢٥.

(٧) Beasley, «The Foreign Threat and the Opening of the Ports,» p. 265-266,

وقد اعتمد بيسلي على دراسة أنجزها جورج لانسن بشأن العلاقات الروسية ـ اليابانية، انظر: George A. Lansen, *The Russian Push Toward Japan: Russo-Japanese Relations, 1697-1875* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1959).

(٨) اشتهر ماميا رينزو (Mamiya Rinzo) (١٧٧٥ ـ ١٨٤٤) في نهاية القرن الثامن عشر والعقود الأولى من القرن التاسع عشر كواحد من أكبر المستكشفين اليابانيين. وقد قام برحلات استكشافية إلى الجزر الشمالية =

ليتأكد في المكان ذاته من أن **سخالين** جزيرة وليست شبه جزيرة متصلة بسيبيريا كما يدعي الروس. وبالفعل تأكد الفريق من ذلك[٩]. ونتيجة للاهتمام بالجزر الشمالية وتكثيف حراستها، جرى احتجاز سفينة روسية بالقرب من جزر **الكوريل** عام ١٨١١ وبقي ربانها[١٠] محتجزاً في اليابان إلى عام ١٨١٣. مع الإشارة إلى أن فترة التحركات هاته صادفت الحروب النابليونية التي شغلت أوروبا بكاملها، وهو ما صرف اهتمام الروس عن اليابان، ولم يجددوا التفكير فيها إلا بعد حرب الأفيون. وكان ذلك عند تعيين **نيكولاس مورافيف** (Nicholas Muraviev) حاكماً على شرق سيبيريا، حيث إنه اهتم بفتح الموانئ اليابانية في وجه التجارة الروسية، وحث السلطات الروسية على القيام بخطوات في هذا الباب، لكنها لم تقدم فعلاً على أي عمل يستحق الذكر.

٢ ـ بريطانيا

لم تهتم بريطانيا بفتح أبواب اليابان خلال القرن الثامن عشر، ولم تكن السبّاقة إلى إجبار اليابان على فتح أبوابها في القرن التاسع عشر، على الرغم من وجود البريطانيين في منطقة الشرق الأقصى منذ القرن السابع عشر. ولعل التفسير الممكن لذلك، هو اهتمامهم بشكل كبير بالأسواق الصينية من جهة، وعلمهم بما كانت تلاقيه **الشركة الهولندية لشرق الهند** من صعوبات في تسويق المنتجات التي تجلبها من اليابان، وعدم نجاحها في خلق سوق ياباني يستوعب المنتجات الأوروبية من جهة أخرى[١١]. ولهذين السببين لم تقدِم الشركات البريطانية العاملة في الشرق الأقصى ولا الدبلوماسية البريطانية على محاولات جادة في سبيل فتح السوق الياباني في وجه التجارة البريطانية. ومن ثم، كانت المحاولات البريطانية متفرقة، وغير مندرجة ضمن سياسة ممنهجة ومحددة، كما كان هو شأن السياسات البريطانية في جهات أخرى.

= قبل تكليفه بهذه المهمة رسمياً. وإليه يُنسب مضيق ماميا الفاصل بين جزيرة كارافوتو (Karafuto) والقارة الآسيوية. انظر تفصيلاً عن حياته العملية في: Donald Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830* (Stanford: Stanford University Press, 1969), pp. 139-150.

(٩) Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, p. 65.

(١٠) ويتعلق الأمر بالقبطان الروسي فاسيلي غولوفنين (Vasilli Golovnin) الذي بقي محتجزاً في جزيرة هوكايدو ثلاث سنوات تقريباً، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الخاص بالتعليم. انظر: William G. Beasley, *The Modern History of Japan* (Tokyo: Charles E. Tuttle, 1989), p. 39.

(١١) Beasley, «The Foreign Threat and the Opening of the Ports,» p. 261.

ترجع أول محاولة قام بها البريطانيون إلى عام ١٧٩١، حين أبحرت سفينة يملكها التاجر البريطاني **جيمس كولنيت** (James Colnett) في اتجاه الساحل الغربي لجزيرة **كيوشو**، حيث حاول ذلك التاجر، وبلباقة، إقناع اليابانيين بإقامة علاقات تجارية. غير أن محاولته فشلت، الأمر الذي ثبّط عزيمة التجار الآخرين وحال دون تكرار المبادرة. وفي عام ١٨٠٨، دخلت سفينة حربية بريطانية ميناء **ناغاساكي** من أجل التزود بالوقود والمواد الغذائية. غير أن هذا الحادث كان عرضياً، فرضته ظروف الحرب[(١٢)]، ولم يكن عملاً يهدف إلى فتح الموانئ اليابانية[(١٣)].

أما المبادرات الدبلوماسية البريطانية الرامية إلى فتح الأسواق اليابانية، فنجدها بداية في تقرير بشأن اليابان رفعه **ستامفورد رافلز** (Stamford Raffles) إلى حاكم الهند العام في نيسان/ أبريل ١٨١٢[(١٤)]، أي بعد تعيينه نائباً لحاكم جزيرة **جاوا** التي كان البريطانيون قد أخذوها من الهولنديين في نهاية الحروب النابليونية. ففي هذا التقرير، بدا **رافلز** متحمساً لاستيلاء البريطانيين أيضاً على التجارة مع اليابان التي كانت تحتكرها الشركة الهولندية لشرق الهند، بعد نجاحهم في الاستيلاء على **جاوا**؛ إذ رأى في ذلك وسيلة لتسويق البضائع التي تنتجها الهند البريطانية ويتعذر بيعها في الأسواق الأوروبية[(١٥)].

لكن المحاولات العملية التي أقدم عليها، وتمثّلت في إرسال سفن إلى ميناء **ناغاساكي**، لقيت معارضة قوية من الهولنديين المتمركزين هناك. هذا إضافة إلى أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن متحمسة لمشروع **رافلز**، استناداً إلى معارضة حاكم **كلكوتا** العام الذي نصح للوزارة بالتزام الحذر في هذا الشأن. وعلى أي حال، طوى النسيان هذا المشروع بعد إعادة **جاوا** إلى هولندا، وإعفاء **رافلز** من وظيفته عام ١٨١٤. وقد تكررت في عام ١٨١٨ محاولة البريطانيين لإقناع اليابانيين بإقامة علاقات تجارية، عندما رست سفينة بريطانية في ميناء مدينة

---

(١٢) نذكّر هنا بأن فرنسا في عهد نابليون قامت بحملة على هولندا عام ١٧٩٤، حيث أصبحت هذه الأخيرة تابعة لفرنسا. لذا كانت إنكلترا تهاجم المستعمرات الهولندية في الشرق الأقصى في إطار حربها مع نابليون.

(١٣) Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 40.

(١٤) *Report on Japan to the Secret Committee of the English East India Company, by Sir Stamford Raffles, 1812-1816*, with preface by M. Paske-Smith (Kobe, Japan, J.L. Thompson and Co., Ltd., 1929).

وهو تقرير نشر أول مرة في اليابان عام ١٩٢٩، ثم أُعيدت طباعته في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣. ولم نتمكن من الاطلاع على التقرير مباشرة، غير أن فقرات مقتطفة منه موجودة في المراجع التي نتوافر عليها.

(١٥) ورد محتوى هذه الفقرة من تقرير رافلز في: Beasley, «The Foreign Threat,» p. 261.

أوراغا (Uraga)[١٦] لكنها رُدت على أعقابها، ورُفض طلب ربانها. كما شهدت هذه الفترة وصول سفن صيد الحيتان (الأمريكية على الخصوص) إلى الموانئ اليابانية، بهدف التزود بالماء والطعام والوقود.

وأمام تكرار وصول السفن الغربية إلى السواحل اليابانية دون إذن، أصدرت شجونة **توكوغاوا** في عام ١٨٢٥مرسوماً تحث فيه الدايميو على إبعاد جميع السفن الأجنبية، باستثناء السفن الهولندية والصينية والكورية، وإطلاق النار عليها إن هي اقتربت من السواحل اليابانية، وكذا احتجاز كل من يجرؤ على الرسو أو النزول فيها[١٧]. وإذا كان هذا المرسوم يساير مقتضيات سياسة العزلة الموضوعة في القرن السابع عشر، فإنه جاء بناء على استشارة **تاكاهاشي كاغياسو** (Takahashi Kageyasu) (١٧٨٥ ـ ١٨٢٩)[١٨]، أحد المثقفين البارزين الذي كانت له معرفة باللغات الأجنبية وأحوال الأمم الغربية. ففي رأيه أن الأمم كافة تمنع سفن الدول الأجنبية التي لا تربطها بها علاقات دبلوماسية من الدخول إلى موانئها، وتطلق النار عليها إن هي دخلت دون إذن[١٩]. وبعبارة أخرى، كانت اليابان باتباعها هذه السياسة وتأكيدها بمرسوم، تمارس حقاً من حقوقها في إطار الشرعية الدولية كما كان متعارفاً عليها في القرن التاسع عشر. هذا إضافة إلى أن المرسوم يؤكد تشبث شجونة **توكوغاوا** بسياسة العزلة رغم المحاولات التي قامت بها الدول الغربية المعنية لفتح أبواب اليابان.

٣ ـ حرب الأفيون

اندلعت حرب الأفيون الأولى بين الصين وبريطانيا عام ١٨٣٩، في إثر إقدام السلطات الصينية على مصادرة مخزون من الأفيون كان يملكه تجار بريطانيون متمركزون في ميناء **كانتون**. وقد انتهت المواجهة العسكرية لصالح

---

(١٦) أوراغا مرفأ ومدينة في خليج إيدو (طوكيو حالياً)، وكانت السلطات فيها إبان عهد توكوغاوا تراقب السفن الأجنبية الداخلة إلى الخليج قبل السماح لها بالوصول إلى إيدو. انظر الخريطة الرقم (٥).

(١٧) وردت ترجمة نص هذا المرسوم ضمن: Bob T. Wakabayashi, «Anti-Foreignism and Western Learning in Early Modern Japan,» in: Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 266.

(١٨) تاكاهاشي كاغياسو جغرافي ياباني تخرّج في المعاهد الخاصة بالدراسات الغربية. وقد اشتهر بوضعه عدداً من الخرائط الخاصة بالجزر، لاسيما الجزر الشمالية، واتُّهم بالخيانة في آخر حياته العملية بسبب تسلميه خرائط إلى طبيب البعثة الهولندية. انظر: John J. Stephan, «Takahashi Kageyasu,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, 9 vols. (Tokyo; New York: Kodansha, 1983), vol. 7, p. 312.

(١٩) Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 267.

بريطانيا، التي فرضت على الصين عقد معاهدة **نانكين** (٢٤ آب/أغسطس ١٨٤٢)، التي قضت بأداء الصين غرامة مالية، والتخلي عن سيادتها على مدينة **هونغ كونغ**، إضافة إلى فتح خمس موانئ أخرى في وجه التجارة البريطانية. وقد أُتبعت هذه المعاهدة بمعاهدة إضافية (في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٣) منحت الرعايا البريطانيين امتيازات، أهمها عدم خضوعهم للقضاء الصيني. وقد كان لانهزام الصين وإجبارها على توقيع معاهدة غير متكافئة مع بريطانيا الوقع الكبير على اليابانيين والشجونة؛ إذ كانا بمثابة تهديد غير مباشر وإنذار بما ينتظر اليابان إن هي أصرت على الصمود في وجه القوى الغربية. وهكذا صدرت ردود فعل، سواء عن المسؤولين أو عن المثقفين، تحذر من الخطر المحدق ببلدهم؛ فقد كتب **ميزونو تاداكوني** (Mizuno Tadakuni) (١٧٩٤ ـ ١٨٥١)[٢٠]، كبير مستشاري الشجون آنذاك، «إنه شأن يهم بلداً أجنبياً، وفي اعتقادي يجب أن يكون بمثابة إنذار بالنسبة إلينا»[٢١]. كما تردد صدى «الأحداث المؤلمة» التي عرفتها الصين في كتابات عدد من المثقفين، الذين أبانوا عن تعاطفهم مع الصين وعدائهم الواضح للغرب، ودعوا اليابانيين إلى الاستعداد لمقاومة التدخل الأجنبي وحماية سواحلهم.

كانت مخاوف المسؤولين والمثقفين اليابانيين في محلها؛ فحرب الأفيون وما أسفرت عنه مثّلا تحولاً جذرياً في دبلوماسية القرن التاسع عشر، حيث لم تعد سياسة القناصل وحدها في الميدان، بل أُردفت بلغة المدافع والتهديد بالقوة (Consuls and gunboats). هذا إضافة إلى تطور وسائل النقل البحري بفضل استخدام المحركات البخارية في دفع السفن[٢٢]، التي لم تعُد اليابان في إثرها البلد النائي الذي تصعب الملاحة إليه. مع التشديد أيضاً على أن البريطانيين أصبحوا باحتلالهم **هونغ كونغ** على مرمى حجر من ميناء **ناغاساكي** (على مسافة ٥٠٠ ميل). ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت احتمالات زيارة السفن البريطانية وغيرها للجزر اليابانية، ولم يعد في إمكان سلطات **توكوغاوا** تجاهل الأمر، أو

(٢٠) بدأ ميزونو تاداكوني حياته دايميو على هان هاماماتسو (Hamamatsu) (محافظة شيزوأوكا (Shizuoka))، ثم تولى مناصب في الإدارة المركزية في العاصمة إيدو. وفي عام ١٨٤٤ عُين في منصب كبير المستشارين في عهد الشجون إييوشي (حكم ١٨٣٧-١٨٥٣). وفي عهده، شرع في سلسلة من الإصلاحات التي سنعود إلى ذكرها في القسم الثاني من هذا الفصل. انظر: Conrad Totman, «Mizuno Tadakuni,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 5, pp. 226-227.

(٢١) Jansen, Ibid., p. 270.

(٢٢) عبرت أول سفينة مسيَّرة بمحرك بخاري المحيط الأطلسي من إنكلترا إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة في عام ١٨١٨.

تطبيق سياسة العزلة تطبيقاً صارماً إلى ما لا نهاية. وهكذا شرعت هذه السلطات في تعزيز قواتها العسكرية وصناعة المدافع وتدريب الجنود على استعمالها[٢٣]. كما أصدر **ميزونو تاداكوني** في عام ١٨٤٢ مرسوماً يخفف من صرامة المرسوم السابق (المرسوم الرقم (١٨٢٥))، حيث أمر الدايميو بتقديم الماء والغذاء والوقود إلى السفن الأجنبية التي تجنح بصورة اضطرارية إلى السواحل اليابانية[٢٤]. وعلى الرغم من المرونة النسبية التي طبعت هذا المرسوم، فإنه لم يغير شيئاً من جوهر سياسة العزلة التي ظلت مبادئها قائمة.

كان من نتائج حرب الأفيون كذلك، أن قام الملك **وليام الثاني** (١٨٤٠ ـ ١٨٤٩)[٢٥]، ملك هولندا ـ البلد الأوروبي الوحيد الذي كان مسموحاً له بالتجارة مع اليابان ـ بتحرك دبلوماسي لإقناع الشجون بالتخلي عن سياسة العزلة طواعية. ففي رسالة مؤرخة بـ ١٥ شباط/فبراير ١٨٤٤[٢٦]، كتب الملك إلى إمبراطور اليابان[٢٧]، مذكّراً بهزيمة الصين العظمى بعد مقاومة لم تجدِ نفعاً أمام القوات البحرية البريطانية، وإجبارها على فتح خمس موانئ أمام التجارة الدولية، ثم محذّراً بأن:

أخطاراً من هذا القبيل تهدد إمبراطورية اليابان، وأن حادثاً بسيطاً أو سوء حظ قد يسرّع نشوب نزاع. فعدد السفن من كل الأصناف التي تبحر اليوم في البحار القريبة من اليابان سيزيد عمّا كان عليه بشكل كبير. وكم هو محتمل أن يقع نزاع بين ربابنة هذه السفن ورعايا جلالتكم[٢٨].

ثم معززاً قوله:

يتزايد التبادل [لتجاري] بين مختلف أمم الأرض بوتيرة كبيرة. وإن قوة لا

---

(٢٣) Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, p. 66.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) تولّى وليام الثاني عرش هولندا بعد تنازل والده عام١٨٤٠، وقد اشتهر بإصداره دستوراً جديداً يمنح الوزراء صلاحيات أكبر، وذلك قبل وفاته ببضعة أشهر (توفي في بداية عام ١٨٤٩).

(٢٦) نص الرسالة مترجماً إلى اللغة الإنكليزية موجود في الوثائق المنشورة عن فترة الميجي: انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, 3 vols. (Tokyo: The Centre, [1969-1972]), vol. 2, pp. 1-5.

(٢٧) يجب التذكير بأن في التعامل الدبلوماسي لم يكن الأوروبيون عامة يميزون بين الإمبراطور المقيم في كيوطو والشجون أو حاكم اليابان العسكري المقيم في إيدو (طوكيو حالياً)، لذا فإن الرسالة جاءت موجهة إلى إمبراطور اليابان المقيم في إيدو، وهو ما يعني في الواقع أنها موجهة إلى الشجون، حاكم اليابان الفعلي.

(٢٨) المصدر نفسه.

تقاوَم تقربها بعضها من بعض، وهي السفن البخارية التي قصرت المسافات. فأية دولة ترغب في البقاء منعزلة في هذا الزمن الذي تنامت فيه العلاقات لا يمكنها تفادي العداء والنزاع مع الكثير من الأمم الأخرى[٢٩].

وختم الرسالة بنصيحة قدمها من باب الصداقة، يطلب فيها من الشجون تحسين القوانين الخاصة بالأجانب، لتفادي تخريب اليابان بما قد تتعرض له من حروب مدمرة.

تلقى الشجون **إيبوشي** (Ieyoshi) (حكم ١٨٣٧ ـ ١٨٥٣) الرسالة المصحوبة بعدد من الهدايا[٣٠]، ولم يُجب عنها كبار مستشاريه إلا في ٥ تموز/يوليو ١٨٤٥[٣١]. وقد عبّروا في جوابهم عن قبول الشجون الهدايا مع الاعتذار عن عدم إمكانية تغيير القوانين التي وضعها أجداده أو توسيع نطاق التبادل التجاري مع الدول الأجنبية من غير هولندا والصين وكوريا.

والواقع أن الملك **وليام الثاني** كان محقاً في تحذيره وتنبيهه إلى الأخطار المحدقة باليابان. ففي أيار/مايو ١٨٤٥، وضع حاكم **هونغ كونغ** العام، السير **جون ديفيس** (Sir John Davis) مخططاً سرياً للقيام بحملة على اليابان، يستعمل فيها ما هو متوافر لديه من قوى بحرية لفرض معاهدة مشابهة بتلك التي أُجبرت الصين على توقيعها[٣٢]. ففي نظره أن اليابانيين ليس أمامهم إلا القبول بالمطالب البريطانية، لعلمهم بما آلت إليه المقاومة الصينية. لكن جواب وزارة الخارجية أكد من جديد موقف الحكومة البريطانية، الذي لم يتغير منذ جوابها عن تقرير **ستامفورد رافلز** عام ١٨١١؛ فبريطانيا تحبذ قيام علاقات تجارية مع اليابان، غير أنها علاقات لا تستحق في نظرها القيام بمجهود في سبيلها، وتفضل ترك الأمر لغيرها:

إن حكومة صاحبة الجلالة ستكون سعيدة بفتح التجارة مع اليابان، غير أنها ترى من الأفضل ترك الأمر لحكومة الولايات المتحدة للقيام بالتجربة، فإن

---

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٤.

(٣٠) تضمنت الهدايا لوحة فيها رسم لملك هولندا، ومصابيح ومسدسين وبندقية وكتباً وخرائط. انظر: المصدر نفسه، ص ٦.

(٣١) الرسالة الجوابية للباكوفو مترجمة إلى اللغة الإنكليزية موجودة ضمن الوثائق المنشورة المشار إليها. انظر: المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٨.

(٣٢) Beasley, «The Foreign Threat,» p. 264.

نجحت التجربة، فإن حكومة صاحبة الجلالة ستستغل فرصة ذلك النجاح[٣٣].

موقف الحكومة البريطانية هذا يعكس اتجاهاً عاماً كان شبه متفق عليه بين الدول الغربية، ويتمثّل في أن أية دولة استطاعت فتح سوق من الأسواق أو عقد اتفاقية مع دولة ما، فإن الدول الأخرى تحذو حذوها، وتسارع إلى الحصول على اتفاق بالشروط نفسها، أو تضيف إليه شروطاً أخرى. وهو اتجاه خفف من حدة التنافس والتوتر في الحصول على الامتيازات في القرن التاسع عشر، وهذا ما حصل في جهات أخرى، كالمغرب على سبيل المثال. وبالفعل ستستفيد بريطانيا وغيرها من المحاولات التي أقدمت عليها الولايات المتحدة ومن نجاحها في فتح أبواب اليابان أمام التجارة الدولية.

٤ ـ الولايات المتحدة الأمريكية وحادث السفن السوداء

كانت الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر دولة فتية حديثة العهد بالاستقلال، غير أنها سرعان ما طورت أسطولاً تجارياً وقوة بحرية، واستولت على جزر في المحيط الهادئ، وأصبحت، كغيرها من الدول الغربية، تسعى إلى توسيع مجالها التجاري. وقد شهدت الفترة التي بدأت فيها الولايات المتحدة تهتم باليابان، تطوراً سريعاً في تقنية السفن البخارية، وتزايد الحاجة إلى محطات لتزويد السفن التجارية العابرة للمحيط الهادي بالفحم. هذا إضافة إلى سفن صيد الحيتان، التي تكاثرت في المحيط الهادئ، وكانت هي أيضاً في حاجة إلى مرافئ تلجأ إليها عند الاضطرار أو تتزود فيها بالوقود والماء والغذاء عند الضرورة، وكذا إلى حماية ملاحيها. مع الإشارة كذلك إلى الحماسة التي سادت الولايات المتحدة بعد الانتصار على المكسيك والاستيلاء على كاليفورنيا، وهو ما عزز موقعها على ساحل المحيط الهادئ. فلهذه الأسباب مجتمعة، كانت الولايات المتحدة أكثر من بريطانيا اهتماماً بفتح أبواب اليابان.

جاءت المحاولة الأمريكية الأولى بمبادرة خاصة؛ ففي عام ١٨٣٧، أبحرت من ميناء **كانتون** الصيني سفينة تجارية تدعى **موريسون** (Morrison) وعلى متنها تاجر ومبشر أمريكيان[٣٤]، كان في نيتهما استغلال فرصة إرجاع بحارة يابانيين

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) يتعلق الأمر بالتاجر كينغ (C. W. King) والمبشر د. ويلس وليامز (S. Wells Williams)، انظر: Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 41.

ناجين من الغرق للتفاوض في شأن إقامة علاقة تجارية مع اليابان. وصلت السفينة إلى ميناء **أوراغا** في تموز/ يوليو ١٨٣٧، غير أنها تعرضت لإطلاق النار في اليوم التالي من رسوها، وأُرغمت على الإبحار دون أن يتمكن المسؤول عن البعثة من إجراء محادثات مع سلطات الميناء الرسمية(٣٥). وبعد أن فشل هذا الأخير في محاول ثانية في جزيرة بالقرب من **كيوشو**، كتب إلى حكومة الولايات المتحدة تقريراً يوصي فيه بإرسال حملة عسكرية بحرية لفتح الموانئ اليابانية(٣٦). أما المحاولة الرسمية، فكانت في عام ١٨٤٥، حين تلقى ممثل الولايات المتحدة في الصين أمراً من حكومة بلاده، يدعوه إلى تجهيز حملة إلى اليابان. واستجابة لذلك، ترأس **القبطان جيمس بيدل** (Captain James Biddle) بعثة مكونة من سفينتين حربيتين، وأبحر في اتجاه خليج **إيدو**، آملاً أن يقيم علاقات تجارية مع اليابان. غير أن سلطات **إيدو** أخبرته أن الأمور التجارية يتم التداول في شأنها في ميناء **ناغاساكي**، فقفل راجعاً دون أن يلجأ إلى استعمال القوة أو يهدد بها، لعدم تلقيه أوامر بذلك(٣٧).

شهدت السنوات التالية على حملة **بيدل** (١٨٤٦) تطوراً مهماً في الحياة السياسية والاقتصادية الأمريكية. ففي عام ١٨٤٨، عقدت الولايات المتحدة مع المكسيك اتفاقية **غوادالوبي هيدالغو** (Guadalupe Hidalgo) التي تخلت المكسيك بموجبها عن منطقة شاسعة على ساحل المحيط الهادئ أصبحت تُعرف، بعد ضمها إلى الاتحاد الفدرالي (١٨٥٠)، بولاية كاليفورنيا. وقد أحدث ذلك تغيراً مهماً في السياسة الأمريكية وفي تعاملها مع الدول المقابلة لها على ساحل المحيط الهادئ. فكما علّق على ذلك أحد المسؤولين الأمريكيين: «بممتلكاتنا الحديثة على المحيط الهادئ، أصبحنا فجأة جيراناً لآسيا»(٣٨). ففي ظل هذه

---

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, p. 67.

(٣٧) بشأن هذا الحادث، انظر، على سبيل المثال لا الحصر: المصدر نفسه، ص ٦٧، وBeasley: «The Foreign Threat,» p. 268, and *The Modern History of Japan*, p. 45.

(٣٨) يُنسب هذا القول إلى روبرت ووكر (Robert J. Walker)، كاتب الدولة للخزينة (أو وزير المالية) الذي صرّح بذلك عقب توقيع المعاهدة المشار إليها في النص، وتخلّي المكسيك عن كاليفورنيا. انظر: Beasley, «The Foreign Threat,» p. 268,

وقد ورد في الأصل في دراسة قام بها باحث ياباني يدعى وادا، انظر: Teijun Wada, *American Foreign Policy Toward Japan during the Nineteenth Century* (Tokyo: Toyo Bunko, 1928).

تجدر الإشارة كذلك إلى أنه بدأ في هذه الفترة التفكير جدياً في مشروع خط السكة الحديد الرابطة بين غرب الولايات المتحدة وشرقها. كما أنه تزامن مع إنشاء شركة ملاحية بحرية تركز نشاطها في المحيط الهادئ (Pacific Mail Steamship Company) وكانت تهتم بالتجارة مع الصين وشرق آسيا، بما فيه اليابان. ولهذا أصبحت اليابان فجأة ذات أهمية بالنسبة إلى الشركات الأمريكية. انظر: Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 45.

التغيرات، بدأ التخطيط لحملة بحرية تفتح الموانئ اليابانية أمام السفن الأمريكية، وتكوّن لوبي داخل الإدارة الأمريكية للدفاع عن القيام بذلك، بهدف تأمين الملاحة عبر المحيط الهادئ إلى الموانئ الصينية. وفي الأخير، اقتنع كاتب الدولة (وزير الخارجية) **دانيال ويبستر** (Daniel Webster)[٣٩]، وشرع في تهيئة العملية في حزيران/يونيو ١٨٥١.

تم الإعداد للحملة بعناية فائقة، وأُسندت قيادتها إلى الكمودور **ماثيو كالبريث بيري** (Commodore M. C. Perry)[٤٠] الذي كان متردداً في البداية، غير أنه تحمس للمهمة أخيراً واقتنع بها، وعمل على توفير جميع شروط نجاحها. وبحسب ما كتبه، فإنه كان عازماً على أن يتفادى أخطاء من سبقوه، وأن يسلك مسلكاً غير الذي سلكوه، وألا يتعامل مع أحد من اليابانيين من غير السلطات العليا. ففي نظره، «فتح الموانئ أمام السفن التجارية حق مشروع يطالب به وليس منحة تجود بها اليابان»[٤١]؛ فـ «كل أمة لها الحق في أن تقرر في شأن مدى الحدود التي تتعامل فيها مع الأمم الأخرى. لكن القانون الذي يحمي الأمة في ممارسة هذا الحق هو نفسه القانون الذي يفرض عليها واجبات لا يمكن أن تتجاهلها»[٤٢].

وصل الكمودور **بيري** إلى خليج إيدو في ٨ تموز/يوليو ١٨٥٣ على رأس عمارة بحرية مكونة من أربع سفن سوداء، رست في مرفأ **أوراغا** في منطقة **كوريهاما** (Kurihama)[٤٣]. والواقع أن سفينتين منهما فقط كانتا شديدتي السواد، تنفثان سحابة من الدخان الأسود. وكان منظر السفن مرعباً؛ إذ خلّف انطباعاً قوياً من الرهبة لدى من شاهدوها من اليابانيين. فلأول مرة تقع أعينهم على سفن

---

(٣٩) دانيال وبستر (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢) محام أمريكي وعضو في الكونغرس. تولى وزارة الخارجية مرتين (١٨٤١ ـ ١٨٤٣)، ثمّ من عام ١٨٥٠ إلى حين وفاته عام ١٨٥٢. وقد اشتهر بالدفاع عن المصالح التجارية الأمريكية.

(٤٠) الكمودور ماثيو كالبريث بيري (١٧٩٤ ـ ١٨٥٨) قائد بحري أمريكي، ارتبط بتاريخ اليابان لما كان للحملة التي قادها من تأثير كبير في تاريخ اليابان المعاصر، وكذا باشتهاره بأنه فاتح أبواب اليابان في وجه التجارة الدولية. وقد تدرج في البحرية الأمريكية، وعمل في مناطق متعددة (البحر الأبيض المتوسط والسواحل الأفريقية)، كما شارك في الحرب مع المكسيك. انظر: Marlene J. Mayo, «Perry, M. Calbraith,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 6, pp. 177-178.

(٤١) Beasley, «The Foreign Threat,» p. 268.

(٤٢) مقتطف من كتابات منسوبة إلى بيري: Marius B. Jansen, *Making of Modern Japan* (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000), p. 276.

(٤٣) كوريهاما مقاطعة اليوم ضمن محافظة كاناغاوا.

من هذا الحجم، تراءت لهم وكأنها قلاع عائمة. ولا غرابة في أن يصبح وصول سفن **بيري** حدثاً راسخاً في الذاكرة الشعبية يؤرخ به اليابانيون(٤٤). ويبدو أن الأمر كان مقصوداً من جانب الأمريكيين؛ فغرضهم هو إظهار القوة لتفادي استعمالها. وقد تم لهم ذلك بالفعل، حيث لم يضطر **بيري** إلى إطلاق طلقة واحدة، مكتفياً بما خلّفته السفن من مظهر للقوة. مع الإشارة إلى أنه أنذر مخاطبيه بأن هناك ٥٠ سفينة تنتظر في مياه المحيط الهادئ، وسفناً أخرى في ساحل كاليفورنيا يمكن استدعاؤها عند الضرورة.

أصر **بيري** على أن يسلم الرسالة التي يحملها من الرئيس الأمريكي **ميلارد فيلمور** (Millard Fillmore)(٤٥) إلى السلطات العليا اليابانية (الإمبراطور/الشجون)، بكل ما يتطلب الأمر من عناية وإجراءات رسمية، رافضاً الذهاب إلى **ناغاساكي**، في انتظار الرد، كما طلب منه مخاطبوه من سلطات الميناء.

وأخيراً، تم التوصل إلى حل وسط اقتُصر فيه على تنظيم حفل استقبال في «**كوريهاما**»(٤٦) سلم فيه **بيري** رسالة الرئيس إلى ممثلي الشجون، على أساس أن يعود في نيسان/ أبريل أو أيار/مايو من السنة الموالية لتلقّي الرد على المطالب التي تقدم بها، والمتضمنة في رسالة الرئيس، ورسالة منه موجهة إلى الإمبراطور أيضاً.

لم تحمل رسالة الرئيس **فيلمور** تهديداً مباشراً باستعمال القوة؛ فبعد أن ذكر بما تتوافر عليه الولايات المتحدة من ثروة وما تنتجه اليابان من مواد ثمينة، عبّر عن رغبته في إقامة علاقات تجارية يستفيد منها البلدان. ثم أضاف:

إننا نعلم أن القوانين القديمة لحكومة جلالتكم الإمبراطورية لا تسمح بالتجارة الأجنبية ماعدا الصينية والهولندية منها؛ لكن أحوال العالم تغيرت

(٤٤) Tadao Umesao, *The Roots of Modern Japan* (Tokyo: The Japan Forum, 1990), pp. 23-24.

يُعرف هذا الحادث في اللغة اليابانية بـ Kurofune (السفن السوداء)، مع الإشارة إلى أن احتفالاً سنوياً يقام في أوراغا، تخليداً لزيارة السفن السوداء وذلك في ١٤ تموز/يوليو من كل سنة، ويُعرف بـ «كوروفوني ماتسوري» (الاحتفال بالسفن السوداء).

(٤٥) ميلارد فيلمور (١٨٠٠ ـ ١٨٧٤) هو الرئيس الثالث عشر للولايات المتحدة (١٨٥٠ ـ ١٨٥٣).

(٤٦) يورد ماريوس جانسن وصفاً لحفل الاستقبال هذا، حيث اصطفّ على الممر الذي مر منه بيري آلاف من الساموراي الذين أرسلهم الدايميو القريبين من منطقة الحفل. كما يصف الطريقة التي سار بها بيري، يتبعه عدد من الضباط، إضافة إلى اثنين من البحارة السود كانا يحملان الأعلام. انظر: Jansen, *Making of Modern Japan*, pp. 277-278.

وحكومات جديدة تشكلت، ويبدو من الحكمة أن تتغير القوانين القديمة إلى قوانين جديدة من حين إلى آخر»[٤٧].

وبعد ذلك اقترح على الإمبراطور إقامة علاقات مع الولايات المتحدة لفترة محدودة، على سبيل التجربة:

وإذا لم تكن جلالتكم غير مقتنع بأن إلغاء القوانين القديمة التي تمنع التجارة الأجنبية قد يكون عملاً غير آمن، فإنه من المحتمل توقيف العمل بها بعد خمس أو عشر سنوات تكون على سبيل التجربة. فإن ثبت أن الأمر غير نافع، فإنه بالإمكان العودة إلى تطبيق القوانين القديمة. والولايات المتحدة تحدد اتفاقياتها مع الدول الأجنبية عادة في عدد قليل من السنوات، ثم تعود إلى تجديدها أو إلى إلغائها كما يحلو لها»[٤٨].

لكن الأمر الذي بدا ملحّاً، سواء في رسالة الرئيس أو في الرسالة المرفقة التي وجهها الكمودور **بيري** إلى الإمبراطور[٤٩]، هو معاملة البحارة الأمريكيين، الذين يضطرون إلى اللجوء إلى الموانئ اليابانية، معاملة حسنة، وحماية ممتلكاتهم إلى أن تأتي سفن أمريكية أخرى لترحليهم؛ وكذا الرغبة في أن يسمح للسفن الأمريكية بالتزود بالوقود والماء والغذاء في المرافئ اليابانية[٥٠].

على الرغم من اللهجة الدبلوماسية والاعتدال اللذين طبعا رسالة الرئيس الأمريكي (بل ورسالة **بيرى** أيضاً)، فإن تصرف **بيري** وتصميمه المسند بالقوة أقنعا السلطات اليابانية بأن الأمر لا يتعلق بطلب عادي تتقدم به دولة إلى دولة أخرى تتمتع بالسيادة وحق الاختيار، ولكن بأمر من دولة قوية إلى أخرى ضعيفة عليها الانصياع. ومن ثم لا مناص لليابان ولا بديل لها من الاستجابة لمطالب الحكومة الأمريكية، وتغيير قوانين العزلة، إن هي أرادت تفادي حرب كحرب الأفيون. وواقع الأمر أن ذلك ما كان يرمي إليه **بيري**؛ فحكومة الولايات

---

(٤٧) رسالة الرئيس فيلمور، وهي مؤرخة في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥٢ وموجهة إلى إمبراطور اليابان، غير أن المعني بالأمر في الواقع هو الشجون. الرسالة توجد ضمن الوثائق المنشورة عن فترة الميجي. انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan through Contemporary Sources*, vol. 2, p. 10.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٠ ـ ١١.

(٤٩) رسالة من الكمودور بيري إلى إمبراطور اليابان، مؤرخة في تموز/ يوليو ١٨٥٣، تحمل مضامين قريبة مما هو وارد في رسالة فيلمور. انظر نص الرسالة ضمن مجموعة الوثائق في: المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٥.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١١.

المتحدة سبق لها أن أخبرت بعض الدول الأوروبية (خاصة بريطانيا) قبل الحملة بنيتها وعزمها على فتح الأسواق اليابانية، كما أن الصحف الأوروبية أثارت الموضوع، وتوقعت اللجوء إلى استعمال القوة في حالة عدم الاستجابة للطلب الأمريكي[٥١].

لم تكن شجونة **توكوغاوا** في أحسن أحوالها عند وصول سفن **بيري**، فإضافة إلى الضعف العام الذي كانت تعانيه، كما أوضحنا، كان الشجون **إيبوشي** على فراش الموت (توفي بالفعل في تموز/ يوليو ١٨٥٣) وكان ابنه **إيبسادا** (Iesada) (١٨٥٣ ـ ١٨٥٨)، الذي خلفه في منصب الشجون، من أضعف الحكام في أُسرة **توكوغاوا**. لذا، كان القرار في يد كبار مستشاري الشجونة المعرفين بـ «روجو»، أمثال **أبي ماشيرو** (Abe Mashiro)[٥٢] و**إي ناؤسوكي** (Ii Naosuke)[٥٣] الذي سيستأثر بالسلطة دون الشجون في آخر أيام **إيبسادا** ويكون له القول الفصل في التفاوض مع الدول الغربية. وكيفما كان الأمر، فقد وضع وصول سفن **بيري** السلطات اليابانية في أعظم مأزق واجهته منذ تأسيسها؛ فهذه السلطات، التي تجاهلت العالم الخارجي ما ينيف على القرنين ونصف قرن من الزمن، وجدت نفسها فجأة في وضع لا يمكن أن تستمر فيه. والحقيقة أن سلطات الباكوفو تعي عدم قدرتها على مواجهة القوى الغربية عسكرياً، غير أن الفئة الحاكمة، سواء المركزية منها أو الإقليمية المتمثلة في الدايميو، كانت منقسمة على نفسها في كيفية التعامل مع المأزق والصعوبات التي وضعها فيها تهديد **بيري**.

لم يكن اتخاذ قرار في شأن الطلب الأمريكي هيّناً على سلطات الباكوفو، التي لم يكن أمامها من مخرج سوى الرضوخ والاستسلام أو المواجهة العسكرية

---

(٥١) Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 46.

(٥٢) أبي ماشيرو (١٨١٩ ـ ١٨٥٧)، دايميو مقاطعة فوكوياما (Fukuyama) (تابعة لمحافظة هيروشيما). كان من كبار مستشار الشجون من عام ١٨٤٣ إلى عام ١٨٥٧. وهو الذي سيتولى المفاوضات مع المبعوثين الأمريكيين كما سنفصل في ذلك. ورغم اعتزاله منصبه عام ١٨٥٥ فإنه ظل من ذوي النفوذ، وكان من الداعين إلى عصرنة الجيش وإقامة تعليم على النمط الغربي. انظر: «Abe Mashiro,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 1, p. 3.

(٥٣) كان إي ناؤسوكي (١٨١٥ ـ ١٨٦٠) دايميو على مقاطعة هيكوني (Hikone)، لكنه تدخل في السياسة الوطنية بعد مجيء سفن بيري، وأصبح من أهم مستشاري الشجون. وقد كان له دور كبير في المفاوضات التي عُقدت من أجل إبرام اتفاقيات بين اليابان والدول الغربية. انظر: «Ii Naosuke,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 263.

المعروفة نتائجها مسبقاً. ولخطورة الموقف، فضّل مستشارو الشجون عدم الانفراد بالقرار، وإشراك أكبر عدد ممكن من الدايميو (بمن فيهم توزاما، أو الدايميو غير المقربين من الشجون) وغيرهم من المسؤولين، طلباً للمشورة في الوصول إلى حل ملائم. كما توجه مسؤولو الباكوفو إلى الإمبراطور طلباً للمشورة؛ إذ لأول مرة، منذ إقرار نظام الباكوفو في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي واستئثار الساموراي بالسلطتين والسياسة، يعاد الاعتبار إلى الإمبراطور، ويُشرَك في الأمور السياسية على نحو مماثل. ذلك أن الإمبراطور ظل يتمتع بسلطة رمزية، ولا يتدخل في الأمور السياسية إلا في حالات محدودة، من قبيل خلع لقب الشجون على الحاكم العسكري، وإضفاء المشروعية على حكمه، وهو ما كان على الأصح اعترافاً بالأمر الواقع. كما أن إشراك الدايميو كافة في قرار سياسي يهم كل البلاد، كان سابقة سياسية فتحت باب المعارضة على مصراعيه، ومكّنت معارضي شجونة توكوغاوا والطامحين إلى السلطة من الدخول إلى المعترك السياسي، وانتقاد السلطة المركزية علناً.

وجّه مستشار الشجون **أبي ماشيرو** في ٥ آب/أغسطس ١٨٥٣ رسائل إلى المسؤولين والدايميو، مرفقة بترجمة للرسالتين اللتين تلقاهما الشجون من الرئيس **فيلمور** والكمودور **بيري**، يطلب منهم قراءة المحتوى الوارد فيهما بعناية ودقة، وإبداء آرائهم بصراحة في ما قد ينجم عن المقترحات الأمريكية من انعكاسات سلبية وإيجابية على الأمة اليابانية، مع الأخذ في الاعتبار أن قبول الرسالتين كان حيلة أو خدعة سياسية(٥٤).

وبناء على هذا الطلب، تلقى الشجون ما يربو على ٧٠٠ مذكرة، تضمنت مقترحات مختلفة ومتباينة، غير أن أية منها لم تأت بحل مرْض ومقنع ينهي الأزمة. ومن بين العدد القليل من المذكرات التي احتُفظ بها ضمن الوثائق التاريخية، نجد اثنتين فقط كانتا مؤيدتين لفكرة الاستجابة لمطالب **بيري**؛ واثنتين وافقتا عليها شريطة أن تكون الاستجابة مؤقتة لفترة معينة؛ واقترحت ثلاث

---

(٥٤) نص الرسالة مترجماً إلى اللغة الإنكليزية موجود ضمن مجموعة وثائق الميجي المنشورة. انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, vol. 2, p. 16.

تجدر الإشارة إلى أن العبارة المستعملة في الترجمة الإنكليزية هي: «Our accepting these letters delivered by the American ship in Uraga is just a political expedient».

ومفردة Expedient تحتمل معاني مختلفة في اللغة الإنكليزية، منها الحيلة والذريعة والوسيلة. ولعدم تمكّننا من الوصول إلى الأصل الياباني، فقد ارتأينا أن الأنسب بالنسبة إلى السياق هو حيلة سياسية أو خدعة سياسية.

مذكرات الدخول في تبادل تجاري مع الولايات المتحدة إلى أن تشتد قوى اليابان وتستعد للحرب، واقترحت ثلاث مذكرات أخرى تمديد المفاوضات مع **بيري** أطول وقت ممكن، إلى أن يمل ويرحل عن السواحل اليابانية. وفي المقابل أجمعت ١١ مذكرة على الوقوف في وجه المعتدي والدخول في الحرب(٥٥). وحسب ما يبدو، فإن الرأي الغالب آنذاك كان تجنب الحرب، والإبقاء على سياسة العزلة، الأمر الذي لم يعد ممكناً في ظل التهديد العسكري. كما أن التسويف كان لا يجدي نفعاً بسبب الإلحاح الذي طبع لهجة **بيري** وتوعده بالعودة ثانية في السنة الموالية لتلقّي رد واضح على طلباته.

ومن بين الردود التي كان لها وقع في حينها، وحظيت باهتمام الباحثين وتناقلتها المصادر والمراجع التاريخية، الرد الذي تضمنته مذكرة توكوغاوا **نارايكي** (Naraiki)(٥٦) الذي جاء معارضاً لرغبة مستشاري الشجون في عدم الدخول في مواجهة عسكرية بالاستجابة لمطالب **بيري** أو لقسم منها. فقد انطلق في رده مستنداً إلى أخلاق الساموراي، التي تفضّل الموت على الاستسلام والهزيمة. فإن كان الأمر يتعلق بخيار بين سياسة الحرب وسياسة السلم المصاحبة للاستسلام، فإنه يفضل الحرب:

تعلو الروح العسكرية وتعم كل أرجاء البلاد، وإن انهزمنا لفترة فإننا سنتمكن في النهاية من طرد اللصوص [أو قطاع الطرق] الأجانب(٥٧)

وإن وقع الاختيار على سياسة السلم، فإن السلم سيتحقق ولاشك لفترة:

لكن ستضعف معنويات الشعب في كل أرجاء البلاد، وهو ما قد يؤدي لاحقاً إلى انهيار البلاد انهياراً تاماً(٥٨).

---

(٥٥) حول هذه القراءة في الردود التي تلقاها أبي ماشيرو، انظر: Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 280.

(٥٦) توكوغاوا نارايكي (Tokugawa Naraiki) (١٨٠٠ ـ ١٨٦٠) دايميو مقاطعة «ميتو» (Mito) (هي الآن قسم من محافظة «إيبراكي» (Ibaraki). ينتمي نارايكي إلى أسرة «توكوغاوا» الحاكمة. وقد عرف بتزعمه لتيار «سنو جو» (مجدوا الإمبراطور واطردوا البرابرة). وقد كان من أشد المعارضين لمستشار الشجون ناؤسوكي الذي قاد المفاوضات مع الدول الغربية التي انتهت بالمعاهدات غير المتكافئة. حول حياته، انظر: «Tokugawa Naraiki,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, p. 52.

(٥٧) مذكرة نارايكي مترجمة إلى اللغة الإنكليزية موجودة ضمن وثائق الميجي المنشورة: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, vol. 2, pp. 17-31.

وردت في الترجمة الإنكليزية للنص عبارة (Foreign Brigands) مما يحتمل معنى اللصوص أو قطاع الطرق.

(٥٨) المصدر نفسه.

وبعد هذه المقدمة، خصص قسماً من مذكرته لدحض الآراء المؤيدة لفتح أبواب اليابان، وأنهاها بنصائح عملية تخص الاستعداد العسكري لمواجهة المعتدين على «أرض الآلهة».

وعلى النقيض من ذلك، جاء رد **إي ناؤسوكي** أكثر حذراً، اعتباراً للمتغيرات الدولية، فحتى وإن لم يدع بشكل مباشر إلى الاستجابة لمطالب **بيري**، تحدث عن إمكانات إحداث تعديلات في سياسة العزلة:

عندما يتمعن المرء بعناية في الظروف السائدة اليوم..... لا يمكن له أن يفترض أن العالم سيحافظ على السلام وتبقى إمبراطوريتنا آمنة إن نحن قمنا بتعزيز سياسة العزلة الوطنية المشار إليها سلفاً(٥٩).

في الواقع، لم تؤد استشارة الشجون لهذا العدد الهائل من الأفراد إلى استخلاص حل مقنع؛ فكل من استشيروا، أكانوا من مؤيدي الشجون أم من معارضيه، اعترفوا بضعف اليابان وعدم قدرتها على مواجهة التهديد الغربي. والحل، أو الأمل الوحيد الممكن، الذي اقتنع به **أبي ماشيرو** في النهاية، لإنقاذ البلاد هو التسويف، ومحاولة إقناع **بيري** بالعدول عن مشروعه دون إعطائه جواباً واضحاً، سواء بالقبول أو بالرفض.

ثانياً: المعاهدات غير المتكافئة

عاد **بيري** في شباط/فبراير ١٨٥٤، أي قبل الموعد الذي حدده بشهرين أو ثلاثة. وربما أسرع بالعودة لعلمه بوجود بعثة روسية يرأسها الأميرال **بوتياتن** (Putiatin) في ميناء **ناغاساكي**، تسعى هي أيضاً إلى عقد اتفاقية مع اليابان. وقد عاد هذه المرة وبرفقته ٨ سفن حربية سوداء كذلك. وأصر، كما في السابق، على أن يُستقبل استقبالاً رسمياً. وبعد مفاوضات دامت ٢٣ يوماً، توصل الطرفان في ٣١ آذار/مارس ١٨٥٤ إلى توقيع معاهدة **كاناغاوا** (Kanagawa)(٦٠)، التي نصت

---

(٥٩) مذكرة إي ناؤسوكي مترجمة إلى اللغة الإنكليزية ضمن وثائق الميجي المنشورة. انظر: المصدر نفسه، ص ٣١-٣٥.

كما توجد ترجمة فرنسية لفقرات من هذه الوثيقة في: Francine Hérail, *Histoire du Japon des origines a la fin de l' époque Meiji* (Paris: Publications orientalistes de France, 1986), pp. 378-380.

(٦٠) عُرفت هذه المعاهدة في صيغتها الإنكليزية بمعاهدة السلم والصداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان «Treaty of Peace and Amity between United States of America and Japan». =

أساساً على فتح موانئ **شيمودا**[٦١] (Shimoda) و**هاكوداتي** (Hakodate)[٦٢] و**ناها** (Naha)[٦٣] في وجه السفن الأمريكية، حيث يمكنها التزود بالوقود والماء والغذاء (لم يأت اختيار هذه الموانئ اعتباطاً؛ فهي تحتل مواقع تتوزع على طول السواحل اليابانية، من هوكايدو في الشمال إلى أوكيناوا في أقصى الجنوب، مروراً بشيمودا التي تتوسط جزيرة هونشو). ونصّت المعاهدة أيضاً على مساعدة البحارة الأمريكيين الذين يلجأون إلى الموانئ اليابانية بصورة اضطرارية، ومعاملتهم معاملة حسنة. هذا إضافة إلى إمكانية استقرار قنصل أو وكلاء أمريكيين في ميناء **شيمودا**. وفي حال منحت اليابان امتيازات أخرى لدولة أجنبية غير منصوص عليها في هذه المعاهدة، تحصل الولايات المتحدة والرعايا الأمريكيون على الامتيازات نفسها دون إبطاء، ومن غير تفاوض في شأنها.

وكان كل ما استطاع المفاوضون اليابانيون التوصل إليه هو تأجيل إقامة علاقات تجارية والتفاوض في شأنها، في حين حقق **بيري** ما كان يسعى إليه من فتح الموانئ اليابانية أمام السفن الأمريكية، بل والدول الغربية عموماً. فكما ورد في تقرير له:

اليابان فتحت أبوابها أمام الأمم الغربية... وعلى هذه الأمم أن تظهر لليابان بأن مصالحها [أي مصالح اليابان] ستنتعش بالتواصل مع هذه الأمم... ونتمنى أن نرى في المستقبل إجراء مفاوضات حول المعاهدات التجارية، حيث تتسم [هذه المعاهدات] بطابع ليبرالي أكبر، وذلك ليس من أجل مصلحتنا فحسب، بل من أجل مصلحة كل القوى البحرية في أوروبا، ومن أجل تقدم اليابان أيضاً»[٦٤].

كان **بيري** صائباً في تطلعاته؛ فبمجرد ذيوع خبر الاتفاقية اليابانية ـ

= نص المعاهدة الإنكليزي موجود ضمن وثائق الميجي المنشورة، انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, vol. 1, pp. 1-4.

وهي تشتمل على ١٢ بنداً.

(٦١) شيمودا ميناء ومدينة تقع في شبه جزيرة إيزو، وسط الساحل الشرقي لجزيرة هونشو. وهي في موقع وسط بين أوساكا وطوكيو. وقد كانت مدينة مزدهرة في عهد توكوغاوا لتوسطها في المسالك الرابطة بين المدينتين المشار إليهما. كما أنها تحتل موقعاً استراتيجياً عند مدخل خليج إيدو (طوكيو).

(٦٢) هاكوداتي مدينة وميناء في الجنوب الغربي لجزيرة هاكايدو، وذلك في شبه جزيرة أوشيما (Oshima). وقد كانت منذ القرن السابع عشر ميناء مزدهراً للصيد البحري.

(٦٣) ناها هي العاصمة الحالية لمحافظة أوكيناوا. وكانت عاصمةً لمملكة ريو كيو، وكان لها دور في التبادل التجاري بين الصين واليابان.

(٦٤) Beasley, «The Foreign Threat,» p. 270.

الأمريكية، سارعت دول غربية أخرى (في مقدمها بريطانيا) للحصول على الامتيازات نفسها. والغريب في الأمر أن السير **جون بورينغ** (Sir John Bowring)، ممثل بريطانيا في **هونغ كونغ**، لم يكن مهتماً بعقد اتفاقية مماثلة، بل كان قصده من البعثة العسكرية التي أرسلها إلى **ناغاساكي** بقيادة الأميرال **ستيرلنغ** (Stirling)، ضمان حياد اليابان في الحرب الدائرة بين بلده وروسيا حول القرم، وعدم السماح للسفن الروسية باللجوء إلى الموانئ اليابانية أو التزود فيها بما تحتاج إليه. وما حدث، بسبب ضعف التفاهم بين الطرفين، هو أن اليابانيين وافقوا على منح **ستيرلنغ** اتفاقية مشابهة في شروطها للمعاهدة التي وقّعوها مع بيري[٦٥]، وتوقيعها في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٤. كما تمكن الأميرال الروسي **بوتياتن** من الحصول على معاهدة مماثلة وقّعت في **شيمودا** في ٧ شباط/فبراير ١٨٥٥، غير أنها تميزت من نظيراتها بالتطرق إلى النزاع الحدودي القائم بين البلدين بشأن تبعية **سخالين** وجزر **الكوريل**؛ ففيها وافق الطرفان على تقسيم جزر **الكوريل** بين روسيا واليابان، في حين تُركت الحدود غير واضحة في سخالين[٦٦].

وفي رأي الساسة الأوروبيين والأمريكيين أن الشروط المتضمنة في هذه المعاهدات لم تكن كافية لخدمة مصالحهم التجارية؛ فهي لم ترق إلى معاهدة **ناكين** الموقّعة مع الصين التي فتحت بالفعل الأسواق الصينية في وجه التجارة الغربية. غير أن الظروف الدولية لم تكن مؤاتية للقيام بضغوط أخرى على اليابان؛ فبريطانيا وفرنسا وروسيا كانت منشغلة في حرب القرم؛ وفي عام ١٨٥٦ اندلعت حرب الأفيون الثانية، وشاركت فيها بريطانيا وفرنسا اللتان اتخذتا منها ذريعة لتوسيع «حقوقهما» التجارية في الصين[٦٧].

---

(٦٥) Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 61.

تُعرف هذه المعاهدة في صيغتها الإنكليزية بـ «معاهدة بين بريطانيا العظمى واليابان لتنظيم قبول السفن البريطانية في موانئ اليابان»: (Convention between Great Britain and Japan, for regulating the Admission of British Ships into Ports of Japan).

انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, vol. 1, pp. 4-5.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٦-٧، وقد نص البند الثاني من المعاهدة على تقسيم جزر الكوريل.

(٦٧) تجدر الإشارة إلى أن حرب الأفيون الثانية اندلعت أولاً بين بريطانيا والصين بسبب حادث السفينة «أرو» (Arrow)، التي صعد إليها بعض المسؤولين الصينيين، وأنزلوا العلم البريطاني. ولذا تُعرف هذه الحرب بحرب «أرو» أيضاً. وكذلك اتخذت فرنسا من مقتل أحد المبشرين الفرنسيين في الفترة ذاتها ذريعة، ودخلت إلى جانب بريطانيا في المجهود الحربي للضغط على الصين. وقد انتهت هذه الحرب في عام ١٨٥٨ بتوقيع عدد من المعاهدات التجارية تُعرف في مجموعها بمعاهدات «تيين تسين» (Tientsin).

هذا الانشغال المؤقت لبريطانيا وفرنسا، مكّن هولندا من السعي إلى الحصول على اتفاقية تجارية مع اليابان قبل الدول الأخرى. فعلى الرغم من احتكار هولندا التجارة اليابانية مع أوروبا ما ينيف على القرنين ونصف قرن من الزمن، فإنها لم تستثن نفسها من هذا التسابق في الحصول على امتيازات إضافية، كتلك التي مُنحت لغيرها، أو التي ستمنح استقبالاً. وهكذا، استغل **دونكر كيرتيوس** (Donker Curtius)، ممثل المصالح الهولندية في جزيرة ديشيما، أنباء الحرب في الصين، التي كان ينقلها إلى السلطات اليابانية أولاً بأول، ليحث مخاطبيه على عقد معاهدة تجارية مع بلده تكون بشروط أفضل من تلك التي تُفرض عليهم في حال الحرب. وبالفعل، استطاع **كيرتيوس** التوصل إلى عقد معاهدة تجارية في كانون الثاني/ يناير ١٨٥٦، أُضيفت إليها بنود أخرى تم التنصيص عليها في معاهدة منفصلة لكن ملحقة بالأولى، وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٧[٦٨]. وهذه البنود المضافة هي التي قننت في الواقع التعامل التجاري مع هولندا، وأرادها اليابانيون في الوقت نفسه أن تكون نموذجاً للمعاهدات التالية مع الدول الأوروبية الأخرى، فتأخر التفاوض في شأنها. واعتباراً لوضعية هولندا الخاصة، تميزت معاهدتها مع اليابان بالتطرق أولاً إلى رفع القيود التي كانت تخضع لها البعثة الهولندية التجارية المقيمة في جزيرة ديشيما. كما نصت على أن تكون محاكمة الهولنديين الذي يرتكبون مخالفات أو جرائم على التراب الياباني من اختصاص حكومة هولندا أو ممثليها، وبحسب قوانينها وتشريعاتها. ونصت أيضاً على حرية العبادة للرعايا الهولنديين في الأماكن التي تخصهم. أما البنود الملحقة بالمعاهدة، فقد اهتمت أساساً بتنظيم التجارة الهولندية في الموانئ اليابانية، التي كانت قائمة فعلاً بين البلدين. وعلى أي حال، شكلت هذه المعاهدة خطوة نحو فتح الأسواق اليابانية، حتى وإن كانت أكثر استجابة للمطالب اليابانية.

في غضون ذلك، كان **تاونساند هاريس** (Townsend Harris)[٦٩] أول قنصل أمريكي في اليابان يصل في آب/ أغسطس ١٨٥٥ إلى **شيمودا**، التي اتُّفق

---

(٦٨) انظر: نصّ المعاهدة التجارية الموقّعة بين هولندا واليابان، في: Treaty of Commerce between the Netherlands and Japan, pp. 13-18.

كما توجد البنود الملحقة بالمعاهدة، ص ١٨ ـ ٢٧.

(٦٩) تاونساند هاريس (١٨٠٤ ـ ١٨٧٨) أول قنصل عام للولايات المتحدة في اليابان. ولد في نيويورك، وكان منتمياً إلى الحزب الديمقراطي. له نشاط في الحزب على صعيد مدينته. وفي عام ١٨٤٩، توجّه إلى الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادئ، بحثاً عن فرص تجارية هناك. وقد تمكّن، بواسطة علاقته الحزبية، من الحصول على تعيينه في اليابان في عهد الرئيس الديمقراطي فرانكلين بيرس (Franklin Pierce) (١٨٥٣ ـ ١٨٥٧).

في شأنها مع **بيري** على أن تكون مقراً لممثل الولايات المتحدة[٧٠]. وكانت المهمة الأساسية التي كُلف بها هي التفاوض في شأن معاهدة تجارية، على شاكلة المعاهدات التي أُبرمت مع الصين. وفي أثناء ذلك أيضاً، عرفت سلطات الباكوفو تغيراً في هرم السلطة. فبعد أن تخلى **أبي ماشيرو** عن مهامه كرئيس لمستشاري الشجون في تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٥٥، خلفه **هوتّا ماسايوشي**[٧١]، الذي كان أكثر استعداداً للتفاوض مع الدول الغربية، وإبرام اتفاقيات تجارية معها. ومن ثم، بدا واضحاً أن الفريق المؤيد لإنهاء العزلة أصبح الفريق الغالب والأكثر نفوذاً ضمن الدائرة المحيطة بالشجون. وكان أفراد هذا الفريق يرون في التجارة وسيلة لتفادي الأخطار المحدقة باليابان، أو سبباً لتقوية اليابان، أو هما معاً.

واستعداداً لما ينتظر سلطات الباكوفو من قرارات حاسمة، جرى تعيين لجنة برئاسة **هوتّا** للإشراف على المفاوضات والإعداد لها. وفي ظل الأنباء القادمة من الصين، طلب رئيس اللجنة **هوتّا** من كبار المسؤولين إعداد مذكرات يقدمون فيها نصحهم بخصوص أفضل السبل الواجب على اليابان اتباعها بعد أن تجددت الاعتداءات البريطانية على الصين. ففي رأي **هوتّا** أن أية سياسة ناجحة يجب الإعداد لها مسبقاً، وألا تكون مرتجلة أو ناجمة عن التهديد في أثناء التفاوض. كما أن الأمر في نظره لم يعد يتعلق بالسماح بالتجارة أو عدم السماح بها، فذلك أمر مسلم به، وإنما يتعلق بتنظيم تلك التجارة بأفضل الشروط لصالح اليابان[٧٢]. كانت الردود التي تلقاها **هوتّا** مؤيدة في أغلبها لفتح أبواب اليابان، وإرسال الطلاب والقناصل إلى الخارج من أجل مشاركة اليابانيين في التجارة والقضايا العالمية، في حين كانت أقليتها ترى أن التغيرات المزمع إدخالها تشكّل

---

(٧٠) من بين الأبحاث المثيرة حول إقامة تاونساند هاريس في شيمودا البحث الذي كتبه أوليفر ستاتلر (Oliver Statler) على شكل يوميات متخيلة اعتمد فيها على مذكرات تاونساند والوثائق الأمريكية واليابانية. انظر: Oliver Statler, *Shimoda Story* (Tokyo: Charles E. Tuttle Company, 1969).

(٧١) هوتا ماسايوشي (Hotta Masyoshi) (١٨١٠ ـ ١٨٦٤) دايميو إقليم ساكورا (Sakura) (قسم من محافظة شيبا (Shiba) اليوم). وقد عمل مستشاراً للشجون روجو ابتداء من خريف عام ١٨٥٥، وكان له دور في التفاوض في شأن المعاهدات التي أبرمتها اليابان مع الدول الغربية.

(٧٢) حول آراء هوتا، انظر: Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 64.

وقد اعتمد فيها على مجموعة من الوثائق حول السياسة الخارجية اليابانية، قام بيسلي باختيارها ونشرها باللغة الإنكليزية *Select Documents on Japanese Foreign Policy 1853-1860,* translated and edited by William G. Beasley (London; New York: Oxford University Press, 1955).

وتجدر الإشارة إلى أن جُل المراجع التي تمكنّا من الوصول إليها، وهي المراجع الخاصة بالعلاقات الخارجية لليابان في هذه الفترة، تعتمد على هذه المجموعة من الوثائق.

أخطاراً تفوق كثيراً الحسنات المتوقعة منها. فإن كانت التجارة أمراً حتمياً، فهي أيضاً أمر غير مرغوب فيه. ولذا، فإن التنازلات التي يقدمها الباكوفو، حسب رأي الأقلية، يجب ألا تتعدى ما تتطلبه الظرفية التي تمر بها اليابان(٧٣).

في هذه الأثناء، أي في صيف عام ١٨٥٧، كانت المفاوضات مع **دونكر كيرتيوس**، ممثل هولندا في **ناغاساكي** تجري حول البنود الإضافية المشار إليها، بعد أن تم توقيع المعاهدة الأولى في كانون الثاني/يناير١٨٥٦. وقد حرص **هوتّا** على أن يتشكل فريق المفاوضين اليابانيين من الاتجاهين المشار إليهما في الاستشارة التي قام بها. كما كانت هذه المفاوضات بالنسبة إلى **هوتّا** مناسبة للتوصل إلى صيغة معاهدة تُعَدّ في غياب التهديد بحيث ترضي اليابان وتستجيب لأدنى المتطلبات الغربية، مع الإشارة إلى أن **كيرتيوس** شكل مصدراً مهما بالنسبة إلى اليابانيين لمعرفة القوانين الغربية، وكيفية التعامل مع المفاوضين الغربيين. وبالفعل، تم التوصل إلى صيغة معاهدة عُرضت على الباكوفو، وهي التي وقّعت مع هولندا في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٧ على صورة بنود إضافية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكانت الصيغة نفسها التي عُرضت على الأميرال الروسي **بوتياتن** عندما قدم في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٧ للتفاوض في شأن معاهدة تجارية. وقد شكّلت هاتان المعاهدتان الأساس الذي اعتمدته السياسة اليابانية في تفاوضها لاحقاً مع القنصل الأمريكي **هاريس**.

دامت إقامة **هاريس** في **شيمودا** سنتين، قبل أن يسمح له في النهاية (تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٥٧) بالتوجه إلى **إيدو** كي يفاوض في شأن المعاهدة التجارية التي جاء من أجلها. والواقع أن سلطات الباكوفو تعمّدت تأخير سفره إلى ما بعد توقيع المعاهدة مع هولندا. وعلى أي حال، كان **هاريس** يصر منذ البداية على أن يلتقي بالشجون شخصياً في مقابلة رسمية، ليسلّمه رسالة من الرئيس الأمريكي **فرنكلين بيرس**، معللاً طلبه بأن الأمر الذي كلفه به مهم للغاية يتعلق بمستقبل اليابان. كما كان متتبعاً لأخبار المفاوضات الجارية بين اليابانيين و**كيرتيوس** في **ناغاساكي**، غير أنه لم يكن راضياً عن نتيجتها ولا عن الصيغة التي انتهت إليها ووافقت عليها هولندا وروسيا؛ فهي، كما علّق على ذلك لاحقاً، «عار على الأطراف التي قامت بصياغتها. . . فهي لا تساوي الورق الذي كُتبت عليه»(٧٤).

---

(٧٣) المصدر نفسه.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٦٥.

وصل **هاريس** إلى **إيدو** في آخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٥٧ ودخلها كما يدخلها الدايميو، على صهوة جواد، ترافقه حاشية من مرافقيه وحراس يابانيون، ثم استُقبل من قِبل الشجون؛ إذ لعلها المرة الأولى التي يُسمح فيها لممثل دولة غربية بدخول عاصمة الشجون ويُستقبل على هذا النحو(٧٥). ثم شرع في المفاوضات مع **هوتّا ماسايوشي** في ١٢ كانون الأول/ديسمبر، عند زيارته منزل هذا الأخير. وقد أشار في المذكرات التي كتبها عن لقائه مع **هوتّا** إلى أنه كان مضطراً إلى أن يحاضر مستضيفه مدة ساعتين عن أحوال العالم، الذي أصبح بفضل السفن البخارية «عائلة واحدة»، وأنه ليس من حق أية دولة البقاء بمعزل عن هذه العائلة. إضافة إلى أن اليابان لا تمتلك من القوة للدفاع عن عزلتها. ثم أضاف، من باب التهديد، أن بريطانيا عازمة على الدخول في حرب مع اليابان من أجل فرض الشروط نفسها التي فرضتها على الصين. لذا من الأفضل لليابان أن تُبرم معاهدة تمكّنها من اللحاق بـ «عائلة الأمم» دون أن يلحق بها عنف أو عار:

إذا كان على اليابان أن تُبرم معاهدة مع سفير الولايات المتحدة، الذي جاء غير مدعوم بقوة عسكرية تسانده، فإن شرفها سيبقى محفوظاً. فهناك فرق كبير بين معاهدة يصوغها شخص واحد غير مسند، ومعاهدة يصوغها شخص يسانده خمسون شخصاً من أهل الحرب يأتي بهم إلى هذه السواحل(٧٦).

كانت مطالب **هاريس** واضحة،؛ فهو لن يقبل صيغة المعاهدة التي هيأتها سلطات **الباكوفو** لتكون نموذجاً للمعاهدات التالية مع الدول الغربية ـ والتي وقّعتها فعلاً مع هولندا وروسيا ـ إلا إذا أدخلت عليها تعديلات ثلاثة: الموافقة على تعيين سفير للولايات المتحدة يقيم في العاصمة إيدو؛ منح الرعايا الأمريكيين حق التجارة الحرة في الموانئ اليابانية دون تدخل رسمي من طرف الدولة (اليابانية)؛ الزيادة في عدد الموانئ المسموح بالتجارة فيها.

اضطر **هوتّا** إلى تأجيل المفاوضات والقيام باستشارة أخرى حول المقترحات التي جاء بها **هاريس**. وعلى الرغم من أن إجابات من استشارهم كانت تنم عن وعي بالتغيرات الظرفية وتعذر الاستمرار في سياسة العزلة، فإنها انصبت على

---

(٧٥) ممثلو البعثة الهولندية كانوا الأشخاص الوحيدين الذين سُمح لهم بزيارة إيدو زيارة سنوية، يقدمون فيها ولاءهم وهداياهم للشجون، وكانوا يعامَلون كما لو كانوا في وضعية تبعية للشجون، كما هو شأن الدايميو في علاقتهم معه.

(٧٦) Beasley, «The Foreign Threat,» p. 278.

البحث عن وسيلة لتأخير ما ليس منه بد. وعلى أي حال، لم يكن **هوتّا** ينتظر هذه الإجابات ليتخذ قراره في شأن مطالب **هاريس**، إذ كان مقتنعاً بأن على اليابان العمل على إغناء نفسها بالتجارة، وعقد تحالفات في هذا الشأن، واتّباع السبل الغربية التي من شأنها أن تقوّيها[٧٧]. فعلى هذا الأساس، استأنف مفاوضاته مع **هاريس**، وكان على استعداد لقبول مطالبه لكن شريطة إدخال تعديلات تخص اختيار الموانئ التي يُسمح فيها للرعايا الأمريكيين بالإقامة فيها، وعددها. وهكذا تم في ٢٣ شباط/فبراير ١٨٥٨ التوصل إلى صيغة معاهدة جاهزة للتوقيع. وأهم ما جاء في بنودها الأربعة عشر:

ـ التبادل الدبلوماسي بين البلدين؛

ـ إقامة ممثلين دبلوماسيين وقناصلة في عاصمتي البلدين وفي جميع المدن والموانئ المسموح للأجانب بالتجارة فيه؛

ـ ضمان حرية التنقل للرعايا الأمريكيين داخل اليابان؛

ـ فتح موانئ ناغاساكي وكاناغاوا (تغير اسمها إلى يوكوهاما) ونئيغاتا (Niigata) وهيوغو Hyogo (تُعرف اليوم بـ كوبي) للتجارة، إضافة إلى تلك التي تم الاتفاق في شأنها مع بيري؛

ـ السماح للرعايا الأمريكيين بالإقامة في هذه المدن والموانئ، والتجارة وممارسة عبادتهم بها دون تدخل من السلطات اليابانية؛

ـ منح الرعايا الأمريكيين الحصانة بعدم خضوعهم للتشريع الياباني؛

ـ فتح مدينتي إيدو في وجه التجارة ابتداء من فاتح كانون الثاني/يناير ١٨٦٢، وأوساكا ابتداء من فاتح كانون الثاني/يناير ١٨٦٣؛

ـ تحديد الواجبات الجمركية على الصادرات والواردات في نسب معتدلة.

كما نصت المعاهدة في جانب آخر على: إمكانية قيام رئيس الولايات المتحدة بدور الوساطة مع القوى الغربية في حال وقوع نزاع بينها وبين اليابان؛ منح الحكومة اليابانية حق شراء السفن الحربية والسفن البخارية والأسلحة من الولايات المتحدة؛ منح الدولة اليابانية **حق استخدام العلماء والمستشارين**

---

(٧٧) Beasley, *The Modern History of Japan*, p. 267.

والخبراء العسكريين والصنّاع الأمريكيين؛ منع الاتجار بالأفيون[٧٨].

عرض **هوتّا** هذه الصيغة على **الدايميو** الحاضرين آنذاك في العاصمة **إيدو**، فاكتشف أن أغلبهم يعارضها، فكان عرضة لنقدهم الشديد بسبب التنازلات التي قدمها للمبعوث الأمريكي وذهب فيها إلى أبعد ممّا كانوا يتوقعون، بل أبعد كثيراً من التنازلات التي قدمها في المعاهدة الموقّعة مع **هولندا**. واعتباراً لهذه المعارضة، اتفق **هوتّا** مع **هاريس** على تأجيل التوقيع إلى حين مصادقة الإمبراطور عليها، حيث كان يرى في تدخل أعلى سلطة في البلاد وسيلة لإسكات الأصوات المعارضة. وكان يظن أن المسألة إجراء شكلي يتطلب تقديم هدايا للحاشية يحصل بعدها على موافقة الإمبراطور.

والواقع أن الإمبراطور أصبح أيضاً محط أنظار معارضي المعاهدات المبرمة مع القوى الغربية أو المزمع إبرامها، والذين كانوا يرون في تدخله وسيلة لوقف العمل بها والعودة إلى سياسة العزلة. وكان **توكوغاوا نارايكي**، أكثر المتشددين في هذا الباب وصاحب الجواب المشار إليه، قد سعى من جهته في **كيوطو** لدى حاشية الإمبراطور إلى كسب الدعم لفريقه ضد سياسة الباكوفو. لذا خاب تفاؤل **هوتّا** عندما ذهب شخصياً إلى **كيوطو**، بعد أن لم يتمكن مبعوث له من تحقيق نتيجة إيجابية. فقد قوبل بمعارضة شخصية من الإمبراطور كوميئي (Komei) (١٨٤٦ ـ ١٨٦٧)[٧٩]، ووجد أن معظم المحيطين به يؤيد الإبقاء على سياسة العزلة. فالإمبراطور كان يعارض بشكل خاص وجود الأجانب في مدينتي **أوساكا** **وهيوغو** (كوبي) بسبب قربهما الشديد من عاصمته الإمبراطورية. وبعد انتظار دام أربعة أشهر، حصل **هوتّا** على جواب مبهم يعترف فيه الإمبراطور مبدئياً بأن السياسة الخارجية من اختصاصات الشجون، غير أنه يدعو هذا الأخير إلى استشارة الدايميو مرة أخرى، وكذلك الاستماع بشكل خاص إلى بعض الأُسر الثانوية ضمن سلالة توكوغاوا (في إشارة واضحة إلى **توكوغاوا نارايكي**)، وكذا إشراك توزوما (الدايميو غير المقربين) في اتخاذ القرار. وقد مثّل هذا الجواب خيبة

---

(٧٨) نص المعاهدة ضمن وثائق ميجي المنشورة، انظر: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan Through Contemporary Sources*, vol. 1, pp. 27-36.

وتُعرف في نصها الإنكليزي بـ: **معاهدة الصداقة والتجارة بين الولايات المتحدة واليابان** (Treaty of Amity and Commerce between the United States of America and Japan).

(٧٩) ولِد الإمبراطور كوميئي عام ١٨٣١، ومات عام ١٨٦٧. وهو الإمبراطور الحادي والعشرون بعد المئة (بحسب التواريخ التقليدية). اشتهر بموقفه المحافظ تجاه المعاهدات مع القوى الغربية.

أمل كبرى لـ **هوتّا** الذي استقال في إثرها (أو أُجبر على الاستقالة) من منصب كبير مستشاري الشجون[(٨٠)].

هذا الجواب المبهم، وعدم مصادقة الإمبراطور الصريحة على المعاهدات، وضعا سلطات الباكوفو في مأزق صعب تعيّن عليها الخروج منه؛ فإما عصيان أوامر الإمبراطور المعارضة لسياسة الانفتاح بشكل عام، وفتح مدن قريبة من عاصمته للتجارة وإقامة الأجانب بها بشكل خاص، وإما عدم الوفاء بالالتزامات التي تعهدت بها للقوى الغربية والتي ستؤدي في حال الوفاء بها إلى تعريض البلاد لمصير مشابه لمصير الصين. هذا إضافة إلى ما تضمنه هذا الجواب من لمز إلى ضعف سلطة الشجون، وعدم قدرته على تسيير دفة الحكم واتخاذ القرارات الحاسمة لوحده.

تولى **إي ناؤسوكي** منصب كبير مستشاري الشجون خلفاً لـ **هوتّا** في ٤ حزيران/يونيو ١٨٥٨، وأصبح حاملاً للقب **تايرو** (القيدوم الكبير)، وهو الذي سيأخذ على عاتقه التفاوض مع القوى الغربية وقرار توقيع المعاهدات المتوصل إليها. كما سيتدخل بشكل قوي وحاسم في شأن ولاية عهد الشجون **إييسادا**، الذي لم يترك وريثاً من صلبه، ويتخذ عدداً من الإجراءات لإنقاذ السلطة. وفي هذه الأثناء، كان صبر **هاريس** قد نفد، فأخذ يستعجل مخاطبه الجديد على الإسراع بالتوقيع، مهدداً بأن بريطانيا وفرنسا أنهيتا حربهما مع الصين، وأنهما تهيئان لحملة مماثلة على اليابان. ففي ظل هذه الظروف، قرر **إي ناؤسوكي** توقيع المعاهدة اليابانية ـ الأمريكية في إطار الصلاحيات المخولة له، دون الحصول على مصادقة الإمبراطور، وكان ذلك في ٢٩ تموز/يوليو ١٨٥٨[(٨١)]. وبذلك يكون قد اتخذ أخطر القرارات في حياة شجونة **توكوغاوا**، التي كانت من الأسباب المباشرة في إنهاء حكمها وحكم الباكوفو عموماً. ذلك أن المسألة لم تعد متعلقة لدى معارضي الباكوفو بالمعاهدات التجارية وبنودها، وإنما بعصيان أوامر الإمبراطور، ومن ثم بدأت الحملة لتنحية أُسرة **توكوغاوا** عن السلطة.

لم تمض سوى أيام قلائل على هذا التوقيع حتى حضر إلى **إيدو** كل من

---

(٨٠) Jansen, *Making of Modern Japan*, p. 285.

(٨١) انظر وثائق الميجي المنشورة: Centre for East Asian Cultural Studies, *The Meiji Japan through Contemporary Sources*, vol. 1, p. 27.

تجدر الإشارة إلى أن هذه المعاهدة حُرّرت بثلاث لغات: الإنكليزية واليابانية والهولندية. واعتُبرت الصيغة الهولندية الصيغة الأصلية التي يُرجع إليها في النزاعات. وقد نُص على ذلك في خاتمة المعاهدة.

الأميرال الروسي **بوتياتن** واللورد البريطاني إلجين (Lord Elgin) للتفاوض في شأن معاهدات مماثلة. ولم يطل الأمر بهما حتى حصلا دون عناء على معاهدتين بشروط مماثلة وقّعتا في وقتين متقاربين في الأسبوع الأخير من آب/أغسطس ١٨٥٨[٨٢]، تلتهما في تشرين الأول/أكتوبر معاهدة مع فرنسا، فاوض في شأنها البارون غرو (Baron Gros).

شكّلت هذه المعاهدات[٨٣]، التي وقّعتها اليابان مع الدول الخمس، هولندا والولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا، خلاصة الضغوط الغربية التي أجبرت اليابان على التخلي عن سياسة العزلة. فكانت بذلك مؤشراً على نهاية حقبة في تاريخ اليابان، وبداية مرحلة انتقالية حرجة أدت إلى إسقاط نظام الباكوفو، وإعادة السلطة إلى الإمبراطور. ولم تكن الضغوط ولا الشروط التي أملاها المفاوضون الغربيون سلبية في نتائجها على مستقبل اليابان؛ فقد حركت المفكرين اليابانيين، ودعتهم إلى التفكير في بديل ممكن يجنّب اليابان الاستسلام للقوى الغربية. كما أنها خلخلت الوضع السياسي، وغيرت موازين القوى داخل البنية السياسية. ومن غريب المصادفات أن أحد البنود التي تضمنتها المعاهدة الموقّعة مع الولايات المتحدة، وهو البند الذي نصّ على استخدام الحكومة اليابانية تقنيين أمريكيين، سيستغله اليابانيون بذكاء في بناء قوتهم العسكرية، وإصلاح نظام التعليم في بلدهم.

ثالثاً: ردود الفعل

١ ـ ردود الفعل الرسمية

تابعنا في الفقرات السابقة ردود فعل الشجون تجاه التهديد الغربي، الذي طلب منذ المحاولات الروسية في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، استسلام اليابان وقبولها الشروط التي أملتها الولايات المتحدة في خمسينيات القرن التاسع عشر. وهي ردود اختلفت باختلاف الظروف والمستجدات؛ فمن المقاومة والإصرار على تطبيق سياسة العزلة، إلى التخلي عنها نهائياً. ولعل أهم تغيير أحدثه التهديد الغربي في سياسة الشجون، هو إشراك الإمبراطور في القرار السياسي، الذي أصبح رأيه

(٨٢) نص المعاهدة مع بريطانيا العظمى، المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٤٩، و«Treaty of Peace and Amity between United States of America and Japan».

(٨٣) تُعرف هذه المعاهدات في اللغة اليابانية بـ Ansei gokakoku jouaku، وهو ما يمكن ترجمته تقريباً بـ «معاهدات مع القوى الخمس».

معتبراً، ومصادقته على المعاهدات التي أبرمها الشجون مع الدول الغربية الأساسية؛ فمن التهميش التام الذي طاول المؤسسة الإمبراطورية ما يزيد على سبعة قرون، إلى احتلالها مكان الصدارة على نحو مفاجئ. فلأول مرة يتذكر الشجون ومستشاروه أن السلطة العليا للبلاد هي في يد الإمبراطور، وأن القرارات المصيرية يجب أن يستشار فيها ويصادق عليها. والواقع أن هذا التغيير كان بمثابة إيذان بتجهيز نعش نظام الباكوهان وسلطة توكوغاوا، التي لم تعد قادرة على حماية البلاد من الغزو الأجنبي. وفي السياق نفسه أيضاً، كانت استشارة الشجون للدايميو في الأمور التي تهم السياسة العامة للبلاد، خطوة أبانت عن ضعف الشجون وعدم قدرته على تحمل عواقب قراراته لوحده، وأماطت اللثام عن وجوه الدايميو المعارضين للشجون والذين كانوا ينتظرون المناسبة لإبعاد أُسرة توكوغاوا عن السلطة.

كانت سلطات الباكوفو واعية منذ أواخر القرن الثامن عشر بخطر التهديد الغربي الذي تمثل آنذاك في روسيا، التي أصحبت جاراً قريباً من الجزر الشمالية، فشرعت في الاستعداد لاحتمالات الغزو الروسي بتعزيز حراسة الشواطئ، وتجميع المعلومات عن نوايا الروس. ومن ذلك، الاهتمام مجدداً بالأسلحة النارية والمدافع، التي أُهملت في فترة السلم وتخلى عنها الساموراي. وكما سبقت الإشارة في فصل التعليم، فإن معاهد الدراسات الغربية التي أُنشئت في أواخر القرن الثامن عشر كانت تدرّس مبادئ التقنيات العسكرية الغربية. ولعل أهم رد فعل إيجابي تجاه التهديد الغربي تمثّل في الإصلاحات التي أقدمت عليها سلطات الباكوفو في ظل الأنباء الواردة عن هزيمة الصين في الأفيون، وفي استغلال بنود المعاهدات المبرمة مع الدول الغربية لإرسال بعثات طلابية إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة.

٢ ـ إصلاحات تينبو والاهتمام بالتقنيات العسكرية الغربية

جاءت إصلاحات **تينبو** (Tenpō) (١٨٤١ ـ ١٨٤٤)، على غرار سلسلتي إصلاحات القرن الثامن عشر، في ظل ظروف سياسية واقتصادية بالغة السوء؛ فابتداء من عام ١٨٣٣، عرفت اليابان طقساً بارداً ورياحاً عاتية وفيضانات أدت إلى نقص هائل في المحصول، ترتبت عنه مجاعات وأوبئة طاولت مناطق من اليابان إلى غاية عام ١٨٣٧[٨٤]، وهو الأمر الذي أدى أيضاً إلى تكرار

(٨٤) تُعرف هذه المجاعة بنسبتها إلى عهد تينبو؛ ففيها تدنى المحصول الزراعي، وعرف نقصاً بلغ ما بين ٥٠ و٧٠ بالمئة في بعض المناطق، خاصة في شمال شرقي البلاد.

انتفاضة الفلاحين، التي اتسمت بصبغة من العنف لم تعرفها في السابق.

كانت انطلاقة هذه الإصلاحات في عهد الشجون الثاني عشر **إيي ـ يوشي** (حكم ١٨٣٧ ـ ١٨٥٣)، الذي أعلن نيته في إحياء المبادئ التي قامت عليها إصلاحات القرن الثامن، وذلك بزيادة الإنتاج الزراعي، وإرجاع الفلاحين المهاجرين إلى المدن إلى قراهم، وفرض ضرائب على التجار، وإصلاح العملة. إلا أن التهديد الغربي المباشر والأنباء الواردة من الصين شكّلا هاجساً آخر بدا واضحاً في الإصلاحات التي تكلف بها مستشار الشجون **ميزونو تاداكوني**. فكان ممّا سعت إليه إصلاحات **تينبو**، تعزيز القدرات العسكرية، وتدريب الساموراي على استعمال الأسلحة النارية. وهكذا استعان **ميزونو تاداكوني** بخبرة دارسي التقنيات العسكرية الغربية، أمثال **تاكاشيما شوهان** (Takashima Shūhan) (١٧٩٨ ـ ١٨٦٦)، الذي كان ذا خبرة عالية في مجال المدافع اكتسبها من اتصاله بالتجار الهولنديين، **وإيغاوا تاروزايمون** (Egawa Tarōzaemon) (١٨٠١ ـ ١٨٥٥)، الذي درس تقنيات المدافع في **ناغاساكي**، وأصبح مدرّساً لها في **إيدو**، وإليه يُنسب إقامة أول فرن تجريبي لصهر الحديد وصناعة المدافع عام ١٨٤٢.

وعلى الرغم من قصر المدة التي استغرقتها إصلاحات **تينبو** بسبب ما تعرض له **تاداكوني** من انتقادات، فإن الاهتمام بالتقنيات العسكرية الغربية وتصنيع المدافع استمر بعد الإصلاحات، وازداد بوتيرة متسارعة في العقود السابقة على إصلاحات الميجي. هذا بالإضافة إلى استيراد الأسلحة الثقيلة من هولندا. وفي سياق الاهتمام بالتقنيات العسكرية الغربية، جرى في عام ١٨٥٥ إنشاء معهد للملاحة البحرية في **ناغاساكي**، وعُهد بتسييره والتدريس فيه إلى قبطان هولندي يدعى بلس ريكن (Pels Rijcken) وفريق من المدربين الهولنديين. وفي العام نفسه، تلقى الشجون سفينة حربية من ملك هولندا **وليام الثالث** (حكم ١٨٤٩ ـ ١٨٩٠). ولم تكن السفينة ذات مواصفات عسكرية متطورة، فهي مجرد سفينة شراعية صغيرة مزودة بمحرك بخاري بقوة ١٠٠ حصان(٨٥). لكن المثير هي السرعة التي أتقن بها خريجو المعهد المذكور فن الملاحة في أعالي البحار. ففي عام ١٨٦٠، أبحرت السفينة بطاقم ياباني إلى الولايات المتحدة وعلى متنها بعثة رسمية ضمت **فوكوزاوا يوكيتشي**. وعن تلك الرحلة، كتب هذا الأخير في مذكراته، مزهواً بهذا الإنجاز:

---

(٨٥) أُطلق على هذه السفينة اسم كانرين مارو (Kanrin Maru). انظر: M. William Steele, «Kanrin Maru,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 4, p. 151.

إنني على استعداد للإقرار بشعوري بالفخر بهذا الإنجاز الذي تحقق لليابان. والحقائق هي على النحو الآتي: لم تشاهد السفينة البخارية في اليابان إلا في العام السادس من عهد كاي (١٨٥٣)، وفي العام الثاني من عهد أنساي (١٨٥٥) بدأنا دراسة الملاحة على يد الهولنديين في ناغاساكي، وفي عام ١٨٦٠ أصبح علم الملاحة مفهوماً بصورة كافية، بحيث يمكننا من الإبحار بسفينة عبر المحيط الهادئ، وهو ما يعني أنه بعد سبع سنوات من مشاهدة أول سفينة بخارية، وبعد خمس سنوات فقط من الممارسة، قام الشعب الياباني بأول عبور للمحيط الهادي دون مساعدة خبراء أجانب. وأعتقد أنه بمقدورنا، من غير تفاخر في غير موضعه، أن نتباهى أمام العالم بهذه الشجاعة والمهارة[٨٦].

وكانت شجونة توكوغاوا بدورها قد اهتمت، بعد حادث السفن السوداء، بالدراسات الغربية. ولهذا الغرض، أنشأت في عام ١٨٥٥ بإنشاء معهد رسمي يعمل على تدريس العلوم الغربية واللغات الأجنبية، وترجمة الوثائق الدبلوماسية. وقد أُضيفت اللغة الإنكليزية إلى برامج الدراسة في عام ١٨٦١، ثم أُضيفت اللغتان الألمانية والروسية في العام التالي. وهذا المعهد هو الذي سيتحول إلى جامعة طوكيو في عام ١٨٧٧[٨٧].

٣ ـ بعثات الشجون إلى الدور الغربية

بعد توقيع المعاهدات غير المتكافئة، قامت شجونة توكوغاوا بإرسال ست بعثات دبلوماسية وطلابية إلى الولايات المتحدة وأوروبا، كانت الأولى في عام ١٨٦٠ والأخيرة في عام ١٨٦٧. وكانت الغاية من أغلب هذه البعثات التفاوض في شأن مراجعة بنود المعاهدات، غير أنها ضمت أيضاً عدداً من الطلاب بقصد الدراسة في الدول الغربية واكتساب المعارف والتكنولوجيا الغربية. فعلى سبيل المثال، كانت البعثة التي أُرسلت إلى فرنسا عام ١٨٦٥ مكلفة بشراء المعدات، والبحث في شأن إرسال مدربين عسكريين إلى اليابان. وفي الفترة نفسها، أقبل الدايميو على إرسال بعثات طلابية إلى أوروبا بقصد الدراسة[٨٨].

---

(٨٦) فوكوزاوا يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، ترجمة كامل يوسف حسين (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١)، ص ١٤٥.

(٨٧) Frits Vos, «Western Learning,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 8, pp. 241-243.

(٨٨) Tanaka Akira, «Shogunate Missions to the West,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 7, p. 161.

٤ ـ ردود فعل المثقفين وفكر الإصلاح

أحدث التهديد الغربي لدى المثقفين اليابانيين ردة فعل قوية تمثّلت في كتابات تدعو إلى الإصلاح والتغيير؛ فمع تكرار وصول السفن الروسية في أواخر القرن الثامن عشر، واتضاح نية الروس في الاستيلاء على الجزر الشمالية للأرخبيل، بدأت تظهر كتابات تدعو إلى إعادة النظر في التقنيات العسكرية الصينية، وضرورة الأخذ بالتقنيات الغربية في الدفاع عن الجزر. غير أن حرب الأفيون كانت أشد وقعاً على نفوس المثقفين من التهديد الروسي، إذ رسمت هزيمة الصين صورة قاتمة لمصير اليابان التي لم يكن أكثر قوة من الجارة العظمى. فإثر هذه الحرب، ظهرت كتابات أخرى تدعو صراحة إلى التخلي عن المعارف الصينية في مجملها، والأخذ بأنظمة التعليم الغربي، إن أراد اليابانيون تفادي مصير جيرانهم. أما حادثة السفن السوداء وتوقيع المعاهدات غير المتكافئة، فكانا بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ لم تعد كتابات المثقفين تكتفي بالدعوة إلى الإصلاح في ظل النظام القائم، بل دعت أيضاً إلى تغيير النظام السياسي الذي لم يعد قادراً على مقاومة التدخل الأجنبي.

نعرض في ما يلي لنماذج من هذه الكتابات، بدءاً من تلك التي وضعت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، إلى تلك التي هزت المشاعر وشكلت الأيديولوجيا التي اتخذت مرجعية لإصلاحات الميجي.

٥ ـ الدعوة إلى الأخذ بالتقنيات والنظم التعليمية الغربية

أ ـ هياشي شيهيئي (١٧٣٨ ـ ١٧٩٣)

كان **هياشي** من المثقفين الأوائل الذين خاضوا في مسألة الدفاع، وشككوا في التقنيات العسكرية التقليدية، بسبب معاصرته الفترة التي تبدت فيها أطماع الروس في احتلال الجزر اليابانية من جهة، واتضح قصور الاستعدادات العسكرية القائمة في الدفاع عن الجزر الشمالية في حال هجوم الروس من جهة أخرى. فبعد رحلات متكررة من العاصمة إلى الشمال ومدينة **ناغاساكي** في الجنوب، اقتنع **هياشي** بضرورة الاستعداد للدفاع عن البلاد، فأخذ في دراسة الجغرافيا ومعرفة أحوال العالم والعلوم العسكرية على يد معلمي الدراسات الهولندية. وفي عام ١٧٩١ نشر كتاباً تحت عنوان **كايكوكو هيدان** (Kaikoku Heidan) (مناقشة قضايا الدفاع عن أمة بحرية)، دعا فيه إلى التخلي عن التقنيات العسكرية الصينية التي لم تعد

صالحة، في رأيه، للدفاع عن أمة بحرية مثل اليابان. يقول **هياشي** في مقدمة كتابه:

أسس معلمو العلوم العسكرية لأجيال طرقهم على الكتب الصينية، وهو ما يعني بطبيعة الحال أنهم حبسوا أنفسهم في الطرق الصينية، وتجاهلوا الطرق السليمة للدفاع عن أمة بحرية. وأنا أول من يناقش هذه القضية التي أثارت قلقاً عميقاً لدي. فبناء على أبحاثي المعمقة في هذا الموضوع، توصلت إلى المعلومات التي أضمنها هذا الكتاب. وأنا أعلم أنه لا يُسمح لشخص عادي أن يكشف عن هذه الحقائق حتى وإن كان يمتلك أدلة عليها. ذلك أن السكوت أضحى من علامات الخوف والحذر. وبما أنني الرجل الوحيد الذي يفضّل العمل عندما يقتنع بأمر ما، فإنه ليس لدي أدنى شك في أني سأثير غضب السلطات. ولذلك أعددت، دون زخرفة أو تنميق، لائحة بالعوامل التي جعلت من السهل على أي غاز مهاجمة اليابان، بدءاً بـ **بينيوفسكي**. وغايتي من جمع محتويات هذا الكتاب إعلام السلطات بما هو ضروري للدفاع عن أمة بحرية. فلهذا السبب أقدمت على مناقشة قضية بالغة الخطورة، على الرغم من موقعي البسيط... وأنا مدرك أنني تخطيت حدود موقعي وأنني لن أفلت من العقاب(٨٩).

وكما توقّع **هياشي**، فقد سجن بعد مرور ثمانية أشهر على نشر مؤلفه الذي تعرض للمصادرة. غير أنه كان صائباً في تحذيره؛ إذ تكررت زيارة السفن الروسية، وتعرضت الشواطئ اليابانية للهجوم، كما سبقت الإشارة. وهكذا أُعيد الاعتبار إلى مؤلفه الذي طُبع مراراً بين عامي ١٨٤٣ و١٨٥٣(٩٠). والواقع أن **هياشي** كان أول من يجرؤ على انتقاد المعارف الصينية ويدعو إلى استبدالها ـ على الأقل في المجال العسكري ـ بالمعارف الغربية.

ب ـ ساكوما شوزان (١٨١١ ـ ١٨٦٤)

يُعتبر **ساكوما** نموذجاً فريداً بين مثقفي الساموراي في عصر **إيدو**، حيث مثّلت كتاباته، التي اتسمت بتفسير عقلاني غير مسبوق، تحولاً في الفكر الياباني، الذي ظل تابعاً للفكر الصيني منذ القرن السادس الميلادي. كما يمكن اعتباره مثالاً للمثقف «الملتزم» (إن صحت استعارة هذا الوصف من ثقافتنا الراهنة)،

(٨٩) Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*, p. 43.

(٩٠) Katagiri Kazuo, «Hayashi Shihei,» in: *Kodansha Encyclopedia of Japan*, vol. 3, p. 118.

حيث همت كتاباته القضايا السياسية التي ظلت في نطاق المحرمات لدى باقي دارسي الفكر الكونفوشيوسي.

ولد **ساكوما** في قلعة **ناغويا**، في بيت علم، حيث درس في البداية الكونفوشيوسية الجديدة على يد والده، ثم انتقل على العاصمة التي أتم فيها دراسته في معهد شوهيكو (Shôheikô) الذي كان منبراً رسمياً لنشر مذهب **تشو هسي**. وكان متوقّعاً من مساره التعليمي هذا أن يصبح واحداً من دارسي المعارف الصينية، غير أن «الأنباء المؤلمة» الواردة من الصين شكّلت منعطفاً في حياته الدراسية؛ ففي إثر حرب الأفيون، أدرك مدى تفوق الغرب، فوجه عنايته إلى الدراسات الغربية، متتلمذاً على كبار معلميها ليتقن اللغة الهولندية، ويدرس التقنيات العسكرية الغربية. ومن ثم أضحى مقتنعاً بأهمية الفكر الغربي، وضرورة الأخذ به. يقول **ساكوما** في رسالة إلى أحد زملائه:

لم تعد المعرفة التقليدية اليابانية والصينية كافية في عالم اليوم. . . فاعتباراً لظروف العالم بعد الاكتشافات الثلاثة الكبرى ـ اكتشاف **كولمبوس** للعالم الجديد الذي قام على أساس أبحاث علمية؛ واكتشاف **كوبرنيك** لمبادئ حركة الأرض؛ واكتشاف **نيوتن** للمبادئ الحقيقية للجاذبية ــ أضحت العلوم كلها قائمة على أسس متينة ومتسمة بدقة ليست في حاجة إلى دليل من العقائد. فبفضل هذه الاكتشافات، تغيرت الأحوال في أوروبا والولايات المتحدة تدريجياً، وتطورت بشكل لافت. وهكذا اختُرعت السفن البخارية والمغناطيس والتلغراف. إنه فن الابتكار والإبداع الذي أخذ بعقل الإنسان. وإنه لوضع مثير للعجب[٩١].

والمثير حقاً هو أن كتابات ساكوما في مجملها وضعت الأسس للفلسفة التي قامت عليها إصلاحات الميجي، والتي ما تزال تحكم تعامل اليابانيين مع الفكر الغربي. فهو أول من أثار قضية الجمع بين ثقافتي الشرق والغرب: أخلاق الشرق كأساس، وتقنية الغرب كوسيلة. يقول **ساكوما**:

أما ما يخص تعليم الأخلاق ومحبة الخير والاستقامة، وحنو الأبناء على آبائهم، والمحبة الأخوية، والولاء والإخلاص في أداء الواجب، فيجب اتباع

---

(٩١) مقتطف من رسالة موجهة من ساكوما شوزان إلى الشاعر ياناغاوا سيغان (Yanagawa Seigan) (١٧٨٩ ـ ١٨٥٨)، وهي مؤرخة بـ ٦ آذار/ مارس ١٨٥٨. وقد ورد هذا المقتطف مترجماً إلى اللغة الإنكليزية في: Masao Maruyama, *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*, translated by Mikiso Hane (Tokyo: University of Tokyo Press, 1989), p. 306.

مبادئ حكماء الصين. وأما ما يخص الفلك والجغرافيا والبحث في مبادئ الأشياء، وفن المدافع والتجارة والطب والآلات والبناء، فإنه يتوجب علينا الاعتماد أساساً على الغرب. يجب أن نجمع بين نقاط القوة في الأراضي [القارات] الخمس، فنبني معرفة عظيمة لأمتنا الإمبراطورية(٩٢).

لم يكن بمقدور **ساكوما** أن يتوصل إلى هذا الجمع لولا تخلصه أولاً من فكرة انتماء اليابان إلى الثقافة الصينية؛ فاليابان في نظره كينونة مستقلة ليست مرتبطة لا بالشرق ولا بالغرب. فالثقافة الصينية غريبة على المجتمع الياباني، كما هي الثقافة الغربية. ففي قصيدة شعرية نظمها في عام ١٨٤٨ يقول ما معناه: الغربيون والصينيون هم معاً أجانب، فكيف يتسنى لنا أن نصف المعرفة الصينية بأنها معرفة داخلية (within) أو أنها ملك لنا (ours) ونحكم عليها بأنها صالحة، بينما نصِف معرفة الغرب بأنها غيرية (other) ونحكم عليها بأنها طالحة(٩٣). وبما أن **ساكوما** كان مستعداً لتحمل مسؤولية القول بأن اليابان لا تنتمي إلى الشرق، فإنه حاجج في شأن استقلالية اليابان، ودافع عن ضرورة البحث في أحوال العالم والتخلص من التحجر الذي تفرضه المعرفة الصينية؛ وبالتالي ارتأى ضرورة تأكيد تفرد اليابان وإعلان عدم تبعيتها للصين.

لم يكن **ساكوما** محباً للغرب بقدر ما كان معجباً بالتفوق الغربي، وراغباً في أن يتبع اليابانيون النموذج الغربي ليحققوا ما حققته الدول الغربية من تقدم. فبعد أن زارت سفن **بيري** خليج إيدو، كتب:

في الصيف الأخير، عندما وصلت سفن الأمريكان البرابرة إلى خليج **أوراغا**، كان تصرفهم وطريقتهم في الكلام ينمان عن الغطرسة، ولم تكن إهانتهم لكرامتنا الوطنية بالهينة. . . .

كانت رغبتي دائماً أن نتبع جوهر المبادئ الغربية في التسلح، وأن نستجمع قوتنا. . . . لنشكل مجموعة تتمتع بإرادة قوية تكون غايتها الأولى حراسة الأمة وحماية شعبها.

الرياضيات أساس كل المعارف. وعندما اكتشفت هذه المعرفة في العالم

---

(٩٢) ورد هذا المقتطف في: Hane, *Modern Japan: A Historical Survey*, p. 73.

(٩٣) Harry D. Harootunian, *Toward Restoration; the Growth of Political Consciousness in Tokugawa Japan* (Berkeley, CA: University of California Press, 1970), p. 144.

الغربي، تطورت التقنيات العسكرية بشكل كبير. . . المعرفة النافعة هي تلك التي تكون ضرورية لتلبية حاجات الإنسان(٩٤).

لم يعش **ساكوما شوزان** طويلاً ليرى رؤية العين ما حققته إصلاحات الميجي التي وضع بعضاً من مبادئها (توفي عام ١٨٦٤)، غير أن تلامذته والذين تأثروا بفكره كانوا من كبار دعاة إصلاحات الميجي، أمثال **يوشيدا شوين** ـ الذي سنأتي إلى ذكره ـ و**ساكاموتو ريوما** (Sakamoto Ryōma) و**ناكاأوكا شينتارو** (Nakaoka Shintarō) الذين كانوا ناشطين في الدفاع عن رد الاعتبار إلى الإمبراطور.

ج ـ فوكوزاوا يوكيتشي (١٨٣٥ ـ ١٩١١)

يُعَدّ **فوكوزاوا** من مثقفي عهد الميجي أكثر ممّا يُعَدّ ضمن مثقفي عصر **إيدو**؛ فقد عاصر فترة الميجي بأكملها، وكان من كبار مصلحي التعليم بها، فلا تُذكر الإصلاحات إلا وكان **فوكوزاوا** على رأس قائمة من اضطلعوا بها. ومع ذلك، فهو من نتاج عصر **إيدو** الذي ولد فيه ودرس في المعاهد المتوافرة فيه.

ولد **فوكوزاوا** لأُسرة متواضعة من أُسر الساموراي في **كيوشو**. وبعد أن أتقن القراءة والكتابة وتلقى مبادئ الكونفوشيوسية، على غرار ما يتلقاه أبناء الساموراي من تعليم، قصد ميناء **ناغاساكي** عام ١٨٥٤ بغية الدراسة في معهد الدراسات الهولندية فيها، ومنها انتقل إلى مدينة **أوساكا** ليلتحق بمعهد تاكيجوكو (Takijuku) للغاية ذاتها، أي لتعلم اللغة الهولندية والمعارف الغربية التي كانت تدرّس في هذا الصنف من المعاهد (علم التشريح والكيمياء والفيزياء. . .). وعند استقراره في العاصمة، اكتشف أن اللغة الهولندية غير كافية، فأقبل على تعلم اللغة الإنكليزية بمجهود فردي لعدم وجود معلمين لهذه اللغة. أما النقلة النوعية في سيرته الذاتية والعلمية، فهي سفره إلى الولايات المتحدة وأوروبا. ففي عام ١٨٦٠، جرى اختياره لمرافقة البعثة الرسمية التي كانت مكلفة بتبادل النسخ الرسمية (الموقعة) للمعاهدات التي أبرمها اليابان مع الولايات المتحدة. وقد مكنه سفره هذا وأسفاره التالية إلى دول أوروبية (فرنسا وإنكلترا وهولندا وروسيا والبرتغال) من الاطلاع في المكان عينه على أحوال الأمم الغربية، والتدبر في شؤونها الاجتماعية والاقتصادية. ذلك أن **فوكوزاوا** تمتّع بفضول خاص، وحب للمعرفة مكّناه من التقصي في الأمور التي لا تحويها الكتب، ولا تدرَك إلا بالملاحظة وسؤال الناس.

---

(٩٤) Jansen, *Making of Modern Japan*, pp. 289-290.

وقد وجد **فوكوزاوا**، بعد عودته من رحلته إلى أوروبا، أن اليابان في حال من الغيلان، وأن التيار المعادي للغرب في عنفوانه. وعلى الرغم من الظرف غير المواتي، فإنه تصدى للكتابة وتدوين ملاحظاته ومشاهداته في الغرب، وجمعها في تأليف لاقى إقبالاً منقطع النظير قبيل أشهر من إعلان حركة الميجي (١٨٦٧). حمل هذا التأليف (الذي طُبع منه ما ينيف على ١٥٠ ألف نسخة، كما سبقت الإشارة) عنوان: **سييو جيجو** (Seiyō Jijō) (أشياء غربية أو أحوال أمم الغرب). وتحدث في الجزء الأول منه عن كل مظاهر الحياة العصرية في الدول الغربية: المؤسسات التعليمية والمكتبات والمتاحف والتلغراف والصحف، إلى غير ذلك. ويبدو من هذا التأليف إعجابه الشديد بالمؤسسات التعليمية في الدول التي زارها، ومن ثم جعل من نشر التعليم على الطريقة الغربية همه الأول والأخير إلى حين مماته.

كان **فوكوزاوا** يرى في التعليم أداة للتحرر؛ فالتحرر هو الغاية، والتعليم هي الأداة التي توصل إليها. وكان يميز بين نوعين من التعليم: التعليم الصحيح أو الحقيقي، والتعليم الخاطئ أو المضلل. فالتعليم الصحيح هو ذاك الذي يساعد الناس على تحقيق حريتهم واستقلالهم؛ والتعليم الغربي ينتمي إلى هذا الصنف الذي يدرس الناس المعرفة والمهارت. أما التعليم المضلل، فهو ذاك يعلّم الناس الخضوع وقيم التبعية وخدمة السيد؛ والتعليم الكونفوشيوسي ينتمي إلى هذا الصنف الأخير. وبعبارة أخرى، فإن **فوكوزاوا** دعا إلى قطيعة تامة مع النظم التعليمية والقيم التي سادت في اليابان طوال عصر **توكوغاوا**؛ وبالتالي تخطى فكرة الجمع بين أخلاق الشرق وتقنيات الغرب ـ التي دعا إليها **ساكوما شوزان** ـ إلى التخلي النهائي عن الثقافة الصينية بشقيها الأخلاقي والمعرفي. ومن هذا المنطلق، ظل وجماعة من مثقفي عهد الميجي يدعون إلى نبذ الفكر الكونفوشيوسي الذي يكرس العبودية والفوارق الاجتماعية.

لم يكن **فوكوزاوا** مختصاً بمجال معرفي معيّن، غير أنه كان من رواد إنشاء المدارس والجامعات في عهد الميجي على النمط الغربي. فقد كتب الكثير في الحث على التعليم، ووضع أسس المنهاج الذي يجب أن يتبعه التلاميذ في تحصيلهم للمعرفة في عهد الميجي، والكثير ممّا يخرج عن نطاق بحثنا هذا، لذا ارتأينا أن ندرجه فقط ضمن من دعوا إلى التخلي عن المعارف الصينية قبيل الإصلاحات[٩٥].

---

(٩٥) نود الإشارة هنا إلى أن الباحث المصري رؤوف عباس كتب دراسة قارن فيها بين فوكوزاوا يوكيتشي ورفاعة رافع الطهطاوي، حيث اعتبرهما من رواد التنوير في كل من مصر واليابان في القرن التاسع عشر. وفي اعتقادنا أن الباحث رؤوف عباس كان محقاً في اختيار موضوع هذه المقارنة. انظر: Raouf Abbas =

٦ ـ التيار القومي والدعوة إلى التغيير السياسي

كان كلٌّ من مجيء **بيري** الأول، وعودته ثانية، ثم توقيع المعاهدة الأولى مع الولايات المتحدة والمعاهدات التالية مع الدول الأوروبية دون مصادقة الإمبراطور، بمثابة قنطرة عبر عليها المثقفون وتلامذتهم من ضفة الفكر أو القول إلى ضفة الفعل والعمل السياسي المباشر، بل وحتى العمل المسلح. ففي إثر إقدام **إي ناؤوسوكي** على توقيع معاهدة ١٨٥٨ مع الولايات المتحدة ـ في تحد سافر منه للإمبراطور وعصيان واضح لأوامره ـ ظهر تيار يرفع شعار «سونو جوي» (Sonnô Jôi) (مجدوا الإمبراطور واطردوا البرابرة). وهو ما مثَّل سياسياً دعوة إلى إعادة الاعتبار إلى الإمبراطور وإخراج الأمريكيين والأوروبيين من أرض اليابان، والإبقاء على سياسة العزلة.

كان رافعو هذا الشعار في البداية أقلية من صغار الساموراي في هانات تشوشو (Chôshô) وساتسوما (Satsuma) وميتو (Mito)، أي الهانات التي ستقود الثورة ضد الباكوفو في ما بعد، غير أن صدى دعوتهم تردد في جميع أرجاء اليابان. وكان أغلب هؤلاء شباناً تربوا على قيم الساموراي، وتملكتهم عاطفة جياشة وغيرة قوية على «أرض الآلهة» التي دنسها «البرابرة» (الغربيون). واعتبر هؤلاء الشبان أنفسهم أصحاب رسالة مقدسة، ورأوا أنفسهم في جانب الحق والعدل، وأنهم «الوطنيون» الصادقون، وأن غيرهم ممن يرضى بالاستسلام خونة. غير أن هؤلاء الشبان كانوا يفتقرون إلى بُعد النظر لتبين وضع اليابان الحقيقي والمستجدات التي طرأت على المسرح الدولي. وعلى الرغم من الطوباوية التي طبعت فكر هؤلاء، فإنهم شكّلوا طليعة التيار القومي المتعصب الذي ساد في اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

لم يكن هذا التيار الداعي إلى رد الاعتبار إلى الإمبراطور في بدايته معادياً لسلطات الباكوفو وأُسرة **توكوغاوا**، بقدر ما كان معارضاً لسياسة الاستسلام للأجانب وللسماح لهم بدخول أرض اليابان. ففي الفترة نفسها تقريباً، ظهرت حركة سياسية تدعو إلى الوحدة بين البلاط الإمبراطوري والشجونة للوقوف في

Hamed, *The Japanese and Egyptian Enlightenment: A Comparative Study of Fukuzawa Yukichi and Rifā 'ah al-Ṭahṭāwī* (Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa, 1990). =

وقد قام بترجمة هذا البحث إلى العربية، انظر: رووف عباس، **التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي** (القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١)، ومن الباحثين العرب الذين اهتموا بفوكوزاوا يوكيتشي، نذكر علي المحجوبي (التونسي)، انظر: علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت في اليابان؟** (تونس: مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩)، ص ١٩١ ـ ١٩٩. إضافة إلى رؤوف عباس المشار إلى مؤلفه سابقاً.

وجه الضغوط الأجنبية؛ وكان من متزعميها **توكوغاوا ناريآكي**، دايميو هان **ميتو**، الذي كان مقرباً جداً من رافعي شعار **سونو جوي**. غير أن **إي ناؤوسوكي** الذي أصبح الحاكم الفعلي للبلاد (ابتداء من عام ١٨٥٨) كان يعارض تحالف الدايميو ونبلاء البلاط وتدخّلهم في الشأن العام، فعمل، من جهة، على إحداث تقارب بين الإمبراطور والشجون (من خلال ترتيب زواج أخت الإمبراطور بالشجون إييموتشي)[٩٦]، وعمل من جهة أخرى على اضطهاد الدايميو الذين عارضوا توقيعه المعاهدات مع الدول الغربية دون مصادقة الإمبراطور. وكان من ضحايا هذا الاضطهاد **توكوغاوا ناريآكي** المتحدر من سلالة **إياسو** ذاتها. ونتيجة لذلك، أقدمت مجموعة من رافعي شعار **سونو جوي** على اغتيال **إي ناؤوسوكي** في آذار/مارس ١٨٦٠. ثم انخرط أصحاب هذا التيار والدايميو المعارضون للوجود الأجنبي في عمليات اغتيال الأجانب، ومهاجمة السفن الغربية التي تعبر بالمضايق القريبة من هاناتهم. وهكذا تحول القول إلى فعل على أرض الواقع، وتحول التيار المعادي للأجانب إلى تيار مناهض لأُسرة **توكوغاوا** يسعى إلى إطاحتها، بتعاون مع نبلاء البلاط وأنصار استعادة الإمبراطور لسلطاته التي اغتصبها الساموراي. ومن ثم أيضاً أضحى الولاء للإمبراطور وحده أولاً وأخيراً.

كان وراء الدعوة إلى إعادة الاعتبار إلى الإمبراطور ميراث عقائدي متأصل أعاد إحياءه بعض مفكري القرن السابع عشر، ولاقى إقبالاً لدى دعاة الثقافة الوطنية في القرن الثامن عشر. ويُعَدّ **يامازاكي أنساي** (Yamazaki Ansai) (١٦١٩ ـ ١٦٨٢) من الأوائل الذين شددوا على ضرورة الولاء للإمبراطور في فترة مبكرة من عصر **توكوغاوا**. فعلى الرغم من انتمائه إلى المذهب الرسمي (مذهب **تشو ـ هسي**) ودفاعه عن حكم **توكوغاوا**، فقد اهتم بدراسة ديانة الشنتو، التي أضحى من أشد معتنقيها بعد أن كان راهباً من رهبان الزن في الفترة المبكرة من حياته. وكان من جراء جمعه بين معتقداته الفكرية والدينية، أن أسس مذهباً شنتوياً يؤلف بين الفكر الكونفوشيوسي وديانة الشنتو (مذهب سويكا شنتو). وقد عمل تلامذته من بعده على شرح مبدأ الولاء للإمبراطور من منطلقي التعاليم الكونفوشيوسية والتراث الديني الشنتوي. وفي سياق التيارات الفكرية التي سعت إلى التأليف بين تعاليم الكونفوشيوسية ومبادئ الشنتو، يمكن إدراج التيار الذي ترعرع في هان **ميتو**، والذي أصبح يُعرف بميتوغاكو

(٩٦) أي زواج الأميرة كازو (Kazu) (١٨٤٦ ـ ١٨٧٧)، التي عُقد قرانها على الشجون الرابع عشر إييموتشي ضمن مناورة سياسية كانت من تدبير أعضاء المجلس الاستشاري للشجونة، وذلك بهدف إضعاف التحالف بين الدايميو والبلاط الإمبراطوري. وقد تمّ هذا القران فعلاً في آذار/مارس ١٨٦٢.

(Mitogaku) (أو **مدرسة ميتو**). كان هذا الهان خاضعاً لأُسرة من الدايميو تتحدر من سلالة **توكوغاوا إياسو**، التي كان أفرادها يتمتعون بقدر من الحرمة والحرية، ولهم الحق في تولي منصب الشجون. ففي **ميتو**، جرى تأسيس مركز للبحث التاريخي (شوكوكان Shōkōkan عام ١٦٥٧) حُددت مهمته في جمع مؤلف حول تاريخ اليابان (عُرف هذا المؤلف التاريخي الذي لم ينشر إلا في عام ١٩٠٩ بـ **داي نيهون شي** (Dai Nihon Shi، أي **تاريخ اليابان العظيم**)[٩٧]. وقد استقطب هذا المشروع عدداً من الدارسين والفلاسفة من مختلف المشارب الفكرية (الشنتوية والكونفوشيوسية والبوذية والطاوية)، الذين تمتعوا في ظل الدايميو بقدر من الحرية والجرأة في الكتابة. وفي الوقت نفسه، كان في كتابة تاريخ اليابان على هذا النحو غير المسبوق عودة إلى الأصول الميثولوجية (الشنتوية)، وتأكيد لخصوصية اليابان، وإحياء للروح الوطنية.

تميز من بين المفكرين الذين استقروا في ميتو **فوجيتا يوكوكو** (Fujita Yūkoku) (١٧٧٤ ـ ١٨٢٦) و**أيزاوا سيشيساي** (Aizawa Seishisai) (١٧٨٢ ـ ١٨٦٣)، اللذان كان لهما دور كبير في وضع مبادئ التيار المحافظ الموالي للإمبراطور. والواقع أن التيار الذي ساد بين الدارسين الذين استقطبهم هان **ميتو**، في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، كان تياراً محافظاً «قومياً» وموالياً للإمبراطور. فعندما اتضح التهديد الغربي من جديد، كان رأي أنصار هذا التيار أن الغرب لا يسعى فقط إلى تقويض النظام السياسي والاجتماعي لليابان، بل يسعى أيضاً إلى تقويض السمة الحقيقة للأمة اليابانية، والهوية الحقيقية لأرض الآلهة (شينكوكو Shinkoku). ففي خضم الصراع الذي نشب بين الشجون والإمبراطور، في إثر توقيع المعاهدات غير المتكافئة، كان دايميو **ميتو** في صف الإمبراطور على الرغم من انتمائهم إلى أُسرة **توكوغاوا**. وعموماً يوصف موقف «مدرسة ميتو» بالموقف التوفيقي، أي توفيق بين الولاء للإمبراطور واستمرار حكم **توكوغاوا**. كما كان موقف **توكوغاوا نارياكي** (دايميو ميتو من عام ١٨٢٩ إلى عام ١٨٤٤)، على وجه الخصوص، واضحاً في ما يخص العلاقات التجارية مع الأوروبيين؛ ففي رأيه أن هذه التجارة تفيد الدول الأجنبية، وليس فيها منفعة لليابان، وأن من الضروري توحيد الشعب الياباني ليقف في وجه المد المسيحي ويحمي أرض الآلهة. وقد سبقت الإشارة إلى رأيه المتشدد الذي أبداه عندما استشير،

(٩٧) كُتب هذا التأليف التاريخي على منوال تأريخ مماثل عن الصين.

في إثر مجيء **بيري**، في شأن فتح أبواب اليابان في وجه التجارة الخارجية.

وفي القرن الثامن عشر، ظهرت حركة فكرية مناهضة للكونفوشيوسية تدعو إلى العودة إلى تراث اليابان القومي، وخصه بالدراسة، عوض التراث الصيني. ويُعتبر الشاعر **كادا نو أزومامارو** (Kada no Azumamaro) (١٦٦٩ ـ ١٧٣٦) رائد هذه الحركة؛ فهو أول من اقترح إعادة قراءة أصول العقيدة الشنتوية، وتأسيس مركز للدراسات القومية بغاية إعادة اكتشاف «الطريق القديم» الذي جرى تناسيه بعد الأخذ بـ «طريق الحكماء» الصيني (الكونفوشيوسية). بل ذهب أبعد من ذلك؛ إذ طرح اقتراحاً يرمي إلى استبدال الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها القيم الاجتماعية وحكم **توكوغاوا** بالمبادئ الأخلاقية اليابانية الأصيلة. وقد سار على نهجه تلامذته ومن تأثروا بدعوته، وفي مقدمتهم **كامو نو مابوتشي** (Kamo no Mabuchi) (١٦٩٧ ـ ١٧٦٩)، الذي كان له تأثير كبير في الجيل التالي من دراسي التراث الياباني. و**موتوأوري نوريناغا** (١٧٣٠ ـ ١٨٠١) من هذا الجيل الذي أحدث نقلة نوعية في ما أصبح يُعرف بـ **كوكوغاكو** (Kokugaku) (الدراسات القومية أو الوطنية).

كان **موتوأوري** في بدايته دارساً للكونفوشيوسية، ومختصاً بالطب الصيني، ثم تحول إلى دراسة التراث الياباني الذي خصه بأكثر من ٩٠ مؤلَّفاً. وقد اهتم أولاً بالجانب اللغوي في التراث الأدبي الياباني (من قبيل **حكاية غينجي** لـ **موراساكي شيكيبو** والمجموعات الشعرية التي تعود إلى عصري نارا وهييان). وبعد لقاء له مع **كامو نو مابوتشي** (١٧٦٣)، تغير مجرى دراساته لينصبّ أساساً على المصادر التاريخية الأولى ـ خاصة مؤلف الكوجيكي ـ ويعمل على تأويل رموز الأساطير التي تحويها.؛ إذ يكون بذلك قد وضع أسس الدراسات القومية (كوكوغاكو)، التي سيصبح لها معاهد خاصة بها، شأنها شأن الدراسات الغربية التي استقطبت مناهضي الدراسات الصينية. وغني عن القول إن الاعتناء بالتراث القومي ودراسته تاريخياً ولغوياً وبتحليل رموزه يؤدي حتماً إلى وضع الإمبراطور موقع التقديس، والحنين إلى العهود القديمة التي حكم فيها الأباطرة. ونتيجة لإحياء التراث القومي وانتشاره عبر المعاهد الخاصة، ظهر في القرن التاسع عشر شعاران: كوكوطاي (Kokutai) (للإشارة، فإن «كوكو» تعني الوطن أو البلد)، وسونو المشار إليه سلفاً.

ليست هناك ترجمة دقيقة لشعار كوكوطاي؛ فقد يترجم بـ «الكينونة القومية»، كما يمكن أن يكون معناه «الروح القومية». وهو تعبير عن تفرد اليابان واختلافه

عن البلاد المجاورة، فهو أرض الآلهة يحكمه إمبراطور متحدر من سلالتها. وقد ظهر هذا الشعار أول مرة في كتابة مثقفي القرن السابع عشر لدى كتّاب مدرسة ميتو، مع الإشارة إلى أنه أصبح شعار التيار القومي المتشدد والمتعصب للإمبراطور، الذي ساد منذ إصلاحات الميجي إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. والأمر ذاته بالنسبة إلى ظهور شعار سونو، الذي يعني تمجيد الإمبراطور، والذي رُفع أول مرة في بيانات المدرسة ذاتها في أعقاب عودة الغربيين إلى سواحل اليابان من جديد.

إن أهم من مثّل التيار المناصر للإمبراطور والداعي إلى تغيير النظام السياسي باستعادة الإمبراطور لسلطاته وإلغاء الحكم العسكري لشجونة توكوغاوا، هو **يوشيدا شوين** (Yoshida Shōin) (١٨٣٠ ـ ١٨٥٩)، الذي يُعَدّ المنظّر الأكبر لتيار سونو ـ جوي.

ولد **يوشيدا** لأُسرة من الساموراي كانت ذات رتبة متواضعة في هان **تشوشو** (Chōshū) (محافظة **ياماغوتشي** اليوم)، غير أنها اشتهرت بولائها الإمبراطور. وقد تلقى تعلميه، كأي من أبناء الساموراي، في معهد هان تشوشو، وتخصص بالتقنيات العسكرية وتاريخ الصين. وخلال إحدى زياراته للعاصمة إيدو، التقى **ساكوما شوزان** الذي كان له تأثير كبير في مجرى حياته العملية ومعتقداته السياسية. غير أن النقلة النوعية في فكره السياسي التي حملته إلى بر التطرف، حدثت في إثر حملة **بيري**، والشروط التي فرضها على الشجون. فآنذاك تحول من مجرد داعية يمتهن الكتابة إلى مناضل سياسي يقرن الكتابة بالعمل والتضحية. وكان ممّا أقدم عليه التسلل إلى إحدى البواخر الأمريكية، حيث طلب من ربانها مساعدته للذهاب إلى أمريكا ليدرس التقنيات العسكرية الغربية، إلا أن محاولته باءت بفشل وجعلته عرضة للاضطهاد من سلطات **توكوغاوا**، التي أمرت بوضعه في الإقامة الجبرية، وتجريده من امتيازاته. غير أن حرمانه من حرية التنقل لم يمنعه من النشاط في مجالي التعليم والكتابة، ذلك أنه أنشأ مدرسة في موطنه الأصلي (شوكا سونجوكو (Shôka Sonjuku)) لتدريس أفكاره وإشاعتها بين ساموراي تشوشو، الذين قادوا في ما بعد الثورة ضد الشجون. وفي عام ١٨٥٧، أصدر مؤلَّفاً تحت عنوان **أن تولد سبع مرات**، استوحاه من حياة البطل الشعبي **كوسونوكي ماساشيغي**، الذي خلدته الذاكرة الشعبية كرمز للتضحية في سبيل الإمبراطور **غو ـ دايغو** في القرن الرابع عشر[٩٨]. والواقع أن اختياره هذا

---

(٩٨) جرت في ثنايا هذا الكتاب الإشارة إلى هذا البطل والبُعد الذي اتخذه في تاريخ اليابان حتى الفترة =

البطل بالذات يفصح عن اقتناعه السياسي بضرورة التضحية في سبيل الإمبراطور وإزاحة حكم الساموري[٩٩].

شكّلت كتابات **يوشيدا** ونضاله السياسي وعدم انحنائه لكل أشكال الترهيب، من إقامة جبرية وسجن وتعذيب، نبراساً لتيار سونو ـ جوي، وأيضاً نقطة تحول في فكر التيار القومي. ومن ثم، فهو يُعَدّ رمزاً لإصلاحات الميجي. غير أنه لم يعش طويلاً ليعاين ما دعا إليه؛ ففي عام ١٨٥٩ صدر في حقه حكم بالإعدام، ومن هنا، فإنه يستحق لقب المثقف «المناضل»، بحسب مصطلحات اللغة المعاصرة.

كان من بين من تأثروا بفكر **يوشيدا** وتتلمذوا علي يديه **إيتو هيروبومي** (Itō Hirobumi) (١٨٤١ ـ ١٩٠٩)، الذي يُعتبر واحداً من كبار مهندسي إصلاحات الميجي. وقد ولِد إيتو هيروبومي في هان تشوشو، والتحق في سن مبكرة بمعهد سونجوكو الذي كان يديره يوشيدا، حيث تشبع بأفكاره وأضحى من أشد مناصري قضية الإمبراطور. وفي مرحلة ثانية من الدراسة، التحق بمعهد تدريس المعارف الغربية في ميناء ناغاساكي. وبهذا التكوين المزدوج، الذي جمع بين أفكار التيار القومي والأخذ بالمعارف الغربية، يكون **إيتو هيروبومي** بحق ممثّلاً وداعية لأيديولوجية إصلاحات الميجي، التي جمعت بين قيم التيار المحافظ والأخذ بمبادئ الحضارة الغربية.

تولى **إيتو هيروبومي** رئاسة الحكومة في عهد الميجي مرتين، غير أن أهم ما اشتهر به هو عمله على صوغ دستور ١٨٩٨؛ فقد حرص في أثناء بحثه عن صيغة ديمقراطية غربية تأخذ بها اليابان، على أن يتمتع الإمبراطور بسلطات دستورية واسعة، وأن تُحفظ له الامتيازات كلها، وأن يكون شخصه مقدساً لا يُمس، وهو ما أتاح لزعماء إصلاحات الميجي العمل بحرية باسم الإمبراطور دون مضايقة من برلمان (دايت) يعرقل قراراتهم.

= المعاصرة. وإضافة في هذا الشأن، يروى أن كوسونوكي ماساشيغي سأل أخاه قبل ذهابه إلى المعركة: «إذا كان عليك أن تموت، فماذا تفعل؟»، فأجاب: أتمنى أن أعود إلى الحياة سبع مرات، وفي كل مرة أحاول من جديد القضاء على أعداء الأُسرة الإمبراطورية. وكان ردّ كوسونوكي ماساشيغي: «الآن أدركت جيداً ما يخالج قلبي». وردت هذه الرواية مستشهداً بها في: Harootunian, *Toward Restoration; the Growth of Political Consciousness in Tokugawa Japan*, p. 185.

(٩٩) في ما يخص تفصيلاً إضافياً حول حياة يوشيدا وفكره السياسي، انظر، على سبيل المثال لا الحصر: المصدر نفسه، ص ١٨٤ ـ ٢١٩.

خاتمــة

في مطلع القرن العشرين، تناقلت وكالات الأخبار نبأ انتصار اليابان على الإمبراطورية الروسية، التي كانت قوة عظمى في آسيا وأوروبا يُحسب لها حسابها. وكان الانتصار ساحقاً ومهيناً لهذه الدولة العظمى، وكان الخبر مفاجئاً ومثيراً! ووقْعه عظيماً في جميع أرجاء العالم. فكيف تأتى لدولة صغيرة من دول الشرق أن تنتصر على قوة أوروبية عظمى؟ غير أن الخبر كان ذا وقع خاص في الوطن العربي؛ إذ إنه أحيا الأمل في النفوس، وتحمس له المثقفون والسياسيون الذين رأوا في اليابان نموذجاً يمكن أن يُحتذى، وقدوة لكل دول الشرق، التي كانت تعاني طغيان قوى غربية تمارس هيمنة سياسية وعسكرية على مقدراتها وخيراتها. وهكذا، بدأ اسم اليابان يتردد في الجرائد ومشاريع الإصلاح من الشام إلى المغرب، ونُظمت الأشعار والأراجيز تشيد باليابان وعزيمة أهلها[1]، ذلك أن

---

(١) ممّا وقفنا عليه أرجوزة ألّفها أخنوخ فانوس (ربما في عام ١٩٠٥) تحت عنوان «الأرجوزة العصرية» تبحث، حسب إشارته، «في تاريخ اليابان وأسباب تقدمها، وفي أن كثيراً من الشرائع الدينية جاء بحسب أحول الزمان والمكان». وقد استهلها بـ:

مــا لـــلـيبــاني عـــن خـــبــاه مـــالا	فـــزلـــزل الـــســـهـــول والجـــبـــالا
وذكـــــره أصـــــبـــــح فـــــي الآذان	يــشــجــي نــفــوس الــقــوم كــالألحــان
أضــحــى نــشــيــد الــقــوم فــي الــنــوادي	لم تخـــل مـــنـــه بـــقـــعـــة أو وادي
قـــد حـــيـــر الألـــبـــاب والـــعـــقـــولا	إذ خـــالـــف المعـــقـــول والمنـــقـــولا

وأنهاها بـ:

وهـــكـــذا الملـــوك والـــرعـــيـــة	أنـــعـــم بهـــا مـــن أمـــة عـــلية
فـــهـــذه حـــكـــايـــة اليابـــان	وصـدقـهـا بـالـسـمـع والـعـيـان
عـــســـى تـــكـــون عـــظـــة لـــقـــومـــي	تـــوقـــظـــهـــم مـــن غـــفـــلـــة ونـــوم

أخنوخ فانوس، **الأرجوزة العصرية** (القاهرة: مطبعة الوطن الجديدة، [١٨٧٨]).

انتصار اليابان اعتُبر انتصاراً لدول الشرق كافة (مع التذكير بأن العالم كان حتى مطلع القرن العشرين ما يزال يُقسم إلى دول شرقية وأخرى غربية، دون أخذ الانتماء الديني في الاعتبار)[٢].

تطلع السياسيون العرب إلى أمرين أساسيين في تجربة الإصلاح اليابانية: الديمقراطية المتمثّلة في الدستور، والأخذ بالتقنيات الغربية. وهذا ما نجده مثلاً حاضراً في مشروعي الدستور والإصلاح، اللذين تم اقتراحهما في المغرب في العقد الأول من القرن العشرين[٣]. ونجده، بصورة أو بأخرى، في كتابات المثقفين العرب طوال القرن الماضي، وهي الكتابات التي كثيراً ما استشهدت بالنموذج الياباني وبالميجي وإصلاحاته.

كان هذا التطلع تطلعاً مشروعاً، خاصة في مطلع القرن العشرين، حيث كان في إمكان الأقطار العربية، في رأي سياسييها ومثقفيها، اللحاق بالغرب إن هي حذت حذو اليابان. ولا نرغب هنا في مناقشة صواب أو خطأ هذا التطلع، لكن ما نؤاخذ عليه المثقفين العرب عموماً والأكاديميين خصوصاً هو عدم مواكبة هذا الإعجاب بالتجربة اليابانية بالدراسة والتمحيص.

فكل ما صدر في الوطن العربي، خلال القرن العشرين، عن اليابان من

---

(٢) في مصر، ألّف الزعيم السياسي الشهير مصطفى كامل باشا كتاباً عن تاريخ اليابان في عام ١٩٠٤ (هو في واقع الأمر كتاب تصرف في ترجمته)، دعا فيه إلى اتخاذ اليابان مثالاً يعيد الأمل إلى النفوس. وممّا جاء في مقدمته: لقد كان البعض منا معاشر الشرقيين يقول ويلقن هذا القول للصغار والكبار إننا أمم انقضى دورها ودالت الأيام على مدنيتها ومحا الزمان وجودها السياسي وليس في وسعها التسلح بمدنية أوربا ومقاومتها بها. وأنه لا بد من الاستسلام للغرب وقبول حكمه وسلطانه بلا عمل للحاضر وبغير جهاد في سبيل المستقبل. فقامت أمة اليابان مكذبة لهذه الدعوى، منادية الشرقيين أجمعين بأن طريق الارتقاء ميسر لقصاده وأن من جد وجد وكل من سار على الدرب وصل. انظر: مصطفى كامل، **الشمس المشرقة** (القاهرة: مطبعة اللواء، ١٩٠٤)، ص ٣ ـ ٤.

(٣) ورد ذكر اليابان في مشروع الدستور الذي اقترحه العالم السوري عبد الكريم مراد الطرابلسي على المغاربة عام ١٩٠٧. يقول في الديباجة: ولا ينكر ما كان عليه اليَابان قبل ثلاثين سنة من الانحطاط وتفرق الكلمة بسبب الاستبداد وهجوم ملوك أوروبا على مملكة اليابان. . . فبعد ذلك تيقظوا لما أوروبا من الطمع في استملاك بلادهم بطريق سياسي، فجمعوا كلمتهم، ورجع سلطانهم عن الحكم المطلق إلى المشورة، فأسس مجلس نواب الأمة، وانتخب له أعضاء من كل بلد وشعب في المملكة.

ويقول في فقرة أخرى:

وعلى ذلك يمكن لحكومة المغرب أن تبلغ ما بلغته اليابان في أقرب وقت، إذا اقتفت أثر اليابان بالاجتهاد ونفع العامة وأخذ العلوم الصناعية والوقتية الموافقة للأحكام الشرعية.

دراسات ومترجمات في مختلف المجالات ـ التاريخ والأدب والفلسفة والرحلة. . ـ[٤] يُحسب بالعشرات، ولا يتعدى في أحسن الأحوال ١٠٠ مؤلَّف، كان حظ الدراسات التاريخية منها مؤلَّفات تُحسب على أصابع اليد الواحدة.

وما نعيبه على من اهتموا بتاريخ اليابان أنهم وقفوا فقط عند إصلاحات الميجي. فأهم دراسة تاريخية في الوطن العربي هي تلك التي ألفها **رؤوف عباس** عن «المجتمع الياباني في عصر الميجي»[٥]، تليها الدراسات التي قام بها مسعود ضاهر[٦] والتي تجمع بين التاريخ والكتابة السياسية. وفي اعتقادنا، أن الاهتمام بإصلاحات الميجي له ما يبرره بسبب أن المثقفين العرب تطلعوا أساساً إلى هذه الفترة الحاسمة في تاريخ اليابان، واعتبروا ما حدث فيها نموذجاً وتجربة يجب تقليدها. غير أن إصلاحات الميجي لا يمكن أن تدرَك إن هي أُخذت بمعزل عن تاريخ اليابان ككل، أو بمعزل عن مكوناته الثقافية؛ كما لا يمكن أن تُدرس من خلال الاقتصار على أحداث القرن التاسع عشر. فحركة التحديث في اليابان لم تبدأ مع إصلاحات الميجي، بل مرت بسيرورة دامت قروناً قبل أن تتبلور في صورة إصلاحات تبدو أول وهلة «قفزة» نوعية في تاريخ اليابان.

هذه الدراسة التي قمنا بها هي محاولة لسد هذا النقص والتقصير في العمل الأكاديمي، نأمل أن تتلوها دراسات أخرى تهتم، ليس باليابان فحسب، لكن أيضاً بتاريخ الشرق الأقصى وثقافته التي تكاد تغيب في مناهجنا التعليمية. واليوم نتطلع إلى نموذج ماليزيا ـ البلد الإسلامي في ذاك الشرق الذي حقق «قفزة» نوعية ـ فماذا يعرف طلبتنا عن تاريخ ماليزيا وخصوصيات الإسلام فيها؟ ولعل الدراسة الوحيدة التي قارنت بين الثقافة الإسلامية في شرق العالم

---

(٤) كان ممّا فعلناه في أثناء القيام بهذا البحث هو جمع الدراسات التي وضِعت عن اليابان في الوطن العربي وكذا الأدب الياباني المترجم إلى العربية. فخلال زياراتنا للقاهرة ودمشق وعمان وبيروت، كنا نحرص على اقتناء كل ما هو متوافر في المكتبات عن اليابان. وكانت النتيجة مجموعة لا تزيد على أربعين كتاباً.

(٥) بالإضافة إلى هذا التأليف، هناك مؤلف آخر لرؤوف عباس كان قد وضعه في الأصل بالإنكليزية، وترجمه إلى اللغة العربية، ونشره تحت عنوان: **التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكتشي** (القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١).

(٦) مسعود ضاهر: **النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج**، عالم المعرفة؛ ٢٥٢ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٩)، و**النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربياً** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢).

الإسلامي وغربه، هي تلك التي قام بها الباحث الأمريكي **كليفورد غيرتز** (Islam Observed) منذ ما ينيف على ثلاثة عقود، والتي قارن فيها بين الإسلام في المغرب وإندونيسيا[٧].

لا ندعي في هذه الدراسة أننا قمنا بفتح جديد في تاريخ اليابان، أو أننا أضفنا إليه شيئاً جديداً؛ فذاك أمر يعسر في خضم الكم الهائل من الدراسات التي كتبت عن اليابان خلال المئة سنة الأخيرة، ولا يتأتى إلا لمتخصص عارف بدقائق تاريخ اليابان وثقافته ومتضلع في اللغة اليابانية. وما ننسبه إلى أنفسنا هو القيام بقراءة متأنية في تاريخ اليابان، اعتماداً على ما هو متوافر من دراسات جادة ومتخصصة لم ندخر جهداً للحصول عليها.

صحيح أننا لم نأت بشيء جديد، غير أن دراستنا هاته لا بد أن تحمل طابعاً خاصاً؛ فمهما ادعينا من موضوعية، نبقى محكومين بثقافتنا وواقع مجتمعنا وتاريخه وانشغالاته. وهي عوامل لا بد من أن تكون أثّرت في قراءتنا لتاريخ اليابان والكتابة عنه. فبوعي منا أو دون وعي، نكون مارسنا عملية انتقاء في ما ركزنا عليه، وفي ما أهملناه أو تغاضينا عنه، مّما وقعت عليه عيننا في تاريخ اليابان.

لماذا اليابان؟

تحت هذا العنوان المثير، كتب **شارل عيساوي** في عام ١٩٨١[٨] مقالاً يتساءل فيه عن أسباب نجاح تجربة التحديث في اليابان بينما فشلت في مصر. وفي رأيه، وهو الخبير بالتاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط، أن مصر كانت تتوافر على جل المقومات الاقتصادية وغيرها من المقومات التي تمكّنها من السير على درب التحديث، وأنها تميزت من اليابان بمواردها الزراعية وموقعها الاستراتيجي. ولم يجد **عيساوي** من تبرير لتفوق اليابان على مصر سوى في الثلاثة قرون من السلم التي نعمت بها اليابان في عصر **توكوغاوا**، والتطورات التي عرفها المجتمع الياباني خلاله، وفي التجربة الفيودالية التي مر بها. وباعترافه بفضل هذا البعد التاريخي، يكون **عيساوي** قد صحح رأياً أبداه عام ١٩٥٢ قال

---

(٧) Clifford Geertz, *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1968).

(٨) سبقت الإشارة إلى هذا المقال في صيغته الأصلية (باللغة الإنكليزية) وترجمته إلى اللغة العربية.

فيه: «لو كان قُدّر لمصر أن تُحكم في ذلك الوقت على يد حكومة وطنية ومستنيرة، لكانت قد بزغت في القرن العشرين كصورة مصغرة لليابان»[٩]. وهو رأي لم يكن يجانب الصواب؛ فمن ميزات إصلاحات الميجي أنها كانت نابعة من زعماء وطنيين متشبعين بفكر قومي خالص، بينما كان **محمد علي** أجنبياً غريباً عن مصر، يريد تكريس الحكم في أُسرته والاستفراد بإقليم تابع للإمبراطورية العثمانية.

تبنينا في هذا البحث مقاربة تعتمد تفسيراً ثقافياً بعيد المدى، فالتخلف والتقدم لا يحدثان فجأة بين عشية وضحاها، ذلك أن البحث في أسباب النهضة الأوروبية يتطلب الغوص في تاريخ أوروبا ومتابعة مسارها منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أي منذ نشأة المدن الإيطالية. والأمر ذاته بالنسبة إلى تراجع العالم الإسلامي في الفترة ذاتها أيضاً. وهو ما يصدق كذلك على التحديث في اليابان، إذ يجب عدم الاقتصار في تفسير إصلاحات الميجي على نباهة زعمائها وصواب قراراتهم وظرفية القرن التاسع عشر؛ فلولا وجود أرض خصبة ما وجد مثل أولئك الزعماء، وما أينعت وأثمرت جهود الإصلاح.

أبرزنا في القسم الأول من هذه الدراسة محددات الثقافة اليابانية التي ساهمت، بشكل أو بآخر، في نجاح اليابانيين، وفي مقدمتها المحدد الإيكولوجي الذي أكسب اليابانيين تفرداً وارتباطاً قوياً بالمجال وصل إلى حد التقديس، وفي بلورة شخصية تتسم بالصرامة والانضباط وبحس جمالي مرهف، وأيضاً في تجانس ثقافي وعرقي ـ إلى حد ما ـ أساسه لغة متفردة ومعتقد ديني يقدس الإمبراطور ويسترضي الطبيعة. ففي أرضية هذا المجال المنعزل، نبتت وترعرعت ثقافة قومية ذات ملامح قوية يصعب محوها؛ ثقافة تنفتح على ثقافة الآخر، غير أنها ثقافة تنتقي وتستوعب ما تراه ملائماً لها وتكيفه لمعطياتها؛ ثقافة تتأثر بالثقافات الوافدة غير أنها لا تنصهر فيها أو تفقد شيئاً من أصالتها. وفي تعامل اليابانيين مع الثقافة الصينية خير دليل. ففي القرن الثامن عشر، أي بعد انصرام ما ينيف على اثني عشر قرناً على حضور تلك الثقافة في المجتمع الياباني، برهنت الثقافة القومية على حيويتها وصمودها؛ إذ كانت الأساس لتيار قومي يدعو إلى التخلي عن الثقافة

(٩) انظر: شارل عيساوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ١٨٩.

الصينية وإحياء القيم الأصيلة التي شكلت جوهر إصلاحات الميجي، التي دعت إلى استعادة الإمبراطور سلطاته.

ولكن كيف كان التقدم الياباني ممكناً في القرن التاسع عشر؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال **أولاً** من خلال دراسة مكونات النظامين الاجتماعي والسياسي، التي كانت سبباً في الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي نعمت به اليابان خلال عصر توكوغاوا، أي ما ينيف على قرنين ونصف قرن، و**ثانياً** من خلال إبراز المظاهر التي ارتأينا أنها وضعت اليابان على سكة التحديث قبل إصلاحات الميجي.

وما حاولنا الدفاع عنه في هذا الكتاب هو أن خصوصية اليابان الثقافية من جهة، والتطورات التي خبرها المجتمع الياباني خلال عصر توكوغاوا من جهة أخرى، هي التي ميزت اليابانيين من غيرهم من شعوب «الشرق»، وهيأتهم في نهاية القرن التاسع عشر للانخراط في حركة تحديث.

وقد أوضحنا في فقرة سابقة خصوصية الثقافة اليابانية ودور العامل الإيكولوجي الذي كان سبباً في التجانس الثقافي والشعور بالانتماء القومي. وما يمكن أن نضيفه هو أن المجتمع الياباني تميز من بعض دول «الشرق» بعدم خضوعه لتشريعات صارمة ـ من أصل ديني ـ تقيد حرية الإنسان، وتفرض عليه سلوكاً معيّناً؛ فجوهر ديانة الشنتو هو استرضاء قوى الطبيعة لتحقيق رفاهية الإنسان، بينما اتخذت البوذية في اليابان صيغة هدفها تهدئة أرواح الموتى ومنعها من العودة ثانية إلى دنيا الآلام. فهاتان الديانتان، اللتان تعايشتا في المجتمع الياباني على نحو مثير، لم تشكل أيٌّ منهما معايير تقاس بها أو تخضع لها القرارات السياسية وغيرها. فعندما أقدم زعماء الإصلاح على الأخذ بمبادئ الحضارة الغربية لم يجدوا أمامهم كهنة أو طبقة من رجال الدين يمكن أن يقفوا في وجههم أو يعترضوا على قراراتهم، بل على النقيض من ذلك، وجدوا في ديانة الشنتو عوناً على تحقيق دولة مركزية برئاسة إمبراطور يحظى بالتقديس في تلك الديانة.

أما التطورات التي عرفها المجتمع الياباني خلال عصر توكوغاوا، فقد هيأت اليابانيين لينخرطوا في التحديث، ويقيموا دولة حديثة. فجُل مقومات التحديث ـ بحسب المعايير «الفيبرية» وغيرها من المعايير الغربية ـ كانت متوافرة في المجتمع الياباني في منتصف القرن التاسع عشر، كما أن اليابان عرفت

تطوراً يماثل إلى حد ما إلى التطور الذي عرفته بعض الدول في غرب أوروبا في ذات الفترة، أي:

- نمو اقتصادي وديمغرافي ماثل ما عرفته إنكلترا وبعض دول أوروبا؛
- ارتفاع نسبة العارفين بالقراءة والكتابة، وانتشار المعرفة عبر كتاب ميسر بالطبع، وتخلص الكتابة والتعليم من هيمنة المؤسسة الدينية؛
- برجوازية صاعدة تتمتع بثروة هائلة وبتجربة في المعاملات التجارية والممارسات الرأسمالية (الإقراض وتسيير المقاولات ذات الاختصاصات والفروع المتعددة. . .)
- توسع العمران وارتفاع نسبة سكان الحضر؛
- تجربة بيروقراطية وبداية الأخذ بمبدأ الاستحقاق؛
- ثقافة حضرية متمثلة في الرسم والمسرح ومختلف الفنون؛
- بنية تحتية متمثلة في طرق معبدة؛
- هيمنة على المجال تتمثل في الدفاع والعلاقات الخارجية والمواصلات والطرق؛
- مجتمع منضبط (ولا شك أن مجتمعاً منضبطاً هو أقرب إلى التحديث من مجتمع تعمه الفوضى وعدم الامتثال للقوانين).

ولو طلب مني أحد أن ألخّص سبب نجاح اليابانيين في عامل واحد لأجبت دون تردد: «السعي في طلب المعرفة»؛ فابتداء من أواخر القرن السادس إلى القرن الثامن الميلادي، بادرت الإمبراطورية اليابانية إلى إرسال البعثات إلى الصين ليأخذ أفرادها المعرفة في مظانها، واستقدمت معلمين صينيين ليعلّموا اليابانيين في المكان عينه. وفي القرن الثامن عشر، سعى الدارسون اليابانيون إلى اكتساب المعارف الغربية على الرغم من ظروف سياسة العزلة التي تحرم الاتصال بالغربيين. وفي القرن التاسع عشر، كانت بدايات التحديث بإرسال البعثات الطلابية إلى الدول الغربية، التي شُرع فيها قبل إصلاحات الميجي بحوالى عقد من الزمن، ثم باستقدام أساتذة غربيين وإقامة مدارس وجامعات على النمط الغربي بعد قيام الإصلاحات. ففي كلتا الحالتين ـ أي مع الصين وأوروبا ـ تصرف اليابانيون عن رغبة واقتناع، وسعوا إلى معرفة لم

تُفرض عليهم. ولعل هذا السعي الإرادي هو ما مكّن اليابانيين من عملية انتقاء ما يأخذونه من الغير. وقبل الأخذ بمبادئ الحضارة الغربية، أرسل زعماء الإصلاح بعثات إلى الدول الغربية المتقدمة ـ بل وإلى مصر ـ للبحث عن الأجود والأكثر ملاءمة لهم؛ فمن فرنسا أخذوا النظام القانوني، ومن ألمانيا اقتبسوا دستور ١٨٨٩، ومن إنكلترا استفادوا التقنيات العسكرية والبحرية، ومن أمريكا: النظام التعليمي.

وإلى اليوم، ما يزال طلب المعرفة سمة تلازم اليابانيين.

المراجــع

١ ـ العربيـة

كتب

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. **المسالك والممالك** = *Kitab al-Masalik Wa'l-Mamalik*، تحقيق ميخائيل جان دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٨. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق. **الفهرست**. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، [د. ت.]. ١٠ ج.

حقائق عن اليابان. طوكيو: الجمعية الدولية للمعلومات التربوية، [د. ت.].

بوشرب، أحمد. **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**. الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٤.

دايساكو، إكيدا. **حياة البوذا: سيرة مفسرة**. ترجمة محمود منقذ الهاشمي. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٢.

رايشاور، أدوين. **اليابانيون**. ترجمة ليلى الجبالي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩. (عالم المعرفة؛ ١٣٦)

رشاد، عبد الغفار. **التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٤.

ستيبتشفيتش، ألكسندر. **تاريخ الكتاب: القسم الأول**، ترجمة محمد الأرناؤوط، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢. (عالم المعرفة؛ ١٦٩)

ـــــ . **تاريخ الكتاب: القسم الثاني**. ترجمة محمد الأرناؤوط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣. (عالم المعرفة؛ ١٧٠)

ضاهر، مسعود. **النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٩. (عالم المعرفة؛ ٢٥٢)

ـــــ . **النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربياً**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢.

عباس، رؤوف. **التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي**. القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١.

ـــــ . **المجتمع الياباني في عصر الميجي**. القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٠.

عبد الرزاق، فوزي. **مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب، ١٨٦٥ ـ ١٩١٢**. تعريب خالد بن الصغير. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٦.

عيساوي، شارل. **تأملات في التاريخ العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.

فانوس، أخنوخ. **الأرجوزة العصرية**. القاهرة: مطبعة الوطن الجديدة، [١٨٧٨].

فوجل، إزرا ف. **المعجزة اليابانية**. ترجمة يحيى زكريا. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦. (سلسلة الآلف كتاب الثاني)

كامل، مصطفى. **الشمس المشرقة**. القاهرة: مطبعة اللواء، ١٩٠٤.

كريكل، هـ. ج. **الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج**. ترجمة عبد الحليم سليم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.

الكوجيكي «وقائع الأشياء القديمة» الكتاب الياباني المقدس. ترجمة وتحقيق محمد عضيمة. بيروت: دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩.

كولر، جون. **الفكر الشرقي القديم**. ترجمة كامل يوسف حسين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٥. (عالم المعرفة؛ ١٩٩)

مجموعة من الكتاب اليابانيين. **خفايا المعجزة اليابانية**. ترجمة وتحقيق عبد الله مكي القروص. بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ١٩٩٩.

المحجوبي، علي. **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت في اليابان**. تونس: مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩.

المشيقح، عبد الرحمن بن صالح. **التفوق الياباني وملامح التجربة العربية**. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٦.

نيتوبي، إينازو. **البوشيدو: روح اليابان**. ترجمة نصر حامد أبو زيد. الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣.

يوتاكا، تازاوا [وآخرون]. **التاريخ الثقافي لليابان: نظرة شاملة**. طوكيو: وزارة الخارجية ـ إدارة الشؤون الثقافية، ١٩٩٢.

يوكيتشي، فوكوزاوا. **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**. ترجمة كامل يوسف حسين. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١.

دوريات

المنوني، محمد. «صناعة الأسلحة النارية بالمغرب.» **مجلة دعوة الحق** (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط): السنة ١٣، العدد ٨، ١٩٧٠.

أطروحات ورسائل

جونغ مينغ، كيم. «تحديث مشكلة التأويل: مقاربة للنظرة الرشدية في الفكر الحديث.» (أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، أكدال، ٢٠٠١).

ندوات ومؤتمرات

العرب واليابان: حوار غربي ياباني حول الحضارة والقيم والثقافة في اليابان والوطن العربي. تحرير وتقديم السيد يسين. عمّان: منشورات منتدى الفكر العربي، ١٩٩٢.

النهضة وتفاعلاتها في العالم العربي واليابان منذ القرن التاسع عشر: فعاليات اللقاء الفكري المنتظم بقصر بيت الحكمة، ٢٥ جانفي ٢٠٠١. قرطاج: بيت الحكمة، ٢٠٠١.

٢ ـ الأجنبية

Books

Abbas Hamed, Raouf. *The Japanese and Egyptian Enlightenment: A Comparative Study of Fukuzawa Yukichi and Rifa 'ah al-Ṭahtāwī*. Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa, 1990.

Beasley, William G. *The Meiji Restoration*. Stanford: Stanford University Press, 1972.

Beaux, Gilberte [et al.]. *La Leçon Japonaise*. Préface de Raymond Barre. Paris: Plon, 1992.

Bellah, Robert Neelly. *Tokugawa Religion; the Values of Pre-Industrial Japan*. Boston, MA: Beacon Press, 1970.

Benedict, Ruth. *The Chrysanthemum and the Sword: Patterns of Japanese Culture*. Tokyo: Tuttle, 1982.

Black, Cyril E. [et al.]. *The Modernization of Japan and Russia: A Comparative Study*. New York: Free Press, 1975.

Bloch, Marc. *La Société feodale: La Formation des liens de dependence*. Paris: Albin Michel, 1968. (L'Évolution de l'humanité. Synthèse collective; 34)

The Book of Ser Marco Polo: The Venetian, Concerning the Kingdoms and Marvels of the East. Translated and Edited by Henry Yule. London: J. Murray, 1921. 2 vols.

Bozan, Jian [et al.]. *Histoire générale de la Chine*. Beijing: Editions en Langues Etrangères, 1985.

The Cambridge History of Japan. General Editors John W. Hall [et al.]. Cambridge, UK; New York: Cambridge University Press, 1989-1999, 1996-1997. 6 vols.

Centre for East Asian Cultural Studies. *The Meiji Japan through Contemporary Sources*. Tokyo: The Centre, [1969-1972]. 3 vols.

Chibbett, David. *The History of Japanese Printing and Book Illustration*. Tokyo: Kodansha, 1977.

Clavell, James. *Shogun: A Novel of Japan*. New York: Dell Publishing Co., 1979.

Cocks, Richard. *Diary of Richard Cocks: Cape-Merchant in the English Factory in Japan, 1615-1622*. New York: B. Franklin [1964?]. 2 vols.

Collcutt, Martin, Marius Jansen and Isao Kumakura. *Cultural Atlas of Japan*. New York: Facts on File, 1991.

Cooper, Michael. *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543-1640*. Berkeley, CA: University of California Press, 1981. (Publications of the Center for Japanese and Korean Studies)

Coulborn, Rushton (eds.). *Feudalism in History*. Hamden, Conn.: Archon Books, 1965.

Davis, Winston. *Japanese Religion and Society: Paradigms of Structure and Change*. Albany, NY: State University of New York Press, 1992.

Doi, Takeo. *The Anatomy of Dependence*. Translated by John Bester. Tokyo: Kodansha International, 1989.

Dore, Ronald Philip. *Education in Tokugawa Japan*. Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1992.

Dumont, Louis. *Homo hierarchicus, essai sur le système des castes*. [Paris]: Gallimard, 1966.

Dunn, Charles J. *Everyday Life in Traditional Japan*. Tokyo: Tuttle, 2000.

Earl, David Magarey. *Emperor and Nation in Japan: Political Thinkers in Tokugawa Period*. Seattle: University of Washington University, 1964.

Ebrey, Patricia Buckley. *The Cambridge Illustrated History of China*. Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1996.

Elison, George and Bardwell L. Smith (eds.). *Warlords, Artists and Commoners: Japan in the Sixteenth Century*. Honolulu: University Press of Hawaii, 1981.

Encyclopedia Britannica (2000).

Encyclopedia Universalis (2000).

Four Major Plays of Chikamatsu. Translated by Donald Keene. New York: Columbia University Press, 1961.

Fukuzawa Yukichi on Education: Selected Works. Translated and edited by Eiichi Kiyooka. Introduction by Kazuyoshi Nakayama. [Tokyo]: University of Tokyo Press, 1985.

Ganshof, F. L. *Qu'est-ce que la féodalité*. 5ème éd. Paris: Tallandier, 1989. (Approches)

Geertz, Clifford. *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1968.

Gerstele, C. Candrew (ed.). *18th Century, Japan: Culture and Society*. London: Cruzon Press, 1989.

Graig, Albert M. (ed.). *Japan: A Comparative View*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979.

Griffis, William E. *The Mikado's Empire: A History of Japan from the Mythological Age to Meiji Era*. Tokyo: ICG Muse, Inc. 2000.

Hall, John Whitney and Marius B. Jansen (eds.). *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968.

A Handbook of Korea. Seoul: Samsung Moonwha Printing, 1998.

Hane, Mikiso. *Modern Japan: A Historical Survey*. 2nd ed. Oxford: West View Press, 1992.

______ . *Peasants, Rebels, and Outcastes: The Underside of Modern Japan*. New York: Panthen Books, 1982.

______ . *Premodern Japan: A Historical Survey*. San Francisco: Westview Press, 1991.

Hanley, Susan B. *Everyday Things in Premodern Japan: The Hidden Legacy of Material Culture*. Berkeley, CA: University of California Press, 1999.

______ and Kozo Yamamura. *Economic and Demographic Change in Preindustrial Japan, 1600-1868*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977.

Harootunian, Harry D. *Toward Restoration; the Growth of Political Consciousness in Tokugawa Japan*. Berkeley, CA: University of California Press, 1970.

Hearn, Lafcadio. *Japan: An Attempt at Interpretation*. Tokyo: Tuttle, 2001.

Henri, Cordier. *Histoire générale de la Chine et de ses relations avec les pays étrangers depuis les temps les plus anciens jusqu'à la chute de la dynastie mandchoue*. Paris: Paul Geuthner, 1920. 4 vols.

Hérail, Francine. *Histoire du Japon des origines à la fin de l'époque Meiji*. Paris: Publications Orientalistes de France, 1989.

Howe, Christopher. *The Origins of Japanese Trade Supremacy: Development and Technology in Asia from 1540 to the Pacific War*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1996.

Ibrahim, Ibrahim (ed.). *Arab Resources: The Transformation of a Society*. Edited by. Washington, DC: Center for Contemporary Arab Studies; Georgetown University; London: Croom Helm, 1983.

Ikegami, Eiko. *The Taming of the Samurai: Honorific Individualism and the Making of Modern Japan*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995.

Jannetta, Ann Bowman. *Epidemics and Mortality in Early Modern Japan*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987.

Jansen, Marius B. *China in the Tokugawa World*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992.

______ . *Making of Modern Japan*. Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2000.

Japan in Transition, from Tokugawa to Meiji. Edited by Marius B. Jansen and Gilbert Rozman. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988.

Japan: Profile of a Nation. Tokyo; New York: Kodansha International, 1995.

Kaempfer, Engelbert (ed.). *Kaempfer's Japan: Tokugawa Culture Observed*. Translated by Beatrice M. Bodart-Bailey. Honolulu: University of Hawaii Press, 1999.

Kasahara, Kazuo (ed.). *A History of Japanese Religion*. Translated by Paul McCarthy and Gaynor Sekimori. Tokyo: Kosei Publishing, 2001.

Keene, Donald. *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1969.

______ . *Seeds in the Heart: Japanese Literature from Earliest Times to the Late Sixteenth Century*. New York: Henry Holt, 1993.

______ . *World Within Walls: Japanese Literature of the Pre-Modern Era, 1600-1867*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1999.

Kodansha Encyclopedia of Japan. Tokyo; New York: Kodansha, 1983. 9 vols.

The Kojiki: Records of Ancient Matters. Translated by Basil Hall Chamberlain. Tokyo: Charles E. Tuttle Company, 1993.

Kokichi, Katsu. *Musui's Story: The Autobiography of a Tokugawa Samurai*. Translated by Teruko Craig. Tucson: University of Arizona Press, 1988.

Laffont, Robert (eds.). *Histoire du développement culturel et scientifique de l'humanité*. Paris: UNESCO, 1969. 2 vols.

Lansen, George A. *The Russian Push Toward Japan: Russo-Japanese Relations 1697-1875*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1959.

Lehmann, Jean Pierre. *The Roots of Modern Japan*. New York: St. Martin Press, 1982.

Leupp, Gary P. *Servants, Shophands, and Laborers in the Cities of Tokugawa Japan*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Lu, David J. *Japan: A Documentary History*. Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1997. 2 vols.

Maruyama, Masao. *Studies in the Intellectual History of Tokugawa Japan*. Translated by Mikiso Hane. Tokyo: University of Tokyo Press, 1989.

Mass, Jeffrey P. and William B. Hauser. *The Bakufu in Japanese History*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1985.

Massarella, Derek. *A World Elsewhere: Europe's Encounter with Japan in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*. New Haven, CT: Yale University Press, 1990.

McClain, James L. *Kanazawa: A Seventeenth Century Japanese Castle Town*. New Haven, CT: Yale University Press, 1982.

______ , John M. Merriman and Ugawa Kaoru (eds.). *Edo and Paris: Urban Life and the State in the Early Modern Era*. Ithaca: Cornell University Press, 1997.

Nakamura, Hajime. *Ways of Thinking of Eastern Peoples: India, China, Tibet, Japan*. Edited by Philip P. Wiener. Honolulu: East-West Center Press [1964].

Nakane, Chie. *Japanese Society*. Berkeley, CA: University of California Press, 1972 (1970).

______ and Shinzabur Oishi (eds.). *Tokugawa Japan: The Social and Economic Antecedents of Modern Japan*. Edited by Conrad Totman. Tokyo: University of Tokyo Press, 1990.

Nihongi; Chronicles of Japan from the Earliest Times to A.D. 697. Translated by W. G. Aston; introd. by Terence Barrow. Rutland, VT: C. E. Tuttle, [1972]. 2 vols.

Nivison, David S. and Arthur F. Wright (eds.). *Confucianism in Action*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1959.

Nosco, Peter. *Remembering Paradise: Nativism and Nostalgia in Eighteenth Century Japan*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1990. (Harvard-Yenching Institute Monograph Series; 31)

Ooms, Herman. *Tokugawa Ideology: Early Constructs, 1570-1680*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989.

Packard, Jerrold M. *Sons of Heaven: A Portrait of the Japanese Monarchy*. New York: Scribner, 1987.

Papinot, Edmond. *Historical and Geographical Dictionary of Japan*. Tut Books. R. Rutland, VT: C. E. Tuttle, [1972].

Passin, Herbert. *Society and Education in Japan*. Tokyo: Kodansha International, 1982 (1965).

Perrin, Noel. *Giving Up the Gun: Japan's Reversion to the Sword, 1543-1879*. Boston, MA: Nonpareil Books, 1999.

Report on Japan to the Secret Committee of the English East India Company, by Sir Stamford Raffles, 1812-1816, with preface by M. Paske-Smith. Kobe, Japan, J.L. Thompson and Co., Ltd., 1929.

Rubinger, Richard. *Private Academies of Tokugawa Japan*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1982.

Saikaku, Ihara. *Five Women who Loved Love*. Translated by WM. Theodore de Bary. Tokyo: Tuttle Publishing, 2003.

______ . *The Great Mirror of Male Love*. Translated by Gordon Schalow. Stanford, CA: Stanford University Press, 2003.

______ . *The Life of an Amorous Man*. Translated by Kenji Hamada. Tokyo: Tuttle Publishing, 2001.

______ . *The Life of an Amorous Woman*. Translated by Ivan Morris. New York: A New Directions Books, 1969 (UNESCO Collection of Representative Literary Works)

Sansom, George Bailey. *A History of Japan*. Tokyo: Tuttle, 1990. 2 vols.

Vol. 1:*1334-1615*.

Vol. 2: *1615-1867*.

______ . *A History of Japan to 1334*. Tokyo: Tuttle, 1990.

______ . *Japan: A Short Cultural History*. Revised ed. Tokyo: Tuttle, 1997.

Saris, John. *The Voyage of Captain Saris to Japan, 1613*. Edited by Ernest M. Satow. London: Printed for the Hakluyt Society, 1900.

Sawada, Janine Anderson. *Confucian Values and Popular Zen: Sekimon Shingaku in Eighteenth-Century Japan*. Honolulu: University of Hawaii Press, 1993.

Select Documents on Japanese Foreign Policy 1853-1860. Translated and edited by William G. Beasley. London; New York: Oxford University Press, 1955.

Shively, Donald H. (eds.). *Personality in Japanese History*. Ann Arbor, MI: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1995.

Simon, Brian. *The Two Nations and the Educational Structure, 1780-1870*. London: Lawrence and Wishart, 1981.

Smith, Thomas C. *The Agrarian Origins of Modern Japan*. Stanford, CT: Stanford University Press, 1975.

______ . *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920*. Berkeley, CA: University of California Press, 1989.

Statler, Oliver. *Shimoda Story*. Tokyo: Charles E. Tuttle Company, 1969.

Suzuki, Daisetz Teitaro. *Zen and Japanese Culture*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958.

Tamaru, Noriyoshi and David Reid (eds.). *Religion in Japanese Culture: Where Living Traditions Meet a Changing World*. Tokyo; New York: Kodansha International, 1996.

Tetsuo, Najita. *Visions of Virtue in Tokugawa Japan: The Kaitokudo Merchant Academy of Osaka*. Chicago, IL: Chicago University Press, 1987.

Thomas, J. E. *Modern Japan: A Social History Since 1868*. London: Longman, 1996.

Toby, Ronald P. *State and Diplomacy in Early Modern Japan*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1991.

Tottman, Conrad. *The Collapse of the Tokugawa Bakufu, 1862-1866*. Hawaii: University Press of Hawaii, 1980.

______ . *Early Modern Japan*. Berkeley, CA: University of California Press, 1993.

______ . *Politics in the Tokugawa Bakufu, 1600-1843*. Berkeley, CA: University of California Press, 1988.

Thunberg, Karles Peter. *Travels in Europe, Africa, and Asia, Made between the Years 1770 and 1779*. 3rd ed. London: Printed for F. and C. Rivington, 1795-1796. 4 vols.

Tsunda, Ryusaku (ed.). *Sources of Japanese Tradition*. New York: Columbia University Press, [1964]. 2 vols.

Umesao, Tadao. *The Roots of Modern Japan*. Tokyo: The Japan Forum, 1990.

______ (ed.). *Seventy-Seven Keys to the Civilization of Japan*. Osaka: Sogensha Inc., 1985.

Vaporis, Constantine Nomikos. *Breaking Barriers, Travel and the State in Early Modern Japan*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994.

Vlastos, Stephen. *Peasant Protests and Uprisings in Tokugawa Japan*. Berkeley, CA: University of California Press, 1990.

Wada, Teijun. *American Foreign Policy Toward Japan during the Nineteenth Century*. Tokyo: Toyo Bunko, 1928.

Weber, Max. *Economy and Society : An Outline of Interpretive Sociology*. Edited by Guenther Roth and Claus Wittich; Translated by Ephraim Fischoff [et al.]. Berkeley, CA: University of California Press, 1978. 2 vols.

Webb, Herschel. *The Japanese Imperial Institution in the Tokugawa Period*. New York: Columbia University, 1968.

Wigmore, John Henry (ed.). *Law and Justice in Tokugawa Japan: Materials for the History of Japanese Law and Justice under the Tokugawa Shogunate, 1603-1867*. Tokyo: Kokusai Bunka Shinkokai, 1969. 9 vols. in 19.

White, James W. *Ikki: Social Conflict and Political Protest in Early Modern Japan*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1995.

Wittfogel, Karl August. *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power*. New York: Vintage Books 1981.

Yahami, Akira [et al.] (eds.). *The Economic History of Japan: 1600-1990*. Oxford: Oxford University Press, 2004. 3 vols.

vol. 1: *Emergence of Economic Society in Japan, 1600-1859*.

Yoshiro, Kojima. *Kenkyusha's Lighthouse Japanese-English Dictionary*. Tokyo: Kenkyusha, 1984.

Periodicals

Bailey, Beatrice Bodart. «The Laws of Compassion.» *Monumenta Nipponica*: vol. 40, no. 2, Summer 1985.

Beasley, William G. «Feudal Revenue in Japan at the Time of the Meiji Restoration.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 19, no. 3, May 1960.

Birt, Michael P. «Samurai in Passage: The Transformation of the Sixteenth-Century Kanto.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 11, no. 2, Summer 1985.

Butler, Lee A. «Tokugawa Ieyasu's Regulations for the Court: A Reappraisal.» *Harvard Journal of Asiatic Studies*: vol. 45, no. 2, December 1994.

Cartier, Michel. «Des Inventions Capitales.» *Historia*: no. 22, mars-avril 1993.

Chong-do, Hah and C. Lapp Christopher. «Japanese Politics of Equality: The Case of the Burakumin.» *Asian Survey*: vol. 18, no. 5, May 1978.

Constantine, Vaporis. «To Edo and Back: Alternate Attendance and Japanese Culture in Early Modern Period.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 23, no. 1, Winter 1997.

Crawcour, Sydney. «The Tokugawa Period and Japan's Preparation for Modern Economic Growth.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 1, no. 1, Autumn 1974.

Derry, Mary Elizabeth. «Public Peace and Private Attachment: The Goals and Conduct in Early Modern Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 12, no. 2, Summer 1986.

Fessler, Susanna. «The Nature of the Kami.» *Ueda Akinari and Tandai Shoshin Roku*: vol. 51, no. 1, Spring 1996.

Hall, John Whitney. «Rule by Status in Tokugawa Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 1, no. 1, Autumn 1974.

Hall, Robert Burnett. «The Cities of Japan: Notes on Distributions and Inherited Form.» *Annals of the Association of American Geographers*: vol. 24, no. 4, December 1934.

______ .«Tokaido: Road and Region.» *Geographical Review*: vol. 27, no. 3, July 1937.

Haruku, Wakita. «Marriage and Property in Premodern Japan from the Perspective of Women's History.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 10, no. 1, Winter, 1984.

Hisao, Nagayama. «La Longévité est au fond du bol.» *Nipponia*: no. 29, 2004.

Journal of Japanese Studies: vol. 17, no. 1, Winter 1991.

Keiji, Nagahara. «The Medieval Origins of the Eta-Hinin.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 5, no. 2, Summer 1979.

______ . «Shaping the Process of Unification: Technological Progress in Sixteenth and Seventeenth Century Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 14, no. 1, Winter 1988.

______ and Kozo Yamamura. «Reflections on Recent Trends in Japanese Historiography.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 10, no. 1, Winter 1984.

Kito, Hiroshi. «Expectations of a Low Birth Society: From the Perspective of Historical Demography.» *Japan Medical Association Journal*: vol. 45, no. 1, January 2002.

Keirstead, Thomas. «The Theater of Protest: Petitions, Oaths, and Rebellion in the Shoen.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 16, no. 2, Summer 1990.

Mass, Jeffrey P. «Patterns of Inheritance in Late Heian Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 9, no. 1, Winter 1983.

Miller, Roy Andrew. «Symposium: Japanese Origins: Introduction.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 2, no. 2, Summer 1976.

Murakami, Yamamura. «Le Society as a Pattern of Civilization: Introduction.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 10, no. 2, Summer 1984.

Murphey, Rhoads. «The City as a Center of Change: Western Europe and China.» *Annals of the Association of American Geographers*: vol. 44, no. 4, December 1954.

Osamu, Wakita. «The Kokudaka System: A Device of Unification.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 1, no. 2, Spring 1975.

Rozman, Gelbert. «Edo's Importance in the Changing Tokugawa Society.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 1, no. 1, Autumn 1974.

Sakai, Robert K. «The Satsuma-Ryukyu Trade and the Tokugawa Seclusion Policy.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 23, no. 3, May 1964.

Sippel, Patricia. «Popular Protest in Early Modern Japan: The Bushu Outburst.» *Harvard Journal of Asiatic Studies*: vol. 37, no. 2, December 1977.

Shively, Donald H. «Chikamatsu's Satire on the Dog Shogun.» *Harvard Journal of Asiatic Studies*: vol. 18, nos. 1-2, June 1955.

______ . «Sumptuary and Status in Early Tokugawa Japan.» *Harvard Journal of Asiatic Studies*: vol. 25, 1964-1965.

Toby, Ronald P. «Reopening of the Question of Sakoku: Diplomacy in the Legitimation of the Tokugawa Bakufu.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 3, no. 2, Summer 1977.

Wakabayashi, Bobt. «In the Name Only: Imperial Sovereignty in Early Modern Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 17, no. 1, Winter 1991.

Walthall, Anne. «Narrative Peasant Uprising in Japan.» *Journal of Asian Studies*: vol. 42, no. 3, May 1983.

White, James W. «State Growth and Popular Protest in Tokugawa Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 14, no. 1, Winter 1988.

Yamamura, Kazo. «Le Society as a Pattern of Civilization: Introduction.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 10, no. 2, Summer 1984.

_______ and Nagahara Keijii. «Shaping the Process of Unification: Technological Progress in Sixteenth and Seventeenth Century Japan.» *Journal of Japanese Studies*: vol. 14, no. 1, Winter 1988.

Conferences

Confucianism and Tokugawa Culture. Edited by Peter Nosco. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984.

Japan before Tokugawa: Political Consolidation and Economic Growth, 1500-1650. Edited by John Whitney Hall, Nagahara Keiji, and Kozo Yamamura. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981.

فهـــرس

- ب -

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- غ -

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ن -

- ي -